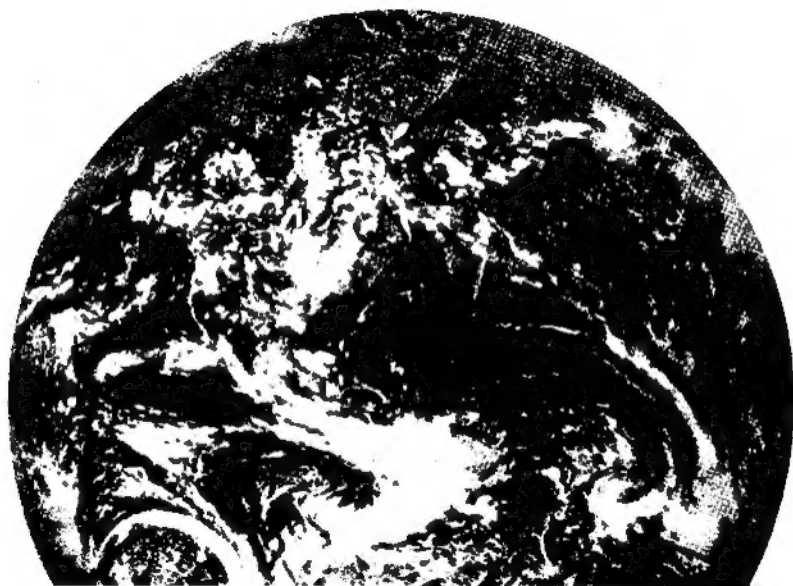


الدكتور حسين مؤنس

# عالم الإسلام

الزعماء الأعلام الخمسة



## مقدمة

دارت في ذهني — منذ سنوات طويلة — فكرة إنشاء كتاب عن التاريخ الاجتماعي للأمة الإسلامية أنحو فيه نحو جورج ماركولي تريفيان في كتابه المعروف « التاريخ الاجتماعي الإنجليزى » ، وقضيت سنوات بعد ذلك أجمع المادة وأنظر إن كان من الممكن حقاً أن يكتب هذا التاريخ الاجتماعي بصورة تقرب من الشكل والمسوى اللذين طلبتهما .

ولكننى وجدت أن الأمر بالغ العسر ، لأن مراجعنا شحيحة جداً بالمادة عن أحوال المجتمع الإسلامى وتطوره ، فإن كتب التاريخ العادية لا تقدم لنا إلا لغات غير دقيقة عن حياة الناس . وإنك لتقرأ المجلد الكامل من « تاريخ الرسل والملوك » لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فلا تظفر منه إلا بشئور لا تتناسب مع الجهد المبذول في القراءة وتسجيل الملاحظات وتحرير البطاقات . فوجهت همى نحو كتب الأدب كـ « الأغاني » لأبى الفرج الأصفهائى ، و « الكامل » لأبى العباس أحمد الميرد ، و « العقد الفريد » لأحمد بن محمد بن عبد ربه ، ومؤلفات الجاحظ الكثيرة التى تعتبر من أغنى ما كتب العرب بالمادة النافعة عن التاريخ الحضارى والاجتماعى الإسلامى ، وكذلك كتابات أبى عبد الله ابن المقفع — ولم يتفرغ أحد إلى اليوم لاستخراج المادة التاريخية فيها — وغيرها كثير .

## مقدمة

دارت في ذهني — منذ سنوات طويلة — فكرة إنشاء كتاب عن التاريخ الاجتماعي للأمة الإسلامية أنحو فيه نحو جورج ماكوني تريفليان في كتابه المعروف « التاريخ الاجتماعي الإنجليزى » ، وقضيت سنوات بعد ذلك أجمع المادة وأنظر إن كان من الممكن حقاً أن يكتب هذا التاريخ الاجتماعي بصورة تقرب من الشكل والمستوى اللذين طلبتهما .

ولكننى وجدت أن الأمر بالغ العسر ، لأن مراجعنا شحيحة جداً بالمادة عن أحوال المجتمع الإسلامى وتطوره ، فإن كتب التاريخ العادية لا تقدم لنا إلا لغات غير دقيقة عن حياة الناس . وإنك لتقرأ المجلد الكامل من « تاريخ الرسل والملوك » لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فلا تظفر منه إلا بشذور لا تتناسب مع الجهد المبذول في القراءة وتسجيل الملاحظات وتخريج البطاقات . فوجهت همى نحو كتب الأدب كـ « الأغاني » لأبى الفرج الأصفهائى ، و « الكامل » لأبى العباس أحمد الميرد ، و « العقد الفريد » لأحمد بن محمد بن عبد ربه ، ومؤلفات الجاحظ الكثيرة التى تعبر من أغنى ما كتب العرب بالمادة النافعة عن التاريخ الحضارى والاجتماعى الإسلامى ، وكذلك كتابات أبى عبد الله ابن المقفع — ولم يتفرغ أحد إلى اليوم لاستخراج المادة التاريخية فيها — وغيرها كثير .

واتسع في المجال بعد ذلك ، فقرأت — في سعة — كتب الرحالين والجغرافيين ومؤلفات الحسبة وكتب الفقه والنوازل والفتاوى ، والمؤلفات المتخصصة في التجارة وأنواع الصناعات وشئون المعاش مثل : كتب النباتين والعشابين ومؤلفات الطب والصيدلة والجبل والفلك وكتب الأحكام والنظم وما إلى ذلك كله ، ثم عكفت على الوثائق الأصلية من عقود زواج ووصفيات ووثائق بيع وشراء ورهن وإيجار وما إلى ذلك ، وهي — على قلتها عندنا — تعد ذخراً من ذخائر المكتبة العربية . وقرأت كثيراً في كتب التراجم ، وهي في الحقيقة من أهم المصادر لدينا عن الحياة الاجتماعية .

ووجدت — آخر الأمر — أنه من العسير إنشاء كتاب واحد عن التاريخ الاجتماعي الإسلامي العام ، لأن بلاد المسلمين قد تشابه في مظاهر الحضارة العامة مثل هيئة المدن ونظامها وحكومتها وأنواع النسيج المستعملة ومستويات العلوم والآداب والصناعات والفنون ، ولكن لكل منها — إلى جانب ذلك — مجتمعه الخاص به الذي شكل وتكون وتطور في ظروفه الجغرافية والتاريخية والسياسية ؛ وإذا كان الدمشقي يشعر عندما ينتقل إلى القاهرة بأنه يعيش في نفس الجو الحضاري إلا أنه يشعر أيضاً — دون شك — بأنه في مجتمع غريب عليه ، ف نظام البيوت وأنواع المطاعم والملابس والعادات والتقاليد تختلف ، بل إن اللهجة العربية التي يسمعها تبدو له أول الأمر غريبة على أذنه ، ولا بد من وقت طويل حتى يندمج في مجتمعه الجديد ، ولن يم له ذلك إلا إذا تخلل عن عاداته الأولى وأخذ بما يجرى الناس عليه في المجتمع الجديد .

وإذن فلا سبيل لكتابة هذا التاريخ الاجتماعي إلا إذا ألف مؤلف خاص لكل بلد إسلامي على حدة .

وأحب أن أنه هنا إلى أنني أتكلم عن التاريخ الاجتماعي لا الحضاري ، فإن حضارة الشعوب الإسلامية متقاربة وقد ألف فيها الكثيرون كتباً



جيدة ، ولكن النظم الاجتماعية وأساليب الحياة وأحكامها ومستوياتها تختلف من بلد لبلد بل من ناحية لناعية في البلد الواحد .

ولكنى رأيت — بعد ذلك — أن هناك ظواهر اجتماعية مشتركة بين بلاد المسلمين جميعاً : مثل غلو هذه المجتمعات من الطبقات الاجتماعية وفكرتها ، والانفصال بين الدولة والجماعة ، ومثانة بناء الأسرة ، والولع بالحياة في المدن وإهمال الأرياف ، والاهتمام بالعلم وتوقير العلماء واعتبارهم السادة الحقيقيين للجماهير ، وقلة المنشآت السياسية والإدارية والاجتماعية واتجاه الحكومات — على طول العصور الوسطى — إلى إضعافها ووضع يدها عليها .

والمنشأة السياسية أو الاجتماعية أو الإدارية تقابل ما يعرف باسم Institution في اللغات الأوروبية ، ولم نشأ أن نسميها مؤسسة — كما يقال أحياناً — لأن المؤسسة أخذت في أيامنا هذه معنى لا صلة لها بمصطلح institution الغربى — فالقضاء والحسبة والمظالم والإنشاء والجيش لا يمكن أن تسمى مؤسسات ، وإنما هي في الحقيقة منشآت أو ركائز يقوم عليها البناء السيامى والاجتماعى للجماعة ، ولهذا أسميناها بهذا الاسم ثم وصفناها بعد ذلك ؛ فالقضاء منشأة تشريعية ، والحسبة منشأة إدارية وكذلك المظالم ، والجيش منشأة عسكرية ، والتعليم منشأة ثقافية ، وهكذا .

وبينا قام التنظيم الغربى كله منذ العصور الوسطى على المنشآت ، فإن مجتمعا الإسلامى لم يقم فيه إلا القليل منها ، ولم يقم إلا القليل من المنشآت السياسية أو الاجتماعية أو الإدارية وبخاصة في المدن والأرياف والحرف والصناعات وما إلى ذلك ، وهذا القليل مع ذلك لم يكن مضبوطاً مقنناً في أحكام .

ولهذا فقد اجتهدت حتى جمعت الظواهر الاجتماعية العامة التى تشترك فيها كل المجتمعات الإسلامية خلال العصور الوسطى ، ووجدت بعد ذلك

أنها تصلح لأن تجمع في صعيد واحد وتعد مقدمة للتاريخ الاجتماعي لبلاد الإسلام .

\* \* \*

وعندما انضمت إلى هيئة التدريس في كلية الآداب بجامعة الكويت بدأت أرسم منهج الكتاب ، وإذا أنا في ذلك طرأت فكرة تطوير مادة الثقافة الإسلامية التي تدرس لطلاب الجامعة ، وإضافة جانب من التاريخ الحضارى الإسلامى إلى ما كان يدرس من مواد الفقه والشريعة ، وكان صاحب هذه الفكرة هو السيد الأستاذ الدكتور عبد الفتاح إسماعيل مدير الجامعة إذ ذاك ، فعهد إلى وضع منهج مناسب لهذا الجانب الحضارى ، فوضعه وقمت بتدريسه ، ومضيت أدخل عليه التعديلات بعد ذلك سنة بعد سنة ، حتى انتهى إلى الصورة التي يراها القارئ بين دفتي هذا الكتاب .

ولابد أن أنهى إلى أن الخصائص الاجتماعية التي أتحدث عنها في هذا الكتاب ليست كل ما يميز المجتمعات الإسلامية عن غيرها ، وإنما هي أهمها في نظرى وأكثرها دلالة على الشخصية الخاصة للمجتمعات الإسلامية ، وهناك خصائص وملاح أخرى ولكنها لا ترتبط بهذا الارتباط الوثيق بطبيعة الإسلام وجماعته ، ولهذا تركتها جانباً ، لا لأنى لا أقدر أهميتها ، بل لأنه كان لابد من مراعاة الاختصار في مثل هذا الكتاب ، فهو — في الحقيقة — مقدمة أو مدخل لتاريخ اجتماعى إسلامى ، وهو مؤلف رائد في هذا الموضوع لابد أن يراعى فيه الاختصار على الأهم دون المهم ، حتى إذا تداول الناس الكتاب وأبدوا آراءهم استطعنا أن نعيد كتابته على صورة أفضل وأكمل .

وقد رأيت — قبل أن أدخل في تحليل بناء المجتمع الإسلامى وتبيان ملامحه المميزة — أن أعرف القارئ في إيجاز بعالم الإسلام ، فبدأت الكتاب بفصل عن ذلك العالم ، درست فيه قيام الجماعة الإسلامية ، ثم أوجزت الكلام عن اتساع رقعتها ونموها حتى وصلت إلى الصورة التي هي عليها اليوم ، أى أننى درست في ذلك الفصل الأول تكوين عالم

الإسلام رأساً ثم أفقياً ، وكل ذلك على وجه من الإنجاز شديد .



ورأيت أن ألق بعد ذلك وقفة طويلة عند قيام الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة المنورة على يد الرسول ، صلوات الله عليه ، واخصصت الصحيفة — أو الكتاب الذي كتبه الرسول بين أعضاء الجماعة من مهاجرين وأنصار ومن حالفهم وارتبط بهم من اليهود ، وأعتقد أن هذه هي أول مرة تدرس فيها هذه الوثيقة في اللغة العربية على هذا النحو . وقد بينت بعد ذلك خصائص هذه الجماعة الإسلامية الأولى لأن هذه الخصائص تحدد في رأي الخصائص التي كان ينبغي أن تتوافر في كل جماعة إسلامية بعدها .

وبعد ذلك تأتي بقية فصول الكتاب على النحو الذي يجده القارئ مبسوطاً في صفحاته .

\* \* \*

وبعد ، فهذه محاولة رائدة في ميدان التاريخ الإسلامي ..  
وهي — كمحاولة رائدة — تحمل النقص ومواضع الخطأ أكثر مما يتعرض له مؤلف تقليدي في التاريخ السياسي .  
وقد أنفقت وقتاً طويلاً وجهداً شاقاً في تكييف الموضوع ولم أظرفه وجمع مادته ، فأرجو أن يكون ذلك الجهد شافعاً لما عسى أن أكون قد سهوت عنه أو أعطأت فيه .

والعلم — في حقيقته — تجديد أو بحث عن الجديد ، وأظن أنني قدمت في هذا الكتاب جديداً عن عالم يحسب كثير من الناس ألا جديد فيه .

والحمد لله في المتدا والخير ، نسأله الهداية والتوفيق وصواب الرأي وسداد النظر .

حسين مؤنس

القاهرة في يناير ١٩٧٣ م

الفصل الأول  
الإسلام والمسلمون  
فد التاريخ







عندما أتفكر في حقائق الإسلام — عقيدة — وشريعة ومكارم أخلاق — وأنظر في خريطة الدنيا يملكني العجب لقلة نصيب الإسلام من أهل هذا الكوكب بالمقارنة إلى غيره من العقائد حتى تلك التي لا يمكن النظر إليها إلا على أنها مجموعة نصائح وقواعد أخلاقية مثل البوذية ، وبخاصة الشامانية ، وهي أوسع مذاهب البوذية انتشاراً وكان ينبغي — إذا كانت أمور البشر تسير على المنطق — أن يكون أهل الأرض كافة مسلمين .

ذلك أن الله سبحانه جمع في هذا الدين من الفضائل المؤدية إلى صلاح الإنسانية وسعادتها في الدنيا والآخرة ما لا نجد شيئاً قريباً منه في كل عقائد البشر — السماوية منها وغير السماوية — كما سنرى ذلك بالبرهان القاطع بعد قليل .

وقد بينا في أحد فصول « أطلس تاريخ الإسلام » أن الله عندما نزل الإسلام على رسوله ( صلوات الله عليه ) أن الأرض لم يكن فيها من النصارى واليهود إلا نحو ثمانين مليوناً من الأنفس منتشرين في أوروبا وجزء ضئيل من شرق آسيا ومصر وشريط من الساحل الشمالي للمغرب وبعض نواح من النوبة ثم دواخل الحبشة لا سواحلها . وحتى هؤلاء كانوا منقسمين شيعة وأحزاباً ومذاهب ، فاليهودية كانت قد تحولت إلى عقيدة سرية مغلقة على أصحابها مبعة في نواحي العمورة منذ هدم الإمبراطور تيتس معبدهم ( معبد سليمان ) في القدس سنة ٧٠ بعد الميلاد . وحتى هؤلاء كانوا متفرقين بين القرائية والصدوقية وكانت التوراة قد نسيت وضاعت ومضى أحبار اليهود يجمعون أشنتاتها . وأما المسيحية فكانت مفرقة بين مذاهب الأرمنية والأثوسية ( التي ولدت في مجمع أفسوس الثاني سنة ٣٢٥ ) وهذه كانت مبعة في مذاهب اليعاقبة والنساطرة والملكانيين ، ثم الكاثوليكية التي ولدت في مجمع خلقيدونية الذي انعقد سنة ٤٥١ م . وفي هذا المجمع المسكوني — نسبة إلى المسكونة

وهى الأرض (ومعناه العالمى) — طرد أقباط مصر وأصبحوا أصحاب مسيحية خاصة بهم . وفيه أيضاً وقع الخلاف الخامس بين مذاهب المسيحية الشرقية التى عرفت فى مجموعها بمذاهب الأرثوذكسية أى القديمة ، ومذهب المسيحية الغربية التى سميت بالكاثوليكية أى العالمية . وقد قامت هذه الكاثوليكية على ما رسمه « بولس » الرسول وتسمى فى الإنجليزى بالمسيحية البولسية وبولس — ذلك الرجل المغيث النشط الحارق الذكاء هو الذى صاغ المسيحية المنتشرة الآن فى الأرض ، بما فى ذلك البروتستنتية بمذاهبها المتعددة ، وهى فى ذاتها كانت ثورة على بولس وآرائه وعودته إلى المسيحية كما هى فى الأنابيل وبعض أسفار العهد القديم ، ولكنها لم تتخلص من أثر بولس وبعض آرائه مثل القول بالثالوث وتأليه السيدة العذراء مريم والقول بالمعجزات والكرامات والخضوع المطلق للبابوات والقول بأن المسيح قبل موته قال إن بطرس خليفته والإيمان بأن المسيح هو الذى أرسل الخوارى بطرس إلى روما ليشيئ فيها كنيسة وبطرس هو أول البابوات ، والبابوات يزعمون أنهم ورثة الأرض عن المسيح عيسى بن مريم ، وعلى هذا الأساس أصبح البابوات ملوكاً على الأرض يحيط بهم أمراء الكنيسة وهم الكرادلة ( والاسم لاتينى معناه الأقطاب ) وتحت الأقطاب يجيء أمراء النواحي وهم الأساقفة باللاتينية ثم القساوسة ثم الرعاة .

وعندما جاء الإسلام كانت المسيحية لا تزال فى عصر التكوين ، وكل شيء فيها كان مبهماً وغامضاً ، ولكنها كانت أملاً فى السعادة والخلاص من الظلم فى نظر أتباعها فى عصور سادها الظلم والقلق والأحطار والأمراض والمجاعات ونجاحها فى العصور التالية قام على جهود البابوات ورجالهم ونفر من كبار القساوسة الزهاد الذين رفعتهم الكنيسة الكاثوليكية إلى مراتب القديسين ، وما زالت البابوية إلى اليوم ترفع من ترى إلى مقام القدسية قائلة : « إن الله أعطاها هذا الحق » . وفى عصرنا هذا كتب كبار اللاهوتيين المسيحيين وهو كارل بارت البروتستنتى نحو عشرة مجلدات فى حقيقة المسيحية قال فى حتامها : « وبعد .. فإن السيد المسيح رمز للأمل والأمل فى حياة أخرى بعد الموت وكتبنا المقدسة صاغها البشر على أساس ذلك الأمل ، فمن أسعده الحظ بالإيمان بذلك الأمل أمكن أن يكون مسيحياً ، وأنا شخصياً لا أومن بفداسة أحد ممن سمعهم آباء الكنيسة وبخاصة بولس وبطرس وأمبروريوس وأوغسطين . والمسيحية — كما قلت مراراً فى هذا الكتاب أمل فى الخير وسعادة الآخرة

يعتبه الله في القلوب ولا مكان لها لقديسين أو بابوات . لأن البابا ملك في ثياب ملك ويجلس على عرش ملك . وأما القديسون فملوك في ثياب متسولين يجلسون على عروش من ذهب .

\* \* \*

وقد استطردت هنا بعض الشيء في كلامي عن المسيحية حتى أعرف إحوال المسلمين بها وبمذاهبها وأصولها على وجه الإنجاز ، وأرجو ألا يكون قد صدر عني في هذا السياق ما يمس شعور يهودي أو مسيحي ، فنحن المسلمين مأمورون في قرآننا وحديث سيدنا ﷺ بالآسئ إلى أحد ، وحتى إذا دعونا إلى ديننا كان ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس لنا في ديننا إلا أن نعتظ وندعو لأن الهدى لا يأتي إلا من الله لمن يشاء .

فإذا نحن جئنا إلى الإسلام وجدناه ديناً حقاً ولد تحت شمس التاريخ المحقق . فبينما نحن لا نعرف من حياة عيسى بن مريم — على التحقيق — إلا شهرين أو أسبوعين فإن حياة محمد ( صلوات الله عليه ) معروفة محققة يوماً بعد يوم ، وقرآننا الذي أرسله الله على رسوله محقق آية بعد آية ، وعقيدة الإسلام وشريعته ومكارم أخلاقه واردة في القرآن بوصح ناصح مرة بعد أخرى « مطبقة في حياة نبينا الذي نعتبر حياته كلها سنة » . والسنة — لغة — هي الطريق أو الطريقة ، وسنة رسول الله ( صلوات الله عليه ) هي طريق الإسلام ، وخلق رسول الله — الذي ينبغي أن يكون خلق كل مسلم هو القرآن كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها .

ومن ثم فقد كان ينبغي أن يعم الإسلام طباق الأرض ويشمل جميع أجناس البشر حتى يكون الدين كله لله ، لأنه فعلاً دين حق لا شك في صلوره عن الله ، وهو بالفعل دين قائم أى خالد ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه عنه في القرآن :

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ التوبة : ٣٦ .

فإذا كان الإسلام — وهو دين الله حقاً — لم يعم طباق الأرض ولم يدخل فيه البشر كافة فإن المسئولية في ذلك تقع علينا نحن المسلمين ، فقد بعثه الله فينا ونحن أمته ، وكان علينا أن نعمل في جهد خالص لنعم بركاته الدنيا . ومن هنا فلا شك

في أن أجيالنا السابقة قصرت في حمل رسالة الإسلام ، لأن أجيال المسلمين الأولى عندما صدقت العزم في ذلك دخل نصف أهل الأرض في دين الله في قرن واحد من الرمان ، ثم تراجيحاً وقصرنا فيما اجتهد الآخرون في نشر أديانهم فكان ما ترى من انحسار المذ الإسلامي ، والمثال الين على ذلك هو ما تراه الآن في قارة أفريقيا ، فهي اليوم ميدان الصراع المفتوح بين الإسلام والنصرانية ، وما أنت ترى كيف يدمرون معركتهم . والدول الجديدة المسيحية في هذه القارة لا تكنفى بنشر دينها في بلادها بل هي تحارب الإسلام وتعمل على الحد من انتشاره مستعينة في ذلك بكل سلاح حتى بالشيوعية كما ترى ، تحاربه الحبشة التي تزعم أنها شيوعية وهي في الصميم من المسيحية ، وقد ساعدتها أوروبا وأعطتها آريتريا العربية المسلمة ونصرتها على الصومال ، ونحن وأهل الصومال وآريتريا مقصرون في حق الإسلام ، ولو صدقت عزيمتنا لارتد المذ النصراني وعاد الإسلام إلى الظهور على كل دين سواه في وادي النيل وبلاد القرن الأفريقي .

وأنا أقول هذا الكلام عتياً على إخواني المسلمين وسعياً وراء ما فيه خير البشر ، ونحن نسمع بعضاً يؤلف كتباً فيمس يسميهم أعداء الإسلام . والحق أن الإسلام دين ليس له أعداء ولا يمكن — بداهة — أن يكون له أعداء . وإنما أعداء الإسلام حقاً هم المسلمون الذين يقصرون في حق الإسلام ، ولقد قرأت معظم ما كتب في لغات الأرض حملة على الإسلام ، فما وجدت في واحد منها حملة جدية على عقيدة الإسلام أو شريعته ، وإنما الحملة في الغالب على المسلمين . وإذا أردت برهاناً على ذلك فاقرأ في ذلك الكتاب القيم الذي نشرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج بعنوان « مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية » ( جزءان : الرياض ١٩٨٥ ) لتري بنفسك أن كل هجوم المستشرقين كان موجهاً إلى المسلمين لا إلى الإسلام ، فإذا كان هناك هجوم على الإسلام أو القرآن أو الرسول فإن مرد ذلك إلى الجهل بذلك كله . ونستتي من ذلك بعض الكارهين للإسلام حقاً الحاقدين على رسوله من أمثال الأب هنري لامانس والمستشرق أجناس جولدنزيهر واليهودي مرجوليوت .

ولا أقول ذلك توهيناً لحماس المسلمين في نشر دينهم ، بل أقوله لأن الأمل في عودة الإسلام إلى النصر والتدفق مازال باقياً معقوداً بتواصينا ، وكل ما مضى من

عمر الإسلام أربعة عشر قرناً ، وبقيت من عمر الرمان إلى أن يطوى الله الأرض ومن عليها ملايين السنين . فلو أننا فتحنا عيوننا ونفصنا عاً تراب الكسل لعاد الإسلام إلى الطمر وبخاصة أن أديان البشر الأخرى كلها في ضعف وتفكك . ولم يبق من الأديان ثابتاً متماسكاً إلا الإسلام والحمد لله رب العالمين .

\* \* \*

ولكى أعطيك مثالا عن تميز الإسلام على غيره من الأديان فلننظر إلى قصة خلق الله لآدم وما شمله به الله من الرحمة والنعمة فلتقارن بين القصة كما نروجها الكتب السماوية الأخرى وكما نراها في القرآن .

وإذا كانت الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم تعتبر البقية الباقية التي يعتمد عليها من نص التوراة فليطهر إلى الحكاية كما ترد فيها ، وهي هاك مروية في السفر الأول وهو سفر التكوين بأجزائه الثلاثة .

هنا نجد القصة مبهمة جداً ومتناقضة وبخاصة فيما يرد في الجزء الثاني من سفر التكوين وما يرد في جزئه الثالث . وأنت عندما تقرأ هذا السفر تشعر دائماً بأنك تقرأ قصة أسطورية بلا مغزى أو معنى رفيع ، فليس هاك لعظ خاص للدلالة على الإنسان كجس قائم بذاته ، بل إن آدم نفسه هو الإنسان ، والقصة تقول إن آدم كان يعيش في ناحية من الحمة تسمى « عدن Eden » ، ونحن نشعر دائماً بأن « عدن » هذه مكان على الأرض غير محدد . وفي سفر التكوين نجد علاقة بين خطيئة آدم وإحراجه من الحمة عقاباً له على هذه الخطيئة وما تقوله تفاسير الأنجيل ( وهي القسم الثاني من الكتاب المقدس المسيحي الذي يسمى بالإنجيل باللاتينية ) عن علاقة بين خطيئة آدم وخلق الله سبحانه لميسى بن مريم .

بل إن الإشارة إلى أن موت عيسى على أيدي اليهود كان معناه أن الله قد خلص الإنسان من خطيئته بتحمّل العذاب على الصليب وأن الله بذلك قد خلص البشر بنفسه . وهذا المسمى لانجده إلا في سطرين من إنجيل لوقا ومرقص ، ولكسا ، نجد الإشارة إلى ذلك في رسائل بولس كثيرة .

وبولس هو الذي ربط في رسائله إلى الجماعات المسيحية في روما كورنثس بين خطيئة آدم وموت عيسى على الصليب كما يرمعون . وهذا الرجل هو الذي أنشأ

بالفعل عقيدة الخلاص وقال إن آدم نزل على الأرض ملعونا ، وإن اللمة لزمته ولزمت أبنائه أجمعين حتى أراد الله أن يخلصه من اللمة فقرر أن يعالج خطيئة آدم بأن يهبط إلى الأرض في صورة عيسى بن مريم ويتخذ جسدا من لحم ودم ، ولما قبض عليه اليهود وحاكموه وسلبوه وسال دمه كان في ذلك خلاص أبنائه آدم من خطيئة أبيهم ، وإن كل إنسان يريد تخلص نفسه من خطيئته ولمة الله إياه لابد أن يؤمن بالمسيح ، ودخول المسيحية يكون بالتمميد أو العماد ، والتمميد يكون على يد رجل من رجال الكنيسة ، فتحمله أمه عقب ميلاده إلى الكنيسة حيث ينثر عليه القس شيئا من ماء التعميد المقدس ، وبدون هذا يظل الإنسان ملعونا . فإذا بلغ الطفل التاسعة أو العاشرة من عمره كان عليه أن يعلن انضمامه إلى الجماعة المسيحية ( وهي الكنيسة أو الأيكليزيا ) ويكون ذلك على يد القس أيضا فيذهب الصبي مع أبيه حيث يتم تثنيته في المسيحية بأن يأكل قطعة من الخبز يصمها القس في فمه ، وقطعة الخبز ترمز هنا إلى جسد المسيح القليل ، وهو عظم الله ذاته ، ويشرب شيئا من البيذ من كأس يواوله القس إياها ، وهي ها رمز على دم السيد المسيح . فإذا فعل الصبي ذلك فقد أدى ما يسمى بالتثني و صار ذلك عضوا في جماعة المسيحيين الذين حلصوا من خطيئة آدم عندما أكلوا لحمة وشربوا دمه الذي رمزوا إليه بالبيذ ، ولا خلاص لأحد من البشر من اللمة إلا بدخول الجماعة المسيحية على يد القس على الصورة التي ذكرناها .

وبولس كان رجلا ذا شخصية طاغية وعقلية جبارة ، وقد صنع ذلك كله لكي يفصل المسيحية عن اليهودية فصلا تاما حاسما لأن المسيحيين قبل بولس كانوا يهودا يتبعون نبيا من أنبياء بني إسرائيل يسمى عيسى أو يسوع فقتله أبحار اليهود في زعمهم لأنه كان مصلحا دينيا واجتماعيا . وقد هاجم أبحار اليهود وهدد سيادتهم ودعا الناس إلى اتباعه . وفي رأى بولس أن السيد المسيح عيسى بن مريم تبع في ذلك نبيا آخر من أنبياء بني إسرائيل هو يحيى أو يوحنا اشق على جماعة اليهود الفاسدة وخرج إلى أرض الجليل ، ودعا اليهود إلى التخلص من فسادهم ، فبعه ناس كثيرون منهم عيسى نفسه ، وكان يوحنا يسير في الأرض داعيا بني إسرائيل إلى التخلص من فسادهم باتباعه ويرمز إلى ذلك بالمسح على رؤوسهم بالماء ، ومات يوحنا المعمد أو المعمدان هذا في حادثة مشهورة بأمر من هيرودس الملك إرضاء لسالومي ابنة

زوجته فصار عيسى رأس الجماعة الجديدة وقرر اقتحام بيت المقدس والوعظ في معبد سليمان . وهناك قبض عليه اليهود وحاكموه وصلبوه فيما زعموا ، وهذا ما ذهب إليه بولس وقبل بولس لم يكن هناك شيء اسمه المسيحية .

وبعد بولس نشأت الأسطورة وانتشرت . وكان بولس رجلاً عنيفاً قاسياً غضب على الحوارى مرقس فانفصل هذا عنه وذهب إلى مصر حيث كتب إنجيله باللاتينية ، وغضب بولس على الحوارى برنابا فتركه هذا ولزم البرية وكتب إنجيله الذي هاجم فيه بولس وبطرس هجومًا عنيفاً ، وكانت الأناجيل كثيرة ولكن المجمع الكسبة المسكونية استبعدتها فيما عدا أربعة هي أنجيل متى ويوحنا ( وهو غير يوحنا المعمدان ) ومرقس وبولس ، وكان من أول الأناجيل التي استبعدت واعتبرت زيوغاً إنجيل برنابا ولقط إنجيل لاثيني ومعناه البشارة أو البشرى .

\* \* \*

وهذه هي حكاية آدم عند بنى إسرائيل وحكاية آدم وعيسى عند المسيحيين فلننظر الآن إلى تاريخ آدم وخلقه كما يرد في القرآن الكريم لكي يتضح لك جانب من وجوه الحق في القرآن والإسلام .

\* \* \*

فإذا نحن انتقلنا إلى قصة خلق آدم وزوجه وعلاقتها بالخالق سبحانه وما كان من إبليس كبير الشياطين وتحميه للإنسان — لا لله سبحانه — وجدنا القصة محكية في القرآن الكريم ببلاغ ناصح وصدق باهر وتأسق جميل يدل بالفعل على صدورها عن الله سبحانه خالق الكون وخالق القرآن ، وإذا كانوا يقولون إن الأدب الأمازي مؤلفجائج جيته قد ارتفع إلى مراتب أعلام الأدهاء بصياغته لهذه القصة على أبدع مثال وفلسفته إياها على نحو يصل إلى قمة الإبداع الفني في رواية فاوست ، فسرى أن جيته قد أخذ القصة كلها — كما حكاها — من القرآن لا من الأناجيل ، وسنرى براهين ذلك كله فيما يلي من الحديث :

والقصة محكية في مواضع شتى من القرآن ، ولكن صلبها مجده في سورة البقرة ، الآيات ٢٩ وما يليها ، وسأتي بها على تواليها لكي ترى إبداعها وتأسقها ، ثم نعلق عليها فيما بعد :



- ٢٩ - ﴿ هو الذى خلق لكم مائ الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم ﴾ .
- ٣٠ - ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ .
- ٣١ - ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوا بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ .
- ٣٢ - ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .
- ٣٣ - ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .
- ٣٤ - ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ .
- ٣٥ - ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .
- ٣٦ - ﴿ فأخرجنا الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اعبثوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .
- ٣٧ - ﴿ فلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ .
- ٣٨ - ﴿ قلنا اعبثوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .
- ٣٩ - ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

فها تجد حكاية آدم وحواء في الجنة : كيف خلقهما الله من صلصال ثم أسكنهما الجنة ، وكيف كانت حياتهما هناك رغدا ، فهما هناك خالدان ، وما دام خالدان فهما — وكل من في الجنة — في غير حاجة إلى إيجاب ، ومن ثم فهما لا يعرفان الجنس ، وهما لا يعرفان الحياء الذي نعرفه نحن من هذه الناحية ، وقد أطلق الله لهما الحرية لئلا من أى شئ أرادا إلا شجرة واحدة حرمها الله عليهما وحذرهما من أن يقرباها حتى لا يقعا في المعصية ، وليس من المهم أن نبحث أى شجرة

كانت ، ويستوى أن تكون شجرة تفاح أو لا تكون ، ولا محل للقول بأنها شجرة المعرفة لأن الله سبحانه لا يحرم المعرفة على بنى آدم بحال . إن هذا التحريم إما هو محض حدود وضعها الله ، والله سبحانه يحب أن تُرعى حدوده .

ثم إن آدم وحواء عندما خالفا أمر ربهما وأكلا من الشجرة فقدتا طبيعة أهل الجنة ودخلا في طبيعة أهل الأرض التي قدر الله في سابق علمه أن يهبطهما إليها ليعيشا فيها بين حيوانها ونباتها ويكونا في هذه الحالة خاضعين لطبيعة الحياة على سطح الأرض ، وهى الصراع على الرزق للحفاظ على الحياة ثم الجنس للمحافظة على النوع ، فإن الله سبحانه كتب على كل مخلوق حى على الأرض أن ينجب مثله حتى لا يبيد نوعه ، أما طبيعة الصراع على وجه الأرض فقد تبيهاها عندما أمرها الله أن يهبطا إلى الأرض بعضهم ليعض عدو . والمراد بذلك ذريتهما ، والعداوة جرم من صراع البقاء على الأرض ، وقبل ذلك — عندما كان آدم وحواء في الجنة لم يعرفا صراع الحياة ، ومن ثم فهما لم يعرفا العداوة ، وأما أن الجنس مبغى في كيان آدم وحواء بعد أن أكلا من الشجرة فهذا واضح من قول الله سبحانه في سورة الأعراف ، آية ١١ وما بعدها :

- ١١ - ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ .
- ١٢ - ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ .
- ١٣ - ﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ .
- ١٤ - ﴿ قال أنظرنى إلى يوم يحثون ﴾ .
- ١٥ - ﴿ قال إنك من المنظرين ﴾ .
- ١٦ - ﴿ قال فيها أغويى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ .
- ١٧ - ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ .
- ١٨ - ﴿ قال اخراج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ .

١٩ - ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

٢٠ - ﴿فَوَسَّوسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيَدِيَ لَهَا مَا وَرَوَى عَنْهَا مِنْ سَوَاءِ أَمْرٍ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْهَا رَبَّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ .

٢١ - ﴿وَقَامَ بَيْنَهُمَا إِلَى لَحْمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ﴾ .

٢٢ - ﴿فَلَمَّا ذُوقَا الشَّجَرَةَ بِدَسَ لَهَا سَوَاءُ أَمْرٍ وَطَفَفَا بِخَصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ .

٢٣ - ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

٢٤ - ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ .

٢٥ - ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ .

٢٦ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

٢٧ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

٢٨ - ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَةً وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

٢٩ - ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ .

فقى هذه الآيات الكريمات من أبواب الحكمة الإلهية في خلق آدم وما فعل آدم بمسسه ، وما يريد الله به وبآبائِهِ من كل خير ما يكشف بصر المؤمن المماصر في عصر العلم . واحد من قدماء الفقهاء الذين لا يظنون إلا حلفا ، فكأنما أنزل الله الدين للماضي لا للحاضر ولا للمستقبل ، ومن ذلك :

— أن إبليس عندما عصى لم يكفر بالله بل كفر بالإنسان ، وحاشا لله أن يكفر

به مخلوقاته .

— وكفر إبليس بالإنسان هو جزء من طبيعة خلقه ومصيره ، فإن الله سبحانه قدر في علمه أن الإنسان خلق لكي يهبط إلى الأرض ، فهو لا يطبق الحياة في الجنة ولن يستطيعها إلا بعد تمحيص على الأرض شديد وطويل . والهمة الكبرى التي سيشتقى بها آدم هي طبيعته البشرية الضعيفة ، وإبليس هو رمز هذا الضعف وهو يعرفه ، وهو عندما خدع كان يعرف أنه سيفوق في صرفة عن الطريق القويم ويعرف أنه سيستطيع إخراجه من الجنة . وهو إذا خرج من الجنة أصبح فرمسة لإبليس . وعلى وجه الأرض يكون التحدي العظيم بين الإنسان ونفسه الضعيفة التي يعرف إبليس كيف ينفذ فيها ليفسد على آدم حياته . والإنسان عندما يهبط إلى الأرض لم يهبط ملعونا كما هو الحال في الصراية التي صاغها بولس ، بل تلقى آدم من ربه كلمات وتاب الله عليه لأول ما نزل الأرض حتى لا يحمل أباه وذر خطيئة لم يرتكبوها ، والإسلام دين عدل وقسط ، ﴿ ألا تزرر وازرة وذر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ النجم ٣٨ ، ٣٩ .

— ثم إن آدم عندما استقر على الأرض نزع الله عنه الستر الذي حصفه على نفسه من ورق الجنة إذ لابقاء لشيء من الجنة في الأرض . وفي الآية ٢٦ من سورة الأعراف ينزل الله على آدم وزوجه لباسا يوارى سوءتهما . وقد يكون هذا كناية عما ألهم الله آدم من اختراع النسيج والثياب .

— ومعنى ذلك أن الله سبحانه عندما أهبط الإنسان إلى الأرض تعبر طبيعته فأصبح ذا طبيعة أرضية ، مثله في ذلك مثل غيره من الحيوانات ، فكان عليه أن يصارع في سبيل رزقه وفي سبيل بقاء جسده . وكان عليه — إلى جانب ذلك — أن يواجه تحدي إبليس إياه ، وإبليس هو رمز الشر والفساد . والإنسان وحده من دون غيره من المخلوقات هو المعرض ، لأن الله سبحانه منحه العقل والعقل هو سلاحه الأكبر إنه يمكنه من النظر والتفكير والاختيار ، أما بقية المخلوقات فمسخرات لأمر ربها ، وكما خلقها الله تعيش ، فإذا كانت من آكلات اللحم فهي تقترب غيرها من الحيوان ولا تترهب عليها في ذلك أما الإنسان فقد نفع الله فيه من روحه ﴿ فإذا صوته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ ( الحجر آية ٢٩ ) ونفخة الله هذه هي العقل ، وهو نعمة الله الكبرى على الإنسان ، وعليه أن يعتمد عليها في كل وجوه حياته كلها . والله سبحانه عندما قال للملائكة إنه جاعل في الأرض خليفة . فليس

معنى ذلك أن الإنسان سيكون خليفة لله على الأرض ، فإن الله لا يخلقه أحد ، ولكن المراد أن الله باعث في الأرض مخلوقاً متميزاً على غيره بالعقل ، والعقل مفتاح كل حير ، ثم إن إبليس عندما أنظره الله إلى يوم يبعثون اشتد غيظه على الإنسان وقرر أن يستخدم كل ما يملك من الأساليب ليفسد على الإنسان حياته ليثبت لنفسه أنه كان على حق عندما رفض أن يسجد لآدم . جاء في سورة الحجر :

٣٩ - ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ إِذْ بَعَثْتَ فِي الْأَرْضِ خَلْقًا يُغَيِّرُ أَحْسَنَ مِنْهُ خَلْقًا ۚ قَالَ أَوْ لِمَ تُكَذِّبُنِي ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ سَبِيلٍ مُسْتَقِيمٍ ۖ ﴿٤٠﴾

٤٠ - ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۚ ﴿٤١﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۚ ﴿٤٢﴾

٤٢ - ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۚ ﴿٤٣﴾

٤٣ - ﴿ وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمُوعَدُهُمْ مُتَّحِمِينَ ۚ

بل إن الله سبحانه يريد أن يكون تحدى إبليس للإنسان بالعا مداه حتى يكون هذه الحياة في الأرض معنى ، جاء في سورة الإسراء الآيات ٦٢ وما بعدها .

٦٢ - ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْتُنْ أُخْرِقُنَّ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ لَتُحْكِنَ لَهُمْ قُوَّةً إِلَّا قَلِيلًا ۚ ﴿٦٣﴾

٦٣ - ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا ۚ ﴿٦٤﴾

٦٤ - ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَمْ يَغْفِرْ لَهُمْ ۖ ذُنُوبُهُمْ أَسْوَءُ الْعَذَابِ ۚ ﴿٦٥﴾

٦٥ - ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۚ ﴿٦٦﴾

وإذن فالشيطان برضا الله سبحانه وتعالى يتحدى الإنسان التحدى الكامل الذى ينبه الإنسان إلى ضرورة مسؤوليته على الأرض ، وهو في هذه الأرض في رحلة طويلة أو قصيرة ، ولكن معاده في النهاية إلى الله سبحانه الذى يحاسبه على ما فعل ، ويجزيه الجزاء العادل على ما فعل في دنياه .

والإسلام أساساً لا يعرف الموت النهاى الكامل . إنما هي حياة واحدة طويلة مقسومة قسمين : قصير : هي هذه الحياة الدنيا ، وهي الصغيرة الخفيفة تنتهى بموت مؤقت ، ثم يبعث الإنسان عندما يشاء الله ليرى نصيبه في الحياة الأخرى ، وهذه هي الخالدة .

والله سبحانه عندما أهبط الإنسان إلى الأرض جرده من طبيعته السماوية وأدخله في شكل أرضي ، ومنحه الأسلحة التي يستطيع — إذا هو استخدمها بعقله — أن ينحو من الهلاك على وجه الأرض ، لأنه يعيش على الأرض مع حيوانات وحشرات وطيور تعيش على غرائزها وحدها ، ولهذا فهي بالغة القوة واسعة الحيلة أو مسلحة بالسموم أو مهياة للدخول في باطن الأرض طلباً للأمان ، هذا إلى جانب الطيور التي تملأ السماء وفيها كواسر آكلات لحم والأسماك الضارية التي تملأ البحار والأنهار وبعضها يعيش على بعض في قوة بالغة ، ولا سبيل لها إلا الاقتراس وسيلة للحياة ، والإنسان لابد أن يتسلح إلى جانب العقل — بأسلحة تمكنه من مواجهة هذه الحيوانات أو الحرب منها ، وكل ذلك أعطاه هذا الشكل الحيواني الأرضي الذي يتميز به ، وهذا هو ما صاه الله سبحانه عندما قال في سورة التين :

- ١ - ﴿ والتين والزيتون .
- ٢ - وطور سينين .
- ٣ - وهذا البلد الأمين .
- ٤ - لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم .
- ٥ - ثم رددناه أسفل سافلين .
- ٦ - إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون
- ٧ - فما يكذبك بعد بالدين .
- ٨ - أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ التين : الآيات ١ - ٨

\* \* \*

وعبارة ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ التي ترد في هذه الآيات تلفت نظرنا إلى موضوعين رئيسيين من مواضيع العمل الإسلامي لم يفهمهما فقهاؤنا القدامى أى فهم وألحقوا بالإسلام والمسلمين — دون قصد — ضرراً يلحق . الأول هو العلم ، والثاني هو العمل .

ذلك أن علم أولئك الفقهاء كان يقوم أساساً على النظر نحو الماضي دون نظر إلى الحاضر والمستقبل ، مع أن الإسلام بطبيعته دين حاضر ومستقبل ، ولا يكاد ينظر إلى الماضي ، وكان رسول الله ﷺ يعيش لحاضره ومستقبل أمته لا يكاد ينظر إلى الماضي إلا في مناسبات العبرة أما الحياة نفسها ، أما صميم الإسلام فهو الحاضر

والعد ، ولم يكن للإنسان من وجهة النظر الإسلامية أن يمضي حياته باكياً على ماضيه في الجنة متحسراً على ما فاتته منه ، بل كان عليه أن يعمل على هذه الأرض بما يسر الله له من وسائل ليستعيد مكانه في الجنة عن طريق العمل لا عن طريق البكاء على الماضي والتحسر على ما فات .

ولقد كان رسول الله ﷺ من أكثر الناس إقبالا على العمل لإصلاح الحاضر وإعداد المستقبل ، ولو كان رسول الله قد أمضى حياته على مثال أنبياء بني إسرائيل متحسراً على الماضي سائلاً الله أن يعيده إليه ما كان أدرك هذا التوفيق وتلك الكرامة ولما كان خير الأنبياء ، كان نظره دائماً متوجهاً إلى الغد وإلى الأحسن . وكانت همته طوال الوقت متجهة إلى تقوية أئمة وزيادة رفقته وإدخال الناس فيها استعداداً للمستقبل الأحسن ، وإذا كان هو خير الرسل فلا بد أن تكون أئمة خير الأمم ، وإلا ما كانت جذيرة به أصلاً ، والذي عمله رسول الله في المدينة خلال السنوات العشر لمقامه في المدينة لا يعمل به غيره في مسير طويلة ، وذلك إيماناً منه بالعمل وثقة به بأن التوفيق على الأرض وكسب رضا الله بالعمل .

وقد قصر المأخوذون تفسير عبارة « العمل الصالح » بأنها القيام بالعبادات ، مع أن عبادات الإسلام في ذاتها قليلة ، وقد هونها الله علينا لكي نقوم بها في استمتاع ولذة ، وأنا شخصياً أقوم بكل عبادات الإسلام كاملة بشروطها وكل ما ينبت لها من إسباح الوضوء وطهارة البدن والخشوع والقنوت والخلوص لله سبحانه وتعالى فلا يستلزم ذلك كله مني نصف ساعة في اليوم . ثم أفرغ بعد ذلك للقيام بما أحب أن أقوم به من عمل لخدمة نفسي وأهل أولاً ثم لخدمة الإسلام والمسلمين عن طريق العلم والبحث ونشر النور .

وإنني لأعجب من مؤلفينا القدامى الذين كتبوا في الصلاة مثلاً مجلداً كاملاً فيه مئات الصفحات ، وأسأل نفسي : ألم يكن أولى بأولئك العقهاء أن يعمقوا هذا الجهد مثلاً في دراسة المياه ومصادرها ، وكيف نحصل عليها وكيف ننقيها ونسوقها في الأنابيب حتى نستخدمها في الوضوء والاعتسال والصلاة ونظافة البدن كما فعل أهل الغرب ! أليس هذا أفضل من كتابة المجلدات في أنواع المياه ، وما يصلح منها للوضوء وما لا يصلح ، وكم مقدار الماء اللازم للوضوء ، ومتى تفسد المياه ومتى لا تفسد ، لقد فعل غيرنا هذا — وهم غير مسلمين — فدرسوا المياه ويسروها وساقوها على

النحو الذى دراه نحن اليوم فيسروا علينا صلاتنا وكل حاجتنا إلى الماء ، وجعلوا وضوءنا أيسر وأطهر وعلمونا كيف يسوق الماء على هذا النحو ، وجعلونا بهذا الجهد أقرب إلى الطهارة والبقاء .

\* \* \*

وكل هذا الذى اخترعه أهل الغرب فى شأن المياه كنا نحن نستطيع أن نخترعه لو لم تكن نظرتنا إلى العلم سلفية على النحو الذى كان ، فإن أهل العلم عندنا بعد عصر الفقهاء والمشرعين الكبار الذى ينتهى فى نهاية القرن الثالث الهجرى ( التاسع الميلادى ) جعلوا دأبهم فى العلم النظر إلى الوراء ، وفاتهم أن رسول الله ﷺ كان يظفر إلى الأمام دائماً ، ورسالة الإسلام التى حملها إلى البشر كانت تفتح أمام البشر عصراً جديداً ، والقرآن نفسه يعلن ذلك ويقول إن من أكبر أسباب الكفر هو التمسك بآراء الأقدمين والسير على مناهجهم فى الحياة . ولقد صور الله سبحانه موقف التمسكين بما كان عليه آباؤهم وكيف أنهم يقفون جامدين مكانهم لا يتقدمون فى قوله : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ الزحرف : ٢٢ .

وقد يتصور الناس أن هذا لا ينطبق إلا على الكفار بالله ، ويعتبرهم أن الجمود — أياً كان — لابد أن يقود الإنسان إلى حالة لا يكون هناك فرق فيها بين من يؤمن بالله ومن لا يؤمن ، لأن العلم فى طبيعته تقدم ، والعالم الذى لا يتجه بعلمه إلى الأمام لابد أن يتأخر ويصبح جاهلاً أقرب إلى الكافرين ، فهؤلاء الشيوخ الذين نظروا دائماً إلى الوراء وتمسكوا بالمأثور وتأموا عليه كانوا يخرجون فعلاً على الإسلام ، فبعد القرن الرابع الهجرى أصبح الكثيرون جداً من الشيوخ على درجة من الجمود لا تصدق معها أنهم مسلمون ، وتحميد كل شيء أمامهم حتى صارت أمة عالة للمأثور الموروث بدعة ، والبدعة هى كل شيء مبتكر أو مبتدع ، وهذه المبتدعات التى نراها اليوم إنما هى مبتدعات أو بدع ، فكيف يريدهونا أن نصدق أن رسول الله ﷺ قال : كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ! لقد ألف فقيه أندلسى من أهل القرن الخامس الهجرى هو أبو بكر الطرطوشى كتاباً سماه « البدع » وقال إنها كلها حروج على الإسلام . فأنت إذا لست ثوباً لنا خرجت على الإسلام ، وإذا فرشت مسجداً بسجادة طيب خرجت على الإسلام وإذا تاجرت مع غير مسلم



خرجت على الإسلام وهكذا . أفلا يصدق على مثل هذا الرجل قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا لَّيْسَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ ١ وهذا الشيخ ترك وطنه الأندلس وهاجر من بلدته طرطوشة وانتقل إلى المشرق ليعيش في رعد وأمان ، وقد فاته أن هذه الهجرة التي قام بها هو وأمثاله من الشيوخ أضرت بالإسلام أسوأ من أى بدعة ذكرها ، لأن شيئاً من الأشياء لم يضر بمصير الأندلس أكثر من هجرة الشيوخ وأعيان الناس وأعنيائهم ، لأن أعلام الناس هؤلاء عندما هاجروا إلى بلاد الإسلام طالبين الأمان تركوا وراهم الفلاحين والعموم وأهل الحرف والأسواق ، وهؤلاء مساكين يحتاجون إلى قيادات تثبت قلوبهم وتقوى عزمهم ، وإذا كان أهل السياسة قد خانونهم وتحلوا عنهم ، أفما كان من الواجب على أهل العلم أن يظلوا في الأندلس فيجمعوا الناس حولهم وينظموا صفوفهم ويقوّوا عزمهم ويقودوهم في الصراع في سبيل الوطن الأندلسي ، وماذا كان الصحابة رضوان الله عليهم إلا ناسا من الناس اتفقوا حول رسول الله وأخذوا عنه الإسلام وقبضوا منه روح الجهاد . لقد جمعهم الرسول حوله وعلمهم الجهاد في سبيل الله ، وقادهم في المعارك وأرسل بعضهم في السرايا واتصر بهم الإسلام . وأهل الأندلس أنفسهم كانوا دائما — وإلى آخر مراحل الصراع — قوما أوفى عزم وبأس وبسالة وإقدام على القتال ، ولكن كانت تنقصهم القيادة والعقول المفكرة المدبرة . وما كانت جيوش الصاري التي انتزعت الأندلس من المسلمين إلا فلاحين وزراعا وأهل أسواق دعاهم القساوسة إلى القتال وجندوهم وحشدوهم في جيوش القادة والأمراء والملوك وكسبوا بهم المعارك ، وعلى طول تاريخ الإسلام نجد أن بدايات الحركات الإسلامية والتحريرية الكبرى كانوا شيوعا مؤمنين ، ولكنهم ليسوا جامدين ، فدعوا الناس إلى البهوض وجمعوا صفوفهم وقادوهم في المعارك ضد أعداء الإسلام — كما نجد على طول تاريخ المغرب — أو كسبوا إلى دعواتهم أمراء من أهل العزة والسخوة ، ومن اتحاد الجانبين قامت نهضات إسلامية كبرى كما نرى في الحركة السلفية التي قادها محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود ، وهي مفخرة من مفاتخر الإسلام في العصر الحديث . وجدير بالقول هنا إن هذه الحركات الإسلامية الكبرى نظرت إليها الفقهاء التقليديون الذين يرون كل دعوة جديدة بدعة ، وكل بدعة في النار ، وبالفعل قال فقهاء مصر والدولة العثمانية إن الدعوة السلفية الوهابية ضلالة وكفر ، وأهدوا النول في حربها معها ، ولكن الله سبحانه نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

\* \* \*

ومادما في مجال البحث عن أسباب تدهور المسلمين ، فلنقل منذ البداية إننا  
أخطأنا في فهم ثلاثة أشياء رئيسية ، فكان هذا الخطأ سبباً في كل خطأ وشر جاء  
بعده .

فأما السياسة فإننا إذا نظرنا إلى تعرف رسول الله وقيادته للجماعة الإسلامية نجد  
لم يدخل السياسة أو يتبع أساليبها ، بل يحيل إلى أحياناً أن أكبر العايات من تكويبه  
على هذا النحو الأخلاقي الكامل ثم تكليفه بالرسالة وإنزال القرآن الكريم عليه وقيامه  
بإشياء الجماعة الإسلامية على النحو الذي أنشأها عليه كان تحلّيس الإنسانية من  
السياسة وأساليبها وأخلاقها ، وعقيدة التوحيد في ذاتها التي يقوم عليها الإسلام  
تعارض مع السياسة ، فمنح إذا تأملنا عقيدة التوحيد في ذاتها وسألنا : ماذا يفيد  
البشر من التوحيد ؟ لوجدنا أن الجواب هو إزالة الخلافات بين البشر حول المعبود  
وجمعهم نحو الإله الواحد ، فإذا هم اجتمعوا حول خالق الكون سبحانه لم يعد بينهم  
خلاف حول العقيدة ، ولذلك أمر المسلمين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا  
يتفرقوا ، لأن اجتماع المؤمنين حول الله سبحانه هو أساس قوة مجتمعهم ، ومارالت  
وحدة العقيدة عند المسلمين إلى يومنا هذا هي أساس قوة العالم الإسلامي ، وأنا  
ها أنظر إلى التعاف المسلمين حول الإيمان بالله خالق الكون سبحانه وإيمانهم برسوله  
( صلوات الله عليه ) وتصديقهم بكل ما جاء في القرآن الكريم ، فلرسول ﷺ  
أحاديث كثيرة تقول إن الإنسان إذا آمن بالله ورسوله وكتابه فقد عصم نفسه من  
البار ، فأما ما عدا ذلك من الخلافات في الرأي فلا تكفر ، وبين المسلمين خلافات  
كثيرة حول مسألة الخلافة ، وهي مسألة سياسية . ولا أرى ما يدعو أو يوجب أن  
مكفر مسلماً لأنه يرى في الخلافة رأياً يختلف عن رأي غيره ، وقد أضر المسلمون  
بأنفسهم أشد الضرر بسبب إعطاء مسألة شكل الخلافة هذه أكثر مما تستحق ، فما  
دام المسلم لم يتطرق إلى مذاهب غلاة الشيعة ممن يشركون بالله إشراكاً واضحاً  
فإنهم في حدود الإسلام ، وليس لنا عليهم سبيل ، وعلى الله سبحانه حسابهم .  
ثم إن كل خلافات المذاهب لم تنته إلى نتيجة رغم الحروب والدماء ، ونحن اليوم  
نأسف على ما كان بين الصفويين الفرس والأتراك العثمانيين من الحروب المهلكة ،  
وما أدى إليه ذلك من مبالغة الصفويين في التحمس لمذهبهم الشيعي ، ثم ما كان  
من ارتعائهم في أحضان الإنجليز للاستعانة بهم على الأتراك العثمانيين . لقد انتهى الصدام  
الأول بين الجانبين برد الفرس إلى بلادهم وإخراج بلاد العراق من سلطانهم وإعادة

إلى المجموعة العربية التي ينتمى إليها ، وبعد ذلك كان ينبغي البدء في الصلح بين  
الجانبيين ، وتصور ما كان يمكن أن تفيدته الأمة الإسلامية لو أن الفرس تصالحوا مع  
الأتراك وتوقفت الحروب بين الجانبيين ، فإلى ذلك الحين ( منتصف القرن الخامس  
عشر الميلادي ) لم يكن الشيعة في هضبة إيران إلا أقلية ضئيلة ، وكان من الممكن  
أن تزداد قلة مع الزمن ، فتصور ماذا نجم عن استمرار الأتراك العثمانيين في حرب  
الصفويين والتوسع في بلادهم طوال عصر سليمان القانوني ، فهذا في ذاته دفع الفرس  
إلى الاستعانة بالروس — بعد الإنجليز — على الأتراك ، واضطر الأتراك إلى نقل  
جماعات كبرى من مقاتليهم من جبهة القتال في العرب الأوروني إلى الجبهة الإيرانية  
الشرقية ، فهذا أدى إلى تفوق الروس على الأتراك العثمانيين وتغلبهم على الأتراك في  
جبهتهم الشمالية ، وعداء الروس للأتراك العثمانيين كان آخر الأمر وبالا على تركيا  
بل كان أكبر أسباب تدميرها .

ذلك أن رسول الله ﷺ في تكوينه للأمة الإسلامية وقيادتها في مكة أولا ثم  
في المدينة المنورة وضع للرياسة والقيادة — والسياسة جملة — نهجا جديدا يختلف  
عن كل ما عرفته الإنسانية من قبل . ذلك أن الله سبحانه عندما أرسله بالإسلام  
أراد من الإسلام أن يكون حلا جديدا لم يسبق لكل مشاكل الإنسانية وأولها  
المشكلة السياسية ، لأن الإنسان يعيش على الأرض جماعات ، وكل جماعة بها تحمل  
التكليف الذي وضعه الله على أكتاف البشر باختيارهم وهو عمران الأرض ، وهو  
الأمانة التي عرضها الله سبحانه في قوله ﴿ إِنَّ عَرْضَنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا  
جَهُولًا ﴾ . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على  
المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيمًا ﴿ الأحزاب : ٧٢ — ٧٣ .

ولما أتيت مهاتين الآيتين لأنهما تكملان ما سبق أن أشرنا إليه من أن الحياة على  
هذه الأرض إنما هي استجابة للتحدي الذي ألغاه إبليس في وجه الإنسان عندما رفض  
السجود لآدم ، لأنه اعتقد أنه خير منه لأن الله خلق إبليس من نار وخلق الإنسان  
من طين ، وقد نسي إبليس أن الله ميز الإنسان بميزة كبرى على سائر خلقه وهي  
النفخة الإلهية التي منحت الإنسان العقل وهو القوة التي يفهم الإنسان بها الأشياء  
ويفكر فيها ويختار من بينها الطريق الذي يعينه على النصر في معركة التحدي وهي

معركة اعمار الأرض وكل عمل يقوم به الإنسان في طريق هذا العمران يعتبر عملاً صالحاً ، ولا معنى لأن نقصر الصالحات على العبادات ، لأن العبادات الإسلامية في مجموعها سهلة يسيرة ، وهي في مجموعها خير معين للإنسان على كسب معركة التمسير ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة حق معلوم للسائل والمحروم في أموال الناس ، وإذا كانت الصلاة هي حق الله على الناس فإن الزكاة هي حق الناس على الناس ، أما الصيام فهو تركية للنفس وتطهير لها من أدرانها ومن ثم فهو معين على الجهد والعمل والفضائل ، والحج هو تجمع المسلمين بعضهم إلى بعض في وقت معين من كل عام عند بيت الله ، حيث يخرجون من ميزانهم الدنيوية ويلبسون لباساً واحداً بسيطاً يذكرهم بمجانبتهم الإنسانية ، وهناك يتشقلون بين مواضع مقررّة في أوقات مقدرة . وكل حاج يقدم هدياً يأكل منه الفقراء والمساكين ، وبعد أن يقضى المسلمون مسالك الحج يكون بينهم تبادل منافع من تجارات وصناعات أو أمكار وآراء . لأن أمة الإسلام لا ينبغي أن تمقد أبداً الشعور بأنها أمة الله سبحانه التي تجتمع على الخير وتتعاون على المعروف وما فيه تقدم الإنسانية .

كان لابد أن يضع الله لهذه الأمة الإسلامية نظاماً جديداً شاملاً تخفى به مساوات النظم السياسية التي قامت عليها دول الجاهلية ، وكل جماعة بشرية سابقة على الإسلام في الزمان فهي جاهلية بالقياس إلى الإسلام الذي هو الهدى والنور . لهذا قاد رسول الله ﷺ أمة الإسلام بشيء غير السياسة علمه إياه ربه الذي وصفه بأنه مبشر ونذير وهاد وداع إلى الله بإذنه وسراج منير ، ولم يصفه قط بأنه سياسى أو قائد دولة .

ذلك النظام الجديد الذى سار عليه محمد ﷺ في قيادة أمة يدخل في مجموع ما يمكن أن نسميه بالهدى ، فالأمة الإسلامية متساو بعضها مع بعض ، لا طبقات فيها ولا مراتب ، ولا يتفاضل الناس فيها إلا بالتقوى . والتقوى ليست هي الخوف من الله ، لأننا لا نخاف الله لكي نتقيه ولكننا نتقيه لأننا نحبه ، والذين يخافون الله هم الذين يخافونه ويعصونه ويخشون عقابه ، أما الذين يحتصمون بحبل الله ويسمرون في طريق هداه فهم الأتقياء أو أهل التقوى ، وهم مراتب المسلمين ، وهذا معنى إسلامي جديد للفظ ، ومن المعروف أن الإسلام أخذ ألعافاً قديمة وأعطاها معنى جديدة ، وهذا هو المصطلح الخاص بالإسلام . وتلك هي الأخلاق الإسلامية .

والسياسة لا تدخل في التقوى ، لأن السياسة هي الخيل والأساليب التي يتبعها طلاب الحياة والسلطان أو المال ، وهي لا تعرف الأخلاق ، فكل ما يوصل إلى العايات الشخصية أو السياسية مشروع ، وكبار السياسيين في التاريخ كانوا رجالا بلا أخلاق ، وانظر مثلاً رجالاً من أمثال ميتريخ أو بسمارك أو تشرشل ، ومن ماثور كلمات هذا الأخير قوله : « إن السياسة يحرصها حارسان من الكذب » وفي أثناء التحقيقات مع رجل من رجال السياسة السرية الأمريكية في قضية الأسلحة التي بيعت لإيران ورعّموا أنهم أخذوا أمان يمينها وأرباحها وأعطاها لأعداء الحكومة اليسارية في نيكاراغوا في أمريكا الوسطى ، وهي حكومة أتياع رجل شيوعي يسمى ساندينو قال ضابط كبير من كبار صباط المخابرات وهو أوليفر نورث : « إننا نعمل في نصرة سياسة بلدنا ، ولا يحاسبنا أحد على الأساليب التي نتبعها . لأنكم تعلمون أن السياسة لها عايات ولكن ليس لها أخلاقيات ، أو على الأقل ليس لها الأخلاقيات التي تريدون أنتم محاسبتها ، وأنتم أهل سياسة وتعرفون أن ما أقوله صحيح . وأنتم لا ترضون أن يحاسبكم الناس على أساس الأخلاقيات التي تتحدثون عنها اليوم » . وعندما كان أهل السياسة في أثينا يحاكمون سقراط ويتهمون به بفساد أخلاق الشبان قال في خطابه المشهور لهم : « إذا كنتم تحاكموني على أساس أخلاقياتكم السياسية فلا شك في أنني أستحق الموت ، ولا يفزعني أن تحكموا عليّ بالموت » .

وهذا الطراز من السياسة الذي كان سائدا قبل الإسلام ثم عاد فاستشرى بعد الإسلام وأصبح قاعدة العمل السياسي اليوم هو الذي تحاشاه رسول الله ﷺ ولم يعرفه قط ، وعندما تجمع حوله المشركون القرشيون من السياسيين الذين كانوا يسودون المجتمع المكي ويستعلون الناس ويفسدونهم وأرادوا الاحتيال عليه واجتدابه إلى ناحيتهم وعرضوا عليه الخيرات والمراتب العالية رفض ، لأن ذلك كله يتناق مع الإسلام .

أما الطريق الذي سار عليه رسول الله ﷺ سواء في تسير أمور جماعته الداخلية أو قيادتها في صراعها مع الشرك وأهله فهو طريق الأخلاق الإسلامية وكلها مشتقة من الهدى ، فالمبادئ لا الأشخاص كانت تفقد الناس في المجتمع الإسلامي أيام الرسول ، وما نسميه نحن بالسياسة كان أخلاقاً فاضلة ، فالتناس متساوون بعضهم مع بعض مساواة حقيقية لا يتفاضلون إلا بمكارم الأخلاق ، ورسول الله ﷺ يقود جماعته قيادة جماعية ، فقيما عدا قواعد الدين والعبادات وما تتضمنه الآيات القرآنية من

أوامر ونواهٍ فكل شيء في أمة المدينة كان يدار جماعياً ، فقد انتخب أهل المدينة اثني عشر نقيباً ليتعاونوا مع رسول الله ﷺ في إدارة الجماعة ، ورسول الله تبيين مع العمل ملكات المهاجرين ومن انضم إلى أمة الإسلام من العرب من غير الأنصار وصار يعهد إلى كل رجل بما يستطيعه وما يتفق مع مواهبه ، وهكذا أحاطت برسول الله ﷺ جماعة ممن يحسنون قيادة الأمور ، وكان صفى رسول الله من بين هؤلاء هو أبو بكر الذى تلقى درس أخلاق القيادة الإسلامية من رسول الله وسار على دربه ، وبعد أنى بكر بجىء بفقية المهاجرين والأنصار متساوين في المكانة الاجتماعية ولكن لكل منهم قدراته وملكاته ، حتى عمر بن الخطاب لم يكن له في المجتمع المدني أهام الرسول تلك المكانة التى تصوورها ، إنما كان عمر صفى أنى بكر وتلميذه ، ولكننا لا نتبين له أيام الرسول مكاناً أفضل من مكان على بن أنى طالب أو أنى عبيدة عامر بن الجراح أو سعد بن عبادة وكان الرسول يعرض كل أمر من أمور الجماعة للمناقشة وتبادل الرأى فلا يتخذ قراراً في موضوع يهم حياة الجماعة إلا بموافقتها كما رأينا رسول الله يعرض موضوع دخول معركة « بدر » على الجماعة التى خرجت معه في طلب العير ، لأن الموقف تغير وأصبح واضحاً أن القتال واقع . ومن ثم فلا بد أن توافق الجماعة على ذلك ! وفى ذلك المجلس التاريخى نرى رسول الله ﷺ يحرص على أن يسمع رأى المهاجرين ثم يتحدث المقداد بن الأسود ولم يكن أوسياً أو خزرجياً ولكنه كان من قضاة من حلفاء الأنصار الذين كانوا يعيشون في المدينة حلفاء لأهلها من الأوس والخزرج وكأنهم منهم ، وكانوا جماعة كبيرة من المسلمين ذوى المواهب ، من جهينة وبلى وجهراء وبلقين وغيرها من فروع قضاة التى كانت تعيش في الحجاز شمالي المدينة المنورة وتمتد شمالاً إلى بلاد الشام وجنوباً حتى ينبع على شاطئ البحر ، فلما تكلم المقداد باسم جماعته وأعلن استعداده الكامل لخوض المعركة ، ثم تكلم سعد بن معاذ الأشجلى الأوسى باسم الأنصار من الأوس والخزرج ، فلما اطمأن رسول الله إلى موافقة مجلس الشورى على القتال اتخذ قرار دخول المعركة ، ورسول الله فعل مثل ذلك عندما خرج بأصحابه لأداء العمرة واعترضه المشركون القرشيون عند الحديبية ، فهنا نرى أيضاً أن رسول الله عندما تبين غياب عثمان بن عفان في مكة وأرجف للمسلمون بأن القرشيين قتلوه أحس أن الموقف قد تغير وأن الأمة تواجه الآن احتمالات الحرب ، فجمعها للمشاورة ، فأجمعوا على دخول الحرب إذا اقتضى الأمر ذلك وكانت بيعة الرضوان .

وكان هذا دأب رسول الله ﷺ في قيادة الجماعة : التشاور مع الأمة في كل أمر يهمها من أمور الدنيا ، والشورى مصوص عليها\* ، في القرآن الكريم والله سبحانه وتعالى أمر الرسول في القرآن بأن يشاور المؤمنين\* ، بل إن رسول الله ﷺ عندما كان يريد أن يخرج في غزاة كان يستعد هو ، ولا يعلن عن خروجه إلا قبل الخروج بقليل ، لأنه كان ينفذ خطة كبيرة واسعة المدى ، ولا بد له من السرية في أحيان كثيرة ، وبدلاً من أن يجمع الناس في مجلس سرى كان يخرج بنفسه مع أبي بكر وبعض من نذرُوا أنفسهم للخروج مع رسول الله ﷺ في المغازي ، ثم ينتظر خارج المدينة ، ويشيع الأمر ويتلاحق بالرسول من يريد دون ضغط أو أمر ، ثم يسير بمن حصر . ولم يحدث أن لام رسول الله ﷺ أحداً على عدم الخروج معه في العزاة إلا في تبوك ، وهي غزاة حاسمة تعين معطفاً في تطور أمة المدينة ، وهي آخر غزاة كبرى قادها الرسول ، وأعقبها سورة ثنوية أو براءة التي قررت مجموعة من المبادئ الأساسية في تنظيم أمة الإسلام وجماعتها ، وسورة براءة أو الثوبة هي بإجماع معظم مؤرخي القرآن آخر سورة أنزلت على رسول الله من سور القرآن الكريم ، ومنها — فيما أرى — تقرر أن الجهاد « فرض عين » لا « فرض كفاية » بدليل أن الله سبحانه وتعالى لام الثلاثة المخلفين عن الخروج للجهاد بدون عذر وعاقبهم ، والإنفاق عن سعة في سبيل الله « فرض عين » أيضاً بمقتضى ما يرد في هذه السورة العظيمة . والله سبحانه وتعالى عندما قرر أن الجهاد والإنفاق فيه فرصان على المسلمين جميعاً أراد أن تسير الأمة على ذلك فيما بعد وبخاصة بعد وفاة الرسول ( صلوات الله عليه ) . ولا أدري كيف جاء الفقهاء ، بعد ذلك وأسقطوا عن المسلمين واجب الجهاد العيني ، لأن إسقاط ذلك الواجب ألحق بأمة الإسلام ومستقبلها ضرراً بالغا ، ومن ثم فإن ذلك فقه سيء غير مقبول .

وإهمال فرضية الجهاد على المسلم كان سبباً في أضرار جسيمة لحقت بالأمة ، فإن إعفاء الناس من الخدمة العسكرية في سبيل الجماعة جعل الدولة الإسلامية في حاجة إلى مقاتلين ، وتلك هي الفرصة التي استغلها معاوية بن أبي سفيان لمصلحته ، فإن الخليفة الشرعي وهو علي بن أبي طالب وجد نفسه في الحماز بلا جند ، لأن جند

( \* ) « وأمرهم شورى بينهم » ( الشورى — آية ٣٨ ) .

( \* ) « وشاورهم في الأمر » ( آل عمران — آية ١٥٩ ) .

الدولة كانوا متعرقين في الأمصار ، وعمر بن الخطاب كان يجعل الجهاد « قرض عين » وكان لا يأذن لعمرى مسلم في أن يتخلف عن الجهاد ، وكان ينبغي أن يهتم بتقنين هذه المسألة ، ولكن الفتوح كانت ماضية على قدم وساق في أيامه ، فلم يجد هو ضرورة تدعو إلى التفكير في وضع نظام للجهاد ، فإن الناس يتدقون على ميادين القتال من تلقاء أنفسهم لأن الإيمان كان يملأ القلوب فترك الأمور تسير في مجراها في تلك الناحية ، وهذا كان الخطأ فلا شيء من أمور الأمة ينبغي أن يترك ليسير حسبما اتفق . وكان رسول الله ﷺ لا يترك شيئاً من أمور المسلمين دون تنظيم ، وكان يناقش مع المسلمين بعد كل غزوة ما وقع فيها ويستخرج القواعد السليمة المكتسبة من التجربة والقائمة على روح الإسلام ، وسرى في الفصل الخاص بدستور المدينة كيف أنه كان دائم الاجتماع وقادة المسلمين الذين يستطيع اعتبارهم أهل شورا لمناقشة الموضوعات والخروج بالقرارات التي يرتضيها الجميع . فإذا أقرروا مبدأ أمر على بن أبي طالب بأن يسجله ، ومن هذه التسجيلات تكون ما عرف « بالكتاب » أو « الصحيفة » الذي سمي به دستور المدينة أو دستور أمة المدينة . وهذا الدستور يقرر الكثير من شعون الحرب والجهاد والفقه عليه . ومن الأمور التي ناقشها واتخذ فيها قرارات حاسمة مسألة يهود المدينة الذين حالوا الأمة الإسلامية أول الأمر ، وكان الرسول عظيم الأمل في دخولهم أمة الإسلام فأذن لهم في حلف الأمة ، وفي إحدى مواد الدستور الأولى سمح لهم بالقتال مع المسلمين والاشتراك في النفقة . ولكنهم لم يقاتلوا مع المسلمين قط ، لأن حلفهم لم يكن صادقا ، فلما كشف بنو قينقاع عن نفوسهم ، ووجد الرسول ألا مفرله من إخراجهم من المدينة تعمير الموقف بين المسلمين واليهود ، ثم كان الخلاف بين المسلمين واليهود بعد « أحد » وقضى على بني النضير ثم على بني قريظة بعد الخندق ، وكان هؤلاء هم الجماعات اليهودية الكبرى في المدينة ، وبقيت بعد تصفيتهم جماعات يهودية صغيرة محالفة للقبائل المسلمة ، فوجد الرسول أنه لا بد من النظر في أمر هذه الجماعات ، فنظر المسلمون في ذلك الموضوع وناقشوه واتخذوا فيه قرارات نجدها في جزء كامل من أجراء دستور المدينة .

مثل هذا كان لا بد أن يفعله عمر بعد الفتوح ودخول جماعات كبيرة من أهل الأمصار في الإسلام ، وكان لا بد أن تنظر جماعة الشورى في ذلك وتتخذ فيه القرارات ، ولكن عمر في الغالب أهل الشورى أو هو قصرها على نفر من أصحابه ،



فكان يستشيرهم دون الآخرين ، وهذا مخالف لسنة الرسول ، وكان التزام السنة يقتضى المحافظة على الشورى وتنظيم أمرها وعرض كل مسائل الأمة عليها لتتخذ فيها القرارات المناسبة كما كان الحال في أيام الرسول . ولكننا اتبعنا السنة في أمور وتركناها في أمور أخرى ، وكان هذا مما أضر بالأمة ضررا بالغا فقد كان من الضروري مثلا أن ننظر الشورى في أمر المسلمين من غير العرب ونضع القواعد السليمة لاستعراهم وإسلام من يريد الإسلام منهم . أما أن نترك الأمور تجري كيف تشاء في هذا الموضوع فكان شديد الضرر بأمة الإسلام وفتح الباب أمام الفوضى والارتجال والفوضى والارتجال ثم الاستبداد أصبحت قواعد العمل في دولة الإسلام .

\* \* \*

ومن الأخطاء السياسية الكبرى التى وقعنا فيها مسألة الخلافة ، فالخلافة كان يبغي أولا أن تكون نابعة من جماعة الشورى ، وكان من الأخطاء الجسيمة أن اعتبر الخليفة حاكما بأمره يتصرف كيف يشاء ، وإذا هو أراد أن يستشير استشار وإذا أراد أن يتخذ القرار اتخذه ، وأبو بكر وعمر كانا حليقتين صالحين لأنهما بطبعهما كانا صالحين ومسلمين صادقين ، لا لأن الظلم في ذاته كان صالحا فقط فليس من المعقول ولا مما يتفق مع طبيعة الإسلام أن يحكم هذه الأمة كلها رجل واحد ، وأن يحكمها دون حدود لا من سلطان أو رمان وعمر أنفسنا اليوم لا نرضى بذلك في دولنا فرئيس الدولة ليس مطلق السلطان يقرر ما يشاء ولا معقب على ما يقرر ثم إنه لا يحكم دون حد زمنى ، فلا بد من تحديد المدة ، ومن الممكن تجديدها ، في حدود أيضا ، أما أن يتولى الخليفة الحكم إلى أجل غير مسمى فخطأ لأنك إذا أقمت حاكما مطلق السلطان غير محدد بزمان فقد أوجدت بذلك حاكما مستبدا ولا يغير من هذا الوضع أنك تسميه خليفة ، فهو ملك مطلق السلطان على أى حال ، وليس أضر على الأمم من الحاكم المطلق السلطان الذى لا تحده حدود أو قيود ولكنا نعرف أن ذلك كان من أكبر أسباب تدهور دول الإسلام .

ثم إن عمر عندما طعن وأيقن بالموت اختار ستة فحسب من المسلمين وترك لهم أمر اختيار حله ، وقال إن الأساس الذى اختار أولئك الستة على أساسه أنهم هم الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . فهل هؤلاء الستة فحسب هم الذين توفى الرسول وهو عنهم راض ؟ ولماذا يكونون من قريش وحدها ، هل لدينا حديث صريح

جمع عليه يقول إن الخلافة في قریش وحدها ؟ وإذا كان هناك حديث للرسول في هذا المعنى فلماذا أهمله الأنصار في مناقشتهم لأبي بكر وعمر في حديث السقيفة ؟ وهل توفي رسول الله وهو غير راض عن سعد بن عبادَةَ مثلاً . لقد كان هذا الرجل من أكثر المسلمين إخلاصاً للدين وللرسول وللأمة ، فقد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ، ومان غزاة أو سرية إلا تبرع فيها بالمال الكثير ، ولو أننا أحصينا مكارمه لوجدناها تفوق أضعافاً كل عطايا عثمان بن عفان ، ولكن مؤرخينا يضللوننا ويقولون مثلاً إن عثمان قام بنصف نفقات جيش « العسرة » وهذا غير صحيح ، وفي هذه الغزاة وغيرها كان إئذاق سعد بن عبادَةَ أضعاف إئذاق غيره ، ثم إنه كان حريصاً يوماً بعد يوم على أن يرسل إلى رسول الله ومن إلى جواره من أهل الصفة طعامهم ، هذا إلى جانب ما كان يقدمه ابنه قيس بن سعد بن عبادَةَ . فكيف لا يكون هذا الرجل ممن توفي رسول الله وهو عنهم راض مع أنه هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام » .

ألم يكن أفضل لأمة الإسلام لو سارت الشورى كما كانت عليه أيام الرسول ؟ وأليست هذه هي السنة ؟ أم أننا تتبع السنة فيما نشاء ونخالفها فيما نشاء ؟ لقد كانت الشورى نحو ثلاثين رجلاً منهم اثنا عشر من الأنصار ومثلهم تقريباً من المهاجرين والبقية من أهل المدينة ممن لم يكونوا مهاجرين ولا أنصاراً . ومثل هذا العدد من فضلاء الصحابة كان لابد أن يحسنوا الرأي بأحسن مما جرى في اجتماع السنة ، لأن عبد الرحمن بن عوف تصرف في هذه الاجتماعات تصرفاً يؤخذ عليه ، فقد بدأ فأخرج نفسه من احتمالات انتخابه خليفة ، ثم مضى يسأل أصحابه الباقين إن كانوا مستعدين للسير في أعقاب رسول الله وأبي بكر وعمر ، فأما رسول الله فمفهوم وهو على العين والرأس ، ولكن لماذا يلزم الخليفة الجديد باتباع نهج أبي بكر وعمر مع أنهما كانا مختلفين في كثير من المسائل وبخاصة مسألة قسم العطاء بين المسلمين ، فقد كان أبو بكر يرى التسوية بين المسلمين في أصعبهم من العطاء لأن هذا — كما قال — معاش والتسوية فيه أحسن ، أما عمر فقد فرق بين الناس وقال إنه لا يسوى بين من قاتل رسول الله ومن قاتل معه ، وفرق بين الناس بحسب القرابة فأعطى آل بيت رسول الله ﷺ أكثر مما أعطى غيرهم ، فرق بينهم في ذلك أيضاً مع أن رسول الله لم يكن يأخذ من مال المسلمين شيئاً . وكان لا يعطى آل وأهل بيته

إلا النصيب الضعيف الذى قرره لهم الله فى القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد كان نادرا ما يعطى آله شيئا ، فأى الرايين يتبع الخليفة إذن : رأى أى بكر أم رأى عمر ؟

ونحن عندما بعيد التفكير فى مثل هذه الأمور فإن دافعنا ليس القدر بل نحن نبحث ها عن سبب الخلل فى نظام الأمة الإسلامية . لقد كانت الأمة تسير على خير نظام دستورى شورى أيام الرسول ، واستمرت الأمور تسير سيرا حسنا أيام أبى بكر وعمر بقوة الدفع أولا ثم بسبب تميز الرجلين ، ولكن حياة الأمم لا ينبغي أن توكل إلى الظروف . وكان لابد إذا أردنا أن نقول إننا سرنا على السنة أن نكون قد اتبعنا السنة حقا ، أما أن نتبعها حينما نشاء ونهملها فيما نشاء فقد كان هذا سبب الخلل . ولا يظن أحد أن اتبعنا هذا فى الكلام فيه قلة توفير لبعض الصحابة ، وما شاء الله أن يكون هذا موقفنا ، فنحن نجل الصحابة ( رضوان الله عليهم ) بأكثر مما يجملهم أى مسلم تقى مؤمن ، ولكننا نفرق — فى كل من الصحابة — بين جانبيه كصحابى . فهذا عندنا فضل من الله وميزة كبرى وجانبه كإسان . فإن الصحابة كانوا سواسية فى الصفة الشريفة ، ولكنهم لم يكونوا سواسية فى المواهب والحصال . وقد آن أن نتخلص من بعض المفهومات القديمة التى ورثناها عن السلف دون تفكير مثل قولنا إن عشرة من الصحابة ميثرون بالجنة دون غيرهم . وهذا غير صحيح ، فنحن لانجد معد بن معاذ فى أولئك العشرة مع أن رسول الله قال إن سعد بن معاذ فضلا فى الجنة .

ونحن لا اعترض لما على الخلافة ، فهى نظام رياسى كغيره . ولكن كان ينبغي أن تكون نابعة من الشورى ، لأن جماعة الشورى هى أساس السلطة كلها فى أمة الإسلام ، فهذه أمة شورية ، وأهل الشورى هم الذين يختارون رئيس الجماعة . ثم إن مدة الرياسة ينبغي أن تكون محددة والأمة هى التى تقرر مدتها وتقرر إن كانت تمجد أو لا تمجد .. والأمة الإسلامية نفسها — كما نراها فى دستور المدينة — ليس من الضرورى أن تكون وحدة سياسية واحدة . بل من الممكن أن تكون وحدات سياسية مختلفة ولكنها متآخية مترابطة تحت راية الإسلام وعقيدته وشريعته وميزانه الخلقى ، فقد أقر رسول الله ﷺ مملكة داخل أمة الإسلام وهى مملكة ابني الجبلدى فى عمان ، لأنهما دخلا فى الإسلام وأما بعقيدته وشريعته وأقاما الصلاة وآتيا الزكاة وأحسنا استقبال العامل على الزكاة المرسل من قبل رسول الله ( صلوات الله عليه ) .

وأقر رسول الله رئيس قبيلة كبيراً داخل أمة الإسلام هو المنذر بن ساوى في ناحية البحرين لأنه كان مؤمناً بالإسلام متبعاً شريعته وكان أهل ناحيته راضين عنه . وفي دستور المدينة وفي كتب رسول الله نرى أن الأمة الإسلامية مرة جداً ، فمن الممكن أن تتكون من إمارات وملكيات ورياسات ومن الممكن أن يكون فيها أكثر من خليفة ، كل منهم في ناحية على أن يكونوا متآخين متعاونين فيما بينهم ، وعلى ألا تقع الحرب بينهم أبداً ، فالإسلام لا يعرف الحرب إلا دفاعاً عن دار الإسلام ، وفيما عدا ذلك فإن الحرب الوحيدة التي يعترف بها الإسلام هي الجهاد ، وهي الحرب في سبيل الإسلام . وهي ليست حرباً بقصد منها إرغام الناس على الدخول في الإسلام ، فلا إكراه في الدين ، ونحرم مهما فعلنا فإننا لا نهدى إنساناً ، لأن الهدى هو الله ، وإنما الجهاد هو إزالة العوائق التي تحول بين الناس ودخول الإسلام ، لهذا حارب المسلمون الفرس والروم لا لإدخالهم في الإسلام بل لأنهم كانوا يحولون بين الناس ومعرفة الإسلام ، فأزالهما المسلمون وأوصلوا الإسلام للناس في إيران والشام والعراق ومصر ، وعرفوا الناس بالإسلام ثم تركوهم بعد ذلك يدخلون الإسلام إذا اقتنعوا به ورغوا فيه ، وقد كان أهل المغرب وثنيين فحاربهم المسلمون لأن الإسلام لا يقر الوثنية ، وعندما عرف أهل المغرب الإسلام دخلوا فيه بل أصبحوا من جوده البواسل ، وقد اشتركوا مع العرب في فتح الأندلس لأن حكومته ( وهي من القوطيين ) كانت تحول بين الناس ومعرفة الإسلام . فلما أزال المسلمون هذه الحكومة وعرف الناس الإسلام فأسلموا وهكذا . وكل ما فعلته دول الخلافة بعد العصر الراشدي من إرغام المسلمين جميعاً على الطاعة لها كان خطأً ، ولم يكن الغرض منه إلا الحصول على الأموال ، وكل ما وقع بين دول المسلمين من حروب كان مخالفاً للإسلام . فلا يجوز للمسلم أن يحارب المسلم . وقد وضع الإسلام قواعد الصلح بين المسلمين إذا هم اختلفوا فيما بينهم ، ولكن دول المسلمين نسيت هذه القواعد وجعلت تاريخها حرباً دائمة فيما بينها مما آل بها كلها إلى بوار .

\* \* \*

أما عدم تحديد مدة رئاسة الرئيس ، أيما كان لقبه : خليفة أو أميراً أو سلطاناً ، فقد كان من أكبر المصائب التي ابتليت بها أمة الإسلام . ولا يجوز أن نقول إن أمة الإسلام لم تعرف أن تحديد المدة ضروري ، لأن الرومان قرروا هذا المبدأ وشرحوه

في قوانينهم ، ولا يعقل أن مشرعى المسلمين جهلوا ذلك ، فقد ترجمت لهم الكتب من اليونانية واللاتينية والفارسية والهندية وغيرها ، وكانت مسألة تحديد مدة الحاكم والموظف الكبير أساسية جدا في القانون الروماني حتى إن كبار مؤرخي الرومان من أمثال سالوس وجوريفوس ومارسيلوس اميانوس قالوا إن فساد الدولة الرومانية كله جاء من محاولة يوليوس قيصر تخطي مدة الرئاسة ، فقد كانت الرئاسة عند الرومان سنتين ، وكان الذي يمحقها هو مجلس الشيوخ ، لأن الأمة عندهم كانت الأصل أما الرئاسة فهي العرع ، فلما تولى الرئاسة يوليوس قيصر وأذن له مجلس الشيوخ في حرب القبائل الجرمانية ومضى يحاربها أعجبته الرئاسة وأحب أن يتخطى المدة ، فجعل رأيه كلما انتهت السنتان أن يقول إن خطر الجرمان لا يزال قائما ولا بد له من الاستمرار في حربهم وطلبوا أن يمدوا له سنتين ، فلما توالى المد وطالت المدة قلق الرومان ورفض مجلس الشيوخ أن يمد له فصار يحشه نحو روما ، وعبر حدود بلاد الرومان الشمالية عند نهر يسمى الروبيكون ، فاعتبر مجلس الشيوخ يوليوس قيصر حارجا على الدولة ، ومن ذلك الحين أصبحت عبارة : « تخطي الروبيكون » تعني كسر القانون وتخطيه .

فلما استقر يوليوس قيصر بجيشه في روما خاف الشيوخ وسكتوا على مصص ، ولكن بعضهم وعلى رأسهم صديقه بروتس قرروا قتله لتخليص بلادهم من الطاغية ، وقتلوه في الخبر المعروف ، وكان من بين قاتليه مارك انطونيوس صاحب كليوباترا ، ولكن نفرا من قادة يوليوس قيصر ، وعلى رأسهم اكتافيرس أغسطس غضبوا له وهضوا يقاتلون قتله حتى قضوا عليهم ، وأصبح اكتافيرس أغسطس رئيسا دائما أو صاحب الأمر ( امبراطورا ) ومن ذلك الحين تحولت دولة الرومان من جمهورية أو دولة عامة ، ملك أهلها أجمعين ، إلى امبراطورية ، أي أنها تحولت من دولة شورية إلى دولة استبدادية ، ومن ذلك الحين بدأ تدهور الدولة الرومانية ونزعها الطويل .

\* \* \*

أما عندنا فقد بدأ التدهور بسبب عدم تحديد المدة من تاريخ مبكر جدا . فإن عثمان بن عمان عندما صارت إليه الخلافة على النحو الذي صنعه عبد الرحمن ابن عوف أسلم الأمر لآل بيته ، لأنه عندما تولى كان قد تخطى السبعين من عمره ، وكان مؤمنا صادقا حقا ولكنه في حياته لم يشترك اشتراكا فعليا في جهاد ولا هو

عرف شعور الأمة ، إنما هو كان في ذلك كله مطيعا لرسول الله ولأبي بكر وعمر . ولكن الأذى الكبير أتى من أنه كان من بنى أمية ، وبنو أمية كانوا من عيد شمس أئذ أعداء بنى هاشم ابن عبد المطلب ، ولم يكن العداء بين الجانبين قديما من أيام الجاهلية — كما يقول المؤرخون — ولكن العداء الحقيقي كان من أيام موقعة « بدر » .

فإن العداء بين بنى هاشم وبنى عبد شمس — فرعى قريش الكبيرين — لم يكن قديما أو عنيفا بالدرجة التي يصوره بها مؤرخونا القدامى وبخاصة المقرئ في كتاب « النزاع والخصام بين بنى أمية وبنى هاشم » فقد كان أحدهما قريبا من الآخر حتى نادى محمد ﷺ بالقرآن والإسلام . بل حتى بعد ذلك كان كبار بنى أمية وعبد شمس معتدلين إلى حد كبير في عدائهم لرسول الله والمسلمين ، بل كان عتبة ابن ربيعة كبير بنى عبد شمس يمثل المعتدلين الذين يخضون للإسلام ولكنهم لا يرون مواجهته بالقوة ، إنما كان يرى أن يترك محمد ﷺ ليواجه العرب ، فإذا انتصر عليهم كان لبنى عبد شمس كسب من ورائه لأهم من كبار القرشيين ، وعند الخروج لمركة « بدر » كان عتبة معارضا لأبي جهل عدو الإسلام الأكبر ، وكان عتبة يرى رأى أبي سفيان صخر بن حرب الذي نجا بالعر ، وكان يرى لهذا أنه لم يعد هناك معنى لخروج قريش بجيش كبير والقيام بمظاهرة تظهر للعرب أن قريشا ما زالت سيادة العرب وأن محمدا وأصحابه لم يبالوا منها شيئا ، وعتبة كان لا يرى معنى لذلك ، لأن المهم أن قريشا أنهضت غيرها ، وكان الرجل يخاف كذلك من نتائج الحرب إذا وقعت على قريش ، وأنه إذا قتل ناس كان ذلك قاضيا على وحدة القبيلة ، لأن الذين سيقتل منهم ناس لن يسوهم أبدا ، ولن يستريحوا حتى ينتقموا لهم ، وتبدأ سلسلة من العداوات والثارات الخطرة داخل القبيلة ، ولم يتردد أبو جهل في مهاجمة عتبة ، وقال إنه لا يريد حرب محمد والمسلمين لأن حظظة بن عتبة مسلم مع محمد ﷺ وهو يخشى عليه أن يقتل .

ولكن رأى أبي جهل غلب ، وسار الكفار للحرب ووقع اللقاء في سهل بدر في ١٧ رمضان سنة ٢ هـ ( ١٥ مارس ٦٢٤ م ) وهنا تغير كل شيء ، لأن المسلمين انقضوا على المشركين وحطموهم حطما ، وقتلوا سبعين من كبار القرشيين ، وكان يست بنى عبد شمس من أحفل بيوت الكمار بالمصيبة ، فقد قتل منهم ومن حلفائهم اثنا عشر رجلا فيهم عتبة بن ربيعة سيد بنى عبد شمس وأخوه ضبة بن ربيعة وابنه

الوليد بن العاص ، وهذه الحسارة أثرت في بيت بني عبد شمس أثرا بعيدا ، ولكن الأنكى من ذلك أن الجانب الأكبر من هؤلاء ماتوا إما بسيف على بن أبي طالب أو شارك في قتلهم ، وبليه في هذا البلاء العظيم عمه حمزة بن عبد المطلب ، فأما حمزة فقد أدركوا منه ثأرهم في « أحد » وبقي على بن أبي طالب يحمل كراهة بني عبد شمس كلها ، ثم إن عليا فعل مثل ذلك في « أحد » فقد كان على أسدا من أسود الإسلام ، وسيفه نصر الإسلام أعز نصر عرفه .

من ذلك الحين أصبح على بن أبي طالب عدو بني عبد شمس الأكبر وهم إذا عمروا لغیره ما فعله بهم إلا أنهم لم يعمروا لعل قط ، وظلت قلوبهم حائرة بكراهته توافقة إلى الانتقام منه ومن بنیه .

\* \* \*

لهذا كله نفهم كيف استقبل بنو أمية خلافة على بن أبي طالب استقبالا سيئا ، وعلى كان قد قتل أحبا من إخوانه معاوية في « بدر » هو حنظلة بن أبي سفيان ، وكان أولاد أبي سفيان بن حرب قد بلغوا مبلغا كبيرا من القوة والعنى طوال أيام أبي بكر وعمر ، وقد بدأ صعودهم أيام الرسول ﷺ فقد كان معاوية شابا ذكيا مجتهدا قارئا كاتبًا ، وقد قربه رسول الله إليه عقب إسلامه مع أبيه وأخيه زيد وبقيّة آل بيتهم عام الفتح ، فهم من مسلمي الفتح وهم من المؤلفة قلوبهم . ولكن معاوية صح إسلامه وأحب الرسول واقترب منه وقربه الرسول وجعله من كتاب الوحي ، وإذا نحن نظرنا إلى أسماء كتاب كتب الرسول لوفود العرب سنة ثمان وتسع هجرية وجدنا أن معاوية كتب الكثير منها ، وقد تعلم معاوية هو وأخوه الأكبر زيد بن أبي سفيان من القرب من رسول الله الشيء الكثير ، فقد كان رسول الله مدرسة كبرى ، ومعاوية بطبعه كان مؤهلا للسياسة متطلعا إلى القوة السياسية ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من بني عبد شمس ، وهم هنا يختلفون عن بني هاشم ، فقد ورث بنو هاشم الجانب الروحي من هاشم بن عبد مناف كما طوروه ابنه عبد المطلب بن هاشم الذي كان زعيما روحيا وهو بالى الركن الثالث من أركان قوة قريش وهو الدين الوثني الجاهلي الذي يسمى أحيانا بدين عبد المطلب ، أما بنو عبد شمس فورثوا الجانب المالى التجارى من أخلاق هاشم بن عبد مناف ، وهو الذى بنى المجد التجارى المالى لقريش .

وفي أيام أبي بكر يظهر بو عبد شمس فترى زيد بن أبي سعيان ، الأخ الأكبر لمعاوية على رأس أحد الجيوش الصاعدة للشام ، ومع زيد سار الكثيرون من بني عبد شمس ، وكان لهم نصيب عظيم في فتوح الشام حتى قال المقرئى : « إنك لو رفعت حجراً في بلاد الشام لوجدت تحتها شهيداً من بني عبد شمس » . وعندما توفي زيد أقام عمر بن الخطاب أحياه معاوية مكانه بل جعله على كل بلاد الشام وأطلق يده وتسامح له بالكثير مما لم يكن يأذن فيه لغيره من الظهور بمنظر الفحامة والقوة ، وقد استعمل معاوية هذه الفرصة واستكثر من بني أمية في بلاد الشام وولاهم الولايات وأعطاهم الأموال ، وأتم هو فتح بلاد الشام إلى مداخل آسيا الصغرى وفتح قبرص وأسكنها المسلمين ، وتقرب معاوية من قبائل العرب النازلة في الشام وبخاصة قضاة وفرعها الأكبر كلب بن وبرة ، وكندة وفرعها الكبير من السكون وطىء ولحم وغطفان وعذرة والهمر بن قاسط . ومعاوية هو الذى قسم بلاد الشام إلى أقسام عسكرية هي الأجداد وأقام عليها رجالاً من بني أمية وحلفائهم ، ومعاوية كان رجلاً موهوباً في شئون الإدارة والمال . وعندما استشهد عمر بن الخطاب كان معاوية أقوى وأغنى رجل في الدولة ، ولهذا عندما صارت الخلافة إلى عثمان أصبح معاوية أقوى من الخليفة نفسه ، وخاصة أن عثمان عهد في معظم الأمور إلى أهل بيته ومعظمهم من بني أمية . وعندما استشهد عثمان لم يكن معاوية مستعداً للتنازل عن المركز الكبير الذى صار إليه ، وكان أهله وحلفاؤه يحيطون به في بلاد الشام يؤيدهم الكثير من رؤساء القبائل العربية في بلاد الشام ، وقد عرف معاوية بالسياسة والمال كيف يجعلهم جيشاً خاصاً لنفسه وأهل بيته . والكثيرون جداً من عرب الشام لم يكونوا يعرفون أنساب قريش ، ولدنيا ما يدل على أن معاوية وآله نشروا بينهم فكرة أنهم — بني أمية — أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ والكثيرون منهم لم يسمعوا بهل بن أبي طالب . هذا إلى جانب ماله الكثير وبمقتضه الدائمة .

\* \* \*

وتلك كانت الحقيقة التى غابت عن على بن أبي طالب عندما تولى الخلافة ، فقد كان لا يعلم أنه خليفة لا تؤيده في الحجاز قوة عسكرية كافية ، وكان لا يعلم أنه من بين ولادة الدولة من هم أقوى منه وأعز نفراً وأكثر مالاً . وقد تولى على في ظروف عسيرة جداً ، فإن الكثيرين من الصحابة كانوا يفضلون خليفة سهلاً لينا غير حازم بعد عمر بن الخطاب ، وقد حافوا أن يسير فيهم على بسيرة قوية مثل



سيرة عمر أو سياسة تشبهها ، وكانت أموالهم كثيرة وكانوا تواقين إلى الاستمتاع بها راعين في الخروج إلى الأمصار للاستمتاع بالحياة ، ولا ضير عليهم في ذلك فإن ذلك من حقهم ، وقد غاب عن الكثيرين منهم أن مواقعهم كصحابة تجعلهم دائماً قادة الناس ، وهذه القيادة تفرض عليهم الترام الخطأ العمري أو ما يشبهه ، فإن أمة الإسلام كانت قد اتسعت اتساعاً عظيماً ودخلت فيها أم كثيرة في حاجة إلى قدوة إسلامية وقيادة أخلاقية . وعلى كان يفهم ذلك ويحس به ولكن الكثيرين غيره من الصحابة كانوا لا يدركونه ، وبعضهم اعتزل الحياة والعمل عندما قامت الفتنة ، وبعضهم الآخر جرفه السياسة والقيادات الجديدة فلم يدر كيف يتصرف .

والشيء الذي غاب عن الكثيرين هو أن الكثيرين من العرب الذين قاموا بالفتنة وساروا إلى المدينة لمناقشة الخليفة لم يكونوا ثائرين على عثمان وحده بل على الصحابة أجمعين ، ومعظم أولئك الثائرين لم يكونوا يعرفون إلا أن الدولة دولة الصحابة والقوة قوتهم ، وقد كان هؤلاء العرب يستمتعون — إلى منتصف خلافة عثمان — بدخول كبيرة جداً من المغنم حتى قُدر دخل الجندي العربي — أيام عمر وإلى منتصف خلافة عثمان — بثلاثة آلاف دينار ذهبي في العام ، وهذا دخل كبير جداً تعود العرب معه الإنفاق الكثير والعيش عن سعة إن لم تقل عن ترف ، وكلهم تزوجوا أو تسروا بنساء البلاد المفتوحة وأحبوا الأولاد الكثيرين ، ومن المعروف أن العربي مسرف متلاف للمال لا يكاد يدخر شيئاً .

وفي منتصف خلافة عثمان انتهت فتوح البلاد الغنية التي تدر العنائم الوفيرة ، فمضى الشرق دخلنا في طحارستان وحرب الترك وهم قبائل بدوية لا يحصل المقاتل منهم على غنائم تذكر ، وفيما عدا الأسرى ورؤوس الماشية لم يكن هناك شيء ، وبعض هؤلاء الفاتحين كانوا قد تزوجوا مثنى وثلاث في العراق وفارس وخراسان ، وكثر عيالهم واحتاجوا إلى المال الكثير . وفي ناحية الغرب انتهبوا بالفتوح إلى المغرب الأوسط ، وهي أيضاً بلاد قبائل من المقاتلين والرعاة ، ولم تكن للغنم منهم كثيرة ، وكان موسى ابن نصير مثلاً لا يخرج من هؤلاء إلا برؤوس السبي والماشية ، أما المال من الذهب والفضة وما كان يمكن أن يباع ويؤتى المال فكان قليلاً .

وتلك هي الأزمة التي واجهت الجند العرب في منتصف خلافة عثمان ، وكان الجند قبل ذلك لا يكادون يحفلون بالمعطاء ، لأن معظم الذين قاموا بالفتنة كانوا

من العرب الذين دخلوا الإسلام في زمن متأخر فقلت أنصبتهم من الأعطيات على أساس القاعدة العمرية في قسم العطاء ، ولو أن عمر نعد القاعدة البكرية التي كانت تسوى بين الناس في العطاء لأنه معاش فربما لم تكن الفتنة قد بلغت هذا المبلغ ، ولكن هذا الجدد - معظمهم لم يكن يعرف الصحابة أو فضلهم - وجدوا أنفسهم صفر اليدين تقريبا ، لأن عطاء هذا الطراز من الجند كان ما بين عشرة إلى عشرين درهما ، وكانوا في معسكراتهم يسمعون أن هناك في المدينة ناسا ما بين رجال ونساء يبلغ عطاء الواحد منهم ستة آلاف درهم ، وكان أولئك الجند هم الذين يأتون بهذه الأموال التي تقسم على الناس فسارت منهم وفود إلى المدينة لكي تناقش الخليفة في أوضاعها ، والخليفة كان بعيدا جدا عن إدراك تلك الأوضاع فهو أولا رجل كبير السن شديد التقوى لا دخل له في الأموال أو الأعطيات ، ومن ناحية أخرى كان القائمون بالأعمال والأموال أهل بيته وهؤلاء لم يكونوا مستعدين للتنازل عن شيء مما كان بأيديهم .

ولهذا فعندما وصل أولئك الناس إلى المدينة لم يجدوا أحداً من أهل الحل والعقد مستعدا للإصغاء لهم أو إدراك أزماتهم ، فالخليفة بعيد جدا عنهم ورجاله كانوا أبعد ، وبعد كلام قليل في مسائل لا تهم أولئك الجند في الصميم مثل جمع القرآن وإحراق ما سوى المصحف العثماني من المصاحف وتوسيع أرض الحمى وضرب عمار بن ياسر دخلوا في صميم الموضوع وتكلموا في الأعطيات وطلبوا إعادة النظر فيها وإن كانوا قد استنوا كبار الصحابة وأهل بيت النبي ﷺ وأمهات المؤمنين .

وكان لا بد أن تقف المناقشات بينهم وبين الخليفة عند نقطة ما ، فإن الخليفة لا يستطيع الاستجابة إلى ما يطلبون ، وهم من جابهم لا يستطيعون العودة إلى مواطنهم دون مال .

\* \* \*

وهنا ، وفي ذلك الطرف المصعب طلبوا منه الاستقالة ، وهنا فوجئوا بأن هذا الرجل غير مستعد للاستقالة . ولو أن عثمان كان وحده فربما كان قد ترك الخلافة ، فقد كان رجلا بالغ الورع والتقوى ثم إنه كان يقارب الثمانين من عمره ، ولكن المشكلة كانت في أهله الذين كانوا يحيطون به ويحرضونه على البقاء في منصبه ، وهنا يقول عثمان عبارته المشهورة : « لا أخلع قميصاً قمصيه الله ! » ، فكأنه كان يرى

أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أقامه خليفة ، وهذا حق . ولكن بإرادة الناس ، فهذه أمة المسلمين لا أمة الخليفة ، وكما اختارت الأمة خليفتها فلها أن تعزله إذا هى رأت ذلك ، ثم إن عثمان كان قد جلوس فى الخلافة ست سنوات وهى فترة كافية لدى حاكم متخبط ، ومن المعقول أن يستقيل وتنتظر الأمة فىمن تنتجبه مكانه . وحاول على بن أبى طالب وغيره من الصحابة التدخل ولكن بنى أمية رفضوا وحرصوه على أن يثبت فى موقعه ، ولا شك أنهم كانوا على صلة بمعاوية ومن معه من الأمويين فى الشام ومن معه من الجند والأموال .

وفى مثل هذه الظروف المعصية من المعقول أن تضيق الدنيا فى وجوه بعض أولئك الجند الفاضلين فتستد أيديهم إلى الخليفة وتصبه ، فهؤلاء كانوا جندا أجلافا فىهم عفا وقسوة ، ثم إن أزمته كانت بغير حل . وهذه — فيما نرى — يمكن أن تكون حقيقة ما وقع : قتل الخليفة ولكن بيد مجهولة ، قتله الظروف التى أحاطت به والنظام القاسى الذى تولى فيه ، فقد كان لابد أن توضع القواعد لولاية الخلافة وكان لابد من تحديد سلطة الخليفة ومدة خلافته . أما أن يعين أى رجل ويوضع فى ثوب عمر بن الخطاب ويطالب باتباع سيرته فظلم دفع عنه عثمان ثم على بن أبى طالب . أما القول بحماية ابن السوداء اليهودى الذى تحرد للابقاع بين المسلمين ومضى يلقى الفتنة بين جماعاتهم فى العراق والشام ومصر والحجاز ومضى كأنه روح شريرة أفسدت ما بين العرب وجعلتهم يقتلون خليفتهم فحديث أساطير لا يقبله أحد ، بل فيه إهانة للعرب ، فأقل ما يخرج الإنسان به مه أنهم قوم أغبياء أو مدج يلعب بعقولهم رجل يهودى واحد .

وإذا كان ولابد أن نبحث عمن قتل عثمان فلعل إهم بنو أمية : صدروا هذا الرجل الخليل وتركوه يواجه الثائرين وحده ويدفع الثمن من دمه لكى يحتفظوا بما جمعوه ووصلوا إليه . وكانوا دون شك يعرفون أن وراءهم معاوية وبقية بنى أمية فى الشام ، ومعهم من الأموال والجند ما يستطيعون أن يحوزوا به الدولة كلها . أما مطالبة على بن أبى طالب بعد ذلك بقتله عثمان فظلم واضح وجزء من المؤامرة الكبرى .

والسبب الأكبر فيها هو عدم ضبط مسائل الحكم والنظام السياسى للجماعة ، فليس فى الدنيا أحقر على الدولة من غموص نظام الحكم وقواعده وحدوده ، والرومان

— كما قلنا — عرفوا ذلك ومنعوا التشريعات الإدارية للدولة ، وعندما قامت أول جمهورية في العصر الحديث وهي الولايات المتحدة الأمريكية بذل رجالها — بعد الاستقلال — جهداً كبيراً جداً في ضبط نظام الدولة وتمهيد السلطات ومدد الحكم وقواعد توليه لإدراكهم هذه المسؤولية . وقد حددوا مدة الرئاسة بأربع سنوات وضبطوا القواعد لتوليها بصورة شرعية سليمة . وقد كانوا أذكي وأبعد حالاً منا فجعلوا دولتهم اتحادية ، أى تتكون من وحدات سياسية مستقلة داخلها ، ومتحدة في السياسة الخارجية والدفاع والقوانين التى تمس مصلحة الجماعة . وكل ولاية حرة في اختيار رئيسها وهو الذى يمثلها في مجلس الشيوخ الاتحادى ، وهو السلطة الكبرى في البلاد ، ورئيس الجمهورية ينتخب انتخاباً حراً في كل الولايات لأنه رئيس الاتحاد ، وسلطاته واسعة جداً ولكن مجلس الشيوخ لابد أن يوافق على كل القرارات ، ومسئولية الرئيس كاملة وعطورية ، فهو أكبر رئيس في الدنيا ولكنه يقف بين يدى مجلس الشيوخ موقف المرؤوس ، وهو قوى جداً ما دام يلتزم القانون والأخلاق . ولكن ياوله إذا هو خالف القانون أو كذب أو اقرف شيئاً يمس الأخلاق . وكل ولاية تنتخب محافظاً أو حاكماً لها من بين أهلها ، وهو حاكم فعلي للولاية يرأس الجهاز الحكومى للولاية وبخاصة البوليس ، وللولاية أن تضع ما تشاء من القوانين وتنفذها ما لم تتعارض مع قوانين الاتحاد . وهناك مجلس نواب للدولة ولكن سلطته لا تصل إلى سلطة مجلس الشيوخ لأن مهمته الأساسية هى التنسيق بين الولايات وقوانينها ومالياتها وصاعاتها والقانون هناك مستويان ، فهناك قوانين محلية لكل ولاية ، ولكن القضايا الكبرى تحال على المحكمة الفيدرالية أى الاتحادية .

وقد أفادت فرنسا من ذلك النظام عندما قامت ثورتها ونشأت جمهوريتها وإن ظلت دولة واحدة لا اتحاد ولايات لأن الوحدة الفرنسية قديمة جداً ومنذ قيام الجمهورية الخامسة برئاسة شارل دى جولى سنة ١٩٥٢ زادوا سلطة رئيس الجمهورية فأصبح رئيساً فعلياً قريباً في السلطة من رئيس الولايات المتحدة وزيدت مدة رئاسته إلى سبع سنوات قابلة للإعادة مرة واحدة ، أما مدة الرئاسة في الولايات المتحدة فأربع سنوات يمكن إعادتها . وفي وقت الحرب يمكن أن تمد مرتين أو ثلاثاً وقد حدث هذا مرة واحدة أيام فرانكلين ديلانو روزفلت أثناء الحرب العالمية الثانية .

وحريات الناس في كلا البلدين مكفولة : حرية العمل والرأى والتعبير ،

والموظفون مقيدون في تنفيذ قراراتهم بقوانين حاسمة ولا يمكن تخطي القانون ، لا للدولة ولا للأفراد . وأول من ضرب المثل في تطبيق القانون في الولايات المتحدة هو جورج واشنطن بطل التحرير ، ولكنه بعد مرتين رفض الثالثة ليضرب المثل : ترك الدولة وكل سلطان وعاد إلى مزارعه في فرجينيا وأصبح مواطناً عادياً ، وكذلك الحال مع كل رؤساء الولايات المتحدة .

\* \* \*

هذه القواعد كلها موجودة في الإسلام وكان رسول الله ﷺ يطبقها ببساطة تدعو للإعجاب ، فحكومة الأمة جماعية ، وهناك هيئة من الرؤساء يختارها الناس أو الرسول تنظر معه في مسائل كل يوم ، والأمة كلها جيش فهي أمة جيش ، وللأمة في أيام الرسول وظيفتان رئيسيتان : إحكام تطبيق شريعة الإسلام داخلها والعمل على نشر الإسلام ، وأي جماعة تدخل الإسلام بحرب أو طوعية تصبح جزءاً من الأمة ، ولكن يريد أن يحتفظ بدينه من رجالها أن يحتفظ به على أن يؤدي الجزية ، وهي ليست صرية ولا مهانة فيها ، لأن الإسلام نور وهدى من الله فلا يدخله إلا من هداه الله فهو نعمة كبرى ، والنعم لا تفرض بالقوة ولكن يحصل عليها من يستحقها يهدي من الله ، فإذا لم يدخل الإسلام إنسان فعلى ذلك أن الله لم يمنحه هذه النعمة ، ومن ثم فمن الخطأ أن تحاول إدخال الناس في الدين بالقوة ، والذين يكرهون المسيحيين لأنهم مسيحيون ويعملون على إدخالهم في الإسلام مخطئون ومعتدون على إرادة الله ، فالإيمان منطقة لا سلطان فيها إلا لله : ﴿ ولو شاء الله لجمع لكم أمة واحدة ﴾ ( المائدة آية ٤٨ ) ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ( البقرة آية ٢١٣ ) وهذه آية معجزة المعنى من الله سبحانه ، وما قرأت لها تفسيراً مقنعاً من أحد المفسرين .

هذا ما كان ينبغي أن يحدث يوم اجتماع سقيفة بني ساعدة : النظر في كتاب الله وسنة رسوله والتأشيق في هدوء ثم اتخاذ القرار . أما الذي تم فكان مأساة ، ولا يشفع فيه أن الذي انتخب كان أباً بكر ، لأن أباً بكر كان نادراً وكذلك كان

عمر ، ولكننا لا نجد كل يوم أباً بكر أو عمر ، وفي أى مناسبة نختار رجلاً من طراز أقل تكون الكارثة ، وهذا هو الذى حدث . لقد ذهب أبو بكر وعمر إلى هذا الاجتماع ومعهما أبو عبيدة ، وكانت المحافظة على الإسلام والسير به إلى الأمام تملأ نفس أبى بكر وعمر ، ولكنهما كذلك كانا حريصين على قريش ، وقريش كانت دائماً قبيلة أنانية لا يعنها إلا أمر نفسها ، وكان العرب لا يحسبونها لهذا السبب ، والعرب لم يحسبوا من قريش إلا رسول الله ﷺ ونفراً قليلاً من أمثال علي بن أبى طالب وأبى عبيدة عامر بن الجراح ، أما البقية فقد كانت فيهم الأنانية القرشية التى لم يحسبها الناس أصلاً . ومن كل بطون قريش لم يحب الناس إلا فرع بنى هاشم إكراماً لرسول الله . وحتى الشجرة النبوية كان فيها الكثيرون ممن لا يستحقون شرف الانتساب إليها . ونحن المسلمين انتخبنا أباً بكر خليفة بغير حدود أو قيود وجعلناه رئيس الجماعة عبر منازع ولا مسائل ولا حدود المدة فقد وضعنا على رأس الأمة ملكاً مطلقاً ، ولم تظهر عيوب ذلك فى أيام أبى بكر وعمر فقد كانا مадريتين ، ولكنه ظهر فى أيام عثمان . وظهر بشكل يشع جداً لأن عثمان كان رئيس بيت من قريش تتمثل فيه الأنانية القرشية بأسوأ معانيها وهو بيت بنى أمية وكان يتزعمهم معاوية ، ومعاوية كان بالغ الأنانية والحيث والقسوة ، ولا ضير علينا فى أن نقول ذلك ، بل ينبغي أن نقول مادام حقاً ، لأننى كما قلت أفرق فى الصحابة بين جانب الصحبة ، وهو جانب جليل يحترمه وجاب الإنسان ، وهذا الجانب الإنسانى لنا الحق فى نقده ، وقد رأيت ما فعله عبد الرحمن بن عوف ، وكذلك ما فعله الزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله كان خطأ بالغا ، فما داماً قد باعنا لعلنى فى المدينة فكيف بنقضان البيعة بعد ذلك حسداً للرجل وبغياً عليه ؟

لو أننا نظرنا فى السنة نظراً سليماً لرأينا أن ما صنعناه نحن المسلمين يوم السقيفة كان سبب كل المتاعب التى لقيتها أمة الإسلام . كانت السنة تقضى بأن تنتخب هيئة الشورى ، وهيئة الشورى كانت تنتخب أباً بكر ( أو غيره ) وما دامت هيئة شورى فلم يكن هناك خوف من خطأ كبير ، وكان لابد أن نختار هيئة الشورى هيئة التشريع التى تضع نظام الدولة وتقرر مدة الرئاسة وحدودها ونظام انتخابها وسلطاتها وقيود تلك السلطات . وحقوقها وقيود هذه الحقوق ، وكان هذا هو القانون الأساسى أو الدستور الذى يقود أمور الأمة فيما بعد فى الطريق الصحيح ، ورسول الله ﷺ وضع للأمة دستوراً ، وضعه بالتشاور مع الجماعة وسير الأمة عليه

والترزم به ، فسارت الأمور عليه سيرا جميلا جدا خلال العصر النبوي .

أما أن يكون الحديث يوم السقيفة عن أمراء ووزراء ، وإصرار قريش على أن تستبد بأمر الأمة كأنها ورثتها عن رسول الله فهذا خطأ ، ورسول الله لم يكن يحكم المسلمين حكم أمير أو رئيس بل كان لا يحكما أصلا وإنما كان يرقنا ونحن نحكم أنفسنا بأنفسنا وبوجهنا إلى الطريق السليم ، وكان صادقا عفيفا متواضعا ، وقد فخر هو بأن الله أدهه فأحسن تأديبه ، وهو أدب أمته فأحسن تأديبها ، وجعل كل شعور الأمة أخلاقا وعلاقات الناس تراضيا ومحبة ، وقد أثنى امرأة وطلبت منه الطلاق من زوجها لأنه دميم ، وقد سألتها إن كان لديها سبب آخر لطلب الطلاق غير الدمامة فقالت : لا والله يا رسول الله ما هي إلا الدمامة فإن قيس بن شماس رجل طيب الخلق كريم ، سألها رسول الله إن كانت مستعدة لأن ترد عليه ما أمهرها إياه فأبذت استعدادها فتأدها وسأله إن كان مستعدا أن يأخذ ما دفع ويطلق فاستجاب وتم الطلاق ، ولو عرضت قضية كهذه على فقيه من فقهاءنا لأبكر الطلاق كل الإنكار ، لأنه يتبع قانونا وضعه فقهاء لا يعرفون أن السنة أخلاق في سنة ١٩٢٩ ، وتسعون في المائة من قضايانا الشرعية ناشئة من أن الفقهاء لا يتبعون السنة ومع ذلك فإن الواحد منهم لا يزال يفخر بأنه من رجال السنة . وحتى عقود الزواج التي ننفقها على كتاب الله ومسة رسوله بعيدة عن السنة ، فليس من السنة أن يدخل رجال ويأخذون موافقة الروجة ويلصقونها للمأذون ليعقد العقد لأن السنة هي أنه مادامت المرأة موجودة فلا بد أن يسمعها المأذون بنفسه ، بل التوكيل في حالة وجود المرأة يعتبر شهادة أو إقرارا من الولي بعقد الزواج ، وهذا الإقرار غير ضروري مادامت العروس بالعاقله .

\* \* \*

ومادامنا قد انتخبنا خليفة مطلق المدة والسلطات فقد وضعنا فوق رؤوسنا ملكا مستبدا عاهما ومن هنا جاء البلاء لأننا لا نضمن أن نجد دائما أباه بكر أو عمر . وعثمان عندما رفض الاستقالة بحجة أن الله سبحانه اختاره خليفة لى ملكا علينا وألبسه ثوب الملكية وسماه القميص حالف السنة والإسلام نفسه مخالفة بشعة ، لأن الإسلام إنما أتى — من الناحية السياسية — ليضع حداً لصور الملوك العاهمين . والذين يقولون إن معاوية هو الذى جعل الخلافة ملكا مخطئون ، لأنها كانت ملكا منذ اللحظة

الأولى ، ولكن أخلاق أبي بكر وعمر أخفت مساوئها ثم جاء عثمان فلم يستطع ، والخلافة في أيامه أصبحت ملكا في أيدي بني أمية ، ومعاقبة لم يفعل أكثر من أنه صرح الناس بهذه الحقيقة ، ولم يكن معاوية أول من أوصى بالخلافة لآله يزيد وجعلها وراثية ، فإن أنصار علي بن أبي طالب هم الذين نادوا بآله الحسن وريثا له في الخلافة ، أما معاوية فكان ملكا وأوصى بالملك لابنه ووضع قوات الدولة وجنودها في خدمة هذا الملك الوراثي ، ومن ذلك الحين تحول تاريخنا إلى صراع في سبيل الملك والسلطان واستبدادها بأموال الدولة وقضاء على حريات الناس وعدوانا على نفوسهم واستبدادها بأحوالهم وهذا هو الذي أصاب تاريخ المسلمين بالشلل . قلة حرية ولا حقوق ولا كرامات وليس هناك أسوأ ولا أدعى للحزن من التاريخ السياسي لدول المسلمين ، فكلها حتى العصر الحديث غارقة في الدماء ومن أسف أننا تعلمنا قواعد السياسة الإسلامية من غير المسلمين ، وهذا كلام سبقني إليه الإمام محمد عبده .

وحتى الشيعة جاءت من إقرارنا من أول الأمر لهذا النظام الملكي المطلق ، لأن علي بن أبي طالب كان أصليح المسلمين لولاية الخلافة بعد أبي بكر وعمر ، ويعد ماضي خلافة عثمان ومطالبة آلهم بنو أمية بوراثة الخليفة أصبح على علي بن أبي طالب أن يدافع عن سلطان نفسه ، وقد أخطأ خطأ بالغا عندما ترك قاعدة ملكه وذهب يطلب الجند والأتصار في الكوفة ، لأن قاعدة السلطان جزء من السلطان وهي رمره ، ولكن عليا لم يكن رجل سياسة ، ولو كان رجل سياسة لمسارح — وفي سرية تامة — فأرسل رجلا من كبار قادته مثل الأشتر النخعي إلى الشام فغلب معاوية في دمشق وانتزع السلطان منه كما فعل أوكثافيوس أغسطس في استرداد السلطان من قتلة يوليوس قيصر ، إنما هو كان رجل دين وأخلاق ومبادئ ، وعندما صار في العراق وجد نفسه بين أجلاف جهلة لم ينفعوه ومعاوية أسرع فضم مصر فأصبح أغنى وأقوى رجل في دولة الإسلام ، والمال والجند هما عماد السياسة ومعاوية اشترى الجند بالمال ، فكان يعطي الجندي مائة دينار في يده ، وجند الشام لم يكونوا يعرفون من صاحب الحق أو ما هو الحق فصاروا يحاربون للمال ، ثم قتل علي وصار الأمر لمعاوية ، وفي ذلك الحين نشأت جماعة الشيعة تطالب بالخلافة لأهل بيته ، ونشأت حركات هي أبعد ما تكون عن روح الإسلام كالدعوة الفاطمية والقرمطية والاسماعيلية بمذاهبها المختلفة وضاع أمر الإسلام جملة . وأمة الإسلام وقعت عاجزة



فلم يعد لها هم إلا المحافظة على دينها وشرعتها وما استطاعت من حقوقها ، ولكنها عجزت لأن الاستبداد بحر زاهر يطفى على كل شيء .

\* \* \*

وننتقل إلى العلم ، وهو الأساس الأكبر لأمة الإسلام فنجد أن الأمة عندما رأت ذلك الاستبداد السياسي الطاغى اجتهدت في النجاة بالعلم والشرعة والقضاء من يد الحكام ، فالدين انشأوا العلم الإسلامي وجمعوا الحديث الشريف لم يكونوا من رجال الدولة ولاهم سمحوا للدولة بأن تسيطر عليهم وتلك فضيلتهم الكبرى فالبخارى ومسلم واسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وهم كبار أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد لم يكونوا من رجال الدولة ولاهم قبلوا بها مالأ ولاهم أدبوا لها بأن تتدخل في كتبهم ، وأحمد بن حنبل خاصم يحيى بن معين وهو من كبار رجال الأحاديث لأنه خضع للدولة وقال بخلق القرآن . ومسألة خلق القرآن نفسها ليست بذات بال ، ولكنها مظهر من مظاهر الصراع بين رجال الدين والدولة ، والأمة كلها وقعت إلى جانب أحمد بن حنبل في صراعه مع المأمون والمعتمد لأنها كانت تكره الدولة وتحب أن تتحداها ، ورجال مثل يوسف البويطي وآل عبد الحكم ( وكل هؤلاء مصريون ) تحذوا الدولة ووقفوا مع ابن حوقل وفقدوا حياتهم وأموالهم ، وانتصرت الأمة في النهاية ونجت بدينها وشرعتها .

والدولة أرادت أن تس تشريعا مقتبسا من القرآن والسنة ليكون التشريع في يدها فرفض الفقهاء ، والرجل الذي أشار بذلك التشريع ( وهو عبد الله بن المقفع ) دفع حياته ثمنا لذلك ، والفقهاء لم يحرصوا على قتله ولكنهم شككوا في عقيدته ، والدولة قتله إرضاء لهم ، ولكنهم لم يرضوا عن ذلك ، واستقل الفقهاء بالتشريع فصاروا يشرعون مستقلين بعلمهم وهذا من مفاخرهم ، والدولة صارت تنفذ أحكام القضاة ، وكان الخلفاء والملوك والولاة يفترون الحنايات حفاظاً على سلطانهم أو في صراعاتهم بعضهم مع بعض دون أن يتدخل في ذلك الفقهاء ، بل كان الفقيه إذا اقترب من السلطان ودخله وعنده وأخذ أمواله يخرج من زمرة الفقهاء المتصانين أهل الدين والعفاف ، بل كان محفرا بين أهل العلم كما حدث لأبي الحسن علي الماودوي ، فقد حدم أمراء البويهيين بكتاب « الأحكام السلطانية » وحلل للأمرء ما أرادوا وحرم ما أرادوا وحوز ولاية المجنون والمعوتة والعاسق ، وجعل الحكم مباشرة

وغير مباشر ، فحجور ولاية غير الصالح على أن تكون ولاية توكيل فينب عنه غيره من أهل العقل والقدرة فيجوز حكمه ، وقد أنكر الفقهاء ذلك في عصر البويهيين وكان الماوردي لا يتمتع بأى احترام من فقهاء عصره .

بل حتى مكان ممارسة القضاء رفض الفقهاء أن يكون في مبنى تبته الدولة ، ومن الواضح أن الحكومات كانت ترحب بأن تقيم دورا للقضاء ( أى محاكم ) ولكن ذلك كان لابد أن يؤثر في القضاة ، وأقل ما فيه أن تكون وثائق القضايا في مكان هو ملك الدولة ، ففضل القضاة أن يارسوا القضاء في المساجد ، لأن المساجد هي بيوت الله ، وهي كذلك بيوت الناس ، وحتى المساجد التي بينها الخلفاء والسلاطين كانت تصبح ملك الناس حال الفراغ من بائها فجلس القضاة في ركن من أركان الجامع ووضعوا فيه القمطر وهو دولا ب سجلات القضايا ، وجلس القضاة وأمامهم الناس ، وفي مؤخرة الناس ، وقف أعوان القاصي ، وهم الذين ينفذون أحكام القضاة ، وكان لدى يعين القضاة واحد من كبار العلماء ممن اشتهروا بالعلم الغير والصلاح والتعلو يعملون في خدمة السلاطين دون أجر ، وكانوا يشترطون ذلك ، لأن أموال الحكام كانت في نظرهم حراما ، وكانوا على حق في هذه النظرة ، فإن أحدا لا يدرى من أين يأتي الحكام بأموالهم فمبها الكثير من أموال الظلم والظفر والمصادرات فهي أموال حرام .

وقد حدث انحراف عن هذه القاعدة البيلة في العصور المتأخرة وهي عصور حكومات المماليك والأترك وسلاطين المول ومعاصريهم ، لأن مستوى المجتمع كله هبط ، واحتضى الفقهاء العلماء المتكرون الذين كانوا يشرعون من أمثال الدارقطبي والسلفي . وقد ألف شمس الدين الذهبي كتابا سماه « المعين في طبقات المحدثين »<sup>(١)</sup> جعلهم فيه أجيالا كل جيل يضم أهل ثلاثين سنة على وجه التقريب ، وقد تبعت الأجيال فيه فوجدت أن الأجيال ذات القدر فيه تنتهى إلى جيل حدود سنة خمسائة فأهل العلم تحولوا بعد ذلك — غالبيتهم العظمى أقصد — إلى حُفاظ ، أى إلى رجال يحفظون الكتب عن ظهر قلب ويرددون ما فيها دون تفكير أو ابتكار ، وقد كثر

(١) سننله د . محمد ربهيم محمد عرب ، دار الصحوة . القاهرة ١٩٨٧

هؤلاء حتى عز عليهم العيش ، فأصبحوا يتأفسون في طلب الوظائف لكي يعيشوا ، وهبط مستوى معظمهم العام هبوطاً بالغا ، وليس في هذا ما يضر الإسلام ، ولكنه العصر وظروفه ومقتضياته .

وكانت سياسة الحكام في الاعتماد على الخند المرتزقة قد أفقرت الدول كلها فقرا مدقعا ، لأن الجنود الذين تشتريهم الدولة وتربيمهم لتستخدمهم في الدفاع عنها ولترغم الناس بهم على أداء الضرائب لا يلبثون أن يشعروا بأنهم قوة الدولة ، فيتحشرون إلى السيطرة على الحكام سواء كانوا خلفاء أو أمراء أو سلاطين ، وأعدادهم تزداد مع الزمن وكذلك مطالبهم من المال ، فإن أولاد الجندى يدخلون خدمة الدولة ، وأعداد الجيش تتصاعف مع الزمن ، ويضطر الحكام إلى زيادة الضرائب ، وتمتد أيديهم إلى أموال الناس وتكثر المصادرات وتتهب أموال التجار ، وشيئا فشيئا تختفى الصناعة والصناعات ، وفي بداية العصر الفاطمي في مصر في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى كانت مصر مشهورة بصاعاتها ، وفي شمال شرق الدلتا فحسب في مدن بحيرة المنزلة كانت هناك مراكز للنسيج تدر الذهب مثل تنيس وديق وشطا ، وكانت مصر تصدر بملابن الدناير من النسيج الفاخر الذى كان يصنع من القطن أو الكتان مربيا بحبوط الذهب وكان الثوب منها يباع بألف دينار ، وكانت مدن الدلتا والصعيد عامرة بصاعات الخشب والجلود والحديد والحاس والصايون ، فمازال الفاطميون يفرصون عليها الضرائب حتى أفلست ووزير واحد من وزراء العرير بالله ثانيا حلفاء الفاطميين في مصر يسمى ابن كلس — كان أصله يهوديا — كان يطلب من مصانع بحيرة المنزلة بما يعدل الألواف من قطع السبع كل عام حتى أفلست وأغلقت أبوابها ، والإدريسي يقول في « نزهة المشتاق » إن مصانع اللجم والمعارش والفرش ( السجاجيد ) في أنخم وغيرها من مدن الصعيد كانت تفلس عندما مر بها في أوائل القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى .

وفيم كانت تلك الأموال تنفق ؟ ١٩ .. في مطالب الخلفاء وعلى جهودهم وحروب الدولة الفاطمية مع الدولة العباسية . وتلك كانت القاعدة : تحارب الدول الإسلامية بعضها بعضاً وعلى طول تاريخ الإسلام ما تجاوزت دولتان إلا تحاربتا دون غاية أو هدف أو معنى غير إعطاء نار الحقد التى كانت تملأ قلوب أهل الدول لخوفها بعضها

من بعض ، فهي كلها دول غير شرعية ، وأصحابها في خوف من رعاياهم ومن جندهم ومن جيوشهم ، وحتى أيامنا هذه مازالت معظم دول الإسلام تحارب بعضها بعضاً ، لأن الحكام مستبدون غاصبون وصوت العقل مكتوم ، فلم يكن الحكام يقبلون رأياً أو نصيحة فكانت أموالهم تضيع ، وأموالهم هي أموال الناس ، وكذلك كانت حياتهم تضيع ، وكلنا نعرف المستوى الذى وصلت إليه الدولة العثمانية من الفقر والتدهور الأخلاق والإدارى ، فهذا هو ما انتهت إليه كل دول الإسلام في تلك العصور ، لأن هناك حقيقة كبرى تعيب عن أصحاب هذه الدول وهي أن الأمة مصدر القوة ، ولا قوة ولا بقاء لدولة إلا بتأييد من أمتها ، وفي أوروبا في العصور الوسطى كانت الدول مستبدة وغاشمة ، ولكن الخيط كان محدوداً بينها وبين شعوبها ولم تكن تعتمد على الجند الأجنى إلا في الحاد ، وفيما عدا ذلك فقد كان الجند من أهل البلد ، وكان الأشراف ( وهم حكام الأقاليم ) يعتمدون على جود محليين ، وهؤلاء الجند كانوا في نفس الوقت جند الملوك ، وكان بعضهم يعادى الملوك ويحاربهم ، ولكنهم في الغالب كانوا يحرصون على أن يظلوا على علاقات طيبة معهم . وحتى في صميم العصور الوسطى كان هناك شيء نستطيع أن نسميه بالحياة القومية ، وكان هناك شيء مشترك بين ملوك إنجلترا من أسرة استيوارت أو بلا تاجيبيت أو هانوفر والشعب الإنجليزي ، وكذلك كان الحال بين الأسر المالكة الفرنسية من آل هيوكايه والبوربون والشعب الفرنسي وكان الملوك يعملون في خدمة الشعب وفي خدمة أنفسهم في نفس الوقت ، وقد تحالف الملوك في كل من البلدين — وبقية بلاد أوروبا — مع أهل المدن والمدن كانت مراكز المال والصناعات ، ولم يكن الملوك ليعتدوا على أموال المدن ومصانعها ، بل كانوا يستلفون منها المال ويردونه ، فاحتفظت البلاد بثرواتها وعندما جاء عصر الاكتشافات الجغرافية كان الملوك ينفقون على الأساطيل والاكتشافات والمتوحات ، فارتقت البحريات وعظمت السفن وتضخم الجيش ، واستطاعت فرنسا وإنجلترا والبرتغال وهولندا أن تستولى على الأراضي المكتشفة وتملكها وتستعمرها ، بل إن البرتغال — وكانت من أصغر بلاد أوروبا — قد تعلبت على المسلمين في المغرب ، وعندما طردوا منه استعمروا شواطئ الجزيرة العربية واحتلوا شواطئ عمان وبلاد الهند الإسلامية وأنزلوا بها دماراً بالغا ، ونحن عاجزون عن الصمود لهم ، ولم يستطع اليربيون أصحاب عمان التحلص منهم إلا بعد خسائر واسعة ومهاتبات بالغة .

وسبب ذلك كله هو أننا تركنا سنة الإسلام في الحكم الشعبي الجماعي وارتدنا إلى الملكيات العاقمة في الجاهلية وعادى الحكام أهل العلم واعتدوا عليهم وغرقوا في عالم من الظلم والجهل والذل والفوضى ، وخرجنا — في هذه النواحي — عن الإسلام ولم نحتفظ منه إلا بممارسة العبادات دون أن نتبه إلى المعاني الرفيعة التي تتضمنها العبادات في ذاتها ، وفي القرن الثامن الهجري وما بعده كان عندنا علماء أجلاء ولكنهم حفاظ ، يحفظون العلم دون أن يتخلقوا بأخلاقه ، وباستثناء ابن خلدون ، والمقرئزي وأبي المحاسن كان العلماء يقعون بعضهم في بعض بصورة لا تتفق مع جلال العلم الذي يعمر قلوبهم ، وما رأيك في الكلام الذي كان ابن حجر العسقلاني يقوله في السيوطي والكتاب الذي ألفه السيوطي في ذم استاذة السخاوي وسماه به « الكاوي في ذم السخاوي » ؟ 19

\* \* \*

وقد كان الالتحام بين الملوك والشعوب في الغرب سببا في نهوض العلوم الدنيوية وهي لا تقل أهمية بالنسبة لحياة البشر من العلوم الدينية ، وقد خفف الله علينا أمر الإسلام ، فليس فيه أسرار ولا تعقيدات ، ولكننا نحن عقدها ، وألغنا الكتب في هذا التعقيد ، وكنا في القرنين الثالث والرابع الهجريين نؤلف الكتب في الطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك ، فأهملنا ذلك كله بسبب الفقر العام وانخفاض المستوى ، فلب الجهل واعط المجتمع كله ، وعندما تلاقينا مع الصليبيين كنا أنداداً لهم فغلبناهم وأخرجناهم من بلادنا في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . ولكن عندما تلاقينا معهم في القرن التاسع عشر كانوا أقوى منا مرارا وغلبونا بل احتلوا بلادنا .

وجدير بالذكر أننا هبطنا في العصر العثماني إلى مستوى من الفقر لا يوصف ، حتى البلاد التي لم تخضع للدولة العثمانية مثل المملكة المغربية ودولة معول الهند والدولة الصفوية الفارسية كانت في غاية الفقر ، وكل هذه الدول كانت في مستوى خفيض جدا من العلم ، وفي مستوى أشد انخفاضاً في المال فغلبونا في كل ميدان ، والسبب هو ابتعادنا عن روح الإسلام في سياسة الأمة والتصرف في أموالها وفي إيماننا للعلم أو علوم المعاش وهي أساسية ورئيسية وكل دولنا اقترضت الأموال من أوروبا ثم احتلتها أوروبا بحجة استعادة أموالها ، فاستعادوا أموالهم واستغلوا بلادنا وغيرها ومازلنا إلى الآن لا نعي هذا الدرس وعياً تاماً .

وأهم ما في هذا الدرس هو الحرية فإن المجتمع الإسلامي أيام الرسول ﷺ كان مجتمعاً حراً يتساوى أفرادُه فيما بينهم مساواة تامة ، وهذه هي قاعدة الجاح ، فعلينا إذا أردنا البهوض الحق أن نتمسك بالحرية فهي قوة للحاكم والمحكوم ، وهي ضمان كل خير وسلامة وعزة ، وبدون حرية لا تقوم أمة ذات شأن .

وعلى ذلك العلوم ، وعلومنا سواء كانت دينية أو دنيوية ينبغي أن تكون علوما نافعة ، فالإسلام دين حرية ودين علم ، وهو ليس في حاجة إلى من يدافع عنه ، فالدين يؤلفون الكتب دفاعاً عن الإسلام ينفقون وقتهم سدى فالإسلام عزيز بنفسه وهو ليس في حاجة إلى دفاعهم . والذين يقرأون القرآن ويجلبون آية ويصيحون : هذه الآية تتحدث عن طبيعة خلق القرآن على آخر ما انتهى إليه أهل العلم في أيامنا ، أولى بهم أن يكفوا عن هذه السطحية ، فمن المعروف أن القرآن يضم كل علوم الدنيا ، وأولى بها أن نستخرج قواعد العلوم منه لا أن نأخذها من أهل الغرب ، ثم نقول إنها في القرآن ، فمن المعروف أنها فيه ولكنها نحن لسنا من العلم والحديث في شيء .

وحديثي بأن نذكر أن الأمة الإسلامية كانت دائماً أمة واحدة ، وكل الخلافات كانت بين الحكام ، فلم يحدث قط أن حارب أهل مصر أهل الشام ، ولكن حكام مصر حاربوا حكام الشام وأهلكونا معهم ، وأضاعوا أموالنا وخربوا بلادنا ، وأمة الإسلام لا تزال واحدة ، فلنجهتد في إنهاء خلافات الحكام ، ولتتعاون أئمتنا بعضها مع بعض لكي نهض ونسترجع ما فات ، وإذا كان بعضنا يخدمون الروس ويحاربون إخوانهم المسلمين خدمة للروس في سبيل السلاح الذي يأخذونه منهم ، فلماذا لا يصنعون هم السلاح ؟ وهل صناعته معجزة ؟

أهم شيء — كما قلت — هو الحرية والعلوم ، وأضر شيء بنا هو الاستبداد والظلم والجهل ، ونحن نجرب اليوم الحرية فلنتمسك بها ، وعسانا لا نظن أن أهل السلف كانوا أصلح منا كما نزع ، فإن هذا غير صحيح ، ونحن اليوم خير من أسلافنا ، فليكن فكرنا حاضراً ، وليكن نظرنا إلى الأمام ، فإن النظر إلى الوراء لا يفع في شيء .

\* \* \*

إذن فالمشكلة عندنا أساسية . مند البداية أخطأنا الطريق واتجهنا بالحكم اتجاهها

غير إسلامي ، فالإسلام يعارض الاستبداد ويكره حكم الفرد المستبد ، ورسول الله كان يعرف أنانية قريش واستبدادها . وفي أكثر من مناسبة تصدى لحماية الأنصار ونصح عمر بالاعتدال وجدير بالذكر أن عمر لم يكن يتمتع بامتياز خاص أو مكانة خاصة في الأمة الإسلامية أيام الرسول ، وتدخلاته في شئون الجماعة كانت في الغالب على طريق أذى بكر . وتمر عليك صفحات بعد صفحات من المسيرة النبوية دون أن يمر بك ذكر لعمر . لقد حضر المشاهد كلها مع الرسول طيعا ، ولكنه لم يقدر إلا سرية واحدة ، وكذلك أبو بكر لم يقدر إلا سرية واحدة ، وكانت الاثنتان بعد ست سرايا قام بها زيد بن حارثة ، والغالب أن الرجلين احتجا على تلك الصدارة التي كانت لزيد ، ولم يكن قرشيا بل كان قضاعى الأصل وأسر واشتراه حكيم بن حزام لعمرته خديجة ( رضى الله عنها ) وأهدته هي إلى رسول الله فأحببه الرسول حبا شديدا ووثق به حتى صار يوصف بأنه حب رسول الله ، وقد أرسله الرسول أميرا لست سرايا متوالية ، فغار منه القرشيون وتحدثوا في ذلك ، وقد صارحهم الرسول بذلك وهو على فراش الموت . وقال موجهها الكلام لعمر : إنه عندما اختار زيدا للإمرة « ورمت أنوفهم » وقال إن ذلك حدث لهم أيضا عندما اختار الرسول ابنه أسامة لإمرة البعث إلى الشام ، وزيد كان أول أمير لموتة ، وقد استشهد فيها .

وقد وضعت أحاديث بعد ذلك تنسب للرسول أنه قال إن الإمامة في قريش ، وهذا غير صحيح ، ولو كان الرسول قال ذلك فعلا لما نافس الأنصار القرشيين في الرئاسة يوم السقيفة ، بل إن الرسول لم يتحدث في الإمارة أصلا لأنه كان يرى أن قيادة الجماعة ينبغي أن تكون جماعية ، والجماعة القائلة تختار رئيسها بالشروط التي تراها ، والإشارة الوحيدة الموثوق بها ويمكن تأويلها بأنها إشارة إلى القيادة الجماعية هي قول الله تعالى في سورة ( آل عمران : آية ١٠٤ ) ﴿ وَلَكِنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ فهي تأتي وسط مجموعة من الآيات يمكن أن نعتبرها أساسا للنظام السياسي للجماعة بعد الرسول ، وعريب جدا من قهائنا الأول أن ذلك لم يستوقف انتباههم ، ولا يمكن القول بأنهم كانوا جباه ، فقد كان فقهاء القرون الأولى أهل شجاعة وإيمان ، ولكن يبدو أن الفتنة داهمتهم ولم يكونوا ينتظرونها ، ووقعت الحرب الأهلية فروغتهم وخافوا على وحدة الأمة ، ثم قامت خلافة معاوية فظنوا أنها نهاية الفتنة وبداية الاستقرار والحكم الإسلامي الصحيح ، ثم رأوا استبدادها والتفاف الجند العرب المرتزقة حول الدولة

الجديدة . وعندما بايع معاوية لابنه ، وتولى يزيد الخلافة يؤيده رجال جبابرة لا يعرفون رحمة ولا براعون دينا ، أسقط في يدهم وسلموا بأن هذه إرادة الله ، وبمسوا من الدنيا جملة وبخاصة عندما رأوا رجلا مثل الحسين بن علي وآله يقتلون على تلك الصورة المخيفة ، ثم إن فتنة عثمان كانت ثورة على حكم الصحابة . وكان الصحابة رجلا أنقياء ولكن الملكات السياسية فيهم كانت قليلة . وجاء التابعون وهم قادة الأمة الجدد ، فوجهوا اهتمامهم كله إلى الدين ، وانهك رجال الأمة في الفتوح وتفرقوا في البلاد وهاجر العرب إلى الأمصار وانصرفوا إلى التعريب ونشر الإسلام ، والأمة العربية كانت بطيعها قليلة العدد ، فذابت في جماهير المسلمين الجدد في عالم الإسلام تاركون الحكم لطلاب السياسة والطامعين وخاصة بعد أن قامت دولة بني العباس واتضح أهم ليسوا بأحسن من الأمويين ، والأمة الإسلامية فشلت فشلاً ذريعاً في قيادة الأمور بزعماء قريش ، لأن الفاطميين وهم بيت ثالث من قريش كانوا سواء مع الأمويين والعباسيين في السوء .

وسأتيك الآن بالآية التي أشرت إليها وسط آيات تعزز في مجموعها ما يذهب إليه . وهو محض فرض أو رأى أطرحة للمناقشة :

قال الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران :  
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلَكِنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الآيات: ١٠٢ - ١٠٥) .

ولو أنك جمعت هذه الآيات بعضها إلى بعض . وفسرت بعضها ببعض ، لرأيت أنها تبصر الأمة بما يمكن أن يقع لها لو تفرق أمر أهلها ، وهي تذكّرهم بنعمة الوحدة والإيمان والإسلام التي أنقذتهم من النار ، ولكننا تفرقنا وتعارفنا فوقتنا في حفرة النار التي حللنا الله منها ، ولا نجاة لنا إلا بأن تكون من بيننا جماعة تقيم القانون والعدل



وتحارب الفساد ، فأولئك هم المفلحون . ونحن نفلح معهم وبهم ، ومرة أخرى يحذرنا الله من التفرق والاختلاف بعد أن جاءتنا البينات ، وعقابنا على ذلك شديد .

\* \* \*

وقد أطلت الكلام عن أسباب خيشتنا في الطريق وإمكانات عودتنا إلى القوة إذا نحن اعتصمنا بحبل الله جميعا ونجنبنا الافتراق وسرنا على طريق العدل والحرية والمساواة كما كنا أيام رسول الله ﷺ وخليفته ، فالأساسة في أساسها سياسية ، وعلاجها لا يكون بأن تنسب إلى رسول الله ﷺ أحاديث تتحدث عن الإمامة ومن يستحقها ، ولا معنى للقول بأن رسول الله ﷺ قال إن الأئمة من قريش ، فقد جعلنا الإمامة فعلا في قريش فلم نر إلا شراً وفساداً ، ولا معنى للقول بأن رسول الله ﷺ قال إن الإمامة ثلاثون عاماً ثم يفترق أمر المسلمين إذ إنه لا معنى لأن ينشيء رسول الله ﷺ أمة قائمة على الإسلام العظيم والقرآن الحليل لكي تعسد وتهار بعد ثلاثين سنة ، ولا معنى كذلك لأن يسب جابر بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ حديثاً معناه أن المسلمين لا ينبغي أن يقتلوا من الناس إلا الإسلام ، فمن أين فليس له إلا السيف ، لأن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك . والقرآن الكريم لم يقل إن المسلمين ينبغي أن يدعوا إلى الإسلام بالسيف بل بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتقى الدين بن تيمية لم يمكن على صواب عندما أيد ما يقول إنه وارد في الصحيحين : « أن قوما دخلوا على رسول الله ﷺ فسألوا ولاية ، فقال : إنا لا نولى أمراً هدا من طلبه وأنه ﷺ قال لعبد الرحمن ابن سمرة : يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمامة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها » فإنه لم تكن في أيام رسول الله ﷺ ولايات أصلاً ، إنما كان هناك أمراء الجنود في السرايا ، وهؤلاء كان رسول الله ﷺ يختارهم بنفسه ، ولم تكن لهم مكاسب ولا رواتب . وكانت الإمرة تنتهي بنهاية السرية ، فيعود الأمر لمواطننا عادياً دون لقب . ومع ذلك فإن لقب أمير المؤمنين لم يستعمل أيام الرسول إلا مرة واحدة ، وأطلق على عبد الله بن جحش ، والمراد المؤمنون المشتركون معه في السرية . وأما عمال الرسول في النواحي فلم يكونوا حكاماً لها . وإنما هم عمال الصدقات . ولا سلطان يلهم خارجها . ولا كسب لهم إلا ما قرره القرآن لهم في آية الصدقات .

وكلام ابن تيمية في كتاب « السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية » ليس



الفصل الثاني

عالم الإنسان





## ميلاد الجماعة الإسلامية :

ولد الإسلام في رمضان من السنة القمرية التي تقابل سنة ٦١٠ للميلاد ، عندما نزل الوحي على محمد ﷺ بأولى آيات القرآن الكريم ، واتصل نزول الوحي على طول حياة الرسول ﷺ ، حتى اكتملت عقائد الإسلام وشريعته وقانونه الخلفي . ثم مضى خلفاء الرسول والعلماء من بعدهم يستكملون تفاصيل المعرفة الدينية وشروط المعاملات ، حتى فصلت أصول الدين والشرعة وشرحت على نحو يحل مشاكل البشر الروحية ، ويبين لهم طريق التصرف في مسائل الحياة اليومية ، ويصلح لكل زمان ومكان . وترك باب الاجتهاد مفتوحاً لمن قدر عليه من أهل العلم والفقه والرغبة في التجويد والتجديد .

وولدت الجماعة الإسلامية الأولى في ١٦ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة — ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ م — يوم وصل الرسول ﷺ إلى قباء ، الصحابة الحوية للمدينة . فقد حفّ للقاءه المهاجرون والأنصار ، وبدأت اجتماعاته معهم في دار سعد بن خيثمة حياً ودار كلثوم بن الهذم حياً آخر ، وبدأ الرسول ينظم أمورهم على أساس من مبادئ الإسلام التي تقوم على الأخوة والمساواة .

ثم أنشأ الرسول ﷺ مسجده الذي أصبح المركز الديني والاجتماعي للجماعة ، وابتنى في ركن من ساحة المسجد حجراته التي أقام فيها بقية عمره ، فأصبح المسجد بذلك المركز السياسي للجماعة ، إذ كان الرسول ﷺ يجتمع هناك وأصحابه ليصرف معهم شئون الجماعة الناشئة ، ثم وضع — بالتفاهم مع صحابته أيضاً — المواد الرئيسية الأولى لدستور الجماعة السياسي ، وهي التي مجدها في العقرات الأولى من « الصحيفة » التي كتبها بين المهاجرين والأنصار ومن معهم من اليهود وترك الدستور بعد ذلك مفتوحاً ليصاف إليه من العقرات ما عس إليه الحاجة ، وما تدعو إليه ضرورات تطور الجماعة من تقنين وتنظيم .

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرميح الأعلى في ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٦ يونيو ٦٣٢ م) ، كانت الجماعة الإسلامية قد شملت شبه الجزيرة العربية كلها ، ودخل فيها جميع أهلها . وكان الرسول ﷺ يسوس أمور هذه الجماعة بتطبيق شريعة الإسلام تطبيقاً دقيقاً ، وبالسير على منهج واضح سليم يعتمد على تمثل الإسلام تمثلاً تاماً ، وعلى العدالة والإخلاص المطلق وفهم الطبيعة البشرية والصبر على الناس والعمل الدعوى وقوة الشخصية مع هبة النبوة في القلوب ، ضارباً للناس بحلقه وسلوكه وتصرفه القدوة الصالحة في كل شيء .

فلما جاء أبو بكر رضى الله عنه حاجته بعض هذه الصفات ، وبخاصة هبة النبوة ، ف شعر بأنه في حاجة إلى قوة تؤيد السلطان الذى ورثه ، وظهر ذلك واضحاً في أزمة الردة . فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يملك قياد الناس وجميعهم بالهبة وسلطان النبوة ، فكانوا يخرجون الزكاة طواعية وعن رضا . ونقول : يخرجونها ، ولا نقول : يؤدونها ، لأن الواقع أن الناس أيام الرسول ﷺ كانوا يخرجون من أموالهم الصدقات ويمفقونها في مصارفها التى حددها لهم القرآن الكريم ، فلا يصل إلى المصدقين ، وهم الرجال الذين كان الرسول ﷺ يتدبهم لتوجيه الناس في موضوع إخراج الصدقات والتصرف السليم فيها ، إلا نصيبهم القليل الذى يحده لهم الشرع . فكان لا يصل إلى المدينة إلا نسبة ضئيلة أخرى معادلة لهذه ، وهى قدر قليل . ولهذا لم يكن للرسول ﷺ بيت مال ولا خازن .

### قيام دولة الجماعة الإسلامية أيام أبى بكر وعمر :

فلما جاء أبو بكر توقف الكثيرون من العرب عن إخراج هذه الصدقات القليلة ، لأنها لم تكن في رأيهم إلا تبريراً عن ولائهم ل محمد ﷺ . والأمر عند الكثيرين من المعتنعين ، لم يزد على ذلك ، فأما وقد مضى عهد محمد ﷺ إلى ربه فلم يعد هناك ما يدعو إلى الاستمرار في إخراج الزكاة . ورأى أبو بكر — بماله من بعد النظر وعمق الإيمان — أن يضع المسألة في صورة حاسمة صريحة لا تدع مجالاً للخلاف ، فعُدّ الامتناع عن إخراج الزكاة انفصلاً عن الجماعة الإسلامية ، وعدّ ذلك الانفصال خروجاً على نظام الجماعة وارتداداً عن الإسلام . وعلى هذه الصورة الخطيرة واجه المشكلة بحزم أدخل العرب من حوله ، وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد باستخدام

القوة في إعادة المرتدين إلى حظيرة الإسلام وجماعته . فصدع بالأمر وسار الحرب المرتدين ، وأنزل بهم هزائم قاصمة ، وأرغمهم بذلك على العودة إلى الجماعة . فانتظمت وحدتها من جديد ، وأفاق الغافلون والمستحشون من غفوتهم ، وعرفوا أنهم — الآن — في دولة ذات نظام لا مفر من اتباعه وسلطان لا سبيل إلى الخروج عليه .

وكانت هذه أول مرة تستخدم فيها الجماعة الإسلامية القوة داخل حدودها ، لأن هذه الجماعة كانت محاربة خارج حدودها فقط ، وكان جندوها هم أفراد الجماعة أنفسهم ، إذ كانت وظيفتها المحافظة على سلامتها ومد نطاقها بإدخال أقوام آخرين في الإسلام . أما عندما تصدى أبو بكر للقضاء على الردة ، فقد استخدم القوة العسكرية داخل نطاق الجماعة نفسها ، لإعادة وحدتها ومعنى هذا أن سلطان الجماعة أصبح له أداة تحميه وتعرضه في داخلها ، ممثلة في صورة قوة عسكرية تأتمر بأمر رئيس الجماعة ، ويظهر أداة السلطان ظهرت ملامح الدولة وأصبح الخليفة رئيساً سياسياً له سلطان محسوس ، تؤيده قوة عسكرية لا يمكن تجاهلها ، وأصبح لهذه الدولة قواد وعمال وقضاة متخصصون يقوم كل منهم بوظيفة محددة داخل إطار الدولة ويتقاضى راتباً عن عمله ، ويحاسب على عمله . ولذا ذكر هنا أن هذه الأعمال كانت تتم داخل الجماعة أيام الرسول ﷺ دون تخصيص لإنسان لعمل ودون راتب يُعطى . فقد يكلف الرسول ﷺ أحد أصحابه بقيادة بعث ، فإذا انتهى البعث عاد الصحابي إلى صفوف الصحابة وإلى عمله وإلى حياته الأولى . أما أيام أبي بكر فقد أصبحت هذه الأعمال تتم على أيدي موظفين منقطعين لهذه الأعمال .

وعندما استوثق أبو بكر من سلطانه واحتقر قوة أداة هذا السلطان بالنصر الذي أحرزته في حروب الردة ، انتهت همته إلى نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية بصورة نظامية ، فأرسل جيوش الإسلام لتحمل الرسالة إلى فارس وبلاد الدولة البيزنطية في الشام ، فاختر القادة وأصدر إليهم تعليماته . وهذه هي قواعد النظام العسكري والخلق الذي ستسير عليه جيوش الدولة فيما يلي من الفتح وظهر إلى جانب خالد بن الوليد قادة آخرون ، لهم صفات للقيادة وفهم للنظام ، وقدر على تطبيقه ، من أمثال أبي عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص وأمثالهم ممن تكونوا في مدرسة المغازي والسرايا المحمدية .

وبعد وفاة أبي بكر وتولّى عمر رضى الله عنه فى سنة ١٣ هـ ( ٦٣٤ م ) ازدادت صورة الدولة وضوحاً ، لأن عمر بن الخطاب كان قائداً للرجال ومنظماً موهوباً . ففرض احترام النظام بالهبة والقوة معاً ، وعامل القوّة والعمال والقضاة على أنهم موظفون خاضعون خضوعاً مطلقاً لرئيس الدولة ، وفرض النظام على الناس كافة . فلم يقتصر الأمر على إقرار السلام والنظام داخل الجماعة ونشر الإسلام خارجها ، بل أدخل عمر فى حساباته اعتبارات اجتماعية وتنظيمية عامة واجتهد فى تنفيذها ، من ذلك رفضه الإذن للصحابة فى الانتقال إلى الأمصار ، ومحاسبته العمال على ما يخرجون به من مال شخصى بعد أن يتركوا العمل ، ومطالبته بنصف ذلك على اعتبار أنهم لم يحصلوا عليه إلا بنجاح الوظيفة ، وكذلك رفضه الإذن للمجدد العرب المستقرين فى البلاد المفتوحة فى العمل فى الزراعة ، لا احتقاراً للزراعة والزرايع ، كما يظن البعض ، فإن عمر كان أدقّ فهماً من ذلك ، بل لأن هؤلاء الجند هم أداة السلطان للدولة ، فمن الخطأ التفريط فيهم . وقد جرى عمر فى ذلك على هدى من عمل الرسول ﷺ ، وهو أن يكون جند الإسلام مستعدين دائماً للذيد عن حياض العقيدة .

وعلى طول أيام عمر تكاملت أدوات الدولة ونظمها ، سواء أكانت تنظيمية إدارية كتدوين الدواوين — أى إنشاء الإدارات والسجلات — أو تنفيذية كإنشاء وظائف العمال وغيرها ، فى جزيرة العرب والبلاد المفتوحة ، للقيام بالحكم فى أنحاء الدولة وإنشاء وظائف عمال الخراج ، وهم المسئولون عن الشئون المالية فى الولايات ، أو مالية كمقاعد توزيع العطاء .

وفرض عمر على كل عمل فى الدولة نظاماً إدارياً أخلاقياً ، وتشدد فى أخذ الناس بهذا النظام ، فظهرت هبة الحكومة وقوتها ، ورسخ فى القلوب احترامها .

وتجمعت للدولة أموال : من نصيبها الشرعى فى الغنائم والصدقات ، ومن مبالغ الجزية والخراج ، وأصبح بإمكانها أن تعطى من هذا المال أو لا تعطى ، وأصبح من واجبها الإنفاق على مصالح الرعية ، ومطالبة الناس بالقيام بالتزاماتهم تجاه الدولة ، وإيقاع العقاب على المقصرين والظالمين ، ومحاسبة العمال على أعمالهم وعلى ما بأيديهم من أموال ، فانتسح نطاق سلطان الدولة وأحد يمد فى نواحي حياة الأفراد والجماعات داخل حدودها .



وكان عمر شديد الرقابة على الناس في ذلك ، لا يفرق بين كبير منهم وصغير ، إذا تعلق الأمر بمصلحة الإسلام والدولة ، وكان هذا مصدراً لبعض ما سمع من الكلام عن شدة عمر . وما كان عمر مسرفاً في الشدة ، وإنما كان رجل واجب وعدل وقانون ، وكان إيمانه بالإسلام عميقاً جداً ، وكذلك كان حبه للرسول ﷺ ، ولهذا لم يكن يتردد في مطالبة الناس بالقيام بواجبهم وفاء بحق الإسلام ورسوله . وتلخيصاً إلى ذلك أن وطأة النظام والحكومة وأعباء الدولة كانت جديدة على الناس ، ففقر منها بعضهم ، ولكن العالوية العظمى منهم ارتضت حكومة عمر وسعدت بها واستمتعت في ظلها بالعدل المطلق والأمان الشامل ، والاطمئنان إلى أنهم يعيشون في رعاية دولة قوية منظمة ، تحكم وفق شريعة سماوية سمحاء وقانون خلقى مستمد من هذه الشريعة ، ونظام سياسى مرسوم بإحكام وإخلاص .

وأجمل ما في عمل عمر بن الخطاب أنه شاد بيان الدولة ، دون أن يدخل تغييراً جوهرياً على الإطار العام للجماعة الإسلامية ونظامها الاجتماعى والخلقى الذى وضعه لها الرسول ﷺ ، واجتهد في استخدام هذا النظام لتقوية الروابط الاجتماعية التى كانت تربط أعضاء الجماعة بعضهم ببعض .

ولم عمل عمر يرجع الفصل فيما امتاز به عصر الخلفاء الراشدين من أن القوة الحقيقية لنظام الجماعة الإسلامية تكمن في متانة الروابط الاجتماعية التى تربط بين أفراد الجماعة ، سواء في ذلك العاملون منهم في وظائف الدولة وغير العاملين . فكان عمر أباً للمؤمنين قبل أن يكون أميراً عليهم ، وكان الناس يلجئون إليه لجوء الابن إلى أبيه ، ويتحدثون إليه حديث الأخ إلى أخيه . وكذلك كان الحال بين كبار رجال عمر ومن قادوهم أو حكموهم ، فقد كانوا أفراد أسرة واحدة .

وبلاحظ أن بعض هذه الروابط كان شياً موروثاً ، قام على أساس من المروءة العربية القديمة ، وأن بعضها جاء من المروءة الإسلامية التى نبتت من الدين وأخلاقياته ، وبعضها نشأ عن الظروف التى استجدت بعد قيام جماعة الإسلام ودولتها ، كما ترى في شعور الناس بوحدة الجماعة الإسلامية وضرورة المحافظة عليها .

وكانت هذه الروابط عصب حياة وأساس سلامة للمجتمع كله ، بما في ذلك

الدولة التي هي أداة السلطان ، والحكومة التي هي مظهر هذا السلطان<sup>(١)</sup> .

### الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية :

وعلى طول تاريخ الجماعات الإسلامية وعلى اختلاف أوطانها وأزمانها ، ظلت الجماعة قائمة ، لها قوتها واختصاصاتها ومستقلاتها إلى جانب الدولة . فمعظم المشكلات والنزاعات كان الناس يحملونها فيما بينهم بالتراضي والتفاهم أو التنازل المتبادل ، ومن هنا نفهم كيف أن مدناً كبيرة كالفسطاط أو البصرة أو الكوفة كان لها قاض واحد ولم يكن هذا القاضي — مع ذلك — مرهقاً بالقضايا ، لأن الناس كانوا لا يلجئون إليه إلا في حالات الضرورة القصوى . وكذلك كانت المساجد ورعايتها دائماً من اختصاص الجماعة ييسرها الأثرياء أو الناس العاديون ، وتوقف عليها الأموال ، لأن المساجد التي كانت تبنى بأموال الخلفاء والولاة كانت قليلة العدد ، إلى جانب أنها كانت في كثير من الأحيان مساجد سلطانية لم تخل من قصد إلى الزهو وإظهار العنى والقوة والرغبة الشخصية في بقاء الذكر .

ومثل ذلك يقال عن التعليم ، فقد كان كله من شأن الجماعة ، وقلما أنفقت الدولة شيئاً عليه في شرق الدولة الإسلامية قبل العصر السلجوقي في القرن الخامس الهجري ( الحادي عشر الميلادي ) ، باستثناء عطايا كان الخلفاء والولاة يقدمونها للظاهرين من أهل العلم على سبيل المكافأة .

وكذلك كان الحال مع مواصلات البر والبحر ، فإن الدول قلما أنفقت في إنشاء الطرق ، بل كانت خدمات البريد التي تقرأ عنها خاصة بأعمال الدولة ، وكانت

---

(١) الشريعة — مثلاً — وجدت قواعدها للمساواة تضمن للرجل اتساع الجانب الأكبر من أمواله إلى أولاده من بعده ، حماية لهم من الفقر والمجاعة ، فما الذي كان يحدث إذا مات الأب دون أن يترك مالا يهي أولاده ؟ هنا تقوم الجماعة الإسلامية بهذا الواجب ، فيشترك أفراد الأسرة في القيام بهنود الأرملة والأيتام . ومن البعثات في المجتمع الإسلامي أن العم والحال والأعم مسئولون متضامنون عن مصير أباهم الفقير ، فرد عجزوا أصبح نطاق المسئولية تقدمت الأسرة كلها الصون . وعلى هذا يحدث في حالات الطلاق ، فإن المطلقة الفقيرة في المجتمع الإسلامي لا تقل وحدها في الطريق أبداً ، بل تعود إلى أهلها أو هم يهيونها مع أولادها ، بل إنه في بعض الأحيان لا يفر المجتمع الطلاق في حالات الفس الفادح ، ويبرهن الزوج على الاستمرار في الحياة الزوجية حفاظاً على الأولاد ، لأن الجماعة الإسلامية أسرة واحدة كبيرة متكاملة متضامنة .

الدول لا تساهم في إنشاء الأساطيل التجارية ورعاية الموانئ ومصالح التجار إلا في النادر .

والخلاصة أنه كان لدينا دائماً كيانات ، كل منهما قائم بذاته : الجماعة الإسلامية ، والدولة الإسلامية .

وكان لكل منهما ذاتيته واستقلاله واحتصاصاته وميادين نشاطه .

وفي عهود الحكومات الصالحة نجد الهيئتين متطابقتين ، أى أن الجماعة والدولة تبدوان شيئاً واحداً ، وفي عهد الحكم السيئ أو حكومات القهر والاستغلال نجد الجماعة في طريق والحكومة في طريق .

ومن هنا لا ندهش من الانفصال الواضح الذى نشاهد في حالات كثيرة بين الدولة والجماعة ، أعنى بين السلطة الحاكمة والجماعة المحكومة . ويبقى هنا أن نذكر أن الجماعة الإسلامية قلما عولت في الماضى على السلطة الحاكمة إلا فيما يتعلق بالحماية الخارجية . وقد بدأ هذا الانفصال يظهر منذ قيام الدولة الأموية التى لم يقم نظامها الحكومى على أساس الشورى أو التراصى وإنما فرض على الجماعة فرضاً ، فأبكره الناس جميعاً كنظام ، وأنكروا طريقته في الوصول إلى الحكم ، ووصفوه بأنه «ملوكية» أو «كسروية» أو «ملك عضوص» ، وكلها تسميات تؤكد إحساس المسلمين بأن هذا الطراز من الحكومات غير إسلامى ، أما النظام الإسلامى عندهم فهو نظام الخلفاء الراشدين الذين انتخبوا لولاية أمور الجماعة الإسلامية انتخاباً حراً ، أو اختارهم نفر من صلحاء الأمة وقادتها ممن يشهد الناس لهم بالإخلاص والديانة والنظر الخالص لمصلحة المسلمين .

والمهم هنا أن نذكر بالنسبة لامتداد الإسلام ما قلناه من وجود مفهومين يسيران جنباً إلى جنب : الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية ، «جماعة المسلمين» التى تنظم أموراً فيما بينها على أساس الإسلام وأخلاقياته ، دون اهتمام كبير بالهيئة الحاكمة وشكلها ، ثم «الدولة» أو «النظام الحكومى» الذى يهيمن على أمور هذه الجماعة سياسياً ويتولى حماية دار الإسلام من عدوان دار الحرب عليها . والعلاقة الواضحة المستمرة بين هذين الكيانين هى العلاقة المالية التى كانت تتمثل في الضرائب التى كان الحكام يجبونها ليسيروا بها أمورهم ويحلوا مشكلاتهم .

وليس من الضروري أن تكون مشكلات الجماعة واهتماماتها هي ذات مشكلات النظام الحاكم واهتماماته . ففى عهد الفاطميين — مثلاً — كان الحكام شيعيين ، وكان الشعب سنياً يمد الشيعة لوناً من الكفر ، وكان همُّ خلفاء الفاطميين مصحفاً إلى حروب فى الشام مع الخلافة العباسية السنية ورجائها ، وكان من الواضح أن هوى المصريين ومعظم أهل الشام لم يكن مع الدولة القائمة وسياساتها ، بل كان هواهم سنياً يتماشى مع سياسة العباسيين أعداء الفاطميين .

وكان رجال تلك الدولة يعرفون ذلك ، ولكنهم لم يكتفوا له ، لأن نظامهم كان يستند إلى جُند مرتزقة ، لا يعرفون أهل مصر والشام ولا يعرفهم أهل مصر والشام . ولم يكن فى ذلك ما يقلق بال الدولة ، مادام المصريون وأهل الشام يؤدون الضرائب التى يتقاضى الجند المرتزقة أعطياتهم منها ، وهنا بالذات نجد نموذجاً واضحاً جداً من انعدام التوافق بين الجماعة والدولة . ولكنَّ عُمَر الدولة الفاطمية طال بالرغم من ذلك ، لأن الجماعة الإسلامية المصرية والشامية كانت كل منهما تسيِّر أمورَها بمسها ، تاركة جانباً النظام السياسى القائم يسير فى الطريق الذى ارتأه لنفسه .

وترجع قوة الجماعة الإسلامية وقدرتها على التغلب على الأزمات والكبات — وما كان أكثرها خلال العصور الوسطى ! — إلى قوة العقيدة الإسلامية وعمق جذورها فى النفوس . وهذا بدوره يرجع إلى قيام العقيدة على المنطق الذى يقبله العقل الإنسانى ، ويجد فيه حافزاً على العمل والإنتاج وفعل الخير وعزاء عن هموم الدنيا ومتاعها ، ويجد فيه مصدراً للأمل عند المحن والآلام ، ويرجع أيضاً إلى شمول الشريعة الإسلامية ووفائها بحاجات البشر من التنظيم والعدل ، وكذلك إلى إنسانية القانون الخلقى الإسلامى الذى يتسم بالسماحة وإدراك النفس الإنسانية وفهم نواحي قوتها وضعفها ، وذلك كله يجعل المسلم يعيش فى الإسلام بالإسلام ومن الإسلام .

وحينما اتجه نظرنا فى عالم الإسلام إلى مطالع العصر الحديث وجدنا أن الجماعة هي الأساس وأن النظام السياسى — سواء أكان سلطة أو مملكة أو نحوها — لم يكن سوى إطار لهذه الجماعة ، وقد يكون إطاراً صالحاً فيحدم الجماعة ، وقد يكون غير صالح فيؤذى مصالحها ، ولكننا ملاحظ أنه فى غالب الأمر كان إطاراً وسطاً ، لا هو بالجيد ولا هو بالسئ ، وإنما هو نظام بين يري ، لا يمتاز بشيء يستلفت

النظر إلا في الادر ، يعيش أصحابه — في نطاقه — حياتهم وتعيش الجماعة أو الأمة — في نطاقه — حياتها .

## انتشار الإسلام :

إن التاريخ الحقيقي لشعوب الإسلام هو تاريخ جماعاته أو أمميه في كل مكان ، فهذه الجماعات قد عرفت كيف تنظم أمورها على نحو لا بأس به ، مكن لها — على الأقل — من المحافظة على كياناتها والسجاة من المهالك في ظروف العصور الوسطى ، وقد كانت ظروفها قاسية يسودها الصف والمصيبة والأنانية والجهل ، ويحكمها ميران خلقي سطحي يقوم على الألفاظ لا على الحقائق . ففي الشرق والعرب كان أصحاب الأمر ومن تعلق بهم من رجال الدين والفكر يتحدثون عن العدالة والمصلحة والتقوى والبر والخير ، في حين أن الكثير جداً من أفعالهم كان يتناقض مع هذه المبادئ ، فلا يكاد أصحاب المود يقيمون وزناً لما يتحدثون به عن العدل إذا تعارض مع مصالحهم . وإنما الأمم نفسها هي التي كانت تتمسك بهذه المفهومات وتجتهد في تطبيقها بين أفرادها على قدر الطاقة . وكان لسان الأمة المعبر عن وجدانها هم المخلصون من أهل العلم والفكر الذين لم يكفوا قط عن المادة بالعدالة والمصلحة والبرام حدود الدين .

والمتبع للتاريخ العام لانتشار الإسلام ونشوء ما يعرف اليوم بالعالم الإسلامي يجد أنه قد تكون : إما نتيجة لفتوح عسكرية مدت نطاق دولة إسلامية إلى مناطق غير إسلامية مما يليها ، أو عن طريق انتشار الإسلام نفسه في بلاد غير إسلامية ، بفصل قوته الذاتية الدافعة وحصائنه نفسها . وعندما نتعمق الموضوع نجد أن الأعمال العسكرية لم تنشر الإسلام وإنما هي مهدت له الطريق أو فضحت الباب أمامه ، ثم انتشر الإسلام بقوته الذاتية في البلد المفتوح . فالأمة الإسلامية التي قامت بالفتوح — وأهمها العرب والترك<sup>(١)</sup> والبربر المستعربون في المغرب — لم تفرض الإسلام على

---

(١) الترك ( والجمع أتراك ) نسبة عامة تطلق على شعوب مختلفة ترجع كلها إلى أصل طروق ، ولكنها تفرقت في مساحات شاسعة تمتد من شرق حبة إيران إلى غرب الصين ، بما في ذلك بلاد التركستان التي تتكون منها حالياً مجموعة الجمهوريات الإسلامية السوفيتية . وقد سمى العرب أول من اتصوا بهم من الترك القبايلة ، وسموا بلادهم بلاد قبطل ومع الزمن تبنى العرب أن الترك شعوب مختلفة ظل معظمها يعيش على البداوة ، حتى بدأ الإسلام يدخل بلادهم خلال

الناس بقوة السلاح ، بل هي ضمت البلاد سياسياً وعرضت على الناس الإسلام وتركهم أحراراً في أمر الدين ، فمن شاء اعتنق الإسلام ومن شاء بقي على دينه ودفع الجزية ، لأن النظرية الإسلامية العامة كانت — فيما يتعلق بأهل الديانات السابقة — تتبع نص الآية الكريمة : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ ( البقرة ، الآية ٢٥٦ ) .

والفكرة الأساسية التي سبغت المسلمين في هذا الموضوع هي أن الإسلام نعمة من نعم الله على الإنسان ، فمن أراد الله بحرمه فتح للإسلام قلبه ففاز به ، ومن لم يفتح الله عليه فلا معنى لفرض الإسلام عليه ، لأن النعم لا تفرض على الإنسان بل يبالغ فيها عندما يستحقها ، ولهذا فسواء في مصر أو الشام أو المغرب أو إيران ، فتح العرب البلاد ودعوا الناس لدخول الإسلام وبينوا لهم فضائله ، ثم تركوهم بعد ذلك يتمثلونه على مهل ، وقد كانت هذه السياسة أكثر فاعلية مما لو كان الفاتحون المسلمون قد أجبروا الناس على اعتناق الدين ، لأن الذي يسلم طواعية ويمحص اختياره يكون إسلامه صحيحاً شاملاً . ومن هنا نرى كيف أن الإسلام لم يدخل بلداً ثم تلاشى منه ، إلا في حالة الأندلس وصقلية ، وكانت لذلك ظروف وأسباب خاصة<sup>(١)</sup> .

---

العصر الأموي ، وشيئاً فشيئاً دخلت أم الترك كلها في الإسلام ، وانفتحت أمامها أبواب الفرق والتحضّر ، فأُعيدت تشييد الدول المنظمة ، وهاجرت جماعات مهاجرة إلى أراضي الدولة الإسلامية ودخلت في خدمتها في صورة جند مرتزقة ، كما يعرف في تاريخ الخلافة العباسية ، ومن فرق جماعات المجهت إلى التوجع في أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى ، مثل جماعة الأتراك المعروفين بهلاجقة الروم ، وأخر جماعات الأتراك التي سارت في ذلك الطريق هم الأتراك المنيانويين ، وستحدث عنهم فيما بعد .

(١) كان شبه الجزيرة واسعة جداً بالنسبة لجماعات المسلمين القليلة التي دخلته ، وكانت أعداد النصارى في شبه الجزيرة الأيبيرية أكبر دائماً من عدد المسلمين ، حتى خلال القرن العاشر الميلادي الذي بلغت فيه دولة الإسلام في الأندلس أوجها ، بل كان النصارى في الأندلس الإسلامي نفسه أغلبية إلى أواسد القرن الثالث الهجري ، ولم يصبح المسلمون أكثرية في أراضي الخلافة القرطبية إلا خلال القرن الرابع الهجري ( العاشر من الميلاد ) وكان لابد من وقت طويل حتى يتم دخول هؤلاء النصارى في الإسلام ، وصيبتا كانت تلك العملية سائرة في طريقها لشل النظام السياسي الإسلامي في شبه الجزيرة لوقت القرن الحادي عشر الميلادي ، ولما لم في يودسية المتقلبة دوليات بصورة متتالية تسمى دول الطوائف أو د ممالك الطوائف . وقد كان من الممكن أن يستمر انتشار الإسلام برغم ذلك ، ولكن الذي حدث هو أن النظام النصارى ، الذي حل محل النظام الإسلامي في البلاد التي تغلب عليها نتيجة لفرق المسلمين ، عمل على القضاء على الإسلام بالقوة ، ولجأ في ذلك إلى أشد أنواع الاضطهاد والإبادة ، أي أن رجاله فرضوا سياسة استئصال للإسلام ، ولولا هذا سيمر بمشوار في إسبانيا والبرتغال كما يعيشون اليوم في روسيا ويوغسلافيا وبلغاريا وغيرها ، وكلها بلاد مسيحية ، أما صقلية فإن المسلمين لم يوفقوا أيام حكمهم لها إلى إقامة نظام قوي شامل يضمن انتشار الإسلام على نطاق واسع .

وإذا نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامي رأينا أن ثلثه فقط دخل في نطاقه نتيجة لفتوح ، والمتبقى انتشر فيه الإسلام انتشاراً سلمياً دون أن يستلزم لذلك أى سلطان . ففى كل بلاد أفريقية المدارية والاستوائية — بما فى ذلك السودان النيل — وفى كل جزائر جوى آسيا وفى جانب كبير من شبه القارة الهندية وفى الملايو وفى كل جزر المحيط الهىءى وإندونيسيا والفلبين وبعض بلاد أمريكا اللاتينية تشر الإسلام بقوة الذاتية دون أن يكون لأحد فى ذلك كبير فضل .

### الأمة أساس الوجود الإسلامى :

وباستثناء الفتوح الإسلامية الأولى — وهى التى تمت خلال القرن الهجرى الأول — كانت العادة أن يمتد الإسلام من تلقاء نفسه فيما يجاور بلاده عن طريق السُّفَّار أو التجار أو عن طريق من يفلدون من أهل هذه النواحي إلى بلاد الإسلام ، فيسلمون ثم يشعرون بعد ذلك جماعات إسلامية فى بلادهم ، لأن التوسع الإسلامى العسكرى لم يتحدد على نطاق واسع إلا لواخر القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) ، كما سترى .

وفى العالب كانت الجماعات الإسلامية خارج عالم الإسلام تنظم نفسها طبقاً لقواعد الإسلام ، وكانت تعيش فى سلام إلى جوار غيرها من الجماعات غير الإسلامية . وهى فى العادة تمتد شيئاً فشيئاً حتى تشمل الإقليم كله ، إلا إذا جاء عامل غير عادى وأوقف اتساع مداها ، كالذى حدث عندما عملت بعض السلطات الاستعمارية على الحد من انتشار الإسلام فيما احتلته من البلاد الأفريقية والآسيوية ، وذلك عن طريق العمل المنظم لنشر المسيحية بواسطة هيئات التبشير المتخصصة ، تزويدها السلطات الاستعمارية ، أو عن طريق الحد من حرية انتقال الناس بين إقليم وإقليم ، وحركة انتقال الناس هذه كان لها أثر بعيد جداً فى انتشار الإسلام فى أفريقية وآسيا .

وسنكتفى هنا بمثال واحد من أثر تدخل السلطات الاستعمارية لإيقاف انتشار الإسلام بالقوة . فقد دخل الإسلام جزر الفلبين مقبلاً من شبه جزيرة الملايو ، ومن الجزائر التى تكونت منها فيما بعد جمهورية إندونيسيا المسلمة ، وكان ذلك خلال القرن الخامس عشر الميلادى ، وانتشر فى جوب جزيرة مَنَدَاو ، وأحد يمتد شمالاً .

وفي أوائل النصف الثاني من القرن السادس عشر دخل الإنسان البلاد مستعمرين . ولم تكن أقدامهم تستقر في الجزر حتى وصعوا خطة سياسية وعسكرية لإيقاف تقدم الإسلام بالقوة ، لكي تجرد المسيحية مجالاً للانتشار ، فأعلنوا على مسلمي الجنوب حرباً شعواء ، وضعوا فيها كل قوى الإمبراطورية الإسبانية أمام أوجها السياسي والعسكري في عصر فيليب الثاني ( ١٥٢٧ - ١٥٩٨ م ) ولم يستطع الإنسان — مع ذلك — القضاء على الإسلام في جنوب الملين ، وإن كانوا أوقفوا تقدمه نحو الشمال .

وهذه الجماعات الإسلامية التي تنشأ خارج نطاق الإسلام وتنظم نفسها وتوسع حدودها تعطينا برهاناً ملموساً على أن الأساس في الوجود الإسلامي كله هو الأمة الإسلامية أو الجماعة الإسلامية ، فهي التي تمثل الإسلام في كيانها وتنظم نفسها على أساسه ، وهي على هذا صورة الإسلام ومظهره البشري الملموس ، وليس معنى ذلك أنها تمثله دائماً تمثيلاً صادقاً ، لأن الإسلام — كمقيدة وشرعة وميزان خلقى — مثل أعلى يحاول البشر الاقتراب منه فيما ينشئون من نظم ، وهم قد يوقفون في الاقتراب منه أو لا يوقفون . ولكن الإسلام يظل بعد ذلك المثل الأعلى والأمل المرتجى والطريق الواسع للسعادة البشرية .

ومن الخطأ البين — نتيجة لهذا — أن يخلط الإنسان بين الإسلام والمسلمين . فالإسلام هو العقيدة والشرعية والقانون الخلقى ، والمسلمون هم مظهر تطبيق هذا كله على واقع حياة البشر ، والتطبيق قد يكون حسناً وقد يكون غير حسن ، قد يكون صادراً عن علم وقد يصدر عن جهل ، وقد يصدر عن نية حسنة وقد يقوم على نية غير سليمة ، أى أنه تخاضع لكل احتمالات الواقع البشرى والطبيعة الإنسانية بغيرها وشرها . وهو في كل حالة من هذه الحالات يعبر عن تصرف المسلمين أنفسهم لا عن الإسلام ، فإن جماعة المسلمين قد تتصرف تصرفاً بعيداً جداً عن الإسلام ، ومن ثم فإن تصرفها هذا لا يصح أن يوصف بأنه إسلامي بصورة عامة . ومن هنا فإن التاريخ الذي نقرؤه — وهو جماع تصرفات أجيال المسلمين — لا يصح أن يسمى بتاريخ الإسلام ، لأنه في الحقيقة تاريخ المسلمين . وليس بصحيح كذلك أن نقول مثلاً : الفن الإسلامي أو الموسيقى الإسلامية ، على أساس أن هذه من مبتكرات المسلمين ، والأصح أن يقال : الفنون عند الشعوب الإسلامية ، أو موسيقى الأمم الإسلامية ... وما إلى ذلك .



وقد درس بعض الباحثين الأوروبيين المعاصرين الجماعة الإسلامية ونظامها الاجتماعي على أنها « مدينة » بالمفهوم اليوناني ( Polis ) وبالمفهوم اللاتيني ( Civitas ) . وفي كلتا الحالتين نجد أن المدينة جماعة متجانسة من الناس ، تسكن مساحة أرضية معينة ، وتبسط سلطانتها عليها ، وتنظم أمورها بنفسها وفق قانون أو عرف تبنكره ، فهي مدينة ودولة في آن واحد City-State . والباحثون الذين أشرنا إليهم يستعملون مصطلح المدينة الإسلامية La Cité Musulmane في دراستهم للجماعة الإسلامية ، ويدرسون طبيعتها وتنظيمها على أساس من هذا المفهوم . وقد كانت كل من المدن اليونانية والرومانية تحكم أول الأمر بمقتضى قانون عرفي غير مكتوب ، هو تقليد يراعى بكل دقة ، وأساس هذا التقليد أن نظام المدينة إنما هو تعاقد اختياري بين جماعة متجانسة من البشر الأحرار واتفاقهم على أن يعيشوا معاً متساوين في الحقوق والواجبات . وعلى هذا فإن تلك المدن ليست نظاماً فردياً أنشأه زعيم أو قائد وفرضه على أتباعه ، وإنما هي نظام أنشأه ناس أحرار لأنفسهم ، وهذا هو سر قوتها ، لأنها تعتمد على وعي أفراد الجماعة وإيمانهم بأنهم لا بد أن يظلوا رجالاً أحراراً لكي يعيشوا آمنين على أنفسهم وأموالهم . ولا بد لهم من المحافظة على قواعد العدل والمساواة والفصيلة لكي يستمر مجتمعهم زاهراً . وأهم فضائل تلك المدن الإيمان بالحرية والشهامة والاستعداد لبذل الروح في سبيل المحافظة على الجماعة .

### الجماعة الإسلامية الأولى مجتمع من رجال أحرار :

والحق أن هذه هي الروح التي كانت تعمر نفوس أعضاء الجماعة الإسلامية الأولى ، في المدينة أولاً ثم في جزيرة العرب بعد ذلك . وهذا هو سر الصحة التي ميزت المجتمع الإسلامي الأولى ، فقد كان الناس فيه أحراراً بالفعل ، متساوين حقاً ، وشاعرين بأنهم أعضاء في جماعة فاضلة تسير على هدى دين سماوي عظيم ، وهي مكلفة بالدفاع عن ذلك الدين ونشره في الآفاق . وفي سبيل ذلك هانت عليهم الأرواح ، فكان الرجل منهم يخرج للجهاد وكأنه حارج إلى سفر عادي بخدوه الأمل . وكبرت همهم فصعرت في نظرهم مشاكل الدنيا وأمورها ، فكان الواحد منهم يتفاوض في مصر قطر كالشام أو مصر في بساطة وهدوء وثقة ، لأنه كان يحس في نفسه أنه أهل للتحدث في عظام الأمور واتخاذ قرار فيها ، وكان يدخل بلداً واسعاً كمصر ، فلا يفقد توارثه ولا يطغى ولا يسلب أحداً حريته أو حقه ،

لأن الإنسان الحر لا يحدى على حرية الآخرين ، ولا يذل الناس إلا ذليل النفس ، ولا يظلمهم إلا ساقط الهممة . بهذا كان يؤمن أحرار الجماعة الإسلامية الأولى .

ومهما كان رأى فى فتنة عثمان — رضى الله عنه — فهى من بعض وجوها مظهر لاحتجاج بعض أفراد الجماعة على الطريقة التى كانت أمورها تساس بها . وسواء وافق الإنسان الثاثرين على اعتراضاتهم أو أنكر الطريقة التى تصرفوا بها حيال السلطة الحاكمة ، فإنه لابد أن مسلم بأنهم كانوا يؤمنون بأن من حقهم أن يسألوا عما لا يفهمونه من تصرفات إدارة الخليفة وأعمال رجاله . حقاً لقد أدى الأمر فيما بعد إلى كارثة الحرب الأهلية ، ولكن الطريق الذى سارت فيه الأحداث شيء ، ومبدأ محاسبة السلطة الحاكمة على تصرفاتها شيء آخر . وهذا المبدأ فى ذاته لابد منه لكل مجتمع حر ، وهو ضرورى بل واجب ، ولهذا كان جزءاً من شخصية العربى الحر الذى زاده الإسلام شعوراً بالحرية والأهمية الشخصية .

وقد انتهت فتنة عثمان — كما هو معروف — بتريع معاوية بن أبى سفيان على عرش الخلافة ، وهو أمر لم يكن يتوقعه أحد . وعلى الرغم من أن جمهور المسلمين لم يرضوا عن الطريقة التى وصل بها بنو أمية إلى السلطان وأتهم أبغضو أساليبهم فى ممارسته ، فقد ظل هناك خيط موصول بين الحاكم والمحكوم ، لأن بنى أمية عرب من صميم الأرومة العربية ، وكان تحلق الكبار منهم وتصرفاتهم عربية ، ثم إهم اعتروا بالعروبة والإسلام اعتزازاً صالح الناس معهم ، فتركوا أمر حسابهم على ما خالفوا من قواعد الإسلام إلى الله سبحانه وتعالى ، ومضوا يعملون معهم فى إعلاء شأن الإسلام وبسط سلطانه . فاستطاع الأمويون أن يملحوا فى هذا الميدان شأنهم يقارب الشأو العُمَري .

ولكن الأمر ساء على أيام العباسيين ، لأنهم — برغم هاشميتهم — لم ينظروا إلى الجانب الخلقى فى تصرفاتهم التى وصلت بهم إلى الخلافة وثبتت أقدم أول خلفتين من خلفائهم ، وكان ذلك بعيد الأثر فى نفوس الناس ، لأنه خيَّب رجاءهم فى صلاح الحكومة . وإذا كان بنو العباس قد عابوا على بنى أمية أموراً فقد ارتكبوا هم ما يماثلها ، ونظروا — أولاً وقبل كل شيء — فى أمر سلطانهم فقتلوه بمن أطاعهم طاعة عمياء من الرجال وأجناس المسلمين . ولقد كانت دولتهم عربية بخلفائها وكبار

رجاها وانجاساتها ، ولكن ذلك لم يجمع الخلفاء من الاستعانة بطبقات من الجند المرتزقة ، كالفرس أولاً ثم الترك بعدهم .

وكان العرب قد تفرقوا في الأمصار وأكلتهم الحروب والبلاد المتباعدة ، كما يقول ابن خلدون . فكأثرهم غير العرب في شؤون الدولة وصفوف الجند ، مما أدى إلى تراجع العرب إلى الصف الثاني ودخولهم في جملة الرعية . وقد خسر العباسيون بذلك حسارة كبرى ، لأنهم لم يستطيعوا تعويض قوة المنصر العربي . وقد كان خروج العرب من القيادة السياسية والعسكرية بعد ثورة المأمون على أخيه الأمين هو النهاية الحقيقية للدولة العباسية ، وعلى الرغم من طول عمر دولتهم بعد ذلك ، وعلى رغم كثرة من اعتمدوا عليهم من الفرس والترك ، فإنهم لم يستعيدوا قط تلك القوة التي كانت لهم عندما كان خيرة رجاهاهم عرباً ، وذلك صحيح حتى أواخر حكم الواثق على الأقل فيما بين سنتي ٢٢٧ و ٢٣٢ هـ ( ٨٤٢ — ٨٤٧ م ) .

وبرغم تراجع العرب إلى الصف الثاني ودخولهم في جملة الرعية ، ظلوا — لعروبتهم — قادة الناس ورعوس الجماعة في كل أقطار الإسلام ، عدا إيران . فاشتد بهم ساعد الجماعات الإسلامية وتأيدت بهم العروبة في صفوف الجماهير ، فأخذت هذه الجماهير تستعرب وتلبس الشخصية العربية في حين أخذ الحكم يفقد طابعه العربي ، برغم عروبة الخلفاء .

وشيثاً فشيثاً أنشأ الفرس والترك العالبون على الدولة كياناً سياسياً لأنفسهم في إدارتها وجيشها ، وبذلك انتقل السلطان والنفوذ الفعليان إلى أيدي غير عربية وإن بقيت الخلافة عربية في مظهرها .

وهما ، وخلال العصر العباسي الثاني ، ظهر الانفصال بين السياسة وأهلها وبين جمهور الأمة ظهوراً واضحاً ، وسار كل منهما في طريق .

فأما أهل السياسة فلم يوفقوا — برغم مرور العصور — إلى اكتشاف الخطأ وإلى العودة إلى حكم الشورى الذي هو لباب فلسفة الحكم في الجماعة الإسلامية الأصلية ، وحمدوا في أمكنتهم فلم يتطوروا في شيء برغم كثرة دولهم .

وأما الجماعة الإسلامية فقد جعلت دأبها المحافظة على كيانها سليماً والنحاة من

شروط الحكماء ، وحرصت كذلك على الحفاظ على الإسلام ، وهو سر قوتها ، وصارت الجماعة هي مركز القوة برغم ما قاسى أفرادها من إعصات الحكماء ، وانقضت على ذلك عصور بعد عصور حتى الأزمان الحديثة ، وكلها عصور ضاعت على أمم الإسلام لأنها لم تحقق خلالها ما كان يرجى لها من تقدم .

### امتداد العالم الإسلامي نحو الشرق :

على أساس من هذا التصور لحقيقة أحوال الجماعات أو الأمة الإسلامية ، ولسير تاريخها وتطور نظامها السياسي ، نستطيع أن نتبع امتدادها واتساع رقعتها حتى صارت إلى الحدود التي هي عليها اليوم . وسندرس بصورة جملة كيف دخلت الأقطار المختلفة في حوزة الإسلام ، وكيف كونت في مجموعها ما يعرف اليوم بأنه عالم الإسلام .

تكونت نواة الجماعة الإسلامية في المدينة بعد وصول الرسول ﷺ إليها في ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة / يونيو ٦٢٢ م ، وبعد فتح مكة سنة ٨ هـ / ٦٣٠ م شملت الجماعة الحجاز ونجدة ، ثم امتدت خلال العامين الأخيرين من حياة الرسول ﷺ حتى شملت شبه الجزيرة العربية كلها . وتلك كانت حدودها عند وفاة الرسول في ربيع الأول سنة ١١ هـ / يونيو ٦٣٢ م .

وفي أيام أبي بكر ( ١١ - ١٣ هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤ م ) فتحت الحيرة ، وهي جنوب العراق ، وفتح جزء من الأرض الواقعة إلى غرب العراق ، وفلسطين . وقد دارت واقعة أجنادين ، التي فتحت أبواب فلسطين للإسلام ، في أول جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ / ٣٠ يوليو ٦٣٤ م ، وتولى أبو بكر بعد ذلك بيومين .

وتولى عمر بن الخطاب في اليوم نفسه ، وبقدومه يدخل عصر الفتوحات الكبرى في عتقوانه . فقد فتحت الشام بعد معركة اليرموك ( رجب ١٥ هـ أغسطس ٦٣٦ م ) ، وهي فخر انتصارات خالد بن الوليد سيف الإسلام . وأثم أبو عبيدة عامر بن الجراح فتح الشام وفلسطين ، فلم تحل سنة ٢٠ هجرية / ٦٤٠ م حتى كانت بلاد الشام كلها قد أصبحت جزءاً من دولة الإسلام . وكان آخر بلادها الكبيرة فحماً مدينة بيت المقدس ( ١٧ هـ / ٦٣٧ م ) وقبصرية

(١٩ هـ / ٦٤٠ م) . وقد عقد عمر بعد ذلك مباشرة مؤتمر الجالية التي تقع إلى الشمال من اليرموك بقليل ، واجتمع فيها ورجاله وقواده . وتشاور معهم في خطة العمل المقبل ، وبعد ذلك مباشرة انجبه إلى بيت المقدس ليتسلمها بنفسه . وبذلك أكد الأهمية الدينية لذلك البلد عند المسلمين ، وأعطى مثلاً للتسامح الإسلامي لا يقبل الجدل ، فقد أراد عمر أن يؤمن المسيحيين في البلد المقدس على دينهم وحرثهم ومقدساتهم ، وأراد أن يؤمنهم كذلك من كل خطأ في التطبيق قد يقع فيه أى مسلم في عصره أو بعده<sup>(١)</sup> . وبينما كان عمر في طريق عودته إلى المدينة كان عمرو بن العاص يحشد في السور بقطعة من القوة الإسلامية ليقترحم حدود مصر وليضيف إلى تاج الإسلام جوهره الجديدة .

ولم يكد عمر يستقر في المدينة حتى بلغه نبأ وفاة صاحبه أبى عبيدة عامر ابن الجراح ، عامه على الشام وقائد قواته فيه سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م . ولم يحزن عمر على أحد من رجاله كما حزن على أبى عبيدة ، ذلك الفهري الحليل الطويل الحيل الصموت الذى كسب للإسلام فتوحاً جليلاً ، وظل بعد انتصاراته العظيمة يعيش في تواضع بالغ أدهل عمر نفسه عندما زاره في البيت الذى احتاره لنفسه في بيت المقدس ، فلم يجد عنده إلا زاداً قليلاً وقلّة فيها بعض الماء . وهو من غير شك نموذج بديع للإنسان العربى المسلم الحديد الذى سيفتح الدنيا ويدخل بها عصرأ جديداً . وقد مات أبى عبيدة في طاعون عمّواس الذى احتمل الألوف من أهل الشام ، ومن بينهم — فيما يقال — عشرون ألعاً من مقاتلة المسلمين ، كان من بينهم يزيد بن أبى سفيان . فأقام عمر على الشام أخاه الأصغر معاوية ، فبدأ بحجم عميد بنى أمية هذا في الصعود .

وفي خلافة عمر أيضاً مات خالد بن الوليد ، ذلك القائد العبرى من بنى مخزوم الذين كانوا يمثلون الأرستقراطية العربية في الجاهلية . وكان خالد قد دخل في الإسلام قبل فتح مكة ، وتجلت عبقرته في غزوة مؤتة . ثم ظهر كواحد من أكبر العسكريين في التاريخ عندما تولى الفتوح في فارس أولاً ثم في الشام بعد ذلك أيام أبى بكر ، وكسب انتصارات كبرى في أجنادين وفحل ومرج الصفر ، ودخل دمشق ورفع

(١) وعندما صل عمر خارج كنيسة القيامة حدد بصره هذا مكان جامع القدس ، وقرر من ذلك لغير أن يهش المسلمون والنصارى يعمّونا في بيت المقدس وفي كل مكان

فيها راية الإسلام ، وأعقب ذلك بالاستيلاء على بعلبك وحمص وحماة ، وبلغ ذروة نصره في معركة اليرموك ، ودخل أنطاكية مظفراً . ثم عزله عمر بن الخطاب لأول خلافته ، فلم تتغير نفسه ولا تأثر ، وإنما سمع وأطاع ، ونخل عما بيده ، واعتزل في صمت وجلال حتى توفي في حمص .

وكان تقدم الجيوش العربية في العراق قد توقف بعد الاستيلاء على الحيرة ، لأن الأعمال العسكرية في الشام استغرقت جهد المسلمين كله ، وبخاصة بعد انتقال خالد ابن الوليد إلى الشام ، وقد انتهز الفرس الفرصة ، وأززلوا بالمسلمين هزيمة الجسر سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م .

وقد أظهر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بماسبة هذه الجريمة حكمة كبرى لا يصل إليها إلا كبار الساسة الذين يعرفون الطبيعة البشرية ، ذلك أن المسلمين الناجين من الهزيمة ركبهم الخجل ، فاستحووا من دخول المدينة ، لأن المسلمين اعتبروهم قرأراً من المعركة ، فصرقوا في قبائلهم ، وأدرك عمر أن ذلك لم يكن عن خطأ منهم ، وإنما كآثرهم العدو ، فلم تكن بيدهم حيلة ، بعد أن بذلوا أقصى جهدهم ، فخطبهم عمر قائلاً إنهم لم يفروا من المعركة ، وإنما « انحازوا إلى فئة » ، أى تراجعوا ليتضموا إلى كتلة الجيش الإسلامى ويعاودوا الهجوم ، وقال : « كل مسلم في جُلِّ مِى (١) ، أنا فئة كل مسلم لقي العدو فقتل بشيء من أمره فأنا له فئة » ( الطبرى ٦٩/٤ ) . وقد قال عمر ذلك تطبيقاً لقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْهَارَ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَأْتِهَا الذِّبْرَةُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . ( الأملال : ١٥ - ١٦ ) .

وقال عمر لمعاذ القارئ ، الذى كان قد فر ثم استنحى : « لا تبلي يا معاذ ! أنا فتك ، وإنما انحزت إلى » ، ( الطبرى ٧٠/٤ ) .

وأهمية هذا القول من عمر أنه اعتبر الأمة الإسلامية كلها جيشاً واحداً : من أقام في المدينة ومن صدر للغزو في أى وجه فالأمة كلها في ميدان القتال ، فإذا أصيبت

(١) أى أنى لا لواحدة .

حيلة من حملتها فإن كتلة الجيش — وهى الأمة — باقية لم تنهزم ، ويستطيع أفراد هذه الحملة الرجوع إليها ليصلحوا من شأنهم ثم يعودوا إلى القتال .

وهذا بدوره يفتح عيوننا على تصور عمر للجماعة الإسلامية على أنها جيش واحد ، وظيفته نشر الإسلام وتطبيق مبادئه فى العالم أجمع .

وعاد النصر إلى المسلمين بعد ذلك ، خصوصا بعد أن تولى القيادة سعد بن أبى وقاص ، تلميذ عمر بن الخطاب الذى تولى فى مدرسته ، حالاً محل القائد البلى : المشى بن حارثة الشيبانى ، فكسب المسلمون نصر القادسية العظيم ( جمادى الأولى سنة ١٦ هـ / آخر مايو أو أول يونيو ٦٣٧ م ) ، حيث استخدم رسم خلاصة تجارب الفرس فى طرق الحرب خلال مئات السنين ، فلم تثبت لقوة صغيرة من الجيش الإسلامى الذى كان يصر قلوب أفرادها إيمان عميق شامل بالإسلام . وعندما دخل سعد بن أبى وقاص على رأس جيش الإسلام مدينة طيشفون ( كترمون ) التى يسميها العرب : المدائن ) كان ذلك إيذاناً بموت العصور القديمة كلها بالنسبة لغرب آسيا ووسطها وعلامة انبلاج فجر جديد .

وبعد موقعة نهاوند انفتحت أبواب هضبة إيران للعرب فانساحوا فيها ، وهم دخلوها من ناحيتين : من ناحية الموصل بعد أن فتحوه سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م ، ومن ناحية الجنوب ، عندما دخلوا خوزستان ، وهى بلاد عيلام القديمة التى سماها اليونان القدماء سوزيانا ، وهى تقابل الأهواز أو عربستان اليوم ، صادرين إليها بعد انتصار نهاوند من البصرة والكوفة ، وكانا قاعدتى الانطلاق الإسلامى فى الشرق .

ومن البحرين فتح العرب إقليم فارس ، وهى البلاد المطلة على شمال شرق الخليج العربى وشرقه ، وعاصمته مدينة إصطخر ( ٢٩ — ٣٠ هـ ٦٤٩ — ٦٥٠ م ) .

وأعقب ذلك فتح خراسان ، وهى الربع الشمالى الشرقى لهضبة إيران ، وأهم مراكزها نيسابور وطوس ومرو وهراة وبلخ .

ومن خراسان وقف العرب على أبواب ما يعرف اليوم بأفغانستان .

ومن إقليم فارس فتح العرب مكران ، وهى الساحل الشمالى لمدخل الخليج

العربي ، وتغدد شرقاً حتى تصل إلى حوض نهر السند في الباكستان الحالية . وكان العرب يسمون هذه الناحية : بلاد مُلَّتَان ( ٢٢ هـ / ٦٤٣ م ) .

وقد تمت هوح فارس ، أو كل هضبة إيران ، حوال سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م ، عندما قُتل يزيدجرد الثالث آخر أكاسرة آل ساسان الذي حكموا هضبة إيران والعراق خلال قرابة اثني عشر قرناً .

وقد قام بهذا العمل الضخم ما يقرب من أربعين ألف عربي ، استقرت بقيتهم في الهضبة وعمروها ، وعلى أيديهم أسلمت إيران وبدأت تستعرب .

ومن إيران تفتحت الأبواب أمام العرب في كل وجه ، فمنها فُتح إقليم آذربيجان الواسع الذي يمثل اليوم شمالي غربي إيران وجمهورية كاملة من جمهوريات الاتحاد السوفيتي الإسلامية ، هي آذربيجان .

ومن هناك فُتح العرب — فيما بعد — بلاد ما وراء النهر ، وهي مايلي بحر قزوين شرقاً .

### أثر فتح إيران وبلاد الشرق في تكوين الجماعة الإسلامية :

بعد أن دخلت هذه البلاد الواسعة دولة الإسلام واصصت إلى جماعته أخذت تلك الجماعة صورة جديدة ، فقد دخلت في نطاقها شعوب تفوقها أعداداً وثروات . فمثلاً ، إذا كان أهل الشام عرباً ، أو ساميين في الأصل ، فإن فتح الشام كان رباباً في أعضاء الجماعة من جنس العرب نفسه أو من أبناء عمومته ، أما الإيرانيون فه آريون ، ومن يليهم من جهة الشرق ترك ، وأهل لرمينيا أرمن ، وأهل آذربيجان ترك ، وأهل مكران هود آريون .

ومعنى ذلك أن الجماعة الإسلامية لم تعد عربية خالصة ، بل أصبحت أعداد غير العرب فيها أكثر من أعداد العرب . يضاف إلى ذلك أن هذه الشعوب الجديدة أقبلت على الإسلام إقبالا عظيماً . فقد كان بالنسبة لهم نهايةً لمتاعب القرون وظلم الأجيال ، وبدايةً لعصور العدل والرخاء وتحقق الآمال . فاندفع رجالها في دعو ، اندفاعاً شديداً ، وزالت أمامه الزرادشتية والمناوية وغيرها من عبادات إير التقليدية ، واتخذ الإيرانيون والأكراد وغيرهم الإسلام ديناً قومياً ومحمداً ﷺ نبياً وهادياً ومخلصاً للبشر أجمعين ، وتعلقوا به — ﷺ — وبآل بيته تعلقاً شديداً .



ورأى العرب منهم ذلك فاعتبروهم موالى ، والمولى ليس رقيقاً ولا تابعاً ، وإنما هو حليف ترتبط معه برباطة ولاء ، فهو مولاك وأنت مولاه ، والولاء فى العرف العربى الأصل وعرف الإسلام لُحمة كلُّحمة النسب ، ولكن كانت للعرب عليهم سابقة الدين وأصالة العروبة ، فهم العضو الأكبر فى أسرة الإسلام ، ولهم رئاسة أدبية ومعنوية ، ولكنهم ليسوا سادة لغيرهم ، لأن الإسلام لا يقر سيادة جنس على جنس .

### امتداد العالم الإسلامى نحو الغرب :

ويمثل هذه المكانة التى احتلتها إيران فى الشرق احتلتها مصر فى الغرب . وقد بدأ فتحها فى أول المحرم ١٩ هـ/ منتصف يناير ٦٤٠ م ، على يد عمرو بن العاص ، وانتهى فى ذى القعدة ٢١ هـ/ سبتمبر ٦٤٢ م ، ذلك أن مصر مفتاح المغرب وباب السودان ، ومها يصل الإنسان إلى أى صقع من أصقاع أفريقية . وقد دخل الأقباط ، وهم أهل مصر إذ ذاك ، الجماعة الإسلامية أهل دمة ، أى فى دمة المسلمين وحمايتهم . وأخذ الإسلام يغزو قلوبهم ، فحولوا — شيئاً فشيئاً — إلى شعب إسلامى عربى . ومن القسطنطية — وهى العاصمة الحديدة التى اختطها للبلاد عمرو ابن العاص بدلا من الإسكندرية — كان على عمرو أن يختار بين مواصلة الفتوح عرباً أو السير جنوباً ، فانتجبه عرباً ليستكمل فتح مصر بالاستيلاء على إقليم برقة — وكان إذ ذاك جزءاً من مصر — وقد تم فتحه بعد فتح الإسكندرية بشهور قليلة .

وفى عهد عثمان ، وعلى يد عبد الله بن سعد بن أبى مروح ، فُتحت إفريقية ، وهى تقابل القطر التونسى الحالى — فتحت للمرة الأولى سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٨ م بعد انتصار سَيْطِلَّة قرب القيروان الحالية .

ثم أسست القيروان ، وهى أول قاعدة يمشيها المسلمون فيما سيصبح الجناح الغربى لدولتهم ، وقد أنشئت على يد رجل دخل ميدان التاريخ والأسطورة من بابها الواسع ، وهو عقبة بن نافع الفهري ، وذلك بسبب الحملة الغربية التى قام بها خلال المغرب كله فيما بين سنتى ٦١ و ٦٣ هـ/ ٦٨٠ — ٦٨٣ م ، حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى — فى موضع قريب من مصب نهر تنسيفت الذى تقوم عليه اليوم مدينة مراكش — وأدخل فرسة فى ماء المحيط الأطلسى وأشهد الله على أنه وصل

براية الإسلام غرباً إلى حد لا يمكنه التقدم بعده . ثم عاد بمن معه من المجاهدين يشق المغرب شقاً . وبعد تهوؤة قرب بَسْكَرة — في الجزائر الحالية — استشهد في ميدان الشرف حاملاً راية الإسلام ، سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م .

وقد طالت قصة فتح العرب للمغرب وتوالت فيها الانتصارات والهزائم ، حتى قال بعض مؤرخي المغرب إن بلادهم فُتحت وارتدت اثنتي عشرة مرة ، وقد اشتركت جيوش عربية في ذلك الفتح الطويل الذي دام نحو سبعين عاماً لم يدرك المسلمين خلالها يأس ولا تردد ، وقد قادهم فيه قواد أجلاء تفخر بهم أمة على الأرض ، وهم عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعقبة بن نافع ، ومعاوية بن حُجُج ، ودينار أبو المهاجر ، وزهير بن قيس البلّوي ، وحسان بن النعمان العسائي ، وموسى بن نصير ، ذلك المولى الطريف الذي نشأ في جو عرني ودخل في العرب حتى أصبح عربياً في طباعه وتصرفاته وفروسيته وكرمه الذي فاق كل حد ، وفي احتماله لأشد المتاعب ، وعلى يديه تم فتح المغرب .

ومنه أخذ طارق بن زياد الإذن في دخول الأندلس فاتحاً ، فدخلها في صيف ٩١ هـ / ٧١١ م ، واكتسح قوات القوط في موقعة وادي لَكَّة ( Lugo ) ، ثم اندفع بمن معه كالسهم المار ، فدخل طليطلة عاصمة القوط ، وتغادى بعدها شمالاً بغرب .

وهما تخوَّف موسى بن نصير من أن يكون استرسال قائده طارق معامرة بالمسلمين ، فاستوقفه حتى يلحق به ، وعبر بنفسه إلى الأندلس ، فافتتح إشبيلية وماردة وقورية ، والتقى وطارق قرب طليطلة ، ثم سار الاثنان معاً حتى بلغا سرقسطة على نهر الإبرو . ومن هناك سار طارق إلى الشمال حتى بلغ جبال البُرت — أو الأبواب التي تسمى اليوم بالبُتريس — ووقف على أبواب فرنسا ، في حين انجح موسى غرباً فدخل أشتوريس ( Asturias ) — وهي الإقليم الذي يطل على خليج بسكايه ، وفتح لك وأبيط Oviedo ، ووصل ساحل بسكايه عند نخيخون ( Gijón ) ، أي أنه أدرك البحر من هذه الباحة ، ثم عاد . وقد أمم هو وقائده فتح شبه الجزيرة في أقل من سنتين .

واستدعاهما الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى دمشق ، فترك موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس سنة ٩٥ هـ / ٧١٥ م ، فقام هذا باستكمال فتح شرق الأندلس

وغربه ، وجعل عاصمته إشبيلية ، وبهذا يكون ثلاثة من رجال المسلمين قد فتحوا بلداً من أكبر بلاد أوروبا فتحاً كاملاً في أربع سنوات ، وهو أمر لا يكاد يصدق حتى إن الكثيرين من مؤرخي الإنسان لا يزالون يبحثون عن سره إلى اليوم .

ويزيد في غرابة هذا السر أن الذين قاموا بهبء الفتح الأول مع طارق بن زياد كانوا من البربر الذين أسلموا قبل سنوات قليلة فقط ، وربما كانت هذه من معجزات الإسلام ، إذ كيف يدخل أولئك الأقوام في الإسلام بهذا الإيمان الضخم بعد أن قاوموه مقاومة عنيفة ؟ ! لكنه سر الإسلام وقوته الدافعة التي تنقل المؤمنين به عن صدق من حال إلى حال ، وتبدلهم خلقاً آخر ، وهل هناك أغرب من طارق ابن زياد ، ذلك المولى البربري الذي حمل راية الإسلام والعروبة وغرزه في قلب بلد من أكبر بلاد أوروبا ، فظلت هناك عالية ترفرف وتظل الدول والحضارات ثمانية قرون ؟ !

وهؤلاء البربر — سكان المغرب من برقة إلى طنجة كما يقول المؤرخون — جنس قوى سليم ، نشأ من مزاج عناصر متوسطة كهذه التي تسكن جنوبي أوروبا ، فهم أبناء عمومة الأيبيريين الذين سكنوا شبه جزيرة أيبيريا منذ القدم ، واختلطت بهم عناصر أفريقية خالصة . فهم في شمال بلادهم وجبالها بيض شقر وسكان جبال أصحاء ، وهم في جنوبها بلدو رعاة سمر الوجوه ذوو صلابة وبسالة واحتال للمشاق . وقد انقسموا بحسب مساكنهم إلى :

— حَضَر يزعمون الأرض ويمشون مستقرين قرب الساحل وعلى سفوح الجبال الحصينة .

— وبلو يزعمون قطعانهم من الماشية في الصحارى والبساتين .  
والأولون يسمون عادة بالبرانس ، والآخرون يسمون بالبتير .  
وللوهلة الأولى أقبل البربر على الإسلام إقبال من كان يبحث عن سبيل للحلاص فوجدته ، وأصبحوا في زمن مبكر جدًّا مسلمين مخلصين .

وكان أسرعهم استعراياً واندماجاً في جماعة الإسلام قبائل البلو منهم ، وهم المسمون بالبتير ، وذلك بسبب التشابه الشديد بينهم وبين العرب في النظام الاجتماعي

القبل وفي أسلوب الحياة . وهم يسمون أحياناً في نصوصنا باسم زناتة أو الزناتية ، باسم أكبر مجموعات قبائلهم .

أما الحضرة — أو البرانس — فقد تأخر إسلامهم بعض الشيء ، ولكنه عندما تم كان شاملاً وعميقاً ، فأصبحوا من خيرة المسلمين ، وأولئك الحضرة يسمون أحياناً بالصنهاجيين ، باسم أكبر مجموعات قبائلهم ، وهي صنهاجة . وقد فتح الإسلام للبربر جميعاً الأبواب للصعود في مدارج الرقي بعد أن استعربوا روحاً وفكراً ، فأنشأوا الدول الكبرى بادية بنو الأدارسة . وقد حمل عبيها قبائل غمارة وبرغواطة ، وهما من أكبر قبائل الزناتيين في المغرب الأقصى ، ثم أنشأوا دولة الفاطميين ، إذ كان عمادها قبيلة كتامة من الصنهاجيين ، ثم دولة بنى زيري الصنهاجيين في أفريقية ، وهي ما يعرف الآن بتونس وشرق الجزائر ، ثم دول المغرب الإسلامية الكبرى : دول المرابطين فالموحدين فالخفصيين فالمرينيين ، وهي دول إسلامية عربية لها في التاريخ العالمي نصيب كبير .

هذه الدول المغربية الكبرى هي التي أتمت عملية تعريب المغرب كله وأكملت إسلام أهله ، وكان للمرابطين منهم النصيب الأوفر في دفع الإسلام نحو أفريقية المدارية الغربية ، على ما سنرى .

أما الأندلس فيبعد أن تم فتحها ظل الفاتحون العرب والبربر يتحسسون طريقهم نحو الاستقرار في ذلك البلد القاصي الذي يبعد آلاف الكيلومترات عن مركز الدولة الإسلامية في دمشق ، حتى دخل عليهم بعد إحدى وأربعين سنة من تمام الفتح فتى قرشي في الثامنة والعشرين من عمره ، هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان ، وكأنه شخصية من عالم الأساطير قفرت إلى عالم الواقع ، فأنشأ — بجهد وبسالة وقادرة تدعو إلى الإعجاب — دولة من أكبر دول الإسلام ، هي الدولة الأموية في قرطبة سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م . وقد بلغ من تعجب العرب ، معاصريه ، مما عمله ، أن لقبه معاصره وخصمه أبو جعفر المنصور خليفة بنى العباس بـ « صقر قریش » .

وقد عمرت دولة بنى أمية في الأندلس ٢٧٤ سنة ، أي قدر ما عمرت دولة بنى أمية في المشرق ثلاث مرات . ومن الطريف أن المؤرخين لا يذكرون من هذه

السنوات كلها إلا ٢٧ سنة من سنوات الخمول والاضمحلال . أما بقية تاريخ هذه الدولة من قيامها سنة ١٣٨ هـ/٧٥٦ م إلى نهايتها سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣١ م فكانت عصور قوة وتقدم وعمل حضارى مجيد .

وقد ضعف أمر الأندلس بعد ذلك بسبب اختلاف الرؤساء ، وضياح السياسة ، والحاجة إلى ذلك الطراز من الرجال الذين يوحدون الصفوف ويقودون الناس إلى عظام الأمور ويسهرون بالشعوب إلى الرخاء والسلام . وقد زالت من الوجود خلافة بنى أمية في قرطبة في يوم شتاء حزين هو ٢٩ من المحرم سنة ٤٢٢ هـ/٣٠ ديسمبر ١٠٣١ م ، وما أسرع ما أقبل أعداؤها من الشمال يبتزون فرصة الانقسام وضياح الحزم بين المسلمين ، فسقطت طليطلة سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م ، وبسقوطها ضاع قلب الأندلس ونحو ثلث مساحته . ثم توالى الضياح حتى سقطت غرناطة ، آخر معاقل الإسلام في الأندلس ، في يوم شتاء حزين آخر من شهر ربيع الثانى سنة ٨١٧ هـ/يناير ١٤٩٢ م .

وبعد ذلك بخمسة أشهر — في شهر رمضان ٨٩٧ هـ/مايو ١٤٩٢ م — خرجت من مياء سان لوكر San Lucar قرب إشبيلية السفن الثلاث التى حملت كولومبس إلى الغرب لتعثر في طريقها بأعظم مفاجأة عرفها البشر في تاريخهم الطويل ، وهى العالم الجديد .

وقد كان ذلك الكشف — الذى وصل إليه كولومبس بفضل تجارب العرب وعلومهم التى درسها فى الأشبونة وإشبيلية — حذًا فاصلا فى تاريخ البشر أجمعين .

أما صقلية فكان أمرها أهون من أمر الأندلس ، إذ إن سلطان الإسلام لم يستقر فيها على صورة ثابتة منذ فتحها سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م على يد القاصى الماتع أسد ابن الفرات الذى كان عندما تولى الفتح يمازى السبعين سنة ، إلى سقوطها فى يد النورمان سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م .

وهذان القطران — الأندلس وصقلية — هما الوحيدان اللذان فقدهما الإسلام فى تاريخه الطويل ، ومع ذلك فقد قام كل منهما بدور حضارى هائل . فعن طريق الأندلس وصقلية انتقل أكبر جانب من علوم العرب ومعلم حضارتهم إلى الغرب الأوروبى ليصب فى تيار الحضارة العالمية . ومن المسلم به أن حضارة العرب الراهنة

لم ينشئها أهل الغرب وحدهم ، وإنما هي شجرة الحضارة الإنسانية التي نشأت أول ما نشأت في مصر وبلاد الرافدين وعلى ضفاف أنهار الهند وسهول الصين ، وتجمعت حصيلتها بعد ذلك في أيدي اليونان والرومان . ثم انتقلت إلى أيدي العرب فحملوها مشعلها ستة قرون متوالية ، ومن أيديهم أخذها أهل الغرب ليضيفوا إليها بدورهم ، فهي — على هذا — حضارة إنسانية عامة ساهمنا نحن فيها بأكبر نصيب . والذين ينظرون اليوم إلى حضارة الغرب على أنها حضارة غريبة هنا إنما يغمطون أجدادنا — من مصريين قدماء وعراقيين قدماء وعرب جاهليين ثم عرب مسلمين — نصيبهم الكبير في بناء صرح حضارة اليوم والغد .

وكان انفصال الأندلس وصقلية عن جماعة الإسلام من أقوى أسباب ضياعهما ، فعندما اشتدت المعركة على مصر الأندلس من ناحية وصقلية من ناحية أخرى لم يتم أحد في عواصم الإسلام المشرقية بما يجري في هذين البلدين الإسلاميين لانقطاع وسائل الاتصال . ولقد تحرك أهل المغرب الأقصى لتجدة الإسلام الأندلسي بعد أن كان الداء قد أعصل ، وكان أول من تقدم بذلك المرابطون ، وقد بذلوا — هم ومن جاء بعدهم من الموحدين وبنو مرين — جهداً عظيماً في سبيل الحفاظ على الأندلس ، ولكن هذه الدول لم تستطع أكثر من تأخير النتيجة المحزنة ، وقد خسرت هذه الدول في ميدان الجهاد الأندلسي خيرة رجالها ، وكانت هي في ذاتها دولا حديثة النشأة ضعيفة الكيان الداخلي فأبطلها الجهاد في الأندلس وبجهود المحافظة على كيانها في بلادها ، واستفدت ذلك عصارة الحياة من كيانها ففجفت كل منها وهي بعد في عصر الشباب من تاريخها .

### امتداد الإسلام في أفريقية ، المدارية والاسعوائية :

ومن المغرب الأقصى أخذ الإسلام طريقه إلى أفريقية المدارية ، وكان أصحاب الفضل الأول في ذلك المرابطون ، أصحاب الدولة المجاهدة المشهورة التي ذكرناها . فإن هذه الدولة قامت على حركة جهاد ديني قادها رجل فريد في بابهِ ذو طموح سياسي وديني ، يسمى عبد الله بن ياسين ( تولى سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ) وأقامها على أكتاف أفراد قبائل لمتونة ومسوفة وجندالة وما إليها من قبائل الصنهاجيين الذين كان يعمر قلوبهم الإيمان والرغبة في الجهاد في سبيل الله و « الرباط » على حدود

دار الإسلام لحمايتها من عدوان دار الحرب عليها ومد رواقها إذا وجدوا لذلك سبيلاً . وقد تحولت حركتهم إلى دولة ، واستطاع رجالها إنشاء بلدة مراكش سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م . وبعد إنشاء هذا البلد — الذى يعد من أجمل مدائن الإسلام وأبعدها أثراً فى تاريخه — انقسمت دولة المرابطين قسمين :

قسم اتجه شمالاً تحت لواء يوسف بن تاشفين ، وهو الذى وحد شمال المغرب الأقصى ، وعبر إلى الأندلس وساهم فى الجهاد فيه وكسب انتصار الزلاقة المشهور سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م .

وقسم قاده أبو بكر بن عمر واتجه جنوباً بحذاء ساحل المحيط فوصل إلى أحواض أنهار السنغال وغمبيا وغبيا ، وبدأ بشر الإسلام بين أهلها .

وقد كان هذا فتحاً لباب واسع من التوسع الإسلامى فى هذه النواحي من أفريقية ، إذ إن تلك الدفعة المرابطية فتحت أبواب أفريقية المدلرية والاستوائية للإسلام ، فنهضت فى أثر المرابطين جماعات من المؤمنين المتحمسين لديهم عمل أفرادها على نشر الإسلام بين الأفريقيين وتعريفهم بمعتقداته .

وكما كان المرابطون أعضاء جماعة دينية مجاهدة ، فكذلك كان معظم الذين عملوا على نشر الإسلام فى هذه النواحي من بعدهم أعضاء فى جماعات دينية من طراز آخر تعرف بالطرق الصوفية . وهى طرق صوفية تختلف فى نظامها وأهدافها وطريقة عملها عن الطرق الصوفية التقليدية التى نعرها أو نقرأ عنها . فهى جماعات من المتحمسين الذين يوجهون همهم ونشاطهم إلى نشر الإسلام خارج حدوده وإلى تعميق الإيمان فى قلوب الجماهير داخل حدوده . ولا تقتصر جهودهم على الاجتماع مع الولي أو الشيخ أو الكائنات فى مجالس ذكر يرددون فيها الأوراد والأذكار والرفائق والأحزاب على نغم الموسيقى أو بدونها ، بغية الوصول إلى « الحال » أو « الوجد » ، أى نشوة الصفاء النفسى التى يحسها المرید ، إذا أشرقت نفسه بنور الألوهى فى رأيهم ، وإنما هم مجاهدون أيضاً يعملون على كسب الناس للإسلام وتنظيمهم على أسس الأخوة الإسلامية ، أى أنهم صوفية عاملون على نشر الإسلام وتوسيع نطاقه ، صوفية ماضلون .

وهذا الطراز من الصوفية الدعاة أو المجاهدين يكونون فى الغالب من أهل القرى

والغلات البائية في الصحارى ، ممن تتوقف حياتهم على التجارة والقوافل — فهم أهل بادية وشظف وصبر وإيمان ومال قليل ، وطبيعة حياتهم تستلزم وحدة تجمعهم ونظاماً يرتب أمورهم ، ورياسة روحية توحد صغوفهم وتجمعهم قوة معوية تعينهم على حياة الصحراء والرحلة في رمالها ، وسلطة زمنية — أيها كان مستواها وشكلها — تنظم أمورهم وتضمن سلامة أموالهم . وهذا كله يبيته لهم انضمامهم إلى مريدى قطب صوفى مثل أى مدين شبيب بن الحسين الأندلسى ( ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م — ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م ) أو محمد بن عبد الرحمن الجزولى ( توفى فيما بين سنتى ٨٦٩ هـ / ١٤٦٥ م و ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م ) أو أحمد بن محمد التيجانى ( ١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م — ١٢٣٠ هـ / ١٨١٥ م ) .

في كل جماعة من هذه الجماعات نجد المريدن أو الأتباع أعضاء في نظام يقوم على رأسه رئيس دينى يسمى : الشيخ ، يساعده « خليفة » ويعاونه « مقدمون » يرأسون المريدن . وهذا التنظيم ينتشر أفضياً عن طريق الزوايا التى يشيها رجاله في الواحات والأرياف . ولكل زاوية رئيس هو المقدم ، وقد يصبح بدوره شيخاً إذا اتسعت الزاوية وزادت أهميتها . و « البركة » التى يقول الصوفية إن الله سبحانه وهبها لمشيء الطريقة تنقل إلى الأتباع وفق نظام مقرر . وى كل زاوية تعقد حلقات الذكر فى الليل ومجالس الدروس فى النهار .

ويهما فى موضوعنا هما الصوفية الحوالمون والمجاهدون من هؤلاء ، وهم فى الغالب تجار يخرجون بتجارعتهم مع القوافل ، ويدعون الناس للإسلام فى أثناء ذلك ويكسبونهم إليه . وعندما يصلون إلى مركز من مراكز التجارة يجتمعون وإخوانهم من أتباع طريقتهم ، فإذا كثر العدد أنشأوا زاوية ، وهى مسجد صغير ومركز دينى فى الوقت نفسه . وعلى مر الأيام تتكون شبكة واسعة تنتظم الألوف من الأتباع أو المريدن ، وقد يسمون الأنصار .

وهؤلاء ينشغون فيما بينهم ما يشبه الرابطة التجارية والاجتماعية ، فيختص بعضهم بعضاً بالمعاملة والائتمان والثقة والمصاهرة أحياناً . ومن أراد مشاركتهم مزاياء رابطتهم فليدخل فيهم ، وإذا لم يكن مسلماً فلا بد أن يسلم أولاً . وعن هذا الطريق أسلم الألوف بعد الألوف وانتشر الإسلام فى كل بلاد أفريقية العربية المدارية والاستوائية حتى حوض النيجر ، وقد ظهر من بينهم زعماء سياسيون وفاتحون كبار ، أنشأوا



دولا إسلامية كان لها هي الأخرى أثر بعيد في نشر الإسلام في القارة الأفريقية .

ها في أفريقية المدارية نجد أمثلة كثيرة لانتشار الإسلام وتكوينه جماعات إسلامية خارج نطاق بلاد الإسلام ، وهذه الجماعات تكون أول الأمر كالجبرر منعزلة في دار الحرب ، ثم تتسع رويداً رويداً حتى تشمل بلداً بأسرها .

وهذه الجماعات — التي لا يؤيدها نظام سياسي — تنظم نفسها على قواعد الإسلام وأخلاقياته ، كما فعلت الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة ، والناس فيها يتعاملون على أساس قواعد المروءة الإسلامية . والذين هو الرباط الذي يجمعهم ، وهو الوطن الكبير الذي يلم شملهم ، وهو القانون الذي يحكمهم ، وهم يحسون أن الله سبحانه يرعاهم بفصله وعنايته ، ولهذا فقلما تحتاج هذه الجماعات إلى سلطان سياسي كبير أو بالغ القوة يؤيدهم ، لأن السلطان الديني والأخلاق أقوى وأبعد أثراً من أي سلطان سياسي بالنسبة لهم ، وإلى هذا تنزي القوة الكبيرة التي يمتاز بها المرابطون أو رجال الطرق هناك . وتحكي الحكايات الكثيرة عن عجائب ما كان يتم على أيديهم من إدخال الناس في الإسلام ، فإن بعضهم قام وحده بما لم تقم به بعثات تبشيرية ضخمة .

وعن طريق الطرق الصوفية أيضاً انتشر الإسلام فيما يعرف اليوم بجمهورية تشاد وغرب السودان النيلي ، قادمين من قَزَّان أو من مصر . وإن الإنسان ليهدهش عندما يتبين ضخامة الأثر الذي كان لبلدان إسلامية صغيرة مثل الأبيّص والفاشير ( في السودان ) ، وثرزق في إقليم قَزَّان في ليبيا ، وإسنا في صعيد مصر ، وملقا في شبه جزيرة الملايو ، فإن هذه المدن الصغيرة ومساجدها المتواضعة وشيوخها المجهولين وأتباعهم أضافوا لعالم الإسلام أقطاراً بأسرها . فكل ما يقع جنوب الصحراء الكبرى في أفريقية من بلاد الإسلام إنما هو من إنشاء أولئك المجاهدين الصامتين ، وكل ما يلي الهند شرقاً إنما هو من عمل هذه الجماعات الإسلامية المتطوعة . هنا ، وعندما ننظر إلى الخريطة ، نرى أن هذه الجماعات قد أضافت إلى عالم الإسلام نحو نصفه ، مساحة وسكاناً .

في هذا الصنف يدخل السودان ، ذلك البلد الإسلامي الفسيح الذي يمتد من حدود مصر الجنوبية إلى جنوبي خط الاستواء . لقد نشر الإسلام في ذلك القطر الشاسع عرب مهاجرون من جنوبي مصر ، هم قبائل الكنوز أو أبناء الكنز ، وساعدت في

هذه العملية جماعات أخرى من العرب كانت تعبر البحر الأحمر باستمرار إلى الشاطئ الأفريقي. وقد ظهر السودان بظهوره الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم هاجرت إلى السودان جماعات عرب جهينة ، وقد أتوا أصلاً من الحجاز ، ودخلوا مصر مع الفتح وقد اشتركوا مع غيرهم من العرب في غزوة البهجة في حوالي منتصف القرن التاسع الميلادي وقد انتقلت غالبية جهينة إلى الصعيد ، ثم اشتركوا في إسقاط مملكة النوبة المسيحية وزحفوا على أنقاضها إلى كردفان ودارفور ، كما تحركوا جنوباً متبعين مجرى النيل وروافده تجاه الحبشة ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وهاجرت إلى السودان كذلك بطون من كنانة وقرميش وربيعة — قادمين من مصر ، ومن مصر انتقلوا إلى السودان وانضموا إلى جهينة في حملاتهم على البهجة . وقد استقرت ربيعة على حدود النوبة شمال السودان ، واختلطت بالنوبيين ، وإلهم ينسب بنو كنز ( الكنوز الذين ذكرناهم ) وكانوا يسكنون وادي النيل فيما بين حلفا وأسوان . وانضمت إلى أولئك العرب جماعات من المهاجرين العرب عبر البحر الأحمر من الجزيرة مباشرة . ثم هاجرت حديثاً نسياً — قبائل عربية مثل الرشايدة ، واستقرت في الشمال الشرقي للسودان ، لأن تعريب السودان تم عن طريق مصر . فمن طريق النيل وصلت كبريات الهجرات العربية من الشمال إلى السودان ، وهذا يؤيد الحقيقة القائلة بالوحدة السكانية والحضارية لوادي النيل ، وليس من الضروري — نتيجة لذلك — أن تقوم وحدة سياسية ، فإن الوحدة السياسية شكل من أشكال التعاون ليس إلا ، أما الأهم فهو الوحدة الحضارية والسكانية .

ومن الممكن أن تكون بعض الهجرات العربية إلى غرب السودان قد جاءت من إفريقية أو المغرب عموماً ، وقد يكون هذا هو أصل ما يقال من أن سلاطين دارفور ينحدرون من سلالة بني العباس ، ممن هاجروا إلى المغرب بعد تدهور الدولة العباسية في العراق من إفريقية هاجروا إلى دارفور . ومن المؤكد أن بعض الهلالية الذين هاجروا إلى المغرب انتقلوا بعد ذلك إلى إقليم دارفور في غرب السودان ولكن هذه كلها كانت هجرات قليلة الأعداد ، أما الهجرات الضخمة التي عرّبت السودان فقد جاءت عن طريق مصر .

ومن الصعب — على أي حال — أن نتحدث بصيغة التوكيد عن أصول الهجرات العربية

إلى السودان لكن من المؤكد أن معظمها أتت من مصر ، ووصلت إلى السودان بعد إقامة طويلة في مصر ، أى بعد أن تمصرت إلى حد ما .

ومهاجرة العرب من جنوبي شبه الجزيرة وشرقها — وبخاصة البينين والحضارمة والعمانيين — هم الذين نشروا الإسلام في الصومال وما يعرف اليوم بتنزانيا وغيرها من بلاد شرق القارة الأفريقية . وهؤلاء العرب كانوا يفتنون إلى هذه السواحل الشرقية في غالب الأمر تجاراً ، وهم دون شك من أمهر تجار الأرض وأقدر رجال الأعمال . ولو وجدوا في الأعصر الماضية حكومات رشيدة واعية لمصالحها ومصالح الناس لكان لهم في تاريخ أفريقية وجنوب آسيا والمحيط الهندي عامة أثر أعظم مما لهم بالفعل ، ولاستطاعوا أن يتركوا في التجارة العالمية أثراً لا يقل عن أثر الهولنديين مثلاً .

ولكن في العصور الوسطى كان الكثير من دول العالم الإسلامي عوائق للتقدم وعقبات في طريق النشاط البشري وحرباً على القيم الخلقية التي يقوم عليها صلاح المجتمعات الإنسانية ، ولولا هذا الطراز من الحكومات لكان للإسلام في الدنيا شأن هو أصعاف شأنه اليوم . فإن الجماعات الإسلامية في الغالب جماعات فاضلة ، وليس كذلك الكثير من الدول الإسلامية في العصور الماضية .

ولقد أوغل أولئك العرب في أفريقية الاستوائية من ناحية الشرق ، وكسروا نطاق العابات الاستوائية واخترقوه ، والشائع أن ذلك الطاق بعد حاجراً مانعاً لا يمكن للإنسان عبوره ، فاخترقه العرب وتحملوا مشقة ذلك دون كبير عاء ، ووصلوا إلى حوض الكونغو ، وعندما وصل الأوروبيون إلى هذه الواحي وظلوا أنهم اكتشفوها وجدوا أن العرب كانوا قد اكتشفوها قبلهم بأزمان متطاولة ، فأعلنوا على جماعات العرب هناك حرباً شعواء ، ودافع العرب عن تلك الواحي دفاعاً طويلاً ، وخلال القرن الماضي كله تقريباً كان عرب أفريقية هم أبطال الدفاع عن الحرية الأفريقية ، ولهذا أعلن الأوروبيون عليهم حرباً دموية وأخرى غير خلقية ، فافهموهم بأنهم تجار رقيق وأنهم مستعمرون ، وكل العالم يعرف اليوم أن تجارة الرقيق في أفريقية كانت تجارة أوروبية وأن استعمار أفريقية كان أوروبياً . ولم يبدأ الاستعمار الشامل لأفريقية الإدارية والاستوائية إلا بعد أن قضى المستعمرون بالحديد والنار على مقاومة العرب والمسلمين ومن انضم إليهم من أهل أفريقية . ولو فطن الأفريقيون جميعاً لعرفوا أن قومياتهم لا معنى لها ولا سند بدون الإسلام .

ومع الحرب يسير الإسلام دائماً ، ففى نواحى أفريقية الاستوائية : فى جمهوريات تنزانيا وملاوى وكينيا وأوغندا وزامبيا وبوروندى والكونغو وغيرها ، وكذلك فى موزمبيق وأنجولا — فى كل هذه البلاد دخل الإسلام وأنشأ جماعات ذات كيان إسلامى مستقل داخل كيان الجماعة المحلية الكبيرة . وهذه الجماعات كانت مستقلة فى العالب ، لأنها كانت أكثر الجماعات المحلية انتظاماً وتقدماً ، إذ كانت لها مساجدها ، وهى دائماً مراكز دين وثقافة وعلم ، ولها شريعته الساموة وقضائها ، وأفرادها متعلمون أو يتقدمهم متعلمون ، ولهذا فقد كانت تلك الجماعات فى ازدياد مستمر ، فلما استقلت تلك البلاد الأفريقية وقامت فيها الحكومات القومية وهى حكومات نصرانية فى الغالب أقامها المستعمرون وأعدوا رجالها قبل رحيلهم فكانوا — يا للفرابة — أعداء للإسلام بطبيعة ثقافتهم وأديانهم وما ملأ به المستعمرون قلوبهم من كراهية الإسلام . ولكن هذا العداء للإسلام يخف شيئاً فشيئاً عندما يتبين للحكومات هذه البلاد مخف العداء للإسلام دون مبرر . وكانت هذه الحكومات القومية المسيحية قد بدأت بالقضاء على استقلال الجماعات الإسلامية والحد من نشاطها ، ومن تراث عصور الاستعمار أنها تركت فى معظم هذه البلاد حكومات مسيحية برغم أن أكثرية السكان فى معظمها إسلامية .

وهكذا نرى كيف تكونت المجموعات الإسلامية الأفريقية بفضل متطوعين ، أغلبهم جند مجهولوا الأسماء : بعضهم رابطون وصوفيون مجاهدون فى سبيل الله ، وبعضهم تجار اجتذبوا الناس إلى الدين الحنيف بالمثل الطيب والقندوة الحسنة وإقامة رابطة تعاون وأخوة بين المسلم الوافد والمواطن المقيم . فإذا عرفنا أن عدد المسلمين فى أفريقية المدارية والاستوائية يعادل عدد المسلمين العرب الأفريقيين ، تبيننا كيف أن للإسلام دائماً من القوة الذاتية ما يجعله ينشر نفسه بنفسه وينشئ جماعاته بما يقدم لها من عناصر البقاء والنظام والقوة .

والآن ، لننظر إلى الجناح الشرق لملولة الإسلام لنرى كيف امتد الإسلام فيه .

### امتداد الإسلام فى آسيا الوسطى والجنوبية والشرقية :

وصلنا فيما سبق بالإسلام إلى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة الهندية المعروف ببلاد السند أو المثلثان ، وهو اليوم جزء من جمهورية الباكستان . كان

ذلك خلال العقود الأخيرة من القرن الهجري الأول / النصف الأول من القرن الثامن الميلادي .

هنا وقت حدود دار الإسلام مائتي سنة ، لأنه بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م انتهى عصر الفتوح الإسلامية فيها ، فإن الدولة العباسية لم تكن دولة فتوح أو نشر للإسلام خارج حدوده وإنما كانت دولة محافظة على الموجود عن طريق نظام الحملات الدفاعية أو التأديبية عرفت باسم « الصوائف » و « الشوائف » ، أى حملات الصيف وحملات الشتاء ، وهو نظام عرفه الأمويون إلى جانب نشاطهم الواسع في الفتوح . وهذه الحملات كانت محدودة المدى ، سواء من حيث الحجم أو الزمن الذي كانت تستغرقه .

وعلى أى حال فقد كان الفرق شامعاً من كل وجه بين « جند بنى أمية » من العرب ، الذين كانوا يخرجون في رحلة حرب طويلة يقطعون فيها آلاف الكيلومترات ويستشهد منهم خلالها مئات بعد مئات ، ويستمر الباقون في السير دون خوف أو ملل أو ضجر ، و « جند العباسيين » مختلفي التكوين ، إذ كان معظم رجاله من المرتزقة من غير العرب ، فقد كان أقصى ما يصل إليه هؤلاء الجند العباسيون مائة كيلو متر في آسيا الصغرى لا يصلون خلالها أكثر من تخريب مدن صغيرة ونهب ضياع أو إحراق مزارع والفوز بغنيمة كبيرة أو صغيرة والعودة مسرعين بالمغلاء .

ولكى يتجدد حماس الفتوح كان لابد من شعب سليم الطبع ، على الفطرة ، كما كان العرب الأولون ، هؤلاء وجدهم الإسلام في الأتراك الذين كانوا يسكنون الجزء الجنوبي الشرقي من التركستان وهضاب أفغانستان وجبالها . وقد سبق أن تكلمنا عن الأتراك<sup>(١)</sup> .

والأتراك الذين يعنينا أمرهم ها كانوا رجالاً أشداء يعيشون رعاة وصيادين في هضابهم وجبالهم العالية عندما وصلهم الإسلام ، فآمنوا به إيمان العرب الأولين . وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، نبغ فيهم زعيم يسمى ألب — تكين ، دخل في خدمة السامانيين ، ثم علا أمره فأقاموه حاكماً على

(١) ص ٣١ ما تقدم

حراسان ، ثم اختلط معهم فاتجه إلى غزنة ، في أقصى بلاد الإسلام شرقاً ، وأنشأ نفسه — مع إخوانه الأتراك — دولة سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م طال عمرها حتى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، وامتد سلطانهم حتى شمل كل أفغانستان وإقليم البنجاب وهو حوض نهر السند .

وهذه هي الدولة الغزنوية التي تعد من دول الفتح في تاريخ الإسلام ، مثلها في ذلك مثل الدولة المارطية في الجناح الغربي لدولة الإسلام . ومن ملوكها فاتحون عظماء مثل سبكتكين ( ٣٦٦ — ٣٨٧ هـ / ٩٧٦ — ٩٩٧ م ) ثم ابنه محمود ( ٣٨٨ — ٤٢١ هـ / ٩٩٩ — ١٠٣٠ م ) ، وهو من أعظم الفاتحين في تاريخ الإسلام ، فقد أضاف بمجاهده إلى عالم الإسلام قدر ما أضيف أيام عمر بن الخطاب في المساحة تقريباً ، إذ إنه فتح شمال الهند كله بما في ذلك نهر الكنج إلى مصبه ، ووصل بالإسلام إلى سفوح جبال الهيمالايا شمالاً وتسلق هضبة الدكن جنوباً . في كل هذه المساحة الشاسعة رالت الوثنية وحلت محلها عبادة الله الواحد الأحد ، وتلاشت الأصنام وقامت مكانها المساجد ، وكان محمود الغزنوي وفياً لوحدة الإسلام ، فاعترف بالبيعة للخليفة العباسي القادر بالله ( ٣٨١ — ٤٢٢ هـ / ٩٩١ — ١٠٣١ م ) وتلقى منه التفويض وجَلع السلطنة ، ولقبه الخليفة في خطاب التفويض بلقب : الأمير . وقد عرف محمود بن سبكتكين « بالغازي » ، وهو أول من حمل هذه التسمية ، وكان يقال إنه أول من تلقب بالسلطان في تاريخ الإسلام ، ولكن الحقيقة أن أول من حمل لقب السلطان كانوا هم السلاجقة بعد ذلك .

وفي أيام الغازي محمود بن سبكتكين أصبحت غزنة من العواصم العظام في بلاد الإسلام ، فاردانت بالمساجد السامقة والمباني الرائقة . وفي بلاطه ظهر علماء كآني الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وهو العلامة الموسوعي الذي صلب الغازي في حملته إلى الهند ، وأبي القاسم الفردوسي المتوفى عام ٤١١ هـ وهو الشاعر الإيراني الأكبر ومؤلف الشاهنامة — أي كتاب الملوك — وهو ملحمة شعرية تبلغ ستين ألفاً من الأبيات ، تحكي وقائع أبطال الإيرانيين وملوكهم في عصر الساسانيين خاصة ، وهي تعد من عيون شعر الملاحم في الأدب العالمي . ومن علماء عصره كذلك أبو بكر أحمد بن الحسن البيهقي المحدث المشهور المتوفى عام ٤٥٨ هـ . وكان يكتب بالعربية والإيرانية ، وكتابه المشهور « السنن الكبرى » يعد من الكتب الرئيسية في الحديث الشريف .

ولكن ضخامة الدولة الغزنوية كانت السبب في تفككها ، فانقسمت إلى ممالك يحارب بعضها بعضاً . وبهما منها هنا ما كان في الطرف الشرق لأفغانستان وشمال الهند ، فقد كانت عاصمة الغزنويين في شمال الهند مدينة لاهور . وفي منطقة لاهور نشأت دولة الغوريين ، وهم منسوبون إلى الغور ، من أقاليم جنوبي أفغانستان ، ويرجع نسبهم البعيد إلى أصل إيراني ، ولكن جندهم كانوا أتراكاً وإيرانيين ثم هنوداً فيما بعد . وقد تمكن أمراء الغوريين من إخضاع منافسيهم في شمال شرقي الهند ، ثم وسعوا حدود بلادهم وجعلوا عاصمتهم مدينة دهلي التي تسمى الآن دلهي . وعندما اتسعت دولتهم اتخذ أمراؤهم لقب السلاطين ، وأولهم بهاء الدين سام الذي حكم من ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م وهو يعد مؤسس الدولة ، وجاء بعده من كبار سلاطين الغوريين علاء الدين سام الذي حكم ابتداء من سنة ٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م ، ثم غياث الدين بن سام وهو الذي نقل عاصمة الدولة إلى دهلي .

وهؤلاء السلاطين بثّوا الدعائم للدولة الإسلام في شمال الهند . وغياث الدين هو الذي تمكن من إعادة توحيد كل ما كان خاضعاً للغزنويين ، سواء في أفغانستان أو في الهند ، وإليه يرجع الفضل في إنقاذ دولة الإسلام في الهند من الضياع . فقد كان سلطاناً عظيماً وحاكماً عادلاً ومسلماً متخلصاً ، إلى جانب امتيازاته كفتاح وغارب قضى أحسن سنوات عمره في ميادين الجهاد . وعندما توفى سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م كانت دولة الغوريين قد أصبحت إمبراطورية واسعة تضاهي دولة الغزنويين وتمتد من خراسان إلى حدود بورما وعضية الدكن .

وقد فتح سلاطين الغوريين أبواب هذه البلاد الواسعة أمام الإسلام ، فوجد ميداناً فسيحاً خصباً انتشر فيه وأزال الديانات الوثنية والهندوسية في معظم نواحي شمال الهند ، حتى أصبح الإسلام هو الديانة الغالبة في البنغال والنواحي الشمالية والوسطى من شبه الجزيرة الهندية حتى جنوبي حيدر آباد ، وعندما انتهت أيامهم تركوا الميدان مهجداً بعدهم لسلاطين دولة المغل .

ولقد حدث بعد أيام غياث الدين بن سام أن تفككت حرى دولة الغورية ، ولم تَعُد للدولة الإسلام تلك السيادة التي كانت لها من قبل ، وظل ذلك التفكك زمناً طويلاً ، حتى أتيح لبلاد الإسلام في الهند وأفغانستان التجمع من جديد على يد

المحل — الذين يسمون أيضاً بالمغول — وهم خلفاء تيمورلنك المهابر التركي الطائر  
الصيت .

وقد حدث بعد موت تيمورلنك أن تفككت إمبراطوريته الواسعة ، وكانت  
إمبراطورية بدوية قليلة النظام ، قامت على اكتناف جماعات من المهابرين الأتراك  
والمغول والتركمان ، وهي واحدة من عدد من الإمبراطوريات البدوية التي نشأت  
في قلب آسيا ، في الغيايى المترامية لمال جبال قرقورم والمندكوش . وهي أراض  
واسعة ذات أعشاب ، ولهذا تسمى الإمبراطوريات التي نشأت فيها : إمبراطوريات  
الأعشاب ، ولعمها دولة الهون التي قادها أتيللا Atilla في القرن الخامس الميلادى ،  
ودولة جنكيزخان ، ثم دولة تيمورلنك أو تيمور الأعرج . هذا ، وكان تيمور قد  
دخل الإسلام دخولا سطحياً . ولكن خلفاءه حالفوا إيلخانات المغول في إيران  
فاشتد ساعدهم بهذا الحلف . وكانت الحرب دائرة بين أبنائه وأحفاده ، إلى أن ظهر  
من أولئك الأحفاد ظهور الدين محمد الذى عرف باسم بابر .

كان بابر هذا من أولئك القلائل الذين ولدوا في طالع السعادة ، كما يقولون ،  
فإن أباه عمر شيخ ميرزا ، حفيد تيمورلنك ، توفى وهو بعد طفل ، وكاد العرش  
ينتقل إلى واحد من عمته أحمد ومحمود . ولكن الموت غافلها ، فصفا له الجور ،  
واستطاع عندما شب أن يجمع المغول والأتراك تحت لواء واحد .

بدأ بابر حكمه أميراً على فرغانة من بلاد أفغانستان ، وحاول توسيع رقعة مملكته  
هناك فلم يستطع فصر مع رجاله جبال الهندكوش وأفضى إلى سهول الهند الشمالية ،  
وتمكن من فتح لاهور واستولى على أكرا — أو أجرا — وجعلها عاصمة ملكه ،  
وتمكن بعد حروب طويلة من توحيد شمال الهند كله تحت سلطانه واتخذ لقب  
بادشاه ، وكان معاصراً لاثنتين من كبار سلاطين المسلمين ، وهما إسماعيل الصفوى  
شاه الفرس وسليم الأول سلطان الأتراك العثمانيين ، وأثبت أنه أقدر منهما معاً . وقد  
أدى للإسلام خدمات كبرى خلال حكمه الذى امتد ثمانية وثلاثين عاماً ، وانتهى  
في جمادى الأولى ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م ودُفن في كابل ، وكانت أحب بلاد الدنيا إلى  
قلبه . وإليه يرجع الفضل في تثبيت أركان الإسلام وتمهيد الطريق لتوسيع رقعته حتى  
يشمل شبه الجزيرة الهندية كلها . وكان إلى جانب حماسه للإسلام متسامحاً ، لا يرغم  
أحدًا على اعتناق الإسلام وإنما يُعطى بنفسه المثل الطيب . وكان إلى جانب ذلك



أيضاً مولعاً بإشياء المساجد الجميلة ، وعلى يده ولد فن العمارة الإسلامية المغولية ، وهو من أجمل طرز العمارة في الإسلام . وقد دفعه ولعه بالبناء إلى أن يستقدم المهندس العثماني المشهور « سنان » — الذي يعد من منشئي مدرسة العمارة العثمانية — ليسأله عن أسرار صناعته ، ثم طلب إليه أن يبحث له بعدد من تلاميذه . وفي أيامه أصبحت عاصمته أجراً من أجمل بلاد الإسلام .

وجاء بعد بآثر سلاطين عظام أكملوا فتح الهند وتوحيدها تحت راية الإسلام ، وأهمهم نصير الدين محمد همایون ( ٩٣٧ — ٩٦٣ هـ / ١٥٣٠ — ١٥٥٦ م ) ، وهو من عظماء الفاتحين ، وجلال الدين محمد أكبر<sup>(١)</sup> ( ٩٦٣ — ١٠١١ هـ / ١٥٥٦ — ١٦٠٥ م ) الذي كان سلطاناً فيلسوفاً أراد أن يوحد الأديان كلها في دين واحد سماه « الدين الإلهي » ، وقد فشلت محاولته .

وأخيراً جاء شاه جهان ( ١٠٣٧ — ١٠٧٧ هـ / ١٦٢٥ — ١٦٦٦ م ) ، وهو أعظم سلاطين هذه الأسرة . وفي أيامه اشتد تدخل البرتغاليين والهنولنديين ثم الإنجليز في الهند . وقد بذل شاه جهان غاية جهده في توسيع رقعة سلطانه ومد رواق الإسلام وحفظ المملكة من التدهور ، ولكن الدولة أهدت تنفكك بعد وفاته ، وانتهى الأمر ، بعد صراع طويل مع الإنجليز ، إلى سقوط البلاد في أيديهم سنة ١٨٥٨ م .

وقد اجتهد الإنجليز — بعد دخولهم — في إضعاف شوكة الإسلام وتقوية المآصر الهندوكية وغيرها من أصحاب الأديان الأخرى . فكانت النتيجة أن تجمعت الهندوكية وثبتت أقدامها من جديد ، وتوقف نمو الإسلام في الهند . وبدأت الحزازات بين المسلمين والهندوس ، ثم اشتدت إلى حد انتهى بالمسلمين إلى تقرير إنشاء دولة خاصة بهم في الهند . وثُمَّ لم ذلك بفضل زعماء عظام من أمثال أحمد خان وتلاميذه ، وأكبرهم الشاعر محمد إقبال والزعيم السياسي محمد علي جتة صاحب الهد الطولي في قيام دولة الباكستان في ٤ أغسطس ١٩٤٧ م .

ونعود إلى عصر الشاه جهان ، فنقول إنه خلف لنا أثراً بديعاً هو « تاج محل » الذي بناه لتخليد ذكرى زوجته : ممتاز محل<sup>(٢)</sup> .

(١) كان اسم هذه الأسرة الشهيرة في التاريخ أرجمند باتوكيم . وقد تزوجها شاه جهان سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٣ م ، وكانت ممتاز جمال باهر وعلق جميل وعقل راجح ووفاء يضرب به المثل . وقد ولقت إلى جانب زوجها خلال ما مر

وسلاطين المغل هم الذين فتحوا للإسلام أبواب برمانيا أو بورما .

دخل الإسلام بورما في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، عن طريق التجار والرحالة من الهند ، وبورما بلاد واسعة مغطاة بالهات الاستوائية في معظم نواحيها ، مما كان يعد من أكبر عقبات المواصلات هناك في العصور القديمة والوسطى . ولهذا كان اعتماد الناس في الانتقال ونقل البضائع من مكان لمكان على مجاري الأنهار الكثيرة هناك . وهنا نلاحظ كيف امتد الإسلام مع مجاري الأنهار ، فنشأت جالياته في القرى والبلاد على الضفاف حتى وصلت إلى رانجون وهي العاصمة الحالية ، وكان إقليمها فيما مضى يسمى بإقليم بيجو ، ومن المناظر المألوفة هناك مناظر المساجد إلى جانب المعابد البوذية . والبوذية من العقبات الصلبة في سبيل انتشار الإسلام حيثما وجدت ، لأنها — بمذاهبها المتعددة — نظام روحي وخلقي مرتبط بنظام كهنوتي ذي مراتب ودرجات محسوبة حساباً دقيقاً ومتأصلة منذ مئات السنين .

به من نفس الكثيرة ، وكانت برغم الأثر العظيم الذي كان لها عليه تحرس على أن يكون تدخلها في أمور الدولة في نصرة الخير دائماً ومحاولة الظلم وتأييد الصالحين من القادة وكبار رجال الدولة ، فلم ينكر أحد منهم تدخلها لتوصلها . وكانت ممتاز عمل — وهو الاسم الذي أطلقه عليها المسلمون — ومصادرة التاج — شديدة التعلق بالإسلام دائمة الاهتمام بالمسجد وأهل العلم ، وكان لا يرضى أن ترى الناي يركعون لزوجه ، فلم تزل به حتى ألقت هذه العادة غير الإسلامية ، وحذرت روجها من نشاط الواسع الذي كان يبشرون المسيحيون يقومون به في بلاده ، حاجته في أحد من ذلك النشاط ، وس آتارها في الدولة اتحاد التفرع الفجري ومنع الشيعة في بلاد الشام من الظنون على مقام الخلفاء الراشدين والحد من بناء معابد هندوكية جديدة في بلاده . وكانت ممتاز عمل امرأة حطوطاً على الفقراء دائمة الصدقات ، وكان حليها عظيماً على الأراذل وضحيات النساء حتى لقد أنفقت أموالاً طائلة في تزويج الفتيات للفقراء

وقد توليت ممتاز عمل في زمان شبابها عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠ م وهي تضع مولودها الثالث عشر ، وحزن عليها شاه جهان حزنًا شديداً وقرر تخليدها ذكرها بإنشاء روضة ( أي ضريح ضيق بهستان ) لتكون مزاراً الأخير ، وهذا الضريح هو الأثر الباق الذي يعرف اليوم باسم تاج محل ، وهو في ضواحي مدينة أجرة . وبعد من روائع الفن المعماري في الدنيا . وقد بناء شاه جهان في الثين وعشرين عاماً وعمل فيه عشرون ألف عامل ، وبلغت نفقة إنشائه ١٧,٩٠٠,٠٠٠ روبية هندية .

وكان شاه جهان مولداً بالإنشاء والتحصين ، وهو الذي ربي أجرة ولاهور ودلي وغيرها من هوائيم الإسلام الهندية بأثر رامة مثل مسجد أجرة الجامع ومسجد اللؤلؤة والقلعة الحمراء .

انظر د أحمد حمود السادات تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ، القاهرة ١٩٥٩ ج ٢ ص ١٨٨ — ١٨٩ ، و ٢١٠ — ٢٢١ .

وقد وصل الإسلام إلى شبه جزيرة ملقا المعروفة بالملايو مع تجار العرب الحضارة والبتين والعنانيين وأهل الخليج العربى . وجدير بالذكر أن التيارات الإسلامية الكبرى التى حملت الإسلام إلى بلاد الملايو وأرخبيل إندونيسيا خرجت من موانئ الهند الغربية ، من أمثال قاليقوت وكولام — مالى . فقد كان تجار العرب يخرجون من عدن إلى جزيرة سقطرى فأبى جزر لككليف ثم إلى قاليقوت التى كانت أكبر مراكز تجمعهم . وكانوا يخرجون كذلك من صُحار ومسقط — وهما اليوم فى عُمان — ومن سيراف وهرمز — وهما اليوم فى إيران — ويتجمعون فى ذَبِيل ، ومها يسحرون إلى كِمبَاية على ساحل الهند الغربى ومنها إلى قاليقوت . ومن موانئ ساحل الهند الغربى يخرجون فى مراكبهم متجهين جنوباً ثم شرقاً مارين بجزيرة سَرَنْدِيب وهى تسمى أيضاً : سِيلان ، ومن هناك تغضى بهم السفن إلى بلاد الملايو .

ولم يجد الإسلام عقبة فى طريقه ، فساد فى شبه جزيرة ملقا ، حيث أنشأ المسلمون سلطنات مثل باهنج وبراك وسَلَنجُور . ولكن أهمها كلها كانت سلطنة ملقا التى اتسعت حتى شملت الجزء الخلقى كله من شبه جزيرة الملايو . وقد بلغت تلك السلطنة أوجها خلال القرن السابع عشر الميلادى . ورغم أنها تعرضت لاحتلال البرتغاليين ثم الهولنديين ثم الإنجليز فإن الأمر انتهى بقيام جمهورية إسلامية حديثة فيها ، وهى جمهورية ماليزيا التى أنشئت سنة ١٩٦٧ م ، وهى تضم شبه جزيرة ملقا — عدا سنغافورة — والجزء الشمالى من جزيرة بورنيو . وهى بلاد إسلامية زاهرة عاصمتها كوالا لامبور ، وهى من أجمل عواصم الإسلام فى وقتنا الحاضر .

وقد وصل الإسلام إلى إندونيسيا عن طريق التجار الذين ذكرناهم من قبل ، وكان أول دخول الإسلام هناك فى جزيرة سومطرة ، حيث أنشأ المسلمون مراكز صغيرة على ساحلها الغربى أول الأمر . ثم أقبلت سفنهم من ملقا فرسَتْ على الساحل الشرقى ، وبدأ الإسلام يتوغل فى الجزيرة دون أن يجد عقبة كبيرة . وفى الوقت نفسه وصل دعاة الإسلام إلى جزيرة جاوه وأنشأوا مراكز أخرى . ومن جاوه انتشر الإسلام فى جزيرة سليبيز وبورنيو وغيرها من جزائر إندونيسيا . ولم يجد الإسلام مقاومة إلا فى وسط جزيرة جاوه حيث كانت الهندوكية قد ثبتت أقدامها ، ولكنها لم تلبث أن تلاشت أمام الضغط الإسلامى من كل ناحية . وخلال القرن السابع عشر كانت غالبية جزائر إندونيسيا قد أصبحت إسلامية .

وتعرضت الجزائر الإندونيسية للاستعمار الهولندي ، ومن حسن الحظ أن اهتمامات الهولنديين كانت تجارية ، فتركوا الإسلام ينتشر على مهل ، بل إن الحكومة الهولندية شجعت المسلمين على ذلك ، لكي يشتغلوا بالأمور الدينية تاركين التجارة والمال للهولنديين . غير أن أهل إندونيسيا — عندما طال بهم الاستعمار وأحسوا باستغلاله — بدأ رجلهم يفكرون في الاستقلال ، وكان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية ، وعندما دخل اليابانيون البلاد أثناء تلك الحرب اجتهد الرعماء المحليون في التخلص من آثار الاحتلال الهولندي . فلما اضطر اليابانيون إلى ترك البلاد ، بعد هزيمتهم سنة ١٩٤٥ م ، تركوا ما كان معهم من سلاح للإندونيسيين ، فكان ذلك معيناً للثائرين من أهل البلاد على الظفر بالاستقلال ، وقد تم سنة ١٩٤٧ م . وإندونيسيا اليوم من أعظم بلاد الإسلام ، وهي أكبر بلاده من حيث المساحة وعدد السكان .

وتتصل بالجماعة الإسلامية الإندونيسية جماعات الإسلام في جنوب جزائر الفلبين . وكان المفروض أن تكون الفلبين بلداً إسلامية ، ولكن الإسلام لم يكند يدخل من الجنوب وبقيت أقدمه في أرخبيل سولو وخليج سولو جنوبي جزيرة مندناو حتى وصلت سفن المستعمرين الإسبان في فبراير ١٥٦٤ م ( رجب ٩٧١ هـ ) إلى الساحل الشرقي لمندناو ، وشرعت في غزو الجزيرة . وعندما وصلت قواتهم إلى الجنوب اصطدمت بالمسلمين ، وقد سماهم الإسبان : الموروس ( Los Moros ) ، وهو اسم عام يطلقونه على المسلمين ، وما زال مسلمو الفلبين يسمون بهذا الاسم إلى اليوم . ولم يتعلب الإسبان على الموروس ، ولكنهم أوقفوا تقدم الإسلام في الجزائر ، فبقى منحصراً في جزء صغير من جنوبي مندناو ، يشمل نواحي كوتاباتو وداواو ولاناو وأمبوانجا ومجموعة جزائر سولو التي يسميها الإسبان نخولو ( Jolo ) الواقعة بين الساحل الشمالي الشرقي ليورنيو وجزيرة مندناو .

وقد عاد الإسلام إلى النمو من جديد في الفلبين بعد زوال الحكم الإسباني ومجيء الأمريكيين سنة ١٨٩٨ م ثم استقلال البلاد بعد ذلك . ولو وجدت الدعوة الإسلامية العناية الكافية لانفتحت أمامها السبل للانتشار الواسع في تلك الجزائر وغيرها من جزائر المحيط الهادئ .

## سير الإسلام لا يتوقف :

والحقيقة التي لا شك فيها هي أن الإسلام منذ أنزل الله القرآن على رسوله الكريم ﷺ لم يتوقف سيره وتوسعه قط . فسواء أكانت هناك دول قوية تعمل على نشره أو لم يكن هناك إلا دول ضعيفة مفككة لا تقوى على الحفاظ على كيائها ، وسواء أكانت جماعات الإسلام آمنة أو محاطة بالأعداء مثقلة بالأزمات ، فإن الإسلام يسير في العادة في طريقه مظفراً ، لا يتأثر بأحوال المسلمين وما يجري عليهم من صروف الزمان .

بل إننا نلاحظ أحياناً أن الإسلام يزداد انتشاره في حالات ضعف المسلمين السياسي ، كما يرى في انتشار الإسلام السريع في أفريقية في أثناء عصور الاستعمار ، سواء في أفريقية أو في آسيا . ولقد كانت عصور الاستعمار الهولندي لإندونيسيا هي السنوات التي مكن الإسلام لنفسه فيها وكسب أكبر مجموعات على الأرض ، لأن الهولنديين — كما تقدم القول — أهل تجارة ومال ، وقد أرادوا أن ينصرف أهل البلاد عن النظر إلى المال والتجارة فشجعوهم على إنفاق جهودهم ونشاطهم في شئون الدين ، بل لوحظ أحياناً أن الحكومة الاستعمارية الهولندية كانت تساهم في معقات إقامة المساجد وتكاليف رجال البحوث الدينية ، فكان ذلك خيراً على الإسلام والمسلمين ، لأنه أتاح الفرصة للقضاء على الوثنية والبوذية في الجزائر ، فتحققت لأهلها الوحدة الدينية التي كانت أكبر سلاح للتحرير وتوحيد الصفوف ، عندما بدأ الإندونيسيون يطالبون باستقلالهم .

وقد كانت الوحدة الدينية هي التي حفظت وحدة البلاد من أن يقسمها المستعمرون — قبل خروجهم — إلى أقسام بحسب الدين ، فظلت كتلة السكان واحدة محتفظة بقواها . وعندما تحقق الاستقلال اتجه الإندونيسيون إلى تحرير اقتصادهم ، وعوضوا في ذلك المضمار ما فقدوه أيام الاستعمار . ومن هنا كان الإسلام بركة على إندونيسيا وأهلها من كل ناحية .

وكذلك كان الأمر في الكثير من البلاد الأفريقية ، وبخاصة تلك التي كان يستعمرها الإنجليز . ففي بعضها ، وبخاصة نيجيريا ، انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً خلال القرن التاسع عشر ، حتى أصبح الدين الغالب على أهل البلاد ، وكان ذلك

من الأسباب التي حفظت لها وحدتها عندما جاء وقت التحرير . وإذا كانت نيجيريا تعد اليوم من أكبر بلاد القارة الأفريقية فإن السبب يرجع إلى انتشار الإسلام فيها انتشاراً واسعاً ، لأن المسلمين هناك كتلة ضخمة تستعصى على التقسيم ، وفي هذه الكتلة الضخمة ذابت الفوارق القبلية فلم تبقى إلا أجزاء صغيرة خارج النطاق الإسلامي في نيجيريا ، كما هو الحال في قبائل الإيغو التي يزعم البعض أن معظم أفرادها من المسيحيين .

وهنا أيضاً نرى مثالا لفضل الإسلام على الأمم في الحفاظ على وحدتها وتمكين أهلها من تكوين قوة سياسية واجتماعية بحسب ما كل حسب . ولو نظرنا إلى بلاد الإسلام وجدنا أن الإسلام هو سبب قوتها وعنصر بقائها ومصدر حضارتها ومنبع كل خير يعرفه أهلها .

ولا يتوقف نحو الإسلام إلا إذا قام أعداؤه بأعمال هدفها إيقاف ذلك التقدم ، كما لاحظنا في حالة مصر الإسلام في الأندلس وصقلية . وفي وقتنا الحاضر ، نجد أنه في الكثير من بلاد أفريقية التي استقلت توضع سياسات من شأنها الحد من قوة الإسلام وانتشاره واندفاعه ؛ لأن الحكومات الوطنية التي قامت في معظم هذه البلاد مسيحية ، والسبب هو أن المستعمرين حرصوا في أثناء استعمارهم على أن ينشروا المسيحية في البلاد . ومع أنهم لم يكسبوا لها إلا أنصاراً قليلين نسبياً ، فإنهم وجهوا كل عايتهم في التعليم نحو الجماعات المسيحية ، فأتيح لأفرادها أن يظهر من بينهم ناس متعلمون قادرون على القيام بأعباء الحكم ، وهؤلاء هم الذين يتولون الأمور في معظم تلك البلاد . ومن الطبيعي ألا نجدهم حريصين على نشر الإسلام ، بل يغلّب عليهم اتباع سياسات تعارض انتشاره بوضع الصعاب في سبيل الدعاة له والحد من حركة انتقال الأفراد من مكان لمكان ، وهي حركة يرجع إليها الفضل في انتشار الإسلام في الكثير من نواحي أفريقية ، بل هناك عمليات عدائية صريحة يقوم بها بعض الرجال للسوليين في تلك البلاد ، بتشجيع من مراكز المسيحية ، للإضرار بالجماعات الإسلامية . وذلك يتطلب من جماعات المسلمين في الدنيا أن يواجهوا ذلك الخطر بما هو جدير به من الاهتمام والجهد ، لأن الإسلام وإن كان قادراً على نشر نفسه بنفسه فليس معنى ذلك أن نتركه لمصيره في كل مكان ، وأن ندعه يتعرض لحمولات شريرة قائمة على سياسات مرسومة بإحكام ، هدفها إضعاف الروح القومية في البلاد التي استقلت حديثاً عن طريق إضعاف الإسلام فيها .

إن ذلك واجب على المسلمين ، ليس من الناحية الدينية فحسب ، بل من الناحية الحضارية أيضاً لأن الإسلام ركن متين للحضارة البشرية وأساس لتقدم الجماعات الإنسانية . وما من بلد دخله الإسلام إلا بهت فيه روح التقدم والتحضر والظلم . ومن هنا كان العمل على إزالة العقبات من طريق الإسلام خدمة حضارية تسدى للإنسانية كلها ، وهو واجب على المسلمين ، بل هو أشرف واجباتهم كلها .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ( الصف - آية ٩ ) .

الإسلام يخرج ظافراً من كل الأزمان الكبرى التي مرت به :

وليس أدل على قوة الإسلام الغلبة على الخير الذي يسديه لكل جماعة تدخل فيه ، من أن الجماعة الإسلامية الكبرى تعرضت طوال تاريخها لأزمات طاحنة كان بعضها كفيلاً بأن يقضى على أمم وحضارات وأديان ، ولكن أم الإسلام خرجت ظافرة من الأزمات التي مرت بها بفصل الإسلام وحده . وسنصرب لذلك مثلاً واحداً يغني عن كثير ، وهو تعرض الإسلام والأمم الإسلامية منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى إلى أواخر القرن الرابع عشر لليلادى لخطر من أكبر ما تعرضت له الأمم والحضارات من أخطار ، وخرجت برغم ذلك ظافرة من الصراع رهيب الذى دار بينها وبين عوامل الدمار والتخريب من ناحية وعوامل الكراهية والحقد والتعصب من ناحية أخرى ، ونقصد بذلك الخطر الصليبي والخطر الموعلى اللذين اجتمعا على بلاد الإسلام فى عصر واحد تقريباً .

وقد كان الخطر الصليبي أول الخطرين ظهوراً ، فإن أم النصرانية عدت الإسلام من أول ظهوره وتوسعه فى أراضي الدولة البيزنطية عدوها الأكبر ، ونظرت إليه دائماً على أنه خطر يهدد مصير المسيحية . فلم تكذب أم الغرب المسيحية تولد خلال القرن العاشر الميلادى ، وأحوالها تتحسن خلال القرن الحادى عشر ، حتى تنادت لحرب الإسلام . وبدأت الحرب فى شبه الجزيرة الأيبيرية — أقرب بلاد الإسلام إلى الغرب المسيحي — وانتهزت ممالك إسبانيا النصرانية وإماراتها فرصة انهيار خلافة بنى أمية القرطبيين سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣١ م ، قبدأت قواتها ترحف نحو الجنوب وتتحيف أطراف الأندلس الإسلامى . وانضمت إليها قوات الفرسان وللقائكين من جنوبى فرنسا

وإيطاليا . وشجعتهم البابوية على الاتجاه نحو الأندلس للحرب التي وصفها البابوات بأنها مقدسة أو صليبية ، فاشتد الضغط على بلاد الإسلام وأعوزتها الوحدة والقيادة في ذلك الظرف بسبب انقسام نواحها بين ملوك الطوائف الذين كانوا قصار النظر ، فكانت النتيجة سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . وكان ذلك نذيراً خطيراً بالمصير السيئ الذي أطل برأسه على الأندلس كله في ذلك الحين . ولقد أقبل المرابطون بعد ذلك بقيادة يوسف بن تاشفين واستطاعوا في سهل لزلقة أن ينزلوا بقوات قشتالة وليون هزيمة قاصمة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٦ م أوقفت التقدم النصراني حيناً من الزمن . ولكن الضغط ما لبث أن تجدد ، لأن البابوية حولت الصراع في الأندلس إلى حرب صليبية ، ودعت أمم النصرانية كلها للاشتراك فيها ، فاشتد الصراع في الأندلس واتصلت المعركة بين الإسلام والنصرانية على أرضه .

وبينا كانت معركة الأندلس في طريقها تزداد ضراوة يوماً بعد يوم دعت البابوية أمم المسيحية إلى القيام بحرب عامة على عالم الإسلام في المشرق ، بقصد الاستيلاء على بيت المقدس وأرض المقدسات المسيحية ، كما زعم البابا أوربان ( Urban ) الثاني ورجاله . واستجاب للدعوة نفر من أمراء الغرب المسيحي ، وتجمعت معهم قوات كبيرة من الفرسان والمقاتلين ، وتفاهموا في ذلك مع الجمهوريات الإيطالية التجارية والدولة البيزنطية . ومعنى هذا أن أوروبا الوسطى والغربية كلها أعلنت الحرب على الإسلام .

وفي خريف ٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م دخلت قوات الصليبيين أراضي المسلمين من شمال الشام واستولت على أنطاكية واكتسحت أراضي الشام ، وفي شعبان ٤٩٢ هـ / يوليو ١٠٩٩ م اقتحم الصليبيون أسوار بيت المقدس وارتكبوا فيه فظائع كبرى ، حتى يقال إنهم قتلوا سبعين ألفاً . وعقب ذلك مباشرة أنشأوا أربع إمارات صليبية في الشام وشمال غربي العراق . كل ذلك وجماعات المسلمين في الشرق متفرقة مختلف أمرها ، لا يفكر أمر من أمرائها في النهوض لحرب الغزاة المعتدين ، ولكن شعوب المسلمين أخذت تنادى بحكوماتها بضرورة النهوض لملاقاة الأعداء واستنقاذ أراضي المسلمين ، وفي بغداد حاصرت الجماهير الخليفة العباسي وطالبته بالعمل على دعوة زعماء الإسلام للتجمع والنهوض ، وقام خطباء المساجد ورجال الدين في عواصم الإسلام بالدعوة للنهوض ، وخرج « المخطوعة » — وهم الذين نسبهم اليوم « بالفدائيين » — أفراداً وجماعات ، يحاربون العدو ويهاجمونه حيثما استطاعوا . وشيئاً



شيقاً تنبه نفر من أمراء الموصل إلى ضرورة النهوض لمواجهة الأعداء . وبعد تمهيدات طويلة استطاع عماد الدين زنكى أمير الموصل وحلب النهوض لحرب الصليبيين واسترجع منهم إمارة الرها ، وهى واحدة من إماراتهم الأربع فى الشام ، سنة ٥٣٩ هـ/ ١٠٤٤ م وبعد ذلك النصر تحركت جماعات المسلمين للجهاد ، خصوصا بعد أن تولى زعامة المجاهدين نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى الذى استطاع — بعد جهود متواصلة لتوحيد الصفوف ، وسنوات طويلة فى حرب مع قوات الصليبيين استمرت من سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م إلى ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩ م — أن يوحد الموصل وبلاد الشام ومصر ويجعل منها جبهة واحدة مقاتلة . وعندما تولى نور الدين فى شوال ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م ، ترك لصالح الدين الأيوبي عاملة على مصر الطريق ممهداً لكى يكمل الوحدة ويسير بها فى طريق النصر .

لقد أثبت صلاح الدين أنه أهل لهذه المهمة الكبرى ، فلم تحل سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م حتى كانت كل بلاد الإسلام — من العراق إلى برقة — تجتمع تحت لواء واحد . وبفضل الوحدة سار صلاح الدين فى أوائل ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م للقاء قوات الصليبيين فى معركة حامة ، وفى ربيع الثانى ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م كسبت رايات الإسلام نصر جليل ، ثم دخل صلاح الدين بيت المقدس منصوراً واسترده للإسلام . فكان ذلك إيذاناً بالنهاية الحقيقية لكل ما رعى إليه الصليبيون . فقد بدأت البلاد التى ملكوها تتحرر من أيديهم . وعندما مات صلاح الدين فى ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ/ ٤ مارس ١١٩٣ م كان الخطر الصليبي قد انتهى تقريباً ، لأن أمم الإسلام استيقظت ولم يعد من الممكن أن تنام مرة أخرى حتى يزول كل أثر للصليبيين فى الشام .

والمؤرخون لا يحدوثونا بما فيه الكفاية عن الجهد الذى قامت به جماهير المسلمين من أهل مصر والشام والعراق خلال تلك الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية . ولكننا رأينا أن الجماهير كانت هى التى نبهت أولى الأمر إلى ضرورة النهوض لمواجهة الخطر ، ولدينا أسماء الكثيرين من دعاة المسلمين الذين قضوا حياتهم متقلبين من بلد إلى بلد يخطبون فى المساجد وفى الأسواق داعين الناس إلى الجهاد ، وفى كل معركة من المعارك التى خاضها قادة التحرير العربى الإسلامى الذين ذكرناهم يمددنا المؤرخون عن ألوف المخطوبين الذين كانوا يخرجون من بيوتهم ليجهادوا فى سبيل

الله دون أجر بل دون نظر إلى أى مكافأة . وكان من أكبر الأسباب التى أدت إلى الحرب الصليبية الثانية جماعات الفدائيين المسلمين . وبخاصة التركان الذين كانوا ينقضون على جيوش النصارى فيقتلون ويأسرون ، حتى تخلخلت صفوف الأعداء ودخل فى قلوبهم الرعب من المسلمين . ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا جهود الجنود المجهولين من أبناء شعوب الأمة الإسلامية ما تحقق النصر ولا استطاع القواد بقواتهم الرسمية كسر شوكة الصليبيين .

ويتجلى ذلك بوضوح فى أثناء الحملة الصليبية الخامسة التى قادها الفارس الفرنسى جان دى برين Jean De Brienne على مصر ، ظناً منه أنه إذا استطاع القضاء على رأس القوة الإسلامية فى القاهرة تمكن الصليبيون بعد ذلك من احتلال الشام كله احتلالاً أبدياً . ففى هذه الحملة نجد أن السلطان العادل الأيوبي — الذى تصدى لمقاومة الخطر الصليبي هذه المرة — بفضل عدم مواجهة الأعداء ، ويتجه نحو محاولة صرفهم عن وجهتهم بالحيلة والمفاوضات ، وعندما نزل الصليبيون فى دمياط فى سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م بدا كأن المسلمين لن يستطيعوا الصمود . وتوفى الملك العادل فى أثناء ذلك ، فزاد الأمر اضطراباً ولكن جماهير المسلمين فى شمال مصر أسرعوا للقاء العدو وبدأت معه المعركة وخلخلت صفوفه ، وتشجع للملك الكامل بن الملك العادل وسار لحربهم . ومع ذلك فقد اتجه إلى التفاوض معهم ، وكان مستعداً لتسليمهم بيت المقدس فى سبيل خروجهم من مصر . ولكن جماهير المصريين لجأت إلى قطع الجسور ، فقمرت المياه أرض الدلتا ، ونحرح الصليبيون ، وتشجع الملك الكامل ، فسار لحربهم ، وانتهى الأمر بانسحابهم من البلاد دون قيد أو شرط فى رجب ٦١٨ هـ/ أغسطس ١٢٢١ م . والفضل فى ذلك النصر يرجع إلى جماهير أمة الإسلام التى لم تشأ أن تتراجع أو تتراجع .

أمام هذا الصمود لم تستطع حكومة الأيوبيين إلا الاستمرار فى الجهاد . وعندما حاول لويس التاسع ملك فرنسا تكرار محاولة جان دى برين بقيادة حملة صليبية على مصر ، هى الحملة الصليبية السابعة سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م ، كان من الممكن أن يحقق ذلك للملك غرضه ، لأن الملك الصالح الأيوبي مات أثناء القتال عند المنصورة شمال شرق مصر ، وأصبحت القوات الإسلامية بدون قيادة . ولكن جماهير المسلمين ثبتت فى الميدان وأعادت فتح الجسور لإغراق قوات الصليبيين ، فكانت النتيجة

انتصار القوات الإسلامية على الصليبيين ووقوع لويس التاسع أسيراً في أيدي المسلمين سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م .

وقد بقيت بعد ذلك جيوب صليبية على ساحل الشام استطاع القضاء عليها سلاطين المماليك ، من أمثال الظاهر بيبرس والسلطان سيف الدين قلاوون الصالحى والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون . وعلى يد هذا الأخير استرجع المسلمون آخر حصن للصليبيين في الشام ، وهو عكا التى استسلمت في ٢٧ جمادى الأولى ٦٩٠ هـ/مايو ١٢٩١ م ، وكانت تلك نهاية الخطر الصليبي على شرق العالم الإسلامى .

وقد حاول الصليبيون إعادة الكرّة بالمحجوم على توس . فقاد الملك لويس التاسع حملة عليها سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م . ولكن رجال توس وقوات الخليفة المستنصر بالله محمد الحفصى استطاعوا هزيمة الصليبيين والقضاء عليهم ، وعلى أرض توس مات الملك لويس التاسع في الحرم ٦٦٩ هـ/أغسطس ١٢٧٠ م وانتهت الحملة الصليبية التى قادها . وبذلك حققت ألوية الإسلام النصرَ النهاى فى معركة طويلة بدأت كما ذكرنا فى خريف ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م وانتهت فى صيف ٦٦٩ هـ/١٢٧٠ م ، بعد ١٧٣ سنة من الصراع الرهيب المتصل . والفضل فى ذلك النصر يرجع إلى تجمع قوات المسلمين واتحاد شعوبهم لمواجهة الأعداء . حقيقة قامت أوروبا المسيحية بتنظيم حملات صليبية أخرى ، ولكن الخطر الحقيقى كان قد زال .

وفى المراحل الأخيرة من الصراع بين المسلمين والصليبيين طهر الخطر المغولى . وقد تعودنا أن ننظر إلى ذلك الخطر من زاوية صغيرة ، هى الخاصة بهجوم هولاكو على بغداد وإزائه الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ، ولكن الأمر يتطلب هنا نظراً أوسع ، لكى ندرك مدى الخطر الذى كان يهدد الإسلام وأهله من ناحية المغول . فإن الذى عرفناه من قوة المغول وقدرتهم على التخريب لا يقاس إلى قوتهم الحقيقية وما كان لهم من أثر خطير عميق فى البلاد التى فصحوها فى آسيا وبعض نواحي شرق أوروبا . وعندما نأخذ فكرة — ولو تقريبية — عن مدى قوتهم وحظرهم نستطيع أن نتبين مقدار نعمة الله الذى كتب لجماعات المسلمين النجاة من خطر كان من الممكن أن يزيلها من الوجود . ذلك جنكيزخان — وهو لقب معناه : سلطان المغول ، أما اسمه الحقيقى فهو : تيموجين بن باطور — كان أكبر

محارب مغرب عرفه التاريخ . قد اجتاح ، هو وابنه الأكبر أجداى ، فيما بين سنتي ١٢٠٦ و ١٢٤١ م ، بلاداً تبدأ عند سواحل الصين الشرقية ولا تنتهي إلا شمالي البحر الأسود في أوروبا . وحافظ المغول هذه أزال دولا كبرى في الصين ووسط آسيا وشرق أوروبا . وعندما تولى ملكهم قوبلاى خان سنة ١٢٦٠ م نقل العاصمة من قرقورم إلى بكين ، وأنشأ إمبراطورية صينية جديدة هي المعروفة بدولة يوان التي امتد حكمها من ١٢٧٩ إلى ١٣٦٨ م .

هذه الدولة المغولية كانت منذ قيامها على يد جنكيز خان خطراً عظيماً يهدد بلاد الإسلام كلها . فقد كانت مطامع جنكيزخان تتجه أول الأمر نحو بلاد المسلمين طمعاً فيما كان يترامى ، إلى سمعه عن غناها وثراء بلادها ، ولهذا وجه نحوها معظم قواته . وفي سنة ١٢١٨ م اجتاحت جمعاظة خوارزم ، وأزالت السلطنة الخوارزمية الإسلامية . وفيما بين سنتي ١٢١٩ م و ١٢٢١ م استولى المغول على بلاد التركستان ، لى ما وراء النهر ، وغربوا عواصم الإسلام هناك مثل بخارى وسمرقند وطشقد . ولولا أن جنكيزخان توفى سنة ١٢٢٧ م لاستمرت الغارة المغرية على بقية بلاد الإسلام بنفس العنف والقوة .

وقد هدأت العاصفة فترة قصيرة من الوقت بعد وفاته ، إذ وقع خلاف على وراثة العرش بين ابنه الأكبر شغتاي وابنه الثانى أجداى . وقد صار العرش إلى هذا الأخير — وهو الذى واصل نشاط المغول في بلاد الروس حتى وصلت جيوشه إلى بحر البلطيق واجتاحت المجر — في حين أن الجزء الأوسط من الإمبراطورية المغولية — وهو الذى يشمل بلاد التركستان ويران — صار إلى شغتاي . وقد تأثر هو وأبنائه بالإسلام ، وخفت حدة غاراتهم على بلاده . وجدير بالذكر أن دعاة المسيحية كانوا قد تسربوا إلى بلاط المغول في بلدة قرقورم ، وعندما اجتمع زعماء المغول لاختيار خلف لأجداى بن جنكيزخان سنة ١٢٤١ م كان هناك مندوب بابوى ، وكان ذلك المندوب يمتد في أن يصير العرش إلى جويوك بن أجداى — وكان ذا ميول مسيحية — ولو أن ذلك تحقق لأصبح كل المغول بعد ذلك مسيحيين ، ولكنه توفى سنة ١٢٤٨ م ، قبل أن يستقر له الأمر وصار العرش إلى منجوخان بن تولوى بن جنكيزخان ، ولم يكن له ميل إلى المسيحية .

وقد انقسم منجوخان إمبراطورية المغول مع أخويه : قوبلاى ، الذى تولى حكم

الجناح الشرق من الدولة ، وهولاكو الذى تولى الأمر فى وسطها وغربها . ونجد هولاء للاستيلاء على بلاد الدولة العباسية وسار إليها فى جماعته ، ودخل بغداد فدمرها تدميراً ذريعاً سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ، وكان فى بلاط هولاء عند كبير من القساوسة المسيحيين يرضونه على القضاء على بلاد الإسلام قضاء تاماً ، تمزهم فى ذلك إحدى زوجاته ، وكانت نصرانية .

وكانت جماعات المسلمين فى كل مكان يهيب بسلطان المماليك سيف الدين قطز ، بالمسير لحرب المغول وردهم عن بلاد الإسلام ، بعد أن دخلوها ولحقوا بها غرباً شاملاً . وقد تردد المماليك قطز ، وأدركهم الخوف ، ولكن الجماهير ظلت تضغط عليهم ، وخرج الأكراد من المخطوعة من أهل بلاد الإسلام لحرب المغول حمية لله . وتمس سيف الدين قطز ، وعندما رأى تقاعس مماليكه قرر للمسير بنفسه ، فلم يسع الآخرين إلا للخروج معه . وهكذا كتب له أن ينزل بالمغول هزيمة قاصمة عند عين جالوت قرب بيسان فى فلسطين فى سنة ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م ، وهى من المواقع الفاصلة فى تاريخ البشر ، لأنها أنقذت حضارتى الإسلام والمسيحية من الدمار ، ولقد شعرت البابوية وبقياء الصليبيين بحجة أمل لنصر المسلمين وانقطاع الرجاء فى التحالف مع المغول عليهم .

ومع ذلك حاول الصليبيون الاتفاق مع أباقا الذى خلف هولاء على عرش الدولة المغولية فى إيران سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م ، لأن زوجته كانت مسيحية بيزنطية ، وحفزوه القساوسة الذين كانوا فى بلاطه على محاولة غزو بلاد الإسلام من جديد . فسار إلى الشام ، ودخل حلب وغربها . فنهض للقاءه سيف الدين قلاوون سلطان مصر وأنزل بقوات المغول هزيمة ساحقة أخرى عند حمص سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م . وغر أباقا إلى بغداد حيث توفى بعد قليل .

وخلف أباقا أخوه تكودار ، وكان مسيحياً ، ولكنه أسلم وتسمى بأحمد ورغب فى إنشاء علاقات صداقة مع المسلمين ؛ أسوة بأبناء عمومته — مغول القبيلة الذهبية — وكانت دولتهم تشمل جنوب روسيا والقوقاز ، وكانوا قد اعتنقوا الإسلام فى عهد ملكهم بركة خان بن جوجى بن جنكيزخان ، وكان معاصراً للسلطان

بهرس .

وقد ارتد أرغون ابن أخى تكودار أحمد عن الإسلام ، وبدأ الاستعداد لحرب بلاد المسلمين بتحريض زوجته النصرانية ، فأرسل سفيراً طاف ببلاد أوروبا لتحريض ملوكها على حرب المسلمين متحدين مع المغول ، واستمر هذا طوال حكم أرغون من ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م إلى ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م .

ولكن الإسلام عاد فانتصر ، لأن غالبية سكان دولة إيلخانات إيران كانوا مسلمين . فأسلم غازان ملكهم ( ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٥ م — ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤ م ) وحسن إسلامه ، وبذلك انقضى خطر المغول عن الإسلام .

من هنا نتبين أن الخطر المغولي كان أعظم بكثير مما تصور عادة ، وأن الذى أوقف ذلك الخطر لم يكن انتصار الممالك على المغول فى عين جالوت وحصر فحسب ، بل كان الإسلام هو الذى نصر نفسه بفضائله التى غزت قلوب المغول وبقوة شعوبه التى تمسكت به وحفزت السلاطين ورجال الدولة على الدفاع عن الإسلام الخفيف وبلاده .

وكان الذين حملوا دعوة الإسلام إلى أولئك المملوك شيوخاً ودعاة نجهل أساميهم ، لكنهم قاموا بعمل جليل عظيم لا يقل عن العمل الذى قام به أولئك الذين كسبوا انتصارى : عين جالوت وحصر ، بل إن المؤرخين يعدّوننا أنه فى أيام خانات المغول الكبار ، جنكيزخان وأوجوتاي ، كانت عاصمتهم قرقورم حافلة بالمساجد إلى جانب الكنائس التى عمل على بنائها دعاة المسيحية المحترفون ، وكذلك معابد البوذيين الشامانيين ، وهذه المساجد — التى قامت فى قرقورم التى تقع فى وسط ما يعرف اليوم بجمهورية منغوليا الخارجية ، فى شمال الصين على بعد آلاف الكيلومترات من دار الإسلام — إنما بناها شيوخ غلغسون للإسلام قاموا بعملهم مدفوعين بموافقة دينية كريمة . وذلك يذكرنا بأولئك الدعاة المجهولين والبصوفية المجاهدين الذين نشروا الإسلام فى أفريقية المبارية والاستوائية .

وهؤلاء الشيوخ والدعاة كانوا من أبناء أمة الإسلام ، تحركوا للقيام بذلك العمل الجليل يباغت من حبة الدين وبإخلاص يروع النفس ، لم تدفعهم إلى ذلك حكومة تقدم لهم أجراً ولا هيئات تبشر ترعاهم وتنظمهم وتحميمهم ، وإنما خرجوا محتسين للدعوة لدين الله . وهم من صميم المجتمع الإسلامى ، مما يؤكد لك ما ذكرناه مرة بعد مرة فى هذا العرض من أن قوة الإسلام الحقيقية إنما تكمن فى قوة جماعته .

ولدينا هنا مثال يفينا ذكره عن كثير : قى بلاط قوبلاى خان منشىء دولة يوان الصينية التى ذكرناها ، وهى من أعظم الدول فى تاريخ الصين الطويل ، كان يعمل عدد من الموظفين من أهل مقاطعة يون — نان فى جنوب غربى الصين ، وكان حاكم هذه المقاطعة مسلماً من أهل بخارى ، فمزال أولئك الموظفون يحملون مستصين بالحاكم حتى استطاعوا أن ينشقوا فى تلك المقاطعة الواسعة جالية إسلامية ضخمة تمكنت من أن تحول المقاطعة كلها إلى بلد إسلامى ، ومنها امتد الإسلام إلى ما يجاورها من مقاطعات الصين الجنوبية والغربية . وهذا هو أصل جانب كبير من ذلك العدد العظيم من مسلمى الصين الذين لا يقل عددهم فى وقتنا الحاضر عن ستين مليوناً ، وإن كانت الإحصاءات الرسمية التى كانت تداع عبط بعددهم إلى عشرة ملايين ، وهو أمر لا يقبله العقل أو التصور .

وهكذا نرى كيف أن الخطرين : الصليبي والمغولى تعاصرا وحاولا أن يجمعا على الإسلام للقضاء عليه ، ولكن الإسلام نجح من ذلك الخطر المحيط المزدوج ، وخرج بعد عشرات السنين من الكفاح المرير أقوى بيباناً وأوسع رقعة وأعز نفراً .

وهذا كله جدير بأن يذكره المسلمون ليعلموا أن الأزمات والأخطار ليست جديدة على الإسلام وأهله ، وأن انتصار الإسلام على الأعداء ، مهما كثر عددهم ، وغروجه مظفر من الأزمات والأخطار مهما طالت ، إنما هو أمر عادى فى تاريخه ، لأن هذا الدين — الذى ولد فى بيئة معادية له هي مكة — لم يزل منذ ميلاده يعالِب الأزمات ويقنم المحن ويخرج مظفراً . وتلك آخر الأمر هي الحقيقة الأساسية فى وجود الإسلام ، وهي لباب تاريخه لأنه رمر على قوى الخير التى تصارع قوى الشر منذ خلق الله الخلق إلى أن يطوى الدنيا وما عليها .

﴿ يُرِيدُونَ يُغْلِبُوا كُوزَ اللَّهِ بِأَفْوَاجِهِمْ وَاللَّهُ مُؤَيَّدٌ بِكُوزِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾  
(الصف ، آية ٨) .

### الجماعات الإسلامية فى عالم اليوم :

فى ذلك الموجز ذكرنا الجماعات الإسلامية الرئيسية ، وهناك جماعات أخرى أقل عدداً لابد أن نشير إليها هنا ، وأعداد أفرادها تتراوح بين ستين مليوناً — كما رأينا

في كلامنا عن مسلمي غربي الصين — وعشرين مليوناً ، وهو العدد التقليدي للمسلمين في روسيا ، ومليونين كما نجد في يوغوسلافيا . ولا يخلو بلد من بلاد الدنيا من مسلمين ، فهناك عشرات الألوف في إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا . وهناك كذلك ألوف كثيرة من المسلمين في بلاد أمريكا اللاتينية . ومع أنه من العسير علينا أن نأق بإحصاء دقيق لأعداد المسلمين في تلك البلاد اليوم فسنبقى فيما يلي بعض الأرقام عن أعدادهم في بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية ، لنعطى فكرة بسيطة عن أهمية تلك الجماعات . والأرقام التي نقدمها مأخوذة من إحصاء نشره الباحث الألماني رولف رايمرت Rolf Reichert الأستاذ بجامعة باها في شمال البرازيل ، وهو متخصص في ذلك الموضوع وهذه الأرقام ترجع إلى إحصاء تم سنة ١٩٦٥ م وقد أسلم هذا الرجل وانتقل إلى المغرب وعاش فيه وتسمى باسم « ضياء الدين » ، ولابد أن عدد المسلمين قد زاد هناك من ذلك الحين إلى الآن :

الأرجنتين	١٤١٠٠٠	( مسلم )
بوليفيا	٩٠٠٠	( مسلم )
البرازيل	٢٤٢٠٠٠	( مسلم )
شيلي	٨٠٠٠	( مسلم )
إكوادور	٤٠٠٠	( مسلم )
كولومبيا	٥٩٠٠٠	( مسلم )
بيرو	١٩٠٠٠	( مسلم )
غيانا الهولندية	٦٨٠٠٠	( مسلم )
غيانا البريطانية	٨٠٠٠٠	( مسلم )

ويبلغ مجموع عدد المسلمين في أمريكا اللاتينية كلها ٦٥٤٠٠٠ نسمة .

وفي بعض بلاد تلك القارة — مثل غيانا الهولندية — تزيد نسبة المسلمين على ربع السكان ، وفي غيانا البريطانية تبلغ نسبتهم ١٤,٦ ٪ ، وفي غيانا الفرنسية ١٢ ٪ ، ولم ندخل في الحساب مسلمي جمهوريات أمريكا الوسطى وهم كثيرون .

ولم نتحدث أثناء ذلك عن مسلمي جمهوريات الاتحاد السوفيتي الإسلامية ، وهي أذربيجان وتركمانيا وأوزبكستان وقزغيز وطاجيك ، وعدد سكانها لا يقل عن ستين مليوناً هم من خيرة المؤمنين ، وهذا الإحصاء تم في سنة هذه الطبعة لكننا



هذا وهي سنة ١٩٨٨ م وفي بلادهم تقع عواصم الحضارة الإسلامية الكبرى المعروفة من أمثال بخارى وسمرقند وطشقند وغيرها ذات الأثر البعيد في تاريخ الإسلام ، ومن العسير جداً أن نحصل على إحصاء حقيقي لأعدادهم في الوقت الحاضر ، ولكن الذي يمكن قوله هو أن التطور الاجتماعي والحضارى الذى يشمل بلاد الاتحاد السوفيتى منذ بداية رئاسة ميخائيل جورباتشوف سنة ١٩٨٧ م لابد أن يشمل البلاد الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى كذلك . وعن قريب إن شاء الله يعود الإسلام إلى سابق قوته وازدهاره فى تلك البلاد وتتلأشى — كما ينبغى — لعنة الشيوعية الكافرة التى لم تعد بالخير إلا على الروس أنفسهم .. كان هذا الخير سياسياً عسكرياً فحسب ، أما حضارياً وإنسانياً فإن الشيوعية كان لها أسوأ الأثر على الشعب الروسى الذى اشتهر دائماً بمحبته الحضارى وتفوقه فى معظم ميادين الإبداع العلمى والثقافى والحضارى .

ويمكننا أن نقول — بوجه عام — إن كل الإحصائيات التى تنشر فى الغرب عن أعداد المسلمين غير صحيحة . وهناك تعمد معروف للإقلال من عدد المسلمين وتكثير عدد النصارى فى كثير من بلاد الدنيا ، وبخاصة فى بلاد أفريقية ، وذلك لأسباب سياسية معروفة لا تخفى على أحد . ولو أنك نظرت فى أية دائرة معارف كبرى وبحثت عن عدد المسلمين لوجدت أن الرقم الذى تقدمه لا يتجاوز ٤٠٠ مليون ، فى حين أعلن السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى العالمى فى أكتوبر ١٩٦٩ م أن عدد المسلمين فى الدنيا يصل إلى ٧٠٠ مليون ، وذلك تقدير معقول .

وبين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها تقارب وتشابه يبرران استعمالنا لمصطلح « العالم الإسلامى » ، فالحقيقة أن المسلمين — على اختلاف أوطانهم — يتكثرون عالمياً خاصاً بهم له خصائصه الاجتماعية والخلقية والمسلم إذا حل فى أى بلد إسلامى أحس فى الحال بأنه بين أهله ، ووجد نظاماً اجتماعياً مألوفاً لديه وقانوناً أخلاقياً سائداً ليس غريباً عليه .

والسبب فى ذلك التقارب الأخلاقى والاجتماعى هو أن كل مظاهر حياة المسلمين قائمة على الإسلام ومستمدة من شريعته . فسواء كان المسلم صينياً من أهل يون — نان ، أو هندياً من أهل نيودلهى ، أو عربيّاً من أهل جزيرة العرب ، وسواء تكلم

بالعربية أو لم يتكلم بها ، فهو مشترك مع بقية المسلمين في نظرته للحياة واتجاهه نحو المصوبات دون الماديات وأخذ به شرعية الإسلام واعتباره محمداً — صلوات الله وسلامه عليه — مثلاً أعلى للإنسان في خلقه وتصرفه في شئون الدنيا والدين .

أما ما نعرفه من خلاف أهل السنة والشيعة الذي يبلغ خصوم الإسلام في توسيع شقته فهو خلاف سياسي عاطفي . فنقطة الخلاف الرئيسية بين السنة والشيعة هي مسألة مَنْ يلى الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ ، وذلك الخلاف لا يدور حول ركن من أركان الإسلام أو عقيدة من عقائده ، لأن أهل السنة والشيعة جميعاً متفقون تمام الاتفاق على تلك العقائد ، أما مسألة الخلافة فقد جاءت بعد الرسول ﷺ ، ولا نجد عنها في القرآن والسنة شيئاً يمكن التحويل عليه ، وكل تنظيمها وشروط من يليها اجتihad من الصحابة والفقهاء . ثم إن الخلافة نفسها معطلة في وقتنا الحاضر ، ومن ثم فإن أساس الخلاف بين السنة والشيعة منقطع من هذه الناحية أما ما نرى الآن من خلاف بين شيعة آية الله الخميني ومن معه من الآيات من ناحية وأهل السنة من العرب خاصة فهو خلاف تستطيع أن تصفه بأنه شخصي ، لأن آية الله الخميني يحقد على العرب والسنة ، وهو يجتهد في تصفية هذا الحقد بالحرب على العرب وأهل السنة وحماس الكثيرين من أهل إيران له ، حماس وقى لا يلبث أن يزول . فإن في إيران نفسها أهل سنة كثيرين جداً ، وفي البلاد العربية أعداد غفيرة من الشيعة ، وقد عاش هؤلاء وهؤلاء قروناً متطاولة متواطئين متآخين ، فإذا جاء اليوم الخمينيون وتصوروا أنهم متعلبون على العرب ومذلومهم تحت ستار الشيعة فهذا وهم دون شك ، وسيرون في النهاية أنهم محطفون وعندما تنهى الحرب الراهنة ، ويؤكد الخمينيون أنه لا سبيل لهم في الحياة إلا بالأخوة مع العرب ، سيتنى كل شيء ويهود الصفاء .

هناك بطبيعة الحال فرق إسلامية بعيدة كل البعد عن أساسيات الإسلام ، لكنها في الحقيقة فرق شاذة ، محدودة العدد غير قابلة للنمو ، ويرجع شذوذها إلى أن الذين أنشئوها لم يفهموا الإسلام ، وأرادوا أن يدخلوا فيه حاملين عقائدهم الأولى مع إعطائها ظاهراً إسلامياً من القول بالشهادتين . ومادامت هذه الجماعات مغلقة على أصحابها فنحن أحرىء ألا نبالغ في تقدير خطرهما . وهي قد تحولت مع الزمن إلى

روابط ومصالح اجتماعية واقتصادية بين أفرادها .

والإسلام — كما قلنا — يتمثل في أوضح صورهِ في جماعته قبل أن يتمثل في شكل النظام السياسي الذي يحكم هذه الجماعات . والجماعة الإسلامية مركزها المسجد ، فهو في أصلهِ ليس مجرد مُصَلِّي فحسب ، بل هو مكان اجتماع للمسلمين أيضاً ومركز دراسة وعلم وإعلام ورابطة حقيقية بين الناس ، وعهدة وملاذ للمسلمين في أوقات الشدة ، ومن هنا فإن وجود المسجد أساسى بالنسبة للجماعة . فالجماعة الإسلامية ، التي لها مسجد أو مساجد ، جماعة متأسكة مترابطة ذات كيان وقوة ومستقبل ، والجماعة الإسلامية التي لا مسجد لها مصيرها إلى الزوال .

ومن ثمَّ فإن واجب المسلمين الأول هو أن يكون لكل جماعة إسلامية — مهما اختلف عدد أفرادها — مسجد ، ويرتبط بالمسجد الإمام ، وهو الذي يحيى الشعائر ويطبق قواعد الشرع ، ويعمل على جمع شتات الناس ويصمِّمهم بشعونهم الدينية ، ويزيدهم معرفة وإحساساً بأخلاقيات الإسلام وبأهمية العمل على حفظ الجماعة الإسلامية الكبرى وتقدمها .

ومن ثمَّ فإن جانباً كبيراً من مستقبل الجماعة الإسلامية على الأرض يتوقف على تكوين الأئمة القادرين على القيام بهذه المهام الكبرى بين الجماعات الإسلامية ، ولابد لهذا من إعدادهم إعداداً دينياً وخلقياً وعلمياً وإنسانياً ومعاصراً لأن الكثيرين من أولئك الأئمة يمدون للعمل على أسس ماضية وأساليب انقضى زمانها ، فهم يمشون في الماضي . فإذا خطبوا خطبوا أجيالا ماضية ، ولم يكن لهم في أهل الحاضر أى أثر ، وإن معظمهم لا يعرفون لغة غير العربية وهذا أمر مؤسف لأن صراعاتنا في العصر الحاضر قائم مع أمم غير عربية ؛ فكيف نواجهها ونحن لا نعرف لغة أهلها ، لأننا ينبغي أن نذكر أنهم سيعملون في القرن الحادى والمشرين بكل حضارته ولغاته وتكنولوجياه وعلموه ، وبكل نخوره وشره وأخطاره كذلك .

#### خلاصة :

إن أهم النقاط التي تناوَلها الكلام فيما تقدم هي أن الإسلام ولد في مكة عندما

نزل الوحي على الرسول ﷺ بأول آيات القرآن ، وكان طبعها أن يعمل الرسول ﷺ على إنشاء جماعة للمسلمين التي تؤمن بمبادئ الإسلام وتسهر على هدى القرآن وتعمل على نشر العقيدة بين غيرها من الجماعات . غير أن إنشاء هذه الجماعة على النحو الذي يمكنها من القيام بهذه الواجبات لم يتم إلا بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة .

وقد عمل الرسول ﷺ على إنشاء الجماعة في أول يوم نزل فيه المدينة محتمداً على نواة المؤمنين الذين كانوا قد سبقوه بالهجرة إلى المدينة واستقروا فيها ، ومعتمداً كذلك على النقباء الذين كان قد تم اختيارهم قبيل ليلة العقبة الثانية ، واتخذ ﷺ خطوات إيجابية نحو إعطاء الجماعة الإسلامية هيبتها وقوتها ، فاستحدث المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ثم اجتنى مسجده ليكون المركز الديني والاجتماعي للجماعة . ثم أنشأ حجراته في ركن المسجد ، فأصبح المسجد بذلك المركز السياسي للجماعة .

وبعد ذلك مباشرة ، وضع — بالفهم مع صحابه — دستوراً للمدينة يمثل في الكتاب الذي كتبه بين المهاجرين والأنصار ومن أراد التعاون مع أمة الإسلام من يهود المدينة . وقد كتب هذا الدستور على مراحل ، وسفصل في فصل خاص من كتابنا هذا كيف تم ذلك . وعلى طول حياته ﷺ كان إيمانه بالجماعة شديداً ، بتنظيم أمورها وتوجيهها في الطريق السليم الذي يمكنها من أن تكون جماعة حية قوية قادرة على تنظيم أمورها بحسب مبادئ الإسلام وشريعته وقانونه الأخلاق ، وقادرة كذلك على الدفاع عن الإسلام ومذرواته خارج حدودها ، أي على توسيع نطاق الجماعة نفسها .

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت الجماعة الإسلامية قد شملت شبه الجزيرة العربية كلها . وعندما تولى أبو بكر بدأت معالم الإطار السياسي والعسكري للدولة الإسلامية في الظهور على يديه . وجاء عمر بن الخطاب فأكمل ذلك العمل بفضل ملكاته كفاءته قادر على توجيه الجماعة في الطريق الصحيح . فأكمل الإطار الإداري للدولة ووضع لها أول نظام مالي عرفه ، وثبت أصول القانون الخلفي الذي يحكم الوظائف العامة ومن يتولونها ، وأحكم الروابط التي تربط الجماعة بأهبة الحاكم ، وسار بالمسلمين الخطوات الأولى في ظل إمبراطورية واسعة عامة لكل البشر .

وفي أيام أبي بكر وعمر كانت الجماعة والدولة شيئاً واحداً ، بسبب سيرة الاثنين — الجماعة والدولة — على قانون خلقي واحد والتزامهما مبادئ الإسلام . ولكن أيام عثمان شهدت بدء الانفصال بين الجانبين ، لأن بعض تصرفاته لم تعجب نفراً من أهل الرأي في الجماعة ففعلوها ، ثم اتسع نطاق النقد وأصبح احتجاجاً لم تحمداً ، وأدى ذلك إلى وقوع الحرب الأهلية التي انتهت بقيام نظام سياسي هو الدولة الأموية التي فرضت على الناس بالقوة والحيلة . فأنكر الناس الشكل الدستوري لذلك النظام الجديد ، ورفضوا طريقته في الوصول إلى الحكم . وبدأ الانفصال بين الأمة والحكومة ، وأخذ اليون بينهما يتسع ، ومن ذلك الزمان نجد أماننا دائماً في كل من المجتمعات الإسلامية كيانين — أحدهما متميز عن الآخر — هما : « الجماعة » و « الدولة » . فإذا كانت الدولة صالحة متبعة شريعة الإسلام وأخلاقياته تطابق الكيانان ، وإذا كانت غير صالحة ظهر الانفصال بينها وبين الجماعة .

لهذا فقد تعودت المجتمعات الإسلامية أن تنظم نفسها بنفسها دون الاعتماد الكبير على الحكومة : فالمساجد والتعليم والمواصلات والعناية بالمحتاجين وإعداد الفقهاء وأهل العلم ، كل ذلك كان من اختصاصات الأمة ، أما الحكومة فاقصر عملها على الحماية الخارجية وصيانة الأمن داخل الجماعة ، على درجات متفاوتة من التوفيق في ذلك والتاريخ الحقيقي للأمة هو تاريخ المجتمعات التي تكونت منها ، وإلى جماهير المسلمين يرجع الفضل في بقاء الإسلام قوياً عزيزاً وفي توسيع رقعته بإدخال شعوب أخرى فيه .

لقد انتشر الإسلام عن طريق الفتوح العسكرية والدعوة السلمية . أما الفتوح فلم تنشر الإسلام بصورة مباشرة ، وإنما فححت له الباب فقط ، وترك الفاتحون أهل البلد المفتوح أحراراً ليتصرفوا إلى الإسلام ويحببوا فضائله ويدخلوا فيه ، لأن النظرية الإسلامية في هذا الصدد كانت تصدر عن الآية الكريمة : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ كُنِيَ الرِّشْدُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (البقرة ، آية ٢٥٦) .

ومن هنا نستطيع القول إن الإسلام نشر نفسه بنفسه واتسع مجاله بقوته الذاتية وفضائله . وعلى طول تاريخ المسلمين نجد أن الأمة هي أساس الوجود الإسلامي ، وأن الأمة هي العنصر الدائم الثابت في حين أن الدولة ونظمها متغيرة وغير ثابتة .

وفي ختام هذا البيان المجمل لتكوين الجماعات الإسلامية ونظمها السياسية ، قررنا أن الجماعة الإسلامية الحقبة مجتمع رجال أحرار ، وأن قوتها تعتمد على حرية أفرادها وتتمتع كل منهم بحقوقه وقيامه بواجباته .

ومن الواضح أن قيام الإنسان بواجباته نحو المجتمع الذي يعيش فيه متوقف دائماً على النصيب الذي يناله من الحقوق ، فالجماعة التي ينال أفرادها حقوقهم ويتمتعون فيها بحرياتهم المشروعة جماعة نشيطة يقوم أفرادها بأداء واجباتهم حيالها من دفاع ومخدمة صادقة .

ثم تتبعنا بعد ذلك انتشار الإسلام في الدنيا ، بادئين بانتشاره في الشرق وقضه إيران وأفغانستان ووصله إلى الهند وتركستان أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمة . ووقفا وقفة قصيرة عند نتائج فتح إيران وما يليها شرقاً بالنسبة لتكوين الجماعة الإسلامية ، وقلنا إنها لم تعد عربية وإنما إسلامية عامة يشترك فيها أعضاؤها من المسلمين عرباً كانوا أو غير عرب .

وتبعنا انتشار الإسلام في المغرب في العصر نفسه حتى وصوله إلى ساحل الأطلسي ، ثم فتح الأندلس وجنوبي فرنسا وبداية تحول شبه الجزيرة الأيبيرية إلى بلاد إسلامية .

واستطردنا بعد ذلك إلى الكلام على انتشار الإسلام في أفريقية المدار والامتوائية ، على يد المرابطين المجاهدين أولاً ، ثم على يد جماعات الصوفية والتمج والدعاة بعد ذلك .

وعُدنا إلى تتبع سير الإسلام شرقاً في الهند وبلاد الترك حتى داخل الصين وذكرنا أهم الدول التركية التي أسهمت في ذلك مثل الغزنويين والغوريين والمغول المعروفين بالتيغوريين ، وتبعنا انتشار الإسلام في بلاد الملايو وإندونيسيا والفلبين

وبينا بعد ذلك أن سير الإسلام وتقدمه لم يتوقف منذ زمن الرسول ﷺ إلى اليوم ، فهو دائماً في اتساع وزيادة ، سواء في عصور القوة أو عصور الضعف ، وهو في وقتنا الحاضر مازال يسير إلى الإمام . ولم يفقد الإسلام في سيرة الطويل إلا قطرين هما : الأندلس وصقلية ، وكان لكل منهما ظروف خاصة أدت إلى ذلك .

وقد تعرضت أم الإسلام في تاريخها لأزمات وأعطار كثيرة متلاحقة ، ولكنها خرجت منها منصوره بفضل قوة الإسلام نفسه وسلامة مبادئه وحيوية تشريعه وقانونه الخلفى ، ثم بفضل تمسك جماهير المسلمين بدينهم . وضررنا مثلاً على مغالبة الإسلام للشذائد وخروجه منها سليماً بما حدث من أواخر القرن الحادى عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلاديين من اجتاع الخطر الصليبي والخطر المغولى عليه . وكان أى خطر من هذين الخطرين كفيلاً بإزالة عالم الإسلام من الوجود ، ولكن الإسلام وأمنه بقيت للأسباب التى ذكرناها .

والقىا أخيراً نظرة عامة على جماعات الإسلام فى أوروبا والأمريكيتين ، وذكرنا أن الإسلام ما زال ينتشر فى كل اتجاه ، برغم أن سياسات بعض الأمم الناشئة فى أفريقية تضع عراقيل فى سبيل انتشاره ، ولا بد من إزالة هذه العراقيل حتى يستمر سير الإسلام فى تلك القارة ، ولا بد — كخطوة أولى لذلك — من تقوية الجماعات الإسلامية المنتشرة فى العالم ، بتوجيهها إلى تنظيم أنفسها وتوثيق الروابط بين أفرادها ، ومعاونتها على إنشاء المساجد لها وإعداد الأئمة والقادة القادرين على حمل مسؤولياتها ، وعلى حمايتها من الضعف والانكماش ، وعلى فتح طريق التوسع أمامها .







## مراجع مختارة



### الأصول القديمة :

لا يستغنى الباحث في تاريخ الإسلام عن النظر في التاريخ المطول الذي كتبه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ( ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م ) وعنوانه « تاريخ الرسل والملوك » ( بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ) ، عدة أجزاء ابتداء من ١٩٦٠ م بالقاهرة . وأحسن المراجع في السيرة النبوية الكريمة : « سيرة النبي » لأبي محمد عبد الملك بن هشام ( ت ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ) في أربعة أجزاء ( القاهرة ١٩٤٥ ) ، و « كتاب المعازي » لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي ( ت ٢٠٨ هـ / ٨٢٢ م ) بتحقيق مارسدن جونز MARSDEN JONES ، القاهرة وكمبرج سنة ١٩٦٧ في ثلاثة أجزاء .

أما الأقل استفادة من تاريخ الطبري فهو كتاب التاريخ الذي ألفه علي بن أبي الكرم أحمد بن الأثير ( ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م ) المسمى : « الكامل في التاريخ » ، وهو — إلى جانب اختصاره — يستمر في رواية الحوادث إلى أوائل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . وقد طبع في بولاق بالقاهرة ١٨٣٦ ، وطبع بعد ذلك مراراً دون تحقيق علمي . ولهذا فما زالت أحسن طبعة له هي التي قام بها المستشرق تورنبرج TORENBERG في مدينة أوبسالا في السويد .

وهناك مختصرات جبهة تعد من الأصول في تاريخ دول الإسلام أهمها : كتاب « التاريخ » لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح البغوي ( ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ) ، وهو معاصر للطبري تقريباً ، ويمتاز بالدقة ونجوى الصدق . وقد نشره المستشرق الهولندي هوتسما HOUTSMA في لندن بهولندا سنة ١٨٨٣ محققاً ، وعلى أساس هذه الطبعة طبع مراراً في البلاد العربية ، وكتاب « المختصر في

أخبار البشر ، لأبي الفدا إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة ( ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣١ م ) ، القاهرة ١٨٩٧ ، وطبع بعد ذلك مراراً .

وعلى ذلك مختصران أصغر حجماً ولكنهما يمتازان بالدقة والمعرفة الصحيحة :

أولهما كتاب « الفخرى في الآداب السلطانية » لعماد الدين علي بن علي طباطبائي الذي يسمى أيضاً بابن الطقطقي ( ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م ) ، وقد طبع في القاهرة طبعة جيدة سنة ١٩٢٧ ، ثم أعيد طبعه بعد ذلك مراراً .

والثاني « تاريخ الخلفاء » لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ( ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ) وطبعاته كثيرة في كل البلاد العربية .

ويدخل في زمرة هذه الأصول كتابان لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ( ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م ) :

الأول « فتوح البلدان » ، وهو يتتبع قيام جماعة الإسلام ودولته واتساعها حتى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، مع فصول أساسية بحملة عن بعض نواحي النظم الإسلامية : كاللواوين والنقود .

والثاني هو « أنساب الأشراف » ، وهو كتاب تراجم واسع ، ولكن مجلده الأول الذي نشره محمد حميد الله في القاهرة سنة ١٩٥٩ يدور كله حول السيرة النبوية الكريمة ويترجم للكثيرين ممن عاصروا النبي ﷺ ، سواء أكانوا أنصاراً أم خصوماً للإسلام . وللكتاب أجزاء أخرى لم تطبع بعد ، وهو من ذخائر المكتبة العربية التاريخية . وإذا كان كتاب « فتوح البلدان » يؤرخ للجماعة الإسلامية أفقياً — أي يتتبع امتدادها واتساع نطاقها — فإن أنساب الأشراف يؤرخ لها رأسياً بالتمحيق في حياة الرجال .

وفيما يتصل بتراجم الرجال والنساء ، أي توليف حياتهم ، فلدينا : كتاب « الطبقات الكبرى » لعماد الدين محمد بن سعد ( ت ٢٢٠ هـ / ٨٧٥ م ) ، وهو مجموع ممتاز من تراجم الصحابة والتابعين مصدرة بترجمة وافية مطولة للرسول ﷺ . وهو من المراجع الأساسية في تاريخ الجماعة الإسلامية ، وقد طبع الآن طبعة كاملة في بيروت سنة ١٩٥٨ . ولدينا ثلاثة مؤلفات أخرى في تراجم الصحابة وهي :

« أسد الغابة في معرفة الصحابة » لابن الأثير الذي ذكرناه ، ط . القاهرة ١٨٦٣ .

« الإصابة في معرفة الصحابة » لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م ، ط . القاهرة ١٩١٠ .

« الاستيعاب في معرفة الأصحاب » لأبي عمر يوسف بن عبد البر القزويني الأندلسي ( ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ) ، وقد طبع في حيدر آباد سنة ١٩٤٠ .

وبالنسبة لتراجم غير الصحابة والتابعين ، لديها أربعة كتب في التراجم يكمل بعضها بعضاً ، فتعطينا سجلاً حافلاً بالشخصيات الظاهرة في تاريخ الجماعة الإسلامية إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، وهي :

« وفيات الأعيان » لشمس الدين أبي العباس أحمد بن خلكان ( ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م ) ، نشره محيى الدين عبد الحميد في أربعة مجلدات ، القاهرة ١٩٤٨ .

« فوات الوفيات » لابن شاکر الكتبي ، القاهرة ١٩٥٢ .

« الوافي بالوفيات » لصالح الدين خليل بن أليك الصفدي ، طبع أجزاء منه المستشرق هلموت ريتز H. RITZER ، الآستانة سنة ١٩٣١ .

« المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي » لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي ( ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م ) ، طبع منه مجلد واحد في القاهرة سنة ١٩٦٢ .

وأهم الأصول القديمة في تاريخ النظم الإسلامية كتاب « الأحكام السلطانية » لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ( ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٧ م ) ، وهو كتاب رئيسي في نظم الدولة الإسلامية وإدولتها . ويليه في هذا المضمار كتاب « المحراج » لأبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة ( ت ١٩٢ هـ / ٨٠٧ — ٨٠٨ م ) ، وهو كتاب صغير حافل بالمعلومات والآراء عن النظرية السياسية للدولة الإسلامية على عهد العباسيين ، وكذلك عن الشؤون المالية للدولة .

ولا بد للإحاطة بالنظم الإسلامية من دراسة مقدمة بن خلکان ، وهو عبد الرحمن

ابن محمد الحضرمي ( ت ١٤٠٦/٨٠٨ ) وقد طبعت مراراً .

ولكى يأخذ القارىء فكرة عن اتساع الدولة الإسلامية في أوجها ، وترابط جماعاتها وما امتازت به أقاليمها ، لابد من الرجوع لكتب الجغرافية العربية ، ونخص منها بالذكر هنا كتاباً واحداً هو « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن البناء البشارى المقدسى ( ت ٣٨٨ هـ / ٩٧٧ م ) ، وقد نشره المستشرق الهولندى دى جويه DeOeje بمدينة ليدن بهولندا ، ١٩٠٦ ، وأعيد طبعه بالأوسيت .

ويكمل هذه الصورة بعضُ كتب الموسوعيين الذين كتبوا كتباً شاملة هي أشبه بالموسوعات عن عالم الإسلام وما فيه من أمم وشعوب وما اختلط فيه من حضارات ، وأحسن نموذج لذلك كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وكتاب « التنبيه والإشراف » ، وكلاهما من مؤلفات أبى الحسن على المسعودى ( ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م ) . وقد طبع الأول مع ترجمة فرنسية في باريس بين سنتي ١٨٦١ و ١٨٧٧ . أما الثانى فقد طبعه المستشرق دى جويه في ليدن سنة ١٨٩٣ ، وطبع في القاهرة ١٩٣٨ .

### مؤلفات حديثة :

أما الكتب العربية التى ألقت في المصور الحديثة ، فمن أحسن ما بين أيدينا منها كتاب « معاضرات في تاريخ الدول الإسلامية » للشيخ محمد الحضرمي ( القاهرة ١٩١٥ في جزئين ) ، وهو يؤرخ للإسلام على طريقة متوسطة بين القديم والحديث . ولها فائدة له أهمية خاصة .

وبل ذلك كتاب حسن إبراهيم حسن المسمى : « تاريخ الإسلام السياسي » ، ويقع في ثلاثة أجزاء تصل إلى نهاية العصر العباسي الثانى ، وهو سجل حافل بالحوادث يرويها بطريقة سهلة بسيطة ، ويضيف في كل جزء فصلاً عن الأحزاب السياسية والمذاهب والفرق الدينية ونظرات في الأحوال الاقتصادية ، وقد طبع الكتاب بأجزائه الثلاثة مرات عديدة ابتداء من سنة ١٩٣٥ بالقاهرة .

ولدينا في تاريخ صدر الإسلام والدولة العباسية كتب ممتازة لعبد العزيز الدروى

مثل : « مقدمة في تاريخ صدر الإسلام » الذي صدر أولاً سنة ١٩٤٩ وأعيد طبعه في بيروت ١٩٦٠ . و « العصر العباسي الأول » (١٩٤٥) ، و « دراسات في العصور العباسية المتأخرة » ، بغداد ١٩٤٥ ، و « تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري » (١٩٤٨) وكتاب « النظم الإسلامية » (١٩٥٠) .

وكذلك كتاب أحمد الصالح الطي في التاريخ الإسلامي العام : « محاضرات في تاريخ العرب » ، طبع مراراً في بغداد .

ويضاف إلى هذه الكتب كتاب محمد حسين هيكل : « حياة محمد » ، وطبعته كثيرة ، وهو سيرة نبوية تمتاز بأسلوب أدبي ونظرة شخصية دون تعمق في دراسة أصول السيرة .

على أن كتابين لعله حسين : « الفتنة الكبرى » ، عثمان ، و « علي وبنوه » يمتازان بالأصالة وعمق النظرة التاريخية . وهما من أحسن ما لدينا عن الفتنة الأولى التي مهدت الطريق لنهاية عصر الخلفاء الراشدين .

ومن أكثر الكتب الحديثة توفيقاً في هذا المجال مجموعة « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » و « ظهر الإسلام » لأحمد أمين ، وهي كتب ممتازة تلقى ضوئاً ساطعاً على الحياة الاجتماعية والفكرية في عالم الإسلام .

وفيما يتعلق باتساع دولة الإسلام شرقاً وغرباً لدينا الكتب التالية :  
- أحمد السادات : « تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم » جزءان ( القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٥٩ ) .

- حسن إبراهيم حسن : « انتشار الإسلام والعروبة في الصحراء الكبرى وشرق القارة الأفريقية وغربها » ( القاهرة ١٩٥٧ ) .  
- حسن أحمد محمود : « انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا » ، القاهرة ١٩٥٨ .

- حسين مؤنس : « فتح العرب للمغرب » ( القاهرة ١٩٤٨ ) ، و « فجر الأندلس » ( القاهرة ١٩٥٩ ) ، وفيها دراسة لاتساع دولة الإسلام غرباً .  
- شكري فيصل : « قيام المجتمعات الإسلامية » ، طبع في دمشق مرتين .

- عبد الرحمن زكى : « تاريخ الدولة الإسلامية في غرب أفريقيا » ( القاهرة ١٩٦٤ ) .

- عبد الرحمن زكى : « تاريخ الدول الإسلامية في شرق أفريقيا » ( القاهرة ١٩٦٥ ) .

- ف . بارتولد F. BARTOLD : « تاريخ الحضارة الإسلامية » ، نقله إلى العربية حمزة طاهر ( القاهرة ١٩٤٣ ) .

ومن بين الكتب الجيدة التي ترجمت إلى العربية بعد كتاب « تاريخ العرب » لفيليب حتى ، من أحسن الموجزات في تاريخ دول الإسلام حتى نهاية عصر المماليك ، وكتاب « الدعوة الإسلامية » لتوماس أرنولد THOMAS ARNOLD ترجمة حسن إبراهيم وآخرين ، ( القاهرة ١٩٤٧ ) ، وكتاب « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » تأليف آدم ميتز ADAM METZ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ( القاهرة ١٩٤٧ ) ، وقد أعيد طبعه بعد ذلك ، وهو من الكتب الأساسية التي لا بد أن يطلع عليها كل دارس لتاريخ الحضارة الإسلامية . وقد ترجم أبو ريدة أيضاً « تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية » ( القاهرة ١٩٥٨ ) ، وهو من تأليف المستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن JULIUS WELLHAUSEN ، وهو من أهم ما ألف في تاريخ الدولة الإسلامية حتى نهاية العصر الأموي .

والمراجع عن الحروب الصليبية كثيرة نكتفي بأن نذكر منها هنا :

- حسين مؤنس : « نور الدين محمود » ، القاهرة ١٩٦٢ .

- سعيد عبد الفتاح عاشور : « الحركة الصليبية » ، في مجلدين ، القاهرة ١٩٦٣ .

- عمر كمال توفيق : « مقدمات العدوان الصليبي » ، الإسكندرية ١٩٦٦ .

- محمد محمد العروسي العلوي : « الحروب الصليبية في المشرق والمغرب » ، تونس ١٩٥٤ .

وعن الخطر المغولي لدينا كتاب السيد البلاز العريني : « تاريخ المغول » .

ولكن أولى الكتب عن موضوع المغول إلى الآن هو :

HOWARTH ( HENRY ) History Of Mongols , 3 Vols .

وقد نشر أول مرة سنة ١٨٨٨ ، وأعيد طبعه مراراً بعد ذلك .

GROUSSET ( René ) : Les Empires Des Steppes, Paris 1922 .

أما الكتب غير العربية التي ألفت عن قيام الإسلام وجماعته وانتشاره في العالم فكبيرة جداً ، تختلف حظوظها من الجودة والإنصاف . ويندر أن يخلو كتاب منها عما لا يرضى عنه القارئ العربي أو المسلم ، بل بما قد يسوؤه . ولكن ينبغي أن نذكر أن مؤلفيها يكتبون هذه الكتب لقرائهم لا لنا ، ومن ثم فهم لا يراعون ما يرضينا وما لا يرضينا . وهم يكتبون من وجهة نظرهم أو من وجهات نظر شعوبهم ، وهذه تختلف في الغالب عن وجهات نظرنا . ثم إن هذه هي طرائقهم في التفكير والتأليف ، حتى عن أنفسهم وجماعاتهم وعقائدهم . فهم يتقنون كل شيء ، والكثيرون منهم لا يراعون إحساس الآخرين فيما يكتبون . وهم ليسوا عرباً حتى يكتبوا عن شعور عربي ، ولا مسلمين حتى يصبوا عن قلوب مسلمة . وليس من الحكمة أن نمسك عن قراءة ما يكتبون ، لأن واجبنا نحو الإسلام والعروبة يطالبنا بأن نقرأ كل ما يكتب عما وأن نقاسمه ونساجل أصحابه فكرة بفكرة ورأياً برأى ، ولو كانوا أشد قناساً تعصباً علينا . ولا ننسَ آخر الأمر أن في لكثير من هذه الكتب علماً غزيراً وفهماً جديداً ومنهجاً علمياً سليماً نقبسه وأسلوباً محكماً في الكتابة تهدي به .

واليك طائفة من أحسن ما ألفت في موضوع هذا الفصل من الكتب :

ABEL, ARMAND : Le Monde Arabe et Musulman , Bruxelles 1960 .

ALLWORTH, EDWARD : Central Asia, A century Of Russian Rule, 1967

RAMMATE, HAIDAR : Visages De l'Islam, L'Espresso 1958 .

BERQUE, JACQUES : Les musulmans D'hier à Demain, 1960 .

CARDET, LOUIS : La Cité Musulmane, Paris 1934 .

COLES, P. : The Ottoman Impact on Europe, 1968 .

CONTWELL SMITH, WILFRED : Islam in Modern History . New York, 1937

DANIEL, N. A. : Islam, Europe And Empire, 1966 .

MONTEIL, VINCENT : Les Arabes, Paris 1957 .

MONTEIL, VINCENT : Les Musulmans Soviétiques, Paris 1957 .

- MUIR, SIR WILLIAM : *The Caliphate, Its Rise, Decline And Fall*, Edinburgh 1924 .
- NUTTING, ANTHONY : *The Arabs* . New York , 1966 .
- PLANHOL, XAVIER DE : *Le Monde Islamique , Essai De Geographie Religieuse* , 1957 .
- RICE , T . T : *The Seljuks In Asia Minor* , London 1966 .
- RONDOT , P . : *L'Islam Et Les Musulmans D'aujourd'hui* , 1958 .
- SAUNDERS , JOHN L . : *The Muslim World On The Eve Of European Expansion* , New York 1970 .
- STEWART , D . : *The Arab World* , London 1968 .
- SYKES , PERCY : *A History Of Persia* , 3d . ED . London 1948 .
- VILLIERS , A . : *Sons Of Slaves* , 1955 .





### الفصل الثالث

## الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة





## توثيق الصحيفة

أورد في هذا الفصل عن الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة نص الصحيفة التي كتبها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه « يهود » . وقد أوردته مع دراسة موجزة لكي يطلع القارئ على البدايات القانونية والإنسانية والبشورية لأمة الإسلام . وهذه فيما أحسب كانت أول مرة تلقى فيها الوثيقة هذه العناية ، لأن أصحاب كتب الأحاديث من صحاح ومسانيد لم يوردوا النص الكامل لهذه الوثيقة . وبعضهم أهلها تماماً مكتئباً بإشارة بسيطة إليها ، كنا نظن أن الوحيد الذي أورد نصها كاملاً هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي ، فقد أخذ نصها مكتوباً من الإمام موسى الكاظم الذي ورثها عن جده علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وهو الذي كان قد كتب نصوص أجزاءها عند كتابتها عقب الاتحاق عليها واحتفظ بها في قراب سيمه وورثها عنه أولاده وأحفاده .

ووجود نص واحد كامل للصحيفة فتح الباب أمام بعض المؤرخين ليشككوا في أصالة هذه الصحيفة مع وضوح أصالتها وأهميتها بالنسبة لتطور الفكر الإسلامي والجماعة الإسلامية .

وقد عرفنا بعد ذلك على نص آخر كامل للوثيقة . ونص ابن إسحاق الذي أوردته ابن هشام مع بعض التعديلات مروى عن زياد بن عبد الله البكائي الذي نقل نص ابن إسحاق كاملاً ، ولكننا عرفنا أخيراً على نص كامل للوثيقة يطابق النص الذي أوردته البكائي وهذا النص الثاني أوردته بن خزيمة فأسنده : حدثنا أحمد بن حنبل أبو الوليد ، حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحوه . وهذا النص مع ذلك الإسناد أوردته فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد .

ابن سيد الناس الشافعي المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/ في سيرته لرسول الله ﷺ المسماة  
« عيون الأثر في فنون المغازي والشمال ، والسير » ( طبعة دار الجليل بيروت )  
ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٨ .

وأعتقد أن وجود نصين كاملين مطابقين للصحيفة يكفي لإثبات أصالتها . وإليك  
إلى جانب ذلك ما أورده عن نص الوثيقة الدكتور محمد حميد الله في كتابه « الوثائق  
السياسية للمهد النبوي والخلافة الراشدة » الطبعة الثالثة دار الإرشاد بيروت ١٩٦٩  
عن نصوص كاملة أو غير كاملة للصحيفة وآها هو ، وأنا أوردها هنا على عهده .  
وهو رجل أهل لكل ثقة .  
مراجع النص الكامل :

ابن هشام ج ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٢  
ابن إسحاق ( القطعة التي عرفنا عليها من نصه ) ورقة ١٠١ أبو عبيد القاسم  
ابن سلام ، كتاب الأموال ص ٥١٧  
ابن سعد ، الطبقات ( نص جزئي )  
ابن زنجويه ( كتاب الأموال مخطوطة بوردور في تركيا ، عن الزهري ورقة ٧٠  
ف - ٧١ ف ( نص جزئي ) .  
عمر الموصلي ، وسيلة المتبدين ، ح ٨ ، ورقة ٣٢ ف ، عن ابن إسحاق ( نص  
جزئي ) ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٢٤/٣٠ - ٢٢٦ ( نص جزئي ) .  
وانظر عند محمد حميد الله عن النصوص والكماليات الخاصة بالوثيقة بغیر العربية  
ص ٣٩ - ٤١

وفي سنة ١٩٧٨ نشر Robert Bertram Serjeant أحسن دراسة عن هذه الصحيفة إلى  
الآن وعنوانها :  
The Sunna Mention , Facts With The Yazirib Jews And The Tahrir Of Yazirib  
: Analysis and Translation Of The Documents Emprised In The So - Called Constitution Of Medina  
وقد نشرها في :  
The Bulletin Of The School Of Oriental And African Studies  
University of London Vol XII Part I , 1978 10 - 1 - 42

وهي دراسة مستفصاة وجيدة جدا لهذه الوثيقة وأظن أن هذا كله يكفي لإقناع  
القارئ بأصالة هذه الصحيفة التي تشهد كل القرائن بصحتها ، بل إن أسلوبها في  
رأى الدكتور طه حسين من أوائل النصوص الثرية في اللغة العربية ( خارج القرآن

(الكريم) ونحن معنيون بنص هذه الصحيفة لأنه يرينا الأصول التاريخية والقانونية والدستورية للأمة الإسلامية . وهذا أساس بالنسبة لمن يدرس تاريخ أمة الإسلام .

تمهيد :

وصل محمد ﷺ إلى المدينة في ١٢ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة ( ٢٤ سبتمبر ٦٢٢ )<sup>(١)</sup> . وكانت المدينة عند وصوله سهلاً فسيحاً صخرى التربة ، ولكن مياه الأمطار والسيول المتوالية وعوامل التعرية الأخرى فتت تربته في وسطه ، وخطت فيها مجارى وديان ضحلة ، تحمل في الحريف والشتاء مياهاً كثيرة تفيض في السهل ، فحولت التربة البازلتية مع الزمن إلى أرض خصبة ، وحفل باطن الأرض بالماء . وسهل على الناس العثور على الماء في مواضع كثيرة من السهل ، فانتشرت الزروع في وسطه ، أما جانبيه الشرقي والغربي فقد ظلّا هضبتين صخريتين قليلتي الارتفاع تعرفان بالحرثين أو اللاتين<sup>(٢)</sup> .

وأقدم من نعرف عن عمر هذا السهل بطون من شعب قضاة القديم ، وكانت قضاة شعباً كبيراً سكن الجزيرة قبل الميلاد بنحو عشرة آلاف سنة . وكانت جزيرة العرب كلها إذ ذاك أرضاً كثيرة الأعشاب ووفرة المياه والأشجار والزروع ، فعاشت فيها شعوب ضخمة أهمها قضاة هذه وطىء ولخم والأزد وغيرها . ثم أعذت الأمطار تقل والخصرة تلاشى ، فلم يعد وسط الجزيرة ومحاها بقادرين على حمل الشعوب الكبيرة ، فبدأت هذه تتفكك ، وتحولت إلى قطع قبائلية صغيرة ، ولم يبق على تماسكها إلا قبائل جنوب الجزيرة ، حيث ظلت المياه ووفرة في حوض موت واليمن ، وتوالت هناك دول القناتيين والسبأيين والحمرانيين الذين شمل سلطانهم وسط شبه الجزيرة أيضاً .

(١) هذا هو التاريخ التقليدي الشائع لوصول الرسول ﷺ إلى مكة ، ولكن المؤرخين غير متفقين عليه . فهناك من يقولون إن الوصول كان في الخامس من ربيع الأول ، وهناك تواريخ أخرى . ونلاحظ أن ١٢ ربيع الأول هو أيضاً تاريخ مولد الرسول ﷺ ، وهذا الجاهد عند الكثيرين من المؤرخين إلى وضع الكثير من حوادث السيرة في ذلك اليوم من شهر ربيع الأول تبعاً بهيمة .

(٢) سفرد البحريني : حرّة . وكانت الحرّة الشرقية تسمى حرّة وقيم والحرّة الغربية تسمى حرّة الزيرة . أما لفظ لآة فهمهم من النصوص أن معناه الأرض الصخرية المرتفعة ، فهي والحرّة شيء واحد .

ومن هذه الشعوب التي تفككت قضاة ، فأصبحت أوراهاً متشرة في نواحي شبه الجزيرة . ومن فروعها الكبار التي بقيت بنو بل بن الحاف ( الحاف ) ابن قضاة ، فهؤلاء استقر كثيرون منهم في نواح من شمال شبه الجزيرة وغربها ، ونزل منهم فريق في سهل المدينة وزرعوا وتمولوا . ثم نزلت حول المدينة فيما بعد قبائل مهاجرة من جنوبي فلسطين ، فيها الكثير من اليهود ، فاستقرت في أجزاء من الجانب الشرق من سهل المدينة ، وتكاثر في وسادتها بعض أجزائه بكثرة رجالها وبمهارتهم في الصنائع والحرف والزراعة ، واشتد النزاع بينهم وبين القضاة المتفوقين .

ثم نازعهم السيادة في السهل قبائل شديدة المراس ، معظمها مهاجرة من الحوب ، وأهمها الأوس والخزرج ، استطاعوا أن يغلوا اليهود والقضاة ويسودوا معظم السهل ، ويدعوهم . تحالفوا أول الأمر مع القضاة ، فلما أصبحت لهم السيادة أنكروا فضلهم واستخدموهم في فلاحه الأرض . أما اليهود فظلوا محافظين على مواقعهم في السهل ، فحصنوها بحصون كبيرة تسمى الآطام ، وهي عبارة عن أسوار عالية من الصخر تصمم مساحة كبيرة وفيرة الماء ، فتلجأ إليها القبيلة ساعة الخطر . وفي العادة يكون للآطام أبواب ضخمة وتقوم بدخوله بعض الأبنية للسكن ، وتقوم على السور أبراج للحراسة . وعس اليهود أخذ الأوس والخزرج الآطام ، فأصبح لكل فرع من فروعهم أطمه الخاص به في وسط الجزء الذي سكنه من السهل .

#### المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها :

ولم يوفق الأوس والخزرج إلى وضع نظام للحكومة السهل ، فعاشا فيه مجموعتين قبايلتين متجاورتين مستقلتين الواحدة عن الأخرى ، ونشب النزاع بينهما ، فكثرت الحروب وتعددت الوقائع . وكان الخزرج أكثر عدداً من الأوس ، وكانوا كذلك أكثر أرضاً ومالا . ولكن الأوس كانوا ذوي شوكة وضراوة في الحرب مكث لهم من الاحتفاظ بمكانهم برغم قلة عددهم . وقد استعانوا باليهود في صراعهم مع الخزرج ، وكان اليهود يرحبون بذلك ويعملون على توسيع شقة الخلاف بين الجانبين ، ويحتدون في تأييد الأوس ما أمكنهم ذلك . ولم يمنهم هذا من الوقوف بين الجانبين موقف العداء إذا اقتضت مصالحهم ذلك .

تلك هي عناصر السكان الأربعة ( القضايعون والخزرج والأوس واليهود ) التي كانت تعمر سهل المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها . وينبغي أن نقرر أنها بطبيعة تكوينها كانت عاجزة عن الانتفاع بالسهل كما ينبغي ، ونتيجة لذلك عجزت عن الانتفاع برجالها وملكانهم على نحو قريب مما كان المكثون يصنعون في بلادهم . فكانت مساحات واسعة من السهل متروكة هباءً دون زراعة ، بل دون تهديد . وكانت الوديان الجافة التي أشرنا إليها تشكل عقبات حقيقية في اتصال أجزاء البلد بعضها ببعض دون أن يستطيع المدنيون إقامة قنطرة أو معبر .

وكان اتصال المدينة بطريق التجارة المار غربها عسيراً ، فلم يكن ذلك الاتصال ممكناً إلا من ناحية الشمال الغربي فصحب ، أما من الغرب فقد كان الاتصال بطريق التجارة غير ممكن بسبب مرتفعات وعرة لا يخترقها طريق معبد يسمح بمرور القوافل . أما من ناحية الجنوب — ناحية قباء ضاحية للمدينة الجنوبية — فكانت هناك رمال سائلة لا يسهل على القوافل قطعها . فكانت هذه المدينة — التي تقع على بعد كيلومترات يسيرة شرق طريق من أكبر طرق التجارة العالمية — مقطعة تقريباً عن ذلك الطريق ، وكأنها تقع على مسافة شاسعة منه ، ومن ثم فلم تستطع أن تستفيد منه ، في حين نجح المكثون في أن يجعلوه مورداً رئيسياً لثروهم ، يدر عليهم أرزاقاً طائلة ويجعل لمدينتهم مركزاً سياسياً كبيراً في الحجاز بل في جزيرة العرب . ومن المعروف أن مكة — بفضل حسن استغلالها لطريق التجارة — كانت قد أصبحت من أزهر مدن الدنيا وأغناها خلال القرن السادس الميلادي ، وهو القرن الذي سبق مجيء الإسلام .

والسبب الرئيسي في قلة توفيق المدنيين في الاستفادة من سهلهم أو من موقعه الجغرافي ، هو أن عناصرهم السكانية كانت متخلفة متدبرة . فكانت القاعدة القضايعية حاقدة على اليهود والأوس والخزرج جميعاً ، بسبب استغلالهم إياها وعجز أفرادها عن إقامة كيان قبلي مستقل لهم يستطيع الثبات في وجه الطوائف الثلاث السائدة . وكان فريق منهم قد اختلط بالأوس ، ونشأ عن ذلك فرع منهم يعد من أقوى فروعهم ، وهم بنو سهاك بن عتيك الذين منهم أسيد بن حُصَير الصحافي الباسل المعروف ، ولكن ذلك الاختلاط بالأوس لم يرفع مكانة القضايعيين فظلوا على وضعهم الذي ذكرناه ، في أسفل السلم الاجتماعي في سهل المدينة .

وكان اليهود موزعين في ثلاث مجموعات قبلية رئيسية هي : بنو قريظة وبنو قيسية وبنو النضير . وكانت هناك مجموعات يهودية صغيرة أخرى تعيش في حلف فروع من الأوس أو الخزرج ، يقال : يهود بني عوف ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم وغير ذلك . وقد أورد المؤرخون أسماء الكثير من فروع اليهود الصغيرة هذه . وسنجد عدداً منها مذكوراً في الوثيقة التي كتبها الرسول ﷺ بين أهل المدينة ، وستكلم عنها . وكان بعض كبار اليهود يعيشون في أطراف خاصة بهم ، كأنهم سادة إقطاعيون : مثل كعب بن الأشرف الذي روجه انتصار المسلمين في بدر ، فمضى يؤلب الناس عليهم ويحذرهم من امتداد الإسلام . وقد قتل هذا الرجل بعد موقعة بدر بقليل .

وكان سهل المدينة كله يسمى : المدينة ، وهي كلمة معربة من اللفظ السرياني « مدينة » ويراد به البلد وحوزة ، أي المساحة التي يمتد عليها سلطنة . وفي سهل المدينة هذا قامت النواحي المأهولة كأنها واحات متناثرة ، مثل قباء ويثرب والسبخ وسلف وبغات ، وكان بين المواضع العامرة مساحات من أرض خلاء مهملة لا يسكنها أو يفيد منها أحد .

وكان العداء بين الأوس والخزرج مستمراً وشديداً ، ولم يكن سبب الخلاف هو النزاع على السيادة ، فقد كانت لكل منهما مناطق التي ينشر عليها سيادته ، ولم يكن من عادة القبائل العربية أن تحاول إحداها السيادة على الأخرى في مجالها ، وإنما كان النزاع يقوم على مصادر الماء والواحات خارج منازل القبائل ، لأن الماء كان أساس الحياة والثروة . وفي حالة الأوس والخزرج كانت العدوة نتيجة للخوف : خوفاً كل منهما من الأخرى ، وخوفهما معاً من اليهود ، ثم خوفاً لأهل المدينة جميعاً من الأعداء الخارجيين . وهذا الخوف ينشأ عادة من قلة التفاهم أو انعدامه بين الجماعات البشرية المتجاورة في مكان محدود .

الظروف المباشرة التي مهدت لهجرة النبي ﷺ :

في مثل هذه الظروف تشتد حاجة المجتمعات إلى الأمان ، ويمثل الأمان في صورة نظام عادل يترضى عليه الناس ويطمنون إليه ، يقوم عليه شخص أو أكثر من ذوي الحكمة والعدالة والشخصية القوية ، فيكون هذا الشخص — أو الأشخاص —



ضماناً لتنفيذ ذلك النظام عن طريق سلطان منظم ، ومن الممكن أيضاً أن يتمثل الأمان في صورة شخص قوى ذى فضيلة وقوة يفرض نفسه ويخضع له الناس ، فيتولى الحكم فيهم ويقيم النظام وينشر الأمان . وكان الأوس والخزرج يحثون — دون وعى منهم — عن ذلك الأمان والطريق إليه .

أما اليهود فكانوا في انتظار المسيح الذى يرون في مذهبهم الدينى أنه قادم يوماً من الأيام لينصرهم على العالمين . وكانوا يؤكّدون لغيرهم أن ذلك المسيح المخلص قادم لا محالة ، وكانت لهم فيه شروط مقدّمة يزعم أحبارهم أنهم يعرفونها . وعندما ظهر السيد المسيح في فلسطين أنكروه وكذبوه ، لأنه في رأيهم لم يستوف الشروط التى يعرفونها . وكان اليهود في المدينة يؤكّدون لغيرهم أن هذا المسيح إذا ظهر فسيحتزون به على غيرهم ويبلغون به السيادة ، وكان ذلك يثير مخاوف الأوس والخزرج وغيرهم من سكان سهل المدينة .

وعندما كانت الشدة قد بلغت بمحمد ﷺ مبلغها في مكة بعد موت أبى طالب والسيدة خديجة رضى الله عنها — مما اضطره إلى الخروج إلى الطائف سنة ٦١٩ م ، يبحث فيها عن الاستجابة التى لم يجدها في مكة — كان الأوس والخزرج قد التقوا في معركة دامية عند بُعث انتصر فيها الأوس انتصاراً كبيراً ، فزادت مخاوف الخزرج ، فبعثوا في العام التالى ( ٦٢٠ م ) رسلاً إلى مكة يلتبسون المخالفة والمساعدة من أهلها . وما إن سمع محمد ﷺ بأقْدوم هذا الوفد حتى قصد إليه ليعرض عليه الإسلام — وكان محمد ﷺ مجتهداً أشد الاجتهاد في أداء رسالته ، لا يدع فرصة لإبلاغ الدعوة إلا ابتدعها دون أن يعرف الملل سبيلاً إلى قلبه — غير أنه لم يجد عند رجال هذا الوفد قبولا ، لأنهم كانوا مشغولين بمخاوفهم الشديد من الأوس .

وهذه المحاولة من جانب محمد ﷺ تضع يدنا على نقطة البداية في اتصاله بالمدينة ، ذلك الاتصال الذى أدى إلى الهجرة ثم إلى قيام الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة . وخطوات الاتصالات بينه وبين أهل المدينة بعد ذلك معروفة ، فبعد عام من اتصاله بوفد الخزرج اتصل ( في آخر سنة ٦٢٠ م ) بوفد من الأوس ، فلقى عندهم قبولا ، ووعده بأن يبلّغوا قومهم وينشروا الدعوة بينهم وبلقوة في بحر عام ليعقدوا معه اتفاقاً ثابتاً . فأرسل معهم مندوباً من طرفه هو مُصَنَّب بن عمرو ، لكى يعمل على نشر الإسلام بينهم ويدرس الأحوال في المدينة عن كثب .

قلنا : « ليعقدوا معه اتفاقاً » ، والآن نسأل : ما أساس هذا الاتفاق ؟ والجواب الذى يقدمه لنا مؤرخو السيرة النبوية هو أن أساس الاتفاق كان دخول أهل المدينة فى الإسلام ، وتعهدهم بحماية الدين والرسول المبشر به . وهذا صحيح ، ولكن هذه كانت مطالب محمد ﷺ ، فمادام كانت مطالب أهل المدينة ، والجواب أنهم كانوا يرجون الأمان ، إذ توسم فيه الفريقان — الأوس والخزرج — القدرة على أن يكون واسطة خير وتفاهم بينهم ، وأحسوا فى أثناء حديثهم معه أنه الرجل المرجحى القادر على التآليف بين قلوبهم وجمع كلمتهم على مبادئ الدين السامى الذى شرعه لهم . وأدركوا — منذ الوهلة الأولى — أن هذا الدين فى الحقيقة رسالة سماوية تشبه تلك التى كان اليهود يتحدثون عنها ويهددون بها غيرهم .

وكان من أظهر صفات الرسول ﷺ أن إخلاصه كان ظاهراً فى كلامه ، وأنه كانت له شخصية غالبة قادرة على إقناع من يكلمه بصدق ما يقول ، إلا إذا كان ذلك العير مصراً على الإنكار متمسكاً بمصالح شخصية أو قبلية يخشى ضياعها .

والمهم لدينا الآن أن أهل المدينة الذين اتصلوا بمحمد وتفاهموا معه اقتنعوا بصدقه فيما أبلغهم به من نبوته . فقالوا إلى الدخول فى دعوته وتأييده . وكما كانت المدينة فى ذلك الحين محطاً لآمال الرسول ﷺ فى إنشاء الجماعة الإسلامية وهى الخطوة الأولى لتثبيت أقدام الإسلام على الأرض . فكذلك تمثلت رئاسة محمد ﷺ لأهل المدينة حلاً لمشكلتهم الكبرى ، وهى الأمان . وكان السبيل إلى ذلك الأمان هو الاجتماع على الإسلام الذى بشرهم به الرسول ﷺ . وقد تطابق المطلبان — مطلب محمد ومطلب أهل المدينة — تطابقاً تاماً يعد من أسعد مصادفات التاريخ . ولهذا دخل أهل المدينة جميعاً — عدا غالبية اليهود — فى الدين الجديد ونظامه ، وأطاعوا محمداً ﷺ بالفعل قبل قدومه عليهم .

وقد ظهر ذلك بوضوح فى « بيعة العقبة الثانية » التى يُقَمَّم منها أن مندوبى الأوس والخزرج اعترفوا بمحمد ﷺ رئيساً لجماعة المدينة كلها ، وإن لم ينص على ذلك صراحة ، ويؤيد هذا الفرض ما نعرفه من دخول عدد عظيم من أهل المدينة فى الإسلام ، قبل هجرة محمد ﷺ إليها . وكان خروج أهل المدينة للاقائه — عندما وصل إليهم — اعترافاً منهم بقيادته لهم .

## الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية في المدينة :

إذن فقد كانت المهمة الأولى أمام محمد ﷺ عند استقراره في المدينة وبذنه العمل هي إنشاء جماعة منظمة آمنة في ذلك البلد . وكان الإسلام هو المدخل لقيام الجماعة ، فهو يتضمن عقيدة سماوية سامية كفيفة بأن تجمع قلوب الناس حول لواء واحد ، ويتضمن مثلاً أعلى وعروة وثقى تحفز الناس للعمل وتحيي في قلوبهم الشعور بالأمن ، ويتضمن كذلك شريعة فاضلة متكاملة تضمن الحقوق داخل الجماعة ، وقانوناً أخلاقياً يرتفع بالناس عن فوضى المنازعات الدائمة ويحمي الجماعة من عدوان الكبار على الصغار ، والأقوياء على الضعفاء ، ويحيط أموال الناس وأشخاصهم بسياج قانوني لا غنى عنه في مجتمع مستقر منظم . وهناك — إلى جانب ذلك كله — الرجل الكامل بتحقيق هذه الآمال كلها وتطبيقها في الواقع ، وهو رسول الله ﷺ ، الذي اختاره الله رسولاً إلى الناس كافة لكي ينشئ الجماعة الإسلامية في الأرض ووجهه الملكات والخصائص الكفيلة بتمكينه من القيام بذلك العمل العظيم .

وقد بدأ محمد في إنشاء هذه الجماعة في الأيام الأولى لوصوله إلى قباء ، فقد خف إليه كبار رجال المدينة وأخذوا يجتمعون معه ليشاوروا ، واجتمع معه المهاجرون ، وكان عدد منهم قد سكن قباء ، وتفرق الباقون في نواحي المدينة . وكانت نواة تكوين الجماعة أولئك المهاجرين ومعهم نقيب أهل المدينة الاثنا عشر الذين انتخبوا ليلة بيعة العقبة الثانية .

وبمجرد تفكير محمد ﷺ في أن يطلب إلى أهل المدينة الذين قابلوه في مكة في اجتماع العقبة الثانية انتخاب أولئك النقباء ليشركوا معه في تدبير أمر الجماعة المقبلة ، يعطينا فكرة عن تصوره ﷺ لتكوين الجماعة الإسلامية ، فهي جماعة رجال مؤمنين أحرار يتشاورون ويدبرون أمورهم معاً ، ومحمد ﷺ في وسطهم يرشدهم إلى الطريق السوي ، ويوجههم إلى ما فيه خير الجماعة كلها ، وهو لا يقطع دونهم أمراً ، فيما عدا ما يتصل بالشريعة والعقيدة ، فهذه يتلقاها من الله ويلتزم بها ، ويوضحها لهم ويقوم فيها مقام القدوة التي يتبعها الناس .

وانتقل محمد ﷺ إلى وسط المدينة ، واستقر رأيه على المقام في منازل بني عدي ابن النجار الخزرجيين . والخزرج كانوا مغلوبين على أمرهم منذ يوم بُعث ، فاختيار

محمد ﷺ للإقامة في حي من أحيائهم تقوية لجانهم وعزاء لهم عن هزيمتهم ، وكان لابد — نتيجة هذا — من أن ينسوها . أما ما يقال من أنه نزل فيهم لأنهم كانوا أحواله ، فأمر مستبعد ، لأن أحوال محمد قرشيون ، وربما جاز ذلك القول على أساس زواج هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ من سلمى بنت عمرو التي يقال إنها كانت من بني غنم بن النجار ، وكانت من كثرات نساء المدينة . ولكن ذلك مستبعد أيضاً ، لأن محمداً عندما كان ينشئ جماعة على أساس من الإسلام ، ما كان لقيم وزناً في قراراته السياسية للقراءة من أى نوع كان .

نزل محمد ﷺ في دار أمي أيوب الأنصاري ، وكان أبو أيوب من أوساط الخزرجين ، لا هو بالغنى ذي الجاه ولا هو بالفقر المجهول ، ولو أن رجلاً غير محمد ﷺ تولى رئاسة المدينة منذ أيام قليلة لأقام في دار لأحد كبار أهل المدينة ، لأن ذلك كان يضمن مظهراً من الجاه له أهميته . ولكن الجماعة التي كان يعمل على إنشائها كانت جماعة أوساط ، وفي حياة محمد ﷺ كلها كان هواه مع الأوساط ، ومنهم كان معظم رجاله ومعاونيه ومستشاريه . ولقد كان أبو أيوب رجلاً من عامة الناس عندما نزل محمد ﷺ في بيته ، ولكنه — عندما تولى قرب أسوار القسطنطينية سنة ٥٢ هـ / ٦٧٢ م أثناء إحدى الحملات التي كان معاوية بن أبي سفيان يرسلها للجهاد في أراضي الدولة البيزنطية — كان قد أصبح رجلاً شهيراً له مكانته في تاريخ الإسلام ، وقد أقيم على قبره جامع عظيم تعاقب خلفاء آل عثمان وأمراؤهم وكبار رجال دولتهم على تجميله والزيادة فيه ، حتى أصبح من أجمل المساجد العثمانية ، وفي هذا المسجد كانت تتم مراسم تتويج خلفاء العثمانيين بتقليدهم السيف ، بل أصبح المسجد من الآثار الطريفة في الدنيا التي يتحدث عنها الرحالة وأهل الأدب في كتبهم . وقد تحدث عنه بير لوتي PIERRE LOTI الأديب الفرنسي الشهير ويصفي حق الأديب المصري المعروف . وهذا الذي بلغه أبو أيوب من الكرامة إنما هو مثال من آثار «لمسة الإسلام» لقلب رجل محلي صادق من الأوساط .

### إنشاء مسجد الرسول ﷺ وأهميته في بناء الجماعة :

وكانت الخطوة الأولى لإنشاء الجماعة هي بناء المسجد ، والمساجد كما قلنا هي رموز الجماعات الإسلامية ومراكزها ، وهذا يجعل بكل وضوح في إنشاء مسجد

الرسول ﷺ في المدينة ، فقد أنشأه في وسطها تقريباً ، ولم يجعله مصل فحسب ، بل جعله أيضاً مركزاً لتدبير شؤون الجماعة ومكاناً لالتقاء أفرادها ، وفي ركن من صحنه الواسع أقام محمد حجراته التي أقام فيها بقية حياته . وفي الطرف الشمالي للجامع أنشأ العريش الذي كان يُعَيِّن ناحية القبلة ، وفي الطرف المقابل لناحية القبلة أقيمت الصُفَّة ، وهي سَقْفٌ أو ظُلَّةٌ مقامة بعرض الجدار ، تحملها جلوع نخل ليجلس تحتها « أهل الصُفَّة » وهم ، كما تذكر كتب السيرة والتاريخ ، نفر من الفقراء أحبوا أن يقضوا حياتهم قرب مسجد الرسول ﷺ للقيام بخدمته والتصد فيه ، ولكن عندما نقرأ أسماء أهل الصفة نجد الكثيرين منهم لا ينطبق عليهم وصف الفقراء ، ويبدو أن يكونوا قد عاشوا من صدقات الناس . فقد كان فيهم أبو ذر الغفاري ، وأبو ذر لا يمكن أن يكون قد عاش على صدقات الآخرين ، وفيهم عمار بن ياسر وعُقاب ابن الأثرث وصُهب الرومي ، وهم من الصحابة القداماء . وكانت لهم بيوتهم المعروفة ، ومن هنا فلا بد أن يكون لأهل الصفة عمل محدد ووظيفة بالنسبة للمسجد وبالنسبة للرسول ﷺ ، ولندكر هنا أن نقرأ من أهل الصفة كانوا دائماً في خدمة الرسول ﷺ ، يقومون له وللمسجد بأعمال لا يستغنى عنها .

إذن فقد كان قيام المسجد إيذاناً لقيام الجماعة ، فألى جانب وظيفته الرئيسية كمكان للصلاة كان مجمع المسلمين ودار لدعوتهم . وهناك يسمعون أخبار جماعتهم وما تحققة من تقدم وما يحيط بها من ظروف وما كانت تقوم به من نشاط ديني وسياسي وعسكري واسع . هناك كان يقيم محمد ﷺ ، رأس الجماعة وقائدها ، وكان رجالاً نشيطاً قلماً يركن للراحة ، فهو دائماً في حركة : نجهده إما غازياً في عزوة من مغازيه أو زائراً الناس أو طائفاً بنواحي المدينة . وقليلة هي الأوقات التي يقضيها ساكناً يتحدث مع أصحابه بخارج غرفه ، والأخبار التي تصوره جالساً ساعات متوالية والباس من حوله يسألوته فيجيبهم غير حقيقية ، لأنه كان ينفر من الدعة ، وكان قليل الكلام ، فإذا تكلم فبالقدر المناسب فقط ، وكان من صفاته الكبرى عندما يجتمع والناس الإنصات وحسن الاستماع . وكان يستوعب المهم مما يسمع ، سواء أكان جالساً في بيته أم خارجاً أم في طريقه إلى الخزوات ، وكانت عادته أن يدع الآخرين يتحدثون وأن يطل التفكير فيما يسمع ولا يتكلم إلا عن روية .

ولم تكن إدارته لشؤون الجماعة قائمة على أوامر يصدرها ، بل على القدوة الصالحة

التي كان يضربها ، فقد كان نادراً ما يصدر أمراً . ولقد حكى خادمه أنس بن مالك أنه ﷺ لم يرفع صوته في خطابه معه قط ، ولا ترك الغضب يستولى عليه مهما أخطأ خدمه ومعاونوه ، ولم يرفع يداً على خادم أو مولى قط . ولقد كان المنافقون من خصوم الإسلام يرتكبون ما يثير ويغضب ، فلا يفضى محمد ﷺ ولا يدع العاطفة تستبد به ، وإنما كان هادئاً دائماً يتصرف في صمت وهدوء وبعد مشاورة أصحابه فيما جل من الأمور .

### عمران المدينة :

ولم يكن قيام المسجد رمزاً لقيام الجماعة فقط ، بل كان أيضاً بداية لعمران المدينة ، فامتد شارع مبّط من غربي الجامع إلى جبل سلّع في الجانب الغربي من المدينة ، واتصل هذا الشارع شرقاً حتى بقية القرد الذي أصبح مقبرة المدينة . ومن عند المسجد امتد شارع آخر نحو الشمال في اتجاه السّح ، ونشأت الدور على طول هذين الشارعين الكبيرين . وكان الاتفاق بين عمدة محمد ﷺ وأهل المدينة يسمح له بالتصرف في الأراضي المهمة التي لم تكن تباع أحياناً ، ولم يكن يستعملها أحد ، فأعطى المهاجرين والطائفين على المدينة من المسلمين قطعاً من الأرض بنوا فيها بيوتاً ، وسمح لمن يريد أن يعمّر قطعة منها بالزراعة بأن يفعل ذلك لحسابه الخاص ، فأقبل على ذلك الكثيرون من القضاة والأساملة بصورة خاصة ، فأصبحت لهم أراضيهم وزروعهم ، وكان لذلك أكبر الأثر في تحسن أحوالهم وفي عمران المدينة بصفة عامة .

وكانت بعض القطع التي وهبها الرسول ﷺ نصيب نفر لم تكن لهم بيوت واسعة ، فأشأوا فيها بيوتاً لهم ولأهلهم ، وصحبت القطعة بما فيها من البيوت : الدار ، ومع الزمن تصرف أصحابها أو ورثتهم فيما لا يحتاجون إليه من أرضها ، فأصبح مكان بعض هذه الدور أحياء تسمى بأسماء أصحابها ، مثل دار عبد الرحمن ابن عوف ، ودار الزبير بن العوام . شيئاً فشيئاً ، ومع زيادة الرخاء في المدينة ، كثر إنشاء الناس للبيوت والحدايق — وكانوا يسمونها : الحوايط — واتصل عمران المدينة ، فارتبطت الواحات المتباعدة في السهل بعضها ببعض ، وظهرت المدينة كبلد واحد متصل الأجزاء عامر بالبيوت والشوارع والحارات ، مترابط الأطراف ، أهل بالناس .

وعندما توقفت تجارة مكة بسبب سيطرة المدينة على طريق التجارة ، نتيجة لسياسة محمد ﷺ ، اتجه جانب كبير من التجارة نحو المدينة ، وأخذت المساحات الواقعة بينها وبين طريق التجارة تتمهد في اتجاه الغرب مارة بوادي العقيق ومسجد القبلتين ، وفي اتجاه الجنوب الغربي مارة غربي جبل عير . وهنا ظهرت أهمية موضع يمر عروة الذي أصبح من ذلك الحين مركزاً تجارياً هاماً ، وأنشئت بعض الجسور على وديان المدينة تيسراً للمواصلات . وجدير بالذكر أن محمداً ﷺ تنبه لأهمية القناطر والمخابر فشجع على إنشائها حتى تتصل الشوارع .

وكثر في المدينة الأسواق ، والمراد بها الشوارع التجارية ، وانصرف إلى التجارة كثيرون من أهل المدينة ، وزاد السكان زيادة كبيرة ، بل كانوا يزيدون باستمرار بسبب إقبال الناس من كل ناحية لسكنى ذلك البلد العامر الآمن . ومن خلال ما يكتبه السهودي في « وفاء الوفا » نتبين كيف كانت أسعار الأرض وللباني وحاجات الحياة ترتفع في المدينة شيئاً فشيئاً ، وهذه كانت بعض نتائج العمران الذي دب في البلد والسلام الذي سادته عقب قيام الجماعة الإسلامية فيها . ويعد السهودي أسماء المساجد التي بنيت في المدينة أيام الرسول ﷺ ، فنجد عددها كبيراً حقاً ، وإذا نحن اعتمدنا على عدد المساجد كأساس لتقدير عدد السكان ، استطعنا أن نقول إن ذلك العدد تصاعف مرات خلال السنوات القليلة التي أقامها محمد ﷺ في المدينة ، يدبر أمرها ويسوس جماعتها ويرسم الخطوط الرئيسية لتنظيم هذه الجماعة التي ستصبح نموذجاً تحذيه كل الجماعات الإسلامية فيما بعد .

### مبدأ المؤاخاة :

ثم دعا محمد ﷺ إلى مؤاخاة المهاجرين والأنصار ، ولا ندري إن كانت المؤاخاة قد تمت قبل بناء المسجد أو أثناء بنائه ، ويدور أن هذه الخطوط كلها تمت في فترات متقاربة ، فصحب على المؤرخين ترتيبها زمنياً .

والمؤاخاة من أعظم ما سنَّ الرسول ﷺ لتطبيق مبادئ الجماعة الجديدة . ولم يهم مؤرخونا الاهتمام الكافي بإقامة محمد ﷺ للمؤاخاة ، لأنها ألغيت بعد واقعة بدر ، وفاتهم أنها توقفت كأساس للموارث ، ولكنها لم تتوقف كمبدأ إنساني اجتماعي أساسي في حياة الجماعة الإسلامية . لأن محمداً ﷺ لم يقررها بمجرد إيجاد

وسيلة لمعاونة المهاجرين المحتاجين ، وإنما هو قررها ليؤكد لجماعته مبدأ الأخوة في العقيدة والهدف والمثل الأعلى بين أهل الجماعة الواحدة . ولو أن كل جماعة إسلامية حرصت على تطبيق مبدأ المؤاخاة وربط أفرادها الذين الذين يربطهم روابط أخوة قلبية وإنسانية ومثالية ، لكان لذلك أثره الجيد في تطور العلاقات الإنسانية في داخل الجماعات الإسلامية ، ولكانت هذه الروابط الروحية بين الناس قد أصبحت عوامل قوة دائمة تعين الجماعة على الثبات والسير إلى الأمام ، وبخاصة في أوقات الأخطار والأزمات .

### ميلاد دستور الجماعة الإسلامية :

وفي نحو ذلك الوقت ظهرت القطعة الأولى مما يسمى : « الكتاب » — الذي سماه المؤرخون بـ « الصحيفة » أيضاً — وقالوا إن محمداً ﷺ كتبه « بين المهاجرين والأنصار ، ووداع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم » .

ويستلفت النظر هنا أيضاً أن مؤرخي السيرة والنظم الإسلامية لم يهتموا الاهتمام الكافي بهذه الوثيقة ولم ينتبهوا إلى أهميتها . أما أصحاب كتب الحديث فقد أهملوها إهمالاً يستلفت النظر لأسباب « فنية » في علومهم ، فهي لم تصل إلينا عن طريق سلسلة إسناد وإنما وصلت إلينا نصاً مكتوباً ، وهم لا يعترفون في علم الحديث إلا بالأحاديث ذات السند الصحيح على مذهبهم أما الأحاديث التي وصلتهم مكتوبة — مثل خطابات الرسول ﷺ إلى الملوك ، ومعاهداته وكتبه إلى بعض رؤساء القبائل ومن إليهم — فلم يهتموا بها الاهتمام الكافي . وبالإضافة إلى ذلك فإن النص الوحيد لهذه الوثيقة الذي وصل إلينا مكتوباً ، أنانا به محمد بن إسحاق بن يسار ، إمام مؤرخي السيرة ( ت ١٥٠ هـ / ٦٦٧ م ) . وكان علماء الحديث في عصره لا يجهلونه ، وكانت هناك خصومة بينه وبين مالك بن أنس ، وقد اتهمه هذا بقلة الأمانة في بعض ما روى ، وكان لهذا أثره في موقف بقية المحدثين من نص الوثيقة .

وهناك أمر آخر كان له أثره في صرف المحدثين ونفر كبير من المؤرخين عن هذه الوثيقة ، وذلك أن النص الذي أنانا به ابن إسحاق اعتمد على أصليين مكتوبين : كان أحدهما عند محمد الباقر بن جعفر الصادق من أئمة الشيعة ، وكان الآخر عند



عبد الله بن علي بن أبي طالب ، وهذا الأخير هو الذي أعطاه لابن إسحاق ، وكان ابن إسحاق شديد الاتصال به .

وفي عصر بني أمية وأيام بني العباس من بعدهم لم يكن أهل السلطان يرحبون بأى وثيقة تصل عن طريق أهل البيت ، لأن العالوية العظمى من المسلمين كانت ترى أن أهل البيت أولى بالخلافة .

وأيضاً انصرف الناس عن الوثيقة لأسباب سياسية . فإن نص الوثيقة يتضمن قواعد سياسية سامية لم يكن الأمويون — والعباسيون من بعدهم — يرحبون بها ، لأنها كانت لا تناسب مصالحهم . وقد ظهرت الوثيقة في العصر العباسي الأول ، عندما كان الاتجاه في الدولة يؤيد السلطان المباشر غير المنازع للخليفة ، على حين تدعو الوثيقة إلى حرية واسعة في تنظيم الجماعة ، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية ، وكان العباسيون يماريون ذلك كله .

ولكن موازين النقد التاريخي تؤيد صحة هذه الوثيقة وأصالتها ، يدل على ذلك أسلوبها وانطباع ما فيها على الظروف التي كانت سائدة في المدينة أيام الرسول ﷺ ، بل لقد استشهد الرسول ﷺ ببعض مبادئها أكثر من مرة ، وقد أيد صحتها كل أعلام النقد التاريخي من المؤرخين المعاصرين : شرقيين وغربيين .

وقد سميت هذه الوثيقة في السنوات الأخيرة « بدستور المدينة » ، لأنها في الحقيقة دستور ، أى قانون أساسى للنظام السياسى والاجتماعى للجماعة الإسلامية وعلاقتها بغيرها ، ويبين ذلك بوضوح فى أجزاءها : الأول والثالث والرابع .

وقد جرت العادة فى كتب التاريخ المعاصرة على تقسيم الوثيقة إلى مواد وتقسيم هذه المواد إلى مجموعات . ومن الواضح أن التقسيم إلى مواد يرمى إلى تسهيل الدراسة ، أما تقسيم المواد إلى مجموعات فيرجع إلى أن النص الذى بين يدينا لم يكتب فى وقت واحد أو دفعة واحدة ، وإنما كتب الجزء الأول — أو المجموعة الأولى — منه أول الأمر ، وترك النص بعد ذلك مفتوحاً لتضاف إليه المواد التى تدعو إليها الحاجة .

ومن الواضح أن الوثيقة تتكون من مجموعات من المواد كتب كل منها فى وقت

معين ، وهناك خلاف بين العلماء في التقسيم والتوقيت ، وهناك كذلك خلاف في عدد المواد عند هذا المؤرخ أو ذاك ، وذلك أمر اعتبارى .

ويمكن أن يقال — بصفة عامة — إن الوثيقة تتضمن ٧٠ مادة تقسم إلى ٤ مجموعات ، وهناك مواد مكررة : إما باللفظ أو بالمعنى . وهذه المواد المكررة تؤيد القول بأن الوثيقة كُتبت على مراحل واحتمل بعض كل جزء على حدة دون محاولة للتنسيق بين المواد . وقد حرص الذين كانوا يحتفظون بنسخها على ألا يحدفوا شيئاً وإن كان مكرراً . ومعنى ذلك أن « الكتاب » أو « الصحيفة » كانت دستوراً مفتوحاً للمدينة يضاف إليه باستمرار ما يستجد من المواد التي يتم الاتفاق عليها .

وسر اهتمامنا بهذه الوثيقة هو أنها تبيّن بصورة لا تدع مجالاً للشك أن الجماعة الإسلامية الأولى أيام الرسول ﷺ كانت جماعة منظمة على أساس دستوري قانوني ، وأنه ﷺ حرص على أن تسير الأمور في جماعته على أساس قانوني واضح . وربما كان من الأسباب المؤكدة في ضعف الجماعات الإسلامية بعد أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين أن القائمين على أمورها أهملوا الساحة القانونية الدستورية في بناء دولهم . وبدون قانون أساسي ، يبين الحدود القانونية للحاكم والمحكوم ويعين الحقوق والواجبات ، لا يستطيع أى نظام سياسى أن يعمر طويلا ، مهما كانت قوته في أول الأمر .

### كيف نشأت الوثيقة ؟:

وهذا بدوره يجزنا إلى سؤال : كيف بدأ تحرير الوثيقة ولماذا ؟ والإجابة عن هذا السؤال على أعظم جاب من الأهمية بالنسبة لنظام الجماعة الإسلامية الأولى . والذي يتبادر إلى الذهن هو أن فكرة الوثيقة نشأت عن الأساس القانوني الذى أراد الرسول ﷺ أن يسير عليه كل عمل يتصل بتنظيم الجماعة<sup>(١)</sup> . وعندما ندقق في الأمر نجد أن الاتفاق الذى تم بين رسول الله ﷺ وممثلي المدينة فيبيعة العقبة الثانية كان اتفاقاً عاماً وشفوياً وغير محدد ، ومن خلال تفاصيل اجتماعبيعة الثانية التى يوردها

(١) « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ( الأحزاب ، آية ٢١ ) .

ابن إسحاق وابن سعد لا نفهم إلا أن ممثلي المدينة بايعوا الرسول ﷺ على « حرب الأحمر والأسود — أى جميع الناس — وأخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك اللجنة » .

وقد أوجز عُبَادَةُ بن الصامت — وكان أحد القباء الاثنى عشر الذين مثلوا أهل المدينة فى الاتفاق — شروط البيعة بقوله : « بايعنا رسول الله ﷺ ببيعة الحرب ، على السمع والطاعة ، فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم » ( ابن هشام : السيرة ، ط . محى الدين ج ١/٣١١ ) .

وهذه ليست شروط اتفاق ولا ما يقارب ذلك ، ومن الواضح أنبيعة العقبة كانت اتفاقاً شفوياً بجملاً اكتمى فيه بالإخلاص فى النية من الجانبين ، فاقضى الأمر تثبيت ذلك فى نص مكتوب وتفصيله وتوضيحه بعد أن استقر محمد ﷺ فى المدينة وقامت جماعة الإسلام فيها .

فإذا صح هذا التفسير ، كانت تلك الوثيقة نتيجة تفاهم ومناقشة بين أهل المدينة ومحمد ﷺ . وهذا هو الذى يعنينا هنا ، ومن أجله وقفنا هذه الوقفة الطويلة إلى حد ما . لأننا نريد أن ننص على أن أساس بناء الجماعة الإسلامية الأولى هو دستورها ، ودستورها جاء نتيجة رغبة محمد ﷺ فى أن يكون للجماعة قانون أساسى متضمن للحقوق والواجبات والحدود والقواعد التى يقوم عليها نظام الجماعة ، وقد اهمم محمد ﷺ بأن يكون ذلك كله مكتوباً فى كتاب بين أيدي الناس ، ليعرف كل منهم حقوقه وواجباته وحدوده وقواعده .

ولابد أن هذا الدستور نتج عن مناقشات وأخذ ورد بين أفراد الجماعة ممثلين فى رئيسها ، رسول الله ﷺ ، وأصحابه من المهاجرين ونقباء أهل المدينة وأصحاب الرأى فيها . ولا يمكن أن يكون ذلك الصى قد صدر على صورة أمر صادر عن جهة واحدة ، لأن مواد الدستور تتضمن حقوقاً كثيرة للناس والقبائل المكونة للجماعة . وكما حدث فى بيعة العقبة — عندما تناقش محمد ﷺ مع أهل المدينة مناقشة طويلة انتهت بالاتفاق — فلا بد أن يكون الأمر قد سار كذلك فى إنشاء هذا الدستور . ومعنى ذلك أنه صدر عن أسلم الأسس التى تصدر عنها دساتير الأمم ،

وهي المناقشات وتبادل الآراء . وهو — من هذه الناحية — عقد اجتماعي وسياسي صحيح ، وليس فرضاً من جانب ولا منحة من رئيس لموضوعه .

ومن أسف أن مؤرخينا يحملون الحوادث فيما بين الهجرة وموقعة بدر إجمالاً شديداً ، ومن هنا لم يسجل لنا واحد منهم أى تفاصيل كما دار من مناقشات أدت إلى صدور الجزء الأول من ذلك الدستور .

وقد رأينا أن النسختين اللتين بقيتا من هذه الوثيقة ثقلنا عن أصل كان عند علي بن أبي طالب . وهذا هو الطبيعي ، لأن علياً كان كاتب الرسول ﷺ أول استقراره في المدينة ، ولم يكن كتاب الوحي الآخرون — من أمثال زيد بن ثابت أو أبي كعب أو أنس بن مالك — قد دخلوا في العمل بعد ، ومن هنا نستطيع أن نقول إن علياً هو الذي كان يكتب للواد التي يتم الاتفاق عليها ، وهو الذي قام بعمل النسخة الكاملة من النص . ولابد أنه قد نقلت منها نسخ أخرى للأطراف المتعاقدة ، واحتفظ علي بن أبي طالب بنسخة الرسول ﷺ ، وهي التي بقيت لنا .

ويحدثنا محمد الطهراني في كتابه « الذخيرة إلى تصانيف الشيعة » أنه كانت لدى عليّ كتابات أخرى ، أى وثائق أخرى ، مما أملاه عليه الرسول ﷺ ، وأنه كان يحتفظ بهذه الكتابات في قراب سيفه . وقد ورثها منه أبناؤه من بعده .

ويحدثنا الرحالة أنه من عادة رؤساء البدو في الصحراء أن يحتفظوا بالوثائق المهمة في قراب السيف ، أو في كيس يعلق في مقبض السيف . ويضيف الطهراني أن نص الوثيقة التي ندرسها الآن كان مسجلاً في « كتاب مدرج عظيم » . ويفهم من هذا أن علي بن أبي طالب كان حافظ سجلات الرسول ﷺ ، أو كاتب مره كما نقول اليوم ، خلال تلك الفترة الأولى ، والنص الذي لدينا بقي من السجلات التي كانت عنده .

والآن نورد نص الكتاب مقسماً إلى أجزاء ومواد ، وينبغي أن نبه إلى أن هذا التقسيم وهمايته من عندنا .

## نص دستور المدينة :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم  
ولحق بهم وجاهد معهم .

## الجزء الأول من الوثيقة :

مادة ١ - أنهم أمة واحدة من دون الناس .

مادة ٢ - المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفلدون عانيهم  
بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

مادة ٣ - وبنو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى  
عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

مادة ٤ - وبنو الحارث على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٥ - وبنو ساعدة على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٦ - وبنو جُثَم على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٧ - وبنو السجار على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٨ - وبنو عمرو بن عوف على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ٩ - وبنو النُبَيْت على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ١٠ - وبنو الأوس على ريعتهم ... إلى آخره مثل السابقة .

مادة ١١ - وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً<sup>(١)</sup> بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء  
أو عقل<sup>(٢)</sup> .

مادة ١٢ - وأنه لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

مادة ١٣ - وأن المؤمنين المتقين على من بنى منهم أو ابتغى دسيسة<sup>(٣)</sup> ظلم أو  
إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

مادة ١٤ - ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر .

(١) المفْرَح : هو الخفل بالنس .

(٢) العقل : هو التعويض الذي يدفع لإنسان عن ضرر أصابه .

(٣) الدسيسة : هي السلية ، ولكن معناه هنا : من ارتكب أى نوع من الظلم أو الإثم أو العدوان . الخ

- مادة ١٥ - ولا يتصر كافرًا على مؤمن .
- مادة ١٦ - وأن ذمة الله واحدة يجبر عليهم أديانهم .
- مادة ١٧ - وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .
- مادة ١٨ - وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .
- مادة ١٩ - وأن مسلم المؤمنين واحدة لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله عز وجل إلا على سواء وعدل بينهم <sup>(١)</sup> .
- مادة ٢٠ - وأن كل غزاة غرت معنا يعقب بعضها بعضاً <sup>(٢)</sup> .
- مادة ٢١ - وأن المؤمنين يُسمى بعضهم على بعض بما نال دماهم في سبيل الله عز وجل <sup>(٣)</sup> .
- مادة ٢٢ - وأن المؤمنين للفقير على أحسن هدى وأقره .
- مادة ٢٣ - وأنه لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن .
- مادة ٢٤ - وأن من اعتبط <sup>(٤)</sup> مؤمناً قتلاً عن يمينه فإنه قد به إلا أن يرضى ولي المقتول .
- مادة ٢٥ - وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا القيام عليه .
- مادة ٢٦ - وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن يتصر مُحِبّاً <sup>(٥)</sup> ولا يؤويه .
- مادة ٢٧ - وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل <sup>(٦)</sup> .
- مادة ٢٨ - وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرجعه إلى الله وإلى محمد .

(١) أى إلا إذا اختلفوا على ذلك جميعاً .

(٢) أى أن أفراد الجماعة يشتركون معاً في استكمال ما معهم من دواب الحبل .

(٣) أى يشتركون معاً في تحمل ما نال بعضهم من الحسار .

(٤) قتل .

(٥) المحب : هو الذى يرتكب جرماً .

(٦) أى لا يحال ماله أو اجسامه .

## الجزء الثاني من الوثيقة :

- مادة ٢٩ - وأن اليهود يُنفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين
- مادة ٣٠ - وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، موالهم وأنفسهم .
- مادة ٣١ - إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .
- مادة ٣٢ - وأن لليهود بنى الجار مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٣ - وأن لليهود بنى الحارث مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٤ - وأن لليهود بنى مساعدة مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٥ - وأن لليهود بنى جُشم مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٦ - وأن لليهود بنى الأوس مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٧ - وأن لليهود بنى ثعلبة مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٣٨ - إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .
- مادة ٣٩ - وأن جفنة - بطن من بنى ثعلبة - كأنفسهم .
- مادة ٤٠ - وأن لبنى الشطئة مثل ما لليهود بنى عوف .
- مادة ٤١ - وأن البر دون الإثم .
- مادة ٤٢ - وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .
- مادة ٤٣ - وأن بطانة يهود كأنفسهم .
- مادة ٤٤ - وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .
- مادة ٤٥ - وأنه لا ينسجر على ثأر جرح<sup>(١)</sup> .
- مادة ٤٦ - وأنه من قتل فينفسه فلك وأهل بيته إلا من ظلم .
- مادة ٤٧ - وأن الله على أبر هذا .
- مادة ٤٨ - وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .
- مادة ٤٩ - وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
- مادة ٥٠ - وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .
- مادة ٥١ - وأنه لم ياتهم امرؤ بخليفه .

(١) أى : لابد من تصفية الخلافات ، ولا يجوز كتمانها وظلم طرفه إبرامها .

- مادة ٥٢ - وأن النصر للمظلوم .  
مادة ٥٣ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

### الجزء الثالث من الوثيقة :

- مادة ٥٤ - وأن يربح حرامٌ جوفها لأهل هذه الصحيفة .  
مادة ٥٥ - وأن التجار كالنفس غير مضار ولا آثم .  
مادة ٥٦ - وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .  
مادة ٥٧ - وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله .  
مادة ٥٨ - وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .  
مادة ٥٩ - وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها .  
مادة ٦٠ - وأن بينهم النصر على من دهم يربح .  
مادة ٦١ - وإذا دُعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه<sup>(١)</sup> .  
مادة ٦٢ - وأنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين<sup>(٢)</sup> إلا من حارب في الدين .  
مادة ٦٣ - على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

### الجزء الرابع من الوثيقة :

- مادة ٦٤ - وأن يهوى الأوس ، ومالهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .  
مادة ٦٥ - وأن البر دون الإثم .  
مادة ٦٦ - لا يكسب كاسب إلا على نفسه .  
مادة ٦٧ - وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

(١) أي أن جماعة الجماعة إذا دعيت إلى أن تحمد صلحاً مع خصومها كان على أعضاء الجماعة أن يوافقوا على ذلك .

(٢) وأعداء الجماعة إذا دعوا إلى الصلح كان على جماعة المؤمنين أن تستجب للدعوة .



- مادة ٦٨ - لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم .  
 مادة ٦٩ - وأنه من عجز آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وآثم  
 مادة ٧٠ - وأن الله جازل لمن بر وأتقى ومحمد رسول الله .

### المبادئ التى تضمنتها الوثيقة :

والآن نجمل أهم المبادئ القانونية التى يتضمنها كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة .

#### الجزء الأول :

واضح أن هذا الجزء هو أول ما كتب من الوثيقة ، وهو أساسها القانونى ، فهو يتضمن المبادئ الآتية :

- ١ - إن المؤمنين الذين اشتركوا فى تكوين أمة الإسلام أو جماعته يكونون وحدة اعتقادية وسياسية واجتماعية واقتصادية قائمة بذاتها مستقلة عن غيرها من الجماعات .
- ٢ - أفراد هذه الجماعة والوحدات القبلية المكونة لها متكافلون فيما بينهم ، فهم يقومون بمعاونة بعضهم بعضاً فى تحمل الأعباء المالية الباهظة ، مثل الاقتداء من الأسر للشخص أو لأحد قرابته وسداد الديون الثقيلة أو أداء ديات القتل أو قصاص الجراحات .
- ٣ - جميع أفراد الأمة متساوون فى الحقوق والواجبات ، وأساس العلاقات بينهم هو « المعروف » ، أى العرف الجارى الذى يقبله العقل والدين ويرضاه الناس ، و « القسط بين المؤمنين » ، أى المساواة والعدل بينهم .
- ٤ - تتكون نواة الأمة من تسع وحدات : واحدة منها اجتماعية وهم المهاجرون ، والثنائى الباقية وحدات قبلية من أهل المدينة ما بين أوس وخزرج وغيرها . وكل وحدة من هذه تدخل الجماعة بنظامها الداخلى الخاص بها ( على رُبعهم ) . وهم يقومون بمسؤولياتهم الاقتصادية متعاونين فيما بينهم ، وأساس التنظيم الداخلى لكل وحدة هو العرف الجارى والعدل والمساواة بين أفرادها .
- ٥ - الأمة فى مجموعها مسعولة عن الأمن الداخلى ، فلا بد لها من محاسبة لكل معتد أو مفسد من بين أعضائها ، ولو كان ولد واحد منهم .

٦ - الأمة وحدة متأسكة من المؤمنين ، فلا يجوز لأحد أفرادها أن يقتل مؤمناً في كافر ولا يتصر كافرأ على مؤمن .

٧ - أمة الإسلام هي أمة الله ، وهي كلها في ذمة الله أى في رعايته ، وذمة الله التي لرعاها واحدة لا تتجزأ ، ومن ثم فإن أى فرد من أفراد الجماعة يستطيع أن يمح جواره - أى حمايته - لمن يستحق الجوار والحماية ، وفي هذه الحالة تلتزم الجماعة الإسلامية كلها بحماية ذلك الجار وضمان حقوقه .

٨ - وتوكيداً للأخوة والعلاقات الإنسانية بين المسلمين ، ينص ذلك القسم الأول من الدستور على أن المسلمين بعضهم موالى بعض من دون الباس ، فلا ولاء بين مسلم وغير مسلم .

٩ - ومن تبع المسلمين من اليهود فعلى المسلمين نصرته أسوة بالمسلمين أنفسهم ، والجماعة تصمن أنه لا يقع عليهم ظلم ، ولا تنصر الأمة عليهم أحداً .

١٠ - وإن يلم الأمة كلها واحد ، فلا يعقد مسلم أو قبيلة داخلية في الأمة مسلماً مفرداً في حالة حرب ، ولا يتم السلم إلا بناء على اتفاق المسلمين .

١١ - وإذا دخل المسلمون حرباً أو وقع عليهم اعتداء وأصيب بعضهم ، فإن الأمة كلها تتعاون في تحمل التبعات وتمويض الخسائر .

١٢ - ويتبع المسلمون في ذلك أحسن السبل وأقربها إلى الأخلاق الكريمة .

١٣ - وإذا اشتركت مع المسلمين جماعة من حلفائهم في غزوة من القروات تعاون أفراد هذه الجماعة بعضهم مع بعض ، وبخاصة في استعمال ما لديهم من الخيل والجمال والمؤن وما إلى ذلك .

١٤ - ولما كانت قريش قد اعتدت على المهاجرين فشردهم من ديارهم واستولت على أموالهم فإن أحداً من سكان المدينة ، حتى لو كان مشركاً ، أى غير عضو في الأمة ، لا يجوز له أن يمحجر لها مالا ولا نفساً ، ولا أن يحول دون أى مسلم أصابه ضرر من الاستيلاء على ذلك المال تعويضاً له عما أصابه .

١٥ - وإذا قتل مسلم مسلماً عمداً فلا بد من إعدامه ، إلا أن يتفق مع أولياء الدم على ما يرضهم . ولا بد أن يكون المسلمون جميعاً يداً واحدة عليه ، ولا يصح لهم حياله موقف غير هذا .

١٦ - وإذا آوى عضو من أعضاء الأمة مجرمأ أو نصره - سواء أكان من داخل الجماعة أو خارجها - فإن عليه لعنة الله وعضبه ، ولا بد أن تقاطعه الجماعة كلها

مقاطعة تامة ، فلا يقوم تعامل من أى نوع بيه وبين عضو من أعضاء الجماعة .  
 ١٧ - وإذا وقع خلاف بين نفر من أعضاء الجماعة ولم يستطيعوا الوصول إلى حل أو اتفاق فلا بد لهم من أن يعرضوا الأمر على محمد ﷺ ، ليقضى فيه بأمر الله .  
 ١٨ - وتعيداً للمسئولية تقرر ألا يؤخذ إنسان بخطأ يرتكبه حليف له .

### الجزء الثاني :

يصم هذا الجزء ٢٥ مادة ( ٢٩ - ٥٣ ) ، كلها خاصة بالحقاق جماعات من اليهود بأمة الإسلام على أساس الحلف والاشتراك في الدفاع عن وطن الجماعة . ولا ذكر بين هؤلاء اليهود للقبائل اليهودية الكبرى ، أى بنى الصير وبنى قينقاع وبنى قريظة ، ولهذا رُحِّح أن يكون تحرير هذا الجزء وإصاحته إلى الوثيقة قد تم بعد إجلاء بنى قريظة عن المدينة ( رجب - شعبان سنة ٦هـ / أواخر ٦٢٧ م ) . ومفتاح هذا الجزء كله المادتان ٢٩ و ٣٠ - وقد سبق إيراد نصيهما .

ومن هاتين المادتين يرى أن الأمة عُدَّت اليهود الذين بقوا في المدينة بعد انتهاء شأن القبائل اليهودية الثلاث الكبرى حلفاء لها ، وأباحَتْ لهم الاشتراك في الحرب معها ، دفاعاً عن المدينة وعلى شرط أن يشتركوا مع المسلمين في نفقات الحرب .

وقد عُدَّت المجموعات اليهودية التي ورد ذكرها في المواد التالية للمادتين المذكورتين أمةً مع المسلمين ، أى جزءاً من الأمة ، ولكمهم يحتفظون بدينهم فإذا ارتكب أحد منهم خطأ وقع العقاب عليه وعلى أهل بيته دون غيرهم . ويتصمَّن هذا الجزء أيضاً مواد تؤكد شروط التحالف وقواعد العمل مع هذه المجموعات اليهودية ، وأنها أن القبيلة المسلمة لا تتحمل نتائج أخطاء المجموعة اليهودية المخالفة لها ، والعكس صحيح .

### الجزء الثالث :

أما الجزء الثالث من الوثيقة فيتضمن عشر مواد ( ٥٤ - ٦٣ ) فيها تحديدات وتدقيقات على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة للأمة ووطنها .

فالمادة ٥٤ تقول : إن جوف يثرب حرام لأهل هذه الصحيفة ، أى لا يجوز لهم

الحرب أو إزاحة الدماء في داخلها .

والمادة ٥٥ تنص على أن الجار — كالنفس — لا يضار ولا يُعتدى عليه . وهذا نجد مثلاً واضحاً لإقرار دستور الأمة الإسلامية أساساً قانونية مما جرى به العرف في المجتمع العرفي .

والمادة ٥٦ تقرر إنه لا تجار حرمه إلا بإذن أهلها ، وهذا أيضاً مأخوذ من القانون العرفي البدوي .

والمادة التالية ٦١ تقول : إنه إذا وقع بين أهل هذه الصحيفة حدث أو شجار خطير فإن الفصل فيه يكون محمد ، ﷺ ، أى لرئيس الجماعة . وهذه المادة خطوة بعد المادة ٢٨ الواردة في الجزء الأول ، فهي تحدد التزام أفراد الجماعة بهرص القضايا الهامة ونقط الخلاف التي يخشى أن تؤدي إلى صرر للجماعة كلها على رئيس الجماعة ، تحديداً دقيقاً .

ويعتقد أن هذا الجزء الثالث كُتب قبل خروج النبي ﷺ للعمرة خروجه الذي أدى إلى صلح الحديبية سنة ٦٢٩/هـ م . لأن هذا الوقت شهد إقبال كثير من الناس إلى المدينة للسكنى فيها والانضمام إلى جماعتها ، فاقصى الأمر إصافة مواد تضمن النظام داخل المدينة ، وربما خارجها أيضاً فيما حوّلها ، لأن كثيراً من الوافدين استقروا حول المدينة وطلبوا حق الجوار فهازوا به . ويدخل في هذا أيضاً ما نراه في المادة ٥٨ من النص على أن أعضاء الجماعة ينبغي أن يتحرّوا في تطبيقهم لمواد هذا الاتفاق أو الدستور أقرب التماسير إلى البر والخير ، أى إلى روح الدين .

ويلاحظ بوضوح أن المواد ٥٩ — ٦٣ كلها تنص على أشياء خاصة بقرىش وحالة الصلح التي قامت بينها وبين المدينة بعد صلح الحديبية . ومهما هنا المادة ٦٣ التي تقسم واجب الدفاع عن المدينة على سكانها ، أى على أعضاء الجماعة ، لكل مجموعة مكلفة بالدفاع عن البلد من الناحية التي يسكنون فيها . وربما انطبق هذا أيضاً على الذين نزلوا خارج المدينة وحصلوا على جوارها ، فهؤلاء أيضاً كانوا ملزمين بحماية البلد من أى خطر يأتى من ناحيتهم .

## الجزء الرابع :

أما الجزء الرابع ( ٦٤ — ٧٠ ) مواضع أنه يتضمن أحكاماً شتى لا يربطها رابط ، كما رأينا في الأجزاء السابقة ، وإنما هي مبادئ قانونية كان الاتفاق يتم عليها وتقرر إضافتها إلى الصحيفة ، فتضاف . ولهذا فإننا نجد أن المادة ٦٤ تبدو كأنها تكرار للمادة ٣٦ من الجزء الثاني ، الخاصة بيهود بنى الأوس . ويبدو لنا أنها ليست محض تكرار ، بل هي نتيجة لدخول مجموعة القبائل المعروفة ببنى الأوس في الإسلام بعد موقعة الخندق ، فاقضى الأمر النص من جديد على حقوق يهودهم ومواليهم ، ويلاحظ أن هذا النص يطالب أولئك اليهود بالإخلاص التام للأمة .

ولدينا ثلاث مواد : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، تتضمن قواعد خلقية وتنص على أن المعول في تطبيق القانون إنما هو على الروح والأخلاق ، ولا ينسى قبل أن تنتهى من هذا العرض السريع أن يشير إلى الأسس القانونية والخلقية التي تنص عليها المادتان ٦٩ و ٧٠ ، وهما آخر ما لدينا من المواد .

## ملاحظات على النظام العام للجماعة :

ولا بدري إن كانت الوثيقة تنتهى ها أم أنها كانت تتضمن أجزاء أخرى لم تصلنا . ولكننا نرى بوضوح مما سبق بيانه أنها وثيقة فريدة في بابها في حوليات الإسلام ، فليس لدينا في كل نظم الدول الإسلامية ، قبل العصور الحديثة ، تشريع دستوري يتضمن المبادئ السامية التي تتضمنها هذه الوثيقة ، بل إن أحداً من حكام المسلمين لم يحرص حرص محمد ﷺ على أن تبين الحقوق والواجبات في اتفاق حر واضح كهذا الذي رأيناه في تلك الوثيقة .

وبكفى أنها تترك للوحدات القبلية ، التي دخلت في تكوينها ، الحرية التامة في أن تنظم شعوبها على النحو الذى تراه ، مادامت ترعى قواعد شريعة الإسلام ومبادئه الخلقية ، بل إن الجماعة لا تتدخل في الشؤون المالية للوحدات الداخلية في تكوينها ، تاركة ذلك لمسئولية الوحدات . وذلك أساس سليم من أسس التربية السياسية التي حرص محمد ﷺ على أن يقررها في دستور جماعته .

ويمكننا أن نقول — استنتاجاً من النص — إن نظام الجماعة « اتحادى » ، أو ما يسمى فى مصطلح اليوم « فيدرالى » ، بمعنى أنه يتكون من وحدات كل وحدة منها مستقلة بنفسها فى إدارة شئونها الداخلية ، أما الاتحاد بينها فيكون فى مسائل الدين وحمايته ونشره وتطبيق شريعته ومبادئه الخلقية ، وكذلك فى شئون الدفاع والحرب والسلم ، أى العلاقات الخارجية .

### رسول الله ﷺ يتصرف دائماً تصرفاً قانونياً :

وهذه الوثيقة مما يشهد لمحمد ﷺ بالعقبة السياسية والتظيمية والقانونية ، إلى جانب ما حياه الله به من جليل الخصال والمواهب التى أهلته للسوة والرسالة . وهذا بالذكر أن محمداً ﷺ كان رجلاً قانونياً لا يتصرف فى شئون الجماعة إلا فى حدود الاتفاق القائم بينه وبين أفرادها . وسكتفى من أعماله الكثيرة بمثالين اثنين يؤيدان ذلك ، برغم أن كل المؤرخين تقريباً يعمرون بهما عابرين ، دون أن يتفطنوا إلى المعانى الدستورية المستترة وراءهما .

### المثال الأول :

هو دعوة الرسول ﷺ أصحابه للتشاور ليلة موقعة بدر . وعالية المؤرخين يقولون إن الرسول ﷺ أراد أن يستوثق من عزم الأنصار على القتال ، وهذا مستبعد ، لأن الرسول ﷺ كان أعرف بهرات الأنصار واستعدادهم للحرب فى سبيل الإسلام من أن يحتاج إلى سؤا لهم ، ولكن الحقيقة هى أنه خرج بالمسلمين من المدينة على أساس أنهم ذاهبون لمهاجمة قافلة تجارية يضمون ما فيها ، فلما تغير الموقف وبدا أن القرشيين يريدون الحرب وأن مصلحة الجماعة الإسلامية تستدعى الاستجابة لذلك التحدى ، رأى رسول الله ﷺ أنه لابد أن يوقف أصحابه على هذا التحول ويصارعهم بأن الأمر الآن أصبح أمر حرب ، ويقول لهم إنه سيخوض المعركة مع المشركين ، ليقرروا إن كانوا مستعدين لخوض المعركة معه . ومعنى ذلك أنه أراد ، قبل أن يدخل المعركة ، أن يكون القرار صادراً عن الجماعة نفسها . فمن أراد الاستمرار معه على الحرب فعل ، ومن لم يرد فهو حر فى أن يعود إلى المدينة إذا أراد .

## والخالد الثاني :

مثال أدل من السابق على صحة ما ذهبنا إليه ، وهو ما وقع عندما خرج الرسول ﷺ للعمرة عام الحديبية ، فإنه دعا الناس للخروج للعمرة . فخرجوا معه ، لا يحملون من السلاح إلا ما لابد منه للدفاع عن النفس في أثناء الطريق . وعند الحديبية تصدى لهم المكِّيون ، وحالوا بينهم وبين مكة ، فقامت المفاوضات بين محمد ﷺ والمكِّيين . وخرج الموقف ، وسرت إشاعة بمقتل عثمان في مكة ، فبدت في الجو نذر الحرب ؛ وهنا رأى محمد أن الظروف تغيرت .

وذلك أن أصحابه خرجوا معه للعمرة . أما الآن فإن شبح الحرب يُطلُّ على الموقف . ومن الممكن أن يقع اللقاء بين المسلمين والمشركين ، ولهذا رأى عليه الصلاة والسلام أنه لا بد من عرض الأمر كله على أصحابه ليقرروا ما يرونه ، فقد يكون من بينهم من لا يرى الحرب ، ولهذا دعا من يوافقون على دخول الحرب إلى بيعة جديدة ، أي اتفاق جديد ، فكانت بيعة الرضوان .

ولو كان رجلاً آخر غير محمد ﷺ لما حفل بعرض الأمر من جديد على أصحابه . ومادام هو القائد والرئيس فليقرر ما يشاء ، وما عليهم إلا الاتباع ، ولكن هذا لم يكن أسلوب محمد ﷺ في العمل . فهو رجل قانوني لا يتصرف فيما يتعلق بالخطط العملية وسياسة المدينة إلا في حدود التفويض الذي منحه إياه أصحابه . فإذا تغيرت الظروف ، فلا بد من أخذ تفويض جديد بما يقتضيه الموقف .

والأمثلة على ذلك كثيرة من سيرة الرسول ﷺ وأحاديته ، فقد كان هو الرئيس والقائد والنبى والمرشد للجماعة ، ولكنه لم يكن يسيّر شئونها بإصدار الأوامر بل بإعطاء القدوة الحسنة والتزام القانون وطلب المشورة من الناس . وهو لم يكن يصدر قانوناً ويلزم الناس به ، بل كان القانون يصدر عن الجماعة ويبدأ هو باحترامه فيلتزمه الباقون . ولهذا فإننا مهما بحثنا في دستور الأمة الذي عرضناه فإننا لا نجد نصاً على سلطان محمد أو مدى نفوذه ، ومهما قرأنا في السيرة فلن نجده يصدر أمراً ليجبه الناس من دونه ، وإنما كان إذا أراد من الجماعة أن تفعل شيئاً بدأ يأخذ الرأى للوصول إلى قرار يصدر عن الناس ويتبعونه عن طيب خاطر لأنه يمثل إرادتهم . وكان أيضاً لا يأمرهم بشيء يستثنى نفسه منه ، فإذا أراد الخروج لغزوة لم يصدر

أمراً بالخروج ، بل استعد وأعلن رعيته في الخروج ثم خرج بمن حضر ، وعسكر قرب المدينة يوماً أو ليلة ريثما يتلاحق به الناس . ثم يصدر للغزو بمن تجتمع معه غير ناظر إلى من تخلف . ونادراً ما عاتب أحداً على التخلف ، لأنه كان يحكى الناس في ذلك إلى ضمايرهم . وكان لذلك أهد الأثر في نفوسهم .

### إدارة الرسول ﷺ للمدينة :

ومن الواضح أن المدينة كانت تدار أيام الرسول ﷺ إدارة حسنة . فقد سادها الأمن ، وعمرها الرخاء ، وتضاعف سكانها ، وعمرت أراضيها ، حتى تقاطر الناس إليها من كل ناحية ، وعلى الرغم من كثرة الغزباء في البلد وحدائث عهدهم بالإسلام فإن الأمور داخل المدينة كانت تسير سيراً حسناً ، فالأمن مضبوط وأموال الناس آمنة ومتاجرهم زاهرة ، وكل ذلك لا يتم من تلقاء نفسه ، بل لابد ورائه من إدارة حسنة وترتيب كامل وسلطة محترمة . ولكننا لا نلمح مظهراً للحكومة ولا جهازاً إدارياً ، بل ليس لدينا إداريون أو موظفون متخصصون ، فكيف كان يتم ذلك ؟

كان يتم على أحسن صورة ممكنة ، لأن أحسن الحكومات هي التي لا يحس لها المواطن ثقلاً ولا عبئاً ، وذلك تماماً ، كما أن أحسن المواطنين هم الذين لا تحس الدولة لهم بعبء أو ثقل ، لأن الحكومة الصالحة تخدم المواطن وتسهل له أمور الحياة وتكفل له الأمن والخدمات ، فهي تزيد في راحته ، والراحة هي عدم الإحساس بالمتاعب ، أما الحكومة غير الصالحة فهي التي لا يحس المواطن منها إلا ثقل إدارتها وعبء أجهزتها وكثرة موظفيها وتعدد ضرائبها وقلة ما تؤديه له من الخدمات ، فهو في نصب من أمرها أبداً ، وهي عبء عليه دائماً .

كانت إدارة المدينة أيام الرسول قوية نافذة السياسة والنظام ، فهي ترسل الغزوات والسرايا ، وترعى أسر المجاهدين في أثناء غيبتهم ، وتعنى بهم إذا أصيبوا ، وتتولى أسر من يستشهدون منهم ، وهي تفض المنازعات التي يعجز المواطنون عن فضها ، وهي تحميهم من الغزو الخارجي ، ولها من الجاه ما يؤمنهم إذا خرجوا منها فيحترمهم الناس في أي مكان كانوا ، لأنهم يهابون سطوة بلدهم ، وهي تنشر الأمن في الداخل وتسرع بالتعمير والرخاء .



وكل ذلك كانت تقوم به فئة قليلة حول الرسول ﷺ ، تعمل في صمت وهدوء وإنكار للذات يدعو للإعجاب ، ونحن نعرف من هذه الفئة أبا بكر وعمر وعثمان وأبا عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعد بن معاذ ومحمد بن مسلمة وأباه محموداً وسعد بن الربيع وكعب بن مالك وأبي بن كعب والحباب بن المنذر ابن الجموح وثابت بن قيس بن الشماس وأبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري والبراء ابن عارب وأسد بن الحضير وغيرهم . وهؤلاء جميعاً كانوا يعملون في صمت دون حرص على أن تنسب إليهم أعمالهم إيماناً منهم بأن خدمة جماعة المسلمين يراد بها وجه الله سبحانه ، وهو الذي يثيب عليها .

وكان الرسول ﷺ يعهد إلى من يريد — من أهل المدينة — بما يريد ، دون تفريق بين مهاجر وأنصاري ، بل كان يختار لكل مهمة من يقوم بها ، وكان الجميع يسارعون إلى تلبية ما يطلبه إليهم دون تردد ، ويشعرون بالسعادة إذا قاموا بالمهمة ، لأن الرسول ﷺ لم يكن يعهد إلى واحد منهم بعمل إلا لأوصاه وروده بصالحه ورافقه جزءاً من الطريق ، إذا كانت المهمة خارج المدينة ، وظل يتتبع أخباره وأخبار من معه ويتنظر عودتهم . ولهذا نجد أن الدين كانوا يقومون بهذه المهام كانوا يقصدون إلى رسول الله ﷺ رأساً عقب عودتهم ليقدموا إليه بياناً بما عملوا ، فكان يدعو لهم ، وكان ذلك عندهم أحسن الجراء . وإذا كان واحد منهم قد فقد أو أصيب في أثناء المهمة فإن أول ما كان الرسول ﷺ يفعله هو أن يرسل إلى آلِه يؤكد لهم أنه يرعاهم ويقوم لهم مقام عائِلهم الذي أصيب ، وفي أحيان كثيرة كان يطلب إلى من حوله الإسراع بالطعام لعائلة المصاب ، لأنهم سيشفلون بحزنهم عن العناية بأنفسهم . وإذا كان في الأسرة أطفال نجده يسرع باستقدامهم إلى بيته ، حيث يمتنى بهم ويقدم لهم الطعام ، ليظفوا بعبيدين عن جو الحزن إلى أن تخف لوعة الأسرة .

وبطبيعة الحال لم يكن الرسول يقوم بكل هذه المهام وحده ، بل كان من ورائه من يقومون بذلك بتوجيه منه أو بناء على قواعد رسمها لهم . وكان الجميع يقومون بواجبهم في سعادة مؤمنين بأمتهم وعقيدتها . ولم تكن العادة أيام الرسول ﷺ أن يختص أحد بعمل معين ، وإنما كان رسول الله ﷺ يكلف الرجل بالمهمة ، فإذا فرغ منها عاد إلى حياته العادية وكأنه لم يعمل شيئاً ، وهذا لا ينطبق على المجموعة

التي أشرنا إليها ، فهذه كانت تعمل باستمرار ، ولا يمكن أن تتصور نجاح الجماعة الإسلامية أيام الرسول ﷺ إلا على هذا الأساس .

**إخلاصُ الناس لجماعتهم إخلاصٌ لأنفسهم أيضاً :**

ولابد أن نضيف إلى ذلك أن إخلاص أفراد الجماعة كان يرجع أيضاً إلى أنهم كانوا مستفيدين من انتسابهم إليها معنوياً ومادياً . فمعظم أفرادها كانوا قبل إنشائها ، أى قبل دخولهم في الإسلام ، يعيشون هملاً دون وجهة في الحياة أو مهمة يقومون بها ، وإنما كانوا عرباً من أهل الصحراء تنقضى أيامهم وكأنها سُحب صيف ، لا يكادون يعملون فيها شيئاً ذا بال — غير الحروب والمنازعات — وكلها ضرور ومضار .

فما إن دخلوا الإسلام وأصبحوا أعضاء في جماعته حتى أحسوا بأنفسهم ، وشعروا بأن لهم كياناً معنوياً وخلقياً ، وبأن شخصياتهم محترمة ، وأن لهم رسالة جديدة في الحياة . وقد نفت فيهم الإسلام روحاً من العزة والكرامة لم يكونوا يعرفونها من قبل ، وأيقظ فيهم الضمير الإنساني فجعلهم يشعرون بمعنى الحياة وما فيها من حير ، وما يمكن أن يصل إليه الإنسان إذا تخطى بالفضائل وارتفع بنفسه عن الشرور والآثام .

وكان الواحد منهم عضواً في قبيلة لا تفتار على غيرها بشيء ، بل لم يكن له وطن ولا مكان معين تحت الشمس ، ولا يشعر بأمان في أى مكان ، فأصبح الآن عضواً في جماعة كبرى ذات قوة وجاه وسلطان ، وأصبح له وطن آمن وبيت وأرض ومال ، وكل ذلك يؤمنه ويحرسه قانون وشرع سماوى ، وله في هذا الوطن الجديد حقوق محترمة ومرعية وأعمال واضحة تعطى حياته معنى وهدفاً . ثم هو قبل ذلك كله وبعده مسلم مؤمن بالله سبحانه وتعالى ، وهذا في ذاته كان انتقالاً حاسماً في حياة أولئك الناس .

فإذا انتقلنا إلى النطاق المادى الصريح وجدنا أن كل واحد من أعضاء الجماعة كان مستفيداً فائدة مباشرة من دخوله فيها ، فقد تحسنت الأحوال الاقتصادية في المدينة ، وعمرت نواحيها وازدهرت تجارتها ، وأصبحت الأرض التي كانت مهملّة

من قبل أرضاً مرووعة أو مبية لها قيمتها ، وحتى الأرضى التى لم ينشأ عليها شيء ولم تزرع زادت قيمتها المالية ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما يقرره السهمودى فى تاريخ المدينة من ارتفاع الأسعار ووفرة الأطعمة بسبب انتشار الزراعة وتوافر ضروريات الحياة فى أسواق المدينة ، لأن التجارة الكبرى انتقلت إليها . ومعنى ذلك أن أعضاء الجماعة عندما كانوا يعملون بحماس وإخلاص إنما كانوا فى الوقت نفسه يعملون لأنفسهم ، وكان الخير الذى يحققونه للجماعة يعود عليهم منه نصيب . ولقد حدثنا المؤرخون أن الأنصار قبلوا بسرور أن يقاسمهم المهاجرون أموالهم ، ولم يكن ذلك صادراً عن مجرد الرغبة فى المعاونة ، وإنما كان الأنصار يشعرون بأن قدوم محمد ﷺ والمهاجرين إلى بلدهم وقيام الجماعة الإسلامية فيها كان بركة عليهم جميعاً ، فقد تضاعفت أموالهم و ثرواتهم ، فهم إذا قاسموا المهاجرين فإيما كانوا يؤدون إلى الجماعة بعض ما جلبته إليهم من الخير .

وكان رسول الله — ﷺ — حريصاً على أن يشعر الناس بأنهم كسبوا كسباً مادياً حقيقياً باشتراكهم فى الجماعة ، فكان دائماً يحض الناس على العمل والسعى والكسب الحلال ، وما رأى رجلاً زاد ماله من الطريق الحلال ، إلا دعا الله أن يبارك له فيه . وكان يسره أن يرى النعمة ظاهرة على الناس ، وما رأى رجلاً مقتدراً إلا حثه على أن يُظهر النعمة ، وما رأى رجلاً رث الثياب مع قدرته على اللبس الطيب إلا عاتبه ، وكان يكره من الرجل أن يحرم أهله وأولاده من التمتع بنعم الحياة فى اعتدال وكال .

ولابد أن نذكر دائماً أن ضمان ذلك كله كان محمداً — ﷺ — بهدله المطلق وتفانيه التام وإيمانه العميق بالإسلام وأمنه ، وحرصه على مشاورة أصحابه وقدرته على اتخاذ القرار الحاسم السليم فى كل وقت .

### حرية الناس هى أساس الحياة فى الجماعة :

يبد أن أهم ما ميز الجماعة الإسلامية الأولى هو الحرية التى تمتع بها أفرادها ، فكلنا نعرف جماعة المنافقين الذين كانوا يعيشون فى المدينة ويتظاهرون بالإسلام أو بصداقة المسلمين ، ويدسّون فى الوقت نفسه للإسلام وأهله ويكيدون لرسوله ﷺ ويجمعون الأعداء من يهود ، أى واليهود الباقون على دينهم ، ممن كانوا يهاصبون

الإسلام العدا بغيراً وحسداً وضعناً لما حص الله تعالى به العرب من أعداءه رسولهُ ﷺ منهم ، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان قسّى على جاهليته ، فكأنوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث ، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه ، فظهروا بالإسلام واتخذوه جنة من القتل ، وناققوا في السر ، وكان هواهم مع يهود<sup>(١)</sup> . وهؤلاء لم يكونوا معارضة جديدة بالاحترام كمعارضة صريحة ، ولكنهم كانوا منافقين كذابين يخالفون الأمة في الظاهر ويدسون لها في الخفاء ، ولو عاملهم محمد بالعنف لكان له عذر ، ولكنه — برغم عرفانه بشرهم وسوء نيتهم وتآمرهم على الأمة — لم يتعرض لهم بشر وتركهم يقولون ما يريدون . وكانوا يحاولون إخراجهم بالأسئلة التي يحسبون أنها حويصة عليه ، فيرد عليهم في صبر وحلم ، وما كان ذلك خوفاً من غضب قبائلهم لو من قوة أتباعهم ، فإن قبائلهم نفسها كانت تبغضهم ، بل كان أهلهم يستقلونهم ، ولو أنزل محمد ﷺ بهم عقاباً فما كان أحد ليبيض للدفاع عنهم ، ولكنه كان يطل الخيل لهم ويستعمل الحلم معهم حتى يتكشف أمرهم ويظهر سوء نيتهم وفساد ضمائرهم فيتلاشوا ويسقطوا من أعين الناس من تلقاء أنفسهم .

وبالإضافة إلى ذلك ، كان محمد ﷺ يرى أن هذا هو مدى تفكيرهم ، وأن عقولهم لا تستطيع أن تفهم الإسلام إلا على أنه وسيلة لجأ إليها محمد ﷺ وأتباعه للسيطرة على شؤون المدينة ، وهذا أيضاً كان رأى أبى جهل في مكة أيام كان رسول الله — ﷺ — يحاول اجتذاب المكين للإسلام ، وكان الرسول ﷺ يعتقد أنه لو منحهم الله بوراً يرون به لدخلوا الإسلام وأخلصوا له ، ولهذا كان يجتهد في إيهامهم بالحنسنى وشرح الأمور لهم في صبر . وكان وثيق الأمل في أن هذا النور سوف يصل إلى قلوبهم يوماً ما ، وإذن فالخير كل الخير في الصبر عليهم وإفساح الصدر لهم والإغضاء عن أفاعيلهم ، فإنهم لن يبلعوا بعدواهم للإسلام شيئاً .

ومعنى هذا أن محمداً ﷺ كان يرى ترك الحرية للناس ليخبر كل منهم الطريق الذي يريده ، وقد رأينا أن المادة ٣٠ من دستور المدينة تقول : « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » . وذلك يقرر مبدأ الحرية الدينية داخل الجماعة بأوضح

(١) سورة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٦٠

صورة<sup>(١)</sup> . ولنذكر هنا ما أشرنا إليه من أن الرسول ﷺ كان شديد الاحترام لشخصيات الناس ، حتى خدمه ومواليه ، فكان لا يرفع عليهم صوته ، وكان يتحرج من أن يجرح شعور أى إنسان حتى ولو كان بدويًا طارئاً على المدينة لا يعرف من آداب أهل المدن شيئاً ، فكان الرسول ﷺ يستقبله في رفق ويحدثه في مودة ويراعى شعوره احتراماً منه للشخصية الإنسانية . وكانت معاملته لنسائه مضرب المثل في الاحترام والتقدير ، ولا نذكر لنا صحف التاريخ أنه صدر عنه — ﷺ — ولو في لحظة غضب ، لفظ يمس شعور إحداهن ، ولنا بحاجة إلى أن ننص هنا على ما كان من معاملته لأصحابه معاملة الود والمحبة والاحترام لأشخاصهم مع توقيرهم البالغ له ، ومع أنه كان يعلم أنه يستطيع أن يصدر إليهم الأمر فيطيعوا دون مناقشة . إلا أنه كان يفضل دائماً أن يتباحث معهم ويأخذ برأيهم وإذا وجد أنهم يقولون صواباً . وكل ذلك يدل على احترام محمد — ﷺ — للشخصية الإنسانية احتراماً كاملاً ، وتقديره لحرية الناس واعتباره هذه الحريات أساساً من الأسس التي لا يقوم بنيان الأمة بدونها .

ولعل ابن هشام لم يكن مصيباً عندما قال إن المناققين « ظهوروا بالإسلام واتخلوه جنة من القتل » ، فالرسول — عليه الصلاة والسلام — لم يقتل أحداً لشركه ، وابن هشام نفسه يشير إلى حالة أربعة بطون من الأوس ، هم بنو خُطمة وبنو واقف وبنو وائل وبنو أمية ، ظلوا على الشرك دون أن يمسه محمد بأذى<sup>(٢)</sup> ، حتى أسلموا من تلقاء أنفسهم بعد الحندق ، كما يقول ابن حزم في كتابه « جهرة أنساب العرب » وقد سموا بعد ذلك « بأوس الله » .

وهذا الموقف تجاه المعارضين كان — فيما نرى — أساساً من أسس قوة الأمة وإيمانها العظيم بالإسلام ، فإنه لا شيء يزيد المعارض استمسكاً بمعارضته مثل محاولة إسكات صوته بالقوة ، لأن ذلك يجعله يتصور أنه على حق وأن ما يقوله له قيمة كبيرة ، ولا يلجأ أحد إلى القوة في مسائل الرأي إلا إذا أحس بضعف في رأيه وغضب

(١) هذا هو المبدأ الذي قرره الصحابة . ولكن لما عاينه اليهود وأعدوا يكيّدون للجماعة الإسلامية كان لابد للجماعة أن تحس نفسها منهم بإخراجهم .

(٢) سورة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٠ .

من أن يغلبه خصومه بالحجة ، فهو يلجأ إلى القوة ليسكت أصواتهم ويتجنب ملاقاتهم في ميدان المناقشة ومقارعة الحجة بالحجة .

وهذا الموقف الذي اتخذته محمد حيال المعارضين والمنافقين لم يكن محض سياسة منه ، بل كان هو أيضاً موقف الإسلام من غير المسلمين ممن كان لهم دين منزل وما يشبه الكتاب ، لأن الإسلام — كما نرى في القرآن الكريم — دين تسامح وحرية فكر ، وهو نور وهدى من الله ، فهو فضل منه يمنحه لمن يشاء ، وقد بينا فيما سبق كيف كان العرب يعرضون الإسلام على الناس ويصرونهم به ، ثم يتركونهم أحراراً بعد ذلك ليعتقوه عندما يقتنعون به وتفتح قلوبهم له .

### أثر الحرية والتسامح في انتشار الإسلام :

وقد كان مبدأ الحرية هذا الذي قرره القرآن في أكثر من موضع ونص عليه دستور الجماعة الإسلامية نصاً صريحاً كما رأينا ، وجرى عليه محمد ﷺ في تسير أمور المدينة ، كان لهذا المبدأ الأثر الأكبر في انتشار الإسلام فيما بعد ، لأن الإسلام ظهر في عصر اضطهادات دينية ومحاولات عيفة من جانب الدولة البيزنطية وأصحاب المذاهب المسيحية لإرغام الناس على الدخول في دينهم أو مذهبيهم .

فلما جاء العرب ودخلوا البلاد تحت راية الإسلام ، ولم يفعلوا أكثر من عرض الإسلام على الناس وتبصيرهم بفضائله ثم تركوهم بعد ذلك أحراراً في اعتناقه إذا شاعوا ، كان هذا الموقف مثار عجب ودهشة من جانب الزرادشتيين والمناويين في إيران والمسيحيين واليهود في الولايات البيزنطية التي فتحها العرب . فتأقت نفوسهم إلى معرفة الإسلام ، ووقع في نفوس الكثيرين منهم أنه ميزة كبرى ، وإلا لما ضن به العرب على غيرهم — في رأيهم . وهذه الفكرة واضحة في كتابات المسيحيين الذين رحبوا بالعرب وحكمهم مثل يوحنا القُيُوسى المصرى ، وكذلك في كتابات المسيحيين الذين كرموا العرب والإسلام وإن دخلوا في خدمتهم ، مثل يوحنا الدمشقي<sup>(١)</sup> . بل ذهب الغيظ من انجذاب المسيحيين للإسلام نتيجة لتسامح

---

(١) الذي كان هو ووالده قبله في خدمة البلاط الأموي منذ أيام معاوية بن أبي سفيان .

السلطان أن حاول نقر من قساوسة قرطبة ورهبائها إرغام المسلمين على الخروج من  
تصنعهم ، وذلك بإهانة الإسلام ومقدساته علناً في الشوارع ، لكنى يقتادهم الشرطي  
إلى القضاء . وأمعن القضاة في التسامح معهم ، فكانوا يحاولون استئنايتهم حقاً  
لعمالتهم ، فظنُّ أولئك المتصبون أن هذه فرصة جديدة أتتحت لهم ليظهروا بمظهر  
الأبطال ، فتمسكوا بالعداء للإسلام وإهانة مقدساته مما كان يضطر القضاة إلى الحكم  
عليهم بالموت ، وقد اشتهر بذلك الراهب بولوج القرطبي Bologio De Cordoba  
وصاحبه فلورا Flora وكلاهما انتهى أمره إلى القتل بسيف الشرع ، وكانا وأمثالهما  
يحبون أن دماءهم ستذكى غضب الصاري على الإسلام ودولته في الأندلس فتكون  
ثورة دامية أو تؤدي على الأقل إلى تنفير الصاري من الإسلام . ولكن الحركة  
أخفقت ، وأصدر مجلس طليطلة الديني المسيحي قراراً يسه فيه آراء أولئك الرهبان  
الذين بلغ بهم التعصب الديني مبلغ الجنون . وعقب ذلك ازداد إقبال الناس على  
الإسلام في الأندلس .

### الصورة العامة للجماعة الإسلامية الأولى في المدينة :

كانت الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة إذن جماعة سليمة من كل وجه : سليمة  
في تكوينها وسياستها الداخلية والخارجية ، وسليمة في قواعد الحكم والعمل التي  
سارت عليها . كانت جماعة رشيدة ، كل من فيها يؤمن بها ويعرف واجبه حياتها ،  
لأن القرآن يفتح عيون الناس على حقوقهم وواجباتهم ويبين لهم المبادئ الخلقية التي  
يسبغى أن تسير عليها الجماعة الفاضلة . وكان محمد ﷺ — يتبع طريق العدل  
والإحسان ، فيعطى الناس حقوقهم ويضمن حرياتهم ومصالحهم ، كما رأينا في  
الدستور الذي ناقشنا أهم أبوابه ، وليس هناك ما يحفز الناس على أداء الواجب مثل  
حصولهم على الحق الذي يقابله ، وقد حصل الناس في المدينة على خير كثير حال  
قيام جماعة الإسلام فيها ، فإن انتقال محمد ﷺ إليها وضبطه أمورها نشر الأمان  
في ربوعها ، وغزواته وسراياه التي قام بها أو بعث بها أمنتها من كل خطر خارجي  
ومشرت سلطانها على مساحات شاسعة حولها ، فأمنت الطرق المؤدية إليها وتحركت  
تجارتها بعد طول ركود ، وأخذت المدينة تحتل مكانة مكة في التجارة والمال . ومع  
الأمن الداخلي والخارجي وانتعاش التجارة تحركت الهمم للإنتشاء ، وكثر المال في

أبدى الناس ، وأحسوا بنعمة الإسلام كعقيدة ونظام سياسى واجتماعى ، وازداد حرصهم عليه وتمسكهم بالمبادئ التى يدعو إليها ، وارتفعت همهم إلى مستوى المركز الذى وصلت إليه جماعتهم ، فظهرت بينهم شخصيات امتازت بصفات القيادة والتوجيه وحسن الرأى والتدبير ، وأصفى الإسلام عليهم نعمة التواضع وإنكار الذات والاتجاه إلى عمل الخير .

لهذا نجد أنه ينطبق على مجتمع المدينة أيام الرسول ﷺ — ما يسميه الفلاسفة : « المدينة الفاضلة » أى المجتمع الخير الذى تسير فيه الأمور على قواعد المحبة والتعاون ، ويرجع الناس فيه إلى صوت العقل ومصلحة الجماعة . ويندر أن نقرأ فى أخبار المدينة أيام الرسول ﷺ — على كثرتها وتفصيلاتها التى تقدمها لنا كتب السيرة — شيئاً يدل على فساد أو ضعف أو اختلاف شديد بين الناس ، وإنما جدهم متعاونين معاً متطلعين إلى الخير متحدين فيما بينهم متمسكين بالإسلام وناظرين إلى غيره قبل أن ينظروا إلى غير أنفسهم .

وقد كان الأنصار يشعرون بذلك شعوراً دائماً ، فما تحدث أحد منهم إلا ذكر نعمة الله على المدينة وأهلها وما أصابهم جميعاً من الخير منذ حل بهم محمد ﷺ وأظلتهم راية الإسلام ، وعلى طول أيام الرسول ﷺ كان الأنصار أول الناس خروجاً للغزو وأشدهم بلاء فى الميدان ، وبهذا كانوا يعبرون عن شكرهم للنعمة التى حلت بهم مع الإسلام وفصل الله ورسوله ﷺ عليهم .

وهناك فريق آخر من أهل المدينة أحسوا بنعمة الإسلام إحساساً عميقاً وعبروا عن شكرهم له بالتضحية البالغة ، وهو فريق القضاة ، من بطون الخاف ابن قضاة . فلقد كانوا مستعبدين ممتنّين قبل الإسلام ، فلما استقر محمد ﷺ فى المدينة اجتلبهم إليه ورفع قدرهم ، وزال عنهم الضيق باعتنائهم الإسلام ، وأصبحوا مساوين لغيرهم . ولما كانوا هم معظم من يفلحون الأرض فقد أصبحت لهم الأرض التى استطاعوا استصلاحها — وكانت كبيرة جداً — سواء داخل المدينة أو فيما حولها . وكان محمد ﷺ قد اتفق مع المدنيين على أن يتركوا له الأرض المهملة التى لا يهيدون منها ، فتصرف هو فيها بإعطاء جانب كبير منها للقضاة الذين كانوا بحاجة إلى أرض يملكونها ، فانتقل الكثيرون منهم من الفقر إلى يسر الحال ، وكان معظم الذين أفادوا من ذلك من قبيلة أسلم ، فأصبح الأسالة أنصار الرسول



والمهاجرين خاصة ، وقد انتفع بهم عمر أحسن انتفاع ، إذ إنه كان رأس الهيئة المدبرة المنظمة وراء الرسول ﷺ ، فكان يركن إليهم في الكثير من المهام ، وإلى عناية عمر بأمرهم يرجع الفضل فيما قرره الرسول ﷺ من اعتبار الأسالة مهاجرين ، أى تسويتهم بقومه . وعندما خرج الرسول ﷺ لفتح مكة لقي منهم بطولاً خارج المدينة ، فقالوا له إهم ليسوا أقل إحلاصاً للإسلام من أسالة المدينة ، فعذبهم هم الآخرين مهاجرين ، وإن أقاموا في مواضعهم .

أصبح الأسالة القضاة إذن مواطنين كاملين في جماعة المدينة ، وقد أشعرهم هذا بمزة وكرامة ، إذ تخلصوا من استبعاد الأوس . وعندما اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة — بعد موت النبي ﷺ — كان صوت الأسالة هو الذي رجح كفة أبى بكر في المناقشة حول اختيار خلف للرسول ﷺ . وقد فعل الأسالة ذلك حذراً من أن يعود السلطان في المدينة للأوس والخزرج ، وتعبيراً عن شكرهم محمد ﷺ وللإسلام على ما أتاهم به من نعمة المساواة والكرامة الإنسانية ، إلى جانب ما عاد عليهم من المكاسب المادية .

## خلاصة :

تينا في الفصل الأول قيام الجماعة الإسلامية والأسس التي ارتكز عليها بنائها ، وعرفنا موقف الجماعة من النظم السياسية التي قامت في بلادها بعد ذلك ، وبيّنا كيف وقع الانفصال بين الجماعة من ناحية وبعض تلك النظم من ناحية أخرى في بعض الأحيان ، وأثبتنا أن الجماعة ظلت محافظة — ولو من الناحية النظرية — على المبادئ الرئيسية التي يقرها الإسلام كمقيدة وشرعية وميزان خلقي ، والتي طبقها محمد ﷺ مؤسس الجماعة الإسلامية في المدينة .

ثم تتبعنا بعد ذلك اتساع نطاق جماعة الإسلام في كل اتجاه ، حتى نشأ ما يعرف اليوم بالعالم الإسلامي .

ولما كانت الجماعة الإسلامية هي أساس الوجود الإسلامي كله ، فقد خصصنا هذا الفصل الثاني للإحاطة بالجماعة الإسلامية الأولى في المدينة ببساطة تفصيلية ، لنرى الأسس القانونية والخلقية والحضارية التي قامت عليها ، باعتبار أن هذه الجماعة

الأولى هي المثل الأعلى الذي كان ينبغي أن تقتدى به الجماعات الإسلامية كلها فيما بعد .

فبدأنا ببيان الأحوال في سهل المدينة ، قبل أن يهاجر إليها رسول الله وصحابته ، وعرفنا عناصر السكان الأربعة التي سكنت هناك ، وهم : بقايا القضاة والقضاة والحرف ، والأوس ، واليهود ، وتكلمنا عن أحوالهم ، وشرحنا أسباب الخلاف الذي كان قائماً بينهم ، وخرجنا من ذلك بأن أهل المدينة كانوا يحشون عن الأمان مثلاً في صورة نظام قانوني وحلفي عادل يقوم على تنفيذ رجل أو رجال من أهل العسل والحكمة والعدالة والمقدرة . وقلنا إن مدوئ أهل المدينة عندما التقوا والرسول في مكة في موسم الحج تبينوا أنه هو القائد الذي كانوا يحشون عنه ، وأن الإسلام الذي بشرهم به هو ذلك النظام القانوني والحلفي السامي الذي كانوا يحشون عنه . وكما وجد الرسول ﷺ في المدينة العرصة لإنشاء الجماعة الإسلامية التي كان يسعى لتحقيقها على الأرض ، فكذلك وجد أهل المدينة في الرسول ﷺ أملهم الذي كانوا في أشد الحاجة إليه ليخرجوا من الفوضى والخلاف التي كانوا يعانون منها . وإلى هذا التطابق الكامل بين مطلب الرسول ﷺ ومطلب أهل المدينة يرجع انسراح في ذلك الالتحام الكامل بين الإسلام وأهل المدينة الذي كان الأساس المتين لقيام الجماعة الإسلامية . وعلى أساس من ذلك الالتحام بدأت هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، فكان ذلك بدءاً لعصر جديد في تاريخها وصفحة جديدة في تاريخ الإنسانية .

وتبعنا الخطوات التي اتخذها الرسول ﷺ لينشئ جماعة الإسلام — أو أمته — في المدينة ، وتبيننا أنها كانت خطوات سليمة مقدرة بحساب وقائمة كلها على أساس الإسلام ومتجهة نحو إنشاء جماعته . فمض اليوم الأول لوصوله — ﷺ — بدأ بالتشاور مع أهل المدينة ممثلين في القباء الاثنى عشر الذين احتاروهم ليلة بيعة العقبة الثانية ، ثم ذكرنا كيف رأى الرسول أن يقيم في منازل بني غدي بن النجار ، وهم بطن من الخزرج . وكان الخزرج إذ ذاك مغلوبين على أمرهم ، فكان قرار الرسول ﷺ إنصافاً لهم ورفعاً لهمتهم ، وحافزاً لهم على التغاضي عن تأثرهم من الأوس .

ثم أنشأ الرسول ﷺ مسجده ، وهو ليس محض مكان للصلاة ، بل كان مركز الحياة الاجتماعية للجماعة : هناك كانوا يلتقون ويتبادلون الرأي ، وهناك كانوا يسمعون

أخبار جماعتهم ، وعندما بنى محمد - ﷺ - حجراته في ركن من ساحة المسجد أصبح المسجد المركز الرئيسي للجماعة أيضاً . وبنشوء مركز الجماعة تكونت نواتها السياسية والاجتماعية والعمرانية .

وبيناً في فقرة خاصة كيف راد عمران المدينة ونشأت فيها الشوارع وصعوف البيوت والمساجد والأحياء ، وكيف اتصلت أجزاء السهل ببعضها ببعض وعمرت الأجزاء التي كانت متروكة مهملة ، فارتفعت أسعار الأرض والمباني ، وكثر الناس في المدينة ، واتصلت بطريق التجارة فتوافرت فيها حاجات الحياة ورخصت أسعار الأطعمة بالنسبة للزراعة ، وزاد إنتاج الناس للأقمشة وما إليها . وهذا ما يعبر عنه - بالمفهوم الحديث - بزيادة الإنتاج ، وهو من العلامات المؤكدة لنجاح الجماعات الإنسانية وصلاح نظمها ومبادئها الخلقية .

وتكلمنا عن مبدأ المؤاخاة الذي قرره الرسول ﷺ ، وبيناً أنها لم تكن مجرد مؤاخاة مهاجرين بأصهار لتحسين المركز المالي للمهاجرين ، وإنما كانت مؤاخاة إنسانية واجتماعية ، مؤاخاة في الدين والوطن كما نقول اليوم .

بعد ذلك درسنا دستور المدينة - أي قانونها الأساسي - الذي يتمثل في الكتاب الذي كتبه الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار ومن انضم إليهم من اليهود الذين كانوا يعيشون في المدينة . وبيناً كيف أن هذا الكتاب وثيقة دستورية من الطراز الأول ، حددت فيها المبادئ الأساسية للكيان السياسي والإسكاني للجماعة .

وقد أوردنا النص الكامل للوثيقة ، وذكرنا طرفاً من تاريخها وكيف تكونت وكيف وصلت إلينا ، ثم ناقشنا المبادئ التي تضمنتها واحداً واحداً ، سواء أكانت سياسية أم تشريعية صرفة أم خلقية أم اقتصادية ولا يمكن أن يوجزها ما قلناه هناك لأنه بطبعه موجز في النص ، فراجع في موضعه .

وحتمنا الكلام عن الوثيقة بإلقاء نظرة إجمالية على النظام العام للجماعة الإسلامية في ظلها ، وقررنا في فقرة خاصة أن بنشوء هذه الوثيقة صدر عن التفكير القانوني لرسول الله ﷺ وانتهاه إلى أن يتصرف دائماً في حدود قانون محدد معروف وصرباً لذلك مثالين من السيرة النبوية يدلان على أنه - ﷺ - كان لا يتصرف في الشؤون السياسية إلا بعد التشاور مع أصحابه ليصدر القرار عن الجماعة نفسها .

وإذا حرج الناس معه لمهمة معينة ثم تغيرت الظروف تغيراً يمكن أن يؤدي إلى الحرب ، فإنه — عليه السلام — كان يطرح الموضوع على الناس في مناقشة عامة ليقرروا فيه ما يرون بحسب الظروف الجديدة ، فقد يكون فيهم من لا يريد الحرب ويفضل العودة إلى المدينة . حدث هذا ليلة موقعة بدر ، وعندما اعترض القرشيون طريق المسلمين عند الحديبية وهم يريدون قضاء العمرة . ففى كلنا الحالين لم يكن الناس قد خرجوا مع الرسول للحرب ، فلما تغيرت الظروف وأصبح وقوع الحرب محتملاً طرح الرسول الأمر للمناقشة العامة ، فمن أراد دخول الحرب ثبت معه ، ومن لم يشأ كان له أن يعود أدراجه .

وتحدثنا بعد ذلك عن إدارة الرسول — عليه السلام — لشئون الجماعة وبينا أنها كانت إدارة سليمة حكيمة ، فساد الأمان والرخاء ، وعلا جاه المدينة وجماعتها بين الناس ، وأقبل العرب للانضمام إليها من كل ناحية ، وبيننا كيف جعل الرسول — عليه السلام — أهل المدينة يدبرون أمر مدينتهم بأنفسهم ، وكيف أنه لم يتجه إلى خلق كيان أو جهاز إدارى متخصص ، بل كان يعهد في المهمات إلى من يراه قادراً على ذلك من الصحابة ، فإذا قام الصحابي بما كلف به عاد إلى صفوف الصحابة وإلى حياته العادية وكأنه لم يعمل شيئاً ، وقلنا إن السر في ذلك كان القدوة الصالحة التي كان محمد — عليه السلام — يصورها للناس بعمله ، فهو نفسه كان يعمل باستمرار ، وكان لا يأف حتى من العمل بيده ، فكان يتخدم نفسه بنفسه ويشارك في بناء المسجد بيده ، وفي وقعة الخندق اشترك مع الناس في العمل ، وكان يشارك في الحراسة الليلية ، فإذا اشتد به البرد دخل حباءه ليستدق بعض الشيء ثم يعود إلى الحراسة والإشراف على الخندق .

وأشرنا إلى الفئة القليلة من الصحابة الذين كانوا يعملون معه ليل نهار حمية لله ورسوله — عليه السلام — ، وكان على رأس هذه الجماعة عمر بن الخطاب وأبو بكر ، فكان أفرادها ينفذون ما يرسم الرسول — عليه السلام — من الخطط في صمت وإنكار للذات .

وبينا كيف أنه — عليه السلام — كان حريصاً على الصل عارفاً بقدر العاملين مقدراً فصلهم ، فلم يكلف مرة واحداً من الصحابة بعمل إلا أوصاه وأعطاه تعليماته وربما رافقه جزءاً من الطريق ، ثم ظل ينتظره بعد ذلك . ودكرنا أمثلة من حرصه على أصحابه ومراعاه مشاعرهم ورعايته لأسرهم ، وبينا كيف أنه — في حالات

استشهاد من يستشهد منهم — كان يستقدم الأيتام ويرعاهم بنفسه أو يوصى بهم بعض أصحابه ، وكيف كان يحرص أشد الحرص على مواساة أرامل الشهداء .

عرفنا كذلك كيف كان إخلاص الناس في الوقت نفسه إخلاصاً لأنفسهم ، لأن كل خير تناله الجماعة يبالغ فيه نصيبهم العادل .

وضررها الأمثلة على اهتمام الرسول ﷺ بأن تتحسن أحوال الناس الاقتصادية وتظهر عليهم نعمة الإسلام والانضمام إلى الجماعة .

وحصصا فقرة للكلام على أن الحرية كانت أساس الحياة في الجماعة ، وضررنا أمثلة على حرص الرسول ﷺ على أن يتمتع كل أهل المدينة بحرية الرأي ، حتى ولو كانوا من المنافقين ، وبينا كذلك كيف أنه كان حريصاً جداً على احترام شخصيات الناس وكراماتهم ، فلم يصدر عنه قط ما يمس شعور الناس أو يجرح إحساسهم .

وبينا بعد ذلك أثر الحرية في بقاء شخصيات أفراد الجماعة ، وكيف أصبحت جماعة الإسلام — نتيجة لذلك — مجتمع رجال أحرار دوى اعتزاز بديهم وجماعتهم وأشخاصهم ، وإلى هذا الاعتزاز ترجع الانتصارات التي كسبوها في ميادين الشرف والجهاد والحكم والإدارة .

وأضعا إلى ذلك ملاحظة عن مبدأ التسامح — وهو مظهر من مظاهر الحرية — وكيف أدى إلى زيادة انتشار الإسلام وإقبال الناس عليه .

وحتمنا الفصل بصورة عامة للجماعة الإسلامية التي أسسها الرسول ﷺ — في المدينة مابين خصائصها ومفائلها ، وأوضحنا أنها كانت صورة واقعية طبيعية لما تخيله الفلاسفة وسموه « المدينة الفاضلة » ، وبينا كيف كان المواطنون فيها مقدرين للجنة التي أصابوها في طلبها ، وصرها مثالين لذلك بإخلاص الأنصار للأمة التي شاركوا في إقامتها في بلدهم وعرفان الأسالة القصاعين لعصل الإسلام وأمتة عليهم .







## مراجع مختارة

### أصول قديمة :

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم : « الكامل في التاريخ » ،  
طبعة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٩٢٩ ، ح ١ .

ابن حرم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد . « جوامع السيرة » بتحقيق إحسان  
عباس . القاهرة ١٩٥٧ .

ابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد : « كتاب الطبقات الكبرى » ، بيروت  
١٩٥٧ ، الأجزاء الثلاثة الأولى .

ابن عبد البر ، يوسف بن عبد البر التميمي : « الدرر في اختصار المعارف  
والسير » ، بتحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٦٦ .

ابن كثير ، عماد الدين أبو العدا إسماعيل « البداية والنهاية » ، القاهرة ١٩٣١ ،  
الأجزاء الأربعة الأولى .

ابن هشام ، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المعافري البصري : « سيرة النبي  
ﷺ » ، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين .

الخراعي ، أبو الحسن علي بن محمد : « الدلالات السمعية على ما كان في عهد  
الرسول ﷺ من الحرف والصائغ والعمالات الشرعية » مخطوط بدار الكتب  
المصرية ( التيمورية ١٩٣٨ — تاريخ ) .

الديار بكري ، حسن بن محمد بن الحسن : « تاريخ الخميس في معرفة أئمة  
نبي » ، المطبعة الوهية بالقاهرة ، بدون تاريخ .

السمهودي ، نور الدين علي بن محمد بن جمال الدين : « وفاء الوفا بأخبار د

- المصطفى ، مطبعة الآداب والمؤيد ، القاهرة ١٩٢١ .
- السهيلى ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله : « كتاب الروض الأنف » ،  
القاهرة ١٩١٤ .
- الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير : « تاريخ الرسل والملوك » بتحقيق محمد أبى  
الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦١ .
- المقريزى ، تقي الدين أحمد بن على : « إمتاع الأسماع » ، ج ١ ، القاهرة  
١٩٤١ .
- النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : « نهاية الأرب فى فنون  
الأدب » ، طبعة دار الكتب المصرية . الأجزاء ١٦ — ١٧ — ١٨ ، القاهرة  
١٩٥٥ .
- الواقدى ، أبو عبد الله محمد بن واقد : « كتاب المغازى » بتحقيق مارسدن  
جونز ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٦٧ .

#### مؤلفات حديثة :

- أحمد إبراهيم الشريف : « دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول  
والثانى للهجرة » ، القاهرة ١٩٦٧ .
- أحمد إبراهيم الشريف : « مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول » ، القاهرة  
١٩٦٥ .
- الألوسى ، السيد محمود شكرى البغدادى : « بلوغ الأرب فى معرفة أحوال  
العرب » .
- عباس محمود العقاد : « عبقرية محمد » . مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٤٧ .
- عباس محمود العقاد : « مطلع النور أو طوابع البعثة المصمدية » ، القاهرة ١٩٥٥ .
- محمد حميد الله : « مجموعة الوثائق السياسية ، من عهد الرسول والخلفاء  
الراشدين » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٥ .
- محمد حسين هيكل : « حياة محمد » ، القاهرة ١٩٣٥ .



- محمد حسين هيكل : « في منزل الوحي » ، القاهرة ١٩٣٧ .  
 محمد عزة دروزة : « عصر النبي عليه السلام » ، دمشق ١٩٤٥ .  
 محمد لبيب البتانوني : « الرحلة الحجازية » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩١١ .

مراجع غير عربية :

- BLACHERE, Régis, Le Problème De Mahomet , Paris 1952  
 BUHL, FRANTS Das Leben Mohammeds , Heidelberg , 1953  
 DEMOMBYNES , GAUDEFROY (M) Mahomet , Paris 1957  
 MONTGOMERY WATT (W) , Muhammad At Mekka , Oxford 1953  
 MONTGOMERY WATT (W) , Muhammed At Medina , Oxford 1956  
 MONTGOMERY WATT (W) Muhammad , Prophet , And States Man , Oxford 1965  
 SERJEANT (R B) The Constitution Of Medina , In The Islamic Quarterly VOI VIII





## الفصل الرابع

### ملامح المجتمع الإسلامي





### الطابع الغالب على المجتمع الإسلامى :

فى الفصل الأول من هذا الكتاب يبين كيف أن الجماعة — أو الأمة — هى أساس كيان الوجود الإسلامى ونظامه ، فإن عبادات الإسلام كلها ذات طابع اجتماعى ، والإسلام لا يعرف الرهبة أو الانقطاع للعبادة ، إذ إن عاية الدين هى سعادة البشر فى الدارين ومعاونتهم فى الوصول إلى حياة أفضل . فالصلاة — مثلاً — تنبى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، فهى طريق للأحلاق الكريمة ، إلى جانب كونها قرينة إلى الله تعالى ، وخير الصلوات ما يؤدى جماعةً ، والمساجد أمكنة التقاء للمسلمين بعضهم مع بعض ، ليقوى فى نفوسهم الشعور بالجماعة ، والمسجد يسمى أيضاً : « الجامع » أى الذى يجمع بين الناس ليقفوا بين يدى الله صفواً واحداً فى أوقات معلومة ، يعظمونه ويسألونه . والمساجد كذلك دور دراسة ودور قضاء ، وكانت تستعمل فى بعض الأحيان مراكز لبعض الأعمال ذات الطابع العام ، مثل توزيع الأراضى على المتقربين ، أى متعهدى الضرائب ، والمساجد كذلك مراكز إعلام ، فالمفروض أن أخبار الجماعة الإسلامية ينبغي أن تبلغ للمسلمين من منابر المساجد فى اجتماعات تعقد لهذا الغرض أو فى خطب الجمعة والأعياد . وهذا هو — على الأقل — ما كانت الأجيال الإسلامية الأولى تفعله . وكان هناك فى بعض المساجد ، كمسجد قرطبة الجامع ، موضع معين يخلف عنده الناس أمام الشهود على صدق ما يقولون أو على ارتباطهم بتمهدهم ، وكان هذا الموضع يسمى : « مَقْطَع الحق » .

أما بقية عبادات الإسلام — كالزكاة والصوم والحج — فجانبا الاجتماعى — أو الجماعى — واضح لا يحتاج إلى بيان .

وليس أدل على الطابع الاجتماعى لعبادات الإسلام من أنها تدخل فى نطاق الشريعة . والشريعة هى الطريق ، فكأن المبادئ فى صميمها طريق لكمال الإنسان

وسعادته ، لا مجرد طقوس تؤدي لذاتها ، كما هو الحال مع طقوس معظم الأديان الأخرى .

ومن الواضح أنه لا دين بغير ناس يؤمنون به ، لأن الدين طريق ، ولا طريق بغير سابلة ، والإسلام — بالذات — لا يتمثل أبداً في صورة رجل منقطع للعبادة في البرية ، كما نرى في غيره من الأديان ، ولقد عبر الرسول الكريم ﷺ عن ذلك أصدق تعبير ، حيث قال : « أَصْبِرْ أَحَدَكُمْ عَلَى مَجَالِسِ الْمُسْلِمِينَ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ مِائَةِ عَامٍ » .

وتلك ميزة للإسلام كبرى ، فهو دين حياة ومجتمع ولقاء وأخذ وعطاء . ولهذا فإن محمداً — ﷺ — لما بادر إلى إنشاء الجماعة الإسلامية لأول نزوله المدينة ، لم ينشئها في صورة نفر من الحواريس أو الدعاة يخرجون « لصيد الرجال » ، كما يحكون من قول السيد المسيح — عليه السلام — لبطرس الحوارى ، وإنما هو أنشأها في صورة مجتمع إنسانى عادى يضم الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وملكاتهم . وبينما نجد السيد المسيح — فيما يحكى المسيحيون — يسر وسط حواريه ، لا يكاد يتكلم إلا معهم ، فإذا تكلم مع غيرهم عُدَّ ذلك أمراً غريباً يتلوى على حكمة بالغة ، وكلامه كله رموز ومجازات وكنيات تحتل معاني شتى ، نجد محمداً ﷺ يعيش وسط الناس جميعاً كواحد منهم ، يتحدث إلى كل من يريد أن يستمسه في أمر ، ويتكلم كلاماً واضحاً مفهوماً ، يحل للناس مشكلاتهم . وكان يشاركهم عواطفهم ، حتى كان يداعب الأطفال بكلام يناسبهم .

ولم يكن في حياته — ﷺ — تكلف أو مظهر يميز خاص ، فهو يأكل ما تيسر له من الأطعمة المباحة ، فيشبع من الطعام الجيد إذا صادف الطعام الجيد ، ويكفى بتمرات إذا لم يجد إلا التمرات ، وهو يلبس كذلك ما تيسر له دون تكلف ، فإذا تيسر له ثوب غالى الثمن لبسه ، إلا إذا كان حريراً . والغالب عليه أنه كان يكفى بثوب بسيط يفصله بيده ويجلس بجواره إلى أن يجف ، لا لكي يراه الناس يفعل ذلك أو مظهراً بالتقليل ، وإنما لأن هذه كانت طريقته في الحياة .

ومن الصفات المميزة له ﷺ في هذا المجال أنه كان لا يشتى شيئاً غير موجود ، فهو يأكل ويلبس ما حضر ، لا يراعى في الحالين إلا النظافة . وكان — ﷺ —

من أحرص الناس على النظافة في كل شيء . فهو يغسل كل يوم ، حتى في الأيام الباردة ، ويغسل ثوبه يده ، ولا يزال طول اليوم جوعاً وينظف أسنانه بالسواك أو الخلال ، حتى أصبح السواك — وهو « فرشاة الأسنان العربية — سنة من سنته .

وقد رأينا في دستور المدينة أنه كان — في الواقع — تنظيمياً للتكافل الاجتماعي الذي نحن بصددده ، وقد لاحظنا أن الناس في هذا النظام كانوا لا يكادون يحتاجون إلى حكومة مركزية ، لأن ترابط الناس في المجتمع الإسلامي — على أساس المبادئ الواردة في دستوره — كان كفيلاً بتسيير الأمور سيراً حسناً ، إذا راعى الناس الالتزام بمبادئه .

### بناء المجتمع :

كل المجتمعات القديمة والوسيلة مجتمعات طبقية ، أي أن الناس ينقسمون فيها طبقات بعضها فوق بعض .

على قمته يتربع رئيس الجماعة — ملكاً كان أو قائداً — هو وأهل بيته .

وتليه طبقة أهل الحكم ، يحتل كل منهم مركزاً من مراكز القوة ، وتقاس أهمية هذه المراكز بقربها أو بعدها من رئيس الجماعة ، فقد يصل إلى القوة ناس عن طريق المصاهرة لصاحب السلطان أو تقديم المال له . وينتفع أصحاب مراكز القوة هؤلاء بمراكز ومستويات اجتماعية تجعل منهم طبقة ممتازة تتمتع بأكثر قدر من حريات البلد . ويدخل في طبقة أهل القوة كبار رجال الدين بما يتمتعون به من سيطرة روحية على الجماهير وبما يملكون — بحكم التنظيم الديني — من أموال وعقارات أحياناً ، وطبقة أهل المال من التجار وأصحاب الأراضي والأموال وحواشي أهل القوة .

وبلى هؤلاء جميعاً جمهور الناس ، وهم كتلة شعب الجماعة من صناع وزراعي وموظفي الدولة وصغار التجار وصغار رجال الدين وأهل الحرف الصغيرة غير النابتة من الحمالين والمكاريين والخدم وألوف كثيرة من السوق ، أي الذين يقصون كل وقتهم في الأسواق دون عمل واضح معين ، فهم جمهور سائل يدخل في جملة المتسولون والمشعوذون واللصوص .

وهذا التنظيم الاجتماعي الطبقي ورثته المجتمعات الإنسانية المتحضرة من العصر القبل البدائي في تاريخ التطور الاجتماعي البشري ، فقد كانت القبائل الأولى تعتمد على محارب قوى يسودها ويوجهها ، وبمساعده في ذلك - وينافسه على السلطان في الوقت نفسه - نفر من المحاربين ذوي القوة والجرأة والبأس ، وهؤلاء يهيطنون برئيس القبيلة الذي يحدد لهم أمكتهم على أساس تقديره للمكائهم أو خوفه منهم .

ثم إن هذا التنظيم البدائي كان سبب الفساد الذي استشري في النظم السياسية والاجتماعية القديمة والوسيلة ، وأدى بها إلى الروال ، واحداً بعد الآخر ، لأن استمراره يؤدي دائماً إلى تجمع مطرد للسلطات في يد صاحب السلطان وحاشيته حتى يصبح كل شيء في المجتمع رهماً بأمره . وإذا استطاع بعض الملوك الأقوياء أن يهضوا مسؤوليات هذا السلطان فإن الغالبية كانت تعجز عن ذلك ، فتسرب القوة إلى طبقة أهل الحكم والحاشية ، وتتوزع السلطة وتضيع المسؤولية ويصبح الأمر سباقاً نحو السلطان والعنى من جانب جماعة من المجهولين الأثنيين الذين يستهترون بالحقوق ، فيزداد جمهور الناس فقراً ويبدب اليأس في نفوسهم وتضيع هيئة الدولة وتتعدم سلطة القانون ، وتسود الفوضى ويتمهد الطريق لدولة جديدة تحمل محل الأولى .

وليس من الضروري أن تكون هناك أسباب معينة لفساد هذا النظام في هذا البلد أو ذاك ، لأن الفساد طبيعي حال مرور الزمن ، كما يشيع الكائن الحي بمرور الزمن أيضاً ، دون أن تكون هناك أسباب خاصة للشيخوخة عند كل مخلوق على حدة . وما التشريعات الصالحة إلا وسائل لوقف التطور الطبيعي للأنظمة نحو الفساد ، كما أن الأدوية وألوان العلاج ليست إلا وسائل لوقف فعل الزمن في الكائن الحي أو تخفيف أثره .

وقد حاول الناس والمفكرون تلافى أسباب فساد ذلك النظام العبقى العام بإيجاد ضوابط وروابط تحدّد سلطة الرؤساء وأهل الحكم وتقلل من حدة انقاس الوحشى حول السلطة ومراكز القوة والمراكز الاجتماعية ، وتحمى حقوق الناس وتؤمنهم من عدوان الأقوياء . وهذه المحاولات هي التي نسميها « التشريعات » . وقد مرت الإنسانية بتجارب كثيرة في ميدان التشريع ، لكنها لم تصل إلى شيء معقول مضمون في محاربة آفات النظام الطبقي إلا في العصور الحديثة ، عندما استنار الناس وتعلموا ،



واقدمت الجماهير على الثورة ضد طغياى أهل السلطان ، وقد بدأ ذلك فى أواسر القرن الثامن عشر وتمثل أول الأمر فى صورة الثورة الفرنسية التى فحت الأبواب لإصلاح نظم الحكم وفلسفاته .

وتشذ عن ذلك المجتمعات القبلية ، لأنها وإن كانت منقسمة أيضاً إلى رؤساء متميزين وأتباع ليس لهم من الأمر إلا القليل فإنها لم تتعرض للفساد على الصورة التى جرت فى المجتمعات غير القبلية ، فإن حياة البواى القاسية على الضعفاء والعاجزين حجراً مطلقاً أولاً بأول ، فلم يبق على قيد الحياة إلا من له حظ — ولو قليلاً — من القوة والقدرة والبسالة واحتال المتاعب ، ومن هنا قل التفاوت بين الناس من هذه النواحي وساد مبدأ المساواة والتقارب بين الناس فى المستوى الاجتماعى والإنسانى . ثم إن المجتمعات القبلية — بطبيعتها — مجتمعات فقيرة لا تملك من مصادر الثروة إلا عيون الماء وحقوقاً مكتسبة بالقوة على مساحات معينة من الأرض ، أما الأفراد فتقوم ثرواتهم على السخيل والماشية والجمال مما لا يدر مالا حقيقياً ولا يمكن صياته من الصلوان صيانة تامة ، وحيث لا مال يُجمع ويكس ولا أراضي خصبة تدر الخير الوفير على أصحابها فلا سبيل إلى التنافس الشديد ، لأن المال مدار التنافس الأكبر بين الشر ، فهو أساس القوة والجاه . وحتى إذا سعى الإنسان للوصول إلى القوة والجاه فإنه يفعل ذلك للحصول على الثروة ، وذلك كله منعدم فى المجتمع الصحراوى ، إذ إن المال الكثير نفسه غير ميسور ، وكذلك لا سبيل إلى الجاه البعيد تبعاً لذلك .

ولهذا كله ظل الفرد فى المجتمع القبلى محتفظاً بكيانه الإنسانى ، فلم يتعرض لصلف أصحاب السلطان والثروة ولم يهبط إلى هباء الفقر المطلق وذله . حتى أسرى الحروب الذين كانوا يصبحون أرقاء وعبيداً لم يظلوا فى المجتمع القبلى عبيداً إلا بالاسم ، لأنهم كانوا يمارسون صنائع ويؤدون خدمات لا يستطيع القيام بها أفراد القبيلة ، فأصبحت لهم بذلك فائدة واضحة ووظيفة رفعت مكانتهم الاجتماعية .

وفى القبائل العربية الجاهلية — كما نعرفها — كان هناك شيوخ وأهل رأى وامتياز كانت لهم الصدارة بحكم ما امتازوا به من ملكات طبيعية . ولكهم لم يكونوا طبقة أشراف أو نبلاء ، وإنما كانوا سادة فى أنفسهم لا سادة على غيرهم ، يحترمهم إخوانهم فى القبيلة لمكانتهم وخصالهم المتتارة .

## المجتمع الإسلامى مجتمع لا طبقى :

ولقد ولد الإسلام فى هذا المجتمع السليم البيان نسياً ، الذى انعدمت فيه الطبقات ، فاحفظ كل إنسان فيه مكانه الاجتماعى . وهذا ولاشك كان جواباً من الحكمة الإلهية التى وضعت رسائلها فى مجتمع سلم من الآفة الكبرى للمجتمعات ، وهى ضياع القيم الإنسانية وانتقال القيم إلى الثروة والجاه ، مما يجر إلى الفساد والتدهور الاجتماعى وشيوع الظلم وانتشار الحكومات ، كما رأينا .

وقد قامت دعوة الإسلام — فى جانبها الاجتماعى — على أساس مساواة الناس ، بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو الثروة أو الجاه أو الوضع الاجتماعى ، ولا يرال القرآن يردد هذه الدعوة حتى انقطع السبيل إلى قيام مجتمع إسلامى ذى طبقات ، وقد رأينا أن محمداً — ﷺ — والصحابية من حوله كانوا هم المثل الأعلى فى ذلك ، فقد وجه الله النبوة وصمات الامتياز التى أهلته لها وبلغ من الجاه ما لم يبلغه غيره فى مجتمعه ، ومع ذلك فقد كان بين الناس كأحدهم ، والقاعدة العامة التى كان يسير عليها هى الحديث الشريف : « المسلمون سواسية كأسنان المشط ، يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .

وكان من نتيجة ذلك أن نمت المجتمعات الإسلامية بدون طبقات متحاجرة أو متمايزة ، حتى عندما قامت دولة الإسلام واتسع نطاقها وكبرت ثروتها وعظم خلفاؤها ، لم يصح أولئك الخلفاء وأهل بيته ورجال دولتهم طبقة أعلى من الناس ، بل ظلوا — برغم اتساع نفوذهم وضخامة ثروات بعضهم — ماساً كغيرهم ، لا يتميزون بشيء فى التنظيم الاجتماعى العام . بل إنه فى البلاد الإسلامية التى كانت قبل الإسلام بلاد طبقات اجتماعية متحاجز بعضها عن بعض — كإيران والهند — عا الإسلام الطبقات محواً ، فلم يعد فى إيران رجال يزعمون أنهم من المرازمة أو الإصْهبَندِين القدماء . وفى كل بلاد الإسلام فى الهند زالت الفوارق بين البراهمة المتمازين ، والمنبوذيين الذين كان أهل الطبقات الممتازة يحذرون الاقتراب منهم ، حتى كان أحدهم يعاقب إذا مر ظله على ثوب رجل من البراهمة .

وحتى فى العصور التى سادت الدولة فيها طبقاتُ المحاربين — الذين سلبوا الخلفاء كل سلطة حقيقية — نجد أن أولئك المسيطرين ملكوا السلطان وسادوا الدولة

وتصرفوا في الأموال ، ولكم لم يسودوا المجتمع ، أعنى أنهم لم يصبحوا طبقة اجتماعية متميزة بذاتها عن غيرها ، ولم يعترف الناس لأفرادها بأى امتياز اجتماعى أو إسانى ، وهذا يختلف عما نجده في المجتمعات الإقطاعية الغربية في نفس المصور ، من وجود طبقة نبلاء يحمل أفرادها ألقاباً مميّزة لهم مثل : دوق وكونت وماركيز وبارون . وهذه الطبقة كانت تملك الأرض ومن عليها من الناس ، إذ كان هؤلاء يعدون أتباعاً أو أفصالا *vassals* ملزمين بالطاعة والخضوع ، وكان أهل طبقة الأشراف أو النبلاء هذه يحيطون بالملوك ويقاسمهم السلطان حياً وينافسونهم فيه حيناً آخر ، ويترفعون عن الاختلاط بالشعب من صاع ووراع . ويدخل في نطاق الأشراف طائفة رجال الدين — من الكاردينالات الذين يسمون بأمراء الكيسة — وأساقفة ومبشرون في فلك سيد دينى كبير ، هو البابا الذى يعد نفسه ظلاً لله في الأرض ومعصوماً من الخطأ .

### الإسلام هو أساس اللاطبقية :

لم تعرف المجتمعات الإسلامية شيئاً من هذا ولا قريباً منه ، لأن الإسلام حارب الكبرياء والغرور والاستعلاء والارتعاع على الناس ، وقرر مبدأ المساواة الكاملة بين الناس ، فلا يتفاضلون إلا بالتقوى . وحتى في هذا كان التعاضل أمام الله وحده لا بين الناس .

ولهذا اتجهت همم الطامعين من أبناء الشعوب الإسلامية إلى الصعود الاجتماعى عن طريق التقوى والعلم ، لأن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة ، آية ١١) ، ولأن الرسول — ﷺ — قال : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، ﴿ إِنْ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . ولهذا تنافس الناس تنافساً شديداً في طلب العلم ، لأنه كان الطريق الواضح المعترف به للرقى الاجتماعى . ولما كان المجتمع الإسلامى مجتمعاً بغير حواجز اجتماعية فقد كان في استطاعة أفقر الناس أن يشق طريقه صاعداً في المجتمع عن طريق العلم والفضيلة والتقوى ، حتى يصل إلى أرق الدرجات . وهؤلاء العلماء وأهل التقوى كانوا سادة المجتمع حقاً ، يعترف الناس بامتيازهم وفضلهم ويسلمون برياستهم دون أن يكونوا مع ذلك طبقة اجتماعية .

في ذلك المجتمع اللاتطبقى عاش الناس متساوين من الناحية الاجتماعية لا يتميز  
دو جاه أو ذو مال على صعيد أو فقير ، من حيث القيمة الإنسانية — نعم ، اختلفت  
مراكز الناس الاجتماعية بحسب مستواهم من العلم أو المال أو الجاه ، فهذا لا مفر  
منه في أى مجتمع ، ولكن يما كان للأشراف في أوروبا محاكم خاصة بهم ، لكيلا  
يقفوا مع غيرهم أمام القضاء العادى ، لم يعرف المجتمع الإسلامى إلا قضاء واحداً  
يقف أمامه الجميع ، والقضاة يصدرون أحكامهم على الجميع سواء ، حتى الأئمة  
من كبار رجال العلم والفقهاء كانوا لا يشعرون بأنهم يمتازون على غيرهم بشيء ،  
برغم تسليم الناس لهم بالصدارة والتقدم .

وعلى طول العصور الإسلامية كانت أمام خيال كل مسلم سيرة الخلفاء الراشدين  
الذين كانوا — برغم ما آتاهم الله من العلم والقوة والحكم — يعيشون بين الناس  
دون أن يشعروا أنهم يمتازون بشيء ، ودون أن يعلمهم الناس بمنازين عليهم بشيء .

ومعنى هذا أن تكوين المجتمع الإسلامى كان تكويناً سليماً صحيحاً ، أما ما شاهده  
في بعض المجتمعات الإسلامية في عصور الاضمحلال السياسى من اتساع الهوة بين  
الأقوياء وغير الأقوياء ، فقد كان مظهراً من مظاهر تدهور المجتمع الإسلامى نفسه  
وخروجه على طبعه وتعبير شخصيته ، فلا نزاع في أن المجتمع الإسلامى في العصور  
التركية والملوكية المتأخرة كان مجتمعاً منحرفاً عن الطبيعة السليمة للمجتمعات  
الإسلامية كما وصفناها .

ولم يعرف المجتمع الإسلامى كذلك فوارق الجنس أو اللون ، وهذه كانت من  
أكبر خصائص المجتمعات التى قامت على الإسلام . وهذه حقيقة معروفة مسلم بها ،  
لا تحتاج منا إلى أكثر من هذه الإشارة .

**جاءه الناس ونظم الحكم التى قامت في العصور الوسطى :**

رأينا كيف قام نظام الجماعة الإسلامية في عهد الرسول — ﷺ — على أساس  
اشتراك الأمة كلها في القيام بالواجبات التى يتطلبها تنظيم الجماعة وثباتها والسير  
بها في الطريق السوى ، ورأينا كذلك كيف سارت الأمور على هذا النوال السليم  
أيام أبى بكر وعمر ، فكانت الجماعة الإسلامية — بالفعل — صاحبة القول في كل  
ما يتصل بشئونها الكبيرة والصغيرة ، وترجع عبقرية أبى بكر وعمر إلى إيهما استطاعا

إقامة بناء الدولة وسلطانها دون أن يحسب تنظيم الجماعة أو ينتقصا من قوتها وسلطانها على نفسها .

ولكن تجربة الثورة على الخليفة عثمان ، وما وقع فيها من مقتل خليفة جليل ، وما أعقب ذلك من حرب أهلية لم ينج من شرها أحد ، هذه التجربة كانت فاسية في حداثتها وحاسمة في النتيجة التي أفضت إليها ، فقد صارت الخلافة إلى بيت كان المسلمون إذ ذاك يرونه أبعد البيوت عن استحقاق هذا الشرف العظيم ، وهو بيت بنى أمة الذين طالما عارضوا الإسلام وأهله .

حقاً لقد أثبت بنو أمية أنهم جند يرون بالمسئولية الكبرى التي حملوها ، ووسعوا دولة الإسلام وأكسبوها جاهاً عظيماً ، ولكن جمهور المسلمين ظل يرى فيهم بيتاً غاصباً لسلطان ليس من حقه ، وأبغض الناس خلفاءهم بغضا شديداً فيما عدا واحداً منهم ، هو عمر بن عبد العزيز . وغاب ظنهم في السياسة وأهلها ، وبخاصة عندما اعتمد بنو أمية على القوة العسكرية القبلية اعتياداً كاملاً ، وأوقموا الخلاف بين العرب المضربة والكلبية ووسعوا هُوته<sup>(١)</sup> وصرفوا الأمور بحسب ما تتطلبته مصالح بينهم

---

(١) قامت الدولة الأموية على أكتاف عرب الشام ، وكانوا عدداً عظيماً من القبائل القوية التي فحمت الشام أو هاجرت إليه بعد الفتح واشترك بعضها في الفتح في فارس ومصر وغيرها ، وكان معلومة بن أبي سفيان قد عرف كيف يكسب ولأه أولئك العرب الأشداء ، فأبدؤهم ورفضوا أن يناقشوا صحة ما كان يدعو إليه .

وكان في ذلك الحشد مضربون كثيرون وعبيد أكثر ، وكانت معظم القبائل المصرية في الشام من قبس عجلان بن مصر ، فسموا قيسية . أما الجيتون فكانت غالبية قبائلهم تسمى والكلبية ، وهم عروغ عديدة من شعب الأردن القديم ، هاجروا إلى الشام واستقروا مع قبل الإسلام ، وانضمت إليهم بطون كثيرة من الجيتون الذين استقروا في الشام بعد الإسلام . ويعرف القيسيون أو للضريون بعرب الشمال ، والكلبيون أو الجيتون بعرب الجنوب .

ولم يعرف العرب قيس أنفسهم إلى مصر ومن ، أو إلى قبس وكتب ، أو إلى عرب شمال وعرب جنوب ، حتى قامت دولة بني أمية . فإن معظم لوات معلومة بن أبي سفيان كانت كلبية مينة .

وعندما مات معاوية وقع خلاف بين بطون لكلبية مينة ، ولكن مروان بن الحكم نجح في جمع كلهم حوله في مؤتمر جمعه في الحامية في ذي القعدة ٦٤ هـ/ يونيو ٦٨٣ م وبعضهم ثم ترشيحه للخلافة ونقلها من البيت السيفاني إلى البيت الروائي ، وكلهم أمويون ينسبون إلى قبة الأكبر بن عبد قيس .

ولم يرض القيسيون للضريون من ذلك ، فأبدؤوا خلافة عبد الله بن الزبير ، وقادهم عويم بن قيس بنسب : الضحالك ابن قيس ، وصار مروان بن الحكم طردهم وأوقع بهم ونقل الضحالك بن قيس في عوفقة مرج رطبة في الحرم ٦٥ هـ/ أغسطس ٦٨٤ م . وعقب ذلك طاردت الدولة القيسية في حلف وقسوة ، فوقعت الحروب بين قيسية المضربة والكلبية المينة في كل ولايات الدولة تقريباً . وكان لذلك الحرب الأهلية أسوأ الأثر على مصر العرب في إيران خلا ، حيث أضحتهم الحروب وأكثت ليهائلهم حتى لم يبق للعرب هناك إلا نصيب قليل من القوة . وإلى هنا ترجع ظاهرة توقف استعراش الفرس بعد أن كانت قد سارت فيه سيرةً حثيثاً . وكانت هذه الفترة تلتضي أيضاً على حرب الأندلس ، لولا أن تداركهم عبد الرحمن الداخل سنة ١٢٨ هـ / ٧٥٦ م فجمع صفوفهم وأخذ العنصر العربي من الثلاثي في الأندلس .

ودولتهم في المقام الأول ، غير مراعين — في أحيان كثيرة — ما كان جمهور المسلمين يتمسكون به من قواعد العدالة والإنصاف وتقديم مصلحة الجماعة وإنكار الذات ، مما تعودوه في أيام أبي بكر وعمر .

وكان أكثر ما صرف الناس عن الولاء لبني أمية ذلك السلطان المطلق الذي تركه الخلفاء لرجال دولتهم وولاهم : من أمثال زهاد بن أبيه والحجاج بن يوسف وخالد ابن عبد الله القسري والمهلب بن أبي صفرة وآله ، وكان هؤلاء ملوك أكثر من الملك — كما يقولون — فكانوا لا يترددون في العدوان على الناس وعلى أموالهم في سبيل البيت الحاكم ، فعمست جماهير الناس من السياسة وأهلها بأساً شديداً ، وساء ظنهم بالحكومات والحكام عموماً .

وزاد في نفور الناس من السياسة وأهلها عدوان بني أمية المتكرر على أهل البيت وإقدامهم على إراقة دماهم ، وتعد مأساة كربلاء سنة ٦٣ هـ / ٦٨٣ م تاريخاً فاصلاً في علاقات شعوب الإسلام بحكوماتها . فإن الاعتداء في هذه الحالة لم يقع على الحسين بن علي وآله أو على أهل البيت فقط ، وإنما وقع على أمة الإسلام كلها لشدة تعلق المسلمين برسول الله — ﷺ — وأهل بيته ، ولأن العدوان وقع على الحسين دون ذنب جناه ، وعم قله ومن معه في صورة اغتيال بشع مجرد من كل إنسانية ودين ، فعدّ المسلمون ذلك عدواناً على الأمة كلها ، ونظروا إلى المعتدين على أسهم أعداء لجمهور المسلمين ، وزاد إيمانهم بذلك ما جاء بعد الحادث المروع من جرائم أخرى عدها المسلمون عدواناً عليهم وعلى دينهم ، مثل مهاجمة جنود بني أمية للبيت الحرام في مكة ، ورميم الحرم بحجارة الجانيق والبار والنفط ، ووقوع شيء كثير من ذلك على الكعبة وانهدام جزء من بنائها واحتراقه ( ربيع الأول ٦٤ هـ / أكتوبر ٦٨٣ م ) .

ولم تعلم جماهير المسلمين في ذلك العصر الأول أن هذه هي السياسة ومنطقها في العصور الوسطى كلها : صراع دموي لا يعرف قانوناً أخلاقياً ولا يهتم إلا بالمصالح

— وقد مال الخليفة يزيد بن عبد الملك ( ١٠١ — ١٠٥ هـ / ٧٢٠ — ٧٢٤ م ) إلى القسوة للضرورة دون الكلبة العجبة ، وأراد أن يحدث بذلك تغييراً جوهرياً في السياسة الداخلية للبيت الأموي ، وانصرف عن إهين الكلبين واحمد على القيسيين ، فأراد التراجع بين الجانبين حدة ، ونظمت القاعدة القبلية التي قامت عليها ثورة بني أمية ، وكان ذلك من أكبر أسباب سقوطهم . وبعد أيام بني أمية تلاشى النزاع بين القيسيين والكلبيين حتى اختفى .

المباشرة للأحزاب المتحاربة على السلطان . ففي العرب أيضاً كانت الاعتداءات متكررة على المقدسات والكنائس ، بل كانت الكنائس هي الصحبة الأولى التي يقع عليها عدوان المتحاربين لنهب ما فيها من الذخائر . وقد كانت نتيجة هذه الحوادث وقروح الانفصال بين الأمة والحكومة ، وبين الأخلاق والسياسة ، وبين الدين والدولة ، فاعتبرت الأمة نفسها حامية الأخلاق وراعية الدين من عدوان الدول وأهلها ، وابتعدت عن السياسة حفاظاً على الأخلاق والدين .

وساعد على تقوية هذا الاتجاه أن التنظيم الاجتماعي للأمة الإسلامية — كما رأيناه في دستورها — كان لا يدع للحكومة مجالاً كبيراً في حياة الجماعة ، فكل ما نسميه نحن اليوم بالمرافق والخدمات كان من مسؤوليات جمهور الناس دون الحكومة ، ولم تكن هذه مسؤولة إلا عن الحماية من الأخطار الخارجية وتأمين الداخل بالشرط ومن إليهم ، فإذا ذكرنا أن هذين الواجبين كانا في حقيقة الأمر دفاعاً عن الدولة نفسها وأصحابها تبيّن أن قيام الدولة بهما لم يكن خدمة خالصة للناس والجماعة . ولهذا قل حماس الناس للاشتراك في جيوش الدول ، وجرت عادة المجاهدين والعموريين على دينهم من جماهير المسلمين أن يشتركوا في الجيوش الغازية في دار الحرب متطوعين ، حسبة لله تعالى ، دون أن يتقاضوا من الحكومة رزقاً أو عطاءً — وهؤلاء هم المَطْوَعة — أو أن يربطوا على حدود بلاد المسلمين لحمايتها ، ولئولئك هم أهل الرباطات والمخارس على الثغور ، ولقد قاموا دائماً حرساً على حدود بلاد الإسلام وعاشوا مجاهدين وماتوا شهداء ، وكانوا جوداً مجهولين في كل حال . وإلى هؤلاء المطوَعة والمرابطين من أبناء أمة الإسلام يرجع الفضل في الكثير من الانتصارات التي كسبتها جيوش الإسلام في دار الحرب .

**أثر ذلك في نفسيات الجماهير الإسلامية :**

من هنا نرى كيف سارت الأمور في بلاد الإسلام على هذا النحو الذي يصعب علينا اليوم تصوره : الدولة وأهلها وجندها في جانب ، والأمة وشقونها في جانب ، لا يقوم بينهما اتصال حقيقي إلا في موضوع الضرائب التي كانت تُجعى من الناس للدولة ، وفي بعض نواحي الإدارة التي لابد فيها من اتصال بين الحاكم والمحكوم كالقضاء ، فإن القضاة كانوا دائماً من أبناء الشعب ، لأن التعليم كله كان شأناً من شئون الأمة ، والقضاة كانوا حيرة المتعلمين ، ولا تستطيع الدولة أن تعين في وظائف القضاء إلا من أولئك المتعلمين ، لأنهم كانوا رجالاً حاصلين على العلم والخلق

مؤهلين لهذه الولاية الخطيرة . فكانت الأمة تكوّن القضاة وترشحهم للولاية ، وتقوم الدولة بعد ذلك بتعيينهم في وظائف القضاء . أما « الورارة » و « الحجابة » و « الكتابة » و « ولاية الأعمال » في المراكز والولايات فكانت الدولة تختار لها من تريد من رجالها وحواشيها المتعلقين بها . وفي أحيان كثيرة نجدهم من الأجانب ، مثلهم في ذلك مثل الكثيرين من الحكام أنفسهم ، وما نرى من الصلات بين أهل الحكم والشعراء والأدباء لم يكن مردّه إلى إعجاب أهل الحكم بالملكات الشعرية والأدبية في ذاتها ، وإنما مقياسه ما يضيفه الشاعر أو الأديب على أهل الحكم من جلال بفضل شعره ونثره ، فإن لم يفعل فقلما يصيب من غير الحاكمين شيئاً يذكر .

وقد اكتسبت الأمة من تلك الحال روحاً من الاعتماد على النفس ، مكنت لها من السير في طريقها في حوالت المصير الوسطى ، وتعلم الناس كيف يدبرون أمورهم ويحلون مشاكلهم دون حاجة إلى عون من حكومة ، خصوصاً عندما ساءت الأحوال وتدهورت مستويات الحكم خلال العصر العباسي الثاني . ففى العراق ومصر والشام — مثلاً — تحول الحكم خلال القرن الرابع الهجري وما بعده إلى أداة وظيفتها الرئيسية جباية المال لسد حاجات رجال الدولة وجندهم ، ولم يعد بين رجال الحكومات في هذه البلاد إلا قليلون جدّاً ممن ينظرون للمصلحة العامة أو يخدمون الجمهور خدمة صحيحة ، وكان على الناس أنفسهم أن يدبروا مصالحهم ويرعوا شئونهم على قدر ما استطاعوا .

### أفراد الشعب يصلون إلى مراكز القوة عن طريق العلم والدين :

وقد اتجهت الظروف السياسية في العالم الإسلامي إلى تسلط أصناف الجند على الحكم ابتداء من منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، نتيجة لاعتماد العباسيين على الجند المرتزقة أكثر فأكثر عاماً بعد عام : الخُرّاسانية الإيرانيين أولاً ، ثم أصناف الترك بعد ذلك . وهذا كان له ردّ فعل بعيد المدى ، وهو اتجاه الموهوبين من أبناء الشعوب الإسلامية إلى العلم لبلوغ القوة والجاه ، فأقبل أهل الطموح منهم على العلم بشغف شديد ، وقامت مراكز العلم في كل بلاد الإسلام ، وكثر الشيوخ والطلاب . وقد كانت هناك دائماً قلة طلبت العلم لداته ودرست القرآن والحديث بدافع التقوى والعاطفة الدينية الخالصة ، ولكن الغالبية قصدت من الدراسة فتح أبواب المستقبل وشق الطريق إلى المراكز العالية ، وأصبحت أقصى آمال أوساط الناس



وعامتهم أن يظهر من بين أبنائهم فقيه يتدرج في الوظائف حتى يصل إلى القضاء أو الكتابة في دور الإنشاء أو الوزارة . وكثر في الناس المصرمون إلى طلب علوم تدر المال كالطب والعقائير والأعشاب ، وارتفع شأن أصحاب الوظائف المدنية أو أرباب الأقلام — كما كانوا يسمون — حتى أصبحوا يهاظرون الحكام والقادة والمهاجرين أو أرباب السيوف .

وعن هذا الطريق — طريق العلم — وصل الأفراد من أبناء الجماهير إلى منصب طيب من السلطان والجاه ، فإلى جانب أصحاب السلطان والقادة والجنود وحكام الواحي — وكلهم كانوا من الأجاس التي احترفت الحرب واحتكرت شئون الحكم في العالم الإسلامي — قام « الوزير » و « الكاتب » و « كتاب ديوان الإنشاء » و « أهل الحساب والشئون المالية » و « القضاة » و « الفقهاء » و « أهل العلم » و « الشيوخ » . وكان هؤلاء يقيصون على منصب كبير من رمام الحكم فعلا ، وهذا المنصب هو الذي استطاعت أن تصل إليه وتحكره الجماهير في مختلف بلاد الإسلام .

وكان رجال الحكم جميعاً ، ما بين سلاطين وحكام وأرباب سيف وأرباب قلم ، يتعلقون — ولو بالاسم — برمز السلطان الإسلامي الأعلى ، وهو الخليفة الذي فقد كل سلطان فعلي ، ولكنه احتفظ بكل جاهه الديني ، حتى طلب الأمراء والسلاطين من الأقطار البعيدة الدخول في طاعته .

وهذا عرف أهل العلم من أبناء الشعوب الإسلامية كيف يشقون لشعوبهم طريقاً واسعة إلى القوة والجاه وسط تطاحن عناصر من المرتزقة ما بين أتراك ومماليك ، ممن استأثروا بالحكم في الجناح الشرقي لعالم الإسلام كله . وكان لوصول أهل العلم إلى ذلك الجاه أثره الطيب في تحسين الأحوال العامة في المجتمع . فهم الذين طلبوا يتمسكون بعقائد الإسلام وشرعيته وعلومه ومبادئه وأخلاقياته وتراثه المعوي ، ويذكرون الناس بالمثل الإسلامي الأعلى الذي يبغى السعي لإدراكه ، وقد ألقوا في ذلك تأليف كثيرة جداً ، الكثير منها على أعظم جانب من القيمة العلمية ، وقصوا أعمارهم يعلمون العلم وينشئون أجيالاً من الشباب المتعلم الواعي لحقائق الإسلام المتمسك بمبادئه ، واستطاعوا — إلى جانب ذلك — أن يثبتوا مكانهم ويفرضوا إرادتهم بما كسبوا من تعلق الناس بهم ونظرهم إليهم على أنهم زعماءهم وقادتهم ومعلموهم ، مما أجبر أهل الحكم على احترامهم ، فاستطاع الشيوخ وأهل العلم —

سواء من تقلد تلك الوظائف مهم ومن ظل بعيداً عنها — أن يردوا المطامع عن الناس ويصوّبوا تصرفات الحكام ويقربوها إلى مفهوم الإسلام .

وعندما نقرأ الكتب الأساسية التي تؤرخ لعالم الإسلام وتطوره خلال العصور الوسطى — ابتداء من تاريخ الطبري إلى تاريخ الخبزي — نرى خط العلماء موارباً ومصاهياً لخط الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم . وباستثناء بعض המתأربين من أهل الحكم في العصور العباسية المتأخرة — ابتداء من القرن الرابع الهجري — وسلاطين السلاجقة الأول ، ثم كبار الأتابكة ، مثل عماد الدين زكي ونور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبي ، وكبار المماليك من أمثال سيف الدين قطز وركن الدين بيبرس وسيف الدين قلاوون وابنه الناصر محمد وغيرهم — باستثناء هذه الطبقة من كبار الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم ، نجد أن معظم ما نال شعوب الإسلام من خير كان الفضل راجعاً فيه إلى أهل العلم هؤلاء ، سواء من ولي مهم انصحب أو من اكتمى بجاه العلم وقبح بركن في داره أو في مسجد ومصى يدرس ويؤلف ويعلم الناس ويحاطب أهل الحكم في مصالح المسلمين ويرد الأذى عنهم .

### المتصوفة ووظيفتهم السياسية والاجتماعية :

وقد تعلق عامة الناس بأولئك شديداً ، وقصدوهم للاهتمام بعلمهم ولدفع الأذى والمصرة عن أنفسهم . ولكن تعلقهم كان أشد بطرار آخر من أهل العلم والدين ؛ سار أصحابه في طريق الزهد والتصوف والبعد عن الدنيا للوصول إلى الله تعالى ولإدراك العلم الحق الذي يأتي منه ، سبحانه ، تنحاً على المجتهدين من عباده

والتصوفون في تاريخنا نوعان :

نوع أصيل سار في طريق العلم سير العلماء ، واجتهد في الطلب حتى حصل العلم العمير ، ومالت نفسه إلى الزهد واحتقار الدنيا ، فانخلع عنها وحلص للعبادة والمجاهدة الصوفية ، كما نرى عند الحارث بن أسد الهامسي ( ت ٢٤٣ هـ ) وأبي نصر السراج ( ت ٣٧٨ هـ ) وأبي طالب المكي ( ت ٣٨٦ هـ ) وعبد الكريم بن هوازن القشيري ( ت ٤٦٥ هـ ) وأبي حامد الغزالي ( ت ٥٠٥ هـ ) وعبيد الدين ابن عربي ( ت ٦٣٨ هـ ) .

والنوع الآخر اتجه إلى العلم حتى حصل منه زاداً يسيراً ، ثم انصرف إلى المجاهدة الصوفية ( أى إيفاق الوقت الطويل في التمدد والتهجد ورياضة النفس ، لكسر جاهها ، كما يقولون ) عن إخلاص أو بدون إخلاص ، وسعى إلى كسب الجاه بين الجماهير بمظاهر من التقى والقدرة على القيام بما تصور الناس أنه خوارق أو كرامات ، فالتف حولهم العوام وتمسكوا بهم تمسكاً شديداً ، وصانعهم الحكام إما عن جهل بحقيقة الدين أو عن خبث ، للسيطرة على قلوب الجماهير . ونجد ذكر نماذج من هؤلاء في كتب كثيرة ، مثل « تليس إبليس » لأبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى ، و « طبقات الصوفية » لعبد الوهاب الشعرانى . وكل من الكتائب يضم صوراً شتى مما كان يعمل هذا الطراز من الصوفية الشعبيين أو « الأولياء » كما كان الناس يسمونهم ويتصورونهم .

ولكن نفراً من الصوفية الصادقين اتجهوا اتجاهاً عملياً ، فكُونُوا من مريدتهم جماعات صوفية تنتهج طريقاً خلقياً قويمًا وتتبع منهجاً محددًا في العبادة ، فيجتمع المريدون وشيخهم في أوقات معينة بعد الظهر والمساء للذكر والقيام بعبادات وأذكار يقومون بها معاً ، وسموا تلك العبادات التي يمارسونها والنظام الذى يحكم جماعتهم : « طريقتهم » الخاصة بهم ، وشيئاً فشيئاً تحولت الطريقة إلى شئ أشبه بجمعية دينية واجتماعية ، ثم تكامل لكل منها — مع الزمن — نظام إدارى وفنى دقيق ومعقد أيضاً .

فنجد أملاً الطريقة مرتبين كأنهم أصحاب وظائف محددة : فهناك « شيخ السجادة » و « المرشد » و « المقدم » و « القيب » و « الخليفة » ، و « الترجمان » و « المريد » ، وهذا الأخير هو الصوفى أو الدرويش العادى المبتدئ ، ونجد لكل من هؤلاء مكانته واختصاصاته . والانتقال من درجة إلى درجة له شروط ومراسم ، مثل حفل تقليد المريد العادى « الخرقه » ، وخرقة الورد وخرقة التبرك وما إلى ذلك . وقد أثبت بعض منشى هذه الطرق أو من تولوا أمورها أنهم يتمتعون بملكات تنظيمية ومالية كبيرة ، فانتظم أمر الطريقة ورجالها وامتلكت الرباطات والزوايا والدور والمقار والمال ، وأعدق عليها الحكام الأموال وصحوا لشيوخهم بالشفاعة والوساطة عندهم . وتمتع الصوفيون — بصفة عامة — بجاه عظيم في المجتمع ، وصار بعضهم أولياء ، ينسب الشعب إليهم الكرامات ، ومن هنا أصبحوا ذوى قوة سياسية

اجتماعية كبيرة ، حتى لقبهم العامة « السلاطين » ، كما نرى في حالاتي السلطان الخنفي والسلطان أبى العلاء في القاهرة .

ودخل عامة الناس في هذه الطرق منتسبين ، لأنها كانت تفتح لهم طريقاً لاتقاء أذى الحكام وللتصليين بهم . وكانت الطريقة توحد صفوف جماعات كبيرة منهم وتجعل لهم وزناً اجتماعياً وسياسياً ، ثم إن انتسابهم إليها كان يشبع العاطفة الدينية من ناحية ويتيح لهم وسائل للتخلص من الملل وفراغ الوقت من ناحية أخرى ، وذلك بالحصول على وجوه من التسلية مثل الاشتراك في الأذكار والأوراد والإنشاد في حلقات الذكر بحركاتهم المعروفة ، وإحياء الموالد وأعياد الشيوخ والأولياء ، وما يصاحب ذلك كله من مسرات ومشاعل أقل ما فيها أنها كانت تعين الناس على التخلص من ملل الوقت الطويل وتنسيبهم متاعب حياتهم إلى حين .

وشيثاً شيثاً تصبح الطرق الصوفية روابط بين أهل الحرف ، فيصبح الدين بأحاديث « العهد » على شيخ الطريقة — أي المنتسبون إليها — « إخوانا » ، يحكمهم شيخهم اجتماعياً وحلقياً ، فهو يبارك اتفاقاتهم ويقوم بدور الشاهد على تنفيذها . وإذا احتاج واحد منهم إلى قرض مالي توسط له الشيخ ، بل هو يتدخل في كل شيء حتى الزواج والطلاق والمواليد ، ونتيجة لذلك تجمع الكبار من أهل الطرق بسلطان عظيم ، وعاشوا في رعد وخير عميمين . وحازت بعض الطرق ثراء واسعاً ، ولكنها قامت كذلك بوظيفة اجتماعية وسياسية أساسية . وفي الوقت الذي وهنت فيه إطارات الحكم وبلغ فسادها أقصاه ، ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي ، حفظت هذه الطرق بعض جوانب المجتمع من التناقص . ومكنت لجماعات كبيرة من الناس في المدن والأرياف من أن تجد طريقها في تلك العصور ، وخاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر اللذين تهدمت فيهما فعلاً كل إطارات الحكم القديمة التقليدية وعاش الناس تحت رحمة الأقدار .

**ظهور طائفة أصحاب الكرامات ومدعى الولاية ودلالاته الاجتماعية :**

ونحن نتعجب اليوم عندما نقرأ أخبار طائفة من المنتسبين للصوفية ومن الذين يدعون الولاية ويظهرون كرامات في تلك العصور ، فقد كان الناس يصدقونهم ، بل كان بعض الحكام يرعونهم ويخافونهم أحياناً . ولكن عندما ندرس الظروف العامة

لحياة الناس في تلك العصور تتضح لنا حقيقة تلك الطائفة ، وتبدو لنا طاهرة مسجمة مع واقع الأحوال في تلك الأيام .

ولابد أن نؤكد أولاً أن التصوف الحقيقي عبادة خالصة وتكمل روحي ، وحال كبار الصوفية في العالب مستور وبعيد عن التظاهر حتي عن الملاحظة العادية ولكن طائفة انتميت إلى التصوف ظهرت وجعلت التعبد شيئاً مظهرياً يمارسه صاحبه أمام الناس أو على صورة يتناقل الناس أخباره ويصبح « شهرة » ، كما كان الناس يقولون في مصطلحهم إذ ذلك . وهذا شيء لم يظهر ولم ينتشر أمره إلا في عصور التدهور السياسي والاقتصادي في العالم الإسلامي . وهو يختلف عن تصوف الطرق الكبرى التي كان لها أثر بعيد في تنظيم المجتمع والمحافظة على إماراته وربط الجماهير بقواعد دينهم وأخلاقه ، كالطرق الشاذلية والجيلانية والرفاعية . وقد أشرنا إلى النور الذي قامت به هذه الطرق .

أما تصوف « الشهرة » وما يرتبط به من ادعاء الولاية وحصول الكرامات فأمر يختلف عن تصوف التعبد الحق وتصوف الطرق المنظمة ، وهو من مظاهر عصور الانحلال ، إلى نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي لا نسمع كثيراً عن هذا الطراز من الأولياء الذين يهرون أنظار الجماهير ويستولون على إعجابهم بما يأتون من الأعمال الخارقة للمأكوف .

والسبب في ذلك أن الناس في عصور ازدهار الدولة الإسلامية واستقرار الأمور كانوا يعيشون في أمان : سواء من ظلم الحكام أو من تعدى اللصوص عليهم ، فإذا نزل بهم ظلم وجنوا السبيل إلى دفعه ، لأن أجهزة الدولة كانت قوية سليمة ، وكانت حالة الناس المعنوية عالية إلى ذلك الحين ، والسبب ذاته كان الناس في أمن من اللصوص وطراق الليل وقطاع الطرق . وكانت أحوالهم الاقتصادية طيبة في الجملة ، وأبواب العمل والكسب مفتحة ، ومن صاقت عليه سبل الرزق في ناحية استطاع الانتقال إلى ناحية أخرى من دولة الإسلام الواسعة . وكانت خزينة الدولة عامرة بالمال ، فلم تكن تنظر إلى ما في أيدي الناس ، فظهرت عليهم النعمة وكثر الأوساط والمياسير من أهل الحاجر والصناعات والحرف ومن إليهم ، ممن يؤمنون بالعمل ويقوم على جهودهم رخاء المجتمعات .

فلما احتل ميزان الدولة نتيجة لاعتماد الخلفاء على القوى العسكرية وحدها ، ثم تحول جيش الدولة كله إلى جيش مرتزق تزداد تكاليفه ويرداد سلطان رجاله على الحكم يوماً بعد يوم ، تطرق الفساد إلى أجهزة الدولة وضعف صوت الحق والقانون ، لأن القائمين بالحكم كانوا يضطرون إلى الإعضاء عن اعتداءات الجند على الشعب وقوانينه ، وفي الوقت نفسه كان الجند المرتزقة الذين يدخلون جيوش الدولة أجراء متكسبين ، لا يلتزمون إذا كثرت أعدادهم أن يشعروا بأنهم ليسوا أداة القوة فحسب بل القوة نفسها ، وأن الخلافة التي تستخدمها هي أدايمهم في الحصول على الأموال . شيئاً فشيئاً يفرض الجند المرتزقة وقادتهم سلطانهم على الدولة ويطالبون بالمزيد من الأموال مع قلة غنائمهم في الدفاع ، وذلك لميول روحهم المعوية وانعدام القيادة الصالحة ، تضطر الدولة إلى زيادة مبالغ الضرائب وتشكر الجديد منها وهذه الضرائب كلها يدفعها الأوساط ، وهم عصب الاقتصاد في كل زمان ومكان ، لأن الفقير المدقع لا يدفع ضرائب بسبب فقره ، والعسى ذا الجاه لا يدفع ضرائب ، لأنه يدخل في رمة الأقوياء ذوى الامتيازات ، فيقع العبء كله على الأوساط ومستأجر الناس . شيئاً فشيئاً يعجزون عن الأداء ويحل بهم الفقر ، ومن كان مهم صاحب مال أحفاه حتى يسكت عنه جياة الضرائب ، وما نجد أن مقادير الحياة عبيط هبوطاً مستمراً ، وتمتد يد أهل الحكم إلى أموال الأعياء كذلك ، فتكثر المصادرات ، وينتهي الأمر بتحول المجتمع كله إلى مجتمع فقير يسوده الخوف وقلة الأمان على النفس والمال .

في هذه الظروف التي سادت بلاد الخفاف الشرق كله لدولة الإسلام في العصور المتأخرة أحسست الجماهير أنها بحاجة إلى حماية وسبيل للأمن ، لأن الإنسان لا يستطيع العيش في ظل الخوف والتهديد المستمر . والأمان هو المطلوب الأول ، ولكل كائن حي . ومادام الناس قد عيسوا من المخلوق ، فإن قلوبهم كلها انجذبت إلى الخائف سبحانه : يفرعون إليه في كل ملة كبيرة أو صغيرة . وإذا كان المتعلمون والعلماء يجدون الطريق إلى الله في العبادات وقراءة القرآن والحديث وقراءة كتب العلم ، فإن جماهير الناس يبحثون دائماً عن المظهر الملموس للإيمان ، من مثل ضريح رجل من أهل البيت أو رجل من أهل الصلاح . وإذا كان المسلم المستجير يجد الأمن في قلبه بقراءة القرآن والقيام بالعبادات فإن الرجل من العوام لا يطمئن إلا إذا حمل القرآن المكتوب في صورة حجاب أو تيممة . وإذا كان المستجير يجد الأمن في قراءة الفاتحة

فإن الرجل من العوام في تلك العصور يحتاج إلى أن يحسك شبكاً مسجداً أو صريحاً ، لأنه لا بد أن يحس شيئاً أو يرى شيئاً .

هنا يظهر الصوفي الشعبي الذي ينته بهذائه إلى مطالب الناس ، ويرى حاجتهم إلى الرموز الملموسة فيجعل من نفسه رمزاً ملموساً يؤمن به الناس : يصلي بصوت مسموع جداً ، ولا يسير في الطريق إلا وهو يتمتم ويقرأ ، ويرغم أنه صائم الدهر ، ويلجأ إلى تعذيب نفسه بمرأى من الناس في سبيل الله ، كما يزعم ، كأن يقضي الليل كله قائماً يصلي حتى تنورم رجلاه أو يسير حافياً على الشوك طلباً للتوبة في زعمه . وهو يمارس ذلك كله أمام الناس أو على صورة تصل إليهم أخبارها ، فيقع في نفوسهم أنه واصل إلى الله أو ولي من أوليائه ، يستطيع الاتصال به سبحانه والتوسط للشفاعة عنده ، وهذا يشق لنفسه طريقاً ، ويصبح من أركان الحياة والمجتمع ، ويحيط به الأتباع والمريدون ، ويتقاطر الناس إلى داره بالهدايا ، فيأخذ ما يريد ويعطي من حوله ما يريد ، ويشتهر بأنه صاحب كرامات ، يمشي على الماء ويظهر في الهواء ويخاطب المجنونات ، مما ذكره العلماء وكان ذلك بطبيعة الحال يجر الخير إليه وإلى أتباعه ، ويرغم ما يكون في الكلام عن كراماته من اختراع أو مبالغة فإن ذلك يجعل الجماهير تتعلق به ، ويصبح بالنسبة لهم أملاً ورمزاً على الأمن الذي يحلمون به ، فهو — في زعمهم — يحميهم من الظالمين ومن عبث الشياطين بهم ومن بركات الزمان .

والذي يهمنا هنا أن أدعياء الولاية هؤلاء كانوا يستطيحون — في كثير من الأحيان — حماية الناس من ظلم الحكام وعسفهم ، لأن الحكام في تلك العصور كانوا جهلاء يتحذعون بما يسمعون عن أدعياء الولاية ، فيسعون إلى رضاهم بالاستجابة لشهواتهم وإحاطتهم بمظاهر الاحترام وحضور مجالس الأوراد معهم . وكان من الحكام الأذكياء من يتظاهر بالتعظيم للولي تحبباً إلى الجماهير ، وفي بعض الأحيان كان الولي المرموع يحامل الحاكم الظالم الجاهل ، فيحاول تهدئة الجماهير ، مجتهداً في تقديم الخدمات لهم وفي حمايتهم من مظالم رجال الحاكم ، فيكسب لنفسه جاهاً ويعطف القلوب على الحاكم الذي يؤمن بالأولياء .

وسواء استطاع أن يقدم للناس خدمات ملموسة أم لم يستطع ، فإنه ظل في نظرهم — في تلك العصور — أملاً وحماية من شرور الدنيا وطريقاً إلى الله سبحانه

وتعالى . وهذا كله يرفع مصوباتهم ويثبت إيمانهم ويطرد اليأس من قلوبهم ، لأنهم لم يكونوا يطلعون على حيل أصحابهم . وهو — عندما يتوفى — تزداد مكانته ومفعته ، لأن ضريحه يؤدي لهم نفس الوظيفة الاجتماعية دون أن يكلفهم . ولهذا فقد خلقت لنا عصورنا الوسطى حشداً هائلاً من أضرحة الأولياء والصالحين ، ما بين صادقين وغير صادقين ، وهذه الأضرحة هي الأثر الباقي من الظروف الاجتماعية الملية بالخوف والمتاعب التي كان أجدادنا يعيشون في ظلها .

وخلاصة الكلام هنا أن صوفية الجماهير هؤلاء كانت لهم في عصورهم — برعم كل شيء — وظيفة سياسية واجتماعية ، وكانوا في كثير من الأحيان وسطاء بين الحكام والناس ، وبخاصة إذا لم يكونوا من الذين يدعون الكرامات والخوارق .

وإذا صرفنا النظر عن الصوفية الشعبيين وجداً جاهلاً وشأماً لبعض الصوفية مثل أبي سعيد بن أبي الخير ( ت ٤٤٠ هـ ) الذي كان الحكام يراعونه ويحافونه إذا نزل مع أصحابه في ناحيتهم فيكفون عن الظلم ، وربما سعوا إلى رفع المطالم ، وكان من العادى أن يزل أبو سعيد في ناحية ، فيستدعى حاكمها ويؤنبه على مرأى من الناس ويرعمه على رد الحقوق إلى أهلها . ومهما يكن من شيء ، فإنه — بمصل هؤلاء الصوفية — ظل إيمان الناس بالفضائل قوياً وتعلقهم بالدين عميقاً . وإبه لمن الغريب أن الكثيرين من عامة الصوفية ، بل من الأدعياء بينهم ، عملوا على تقوية إيمان الناس ، وصابوهم من كثير من المفاسد . وعندما احتقت الظروف التي أدت إلى ظهور تلك الطائفة ، وهي ظروف الجهل والخوف والفقر ، اختفوا هم أيضاً ، لأنهم كانوا نتيجة لظروف اجتماعية معينة .

ونحن إنما نتكلم هنا عن الصوفية الشعبيين ، الذين كانوا يمارسون نشاطهم بين جماهير الناس اجتماعياً لهم نحو الدين وسعياً من جانب بعضهم إلى المافع الدينية . والواقع أن هذا الطراز من الصوفية كان ظاهرة اجتماعية أدت إليها ظروف سياسية واجتماعية شرحناها بتفصيل ، وقد كان لهم مكان واسع في مجتمع العصور الوسطى .

ولكن كان هناك دائماً صوفيون مخلصون ، نبع تصوفهم عن إيمان عميق ، وقضوا أعمارهم زاهدين في الدنيا ومتاعها رهذاً حقيقياً ، مقبلين على عباداتهم ورياضاتهم ومجاهداتهم ، دون أن يخفلوا باستلقات الجماهير إلى أحوالهم مع الله ، ووصلوا عن



طريق مجاهداتهم إلى حالات رفيعة من الصفاء الروحي والإشراق النفسى بالأنوار الربانية .

وقد كان هؤلاء الصوفية الصادقون أهل علم ودرس ومعرفة واسعة بالإسلام ، عقيدته وشريعته ، مثل الإمام أبى حامد الغزالي ( ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م ) ، الذى تقلبت حياته فى التفكير والبحث والتفكير أياً تقلب ، وكان صاحب المصنفات الكبيرة فى علوم الدين ، مثل « المستصفى » فى علم الأصول و « إحياء علوم الدين » فى كل نواحي المعرفة الدينية ، وهو الكتاب الذى أتم تصنيفه أثناء عزلة وغربة استمرت سنين كثيرة ، هذا إلى جانب مصنفاته الكثيرة فى المطلق وفى بيان آراء فلاسفة اليونان ومن تابعهم ( كتابه « مقاصد العارضة » ) والرد عليهم ( كتابه « تنهايت العارضة » ) ، ومثل الشيخ محبى الدين بن عربى ( ت ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م ) الذى كان صوفياً موهوباً درس علوم الإسلام فى مسقط رأسه ، مرسية ، ثم فى المرة ثم فى غرناطة ، ثم مالت نفسه إلى الرهد والتصوف ، فبدأ يطلب العباد والزهاد ليأخذ عنهم ويعيش مع مريدتهم ، وقضى بقية عمره بعد ذلك صوفياً جوالاً لا يحيط فى بلد إلا رحل عنه إلى آخر ، حتى لقد دخل القسطنطينية وقابل إمبراطور الروم وبال إعجابه . وقد حج مراراً وحاور فى مكة سير طويلة ، فى اثنتائها ألف كتابه الجليل المسمى « بالفتوحات المكية » وهو ديوان التصوف الأثير . وكتب ابن عربى كتاباً ورسائل كثيرة جداً يعد كل منها من عيون الأدب الصوفى الصادق ، وكان شاعراً وله ديوان فى الحب الإلهى يسمى « ترجمان الأشواق » .

وكان لابن عربى أثر بعيد فى الفكر الإسلامى والمسيحى ، فإن آراءه وتأملاته كانت نقطة البداية لمذاهب صوفية وفلسفية كبرى ، وفى العرب درسه فلاسفة المسيحية الإسكولاستيون من أمثال رايونديو لوليو ( Raimundo Lullio ) ودانس سكوتوس . Duns Scotus . وأخذ عنه مذهبه التصوفى صوفى مسيحى مشهور ، هو القديس يوحنا ذو الصليب Saint Jean De La Croix صاحب المذهب المشهور فى التصوف المسيحى باسم مذهب الإشراق أو النور .

### الصوفية والفقهاء :

وقد وقع خلاف شديد ودائم بين الصوفية — بصورة عامة — والفقهاء ، لأن

الصوفية أنكروا الرياسة الدينية للفقهاء الذين يتمتعون العمر في دراسة علم الظاهر وحفظ كسبه ، في حين أن الصوفية — كما يقولون — يتمتعون بروح العمل وبحقائق المعرفة ، وهم قد وصلوا — بالمجاهدة والإخلاص في العبادة — إلى الله سبحانه وتعالى وأخذوا منه العلم مباشرة ، وكان بعضهم يثيرون غضب الفقهاء بقولهم : « أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت » ، يريدون أن الفقهاء يدرسون العلم على الشيوخ ويأخذونه عنهم جيلاً بعد جيل ، أما الصوفية فيأخذون علمهم عن الله سبحانه فتحاً منه وفضلاً .

والحق أن فقهاء العصور المتأخرة فتحوا على أنفسهم أبواب النقد والتحدى ، لأنهم حددوا في مكانهم ، واقتصر جهدهم على حفظ النون والشروح وتأليف الحواشي ، وتعلقوا بالتقليد الحرفي تعلقاً شديداً ، حتى أصبح الواحد منهم يقضى العمر كله دون أن تصدر عنه فكرة جديدة ، ويؤلف الكتاب الكبير فلا تخرج مادته عن أقوال مجموعة ومرصوصة بعضها إلى جانب بعض ، دون محاولة لتكوين فكرة طريفة أو رأى مبتكر ، واستمروا على ذلك في مجالس تدريسهم حتى كادوا يقطعون عن الواقع انقطاعاً تاماً . ومع أنهم حفظوا تراث العلم الديني من الصياغ في تلك العصور ، فإنهم لم يتقدموا بالمعرفة تقدماً يذكر .

وفي الوقت نفسه تحول معظم الفقهاء الكبار إلى موطفين في الدول ، وطلبوا الوظائف وولاية الأوقاف وتنافسوا في ذلك ، واشتد حرص بعضهم على الخيرات والمكاسب ، واضطروا إلى مسايرة أهل الحكم ، محافظة على مراكزهم ، وأغضوا عما كان يقترفه بعض الحكام من المظالم ، وبذلك تخلوا عن واجباتهم الأساسية حيال المجتمع ، وتراحوا في الحماية التي كانت جماهير الناس تنتظرها منهم — وهي دفع الظلم عنهم والتصدي للمفسدين من الحكام لوقف فسادهم — وانفصلوا عن الناس ، فخلا المكان الفسيح الذي كان ينبغي أن يحتلوه في المجتمع . وهذه — بطبيعة الحال — أحكام عامة تنطبق على الغالبية ، ولا يمع ذلك من أنه كان هناك دائماً شيوخ أجلاء حافظوا على سمعتهم وظلوا مخلصين للعلم منصرفين إليه متساوين عن بذل النفس لنيل رضا الحكام ، فهؤلاء كانوا موجودين دائماً في الجماعة الإسلامية ، وحفظوا مكانهم رؤساء لجماهير الناس ورموزاً على العلم والكمال والإخلاص والخلق الإسلامي الكريم .

والمهم لدينا أن هذا الفراغ الذى حدث عن تحلى غالبية الفقهاء عن وظيفتهم الرئيسية فى المجتمع ، هو الذى أتاح الفرصة لأولئك المتصوفين لكى يملأوا الفراغ ويقوموا بالدور الذى ذكرناه ، وبطبيعة الحال لم يكن الفقهاء محقّقين كل الحق فى غضبهم على أدعياء الولاية ، لأنهم ما داموا قد تخلّوا عن مكانهم فقد كان لابد أن يملأه غيرهم .

### حياة المدن :

فى الفصل التالى ، الخاص بالنظام الاقتصادى للمجتمع الإسلامى الوسيط ، سنتحدث — فى شيء من التفصيل — عن المدن الإسلامية وأحوال الناس فيها ، لأن المدن كانت مراكز الحياة الاقتصادية . ولهذا فسكتفى ها بالإشارة إلى أن عالم الإسلام كان دائماً عالم مدن ، فى كل ناحية منه قامت المدن الكثيرة العاصة بالسكان الخافضة بدوافع الشاطئ . وربما كان ذلك بحكم أن الإسلام يدعو بطبيعته إلى التجمع والتعاون والاشتراك فى المعاش .

وقد وُلدت جماعة الإسلام فى مدينة ، أى أنها نشأت مدينة النظام والروح ، وقد لارمها ذلك الطابع فيما بعد ، فكان العرب يسكنون المدن فى كل بلد برلوا فيه ، وكالوا يفضلون ذلك على الانتشار فى الأرياف أو على المعيشة فى أرض الحشائش للمرعى . وفى البلاد التى لم يجلدوا فيها مدناً مناسبة لهم أنشأوا مدناً تتفق مع مطالب حياتهم فى عصر امتدادهم الأول ، وهو عصر انتقال العرب من البداوة إلى الحضارة ، فكانت المدن العربية الأولى تجمع بين خصائص الحياة المدنية والحياة الصحراوية ، فكانت محلات قريبة من مواطن الكلا لمرعى الجمال والحيل ، وأمثلة ذلك نجدها فى البصرة والكوفة والقيروان .

ولكن المدائن التى اجتذبت العرب بعد ذلك أكثر من غيرها كانت هى المدن القديمة التى طاولت الأعصر ودامت على الزمان بفضل ميرانها الطبيعية وعناية أهل العصور القديمة بها . وقد تناول ابن خلدون الكلام فى ذلك فى فصل من المقدمة عنوانه « فى أن المائى والمصانع فى الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى ما كان قبلها من الدول »<sup>(١)</sup> .

(١) المقدمة ، ص ١٩٦٧ من ٣٧٧ - وما بعدها

أما السبب في عاية الأمم القديمة بالمدن فهو أن حضارتها كانت حضارة مدن ، أى أن الحياة والسلطان والثروة فيها تتركز في المدن ، فزادت عاية دول العالم القديم بشعوبها ومرافقها وظلت المدن عامرة قروناً متطاولة ، كما كان الحال في ممفيس وطيبة في مصر ، وطيشفون — وهى « المداين » — التى كانت عاصمة الأكاسرة الساسانيين ، وكما كان الحال في أثينا وروما .

وقد استوقف نظّر ابن خلدون إسراع الخراب إلى المدن في العصور الإسلامية ، وعالج ذلك في فصل آخر من المقدمة عنوانه « في مبادئ الخراب في الأمصار »<sup>(١)</sup> . وابن خلدون يرد السبب في ذلك إلى نظريته الأساسية التى تذهب إلى أن حضارات البشر — بكل مظاهرها — تولد وتنمو حتى تبلغ أوجها ، ثم لابد أن تتحدر وتضمحل بعد ذلك ، طبقاً لقانون عام يطبق على حياة البشر وكل ما يعملونه . وهذا القانون يتلخص في أن ابن خلدون يشبه الدول والحضارات بالأحياء ، فكما أن كل حي يمر بمراحل محددة ومحتومة تبدأ بال ميلاد وتنتهى إلى الشيخوخة ثم الموت ، فكذلك الدول والحضارات وكل مظاهر العمران تولد وتنمو ، حتى تبلغ أوجها ، ثم لابد أن تتحدر بعد ذلك . وهو في دراسته لتدهور المدن لا يزد على أن يطبق قانونه تطبيقاً حرفياً ، فيقول : « فإذا تراجع عمراتها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك ، ففقدت الإجابة في البناء والإحكام والمغالاة فيه بالتنميق » .

أما السبب الحقيقي في تدهور المدن في معظم بلاد المسلمين في العصور الوسطى فهو أن المدن — على ضخامتها وأهميتها — منشآت ضعيفة لابد لها من عناية مستمرة وعمل دائم حتى يتصل ازدهارها . وحياة أى مدينة على الأرض رهينة بمرافقها ، وكفاية هذه المرافق لحاجات السكان ، والعناية المتصلة بها للمحافظة عليها . فلا بد من نظام لتزويد المدينة بالأطعمة على صورة مستمرة وبأسعار معقولة ، ولابد من نظام لإمداد سكانها بالماء الصالح للشرب ، ومن العناية بالشوارع والمحافظة على اتساعها حتى لا يجرور الناس بالأبنية عليها ، فتضيق حتى تصعب ممرات بين البيوت ، وقد تنسد فتتحول إلى أرقه . ولا بد من تنظيف الشوارع ورصفها لئلا تتحول إلى برك وحفر وأكوام من تراب ، ولا بد من جهاز منظم لنقل فضلاتها إلى أمكنة بعيدة

(١) المقدمة ص ٦٤٠

عنها . ولا غنى للمدينة عن تنظيم لإطفاء الحريق ولحمايتها من ميضانات الأنهار ، وما إلى ذلك . ولابد للمدينة من منشآت عامة تتناسب مع حجمها وعدد سكانها وأهميتها ، مثل دور الحكومة والإدارات البلدية والقضاة والجسور والمخازن والمساجد وغيرها ، بل لابد للمدينة الكاملة من منشآت للهو والتسلية ، لأن الجماهير بطبعها تحتاج إلى ذلك ، وهو ضرورة من ضرورات الحياة فيها ، لأنها تصرف الجماهير عن البحث عن وسائل تملية ضارة بهم وخطرة على المجتمع .

وكل ذلك لا يتم إلا إذا كان للمدينة هيئة مسئولة عنها قائمة بشئونها ، كالمجالس البلدية ، ولابد كذلك من أموال كثيرة مرصودة لصيانة البلد ومراقبته ، ومن عمال مدربين على ذلك .

وقد كانت دول العصور القديمة شديدة العناية بمجالس المدن وكل ما يلزم للمحافظة عليها زاهرة نظيفة منظمة ، وهذا واضح من الآثار الباقية منها إلى اليوم ، وقد وصلت العناية بالمدن في تلك العصور إلى أوجها في روما ، حيث نجد لكل مرفق من مرافق البلد نظاماً خاصاً للمحافظة عليه ولتسييره سيراً طيباً ، وبخاصة النظافة وإيصال المياه للبيوت وضمان الأقوات والحراسة النهارية والليلية ، بل العناية بالحدائق والبساتين العامة وما إلى ذلك .

فإذا انتقلنا إلى النظم التي وضعتها الدول الإسلامية لم نجد فيها أى مكان للعناية بالمدن ، غير نظام الشرطة ، فلا أنشئت لها مجالس بلدية ، ولا عين له موظفون للعناية بأمورها ، ولا رصدت أموال للإنفاق منها على مراقبتها . والشئ الوحيد الذى لدينا — إلى جانب رجال الشرطة — هو وظيفة المحتسب ، وهو مراقب الأسواق والأسعار والموازين والمكاييل ، وربما راقب أمور الأخلاقي أيضاً . ولكن المدينة — كمدينة — لا تدخل في اختصاص « المحتسب » .

وكان من أثر ذلك أن المدن أهملت إهمالاً كبيراً ، واقتصرت الخدمات فيها على ما كان الناس يقومون به من عناية صاحب كل بيت ببيته . وقد يُسمى سكان الحارة أو الرقاق بشارتهم أو زقاقهم ، أما الشارع الكبير فلم يكن هناك من يعنى به . حتى المساجد ، وهى المنشآت الرئيسية للعبادة ، كانت العناية بها موكولة للجمهور . وبينما كان أهل العصور القديمة يشعرون القناطر الحجرية الضخمة على الأنهار في المدن ،

لم تنشئ الحكومات في مدنا قناطر ، واكتفت بجسور القوارب ، فكان لابد أن تضمحل المدن شيئاً فشيئاً . فتضيق الشوارع مع الزمن وتعالى أكوام القمامة على جوانب الشوارع ، ولا يحفر الطريق من الماء الذي يطرحه الناس فيأسن ، ومجد أنصنا أمام الظاهرة التي يسميها ابن خلدون « وباء المدد وعموتها » ، كأنه يطش أن المدن — بطبيعتها — لابد أن تكون وبيقة عفة جالبة للأمراض ، وأن الصحة لا تكون إلا في حياة الحلاء والأرياف .

ويستشئ من ذلك كله الأندلس ، حيث عمت الدولة وأهل المدد بمدهم ومرافقها ، فظلت زاهرة لطيفة . وأمثلتها كثيرة في قرطبة وغرناطة وإشبيلية ومرسية وغيرها .

ونتيجة لذلك نجد أن حياة أهل المدد كانت تسير دائماً من سيئ إلى أسوأ ، حتى في عصور القوة والازدهار . فالشوارع تضيق والمياه تهدم شيئاً فشيئاً ، ولا يوجد من يريل المتهدم منها ، لكثرة الورثة وصعوبة الاتفاق معهم على البيع أو الإصلاح ، فينتج الرغبة في البناء إلى ظاهر البلد . وهكذا يموت قلب البلد ويتحول إلى خرائب شيئاً فشيئاً . ومن الظواهر المعروفة أن مدناً كبرى ، كبغداد والقاهرة ، كانت — برعم اتساعها والدور المتداعية مزدحمة الأسواق بالهار ومخوفة بالليل ، متعبة لساكنتها ، غالية أسعارها غير مأمونة لساكنتها . وكل ذلك ناتج عن عدم وجود أجهزة تعنى بالمدن وتحافظ عليها .

ثم حلت عصور الضعف السياسي والفوضى والمظالم ، فازدادت أحوال أهل المدد سوءاً ، وكثرت عليهم المعارم والضرائب والمظالم ، فلم يعد يتمتع بالحياة في المدن الكبيرة إلا سكان الأحياء التي يعيش فيها أهل الحل والعقد ، ممن كانوا يستطيعون اتخاذ الخدم والحرس للمحافظة على أحيائهم نظيفة مأمونة صالحة للسكى . أما بقية الناس ، فلم يكن في حياتهم ما يسر ، ولم يستفيدوا شيئاً من الميرة الكبرى التي عيشتها المدن لسكانها ، من توافر الحاجات وتفاق الأسواق ووفرة المال وتحقيق الأمان بالأسوار العالية والقرب من أهل السلطان وكثرة الأغنياء الذين ينفقون الأموال عن سعة ووجود شتى الصناعات والحرف وما يحتاجه الناس لتيسير حياتهم وإسعاد أنفسهم وذويهم .

وقد فرق الجغرافيون والرحالون العرب بين العواصم وبقية المدن ، فسموا الأولى : « القواعد » أو « الأمصار » ، فهم يقولون مثلاً إن دمشق هي قاعدة الشام أو مصره ، أما بقية المدن فتوصف الكبار منها بأنها « بلدة ذات مبر » أى يقوم فيها مسجد جامع ، فيه إمام وخطيب يتقاضيان راتبهما في الغالب من خزانة الدولة . وخطبة الجمعة في مثل ذلك المسجد لها طابع رسمى ، لأنها لا بد أن تتضمن دعاء لولى الأمر في الإقليم ، فإذا وجدت مدن صغيرة أخرى تابعة للكبرى سميت باسم بُناها ، وليل ذلك القرى ما بين كبيرة وصغيرة . وعلى أى حال فإذا استتبنا القواعد أو « العواصم » وبعض المواى ، فقد كانت بقية البلاد قرى كبيرة أو صغيرة ، ومعظمها كانت مراكز زراعية أو مراكز مواصلات .

وكانت عادة العرب إذا احتطوا مدينة أن يبدأوا بإشياء المسجد الجامع في الوسط وبقائه قصر الإمارة ، والمسافة الواقعة بينهما تعين بداية شارع يمتد في الجهتين فيكون محور البلد . ويقوم شارع متعامد معه ، يلتقى به عند الجامع ويتصل إلى نهاية البلد من الطرفين . ويسى الناس بيوتهم ، وتقيم الحكومة مانيها على هذين الشارعين ، ويقوم الناس بإشياء الدور ، فلا تلبث الصورة العامة للمدينة أن تظهر . وفي بعض الأحيان كانوا يتركون حول المسجد وقصر الإمارة مساحة واسعة مستديرة ، كأنها ميدان عظيم يسي الناس البيوت حوله ، محافظين على الشارعين اللذين أشرا إليهما . وعندما تصل المدينة حداً معقولا من الامتداد يقام سور يدور حول البلد ، وتكون بواباته الرئيسية هي نهايات الشارعين الرئيسيين . وبين تلك الشوارع الرئيسية تمتد شوارع أخرى تبدأ من المركز وتنتهى عند السور .

وفي العادة كانت الأسواق تنشأ في الجباب الذى يقوم فيه الجامع ، وكانت عبارة عن شوارع ضيقة يختص كل شارع منها بحرفة من الحرف ، وكانت ملتقيات الشوارع يسمى الواحد منها : « السويقة » ، وكانت توجد بين شوارع الأسواق شوارع جميلة ذات مبان ظاهرة الغنى تسمى : « القيساريات » تخصص للمتاجر العالية ، كالأقمشة الممتازة والجواهر وأدوات الترف وما إليها ، وحول الأسواق كانت تقوم أحياء العامة . أما في ناحية قصر الإمارة فكانت تقوم مارل رجال الدولة والأعياء وأهل السلطان . وفي الغالب يراعى شيء من النظام في مبان البلد في أول إنشائه ، ثم يختلط الأمر بعد ذلك وتضيق الشوارع وتأخذ أحوال المدينة كلها في السوء كما ذكرنا .

وفى حالات قليلة جداً وضع العرب تصميماً لإنشاء البلد ، كما حدث بالنسبة لبغداد والقاهرة ، ولكن نمو البلد لم يلبث فى كلتا هاتين الحالتين أن يخرج عن التصميم الأصلى ، فأخذ البلد ينمو بحسب حاجات أهله ومطالب الحياة فيه .

أما بغداد — مدينة السلام أو المدينة المدوّرة — فقد اختار موضعها ووضع تصميمها أبو جعفر المنصور ( ١٣٦ — ١٥٨ هـ / ٧٥٤ — ٧٧٥ م ) على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وأرادها أن تكون مدوّرة ، وأنشأ حولها سوراً دائرياً ضخماً ، ولكن البلد تخطى ذلك السور وامتد فى سرعة فى اتجاه النهر خاصة ، ثم تخطاه إلى الضفة الشرقية .

وأما القاهرة فقد بنيت فى الأصل لتكون مدينة ملوكية ومعسكراً ومقاماً لخلفاء الفاطميين ورجال دولتهم وجنودهم وحواشيهم . وقد وضع خططها جوهر الصقل سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م . وعلى ذلك ظلت مقصورة على أهل الحكم والحمد أكثر من قرن ونصف ، فقد زار الإدريسي الجغرافى مصر سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، أى بعد إنشائها مائة وسبع وأربعين سنة تقريباً ، فلم يذكر القاهرة إلا بالاسم ولم يدخلها . وإلى آخر القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، كانت العاصمة الحقيقية للبلاد هى القسطنطينية ، ولم تتجسّد القاهرة — كمدينة — إلا عندما افتتحت أبوابها للناس واتصلت بالقسطنطينية ورخت غرباً نحو النيل حتى ارتكزت على صفته .

وفى أوائل القرن التاسع عشر لم يكن يسكن القاهرة أكثر من ستين ألف نفس بحسب تقدير رجال الحملة الفرنسية ، وكان هذا العدد يزيد إلى ثمانين ألفاً بالنهار بسبب الوافدين من أهل القرى المجاورة للبيع والشراء ، ولم يزد سكان الإسكندرية على خمسة آلاف نفس . وهاتان — القاهرة والإسكندرية — كانتا من كبريات المدن . وبين هذين الرقمين تراوح سكان بقية العواصم العربية ، مثل بغداد ودمشق وحلب والقدس فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى .

والميزة الكبرى لهذه العواصم ، برغم ما ذكرناه من متاعب العيش فيها ، أنها كانت مدناً إسلامية عامة ، يدخلها ويسكن فيها من يشاء من المسلمين دون أن يمنعه من ذلك مانع أو ينظر إليه أحد على أنه غريب . فكثرت الوافدون عليها للتجارة أو لطلب العلم فى مجالس العلماء أو فى المساجد أو فى بيوتهم أو فى المدارس ، عندما قامت المدارس ، أو لطلب الرزق أو لزبارة أضرحة الصالحين والأولياء أو لشراء السلع التى



لا توجد إلا في المدن الكبرى أو للبحث عن طبيب ماهر أو دواء نادر . ولهذا جعلت تلك العواصم بالغرباء وكثرت فيها الخانات لنزولهم ، وكانت الخانات — وهي فنادق بلادنا في العصور الماضية — مرتبة منظمة ، فيها الرفيع المستوى الذي يحصل البازل فيه على كل وسائل الراحة والترف ، وفيها الرخيص الذي ينام نزلأؤه جميعاً في قاعة واحدة على حُصَرٍ ويتمطى كل منهم بما معه من غطاء أو ملبس ، وتمطى بالخان في العادة دكاكين كثيرة تباع الطعام . وقد وصف لنا هذه الفنادق رحالة العرب ، ووصفها أيضاً رحالة الأوروبيين من أمثال إدوارد ولیم لين EDWARD W. LANE و يوهان بوركهاردت JOHANN L. BURCKHARDT ؛ وقد أثنى هذان الأخيران على فضائلها .

وكان مجتمع المدن غير متجانس ، يختلط أهل البلد بالغرباء من كل جنس ولون ، ويتجاور فيه أهل العلم وأرباب الحرف والتجار الصغار والكبار ، وتمتلى مساجده بالطلاب والعلماء ، وكان فقراء الطلاب ينامون أحياناً في أروقة المساجد ، وكان القائمون عليها لا يرفضون السماح لعابر بقضاء الليل فيها .

وقد قامت هذه المدن بدور عظيم في تاريخ الجماعات الإسلامية ، لأنها كانت رموزاً على وحدة العالم الإسلامي ، وإذا كانت القرى وصغار المدن تصور الطابع المحلي في كل ناحية فإن كبار المدن كانت تصور العالم الإسلامي جملة . ويرغم كل ما ذكرناه من عدم العناية بها وضمحلل أمرها بمرور السنين ، فقد قامت فيها العمائر الجميلة من مساجد وقصور وأسبلة وأضرحة وسقايات وصهاريج للماء ، أى أنها كانت مراكز للحضارة الإسلامية ومواضع لالتقاء المسلمين وفي هذه المدن قامت الحضارة الإسلامية بمظاهرها الفكرية والمادية .

### أهل الحرف ونقائهم :

لا تعرف العصور الوسطى العامل بمفهومه في العصر الحديث ، فلم تكن هناك — إلا في الموانئ — مصانع كبيرة يعمل فيها مئات العمال أجراً عند صاحب عمل ، إنما كان العامل صاحب عمل في نفس الوقت ، فهو يعمل في بيته أو في دكان صغير ، يساعده صبيان لا يمدون عمالاً عنده ، لأنهم كانوا أشبه بالتلاميذ ، يتعلمون مه الصنعة ويخدمونه في نفس الوقت ، ثم يستقل كل منهم بنفسه بعد ذلك . ولم يكن

انتقال العامل من صبي إلى معلم يتكلف كثيراً ، لأن أدوات العمل كانت قليلة ورخيصة . وفي أكثر الأحوال كان الصبيان هم أباء المعلم نفسه ، يرثون مه صناعته ودكانه وعملائه أيضاً . وكان الصانع ، أو صاحب الحرفة ، يقدر أتعابه بنفسه ، بحسب مهارته أو قدراته ، فقد كان بعض النساجين يتقاضون أجوراً لمصوغاتهم تصل إلى مئات الدينارين في الثوب الواحد . ومن المعروف — أو من القواعد المعروفة فيما يتصل بالأجور — أن صاحب الحرفة الماهر هو دائماً الذي يحدد أجره بنفسه . أما الذي يتحكم فيه الناس وأصحاب الأعمال فهو العامل غير المتقن والوسيلة الوحيدة لحماية العمال في كل مكان هي رفع مستواهم الفنى والحرق ، وهذا وحده يكفى لرفع أجورهم وتحسين مستواهم .

أما النقابات التى انتشرت في عالم الإسلام في العصور الوسطى المتأخرة فلم تكن تنظيمات عمالية بالمعنى المفهوم ، وإنما كانت إطارات وتنظيمات مهنية اجتماعية تجمع طوائف من الناس ذات مصالح مشتركة ، وهى لم تكن مقصورة على العمال ، فكانت للأشراف — مثلاً — نقابات ( وهم جماعات يتسبون إلى نسب إسلامى جليل ) ، كالأشراف العلويين أو الأشراف البكريين ( سلالة أبى بكر الصديق ) وكانت وظيفة هاتين النقابتين وأمثالهما رعاية الأسرة المرتبطة بالنسب المشترك وإدارة أوقافها وما إلى ذلك .

ويتجلى الطابع الاجتماعى للنقابة من تسميتها بالعشيرة ، ولفظ العشيرة نفسه يدل على رابطة اجتماعية بين أفرادها ، فكان رئيس النقابة يلقب بشيخ العشيرة ، وهو لقب يحمل إلى الدهن معنى رب الأسرة ، وبالفعل كانت النقابات في البلاد العربية في العصور الوسطى أسرة واحدة تربط بين أفرادها روابط القرابة والمصاهرة منها إلى روابط المهنة والمصلحة المشتركة ، فكان القيب والدأ لجميع أعضاء العشيرة ، وكانت كلمته مسموعة في كل ما يقومون به من زيجات ومصاهرات ، وعندما كان عضو من أعضاء النقابة يطلق امرأته — مثلاً — كانت المطلقة تلجأ إلى شيخ العشيرة ليسعى في ردها .

وكانت النقابة أو العشيرة أيضاً رابطة دينية ، فلا بد أن ينتسب أفراد النقابة جميعاً إلى نفس الطريقة الصوفية ، فيكونوا جميعاً شاذليين أو حيلانيين أو تيجانيين وما إلى ذلك ، ويندر أن يسلك عضو النقابة طريقاً آخر ، بل كان أخذ العهد على شيخ آخر يعد خطأ جسيماً أشبه بخيانة العشيرة . وكان هذا الانتساب للطرق الصوفية

يلزم أفراد العشيرة بسنوك ديني واجتماعي محدد ، فلا بد من أداء الصلوات في أوقاتها ، ولا بد كذلك من تجنب القواحش والتزهد عما يشين الحرمرة أو يمس الدين أو يخذل المروءة . وليس معنى هذا أن أعضاء عشائر الصاع كانوا نماذج للمصيلة والسلوك الديني السليم ، بل كان هذا هو المروء . وعلى الرغم مما كان أولئك الناس يرتكبونه من خطايا — كميهم من الناس — إلا أن انتسابهم إلى الطريقة كان أشبه بالضمير الصامت داخل نفوسهم ، وهذا في ذاته أمر عظيم ، لأنه كان سياجا صاد الكثير من دعائم المجتمع من أن تنصدع .

وكذلك كانت نقابات العمال تنظيمات وظيفتها المحافظة على مصالح العاملين في نفس الحرفة ، وتحديد مستوى العمل فيها وإلزام الراغبين في الدخول فيها بمنهج معين في الدراسة والتدريب والصناعة . فلا بد أن يقضى الغلام عدداً من السنين « صبياً » دون أجر ، بل كان يظل عدداً من هذه السنين حادماً للمعلم في الدكان والبيت قبل أن يبدأ في تعلم شيء ، ثم يصبح « شقالاً » بأجر رهيد ، ولا يصبح معلماً يسمح له بفتح دكان وتقبّل أعمال إلا بعد أن ينقصى عليه في الحرفة ما بين اثنتي عشرة وخمس عشرة سنة .

وكانت تربط أعضاء النقابات بعضهم ببعض تقاليد وقواعد سلوك يلتزمون بالسير عليها ، فللمعلم على الشغاليين والصبيان عنده حقوق لا يمكن تجاهلها ، من احترامه وخدمته والأمانة في معاملته ، ولهم كذلك عليه حقوق فيما يتصل بالأجور وساعات العمل . وكان القيب مكلفاً بالحديث إلى السلطات باسم النقابة التي يرأسها . وبظراً لحاجته إلى قوة تؤيده كان لابد له من الانتساب إلى طريقة صوفية . وفي الغالب تتبع النقابة كلها طريقة واحدة ، فتكون شاذلية و تيجانية أو رفاعية مثلاً . وكان مركز القيب في المجتمع مرتبطاً بنوع النقابة التي يرأسها ، فقيب التجار مثلاً كان دائماً من الشخصيات الرئيسية في المجتمع ، فهو على العادة رجل عسى من بيت كبير ، وهو يضمن للحكومة ورجالها حاجتهم من الخاجر بالسعر المقبول .

وكانت نقابات المهن مسئولة عن مستوى المهنة ، بحيث يستطيع العميل أن يتقدم بالشكوى إلى القيب في حالة محاولة العامل خداعه أو قيامه بالعمل بصورة ظاهرة القصد والعب . وقد عرفت هذه النقابات كيف تحافظ على مستوى الصاعات في البلاد من التدهور ، وإليها يرجع الفضل في المحافظة على تقاليد صناعية جميلة مازلتنا

يرى نماذجها فيما يسمى بالصناعات التقليدية ، كالنجارة الدقيقة وصناعة الحاس  
« المكفت » والحديد المشغول والقماش المطرز وأشغال الصدف وما إلى ذلك .

وكان المعلمون أو « الأسطوات » ( أى الأساتذة ، كما كانوا يسمون ) هم الذين  
يحددون مستوى الصنعة وأجورها المناسبة في حالات الخلاف . وكانت العلاقات  
القبائلية لها جانبها الاجتماعي ، فالمعلم له مقام الوالد على « صباه » و « شغاليه » وهو  
يشارك في تزويجهم ، ويتوسط في خلافاتهم العائلية ، وفي الناب يكون رواج أهل  
الحرفة فيما بينهم .

ويدهش الإنسان عندما يرى كثرة ما ألفت أهل الحرف المسلمون في حرفهم ،  
فما من صنعة إلا ولد لها وعنها كتب كثيرة ، ولا يقتصر هذا على الصناعات الكبيرة  
كالبناء والحدادة والسجادة ، بل لدينا كتب عن صناعات الجلد وعمل أدوات الموسيقى  
وصناعة أدوات الكتانة وصناعة الورق والزجاج والصياغة وسك النقود حتى « فن  
الطبخ » ، وهذه الكتب في المادة تتناول الحرفة من كل نواحيها ، أعنى ما يتصل  
بأصول الصنعة وأصنافها وموادها الخام ومستويات الجودة فيها ، وفي حالات كثيرة  
يتناول المؤلف الناحية الشرعية من موضوعه ، كما نرى في بعض الكتب المؤلفة عن  
المباني والعمارة وكذلك الكتب الخاصة بسك النقود . وهذا يدل على أن العامل  
المسلم في العصور الوسطى كان رجلاً متعلماً يمارس صناعته على أصول مقررة  
مسطورة في كتب ، فلو لم يكن هناك عمال يقرأون هذه الكتب المؤلفة في فنونهم  
لما ألفتها أحد ، لأن أسلوب معظمها يدل على أن مؤلفيها كانوا من رجال الصنعة  
الممارسين لها ، يكتبون لأهل صنعة مثلهم ، فهم يستخدمون المصطلح الجاري بينهم  
والعبارات التي لا يفهمها إلا العمال أنفسهم . بل إننا وجدنا أن بعض كبار الصناع  
من أهل الصنعة الرفيعة ، الذين اضطلوعوا بحمل النقوش في قاعة كبرى أو سقف  
خشبي مزين مزخرف ، يحرصون على أن يكتبوا مفتاح زخرفة القاعة أو السقف  
في ظهر أحد الألواح الخشبية المستعملة ، وينص في ذلك المفتاح على الألوان  
الأصلية ، حتى يمكن إعادتها إلى أصلها إذا حال ذلك اللون .

ولولا هذه النقابات والعمال الذين أنشأوها لاندثرت الصناعات الجميلة التي  
أضفت على مجتمعا طابع الفن الذي لا غنى عنه لمجتمع متحضر ، ولولا هذه النقابات  
لصاعت تقاليد هذه الصناعات خلال العصور الوسطى المتأخرة . وإن من يتأمل

بلاداً وما خلخته لنا فيها العصور الماضية من الآثار يجد أن معظمه من عمل أولئك الصناع .

فالمساجد والقصور الباقية وما تطوى عليه من روائع العمارة والمهذبة وزينتها ونقوشها ومنابرها ومُشْرِيبَاتِهَا وسقوفها وأعمال الخشب والمعادن والرخام ، كل ذلك يدل على روح فني أصيل ودوق شرق بديع . وتقسيمات الزخارف وبديع التصاوير التي لم تقتصر على الخشب ، بل وجدت على الخرف والوجاج والحجر والمعادن ، كلها تدل على مهارات فنية وصناعية مارالت إلى يومنا هذا جديرة بالإعجاب ، ولصناع المسلمين مهارة في نحت الرخام والأحجار الصلبة لا تقل عما نلجده عند اليونان والرومان .

وكذلك السيج الحميل الذي اشتهر به الكثير من بلاد الإسلام ، فقد كانت بعض نمادجه ترقى إلى مستويات لا تقل عما تخرجه أحسن مصانع السيج المعاصرة .

وإن الإنسان ليرى زخارف « التاج محل » في مدينة أجرا بالهند ويقارنها بزخارف القصور في المغرب في مدد تطل على المحيط الأطلسي ويتعجب كيف استطاع « تقليد » فني واحد أن يسود في مساحات شاسعة كهذه دون أن يلقي من الرعاية إلا حرص الصانع العنان نفسه على مستوى صناعته وعناية بعض السلاطين والأمراء وسراة الناس .

ولقد استطاع الصناع في بلاد العالم الإسلامي أن يقوموا بكل حاجات بلادهم من الأشياء المصنوعة ، برغم ما يبدو عادة على مجتمعا في العصور الوسطى من تواضع الصناعة وقلة المصنوعات ، فهم قدموا للناس كل ما لزم لهم من المنسوجات بكل أنواعها ، سواء كانت صوفية أو كتانية أو قطعية أو حريرية ، بل أخرجت المناسج في الهند والبرازيل والشام ومصر واليمن أقمشة رقيقة متقنة راجت في العالم كله .

وقد استوردت أوروبا من بلاد الإسلام منسوجات شتى ، راجت في أسواقها بأسمائها التي تدل على أصولها .

فعرفت أوروبا قماشاً حريرياً ربيعاً سمي بالفُستيان Fusion ، وأصله مصنوع في فسطاط مصر ، ومن هنا جاء اسمه . وقد جودت أوروبا بعد ذلك صنعة وصدرته

إلياً في القرن الثامن عشر الميلادي ، فكادت تصنع منه أرفع أثواب النساء ، حتى سمي ثوب المرأة نفسه في مصر بالفتتان .

وعرفت أوروبا الديقفس الذي يصنع في دمشق ، وسمى في أوروبا بالدماسك Damask وكانت توجد منه أنواع شتى .

واستورد الإيطاليون الحرير الموصل الرفيع ، وشاع في أوروبا باسم الموملين ، وصنموه في بلادهم ، واستوردناه نحن بهذه الصورة الأوروبية للاسم Musline سواء كان حريراً خالصاً أم مخلوطاً بشيء من الصوف .

ومثل هذا حدث للحرير البغدادي ، فقد كان الإيطاليون يحرفون اسم بغداد إلى بالداكو Baldacho ، ونسبوا إلى اللفظ ذلك الحرير البغدادي الرفيع فسموه : بالداكينو Baldachino ، أي البغدادي ، واستعملوه بصورة خاصة في الكنائس كستار يفصل بين المذبح وبقية الكنيسة . ثم ذاع استعماله ، نظراً لأنه ثقل كالختم ، للطلّة التي كانت ترفع على أعمدة فوق الأسيّة لتسدل بها الكلل ، وعلى هذه الصورة استوردناه نحن بعد ذلك من أوروبا قفلاً : سرير بيتكان .

واستوردوا كذلك قطنيات حمراء رقيقة من غرناطة كانت تسمى بالغرناطيات Granadines ، وقد بقي الاسم يطلق على لون القماش الأحمر الداكن ، فقلنا إن لونه جرياد Grenade أي غرناطة .

وأخذوا من إيران قطعة حمراء مما كان يصنع في تفتازان وسموها بالتافتا Taffeta ، وما زلنا نحن نستعمل هذا اللفظ في مصطلح النسيج فنقول ثوباً من التافتا .

وكان الناس يصنعون في حي العتّاية في بغداد قماشاً ممتازاً — والعتّاية منسوبة إلى صحابي جليل هو عتاب بن أسد — فوصل هذا النسيج إلى أوروبا وسمى : العتّابي Attabi ، وقلد صناعته الأندلسيون وصدروه إلى فرنسا حيث عرف باسم تابي Tabi .

هذه أمثلة قليلة تدل على الكثير ، إذ الحقيقة أن العالم الإسلامي — من أقصى شرقه إلى أقصى غربه — كان حافلاً بالمناجج والساجين الذين أخرجوا للناس كل

صنف من النسيج وسدوا حاجات مجتمعهم عن قدرة . وإذا نحن قرأنا كتاب جغرافيا عربيا مثل « أحسن التقاسيم » للمقدسي أو « نزهة المشتاق » للإدرسي ، دهشنا لكثرة البلاد التي اشتهرت بنسيجها ، وفي مصر وحدها عدداً أكثر من عشرين بلداً من أقصى الدلتا شمالاً عند دمياط وتنيس وشط ودبقو ، إلى أعلى الصعيد عند أخميم ، كلها كانت تصنع أنسجة ممتازة نشير منها هنا إلى الكتان الرفيع الممتاز الذي كان يصنع في شمال الدلتا والستّر الضخمة التي كانت تصنع في أخميم وكان طول البستر منها يصل إلى عشرين متراً وعرضه إلى خمسة عشر متراً قطعة واحدة ، فأمل المنسج الذي كان يستطيع إخراج هذه الأحجام من نسيج القطن !

وجدير بنا أن نذكر أن الأقمشة كانت معدودة من أعيان الثروة ، كما كان الرجل يذخر المال — ما بين ذهب وفضة — فكذلك كان يذخر الأقمشة والنياب ، لأنها كانت لا تفقد قيمتها ، فكان الناس يبيعونها ويتفعلون بشمها إذا احتاجوا إلى المال ، ولهذا كان الخلفاء والسلاطين يخلعون على الناس الثياب كما يعطونهم المال ، وكان كل رجل ميسور يحرص على أن يكون لديه ثياب ، أي صندوق أقمشة ونياب مصنوعة — فهذه كانت مالا مدخراً — كما يفعل بعض الناس اليوم إذ يقتنوا السجاد العجمي الغالي الثمن .

واستطاع صناع المسلمين أن يسدوا حاجات مجتمعاتهم من كل المصنوعات ، سواء أكانت أدوات حرف أم آنية بيوت أم أسلحة حرب أم مصوغات ترف ، كأدوات الزينة والطور وأواني الذهب والفضة .

وأتقن المسلمون صناعة الورق بأنواعه والصابون والزجاج المبسوط والمفرغ والبللور والحرف والقاشاني والأثاث الخشبي ، وبرعوا في الصاغة الدقيقة ، كما سئرى في الفصل الخاص بالفنون . وحتى القرن الثالث عشر الميلادي كان تجار الشرق والغرب يقدون على بلاد الإسلام ليشتروا البضاعة الجيدة والمصنوعات الرائقة من كل صنف .

ومع أن ذلك كله انضمحل بصورة واضحة ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي إلا أن المستعمرين الأوروبيين الذين دخلوا بلاد الإسلام ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي ( في الهند ) ثم غزوا بقية بلاد الإسلام بعد ذلك ، وجدوا صناعات زاهرة في كل مكان دخلوه . وكانت مهمة الاستعمار الأولى هي القضاء على

الصناعات المحلية ، فسواء في الهند أو إندونيسيا أو الملايو أو إيران أو العراق أو مصر أو الشام أو المغرب ، قضى الأوروبيون — بناء على سياسة مرسومة — على كل الصناعات المحلية ، لكي يحولوا تلك البلاد إلى أسواق لمصنوعات بلادهم . ولم تعد الصناعات إلى بلاد المسلمين إلا في عصور الاستقلال .

### أحوال الزراعة والمجتمع الريفي :

وننتقل من هذا إلى الكلام عن أحوال الزراعة ، وهم كانوا غالبية أهل البلاد الإسلامية ، بل غالبية أهل الأرض حتى اليوم . والزراعة عمل صبر وجهد واحتمال ، لأن الزارع دائماً في خدمة الأرض وما يزرعه فيها ، وهو — بحكم انتظاره للمحصول وتوالي أزمته الزراعة — مرتبط بالأرض ، فيقوم بيه وبينها لرباط وثيق ، فهو لا يفارقها إلا إذا أجبره على ذلك مجبر ، وهو يحتمل في سبيل الأرض الكثير من المتاعب والمطالم .

وقد حسب الناس أن ذلك من الفلاح دل واحتمال للهوان ، ولكنه في الحقيقة صير على العمل واحتمال المتاعب وتضحياته ، وقد أودى الفلاح بسبب ذلك أذى كثيراً من الحكام الذين سيطروا على الفلاحين عن طريق التسلط على المحاصيل بوجه عام ، وكذلك جياة الضرائب أساعوا إلى الفلاح إساءة كبرى ، وكانوا في العصور الوسطى من أعانت المجتمع ، لأنهم كانوا في العادة يجمعون من الفلاح أكثر مما يؤدون إلى الخزنة ، وقد عُذّوا أحياناً في عداد المعضوب عليهم من الدين ، ونظراً لما كانوا يفتروونه من عسف وظلم وسرقات كانت أموالهم تعد أموالاً حراماً يتحرج أهل الديانة من أخذها ، وسلكتهم المسيحية صمن الخاطفين الذين سيطول عذابهم في جهنم ، وسواء في الشرق أو في الغرب كان المكأسون والمشارون يعدون من الأشرار .

وبينما هنا أن نقرر أنه برغم المتاعب الكثيرة التي كان الزراع يلقونها على أيدي الحكومات في بلاد الإسلام جميعاً ، فابهم واصلوا عملهم في صبر واحتمال ، واستطاعوا أن يقدموا للمجتمعات كل حاجتها من الأغذية . ولم تقتصر الزراعة في بلاد الإسلام على المحاصيل الاقتصادية وإنما تناولت أيضاً الشجريات بأصنافها



والفواكه والرهور والأعشاب لى النباتات الطبية . وقد مارس المسلمون زراعة هذه الأصناف عن علم دقيق ، وجرى الفلاحون على قواعد ثابتة فى عملهم الزراعى . ولم يحل أى بلد إسلامى من تهويمات زراعية يسجل فيها أواى ررع كل محصول ، ومتى يقوم الزارع بكل عمل خاص بهذا البهت أو ذاك ، وتحدث هذه الكتب كذلك عن آفات الزراعة وما ينبغي أن يعمله الفلاح لحماية محاصيله منها .

ومعنى ذلك أن الزراعة لم تكن محض عمل تقليدى ورثته أجيال الزراع بعضها عن بعض ، وإنما كانت فى كل بلاد الإسلام تقرىأ علما وفأ تطبيقيا ، ولديها الكثير من كتب الفلاحة العربية كالتي وضعها ابن وحشية وأبو العباس بن الرومية وأبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبلى — الذى عاش فى الأندلس فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى — وأبو عبد الله بن بصّال الطليطل ، وهو أيضا من أبناء القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد اشتهر هذا الرجل بتجاربه العلمية الناجحة فى توليد الغراس ومكافحة آفات الزرع ، وقد وصل إلينا كتابه المسمى « بالفلاحة » وهو — دون شك — من أحسن الكتب العلمية التى ألقت فى الزراعة قبل العصور الحديثة . وكان ابن العوام تلميذا لابن بصّال ، وقد ألف كتابه المسمى أيضا : « الفلاحة » ، وكان من جلائل المؤلفات التى وصلت إلى أوروبا وترجمت إلى لغاتها ، بل تُرجم هذا الكتاب مرتين : مرة فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى اللاتينية والعربية ، ومرة فى العصر الحديث ، إذ ترجم إلى الإسبانية ونشر سنة ١٨٠٢ م . وإلى آخر القرن التاسع عشر الميلادى كان كتابُ ابن العوام من المراجع المعتمدة فى كليات الزراعة فى إسبانيا . وتبين لنا عقلية العلمية إذا نحن قرأنا فقرة من مقدمة كتابه يقول فيها : « ومعنى فلاحة الأرض هو إصلاحها وغراسة الأشجار فيها وتركيب ما يصلحه التركيب منها ، ورراعة الحبوب المعتاد رراعتها فيها ، وإصلاح ذلك وإمداده بما ينفعه ويجوده ، وعلاج ذلك بما يدفع الآفات عنه ، ومعرفة جيد الأرض ووسطها والذون منها ، ومعرفة ما يصلح أن يزرع أو يخرس فى كل نوع منها ، من الشجر والحبوب والخضر ، واختيار النوع الجيد من ذلك ، ومعرفة الوقت المخصص بزراعة كل صنف فيها ، وكيفية العمل فى الزراعة ، وفى الغراسة ، ومعرفة أنواع المياه التى تصلح للسقى ، ومعرفة الذبول وأصلحها ، وكيفية العمل فى عمارة الأرض قبل زراعتها وبعد غرسها » .

ونتيجة لهذا التناول العلمى للزراعة كان مستوى فلاحة الأرض فى بلاد المسلمين

مستوى رفيعاً عالياً ، فقد زرعوا كل أصناف الحبوب والفواكه والحمضيات ، وجلبوا أصول النباتات الاستوائية وزرعوها في بلادهم وجادت على أيديهم ، ومعظم الفواكه التي عرفتها أوروبا — كالبرتقال والمشمش والخوخ والبرقوق والموز — إنما عرفتها عن طريق العرب ، وعن طريقهم أيضاً عرفوا القطن والأرز والزيتون والزعفران وغير ذلك . وكثير جداً من الزهور الشائعة الاستعمال في أوروبا وصلت إلى بلادهم عن طريق المسلمين . ويكفى أن نذكر هنا الورد بأنواعه والياسمين والدالية والدلبان — التي تعرف باسم تيوبلب Tulip — وغير ذلك كثير .

إذا تركنا الزراعة وفنونها وانتقلنا إلى الفلاحين ومجتمع الريف وجدنا أن الفلاحين في طول البلاد الإسلامية وعرضها عاشوا في ظروف متماثلة تقريباً ، تمتاز بالبساطة والهدوء وتماسك الحياة العائلية فيها . ومن المعروف أن المجتمعات الوسيطة في الشرق والغرب كانت مجتمعات زراعية مقفلة على نفسها ، ففي القرن الثالث أو الرابع الهجري / التاسع أو العاشر الميلادي ، كانت الهند والعراق ومصر والشام وما يعرف الآن بإيطاليا وفرنسا ، كلها ، بلاداً زراعية تتكون من مزارع متصلة وألوف القرى ، أما المدن — بصورتها التي نعرفها في العصر الحديث — فكانت العواصم ، أما بقية المدن فإنها كانت إذ ذاك قرى كبيرة لا يميزها عن غيرها إلا اتساع مساحتها ، ولم تشذ عن ذلك إلا عواصم الأقطار من مثل بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس وقرطبة وباريس ولندن وروما . فهذه المدن القليلة كانت تقوم فيها مظاهر العمران المدني من قصور شاهنة لأهل الحكم وأهل القوة والمال ومبان لإدارات الحكومة ومساجد أو كنائس فحمة ومعسكرات للحرس والجنود ، تدور حول ذلك كله أسوار عالية ذات أبواب ضخمة .

وهذا العدد القليل من المدن لا يمنع من القول إن المجتمعات الوسيطة كانت مجتمعات زراعية ، وإن العالوية العظمى من الأهلين كانوا يعيشون في قرى صغيرة متشورة في الأرض نثراً . وكانت هذه القرى كلها مقفلة على نفسها تماماً ، فيندر أن يدخلها غريب ، وقلما يصادفها أحد من أهلها إلا إلى قرية مجاورة ، ونادراً ما كان أهل القرى يزورون العواصم ، وكذلك كان يندر أن يزور أهل المدن تلك القرى إلا إذا كانت لهم أملاك في زمامها أو كانوا جباة ضرائب أو من عمال الدولة . فعاشت القرى حياتها المقفلة جيلاً بعد جيل ، لا يعرف الناس عن حياتها إلا فكرة عامة عن المحاصيل التي تزرع في الأرض حولها ، ولا تعرف الدولة عنها إلا مقدار

المال الذى ينهى أن يؤديه أهلها ، حتى أصحاب الإقطاعيات فى القرية لم يكونوا يعرفون عنها إلا ما يقوله لهم عنها وكلاؤهم ، وقلما كانوا يقولون الصدق .

وقد كانت هذه الحياة المقفلة سر قوة القرية وثباتها ، فقد ظل التكوين العائلى فيها قوياً يحكم كل ناحية من نواحي الحياة فيها : بصون الأسر من التفكك ، وبحول دون الفساد ، ويعمل على تسيير الأبناء والبنات فى طريق الآباء والأمهات . وفى هذا المجتمع تمسك الناس بالدين والعادات والتقاليد تمسكاً شديداً ، فكان مجتمع القرية أقوى وأثبت من مجتمع المدينة . واحتفظت نواحي العالم الإسلامى بشخصياتها المحلية فى قرأها ، ومصت القرون على القرى وكأنها لا تمضى . ومن الغريب أن عواصف الحوادث أو الغارات والحقن قد تحطم المدن الكبيرة وتقضى على معظم عماسن العمران فيها ، ولكنها تمجز عن القضاء على قرية صغيرة خافية فى بطن الريف أو مسترة فى لحف جبل ، لأن العزاة لا يتوقعون عدها ، ولأن أهلها يعادرونها عند الخطر ويختفون فى الأوعار والقفار حتى تنقضى الغارة ، ثم يعودون ليوصلوا حياتهم . ودور القرى البسيطة يسهل إعادة بنائها بكلفة قليلة ، فى حين تعمس إعادة بناء المدينة . وهذه القرى الصغيرة هى التى حافظت على جماهير أمم الإسلام خلال ليل التاريخ الطويل .

والقرى هى التى تغذى المدن بالعنصر البشرى السليم ، فقد كان الطامحون من شباب القرى يارحوننا إلى المدن ، طلباً للعلم أو العمل أو فراراً من السأم وبطء وقع الحياة ، وهذا التيار من الهجرة إلى المدن هو الذى يمددها بالماصر السليمة العفية التى تجدد دم الحياة فيها .

وقد عرف أهل القرى دائماً كيف يدافعون عن كيانهم وينجون بأنفسهم من مظالم الحكام . وكان لهم فى ذلك أساليب وأخلاق شتى قد يشكو منها أهل المدن ، ولكنها فى الحقيقة وسائل النجاة من مساوىء الحكم ونوازل الزمان ، وما حيلة أهل القرى إذا كان دأب أهل المدن والحكام فى كل زمان ومكان الطمع فى أهل القرى واستضعافهم والنظر إلى ما فى أيديهم ؟

## العالم الإسلامى عالم متعلم مهف ... العلم والعلماء والكسب والمكسبات :

من الحقائق المقررة أن الإسلام حث الناس حثاً شديداً على طلب العلم ، وفى كل كتاب متداول عن فضائل الإسلام تجد المؤلفين ينصون على الآيات الأولى من سورة العلق التى تبدأ بكلمة « اقرأ » ، وتتضمن كلمات « علم » و « يعلم » و « القلم » ، مما يدل دلالة قاطعة على أن الإسلام دين علم ، وأن مجتمعه ينبغى أن يقيم على العلم ، وقد أطلال الناس فى الكلام على هذه الناحية مما يغنيا عن الوقوف عندها طويلا .

وهناك آية أخرى تأمر المسلمين بأن تكون معاملتهم كلها كتابة ، وهى الآية رقم ٢٨٢ من سورة البقرة ونصها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَمْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ ، وهى تكمل آية سورة العلق وغيرها من الآيات التى تحض الناس على طلب العلم وترفع قدر العلماء وما يفصلها ويبيها من الأحاديث النبوية الشريفة كقوله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » ، فإذا تحث أى كتاب من كتب تراجم العلماء — وهى كثيرة جداً — وجدت صفحات طويلة من أحاديث الرسول — ﷺ — فى الحث على طلب العلم وتكريم العلماء وبيان فضلهم وما ينبغى أن يتحلوا به من صفات وفضائل ومسؤوليتهم أمام الله سبحانه وتعالى .

ولكن آية الأمر بكتابة العقود والاتفاقات والمبايعات لم تظهر بما هى جديرة به من اهتمام الفقهاء ومفسرى القرآن ، مع أنها الأساس الذى قامت عليه ظاهرة من أهم ظواهر المجتمعات الإسلامية وخصائصها المميزة .

ذلك أن هذا الأمر أوجب على المسلمين تعلم الكتابة ، لأنه ما من إنسان إلا يتبايع أو يتعاقد ويعقد الاتفاقات على طول حياته مهما كان ذلك قليلا ، ولا ندرى ما السبب فى أن الفقهاء لم يستنتجوا هذا الحكم من الآية الكريمة ، والأغلب أنهم اعتبروا تعلم الكتابة فرض كفاية ، فما دام فى الأمة من يقرأ ويكتب فهو يضى عن الباقيين .

والحق أن تعلم القراءة والكتابة فى الماضى كان عسيراً كل العصر ، ثم إنه كان

قليل المائدة إلا لمن اشتغل بالعلم أو يوظائف الدولة أو تولى الولايات أو كان تاجراً يحتاج إلى الكتابة كل يوم . أما الفلاح في أرضه فقد تنقضى الأعوام دون أن يحتاج إلى كتابة ورقة أو قراءة وثيقة ، وشبه بذلك العامل الصغير في مصنعه والتاجر صاحب الدكان المتواضع أو الجالس في السوق بشيء من بضاعة تسد حاجاته ، أما ما سئم نحن به اليوم من الاطلاع وقراءة الكتب فما كان يقبل عليهما إلا المشتغل بالعلم أو الميسور الحال الذي يستطيع شراء الكتب ، ثم إن الكتب كانت قليلة وغالية وما كان يستطيع اقتناءها إلا من ملك مالا زائداً على حاجته ينفعه في هذا الترف . أضف إلى ذلك أن القارئ الكاتب إذا انقطع عن القراءة والكتابة زمناً طويلاً أو شك أن ينسى ما تعلم ، وهذه كانت حالة الغالبية المعظمى من السكان ، فما كانت تمس حاجتهم إلى كتابة شيء أو قراءة ورقة إلا في السادر ، ولهذا لم يكن الناس يحرصون على التعلم .

ولكن الأمر بكتابة كل اتفاق أو مبيعة أو دين جعل من الضروري أن يكون في كل جماعة من المسلمين من يقرأ ويكتب ، فلم يكن يخلو بيت في مدينة من عدد من الدين يكتبون ويقرأون ، وما خلت قط قرية من عدد مهم وفي العصر الذهبي للحضارة الإسلامية — الذي امتد من أوائل القرن الثالث الهجري إلى أواخر الخامس الهجري — تزايد إقبال الناس على العلم والعمل ، وقامت الدول المحلية الكثيرة واحتاجت إلى موظفين يعملون في إدارتها ، فكثر المتعلمون كثرة زادت على الحاجة . وفي كتابات أدباء هذا العصر تتردد الشكوى من كثرة المتعلمين العاطلين وإلحاحهم على رجال الإدارة في طلب العمل ، وفي مقامات أبي القاسم الحريري مقامة تشرح كيف لجأ واحد من أولئك المتعلمين المعطلين إلى حيلة بالغة في التعقيد ليحصل على عمل ، وذلك بسبب رباذتهم على حاجة المجتمع زيادة كبيرة .

وعلى الرغم من تلك الزيادة فإن المتعلم كان له دائماً مركز ممتاز في المجتمع ، فسواء أكان غنياً أم فقيراً ، صاحب عمل أم متعطلاً ، فإنه كان دائماً موضع احترام وتوقير ، ونتيجة لحث القرآن على التعلم وعلى إجادة القراءة والكتابة على الأقل نجد أن المتعلمين في كل مكان كانوا سادة الناس وأصحاب الرأي فيهم ، ولهذا فقلما نجد مسلماً يطمح إلى تعليم ابنه ، وبخاصة إذا كانت فرصة التعليم قد فاتته هو ، أما كبار الشيوخ والقضاة والفقهاء فكانوا بالفعل رؤساء الجماعات الإسلامية وقادتها .

فى تلك العصور كان التعليم فى أوروبا نادراً ، بينما كان هارون الرشيد يعد من أجلة العلماء — إلى جانب مركزه السياسى الدينى — ويظم شعراً حليلاً يجعله فى عداد المجيدين من الشعراء ، وكان قصره منتدى لأهل العلم والأدب من كل مشرب ، كان معاصره شارلمان لا يعرف من القراءة والكتابة إلا رسم اسمه حيث يعينون له فيما يقدمون له من وثائق الدولة . وكان معظم رجال دولته وكبار فرسانه مثله ، وعندما يتحدث « أنشودة رولان » بفصائل رولان بطل تلك الملحمة الدالة الصيت تذكر أنه كان يقرأ ويكتب ، كأن ذلك كان شيئاً نادراً ، بينما كانت الكتب متداولة فى الأبدى فى كل مكان فى بلاد الإسلام لم تكن توجد فى الغرب إلا فى الأديرة .

وقد كان التعليم — كما قلنا — مسئولية الشعب لا الدولة ، فكان الناس يحرصون على أن يكون فى شارعهم أو حيهم أو قريتهم كتاب أو أكثر يقوم بالتدريس فيه فقيه يعيش مما يتقاضى عن التعليم ، وكان الفقهاء المعلمون كثيرين جداً فى كل مكان ، حتى كانوا أشبه بطبقة خاصة من الناس لها خصائصها وطابعها . وقد سحر منهم الجاحظ فى كتاباته وحمل عليهم ابن حوقل فى رحلته المعروفة بصورة الأرض ، ولكن أبو حيان التوحيدى تصدى للدعاع عنهم وحمل على خصومهم ، وأثنى عليهم ابن حزم وقال إنه مهما بدر منهم من أخطاء فإن الله سيبيهم عن سعة بما يعلمون الصبيان قراءة القرآن ، والكثيرون جداً من كبار الشعراء وأهل الأدب ورجال السياسة بدأوا حياتهم معلمين ، لأن مهنة التعليم كانت تضمن المعاش لصاحبها ولو أن هذا المعاش كان دائماً ضعيفاً ، إلا إذا أسعد الحظ المعلم فقام بالتدريس لأبناء رجل من علية القوم أو أهل السلطان ، فيكون ذلك سبيله إلى الخلاص من فقر المهنة والدخول فى وظائف الدولة والصعود فيها .

وإذا كان المعلمون بهذه الكثرة فلا بد أن المتعلمين كانوا كثيرين جداً ، وبالفعل ندر أن يكون هناك تاجر متوسط الحال فما فوقه أو صاحب وظيفة أو رجل ذو مال إلا علم أولاده وأرسلهم إلى الكتاب أو ألقى لهم بالمؤدين فى البيت ، ومع أن هذا التعليم كان يقتصر على تحفيظ القرآن أو جزء منه والقراءة والكتابة والحساب إلا أنه كان يفتح الباب أمام الصبى ذى الاستعداد لكى يسير فى طريق العلم بعد ذلك ، إذا كانت له رغبة .

وكانت العادة أن الطالب الذى يأس في نفسه القدرة على الاستمرار في الدرس يتجه — بعد إتقان القراءة والكتابة وحفظ القرآن ومعرفة الحساب — إلى المساجد الكبرى في أقرب مدينة إليه ، وهناك يجد الشيوخ يقرأون على تلاميذهم ، فيجلس في حلقة من يختاره منهم ويواصل دراسته ، ثم ينتقل إلى العاصمة ويستمر في دراسته حتى يبلغ من العلم ما يريد . ولا ندرى على وجه التأكيد هل كان الطلاب يؤدون إلى الشيوخ مالاً أولاً يؤدون ، مقابل الدراسة ، ولكننا وجدنا — على أى حال — ما يدل على أن بعض الشيوخ كانوا يتقاضون أجراً عن كل كتاب يقرأه الطالب عليهم ، بل من الشيوخ من جمع مالاً له شأن من إلقاء التلاميذ .

وجدير بالذكر أن هذا النظام — على بساطته وعفويته — كفى حاجة المجتمع من العلم ، فقد خرّج علماء ممتازين ما زلنا نصرهم بهم ، وقد سارت بهم الحركة العلمية سيراً منتظماً قروناً طويلة ، على الرغم من أنه لم تكن هناك سلطة حكومية أو غير حكومية ترعاه وتنظم شعوته ، فما كان في نظم الحكومات في تلك الأيام رجال مسئولون عن العلم والتعليم ، ولا وجدت في عالم الإسلام هيئات تشرف على العلم والتعليم كما كانت الكنيسة الكاثوليكية — مثلاً — تشرف على العلم بل تموله عن طريق الأديرة وهيئات الرهبان مثل الجيزويت ( اليسوعيين ) والفرشيسكان واليومينيكان ومن إليهم ، وكانت البابوية قيمة على العلم فكان يختص به واحد من الكرادلة . وكانت البابوية والأديرة تجمع المال للتعليم ، ومع هذا كله فما وجدت المدارس في الغرب إلا بعد القرن العاشر الميلادي ، وما كان يلتحق بها إلا الراغب في الانضمام إلى سلك الرهبان ، ولم يكن يتعلم إلا أبناء عليّة القوم من أحواق وأكناد ( جمع كُند وهو الكونت ) وبارونات ، أما بقية الناس فما كان أحد منهم يحرص على علم أو تعلم ، بل ما كان يحتاج إلى ذلك أصلاً لأن قس كنيسته كان يقوم له بما يريد من لقراءة والكتابة .

لهذا نقول إن العلم كان من خصائص الجماعات الإسلامية ، فقد حفلت بالعلم والعلماء من كل مستوى وفرع ، وعلى الرغم من أن الناس لم يكونوا يكسبون من الكتب إلا الذكر الطيب ، فقد فاض عالمنا بالكتب والمؤلفات القيمة ، وجدير بالذكر أن رجلاً مثل محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ والتفسير لم يتقاض شيئاً عن كتابيه العظيمين هذين ، ومع هذا فما كان يترك يوماً يمضى دون أن يكتب عدداً

من الصفحات قرره على نفسه كأنه فريضة أو دين للمجتمع . وكذلك عز الدين ابن الأثير صاحب التاريخ الخليل ومعجم الصحابة العظيم القيمة ، ما كسب درهما من شيء كتبه . وقُل مثل ذلك في عامة المجتهدين من المؤلفين ، بل إن أحد علماء الأندلس ألف كتاباً في القراءات ، فأرسل إليه أمير ناحيته ألف دينار جائزة وطلب إليه أن يضيف في فاتحة الكتاب ما يفهم منه أنه ألف هذا الكتاب للأمير مجاهد العامري فرفض الرجل ورَدَ المال وقال إنه لا يستطيع أن يكذب ، فما ألف الكتاب لهذا الرجل أصلاً .

ويدهش الإنسان — لهذا — من اهتمام الكثيرين جداً بالتأليف برغم قلة ما كان يؤتاه من كسب مادي ، ولا يهلل هذا إلا بشعف شعوب الإسلام بالعلم وإيمانهم به ، فما تركوا ناحية إلا ألغوا فيها الكتب الكثيرة ، وإذا افترضنا أن الناس كانوا يكسبون شيئاً من المؤلفات في العلوم التي يكثر عليها إقبال الناس — كالفقه والحديث والتفسير والشريعة واللغة والأدب — فما الذي كسبه الأُرُوق مثلاً من تأليفه في « تاريخ مكة ؟ » ، وما الذي أفاده السهمودي من كتابه في « تاريخ المدينة المنورة ومشائها ؟ » ، وماذا كسب ابن حوقل من وصف رحلته للسماة بصورة الأرض ؟ ، أو ابن حزم من « طوق الحمامة » — وهو كتاب في الحب وطبيعته — أو من كتاب « جبهة أساب العرب » وهو كتاب ضخم ومجهد في أسباب القبائل العربية ؟ أو ماذا أفاد سليمان بن جليل من كتابه في « طبقات الحكماء ؟ » أو ابن صاعد الأندلسي من كتابه المسمى « طبقات الأمم » وهو كتاب فريد في تاريخ العلوم عند أهل الأرض ؟ !

لا شيء غير العناء ، فما كانت هناك حكومة لمكة لتعوض الأُرُوق عن تعب ، ولا بلدية للمدينة تكافئ السهمودي ، وما كانت هناك جمعية جغرافية أو أكاديمية تكافئ الجغرافيين والرحالة على عملهم ، وهكذا . بل الثابت أن الكثير من هذه الكتب جبت المتاعب لأصحابها ، لأن الناس لم يكونوا يحسنون الظن بمن يدرس شيئاً غير علوم الدين واللغة ، ويمرون في الطب والفلك والرياضيات والمهندسة مروقاً عن الدين وعروجاً عن طريقه ، حتى لقد أودى ابن رشد بسبب انصرافه إلى شرح فلسفة أرسطو ، واضطر ابن سبعين إلى الانتحار عندما تزايد الشك في إيمانه بسبب كلامه في الفلسفة والمنطق ، رُبي علي بن يونس العلكي الرياضي بالجنون ، وعوقب الحسن بن الهيثم لاشتغاله بعلم الطبيعة والبصريات ؛ وغير ذلك كثير . ومع ذلك



فقد ألف أولئك الرجال - وغيرهم كثيرون - في العلوم والرياضيات غير مبالغين بالعقوبة ، لأن إيمانهم بالعلم كان أقوى من إرهاب الناس .

وإذن فقد كان عالم الإسلام يحب التعليم ويقبل عليه ، ويكرم العلماء ويوقرهم ويرفعهم إلى مراتب القادة والزعماء ، وكان عالماً يؤمن بالعلم ، يخلص الناس فيه للعلم ويطلبونه ويحملون متاعبه وتضحياته - وأخطاره أحياناً - دون تردد . فنحن نقرأ لبعضهم كلاماً لا نجرو نحن على قوله اليوم ، برغم ما نقول من أننا في عصر الحرية والنور ، وأين رجل كابن خلدون يقول في العرب هذا الكلام الذي نجده في مقدمته ؟ ولكن ابن خلدون قاله غير هيب ، لأنه أراد أن يبين به قومه إلى عيوبهم ليتلافوها ، فهو يحب العرب ولهذا أهمه أمرهم ومضى يبحث في شئونهم ويقول ما يؤمن به دون حرج ، ومثل هذا لا يصدر إلا عن رجل يؤمن بالعرب أولاً ثم يؤمن بالعلم ثانياً ، ولو لم يكن يجب العرب لما عناه أمرهم وما كلف نفسه مشقة تقديمهم وتوجيههم . ولا غربة في ذلك فقد كان يحذر من أصل عرق عريق ترجع جذوره إلى حضرموت ، ثم هاجر أهله إلى الأندلس ونزلوا إشبيلية وكان لهم فيها شأن كبير ، وولد هو في تونس سنة ١٣٣٢ م في عصر عصيب مليء بالأخطار ، فجاب أقطار عالم الإسلام من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ولقى في المشرق قيسورنك وفي الأندلس الملك بدرو القاسي ملك قشتالة الذي كان يجتهد في القضاء على غرناطة ، وعمل الرجل في غرناطة والمغرب وتعبه خصومه فعاش في ظلال الخوف زمناً طويلاً . وفي أثناء فترة هرب فيها إلى واحة بسكرة - في الجزائر الحالية - كتب مقدمته التي تعد من روائع الكتب في تاريخ الفكر البشري . ولم يأمن إلا في السنوات الأخيرة من عمره ، حيث استقر في مصر وتولى قضاء الجماعة للمذهب المالكي حتى تولى ممرزاً مكرماً سنة ١٤٠٦ م .

وابن خلدون واحد من هؤلاء الأعلام الذين وصلوا إلى القمة في فروع العلم في العصور الوسطى كلها في الشرق والغرب على السواء ، وهو يحمل لواء التاريخ والاجتماع ، وبضاهيه في ذلك أبو زكريا الرازي في الطب ، وأبو علي بن سينا في الطب والفلسفة ، والشريف الإدريسي في الجغرافيا ، وأبو بكر الخوارزمي في الرياضيات ، والحسن بن الهيثم في الطبيعة والبصريات ، وأبو القاسم الرهاوي في الجراحة ، وأبو ركريا الحوام في النبات ، وابن البناء في الحساب ، وأبو الريحان

اليروني في التلويح القديم والآثار ، ومالك بن أنس وأبو حيفة النعمان ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل في العقه ، وغيرهم كثيرون .

أصف إلى ذلك الموسوعيين الذين نهضوا وحدهم بتأليف موسوعات في فروع شتى من العلم ، كابن سينا الذي ألف كتاب الشفاء واختص كل جزء منه بعلم من العلوم ، وأبي الريحان البيروني الذي ألف وأبدع في كل علم تقريباً ، والموسوعيين الثلاثة ابن فضل الله العمري والنويري والقلقشندي ؛ وأصحاب المعاجم ونكتفي بأن نذكر منهم هنا اثنين : ابن منظور الأفرقي المصري ، محمد بن مكرم ( ١٢٣٢ — ١٣١١ ) صاحب « لسان العرب » ومحمد بن محمد مرتضى الزبيدي ، صاحب « تاج العروس » ( ١٧٣٢ — ١٧٩١ ) ، وكل من هذين المؤلفين معجم ضخيم جامع شامل للغة العربية ، وقد قام كل من هذين الرجلين بعمل لا تنهض بمثله اليوم إلا المحامع اللغوية التي يعمل فيها عشرات العلماء .

وقد أولع المسلمون باقتناء الكتب وتنافسوا في ذلك حتى كان أثاث البيت لا يكمل إلا بمكتبة ، وقد أتفق بعض الناس في اقتناء الكتب ثروات طائلة . وقد ضمت المكتبات العامة في بغداد بصحة ملايين من المخطوطات أهلك معظمها هولاكو قائد المول . وقل أن تجد مدينة في عالم الإسلام لا توجد فيها مكتبة عامة ، وكانت المساجد تقوم بهذه الوظيفة ؛ فكان الأمراء وأفراد الشعب يشترون الكتب ويودعونها خزائن الكتب في المساجد ويوقفونها للاستعمال العام . وعلى الرغم مما أصاب الكتب العربية من الكوارث على يد المول من ناحية والإسبان من ناحية أخرى والحرائق من ناحية ثالثة وما لا بد أن يصيب الكتب من السرقة والتلف والفساد واقتراض الأرضة ( وهي حشرة تأكل ورق الكتب ) من ناحية رابعة فقد بقي لنا من المخطوطات العربية ما يقرب من ثلاثة ملايين في المكتبات العامة ، غير ما يحتفظ به الناس في بيوتهم . هذا ولم تغلب العصور الوسطى الأوروبية من المخطوطات إلا ما لا يزيد في مجموعه على خمسين ألفاً . وقارن بين هذين الرقمين تجد بين يديك دليلاً شاهداً يؤكد ماقلناه من أن عالم الإسلام كان عالم علم ونور<sup>(١)</sup> .

(١) انظر — إكالا لهذه الفقرة عن العلم والتعليم في عالم الإسلام — الفقرة الخامسة بالمسلمين والعالم الخارجي من هذا الفصل

## سلامة الأسرة فى المجتمع الإسلامى :

وإلى القرى وأهلها وحافظتها يرجع جانب كبير من الفضل فى المحافظة على الأسرة الإسلامية متأسكة سلمية من الآفات . فالهجن المتوالية التى هزت كيان المدن وأهلها والعارات الكثيرة التى نزلت بالعالم الإسلامى ، وما نتج عنها من القضاء على الألواف التى لا تحصى من السكان ، وما صاحب ذلك من قتل الرجال أو أسرهم وسبي النساء ليهجن بعد ذلك رقيقا ، كل هذه عرّضت الأسر فى المدن لزعزعة كبيرة . ويمكن أن نتصور ما أصاب المدن الإسلامية من جراء أهوال غارات المغول وما أنزلوه بالبلاد من المذابح وما أحرقوه من الدور وما شردوا من الأسر ، ويمكن كذلك أن نفكر فيما أصاب مدن الشام وشمال العراق نتيجة لتوغل الصليبيين فيها وسيطرتهم عليها وانتهاكهم للحرمات ومحاولتهم ذلك حتى تكون لدينا فكرة واضحة عما أصاب مجتمعات المدن خلال العصور الوسطى عددا من أذى وتقريب وما حل بالأسر نتيجة لذلك .

وهما يجدر أن نشير إلى الأوبئة والمجاعات التى اجتاحت بلاد الإسلام فى القرون الوسطى المتأخرة ، فالوباء الأسود الذى طاف ببلاد الإسلام فى القرن الخامس عشر احتل معه من أهل الشام ومصر والعراق ثلثهم ، وأصبحت البلاد بعد ذلك بأوبئة أقل مدى من ذلك ، هلك فيها الألواف بعد الألواف ، حتى كادت المدن تغرب . ومن المعروف أن بلاء الأوبئة أو المجاعات يكون فى المدن أكثر منه فى الأرياف ، بل كانت العادة عندما ينزل الوباء أن يهرب الناس إلى الأرياف . فلو أن مستقبل العالم الإسلامى توقف على أهل المدن لكانت حالته فى نهاية العصور الوسطى تدعو إلى اليأس من بعث جديد . ولكن القرى ومزارع الريف احتفظت بكثلة السكان سلمية وحافظت على كيان الأسر . ففى أواخر القرن الثامن عشر لم يزد سكان الشام على مليون نسمة ، معظمهم كان فى القرى والأرياف ، ومثل ذلك يقال عن فلسطين التى لم يكن قد بقى من سكانها إلا مائتا ألف ، ومصر وقد هبط سكانها إلى أقل من ثلاثة ملايين .

ولقد تخطمت تحت وطأة مثل هذه المحن شعوب كثيرة فى العصور القديمة والوسطى ، كما برى فى اسيار المجتمعات فى الصين والهند الصينية والهند مرة بعد مرة ،

وانحلال المجتمع قرونًا متطاولة حتى نتاج العرصة لإعادة التكوين ، أما أم الإسلام فمهما حل بها من الكبات فإن كيانها الاجتماعى يظل ثابتا ، متاسكا ولقد انهار المجتمع الرومانى تحت ضربات الشعوب المتبريرة التى غزت الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الرابع الميلادى ، أما عالم الإسلام فلم تتفكك وحدة مجتمعه تحت ضربات مغول جنكيزخان وهولاكو وما فعلوه فى إيران والعراق والشام ، وهو يفوق بكثير ما فعله المتبريرون من قوط وندال وفرنجية وغيرهم ببلاد الدولة الرومانية .

والسبب فى ذلك هو أن الخلايا التى يتكون منها المجتمع الإسلامى — وهى الأسر — خلايا قوية متاسكة تستعصى على الفساد ، لأن الإسلام يحصن الأسرة بضمانات تحمى من التفكك ، وهو يقدم لها تشريعا سليما يحفظ حقوق كل فرد فيها ويصون حقوق الأولاد والزوجات فى حالات وفاة العائل أو فى حالات الطلاق . فقبل الإسلام مثلا كان بعض الناس يقتلون أولادهم حشية العجر عن القيام بشئونهم ، فنهى الإسلام عن ذلك ، وذكر الناس بأنهم ليسوا هم الذين يرزقون أولادهم وإنما هو الله سبحانه وتعالى ، وكان الرجل قبل الإسلام إذا مات وضع أخوه أو إحوته أيديهم على تركته وأصبحت الأرملة والأولاد تحت رحمة المقادير ، فأوقف الإسلام ذلك وصان حقوق الأرملة والأولاد ، وحددها بكل دقة . وكان الرجل قبل الإسلام إذا أراد فراق زوجته أرسلها إلى بيت أهلها وانتهى الأمر عند ذلك ، فنص القرآن مرة بعد مرة على علاقات المودة والوفاء بين الزوجين . وبس للناس أن الرواح ليس صفة تعقد ثم تمضى وفقا لمراج الرجل ، بل هو رباط مقدس ومسئولية الرجل فيه لا تنتهى عند عدم رغبته فى استمرار الحياة الزوجية ، وجعل الرواح جزءا من النظام العام للمجتمع الإسلامى ، وألزم المسلم الصالح بسلوك فاضل واضح فى حياته اليومية ، ونهى الناس أشد تنبيه على ضرورة العناية بالأولاد وتبنيهم لباء مستقبل سعيد لهم ، حتى أصبح من المسلم به فى كل جماعة إسلامية أن الجماعة رقية على الحياة الزوجية لأفرادها مسئولة عن سلامتها ، وكل من عاش فى القرى الإسلامية فى أى مكان يشعر بالقوة العظيمة التى تتمتع بها الأسر ، بفضل عناية المجتمع بالمحافظة على الأسرة وتسييرها وفق ما يقضى به الشرع الإسلامى وما تستلزمه المروءة الإسلامية . ولقد دخل الإسلام المغرب مثلا ، فوجد الناس مستعدين لبيع من أحبوا من أولادهم لأداء الخزية أو لسداد الدين . وكان ذلك عادة عندهم ، فتوقف ذلك بعد دخول الإسلام ، ولم تعد نسمع به بعد ذلك أبدا . وفى كل

المجتمعات الآسيوية خلال العصور الوسطى كان بيع البنات أو إهداؤهن أو المقايضة بين أمراً ما لولاً ، إلا في المجتمعات الإسلامية ، فحينما أسلم الناس سلمت الأسر ومجت البنات والنساء من مهانة البيع وذل الاسترقاق .

وقد ضرب الرسول ﷺ — بحياته الخاصة أصدق المثل على المحبة العائلية ورعاية الأقارب وذوى الرحم ، ونص القرآن الكريم على أن الفقراء من ذوى القرى يدخلون في نطاق من يستحقون الصدقات ، وتوسع الرسول ﷺ في ذلك ، حتى أجاز إنفاق الجانب الأكبر من الصلوات على المحتاجين من الأهل . وأصبحت حقوق أفراد الأسرة بعضهم على بعض جزءاً لا يتجزأ من الأساس الخلقي الإسلامي العام . وأصبحت رعاية الأسرة والبر بها - زعماً من إسلام الرجل ، ومن ثم فقد اكتسبت الأسرة في المجتمع الإسلامي قوة لا مثيل لها في غيره من المجتمعات ، وبلغ الأمر أن أصبحت رعاية الأسرة وتربية الأولاد والقيام بشئون الوالدين المسنين واجب الرجل الأول بل الوحيد في أحيان كثيرة . وفي نواحي العالم الإسلامي كله يعيش الآباء لأولادهم فحسب ، ويضحي الناس بأموالهم في سبيل أقاربهم . وهذا لا تجده في أى مجتمع آخر . ولم تقتصر مسؤولية الأب عن الأولاد على سن الطفولة أو الصبا ، بل هي امتدت حتى شملت حياة الأولاد كلها حتى بعد أن يكبروا وتصور لهم أسر .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان للأسرة الإسلامية من فضل في المحافظة على سلامة المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، ونضيف أن ذلك أنقذ البلاد الإسلامية في نواح شتى من التملك والضياع في العصور الحديثة . وأظهر مثال لذلك الجمهورية الجزائرية التي نزل الفرنسيون بلادها سنة ١٨٣٠ م ، ولم تحل سنة ١٨٥٠ م حتى كانوا قد حاروها كلها وبسطوا عليها سلطاناً سياسياً فرنسياً خالصاً ، وأحلوا قوانينهم محل شريعة الإسلام ، وحاولوا قدر ما استطاعوا اجتذاب الناس إلى القوالب الاجتماعية الفرنسية ، وبخاصة في تنظيم الأسرة . ولكن الأسر الجزائرية رفضت أن تستجيب لهذه الدعوة ، وصارت أولادها من إطلاق العنان في التعارف والتماشي والرقص وما إلى ذلك . ولقد زين الفرنسيون للناس التشريعات الفرنسية بكل سبيل ، وعلى الرغم من السيطرة الفرنسية السياسية الكاملة ، فإن المجتمع الجزائري ظل إسلامياً سليماً متأسكاً ، لأن الخلايا الأسرية كانت سليمة ، فمرت بها عواصف الاحتلال الفرنسي ومضت غير مخلفة أثراً . وكان ذلك من أقوى الأسباب في عجز

الفرنسيين عن الاحتفاظ بسلطانهم على الجزائر ، وفي تمكين هذه البلاد الإسلامية من استعادة استقلالها .

وقد تبيّن من دراسة تفاصيل ثورة التحرير الجزائرية ، التي استتذت من برائس الاستعمار بلداً بعد اليوم من مفاخر الجماعة الإسلامية الكبرى ومن أهم دول البحر الأبيض المتوسط ، أن جانباً كبيراً من الفضل في احتفاظ ذلك الشعب بشخصيته الإسلامية العربية ، برغم كل ما حاوله المستعمر للقضاء على هذه الشخصية ، يرجع إلى المرأة الجزائرية المسلمة التي تمسكت بالإسلام في قوة وإيمان عميقين ، فلم يجرّفها تيار المدنية الفرنسية ولا خدعها بريق الحضارة الأجنبية ، فما أسرفت في زينة ولا ضربت بتقاليد شعبها عرض الحائط ، بل احتفظت بأداب الإسلام وأقبلت على أولادها تعلمهم الصلاة والصيام وتحفظهم ما تسر من القرآن الكريم وتقص عليهم ما تعرف من سيرة الرسول ﷺ ، فشأ الأولاد جزائريين مسلمين ، يؤمنون بمجد أمتهم وبأن الإسلام الجليل يبيح بهم أن يخلصوا وطنهم من سيطرة الأجنبي المحتل ، وعلى هذا ثبتوا حتى استقل وطنهم .

### مراتب الناس في المجتمع :

قلنا إن المجتمعات الإسلامية كانت مجتمعات تخلو من الطبقات الاجتماعية المتأخرة المتحاجة ، ولكن ذلك لم يمنع من أن يكون في الناس أعتياء وفقراء ، وموهوبون وغير موهوبين ، وأصحاب جاه وضياء ، ومتعلمون وغير متعلمين . مشأ عن ذلك مالا يد منه من اختلاف الناس بعضهم عن بعض وتفاوت حظوظهم من المكانة في المجتمع . وظهور نوع من التصنيف الاقتصادي والفكري للناس هو الذي يعنيه مؤرخونا عندما يتحدثون عن « أقسام » الناس أو « طوائفهم » . فيقول المقرئ مثلاً ، في كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » : إن الناس بإقليم مصر — في الجملة — على سبعة أقسام :

القسم الأول : أهل الدولة ،

القسم الثاني : أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرغاية ،

والقسم الثالث : الباعة ، وهم متوسط الحال من التجار ، ويقال لهم « أصحاب

البز » ، ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق ،

والقسم الرابع : أهل الطلح ، وهم أهل الزراعات والحرف ، سكان القرى والريف ،

والقسم الخامس : وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة وغوهم ،

والقسم السادس : أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن ،

والقسم السابع : ذوو الحاجة والمسكّة ، وهم السوّال الذين يتكفّفون الناس ويمشون منهم .

وهذا — كما هو واضح — تقسيم للناس بحسب حرفهم وصناعاتهم أو بحسب مستوياتهم الاقتصادية ، فهو ليس تقسيماً إلى طبقات اجتماعية ، فالمعروف أن المال يروح ويبيّ ، وكذلك السلطان والقوة ، فقد يكون رجل عتيّاً اليوم وفقيراً غداً ، وقد يكون صاحب وظيفة وسلطان في يوم ثم يفقد ذلك في يوم آخر .

وأما الطبقات الاجتماعية — كما نعرفها في المجتمعات الأوروبية والآسيوية — فحين مستويات من الناس لا يختلطون بغيرهم مهما اختلفت ظروفهم المالية أو مراكزهم الرسمية . ففى المجتمع الأوروبى الوسيط مثلاً يظلّ البوق أو الكونت أو الماركيز شريفاً نبيلًا ولو كان مفلساً ، وهو مهما بلغ إفلاسه لا يتنارل بمصاهرة غيره من أهل الطبقات التى يراها أدنى منه مهما بلغت من الثروة .

وأمثال هذه التقسيمات فى المجتمعات الإسلامية نجدها عند من تعرضوا للدراسة المجتمع من كتّابنا مثل عبد الرحمن بن خلدون فى « المقدمة » وأبى الحسن الماوردى فى « الأحكام السلطانية » وعبد الوهاب السبكي فى كتاب « معيد النعم ومبيد القم » . وغلاصة كلامهم جميعاً فى أمر تقسيم المجتمع هو أن المراتب العليا خاصة بالخلفاء والسلّاطين ولهم جماعه الوزراء وكتاب ديوان الإنشاء والقوّاد ، ثم يبيّ بعد ذلك مياسير التجار ، ثم الفقهاء والقضاة والشعراء ، ثم تلّ ذلك طبقات العاملين من الصناع وصغار التجار والمكّارين والملاحين ومن إليهم وقد يلحق بهم صغار الجند ، وفى بعض الأحيان يضيفون إليهم المسؤولين .

وإذا نحن تأملنا هذا التقسيم تبين أن مولزين الناس فى العصور الوسطى كانت تعطى الصدارة للطبقات غير المنتجة وتجعل الطبقات المنتجة فى آخر السلم ، فإن الخلفاء والسلّاطين والوزراء والقوّاد وكتّاب دار الإنشاء غير منتجين من الباحية

الاقتصادية ، وإنما هم — في أحسن حالاتهم — منظّمون لإنتاج الآخرين . وقد أدخلنا فيهم القواد ، لأن قواد تلك العصور كانوا حُماة البيوت الحاكمة قبل أن يكونوا حُماة أوطان ، وبخاصة في العصور المتأخرة ، ولهذا فقد كان أولئك المحاربون في جملة أهل الطبقات الممتازة غير المنتجة والتي تعيش على عمل الطبقات المنتجة . وهذا الكلام لا ينطبق على الدول ، في أول نشوئها وعلى المجتمعات البدوية . فأما الدول الجديدة فسلطينها ومحاربوها في نشاط وعمل دائمين ، لأن الدولة كلها في دور التأسيس ، وأما المجتمعات البدوية فلم تعرف المراتب أو الأقسام الاجتماعية ، بل لم تعرف توزيع الأعمال ، فكل أفراد القبيلة من البدوى البسيط إلى رئيسها متساوون من حيث النصيب في العمل أو المستوى الاجتماعي .

ومهما قرأنا في صحف التاريخ عن امتياز بعض الناس على بعض أو تسلطهم على غيرهم في المجتمعات الإسلامية بحكم سلطانهم السياسي أو مركزهم الاجتماعي ، فإن ذلك لا يعنى بحال من الأحوال امتيازاً إنسانياً ، ولا يعنى أن الذين يعقلون أنفسهم ممتازين كانوا يمارسون على الناس أى حق من حقوق الامتياز أو السيادة ، حتى السلاطين والخلفاء لم ينظر الناس إليهم قط على أنهم أفضل منهم ، وإن كانوا يخافونهم أحياناً ويطيعونهم في معظم الأحيان . وبدهى أن مرجع ذلك إلى الإسلام الذى سوى بين الناس تسوية حقيقية وجعلهم في مرتبة واحدة أمام الله سبحانه وتعالى ، وهذه ناحية واضحة كل الوضوح ، فلا تحتاج ما إلى تفصيل أكثر .

### المراة فى المجتمع الإسلامى :

عد النظر في مركز المرأة في المجتمعات الإسلامية ينبغي أن نفرق بين أحكام النساء في الإسلام وتصرفات المجتمعات الإسلامية حيال المرأة . فمما الواضح أن الإسلام سوى بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات والمكامة الاجتماعية ، وإذا كانت هناك فوارق في نصيب كل منهما في الموارث أو في أحكام الزواج فإن لهذه كلها أسبابها ومنطقها الواضح الذى تجده مشروحاً بجلاء في كتب المتخصصين في الشريعة الإسلامية . وفيما عدا ذلك لا فوارق بين الجانبين .

أما حجاب المرأة وحجزها في البيوت ووضع القيود عليها فظواهر اجتماعية تحتاج منا إلى توضيح موجز هنا .



فقى عصر النبي — ﷺ — لم يكن هناك حجر للمرأة أو حبس لها في البيت وقصر لها على أعمال محدودة معظمها في خدمة الرجل نفسه أو في خدمة البيت . فقد كانت المرأة تعمل في الميدان إلى جانب الرجل ، حتى في حروب النبي — ﷺ — نسعى أن النساء ، مثل أم عمارة الأنصارية وغيرها ، كن يخرجن إلى الميدان لا لتضيق الجرحى فحسب بل للاشتراك — أيضاً — في الحرب الفعلية . وفي معركة أحد كانت أم عمارة هي أول من ثبت إلى جانب النبي ﷺ وحارب معه حتى تجمع المسلمون حوله من جديد . وفي معركة الأحزاب أقامت صحابيات كرميات غماماً لإسعاف الجرحى ، وكن طول الوقت غاديات رائحات في إسعاف الناس بالماء والعلاج والدواء . ولدينا نص يثبت أن عمة النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب اشتركت في القتال الفعل بنفسها ، وكانت عمات الرسول ﷺ ، وبخاصة صفية التي ذكرناها وأروى وعاتكة بنات عبد المطلب يعملن بنشاط بالغ في مكة بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، وكان لهن نصيب عظيم في تمهيد مكة للإسلام . وإذا كان هناك شك فيما قام به العباس بن عبد المطلب في هذه الفترة في خدمة الجماعة الإسلامية فإن ما قامت به هؤلاء السيدات الجليلات لا شك فيه ، ولهن النصيب الأوفى في عزيمة نفوس المكين لقبول الإسلام . وتدل الأحاديث الكثيرة على أن النساء كن يدخلن على الرسول ﷺ ويسألنه ويأخذن مكانتهن في مجلسه ، وفي أسواق المدينة كانت السيدات يرحن ويقفون في قضاء حوائجنهن في كمال تام وحرية كاملة ، حتى بعد نزول آية الحجاب<sup>(١)</sup> . ومن الواضح أن آية الحجاب نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة ، فهي وما يليها كلها موجهة إليهن دون غيره ، نظراً لمكانتهن الخاصة في الجماعة الإسلامية .

أما الآيات الأخرى التي توجب الحجاب — في رأى مجتمع المصور الوسطى — فليس فيها أمر واضح بتغطية الوجه : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾<sup>(٢)</sup> ، لأن الزينة ليست قطعاً الوجه ، وكذلك الجلب لا يعنى الوجه أيضاً . فالأمر هنا خاص بالكمال والحشمة وعدم الترخص في اللبس أو لبس الزينة

(١) الأحزاب ، آية ٥٣ .

(٢) النور ، آية ٣١ .

المتيرة ، إلا في حضور من لا يخشى عدوانه من الرجال . أما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَمُؤْمِنِينَ يُدِينُونَ عَنْهُمْ مِنْ جَلَابِيبِهِمْ ، ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُقَرَّبْنَ فَلَا يُؤْذَنَنَّ ﴾<sup>(١)</sup> فهو أمر خاص بالتقاليد الاجتماعية في المدينة ، لأن الجوارى والإماء كن يتعرضن فيرسلن ملابسهن في السير ، وربما انكشف بعض الجسد ، فكانت الحرائر والعقائل ونساء الأسر المحترمة وبناتها يضمنن ملابسهن على أجسادهن استمسكاً بالحشمة والتزلم الكمال ، فنزلت الآية تؤكد عليهن في ذلك .

أما قوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾<sup>(٢)</sup> فهو خاص بنساء النبي أولاً ، ثم إن التاريخ الواقعي في المدينة لا يدل على أن نساءها لزمن البيوت بعد نزول هذه الآية ، وإنما هو أمر عام يراد به ألا تخرج المرأة من بيتها مخضت الخمشى في الطرقات ، بل تمضي لشأنها وتقضي مصالحها وتعود في كمال ، وهذا هو الذي نراه في المجتمع الإسلامي أيام الرسول ﷺ بعد تطبيق هذه الآية . ولم يقل أحد في أى جماعة محترمة إنه من المفيد أن تتسكع النساء في الطرقات دون مرور أو ضرورة .

وأخبار الجماعة الإسلامية على عهد الرسول ﷺ — والخلفاء الراشدين حافلة بالأخبار التي تدل على أن المرأة كانت تتحرك في حرية وتخرج لشأنها وتخطب من تريد من الرجال في حوائجها دون حرج ، ملأمت ملتزمة بالحشمة والكمال . وانظر إلى عشرات الأحاديث التي تتحدث عن نساء سألن الرسول ﷺ في مسائل تهمهن فأجابهن في تفصيل كبير ، فكيف كن إذن يخرجن من بيوتهن ويقصدن الجامع ويدخلن مجلس النبي ﷺ لسؤاله ؟ وفي الجزء الخاص بالنساء من طبقات ابن سعد أخبار كثيرة تؤيد ما نقول من حرية النساء ، ولا نجد فيها أخباراً يفهم منها أن النساء في فجر الإسلام كن حبيسات البيوت أو أن وجوههن كانت محجوبة .

ولم يكن النساء يعشن على هذه الصورة من الحجاب طوال العصر الأموي ، أى إلى نهاية العصر العرفي الخاص من تاريخ الجماعة الإسلامية . بل يمش معظم نساء الأمة ، وهن الفلاحات ، في معظم بلاد الإسلام — وإلى يومنا هذا — سافرات

(١) الأحزاب ، آية ٥٩ .

(٢) السورة نفسها ، آية ٣٣ .

غير محجبات ، وهن يشتركن في العمل مع الرجال ويختلطن بهم في الأسواق ومناكب الحياة ، هذا بالإضافة إلى ما نعلم من أن نساء القرى والأرياف أقرب إلى روح الدين من مجتمع المدن .

إذن من أين أتى الحجاب الثقيل الذي يفرض على المرأة أن تعيش عصرها خلف سُرّ وقبود وسدود ، بل يجعلها تحمل سجنها معها إذا خرجت ، فتسير داخل ثوب مفرغ عليها ، كأنه القبة لا منفس فيه إلا ثقبان للعينين واستنشاق الهواء ؟ وما الذي جعل المرأة المسلمة تبدو في المفهوم العامي وفي القصص الشعبي إنساناً شريفاً لا يفكر في غير المكائيد وتدهيرات السوء ؟

أما الحجاب الثقيل وسجن الحياة فقد أتيا في عصور الاضمحلال عندما سيطر المستبدون والظالمون على شعوب الأمم وساموا أفرادها سوء العذاب . في هذه العصور ساد الناس جهل شديد ، فلم يعد يعرف حقائق الإسلام إلا نمر يسير من أهل العلم ، فانتشرت في الناس مفهومات كثيرة خاطئة لا عن الإسلام وحده بل عن كل شيء في الوجود . فبينما كان الناس في العالم الإسلامي حتى القرن الخامس الهجري يعرفون أن الأرض كرة ويعرفون التعليل المطلق والعلمي لذلك ، نسوا هذه الحقيقة في القرن السادس فما بعده ، فغلب على بعضهم تصور أن الأرض مسطحة ممتدة في كل اتجاه يحيط بها جبل قاف . وكذلك أخذ عامة الناس العلم بالإسلام عن أدعياء العلم وعن قوم انتسبوا إلى الصوفية وليسوا منهم ممن يزعمون لأنفسهم خوارق الأعمال . وعن طريق ذلك الجهل شاعت بين الناس آراء غريبة عن الإسلام ، بل منافية لروحه . في تلك العصور راح القول بأن الإسلام يفرض على المرأة حجاباً ثقيلاً ويلزمها كسرتيها ، لا تفارقه إلا إلى قبرها . وساعد على رواج هذه الآراء سيادة أصناف الترك والمهول وغيرهم من الأجناس التي تعودت أن ترى في المرأة متاعاً يشتري ويبيع ويحفظ في البيوت خذراً من أن يهدو عليها السراق وقطاع الطرق ومن إليهم ، وبخاصة إذا كانت شابة ذات جمال . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الأمن كان في اضطراب مستمر ، فلم تكن الطرقات مخوفة للنساء وحدهن ، بل لكل الصغار والأطفال والضعفاء .

وبسبب انعدام الأمن في الطرقات وشيوع الجهل اهتم الناس بالمحافظة الشديدة على سائلهم ، ومن هنا جاء الحجاب الثقيل وسجن البيوت في المدن الخاصة خلال

المصور الوسطى المتأخرة ، فلم تعد امرأة حرة تخرج إلى الطريق إلا في حراسة شديدة ، أما اللاتي كنّ يظهرن للناس ويسرن في الأسواق دون حرج كبير فهن الجوارى والإماء ، لأنهن كن معدودات في تلك العصور من جملة المتاع ، ومعظم من نسمع أحببهن من النساء في كتب تلك العصور لم يكن من الحرائر بل من الجوارى والقيان ، فيما عدا بعض نساء السلاطين والكبراء ممن يحدثننا عنهن المؤرخون والرحالة .

وفي مثل هذا الوضع السيئ — أعني في الظروف التي فرض على النساء فيها حجاب ثقيل وسجن وراء الجدران — نشط ذهن النساء في البحث عن الوسائل للتخلص من تلك القيود أو لإيجاد أنواع من التسلية يمكن ممارستها في الخفاء وفي ظلام المقاصير ، لأن الحياة على تلك الصورة مستحيلة بالنسبة لأي إنسان ، لأن الإنسان بطبعه مفكر ولا يطيق القيود للأمد الطويل ، ولا بد أن يدفعه ذكاؤه إلى البحث عن منافس ومهارب أو عن وجوه من التسلية ينسج فيها الحيلة الضيقة التي يعيشها ، فابتكرت النساء أساليب كثيرة للتمرّج عن أنفسهن وإفصاح الخيال الضيق المتاح لهن ، وتغلّس بالهيلة والدكاء في أحيان كثيرة على سوء ظروفهن ، وهن معذورات في ذلك ، فانتشرت في الناس أقوال وحكايات عن « حيل النساء ومكائدهن » وخبثهن ، كما نرى في أقاصيص « ألف ليلة وليلة » .

وفي كثير من الأحيان توسلت النساء بالعجائز في الوصول إلى ما طلبن من التسلية والعرار من الحياة الراتبة المملة ، بل القتالة ، لأن المجور تخرج وتروح وتغدو دون حرج ، فهي ليست بمطمع ، وهي تدخل البيوت وتجلس إلى النساء ، فكانت العجائز سبيلا للاتصال بين النساء والعالم الخارجي . وأتاح ذلك للنساء فرصاً للتسلية وملء الفراغ والمنور على حوافز للحياة والعمل ، ولا يبيح أن ننسى أن الحياة كلها كانت بالنسبة للإنسان العادي في تلك الأعصر وجوداً فائراً مليئاً بالمخاطر والمتاعب ، وأن الإنسان — ككل كائن حي — لا يحتمل البقاء طويلاً في وجود فائر مل أو ملء بالمخاطر ، فلا بد له من الهروب من الملل والخوف ومن إعمال الحيلة في ذلك .

هذه هي الظروف العامة التي فرصت على المرأة الحجاب الثقيل وكنيتها بالقيود وهي ظروف — كما نرى — لا دخل للإسلام فيها ، فإن الإسلام دين حرية وحياة ، لا دين قيود وسدود . والذين ردوا ذلك كله للإسلام أخطأوا خطأ شديداً ، وببغى

— كما قلنا — أن نفرق بين الإسلام — كمقيدة ومبادئ وشريعة — وتصرفات المسلمين ، ففي أحيان كثيرة يتصرف المسلمون عن خطأ ويحسبون ويحسب من ينظر إليهم أن تصرفهم صادر عن الإسلام .

وفيما عدا ذلك عاشت النساء في نطاق أسرهن حياةً كريمةً يسودها الاحترام والحب سواء من الزوج أو من الأولاد أو من بقية الأقارب . ولقد عاشت المرأة فيما كان يعرف بالحريم ، وهو الجزء من البيت الذي لا يسمح للغرباء بولوجه . وليس من الضروري — كما يظن البعض — أن يكون الحريم مأوى لعدد من النساء يتبعن رجلاً واحداً عن طريق الزواج أو التسترى كما تزعم التصورات الغربية للحياة في المجتمعات الإسلامية .

ولقد وجدت نساء الأسر — ما بين شابات وغير شابات — وسائل شتى للتسلية والتفريج عن النفس ، هالفت في تشكيلات الزواج وأعراسه وأطلن مدتها وأكثرن من رسومها تصميماً للوقت ، وبالفن كذلك في تشكيلات الوفيات ، من المآتم الطويلة ومسابقات مرور الأسبوع الأول أو الأربعين يوماً الأولى على الوفاة ، وخرجن إلى المقابر واتخذن فيها العرف بحجة مصالحة الميت العزيز من وقت لآخر ، وما هي في الحقيقة إلا وسائل تسلية وهروب من الفراغ والملل . وقل مثل ذلك في زيارة أضرحة الأولياء والصالحين ، فكل هذه حركة فيها ذهاب ورجوع وخروج إلى الطريق ورؤية الناس والتخلص من ساعات طويلة من النهار ، وفي أحيان كثيرة تكون زيارة الضريح آخر ما يقصدهن إليه . وابتكرن حملات « الزار » ، بقصد الشفاء من الأمراض النفسية أو الكآبة وما إلى ذلك . فكن يظمن حفلات كبرى فيها موسيقى ورقص وحركة وغناء وتصعيد لشوق النفس إلى الحركة والتسلية .

وبرغم القيود الكثيرة التي فرضتها على المرأة عادات وتقاليد وظروف لا تمت إلى الإسلام بصلة ، كان للمرأة المسلمة دائماً مكانها الكبير في المجتمع ، فهي ربة البيت وسيدة الأسرة ، وسلطانها كبير في كل ما يتعلق بشؤون الأسرة . ومن هنا كان أثرها في المجتمع كله ظاهراً قوياً ، فما أكثر المساجد ومنشآت البر والإحسان التي أنشأتها نساء ووهبها للمجتمع ، وما أعظم المكان الذي كانت تحتله المرأة في الشعر والعن عامة . ولم يخل عصر من نساء عالمات أو عابدات متصوفات كان هن في المجتمع كله المكانة الكبرى .

ويكفي أن نصرب لذلك مثالين بأحدهما من أقصى العالم الإسلامي عرباً وشرقاً :  
فإن مسجد القرويين الذي نشأت على أساسه جامعة القرويين — أقدم جامعات العالم  
الإسلامي — كان من إنشاء سيدة جليلة شريفة هي فاطمة الفهريّة ، من سيدات  
البيت الإدريسي العلوي ؛ وفي أجرا ، في شمال الهند ، يقوم ضريح تذكاري جليل  
هو « التاج محل » الذي بناه السلطان شاه جهان لذكرى زوجته أرجند باويكيم  
التي غالها الموت وهي في شرح الشباب على ما ذكرناه .

### المسلمون جميعاً أمة واحدة :

وقد تشابهت شعوب الإسلام في معظم الخصائص الاجتماعية في عالمها الواسع ،  
لا تعرف حدوداً بين قطر وقطر . ولم يقتصر الشعور بذلك على المتقين الذين كان  
لديهم تصور — دقيق أو غير دقيق — لاتساع العالم الإسلامي ووحدته ، بل ربما  
كان أفراد الشعب العاديين أكثر تسليماً بحقيقة وحدة العالم الإسلامي من سواهم ،  
فإذا نزل القاهرة أو دمشق أو بغداد أو مكة رجل من المغرب أو الأندلس عدّه الناس  
أحاً لهم ، ما دام مسلماً ، ولم يظفروا إليه على أنه أجسي عنهم ، وبخاصة إذا كان  
من أهل العلم أو من أهل التقوى والصلاح ، وحتى فارق اللغة لم يكن يأبه له  
أحد ، لأن الناس كانوا يعرفون أن المسلمين أمم وشعوب شتى : فيهم الأتراك  
والإيرانيون والهنود ومن إليهم من يغلب أنهم لا يعرفون من العربية إلا القليل ، وفيهم  
المعاري أو الأندلسيون الذين يتكلمون لهجات خاصة بهم من العربية ، وكذلك لون  
البشرة لم يكن يستلتم الاهتمام ، ففي القاهرة مثلاً كانت جاليات العانيين  
والسودانيين كبيرة ، وكان للفانين سفير يتحدث باسمهم لدى السلطان ، وقد عرف  
ابن خلدون أحد أولئك السفراء وتحدث عنه ووصفه بصعات الدين والفضيلة  
والعفة .

وكانت القاعدة عند الجماعات الإسلامية جميعاً أنه مادام النزيل العربي يقول  
إنه مسلم فهو مصدق فيما يقول ، وهو أخ لهم في الدين والوطن ، فكانوا لا يحثون  
وراءه ولا يشكون في أمره ، وقد استغل ذلك الكثيرون من رحالة الغرب الذين  
اندسوا بين المسلمين لكي يكشفوا أسرار حياتهم وينقلوها إلى أبناء جلدتهم ، ومن  
أولئك كان نفر كبير من الكارهين للإسلام الذين ألحقوا أضراراً كبيرة بالمتجمع  
الإسلامي وأدعوا أخبأراً وأوصافاً سيئة كاذبة عن الإسلام وشعوبه . ويزعم هذا

النعم من الواعلين في بلاد الإسلام أنهم استطاعوا خداع من اتصلوا بهم في بلادنا ،  
لأنهم كانوا يتقنون اللغة العربية ويحسنون التطاهر بالإسلام . ولم يكونوا قط بحاجة  
إلى هذا الادعاء ، فإن المسلمين لا يشترطون إتقان اللغة العربية في المسلم ، وهم  
يحسنون الظن بكل من يقرر أنه مسلم وينطق بالشهادتين . وكل إنسان بعد ذلك  
موكول إلى ضميره ونيته . ومن أكبر أمثلة هؤلاء الرحالة دومنغو باديا Domingo  
Badia المعروف باسم « على بك العباسي » ، فهو قد زار العالم العربي وطاف  
ببناحيه فيما بين سنتي ١٨٠٣ م و ١٨٠٧ م ، وعاد إلى موطنه مدينة برشلونة  
بإسبانيا ونشر رحلة فيها من المعالطات شيء كثير .

وتتجلى ظاهرة وحدة العالم الإسلامي بأجلى صورها في كتب الرحالة ، من أمثال  
أبي القاسم بن حوقل الصيصي وشمس الدين المقدسي وعلى بن سعيد المغربي وأبي  
الحسين بن جبير وأبي عبد الله محمد بن بطوطة . فهؤلاء جميعاً يتحدثون عن عالمتنا  
الإسلامية الواسعة ويخبروننا كيف تنقلوا بين بلادهم دون أن يشير أحد منهم إلى حدود  
أو اختلاف في الأوطان أو الجنسيات . ويستثنى من ذلك ما عده عدهم من الكلام  
عما كان الناس يلقونه من رجال المكوس في داخل البلاد وعلى حدودها . ولكن  
الحقيقة أن وجود رجال المكوس ( الجمارك ) على الحدود لم يكن يعنى أن العالم  
الإسلامي مقسم إلى بلاد شتى ، وإنما كان وجودهم جبراً من التنظيمات المالية العامة  
للدول في العصور الوسطى ، وهي نظم كانت بعضها إلى الناس ، لأن الموكلين  
بشئون المال في دولنا الماضية كانوا يرصدون جباة الضرائب على كل خطوة من الطرق  
على حدود البلاد وفي داخلها بدافع الجشع وسوء التدبير .

وهذا الشعور بالوحدة الإسلامية هو الذي يملأ نفوسنا ، ونحن نقرأ كتاب الرحالة  
الطليعة المعاصر العجيب أبي عبد الله محمد بن بطوطة الذي ولد في طنجة سنة  
٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م ، وما إن بلغ العشرين من عمره حتى بدأ سلسلة رحلات طويلة  
لم يسبقه إلى مثلها أحد . فقد حج أربع مرات وزار في رحلاته تونس وليبيا ومصر  
والعراق وإيران والأناضول وشبه جزيرة القرم . وفي إحدى رحلاته صحب قافلة  
إحدى الأميرات البيزنطيات ( الروميات ) ودخل معها القسطنطينية ، ومن ثم انتقل  
شمالاً فدخل روسيا ووصل إلى قرب مدينة كييف . وبدلاً من أن يعود إلى بلاده  
بعد هذا السفر الطويل عبر بلاد القوقاز ودخل آذربيجان ثم بلاد ما وراء النهر وأطال  
المقام في بخارى ، وانتقل إلى أفغانستان ، ودخل الهند عن طريق ممر خير ، فوصل

حوض الكنج والبراهماوترا ووصل دهلí عاصمة سلاطين المغول ، حيث طال مقامه وتولى القضاء . ثم سمعت نفسه الاستقرار ، فسار حتى بلغ مدراس على الساحل الشرقى للهند ، ومن هناك ركب البحر فنزل بجزر ملديف إلى الجنوب الغربى من جزيرة سيلان وعمل هناك قاضيا بعض الوقت . ثم انتقل إلى جزيرة سيلان ، وبعد راحة يسيرة ركب البحر ثانياً وعاد إلى بلاد البنغال ، ومنها أبحر مرة أخرى متجها نحو الجنوب الشرقى ، فزار ملقا في بلاد الملايو ، وواصل رحلته البحرية حتى دخل كانتون في جنوب الصين ، وهناك أقام في جاليها الإسلامية رماً طويلاً .

ثم عاد أدراجه فمر بسومطرة ، ومن هناك انجذبت به السفينة إلى شرق أفريقيا ، فزار زنجبار ، ثم اخترق أفريقيا الاستوائية والمدارية ووصل إلى تمبوكتو أكبر سوق تجارية في حوض النيجر الأوسط لذلك العهد . ومن هناك عبر الصحراء الكبرى فدخل المغرب الأقصى من الجنوب ، ثم وصل إلى مراکش ، ومضى في سيره حتى وصل إلى فاس ، وهناك ألقى عصا السيار ، وجعل يتحدث عن رحلاته العجيبة التى استغرقت ستاً وعشرين سنة ، فأمر السلطان المرينى أحد كتّابه بأن يستملى ابن بطوطة وصف الرحلة ويسجله ، فكان لنا من ذلك كتاب « نعمة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وهو أمتع وصف رحلة قام بها إنسان بعد ماركوبولو الرحالة اليندى الأشهر ، فقد توفى ماركوبولو سنة ١٣٢٤ م ، وتوفى ابن بطوطة سنة ١٣٧٨ م .

وقد وقفنا باين بطوطة هذه الوقفة الطويلة بعض الشيء ، لأن وصف رحلته يقدم لنا برهاناً ناصحاً على حقيقتين مهماتنا :

الحقيقة الأولى : أنه يقول إنه لم يمر في هذه الرحلة الطويلة إلا بأهم وجاليات إسلامية ، ولم يطلع عليه الفجر في يوم من أيام الرحلة إلا على أذان المؤذن ، ولم ينم مرة إلا بعد صلاة العشاء في جامع ، فرحلته ترسم لنا الإطار الواسع لعالم الإسلام الواحد في القرن الرابع عشر الميلادى .

والحقيقة الثانية : أنه يقرر أنه لم يشعر بأنه غريب في أى بلد من هذه البلاد التى نراها ، على كثرتها وتباعد ما بينها ، بل لقد تأهل هذا الرجل — أى تزوج — في كثير من هذه البلاد ، فكانه أعطى برحلته تلك برهاناً عملياً على أن أمة الإسلام في العالم كله أمة واحدة .



ولا يمسح الإنسان ، وهو يقرأ وصف هذه الرحلة ، إلا أن يشعر بالإكبار نحو الإسلام الذى نشأ فى بلد صغير ، هو مكة فى وسط الصحراء ، ومن هناك اتسع وعبر الرمال والفيافي والسهول والجبال والبحار والمحيطات ، وأنشأ لنفسه هذا العالم الواسع الذى يسميه الرحالة الجعراوى المقدسى « مملكة الإسلام » . والمقدسى لا يكف فى صفحات كتابه عن الفخر بمملكة الإسلام هذه التى طاف بأرجائها وزار نواحيها وشعر فى كل رحلته بأنها مملكته هو ، ومملكة كل مسلم ، ووطن كل موحد بالله شاهدي برسالة محمد ﷺ .

وابن بطوطة — برحلاته تلك — إما كان يضيف خيوطاً إلى ذلك النسيج الضخم الذى يتكون منه العالم الإسلامى ، فالحقيقة أن الذين صنعوا هذا العالم الإسلامى هم : محمد — عليه الصلاة والسلام — الذى وضع أساس الجماعة الإسلامية فى المدينة ، ثم جاء من بعده الخلفاء الراشدون وحلفاء بنى أمية ورجال بعض الدول الإسلامية الفاتحة التى نحدنا عنها ، وأتم البناء ووسع مده وأضاف عمقاً إلى ذلك العالم الإسلامى الدعاة والصوفية المجاهدون وأهل الطرق والتجار ، ولكن الذين ربطوا أجزاءه بعضها إلى بعض وشدوها برباط اللغة الواحدة والعلم الواحد وعمقوا مفهوم الوحدة لدى الناس ، كانوا هم أهل الرحلة من العلماء وطلاب العلم وأهل الرحلة من الحجاج والصالحين والأولياء ، ثم أهل الرحلة من التجار والملاحين .

فأما الحجاج فقد كانت قوافلهم تشق أرجاء ذلك العالم الإسلامى فى مسيرة دائمة لا تتوقف ولا تبالى بالعقبات الطبيعية من جبال وصحارى وبحار ، ولا تترامى بسبب أخطار الحروب والقتال والفتن ، فقد كان حجاج بيت الله الحرام ، من الأندلس والمغرب والسودان والصين والملايو ، يخرجون فى رحلة الحج قبل مواعده بعام أو أكثر أو أقل ، ومعنى هذا أنه — فى كل وقت تقريباً — كانت هناك قوافل حجاج تقصد بيت الله الحرام أو تعود منه ، ألوفا بعد ألوف من الناس يخرجون من أطراف الأرض الأربعة ، ووجهتهم بيت الله الأكرم ، وهم فى مرورهم بالمدن والواحات يذكرون الناس بوحدة الدين التى تجمع بعضهم إلى بعض . والكثيرون منهم كانوا يسبقون بعد الحج أينما شاعوا من بلاد الإسلام .

فكان قوافل الحج كانت أسلحة محاربت قوية تشق الأرض الإسلامية وتقلب تربتها وتأذن لشمس العقيدة فى أن تحللها فى عمق وتبعث فيها الحياة . وهذا — ولا

شك — كان في تقدير الخالق سبحانه حينما فرض على أمة الإسلام الحج إلى بيته الحرام ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا مِنَّمِ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَكَْامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَوَائِسَ الْفَقِيرِ ﴾ ( الحج ، آيتا ٢٧ و ٢٨ )

أما طلاب العلم فلم يكفوا عن الرحلة قط في طلب العلم وحضور مجالس العلماء ، وكان يكفى أن يظهر محدث جليل في بلد مثل بخارى أو تُستَر حتى تجد الطلاب من الأندلس والمغرب ومصر واليمن راحلين إليه للسمع عنه ، وكان أهل العلم في رحلة دائمة ذاهبين من بلد إلى بلد ومتنقلين من مجلس علم إلى مجلس علم ، ناسحين برحلاتهم خيوطاً جديدة في نسيج عالمنا الإسلامي . وكان طلاب العلم هؤلاء أوفاء كثيرة عمقوا برحلتهم شعور الناس في العالم الإسلامي الشاسع بأنه عالم واحد في الدين والفكر واللغة ، فهم مسلمون عرب في مصر ، وهم مسلمون عرب في سمرقند وفي تمبكتو ، والناس يروهم ويتصلون بهم ويمحسون — وهم يتحدثون إليهم — أنهم بالفعل أعضاء أسرة ضخمة واحدة هي أسرة الإسلام .

وقريب من هذا كان نصيب التجار والملاحين وبخاصة من أهل اليمن وجنوب الجزيرة العربية وشواطئ الخليج العربي ، فهؤلاء الملاحون المهرة حملوا راية الإسلام إلى أرض بعيدة في شرق أفريقيا وجنوب آسيا وجنوبها الشرق . وكانت سفنهم الجميلة الصغيرة — نسيا — تحمل للمسلمين من شاطئ ومن ميناء ميناء ، فتؤكد بذلك وحدة « عالم الإسلام » . وكم من ملاح حسن الإيمان أسلم على يده العشرات من أهل أفريقية وآسيا لأنه ضرب لهم مثلاً صالحاً بخلقه الطيب ومعاملته الشريفة ، وكم من تاجر بسيط نزل بجزيرة نائية في المحيط — مثل جزيرة سيشل أو موريس — ليبيع ويشترى ، وراه الناس يصل ، فاستفسروه عن دينه ، فحدثهم عنه فأسلموا على يديه ، فربح بعبادة الناس أضعاف ما كسب من البيع والشراء .

أما الصالحون والأولياء فإنهم عمقوا الإيمان بالإسلام كما ذكرنا ومدوا له الجذور البعيدة في الجماهير . ولا شك في أن أولئك الصالحاء — الذين تقوم قبورهم وأضرحتهم ما بين كبيرة وصغيرة في نواحي العالم الإسلامي كله — قد قاموا بوظيفة دينية وحضارية واجتماعية كبرى في أزمانهم وما بعدها .

هؤلاء جميعاً نسجوا في صبر طويل وعمل دؤوب نسيج ذلك العالم الإسلامي الواسع الذي نعيش فيه اليوم ، وهم جميعاً من صميم أمة الإسلام الواحدة .

غير أن شعور الناس في العالم الإسلامي بسمة عللهم وبأنه معظم المعمور ( على حسب علمهم ) أنهم ثقة بالنفس واطمئناناً إلى المصير أعاناهم على الثبات أمام من كانت جديرة بأن تزلزل قلوب البشر . وفي الغرب المسيحي وفي العالم البوذي كان القساوسة والكهنة هم الذين يشعرون قلوب الناس في أوقات الخن ، أما في عالم الإسلام — حيث لا قساوسة ولا كهنة — فكان هذا الشعور باتساع رقعة الإسلام وعظمة أمة محمد ﷺ هو الذي يثبت القلوب ويقوى الثقة بالنفوس ويؤكد للناس أنه مهما حدث فإن أمة الإسلام بخير .

على أن المسلمين أسرفوا في هذا الشعور ، حتى إنهم لم يحفلوا بالخطر الغربي عندما ظهر وأخذ يغير على بلادهم . وكان لا بد من أن يمر وقت طويل لكي يفيق الناس من الاطمئنان المطلق الذي أسلمهم إلى النوم ، ويمزلوا إلى عالم الواقع ويواجهوا التحدي الغربي بكل أخطاره .

### أهل الذمة في المجتمع الإسلامي :

أشرنا — في سياق كلامنا عن انتشار الإسلام — إلى أن المسلمين لم يحاولوا إرغام أحد على اعتناق الإسلام ، بل وكلوا الناس في ذلك إلى اقتناعهم ، وقلنا إن هذه السياسة زادت إقبال الناس عليه وحببتهم فيه ، فدخلوا فيه أفواجا في كل البلاد التي دخلت في إطار مملكة الإسلام . ولكن بقيت في كل بلد إسلامي جماعات ممن لم يصل الإيمان إلى قلوبهم أو فضلوا البقاء على أديانهم السابقة .

أما الذين أحبوا أن يظلوا على الوثنية فإن الإسلام لم يقبل منهم ذلك ، وكان لابد أن يدخلوا دين الله . وأما اليهود والنصارى فقد جعلهم تسامح الإسلام ، وسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم ومواصلة حياتهم داخل الجماعة الإسلامية ، باعتبار أنهم « أهل ذمة » أي يعيشون في رعاية الجماعة الإسلامية ، مع أداء الجزية في مقابل ما تحموا به من حقوق المواطنة في الوطن الإسلامي الكبير ، وكذلك لقاء الحماية التي أضفاها عليهم الإسلام ، والأمان الذي نعموا به في ظله ، وفي مقابل إعفائهم من الواجبات الحربية للدفاع عن أرض الإسلام .

وقد منحهم القرآن الكريم هذا الحق وفصله فقهاء المسلمين ووضعوا القواعد الشرعية التي تنظم علاقة اليهود والنصارى بالجماعات الإسلامية ، وكذلك وضع رجال النول نظم تطبيق هذه المعاملة عليهم . ونجد ذلك كله مفصلاً في كتب « النظم الإسلامية » ، مثل « كتاب الأموال » لأبي عبد القاسم بن سلام ، و « كتاب الخراج » لأبي يوسف يعقوب قاضي الرشيد ، وكتاب « الخراج » لقدامة ابن جعفر ، وكتاب « الأحكام السلطانية » لأبي الحسن علي الماوردي ، وغيرهم كثيرون . وأساس التسامح مع أهل الذمة هو أنهم « أهل كتاب » ، أي أهل ديانة سماوية لها كتاب منزل . ومع أن الإسلام لا يقر بصحة نصوص الكتب المقدسة التي تداولها النصارى واليهود إلا أنه عدهم « أهل كتاب » يؤمنون بالله سبحانه وتعالى . وقد انضم إلى اليهود والنصارى في تلك المعاملة جماعة « الصابئة » الذين كانوا يعيشون في العراق وفي نواح أخرى من دولة الإسلام ، إذ طلبوا المعاملة بالمثل وقالوا إن لديهم كتاباً منزلاً ، وقد سلم لهم الفقهاء بالحق في تلك المعاملة على أساس أن « الصابئين » المذكورون في القرآن الكريم مراراً إلى جلب اليهود والنصارى .

وفيما عدا الجزيرة العربية لم يخل بلد إسلامي من جماعات كبيرة أو صغيرة من المسيحيين وأعداد أصغر من اليهود . وفي بعض البلاد ، كمصر ، يكون السكان المسيحيون — وهم الأقباط — واحداً على أحد عشر من مجموع السكان ، وكانت نسبتهم في الشام قريبة من ذلك قبل الحروب الصليبية ، ثم زادوا على هذه النسبة في أثناء تلك الحروب وبعدها ، وفي الأندلس كانت نسبتهم عالية حتى إن أعدادهم كانت تعادل أعداد المسلمين في بعض النواحي مثل طليطلة والأشبونة ، أما في المغرب كله فقد تلاشوا تماماً بعد الفتح الإسلامي ، وفي العراق كانت هناك جماعات منهم معظمهم من « النساطرة » من بقايا نصارى الحيرة وحران . وكان هناك الأرمن في شمالي العراق ، ومسيحياتهم بقية من سيطرة الدولة البيزنطية على تلك النواحي .

أما من يوجد من للمسيحيين في بقية بلاد المسلمين — مثل السودان وإيران والهند وإندونيسيا — فهم جماعات محدثة نشأت في ظل الاستعمار الغربي في العصور الحديثة . وفي الكثير من بلاد أفريقية اليوم يسير الإسلام والنصرانية جنباً إلى جنب ، لأنهما دخلا وانتشرا في تواريخ متفاوتة في العصور الحديثة ، وأمثلة ذلك نجد في ملاوي ورامبيا والكونغو وكينشاسا وأوغندا وغيرها . ففي هذه البلاد يرجع دخول

الإسلام في صورة ظاهرة إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . أما بلاد أفريقية المدارية وبعض بلاد أفريقية الاستوائية ، مثل الكاميرون والجاون والكونغو برازافيل ، فقد دخل الإسلام فيها قبل المسيحية بزمان طويل ، ولكنه لم يصل إلى أن يصبح دين الغالبية من السكان إلا في نيجيريا وتشاد والنيجر وغانا وتوجو وداهومى وغينيا والسنغال . وفي أفريقية المدارية بلاد كل أهلها مسلمون ، مثل الصومال ومالى وموريتانيا . ووضع الإسلام بالنسبة للمسيحية في هذه البلاد كلها في حاجة إلى أن يُدرس من الوجهة العملية دراسة إحصائية واجتماعية .

وكان « أهل الذمة » يعيشون في بلاد الإسلام في أمان وفق نظام ديني ومالي خاص ومعروف وهو نظام « أهل الذمة » . ولا ينبغي أن ننسى أن المسيحيين من أهل البلاد الإسلامية يعدون من الناحية القانونية مواطنين أصلاء في تلك البلاد ، إلا ما كان من هجرة بعض جماعات الساطرة من إيران أو من أراضي الدولة البيزنطية في العراق ، فهؤلاء كانوا جالية أجنبية لمدة طويلة .

وقد اندمجت الجماعات المسيحية من أهل البلاد الإسلامية في الحياة الإسلامية العربية العامة ، فاستعربوا لساناً وفكراً ، حتى كتبهم المقدسة تُرجمت إلى العربية . وبهذه اللغة أُقيمت الصلوات في الكنائس والمعابد . وعلى الرغم مما عرفت به الجماعات اليهودية من الانفصال عن المجتمعات التي تعيش فيها ، فقد اندمج يهود المجتمع الإسلامي في بقية السكان واختلطوا بهم واستعربوا في كل شيء ، وقد دلت مجموعات الوثائق اليهودية المعروفة باسم « الجنيزة » ( وقد عثر عليها في معابد اليهود ومنشأتهم الخيرية الخاصة بجماعتهم ، كاللاجيء وأمكنة الاجتماع في مصر وفلسطين بصفة خاصة ) ، دلت هذه الحقائق على أن يهود البلاد الإسلامية كانوا بالفعل قد استعربوا تماماً واندمجوا في الحياة العامة حولهم . ولم يبدأ انفصالهم عن السكان إلا في العصر الحديث في ظل الاستعمار عندما شعروا بأن السيادة السياسية أصبحت في أيدي الأوروبيين .

ونعود إلى وثائق « الجنيزة » ، فنقول إنها تؤكد ما كنا نعرفه من أن يهود البلاد العربية والإسلامية كانوا يعيشون في تسامح تام حتى وصلوا إلى مكانة طيبة من العنى والجاء وشغلوا الوظائف الرئيسية ، لا في بلاد الأندلس وحنها بل في كثير من البلاد الإسلامية الأخرى . ولم يصل اليهود إلى مثل هذا الوضع في أى مجتمع غير المجتمع

الإسلامى فى العصور القديمة والوسطى . حينما كانوا يُضطهدون أشد الاضطهاد فى العرب ويرغمون على الحياة فى أحيائهم التى عرفت بالخارات أو « الحيتو » فإن اليهود فى البلاد الإسلامية عاشوا أحراراً غير مقيدى إلا بما يلزمهم به النظام العام بصمتهم « أهل ذمة » . وقد قضى الأوروبيون على معظم من كان فى بلادهم من اليهود فى العصور الوسطى ، وهبطوا بالبقية إلى مستوى الأرقاء أو أخرجهوهم من المجتمع وجعلوهم سكاناً يعيشون خارج المدن ويتجمعون قرب أمكنة الأسواق وفى مواضع معينة من الموانئ . ولو أن العرب المسلمين عاملوا اليهود هذه المعاملة لما بقى من اليهود أحد اليوم .

وما يزعمه كتاب اليهود من أنهم ينقسمون إلى شعبين كبيرين : الإشكنازية والسفردية ، وأن الأولين هم من بقايا اليهود القدامى الذين عاشوا فى العرب من أيام الدولة الرومانية وانضمت إليهم بعد ذلك جماعات من يهود بلاد الخزر ، وأن الآخرين — السفرديين — هم الذين عاشوا فى بلاد الإسلام أو هاجروا منها إلى بلاد المغرب ، وما يزعونه كذلك من أن الإشكنازيين أرق وأكثرت تقدماً ، كل هذا غير صحيح ، وقد وضعت عقول الصهيونيين لأغراض سياسية ، أما الحقيقة فهى أن ٩٠٪ من يهود أوروبا أصلهم ممن عاشوا فى بلاد الإسلام — خصوصاً فى الأندلس — هجروا فى ظل الإسلام مما أصاب غيرهم ، ثم انتشروا فى الدنيا . ومعظم اليهود الذين يزعمون أنهم من أصول صقلية أو بولونية أو ألمانية أصلهم البعيد من بلاد المسلمين ثم ادعوا لأنفسهم هذه الأنساب ، ومملكة الخزر اليهودية — التى يُقال إنها ازدهرت فى القرن الثانى عشر الميلادى — أسطورة ولا أساس لها من الصحة .

والحقيقة أن اليهود فى العصور الوسطى لم يجدوا الملجأ والأمان إلا فى بلاد المسلمين ، بفضل تسامح الإسلام ، فسعدوا وكثروا وتمولوا . واليهود الذين هربوا من الاضطهاد المسيحى فى الغرب لجأوا إلى الأندلس ، حيث عاشوا فى أمان ونظموا أنفسهم فى وحدات اجتماعية تسمى فى أحياء خاصة بها فى المدن ، وكان ذلك باختيارهم ، لأن أحداً فى بلاد الإسلام لم يرغم اليهود على أن يعيشوا فى أحياء خاصة . وفى الأندلس بلغ اليهود مركزاً ممتازاً حتى اتخذ منهم عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م ) وزيراً وسفيراً هو حسداى بن شبروط ، وكان منهم نفر من أهل ثقة ابنه الحكم المستنصر ( ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ / ٩٦١ —

٩٧٦ م ) ، مثل إبراهيم بن يعقوب الطليل الذي كان يرسله في مهام كثيرة في أوروبا .

وقد انقلب أولئك اليهود على مسلمي الأندلس دون مبرر ، عندما بدأت كفة الإسلام تشيل هناك ، ودخلوا في خدمة النصارى وعاونوهم على المسلمين الذين تولوا حمايتهم بالأمن ، وهذا من غرائب النفس اليهودية والسلوك اليهودي ، فبينما نجدهم في كتبهم يذكرون فضل المسلمين عليهم وإنقاذهم من الفناء على أيدي القوط في الأندلس ، وبينما نراهم يعلنون طارق بن زياد من أبطال تاريخهم لما كان من إنقاذهم على يديه ، إذا بهم يبررون انقلاب أجيالهم الماضية على المسلمين ، بل يزعمون أنهم غريبون أو أقرب إلى المسيحيين .

وعيناً نحاول أن نفهم السر في عداوة اليهود المتأصلة للعرب ، وهي عداوة لا ترجع إلى ميلاد الصهيونية أو إلى ما قصده ورتبوا له في أيام هذه من العدوان على فلسطين ، فإننا نجد في كتبهم التي كتبت أيام عصر النهضة الأوروبية ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر ، عدا غير طبيعي للعرب والإسلام . وقد علل المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون LOUIS MASSIGNON هذه الظاهرة بأنها راجعة إلى حسد اليهود للعرب على ما بلغوه من المجد واتساع الملك بالإسلام . واليهود يعرفون أنهم أبناء عمومة العرب ، وفي كتبهم المقدسة ما يشير إلى رعم أنهم أقرب إلى الله منهم ، ولهذا فقد أنكروا على العرب أن يختار الله رسوله ﷺ منهم ، وأن يلعوا بدينهم الإسلامي ما بلغوا من اتساع الملك ، في حين أنهم — أي اليهود — كانوا في الخضم إلى آخر القرن التاسع عشر الميلادى . ولهذا فهم يغفرون للبشر جميعاً عدوانهم عليهم وظلمهم لإيهم ، إلا العرب : لا ينسون أن العرب امتازوا عليهم وسادوهم بفضل الإسلام قروناً بعد قرون !

أما المسيحيون من أهل البلاد الإسلامية فقد عاشوا دائماً مواطنين كراماً وقاسموا المسلمين من الحياة وحلوها وظهر من بينهم علماء ومفكرون في كل ميادين الفكر العربي وكتاب وشعراء ، وإذا كانت قد نزلت بهم نوارل أو أصابهم أذى من الحكام فقد نزل بالمسلمين وأصابهم مثل ذلك ، فقد كانت العصور الوسطى المتأخرة عصور ظلم ومتاعب للجميع .

أما ما نقرأ في بعض النصوص من أن للمسيحيين واليهود كانوا يلتزمون بلبس

ملابس معينة يعرفون بها من غيرهم ، فلم يحدث إلا خلال فترات قصيرة على أبهى  
 حكام لم يفهموا الإسلام فهما صحيحاً ، ولم يتشدد المسلمون — بصفة عامة —  
 في أن يشد المسيحيون على أوساطهم ذلك الحزام للسمى « الزنار » ، وحتى في  
 الأوقات التي ألزموا فيها بذلك فإن جمهور المسلمين لم يروا غرابة لو شيئاً عطاءً  
 أن يكون الإنسان مسيحياً . أما ما يسمى بالوصية العُمرية التي تأمر المسلمين بمعاملة  
 أهل الدمة معاملة قاسية فوثيقة مشكوك في أمرها ، ومن المؤكد أنها وضعت في  
 العصور الوسطى المتأخرة وسببت إلى عمر ، لأن عمر لم يتخذ حيال غير المسلمين  
 إلا إجراء واحداً ، وهو إخراجهم من الجزيرة العربية حتى لا يكون في الجزيرة ديان  
 يتصارعان . وكان إخراجهم بعد أن خالفوا ما اتفقوا عليه مع المسلمين ، كما فعل  
 مسيحيو نجران . ولقد كان عمر هو الذي أسرع ليتسلم بيت المقدس بنفسه ، صيانة  
 لمن فيها من المسيحيين وحفاظاً على مزاراتهم وبخاصة كنيسة القيامة . وفي أيام عمر  
 وضعت القواعد العامة لمعاملة أهل الدمة في دولة الإسلام ، ولسنا نجد فيها ما يشبه  
 ما في هذه الوثيقة من الأحكام العقيمة التي يتناقض بعضها مع المعروف من رفق الإسلام  
 وإنسانيته . ومن سوء الحظ أن مثل هذه الوثيقة تؤخذ على أنها وثيقة أصيلة تحدد  
 معاملة الذميين في بلاد الإسلام في كل العصور ، والإسلام وعمر بن الخطاب منها  
 بريهان .

وإن من يقرأ النصوص التاريخية طوال العصور الوسطى ليجد أن المسيحيين كانوا  
 يعيشون في إخاء تام مع المسلمين ، وكانت بين الجانبين علاقات مودة وتعاون تظهر  
 بأجلى صورها في أوساط أهل العلم والطب . فلو أننا تصفحنا كتاباً مثل « طبقات  
 الأطباء » لابن أبي أصيبعة لرأينا كيف كان علماء المسلمين وأطبائهم يتعاونون مع  
 إخوانهم من علماء النصارى واليهود ، ويأخذون عنهم ويقبلون شبانهم تلاميذ لهم ،  
 بل هم كانوا يتعاونون معاً في تأليف الكتب وفي الأبحاث في موضوعات الطب  
 والأدوية خاصة . أما ما كان من الصداقة بين الشعراء وأهل الأدب المسلمين  
 والمسيحيين فأظهر من أن تقف عبده ، ويكفي أن نقرأ كتاباً مثل « شعراء  
 النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعي لنرى كيف نبغ من بين نصارى البلاد  
 العربية والإسلامية عدد ضخم من الشعراء لا تقل مراتب بعضهم عن مراتب أكبر  
 شعرائنا الإسلاميين .



## خلاصة :

حاولنا في هذا الفصل أن نعطي صورة عامة للمجتمع الإسلامي وملاحظه البارزة ، ووقفا طويلا عند بعض ما بدا لنا أنه غير مشرق من تلك الملامح لتعرف إلى حقيقته وبكشفت أسبابه ، فإن الكشف عن الحقائق أو البحث عن الأسباب يظهر لنا أن تلك النواحي غير المشرفة كانت ردود فعل أو راجعة لظروف قاسية ألمت بالمجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى ، وخصوصاً المتأخرة منها ، فإن عامة الناس في تلك العصور غلب عليهم القنور لتشابه الأيام خلال عصور طويلة ، ونشأ عن ذلك اهتمام الناس بصعائر الأمور أو السطحي منها ، وربما كانت تلك الظروف أيضاً هي التي مالت بالناس نحو العنف والقسوة ، بدافع الخوف على النفس والمحافظة على الكيان بكل وسيلة . ومن المعروف أن اليأس وانعدام الأمان يدفعان الإنسان — والكائن الحي عموماً — إلى التصرف بطريقة تخرج به على مألوف ما عهد منه . وعندما تتدهور الظروف حول الإنسان يحبط مستوى تفكيره وتساء ردود الفعل التي تصدر عنه . وهذا هو تفسير مظاهر القسوة التي تقرأ أخبارها في حوليات العالم الإسلامي في عصور الممالك . وهذا أيضاً هو تفسير الفساد الذي شمل رجال الحكومات ومال بهم إلى إهمال الواجب وإلى الرشوة وما إلى ذلك مما ينتج عن الأنانية المطلقة ، وهي مظهر من مظاهر الخوف والشعور بعدم الأمان وقلة الثقة بالنفس وبالعبير وموت الشعور الإنساني .

درسنا في هذا الفصل ست عشرة ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية الإسلامية في العصور الوسطى ، رأينا أنها تُجَنِّل ملامح ذلك المجتمع وخصائصه المميزة له وبخاصة في أواخر العصور الوسطى

فبدأن بالكلام على غلبة الروح الجماعية أو الاجتماعية على كل مظاهر الحياة الإسلامية ، وضرربنا لذلك أمثلة من تفكير الناس في المجتمعات الإسلامية تفكيراً جماعياً في المسائل التي تتعلق بمصالح جماعتهم ، ورددنا ذلك إلى روح الإسلام التي تدعو الناس إلى الترابط والتساند والعمل معاً ، بل إن عبادات الإسلام نفسها عبادات جماعية أو ترمي إلى ربط الناس بعضهم ببعض وتقوية أواصر الأخوة والتعاون بين المسلمين ، وضرربنا لذلك مثلاً بالصلاة .

ثم ناقشنا موضوع بناء المجتمع بصفة عامة ، وبيننا كيف ظهرت الطبقات في مجتمعات البشر ، وكيف أن كل المجتمع الإنساني في العصور القديمة والوسطى كان مجتمعاً طبقياً ينقسم الناس فيه إلى طبقات متحاذية متميزة ، فيما عدا المجتمع الإسلامي الذي امتاز على غيره من المجتمعات بأنه لم يعرف الطبقات ، فكان الناس يعيشون فيه متساوين أمام الله وأمام القانون ومتساوين فيما بينهم ، أي أنهم متساوون في كل النواحي الإنسانية ، وهذا لا يمنع من أن يكون هناك قراء وأغنياء ، وأصحاب جاه وناس مجردون من السلطة والجاه ، وموهوبون وغير موهوبين ، فهذا شيء طبيعي — لا مرمم — في مجتمعات البشر ، ولكن تلك التفاوت في الثروة وحفظ الناس في الحياة لم يؤد قط في المجتمع الإسلامي إلى انقسام الناس إلى طبقات ، حتى الخلفاء والسلاطين وأهل القوة والمال لم يكونوا طبقة متميزة على غيرهم بميزات يعترف بها المجتمع ، كما نجد مثلاً في طبقات النبلاء في أوروبا أو طبقة الساموراي في اليابان أو سادة الحرب War Lords في الصين أو البراهمة في الهند . وبيننا كيف أن الإسلام محا الطبقات تملأ في كل جماعة آمنت به وظلمت نفسها على أساسه ، ووقفنا بعد ذلك وقفة قصيرة عند ظاهرة استقلال الجماعات الإسلامية عن التنظيم السياسية التي حكمتها في العصور الوسطى ، وما أدى إليه من تقوية روح الاعتماد على النفس عن الجماعات .

وشرحنا بعد ذلك كيف أن جملهير الناس التي حيل إليها وبين الاشتراك في السياسة اشتراكاً إيجابياً مباشراً وجدت الطريق إلى السلطان بواسطة الدين والعلم ، فوجد الفقهاء وأهل العلم طريقهم إلى مراكز القوة وحازوا نصيباً كبيراً من السلطان السياسي ، إذ إنه كان منهم القضاة والمعتون وأهل الشورى والوزراء والكتّاب والصوفية والشعراء وأهل الأدب ، وهؤلاء جميعاً كانوا رؤساء الناس وشيوخ المجتمع المعترف برؤاستهم عند الجماهير .

ووقفنا وقفة طويلة عند الصوفية والزهاد وما كان لهم من وظيفة سياسية واجتماعية ، وناقشنا ظاهرة الأولياء وأصحاب الكرامات وبيننا أنها ظاهرة اجتماعية أدت إلى ظهورها ظروف سياسية واجتماعية عامة ، وبيننا أنهم — برغم الرأي الشائع عند المثقفين اليوم — قد قاموا بوظيفة اجتماعية وسياسية لها أهميتها . وعندما اختفت الظروف التي أدت إلى ظهور تلك الطائفة اختفت هي أيضاً .

ونحن قد نينا إلى أن ذلك لا يطبق إلا على عدد قليل من الذين ينتسبون للتصوف ، ولكنهم قصروا عن حال الصوفية المخلصين الصادقين الذين انصرفوا إلى العبادة والمجاهدة والرياضات وأعمال الخير انصرافاً تاماً ، فكانوا بوراً أصاء لأهل عصورهم غياهب الظلام والتأخر أثناء العصور الوسطى والمتأخرة .

وتحدثنا حديثاً مفصلاً عن قطاعي المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، وهما : قطاع المدن وأهلها ، وقطاع الريف وسكانه من الزراعة .

فحدثنا عن المدينة الإسلامية وظروف الحياة فيها والأسباب التي أدت إلى اصمحلال المدن ، وتناولنا في كلامنا أحوال الصنائع ونقائهم .

وفي كلامنا عن المجتمع الريفي تحدثنا عن الفلاحين والظروف القاسية التي عاشوا فيها ، وبيننا كيف استطاعوا برغم ذلك ، أن يقوموا بمشروعاتهم كاملة حيال المجتمع الذي كانوا عماده الاقتصادي ، لأن الاقتصاد في العصور الوسطى كان يعتمد أساساً على الزراعة والزراع ، أما الصناعة فلم تصبح عماداً من عمد الاقتصاد إلا في العصور الحديثة . وأضفنا في أثناء ذلك فقرة قصيرة عن الزراعة وما بلعه المسلمون في ميدانها من علم وتقدم .

وعزونا نخاة المجتمعات الإسلامية الوسيطة من الظروف العصيبة التي مرت بها إلى سلامة الأسرة ، وهي الخلية الأساسية للمجتمع . وبيننا كيف أن الإسلام أحاط الأسرة بسياسة قوية من الحماية والتأمين وجعلتها بحق أساس المجتمع وصخرته الصلبة التي يقوم عليها .

وأضفنا فقرة عن مراتب الناس في المجتمع الإسلامي ، وقلنا إنها ليست طبقات اجتماعية ، وإنما هي تقسيمات على أسس وظيفية أو مالية .

ووقفنا وقفةً طويلة عند المرأة في المجتمع الإسلامي في العصور الوسطى ، وشرحنا كيف أن الحجاب الكثيف والقيود الثقيلة التي فرضت على النساء لم تظهر إلا في العصور الوسطى المتأخرة ، نتيجة لسيادة الجهل وقلة الأمان واضطراب أجهزة الحكم ، وسيطرة أصناف الترك والمغول من الآسيويين الذين تعودوا معاملة المرأة في مجتمعاتهم الأولى على أساس أنها متاع يباع ويشترى .

وتعدنا كذلك عن أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ، وبينا كيف كانوا يعيشون متمتعين بتسامح عظيم مسحهم إياه الإسلام ، وحررت على تطبيقه شعوبه وحكوماته ، وأشرنا إلى أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد في العصور الوسطى الذي استطاعت الأقليات الدينية أن تعيش فيه بسلام . في حين أن شعوب أوروبا لم تكن تسمح لمسلم بالمقام فيها إلا بكل مشقة . أما اليهود الذين عاشوا في أوروبا فقد عاشوا تحت ذل بالغ واضطهاد مستمر على حين عاشوا في سلام وعزة وكرامة في بلاد الإسلام . وأشرنا بهذه المناسبة إلى فضل المسلمين على اليهود ، وكيف أنقذوهم من العناء في أثناء العصور الوسطى ، فكانت النتيجة أن انقلبوا عليهم وأصبحوا الذين أعدائهم مكرهين كل فصل أو جميل للعرب والمسلمين ، وقد ذكرنا لبعض العلماء رأياً في تعليل هذه الظاهرة .

وحتما هذا الفصل بالكلام عن وحدة العالم الإسلامي ، وتعدنا عن أولئك الذين حققوا فكرة الوحدة بين بواحيه وعمقوا مفهومها وأعطوها قوة العقيدة ، وهم الحُجّاج ، وأهل العلم وطلابه ، والرحالة ، والصوفية ، والتجار . وأوصحا الدور الخيوى الذى قامت به هذه الطوائف في تقرير حقيقة وحدة العالم الإسلامى .





## مراجع مختارة

هذا الفصل الذي كتبناه عن ملامح العالم الإسلامى يمكن اعتباره من أوائل المحاولات فى كتابة تاريخ اجتماعى للإسلام ، وقد جمعنا مادته من حشد عظيم من الكتب والمراجع ، لأنه لا توجد كتب خصصت لهذا الموضوع . ومن حسن الحظ أن لدينا فى العصر الحديث دراسات جيدة لتوابع مختلفة من أحوال المجتمعات الإسلامية وتاريخ تطورها ، وسكتفى فيما يلى بذكر أهم الكتب التى تتضمن مادة داخلية فى موضوع المجتمع الإسلامى وملامحه وتطوره .

### أصول :

أهم مرجع فى ذلك الموضوع هو « مقدمة » ابن خلدون المشهورة وطبعاتها كثيرة ، نخص بالذكر منها الطبعة التى أعدها على عبد الواحد واقى مع شروح وتعليقات ضافية ، ونشرها فى القاهرة ابتداء من سنة ١٩٦٢ . ونشر هنا إلى فهارس طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ التى وضعها أسعد داعر ، فهى تعين القارئ على تتبع أفكار ابن خلدون والمؤلفات عن « ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية » كثيرة أهمها كتاب طه حسين بهذا العنوان نفسه ، وكتاب « ابن خلدون وقرائه الفكرى » لـ محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٥ .

ومن المؤلفين الذين يقدمون لنا مادة طيبة عن المجتمع الإسلامى ونظمه تقى الدين المقرئى ، فى كتابه « الخطط » و « إغاثة الأمة بكشف الغمة » . أما « الخطط » مطبعاتها كثيرة ، وأما « إغاثة الأمة » فقد نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال فى القاهرة سنة ١٩٤٠ والكتاب الثانى ، يرغم صغر حجمه ، من أحفل

ذخائر المكتبة العربية بالمعلومات عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للأمم الإسلامية ، وبخاصة مصر في العصور الوسطى .

ويجد القارئ مادة طيبة عن الأحوال الاجتماعية في كتب الأدب الرئيسية مثل : « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهاني ، « والكامل » لأبى العباس المبرد ، و « العقد الفريد » لأبى عمر أحمد بن عبد ربه ، وكتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، مثل « اليخلاء » ، و « البيان والتبيين » وكذلك رسائله الصغيرة مثل « فضل السودان على البيضاء » و « التبصرة في التجارة » و « مناقب الأثرار » و « دم أخلاق الكتاب » .

ومن المراجع التي لا يستغنى عن الإلماع في دراستها من يريد تعرّف أحوال المجتمع الإسلامى مؤلفات أبى الحسن على المسعودى ، وبخاصة « مروج الذهب » ( طبعة باريس مجلدين ١٨٦١ ) . و « التبيين والإشراف » ( طبع في لندن سنة ١٨٧٤ طبعة محققة ، وطبع بعد ذلك مراراً في البلاد العربية ) .

ولكتب الجغرافيين والرحالة أهمية كبرى في هذا المجال ، وسنشير منها إلى :

ابن بطوطة : « تحفة النظار » ، بتحقيق ديفريمرى وساجييتسى ( C DEFREMERY & B. SANGUINETTI ) ، باريس ١٩٢٦ .

ابن جبير : « الرحلة » ، بتحقيق حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

ابن حوقل الصبيعي : « صورة الأرض » في مجلدين ، الطبعة الثانية ، لندن ١٩٤٦ .

ابن رسته : كتاب « الأعلام النفيسة » ، بتحقيق دى غوى ، لندن ١٨٦١ .

الإصطخرى : كتاب « المسالك والممالك » ، بتحقيق دى غوى أيضاً ، لندن ١٩٧٠ .

الشرىف الإدريسى : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، ولم ينشر هذا الذخر القيم في صورة نص متكامل إلى الآن ، ولكن معظم أجزائه نشرت متفرقة ، وترجمت إلى اللغات الأوروبية ، فليبحث القارئ في المكتبات عن الموجود من كتب الشرىف الإدريسى بالعربية وغيرها . واسم الشرىف الإدريسى يكتب بالإفرنجية تارة Edrisi وتارة Idrisi .

عبد النظيف البغدادي : كتاب « الإفادة والاعتبار » ، وهو كتاب صغير حافل بالفائدة وقد نشر مراراً في البلاد العربية وأوروبا .

المقدسي : « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، بتحقيق دى غوى ، لندن ١٨٧٧ .

ولا يستغنى القارىء عن الرجوع إلى الموسوعات العربية الكبرى الثلاث وهي « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري و « صبح الأعشى » للقلقشندي و « نهاية الأرب » للنويري ، وقد نشر من كل منها أجزاء صدرت كلها عن دار الكتب المصرية في القاهرة .

ونشير هنا إلى « كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار » لمؤلف مجهول ، حققه وشربه سعد زغلول عبد الحميد في الإسكندرية سنة ١٩٥٨ ، وكتاب « عاين مصر والقاهرة » لابن ظهيرة ، بتحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩ .

ومن أهم المراجع المعنية بالمادة في موضوعا كتب الأحكام وأهمها « كتاب الأموال » لأبي عبيد القاسم بن سلام ( القاهرة بدون تاريخ ) و « الاحكام السلطانية » للمارودي ، القاهرة ١٨٨٠ ، و « كتاب الخراج » لأبي يوسف يعقوب قاضي الرشيد ( القاهرة ١٨٨٤ ) ، وكتاب « الخراج » لقدامة بن جعفر ، وقد نشرت منه قطعة على يد دى غوى في لندن ١٨٨٩ .

وبعد كتاب أبي الريحان البيروني للسمى « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ( نشره إدوارد سخاو E. SACHAU في لندن سنة ١٨٨٧ م ) من عيون المؤلفات في أحوال أمة الهند خاصة ووسط آسيا عامة ، وقد قدم ملخصاً مختاراً لأهم ما ورد فيه عن أحوال الهند ونظم أهلها نفيس أحمد في كتابه القيم « جهود المسلمين في الجغرافيا » ، وقد ترجمه إلى العربية ونشره مع شروح ضافية محمد فحي عثمان ، القاهرة ، بدون تاريخ .

ونشر هنا إلى عدد من الكتب تجمع أخباراً قصاراً أو طوالاً عن أشخاص معينين أو عن الناس عامة ، وهذه الكتب حافلة بالمعلومات عن تنظيم المجتمع الإسلامي وأحواله ، ومثال ذلك « نشوار المحاضرة » للقاضي المحسن بن علي التوخي ، و « المستجد من معلات الأجواد » له أيضاً ، و « كتاب الوزراء » لأبي هلال

الصالح ، و « رسوم دار الخلافة » له أيضاً ، « وسيرة أحمد بن طولون » للبلوى ،  
و « مرآة الرمان » لسبط بن الجورى ، و « تليس إبليس » لأبى الفرج بن الجورى .  
وهذه كلها أمثلة فحسب ، لأننا فى حاجة إلى أن يعد بيليوغرافيا ( مراجع )  
للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى للأمم الإسلامية ، ولذلك نكتب هنا القدر الآن ،  
ونشير إلى أننا سنذكر عدداً آخر من هذه الكتب فى مراجع الفصل عن التنظيم  
الاقتصادى .

### أبحاث حديثة :

أحمد مختار العبادى : « مشاهدات ابن الخطيب فى المغرب والأندلس » ،  
الإسكندرية ١٩٦٢ .

حسن إبراهيم حسن : العاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والاجتماعية بشكل  
خاص ، القاهرة ١٩٣٣ .

حسين مؤنس : « فجر الأندلس » ، القاهرة ١٩٥٩ .

السيد عبد العزيز سالم : « تاريخ مدينة الحرية الإسلامية » ، بيروت ١٩٦٩ .

سيده إسماعيل الكاشف : « مصر فى فجر الإسلام » ، القاهرة ١٩٤٧ .

محمد الطيب الحجار : « المولى فى العصر الأموى » ، القاهرة ١٩٤٩ .

صالح أحمد العلى : « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن  
المجرى الأول » ، بغداد ١٩٥٣ .

### كتب بغیر العربية :

ARNOLD ( THOMAS ) & GUILAUME ( ALFRED ) : The Legacy Of Islam . oxford 1913 .

وهذا الكتاب يضم مجموعة قيمة من الأبحاث عما وصل إليه المسلمون فى شتى  
نواحي الحضارة البشرية وما خلفوه لغيرهم . ويهنا هنا الفصلان التاليان :

MYSTICISIM By R.A. NICHOLSON & Sir THOMAS ADAMS .

LAW AND SOCIETY By DAVID DE SANTILANA .



- GIBB , HAMILTON A R . Structure Of The Religious Thought Of Islam . London , 1944 .
- KHADDURY , M . : The Nature OF The Moslem State ; In Islamic Culture , 1945
- LAMM : Cotton In Medieval Textiles Of The Near East . Paris , 1937 .
- LeVy , Reuben : An Introduction To The Sociology Of Islam 2 Vols London , 1931 - 1933
- MARCAIS WILLIAM . L'Islam Et La Vie Urbaine . Paris , 1938 .
- MEZ , ADAM : Die Renaissance Des Islam ,

وقد أصبح هذا الكتاب من أهم مراجعنا عن الحضارة الإسلامية بفضل الترجمة الممتازة التي قام بها له محمد عبد الهادي أبو ريدة وشرها في القاهرة في طبعات متوالية ، وقد أعيد طبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٩٦٨ .

TRITTON , S : The Caliphs And Their Non - Moslem Subjects . Oxford 1913

وهذا الكتاب أيضاً أصبح من ذخائر المكتبة التاريخية العربية بفضل الترجمة التي عملها له حسن حشيش وشرها في القاهرة بعنوان : « أهل الدمة في الإسلام » .





الفصل الخامس

التنظيم الاقتصادي





### تجريد :

المصطلحات الاقتصادية — كالتجارة والبيع والشراء والقرص والكسب والخسارة وشركة — كثيرة في القرآن الكريم ، وقد رد بعض الباحثين الغربيين ذلك إلى أن الإسلام ظهر في بيئة تجارية هي البيئة المكية ، ولهذا تأثر بها وكثرت فيه ألفاظ التجارة ومعانيها . وهذا تخريج بعيد عن الصواب ، لأن القرآن لم يزل يبرر للمكيين وحدهم باللعنة المناسبة لهم ، ولم يتأثر بالبيئة التي نزل فيها لأنه أمرل للناس كافة باللعنة التي يضمنها الناس كافة مكيين وغير مكيين ، عربا وغير عرب .

وبما استعمل القرآن هذا المصطلح في بعض الأحيان لأنه واضح يفهمه كل الناس ويؤدى إليهم الفكرة على أحسن صورة . حدد الآيات التالية على سبيل المثال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومسكن طيبة في جنت عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ ( الصف : ١٠ — ١٣ ) فهذه آيات واضحة كل الوضوح يفهم بها الإنسان أنه بإيمانه وجهاده يشبه من يعقد صفقة هو الكاسب فيها كسبا وفضحا لا شك فيه ، وماذا يريد الإنسان أكثر من العيش خائداً في مساكن طيبة في جنت عدن تجري من تحتها الأنهار ، وبالإضافة إلى ذلك يؤتيه الله النصر العزيز والفتح القريب في هذه الدنيا .

ولا بد أن نلاحظ أن القرآن الكريم — في مثل هذه الآيات — يأخذ اللفظ العادى ذا المعنى المادى الحارى بين الناس ، ويرتفع به إلى مدلول معنوى وقيمة روحية

وحلفية ، وهنا نرى مثلاً للسمو الذى يرتفع به مستوى الحياة الإنسانية بفصل الكتاب العزيز .

نستبعد إذن أن يكون نواردها المصطلحات والمفاهيم التجارية في القرآن صدى لبيئة التجارية المكية أو المدنية ، ولكننا لا ننسى أن كثيرين من كبار الصحابة كانوا تجاراً ، فأبو بكر وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، والعباس بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، وأبو سفيان بن حرب ، وغيرهم كانوا من أهل البيع والشراء والقوافل ، بل كان رسول الله ﷺ قبل البعثة تاجراً ، وكان تاجراً أميناً ناجحاً ، وعن طريق أمانته ونجاحه في التجارة تزوج السيدة خديجة وأنشأ لنفسه مالا ومركزاً تجارياً ، فهو ﷺ لم يعتمد على مال السيدة خديجة ولا هو عاش عليه ، كما يحسب بعض الناس ، ولدينا ما يثبت أنه ﷺ عندما تزوجها كان ميسور الحال يعيش في رغد . وعندما مالت نفسه إلى التعب والوحدة ، لما أراد الله إكرامه به من البعثة والرسالة ، لم يصرف عن إدارة شؤنه التجارية ، فكان يقوم بذلك فيما عدا شهر رمضان ، ولم يتوقف عن التجارة إلا بعد البعثة ، إذ انصرف إلى رسالته بقواه كلها ووهبها وقته أجمع .

ولهذا كان — صلوات الله عليه وسلامه — كثيراً ما يستخدم مصطلح التجارة ومفهوماتها في حديثه إلى الناس وشرحه للمسائل لهم ، وعندما التقى أول جماعة من أهل المدينة واستطاع أن يتفق معهم سمي الاتفاق « بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ » ، وكذلك سمي الاتفاق الثاني بينه وبين مثل أهل المدينة قبل الهجرة بسنة واحدة . « والبيعة » هنا معناها الاتفاق الكامل بين الناس . ومن ذلك الحين أصبح الرجل إذا أراد دخول الإسلام « بايع » محمداً ﷺ ، أي عقد معه الاتفاق الكامل ، وشروطه واضحة بيضاء ، فالرجل من جانبه يتبع ما أنزل الله على محمد ﷺ ، وفي مقابل ذلك يهبه الله سواء السبيل في هذه الدنيا ويهبه الجنة في الآخرة ، كما هو واضح من الآيات التي أوردناها آنفاً من سورة الصف .

وليس معنى ذلك أن الدخول في الإسلام أخذ دائماً صورة صفقة مباشرة من هذا النوع ، لأن الغرض من استعمال المصطلح ، أول الأمر ، كان هو تقريب مفهوم الدخول في الدين السماوي لباس لم تكن لديهم فكرة واضحة عن الأدب السماوية وجلال مفرها ومبناها ، إذ إن التدين عند الجاهليين ، حتى عند الموحدتين منهم ،

كان سطحيا من جهة ، وكان الكثيرون يقدسون أصناماً من جهة أخرى ، يعتقدون أنها تقربهم إلى الله . ومن هنا نرى أن الإسلام بمفهومه الرفيع وما تضمنه من قيم روحية كان شيئاً جديداً حدثاً على العرف الجاهلي ، حتى رؤساء المكير ، من أمثال عتبة بن ربيعة والحكم بن هشام — المعروف بأبي جهل — والوليد بن المعيرة ، لم يستطيعوا إدراك تلك المعاني الروحية في القرآن ، وطلوا يفسرون الدعوة المحمدية على طريقتهم الجاهلية ، فحسبوا أن محمداً — ﷺ — كان يريد من وراءها جاهاً ومالاً أو تأييد قومه بني عبد المطلب وبني هاشم ، ولم يستطيعوا تخطي المستوى العقل لأهل مجتمعاتهم إلى آخر حياتهم ، وكان ذلك هو السبب الأكبر في فشلهم أمام الإسلام .

وفي غمار حروب الفتوح وأحداث قيام الدولة انصرف القرشيون — أولئك التجار للمهاجرين — عن التجارة والبيع والشراء ، واشتغلوا بالحرب والسياسة ، ولكن التجارة ظلت أعظم أعمال الرجال وموارد الرزق ، ومن الواضح أن الإسلام — بعد استيلائه على الشام — سيطر على أهم طرق التجارة في العالم ، وعندما امتد بعد ذلك غرباً فضم مصر والمغرب والأندلس وصقلية ، قبض المسلمون على حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكان مجمع تجارة الدنيا . وقد كان للموقع الجغرافي لجزيرة العرب أعظم الأثر في تيسير انتشار الإسلام شرقاً وغرباً ، فهي بطبيعة وضعها تسيطر على بحرين كبيرين هما : البحر الأحمر وبحر العرب ، وعلى خليج هام هو الخليج العربي ، وبامتداد الإسلام إلى الشام والعراق وخران في الشرق — بالإضافة إلى البحر الأبيض المتوسط في الغرب — أصبح المسلمون يملكون قلب العالم المتمدين كله إذ ذاك ، وبشرفون على تجارة تمتد من بحر الهند إلى المحيط الأطلسي ، ودخلت في حوزتهم وتحت مسؤوليتهم معظم الطرق التجارية في الدنيا ، وإذن فإن تجارة العالم أصبحت في أيدي المسلمين .

### التجارة والتجار :

ولهذا كان من الطبيعي أن نجد التجارة قد أصبحت من أكبر موارد الكسب في بلاد الإسلام ، ومن حسن الحظ أن العرب أنفسهم كانوا يتصفون بميراث وملكات تجارية . وإذا كان رؤساء المكيين والقرشيين قد انصرفوا بعد الإسلام إلى السياسة

والحرب ، فإن جمهور الناس في الحجاز كان بطبعه جمهور تجار ، وعندما حدثت الهجرات الكبرى من الجزيرة إلى الأمصار انتقلت جماعات كثيرة من العرب ، من ذوى القدرات التجارية ، إلى البلاد الإسلامية ، وهناك استقرت في المدن ، وأخذت تمارس عملها التجارى على نطاق أوسع بطبيعة الحال . وقد كان اليمنيون وأهل جنوبى جزيرة العرب أكثر اهتماما بالشئون التجارية من المكيين والحجازيين ، فلم يلبثوا أن سيطروا على قطاعات واسعة من النشاط التجارى في نواحي الدولة الإسلامية .

وخلال القرن الثانى الهجرى نرى بوضوح كيف أن التجار اليمنيين والحضارمة والعنانيين كانوا منتشرين في كل مكان . وعندما نتبع العرب الذين هاجروا من الجزيرة إلى الأمصار نلاحظ أن أولئك العرب الجوبيين كانوا يفضلون دائماً الموانئ والمراكز التجارية ، ومهما قيل عن مهارة الإيرانيين أو أهل البحر الأبيض المتوسط في الشئون التجارية ، فإننا نجد أن أولئك العرب استطاعوا منافستهم في ميدان التجارة في كل ناحية من نواحي الدولة الإسلامية ، من الأندلس إلى الهند ، وحيثما قلبا في كتب الرحالة أو الأعمال الأدبية التى تتحدث عن البيئة المحلية ، وجدنا أن أعياء التجار وأصحاب الأموال كانوا في كثير من نواحي الدولة الإسلامية من أصول عربية جنوبية ، بل نلاحظ أنه كانت منهم أسر كاملة تشتمل بالتجارة في نواح شتى وتعاون في ذلك .

وإذا كانت الصناعة قد ظلت في أيدي أصحابها من أهل البلاد ، فإن التجارة كانت دائماً قسمة بينهم وبين العرب . ومن المعروف أن التاجر يربح من السلعة المصنوعة أضعاف ما كان يربحه الصانع نفسه ، لأن الصانع في تلك المصنوع كان يعمل بيده ، وكان تحويله للمادة الخام التى تصل إليه تحويلاً بسيطاً لا يمكنه من أن يبالغ في تقدير الثمن الذى يبيع به ، في حين أن التاجر كان يحمّد على حاجة الناس إلى السلع وصعوبة الحصول عليها في أحيان كثيرة ، بسبب سوء الأحوال واضطراب الظروف السياسية ، فكان يستطيع أن يفرض السعر الذى يريده . ولا بد أن يشير هنا إلى أن التجار كانوا درجات ، من حيث نوع العمل واتساع مده . ومع أن التاجر الكبير صاحب المتجر الواسع كان يحقق أرباحاً أكبر ويحدد بنفسه السعر الذى يبيع به ، فإن التاجر الصغير المتسوق كان هو المسيطر الفعلى على أسواق التجارة وصاحب القول فيما يروج وما لا يروج .



كانت الأقمشة تكوّن معظم التجارة ، وكانت من كل صنف . فقد حمل العالم الإسلامي ، كما قلنا ، بالمدن التي اشتهرت بالنسيج الممتاز من الحرير أو الصوف أو القطن أو الكتان ، ولكن مدن النسيج الكبرى كانت في مصر والشام وإيران واليمن ، أما النسيج العادي الذي يستعمل كل يوم فكان يصنع في كل مكان تقريباً . وكانت المواد التي تصنع منها الأنسجة ترُب كما يلي من حيث الأهمية التجارية : الصوف فالكتان فالقطن فالحرير ، فكان الصوف هو أكثر الأنسجة توافراً في الأسواق ، وكان يدخل في صناعة معظم الأنسجة الأخرى ، بنسب قليلة أو كثيرة ، أما الكتان فكانت زراعته ومعالجته لاستخراج خيوطه شائعة في بلاد كثيرة ، أهمها مصر ، حيث كانت تزرع منه مساحات واسعة من الأراضي ، ثم يجري إعداد وبرته التي تشبه الشعر وتباع خاماً أو منسوجة . وكان القطن معروفاً ، ولكنه كان قطن الشجر أي الذي تنتجه أشجار كبيرة بخلاف الأعواد الحالية التي ابتكرت في العصور الحديثة . ولم يكن الناس قد مهروا في زراعة أشجار القطن أو تهجين أشجار تخرج أقطاناً ذات قيلة طويلة ، ولهذا فعلى الرغم من شهرة القطن وكثرة توارده ذكره في النصوص فإن أُنسجة رزاعته كانت محدودة ، معظمها في الهند ومصر ، ومن مصر انتقل إلى المغرب والأندلس . ويعد القطن من النباتات التي عرفها الأوروبيون وراح استعمالها عندهم عن طريق العرب ، والميزة الكبرى لنسيج القطن في تلك العصور أنه كان سيجاً رخيصاً حيثما توافرت مادته الخام ، فكان ثوب القطن يباع بشم أقل من ثوب الكتان ، على الرغم من توافر الأقمشة الكتانية في كل مكان تقريباً .

أما الحرير فكان استعماله قليلاً ، وكان معروفاً في جزيرة العرب قبل الإسلام ، وقد اشتهرت بسججه عدن ونجران ، ولكنه كان قليل الاستعمال جداً في البلاد العربية قبل الإسلام ، وكان العرب يحملونه إلى بلاد الدولة البيزنطية وإلى حوض البحر الأبيض المتوسط ، حيث كان يجد سوقاً نافقة . ومن الملاحظ أنه كان هناك عروف في البلاد الإسلامية عن استعمال الحرير ، فقد أُر عن النبي ﷺ — أنه رفض أن يلبس جِبْرَةً<sup>(١)</sup> من حرير أهديت له ، كأنه — ﷺ — كان يرى في استعمال الحرير ترفاً يجعل بالرجل التقى أن يتعاشاه . ولكن استعمال النساء للحرير كان شائعاً ، وهنا لا نجد من جانب الفقهاء أي ملاحظة على استعماله . وقد استعمل

(١) الجِبْرَةُ — وran جنبه ثوب يثاق من قطن أو كتان شطوط . «صباح المير» ، ج ١ ص ١١٨

الحرير — برغم ذلك — الكثير من الخلفاء والأمراء وأهل السلطان وسراة الناس ، ومن هنا كانت له سوق نافقة في كل مكان برغم ارتفاع أسعاره .

وفي أول الأمر كانت الدولة البيزنطية تحتكر تجارة الحرير ، لأن الطريق التجارية الرئيسية التي تحملها من بلاد الصين كانت تمر بهضبة إيران فشمالي العراق فأسيا الصغرى ، فلما قامت الحروب بين الدولتين البيزنطية والساسانية قبل الإسلام انقطع طريق هذه التجارة ، وقل الحرير في أسواق أوروبا . وعندما قامت دولة الإسلام ، وبسطت سلطانها على قلب العالم القديم والوسيط ، أصبح طريق البر الذي يمر بإيران مأمونا ، فعاد وصول الحرير بانتظام إلى الدولة البيزنطية وأوروبا ، ولكن الطريق الأهم للحرير كان طريق جزيرة العرب الذي يبدأ عند عدن في الجنوب ويمر باليمن فتهامة فالبحار ويستمر حتى فلسطين والشام ، وقد عرف المكيون قبل الإسلام كيف يحافظون على طريق التجارة هذا ، ويعملونه من أعظم طرق التجارة العالمية ، وجوا من وراء ذلك ثروات واسعة . وقد استمر ذلك بعد الإسلام ، فظل طريق الحجاز طريقاً تجارياً رئيسياً يتنافس طريق إيران فيما يتصل بالحرير ومصنوعات الصين .

أما تربية دودة القز حارح بلاد الصين فلم تحدث إلا في القرن السادس الميلادي على بعض الأقاليم ، والتاسع على أقوال أخرى . فقد تمكن راهبان من إخراج دود القز من الصين ، ومن ثم عمل الناس على تربيته في نواح شتى من البلاد الإسلامية وبلاد الدولة البيزنطية ، وقد اشتهرت بذلك إيران فكانت مراكز نسيجه الكبرى في مدائنها مثل تُستَر ، ومُرو ، والرى ، وهمدان ، وكرمان شاه ، وتبريز ، وشيراز ، وغيرها كثير .

ونشير هنا إلى ما ذكرناه في فصل سابق من أن النسيج كان يعد من عيون الثروة ، وكان الناس يستعملونه كوسيلة في البيع والشراء ، لأن أثمان الأصناف الجيدة منه كانت ثابتة لا تتغير بمرور الوقت ، فكان الناس يذخرون الثياب والأقمشة لوقت الحاجة ، ومن هنا فقد كان يُقال الناس على شراء النسيج بأنواعه مستمراً ، سواء احتاجوا إليه أو لم يحتاجوا ، لأنه كان يعد مقدماً مدخراً ، وبخاصة إذا كان من الأصناف الغالية ذات القيمة الدائمة وكما كان الناس يذخرون الذهب والفضة والحواجر هكذا كانوا يذخرون الثياب الغالية ، وكانوا يثقون بقيمة النسيج الجيد أكثر من ثقتهم بالعملة ، لأن العملة قد تنفش أو تقص أو تبرد ، أما الثوب فظاھر

يستطيع الإنسان فحصه باليد والعين ، وإذا كان يدخل في نسيجه خيوط ذهب وفضة لم تصعب رؤية ذلك ، لأن المعادن غير الفضة والذهب لم يكن قد تقدم فن صياغة الخيوط منها ، إنما كانت الخيوط تصنع منها فقط .

### النشاط التجاري في العالم الإسلامي :

وكان العالم الإسلامي عالماً منتجاً وافر النشاط ، ولو أن النظم الإدارية فيه كانت أصحح مما كانت لتضاعف إنتاجه واتسع نطاق الصناعة والتجارة فيه ، وقد أنتج صناع العرب في كل ميدان تقريباً ، ولم يقصر التجار ما بين صعلوك وكبار في توسيع مدى معاملاتهم التجارية . وعرفوا كيف ينظمون أمورهم المالية فيما بينهم دون حاجة إلى تدخل السلطات ، فتعاملوا بالبيع نقداً ومؤجلاً ومنجماً على أقساط يتفق عليها ، وعرفوا السفائح ، وهي التي نسميها اليوم « الكمبيالات » ، و « الصكوك » التي نعرفها اليوم باسم « الشيكات » ، بل إن لفظ Cheque الإفرنجي عرّف عن لفظ « صك » العربي ، وعرفوا خطابات الصمان والحسابات المفتوحة وغير ذلك من صور التعامل المالي ، وإن لم يعرفوا المصارف أى البنوك ، لأن المصارف لا يمكن أن تقوم إلا برعاية الدولة وضمانها . وكانت ثقة التجار بلوهم قليلة ، لأن رجال الدول كانوا طامعين في أموال التجار دائماً . وجدير بالذكر أن المصارف في البلاد الأوروبية كانت مؤسسات فردية ، ولم تكن تقوم بعمليات واسعة النطاق ، وإنما كان يقام في كل سوق مضادة كبيرة يجلس حولها الصرافون للقيام بالعمليات المالية ، وهذه المضادة هي أصل البنوك الحالية ، لأن الراغب في المعاملة مع الصرافين كان يجلس على كرسي طويل أمام المضادة عرف باسم Bank ، وهذا هو أصل البنوك والمصارف . ولم تكن عمليات الصرف في الأسواق الإسلامية تختلف كثيراً عن ذلك ، ولكنها تطورت في العرب تبعاً لتطور الظروف السياسية العامة ، في حين أنها لم تتطور في بلاد المسلمين لتتوقف الأنظمة السياسية عن التطور .

وكان التجار ينظمون أمور التعامل فيما بينهم ، فيضمن بعضهم بعضاً في بصاعة أو قرض أو دفع مؤجل وما إلى ذلك ، وتتولى النقابات تقديم الصمان اللازم إذا كان التاجر من ذوي الأمانة المعروفة . وفي أحيان كثيرة كان التجار يعقدون معاملات مالية ذات حجم كبير ، وكل منهم يعيش في بلده بعيداً عن الآخر . وقد ذكر

ابن حوقل الرحالة أنه رأى عند تاجر في أودعشت ، في أقصى جنوبى المغرب ، صكاً على تاجر آخر في سجلنامه بمبلغ ٤٢ ألف دينار ، ومع أن ابن حوقل يذكر ذلك كأنه أمر غير عادى ، فإنه في الحقيقة كان شيئاً عادياً بين كبار التجار ، فإنهم كانوا يرسلون البضائع الكثيرة لتباع على دمة التجار في البلاد البعيدة ، ويحتفظ لهم بالثمن عند أصحابهم من التجار حتى يستطيعوا التصرف فيه . وعن طريق التعاون والائتمان هذين استطاع تجار المسلمين أن يقوموا بعمليات واسعة النطاق دون حاجة إلى نقل الذهب والفضة من مكان لمكان .

وجدير بالذكر أن جزءاً كبيراً من العمليات التجارية في العالم الإسلامى كان يتم عن طريق الحاجاج وطلبة العلم والرحالة ، لأن الحاج الذى لا يملك كل تكاليف الرحلة كان يحمل معه من بلده ما يستطيع حمله من البضائع ، فإذا وصل إلى بلد آخر باع بعض ما معه واشترى بجزء من الثمن صنفاً أو أصنافاً من التى يشتهر بها ذلك الموضع ويمضى على نفسه فرق الثمن ، فإذا وصل إلى بلد آخر قام بعملية أخرى من هذا النوع وهكذا . وإذا تصورنا أن أعضاء القافلة كانوا مئات ، وفى بعض الأحيان ألوفاً ، استطعنا أن نكون فكرة عن ضخامة العمليات التى كانت تقوم بها القافلة الواحدة عن طريق العمليات الصغيرة التى ذكرناها . وهذه الطريقة استطاع الكثيرون جداً القيام برحلة الحج وتحمل نفقاتها ، واستطاع كثيرون آخرون القيام برحلات لطلب العلم والسماع على الشيوخ ، فأفادوا غيرهم بذلك واستفادوا . ولا ننسى هنا المثل الشائع الذى يقول : إن الحج زياره وتجارة .

وكانت البضائع — كما ذكرنا آنفاً — تباع في أسواق مخصصة ، فلكل بضاعة السوق الخاص بها ، يقصده من يريد من الناس ، ولكل طائفة من التجار تعمل في صنف معين — كالجلود أو التوابل أو الأقمشة — نقابة ، وتجمع النقابات كلها نقابة كبيرة تسمى « نقابة التجار » ، يرأسها تاجر عظيم ذو مال كثير يعرف باسم « الشاهبندر » ، وهذا الرجل كان دائماً ذا مكانة مرموقة عند أهل الحكم والناس ، فقد كان يتولى تزويد أهل الحكم بما يحتاجون إليه من البضائع وبخاصة العالية منها ، وكان في الوقت نفسه يقوم بخدمة النقابة بالوساطة عند أهل الحكم لرفع الظلم وتخفيف وطأة رجال الإدارة . وكان يساعد « الشاهبندر » عدد من التجار يتولون معه تصريف الأمور الخاصة بطائفة التجار ، وهؤلاء هم الذين كان الناس يلجأون

إلهم للسؤال عن التجار الأجانب ومراكزهم وقدراتهم المالية ومستواهم الحلقى و المعاملة وما إلى ذلك . وكان هذا النظام موجوداً في العالم الإسلامي ، وبفضله نشطت التجارة وتشجع التجار على البيع والشراء . وكذلك كَفَّ الحكام أيديهم عن التجار ، نظراً للموارد التي كانت تعود عليهم من وراء اكتساب ثقة التجار وحسن ظنهم ، ولم يكن يمد يده إلى أموال التجار إلا حاكم قصير النظر .

وكانت نقابات التجار هذه تبدو على أوضح صورها في الموانئ ، حيث كانت النقابة تقوم بإنشاء المخازن للبضائع وإقامة الحراس عليها ، وفي أحيان كثيرة جداً كان التجار في الميناء يتعاونون على بناء السفن .

### طرق التجارة ومراكزها :

كانت طرق التجارة تشق العالم الإسلامي كله في كل اتجاه ، ولكن الطرق لم تكن معبدة أو مرصوفة ، وإنما هي طرق قديمة تعارف الناس سلوكها في الانتقال من بلد لبلد ، فقامت عليها المحلات الخاصة بإيواء المسافرين وتقديم الطعام لهم وما إلى ذلك ، وكل شيء كان يشتهه بالطبع .

وفي البلاد الوفيرة المياه كانت الطرق تسلك مسافات معينة تمر بمدن معروفة . أما في البلاد الصحراوية فإن طرق التجارة كانت تتبع خطوطاً تعينها آبار المياه ، وفي البلاد المأهولة العامرة كان أهل القرى ورجال الدولة يضمنون سلامة القوافل مادامت في مناطقهم ، لقاء مبالغ كانت تؤدى للحراس أو لشيوخ القرى . أما في الطرق الصحراوية فكانت القوافل تسير في أمان القبائل الضاربة على مراحل الطريق ، وكل قبيلة تستقبل القافلة عند حدود مازلها ويرافقها دليل من رجالها حتى تخرج من منارل القبيلة ، لقاء جُمْلٍ يسمى « الخِفْرة » . وفي العادة كانت القوافل تقوم بالعمليات التجارية الخاصة بالقبائل البازلة على الطريق ، فشتري منها الأصناف المنتجة محلياً كالصوف أو النبلج أو الملح أو الجص أو التمر ، وتحضر لها البضائع التي تحتاجها من الخارج كالأسلحة والآنية . وكانت هناك جماعات معروفة من الأدلاء يعرفون الطرق وما فيها في كل ناحية . وكانت القافلة إذا خرجت من ناحية استأجرت دليلاً يسير بها مسافة معينة ، ثم يتولاها دليل آخر وهكذا . وكان الأدلاء معروفين ومضمونين ، إما من ناحية شيوخ القرى وتجارتها أو من ناحية شيوخ القبائل .

وفي بعض الأحيان كانت القوافل تسير في طرق تحرسها الدولة لأنها طرق البريد ، تقوم على مسافلتها « البرُد » ، وهي محطات يقيم فيها موظفون تابعون للدولة موكلون باستقبال خيل البريد والعناية بها وحراسة حامل البريد . وفي بعض الأحيان كانت ترصد فيها خيل لكي يستبدل حامل البريد بالخيل المتعبة أخرى مستريحة . ولكن ذلك كان قليلا . و جدير بالذكر أن البريد كان مخصصا لحمل البريد الدولة فقط وبعض رجالها ، أما ما كان الناس يبعثون به من رسائل فكان الغالب أن يحمله الأفراد ويقوموا به خدمة من بعضهم لبعض .

وكذلك كانت للملاحة البحرية الإسلامية طرقها المعروفة في بحار العالم ، وكانت موافقهم على سواحل البحرين الأبيض المتوسط والأحمر وعلى سواحل بحر العرب ( جنوب الجزيرة العربية ) من أعمر موانئ الدنيا بالنشاط حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وكانت سفن المسلمين تصل إلى الهند والملايو وإندونيسيا والصين والفلبين عن طريق خطوط ملاحة منتظمة معروفة ، فكانت السفن تخرج من عبادان قرب البصرة إلى سيراف إلى هرمز إلى دُيُيل على الساحل الشمالي الغربي للهند ، ثم إلى قاليقوت ( كلكتا ) ، وهنا كان الميناء الكبير الذي تلتقى فيه سفن العرب المقبلة من البصرة ومن عدن . ومن عدن كانت تخرج السفن إلى سواحل شرق أفريقيا فتصل إلى سفالة ( موريتانيا الحالية ) ومدغشقر وزنجبار ( تنزانيا اليوم ) وإلى بر العم ( الصومال الآن ) . وكانت تخرج أيضاً إلى الهند وتلتقي وسفن المسلمين الأخرى في قاليقوت . ومن هناك كانت تبدأ الرحلات إلى بلاد الملايو وجزيرتي جاوة وسومطرة ثم بلاد الصين ، حيث كانت للمسلمين جالية كبيرة في حانقو ( كانتون ) بل وصل تجارهم إلى بكين ( شان هاى ) .

وقد أخرجت بلاد الخليج العربي وبلاد العرب الجنوبية — من عدن إلى حصر موت إلى عمان — أخرجت أعظم ملاحين في تاريخ الإسلام من أمثال سليمان المهري وشهاب الدين أحمد بن ماجد ، ولم يكن هؤلاء ربابة بحر مهرة فحسب ، بل كانوا علماء لهم المؤلفات والدراسات الكثيرة في علوم البحار وفنون الملاحة البحرية ، ولدينا الآن ثروة طائلة من مخطوطات ابن ماجد يبعدها علماء العرب أنفسهم من أحسن ما ألف في علوم البحار حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي .

وأحمد بن ماجد هو الذي دَلَّ الملاحَ البرتغالي فاسكو داجاما على الطريق البحري

من المئدى على شاطئ أفريقية الشرق إلى قاليقوت ، وقاد بنفسه السفن البرتغالية إلى هناك . ولم يكن أحمد بن ماجد يدرى أنه فتح بذلك أبواب بحار آسيا للبرتغاليين ، فجلب بذلك شراً بعيد المدى على تجارة المسلمين وبلادهم في بحار آسيا .

ومن مؤلفات ابن ماجد وغيره من مؤلفيها عرفنا أن العرب هم الذين ابتكروا الإبرة المغناطيسية واستعملوها في الاستدلال على الجهات في البحار . لقد أخذ العرب حجر المغناطيس عن أهل الصين ، ولكهم تنبها إلى أنه إذا أخذت قطعة رقيقة مستطيلة من الحديد الممغنط وعلقت من وسطها بخيط انجبه أحد طرفيها نحو الشمال . فكانوا يصنعون صفيحة رقيقة من ذلك الحديد على هيئة سمكة ويلقونها في الماء فينتجه رأس السمكة نحو الشمال ، وقد قرأنا هذا الوصف عند أبي الحسن على المسعودي في كتابه « مروج الذهب » ، وحدثنا مؤلف عرى آخر هو شمس الدين أحمد بن محمد المقدسي بأن ملاحى المسلمين في بحار آسيا كانوا يستعملون بحرائط بحرية تعرف عندهم باسم « الدفاتر » ، وكانوا يحملون معها كراسات تفسر ما في الحرائط تسمى « راهماجانان » أى المرشحات البحرية .

## المعاملات المالية :

لا يتسع المجال هنا لتفصيل الكلام عن النقود الإسلامية ونظم المعاملات المالية ، فهما بابان واسعان من الأبواب التي أبدت فيها أمة الإسلام والعروبة كفاية ممتازة ، وسكتفى هنا بذكر بعض القبط الأساسية في هذا الميدان الواسع ، ولا يد أن نبه إلى أن الكثير من تفاصيله مازالت قيد البحث والدراسة .

كان أساس المعاملات المالية الديار الذهبى والدرهم المضى . والوزن الأساسى للدينار مثقال من الذهب الخالص ، أى أربعة جرامات وربع الجرام ، وكان وزن الدرهم مثقالاً أيضاً ولكن من الفضة ، والنسبة بين قيمة الدينار وقيمة الدرهم هى النسبة بين قيمتى الذهب والفضة ، وكان من الطبعي أن تختلف هذه النسبة بحسب ما كان في كل من الدرهم والدينار من الفضة والذهب الخالصين . فأما الدينار فما كان الناس يقبلون في عيارها الذهبى أى نقص ، فإذا نقص وزن الدينار حبة واحدة عدوه زيفاً وأخذ الصيارفة بنسبة ما فيه من الذهب ولم يقبلوه على أنه دينار أصلاً . وكان أولئك الصيارفة يعرفون الذهب وعياره بنظرة واحدة أو بحكه بمبرد دقيق .

ولم يكن الناس يشترون الدنانير للتعامل بل للادخار ، فيما عدا الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة . ولهذا فلم تكن الدنانير جارية في الأسواق للتعامل ، وإن كانت أساس النظام النقدي .

أما المعاملة الجارية فكانت بدراهم الفضة ، والفضة لا تحمل التداول في الأيدي إذا خلط بها معدن آخر كالنحاس أو البرونز ، ولهذا فقد كان المفروض أن الدراهم — حتى أعلاها عياراً — ليست صافية ، وكان العرف أن الفضة لابد أن تمثل  $\frac{7}{10}$  من الوزن الصافي للدراهم ، ولهذا فلم تكن نسبة قيمة الدرهم إلى الدينار هي نسبة قيمة المعدنين النقيين أحدهما إلى الآخر ، بل اختلفت بحسب ما في الدرهم من الفضة . وفي أول الأمر قدروا الدينار الصحيح بأربعة عشر درهماً صحيحة ، ثم نقصت قيمة الدراهم الجارية في المعاملات حتى وصلت نسبة الدرهم إلى الدينار إلى ١ : ٢٤ ، وكان هذا هو العرف الجارى إلى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ثم انفرط العقد وهبطت النسبة إلى ١ : ٤٠ ، وربما أكثر ، وأخذت الفضة الصحيحة تختفى من التعامل ، ولم تبق إلا الزيوف .

وعلى أى الأحوال فقد مرت بالعالم كله أزمة في الذهب والفضة بلغت ذروتها في أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . فقد نصبت المناجم المعروفة وأحفى الناس مالدبهم من الذهب والفضة ، ثم انفرجت الأزمة في القرن الحادى عشر بالعثور على مناجم في وسط أوروبا وشمالها ، ونتيجة لفتح المرابطين للطريق إلى أفريقيا المدارية من ناحية الغرب ، وكانت مياه أنهار أفريقيا المدارية تحمل كمية لها قدرها من التبر ، فاعتمد الناس على ذلك المبيع الجديد في بلاد الإسلام ، ولهذا استطاع « المرابطون » و « الموحدون » من بعدهم إصلاح العملة وتصحيح عيارها ، وأصبح الدينار المرابطى من أكثر العملات احتراماً في الشرق والغرب ، وقد عُرف هناك باسم Maravedi أى « مرابطى » ، وجرى به التعامل في العالم كله ، بل لقد عثرنا على دنانير مرابطية في العالم الجديد .

أما « العلوس » — وهى العملة النحاسية — فلم تظهر في العالم الإسلامى إلا أيام السلطان الأيوى الكامل ابن العادل ( ١٢١٨ م — ١٢٣٨ م ) ، فقد كانت نتيجة التفقات الباهظة التى تحملتها مصر والشام للقيام بما احتاج إليه صلاح الدين للقضاء على قوة الصليبيين أن شح الذهب والفضة في الأسواق بصورة عامة ،



واختفت الدراهم من الأسواق ، وسكت حكومة الكامل عملة نحاسية عرفت بالفلوس — واحدها فلس — وطرحتها في الأسواق ، فاختفى المعدنان الفيسان من مجال التعامل تماماً . وباختفائهما اختفى الأساس القانوني لقيمة الفلوس نفسها ، فبينما كان السعر القانوني ٤٨ فلساً للدرهم ، هبطت قيمة الفلوس وسعرها حتى وصل الدرهم إلى ١٥٠ فلساً في العصر المملوكي الأول ، أي أن العملة الجارية هبط سعرها إلى الثلث ، ولم يعد من الممكن أن تهبط أكثر من ذلك ، لأن وزن النحاس مائة وخمسين فلساً كان يساوي أكثر من درهم . ومن حسن الحظ أن قيمة النحاس كمعدن لم تكن قد تكشفت بعد ، وكان أقصى ما يصنعه الناس منه الأواني وبعض أدوات البيوت ، فظلت الفلوس في التداول ، وهي مع هبوط قيمتها وتقل وزنها وسيلة تعامل على أي حال .

ونتيجة لهذا عاد الناس إلى التعامل على أساس المقايضة ، فالفلاحون مثلاً لم يكونوا يحرصون على الحصول على الفلوس ، وإنما كانوا يبادلون محصولاتهم الزراعية بما يحتاجون إليه ، فيأخذون القماش ويدفعون ثمنه قمحاً أو فولاً أو شعيراً أو بيصاً . وأخذت الدولة معظم ضرائبها من الفلاحين محصولات عينية ، ودفعت جانباً كبيراً من الرواتب محاصيل ، وفي بعض الأحيان اتخذت أرغفة الخبز أساساً لتقدير جانب كبير من راتب الموظف ، وقد عرف هذا الجانب بـ « الجراية » ، فكان كل موظف يتقاضى جراية يومية من الخبز إلى جانب راتب من الفلوس

والميزة الاقتصادية الوحيدة في تلك العصور الوسطى المتأخرة ، أي ابتداء من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، هي أن مقادير الذهب والفضة الموجودة في البلاد كانت تظل فيها ، فقد كانت البلاد لا تستورد من الخارج إلا قليلاً من الأشياء ، ولم يحدث الاستيراد على نطاق راد على الإيراد إلا في أواخر الدولة المملوكية الثانية ، عندما توقفت تجارة الهدد فانقطع عن البلاد أكبر مورد للذهب والفضة ، وفي الوقت نفسه استمر المماليك يشترون ممالكهم وسلماً أخرى من بلاد العرب ، كالخديد والأخشاب والنحاس والأسلحة لاستعمالها في حاجاتهم الخاصة ، فتسرب مخزون الذهب والفضة عند المماليك وفي خزائن الدولة بسرعة ، وكانت نتيجة ذلك إفلاس مصر والدولة المملوكية عامة من أواخر القرن الخامس عشر الميلادي . وعندما استولى الأتراك العثمانيون على مصر لم يكن في خزائن المماليك مدخرات من هذين المعدنين النفيسين .

وقد عرف المسلمون كل صور التعامل المالى التى ظهرت فى العصور الحديثة ، ولكن فى صورة بدائية وغير منظمة تنظيمياً تاماً ، فكان الصراف فى السوق يقوم بالكثير من أعمال البنوك الحالية ، فكان يقوم بتغيير العملة سواء أكانت محلية أو أجنبية ، ذهبية أو فضية . وكانت العادة أن التاجر المعروف إذا دخل السوق أودع ما معه من المال لدى أحد الصرافين وأخذ بدله رقاعاً أو أوراقاً عليها طابع ( ختم ) الصراف يسجل فيها الحد الأقصى الذى يستطيع التاجر أن يتعامل به ، وبهذه الرقاع يشتري ما يريد ويعطى البائع منها ما يساوى قيمتها . ويذهب الناس بهذه الرقاع إلى الصراف ليأخذوا قيمتها النقدية ، وكان الناس يفعلون ذلك تفادياً لحمل مقادير كبيرة من العملة معهم أثناء وجودهم فى السوق وتعرضهم للصوص فى الرحمة ، وكذلك ليوفروا الوقت الذى يضيع فى فحص العملة للتأكد من سلامتها فى كل حالة شراء . وفى آخر مدة السوق يعمل التاجر حسابه مع الصراف ويأخذ المتبقى له أو يدفع الرائد عليه ، وهذه أشبه بعمليات « خطابات الضمان » .

وكان « الجهايزة » — جمع جهيد — أوسع ثروة وأقدر من الصرافين على القيام بالعمليات المالية الكبيرة المعقدة . وكان بعض التجار يودعون عند الجهيد عشرات الألوف من الدينار ويأخذون عنها رقاعاً يتعاملون بها على مدى طويل ، وفى بلاد شتى . وكان الجهيد يقوم بعملياته فى بيته أو مكانه ، حيث يعمل فى خدمته كتبة وحاسبون ، وتوجد عنده خزائن . أما الصراف فكان يجلس على منضدة فى السوق . ومعنى ذلك أن « الصراف » كان أدنى مرتبة من « الجهيد » . ومن الممكن اعتبار الجهيد مؤسسة مالية تقوم بعمليات واسعة المدى وترتبط بمؤسسات مماثلة فى بلاد أخرى ، ويقوم بين هذه المؤسسات نظام متعارف فى الصرف والدفع ، فكان التاجر يشتري فى البصرة مثلاً ويدفع الثمن فى صنعاء أو القاهرة عن طريق « الجهايزة » .

وكان الجهايزة يقومون فى بعض الأحيان بالعمليات المالية للأمرء وكبار الحكام والأغنياء ، ممن كان من العسير عليهم أن ينقلوا مبالغ مالية كبيرة من مكان لمكان أو يحتفظوا بأموالهم فى بيوتهم خوفاً من اللصوص أو رجال السلطة ، فكانوا يكتبون « رقاعاً » — أى أوامر صرف — بأى مبلغ ، فيقبض الناس قيمتها من « الجهايد » فى المكان الذى يحدّد فى الرقعة ، ثم يسوّى الرجل حسابه مع الجهايد فيما بعد ، وكان الجهايزة يقومون بمهمة الوكلاء المالىين لكبار التجار والولاة ، فكان التاجر إذا أراد السفر أخذ معه « سَفْتَجَةً » — أى خطاب ضمان — يبين فيها المبلغ الذى

يستطيع التاجر التعامل في حدوده . وبهذه « السفتجة » وفي حدود مبلغها ، يستطيع التاجر أن يشتري ما يشاء ويوقع أوراقاً بقيمة ما يشتري ، ويتولى التجار تسوية الحساب مع الجهيز فيما بعد ، وكان ذلك كله يتم بضمان من نقباء التجار في كل بلد .

وكان محمد بن طنخ الإغشيدي والي مصر « جهابذة » في بغداد ، فكان يكتب للناس سفاتج في الفسطاط ، فيقبضون بمبلغها في بغداد ، وقد اعتمد الرحالة الفارسي ناصر خسرو ( ت حوالي ٤٥٢ هـ ) في بعض رحلاته على خطابات ضمان كتبها تجار من أصدقائه إلى وكلائهم في بلاد بعيدة ليندفعوا له ما يحتاج إليه من المال . وفي بعض البلاد ذات النشاط التجاري الواسع ، كالبحيرة وأصفهان وحلب ، كان للصرافين سوق خاصة تتم فيها كل العمليات المالية التي يحتاج إليها التجار .

وهناك رأي سائد عند مؤرخي العصور الوسطى في العرب يقول إن معظم الجهابذة والصرافين في بلاد الجناح الشرقي لدولة الإسلام كانوا من اليهود . وهذا غير صحيح ، لأن أعظم المالين في العالم الإسلامي كانوا — في الغالب — من المسلمين والمضاربة والبصريين والفرس . فقد اشتهرت هذه الشعوب بالكفاية المالية الممتازة عند تجارها ورجال المال فيها ، وهذا لا يمنع القول بأن بعض الصيارفة والجهابذة في بلاد الإسلام كانوا يهوداً ، ولكم لم يكونوا أمهر من غيرهم ولا كان لهم احتكار لشؤون المال .

وقد كان من المنتظر أن تتركز العمليات المالية في بلاد الإسلام في أيدي الصيارفة واليهود ، بسبب القيود الكثيرة التي وضعها الفقهاء على الصرف — وهو التعامل المالي — ليسدوا أصغر الثغرات على الربا والمرايين ، ولكن الذي حدث أن تجار المسلمين استطاعوا أن يقوموا بكل العمليات المالية دون أن يتعدوا الحدود التي وضعها كتب الفقه . أما في أوروبا فقد سيطر اليهود على أكبر جانب من النشاط التجاري خلال العصور الوسطى ، لأن الكنيسة الكاثوليكية حرمت الربا الفاحش ، وعُدَّت الاشتغال بالتجارة والتعامل المالي من الأمور التي تمس سلامة الإيمان وتشوب إخلاص المؤمن لدينه ، وضيق الخناق على التجار ، حتى وُضِعَ التجار — في بعض الأحيان — في رمة المصومي والخارجين على الدين . وكانت نتيجة ذلك أن ترك ميدان التجارة والمال لليهود زمناً طويلاً ، وكان معظم اليهود الذين تولوا هذه الأعمال

في العرب الأوروي وفي العصور الوسطى من أصول أندلسية ، لأن يهود الأندلس كانوا يعيشون بين المسلمين ، فكانوا متعلمين ؛ في حين أن القليلين من اليهود الذين بقوا في أوروبا من أيام الدولة الرومانية كانوا جهلة غير متعلمين .

وكما تمتع اليمنيون والحصارمة والمعمانيون وأهل الخليج وأهل البصرة والإيرانيون بسمعة مالية عظيمة في شرق المملكة الإسلامية ، فقد امتازت بعض الجامعات الإسلامية في هذا الباب في غربها ، وأهم هؤلاء هم أهل الأندلس ، وبخاصة أهل السواحل الشرقية والجنوبية ، فكان أهل موانئ مرسية والمرية ومالقة وبليسية وبنجانة يسيطرون على أكبر جانب من النشاط التجاري في غرب البحر الأبيض المتوسط كله ، وكانت جالياتهم منتشرة في كل الموانئ الإسلامية حتى طرابلس والإسكندرية ، بل قامت هذه الجاليات بإنشاء موانئ كثيرة في المغرب مثل الجزائر ووهران وتلمسان ومرسى الدجاج . ومن هنا كانت العملة الأندلسية هي العملة السائدة في نواح كثيرة من غرب البحر الأبيض المتوسط لسلامتها وصحة وزنها .

وفي بلاد المغرب اشتهر القيروانيون بمهارتهم في تنظيم القوافل التجارية الضخمة التي تعبر الصحراء إلى أفريقية المداينة . أما أهل السوس — وهو الجزء الجنوبي من المغرب الأقصى — فقد اشتهروا بالمهارة التجارية في كل مكان ، وإليهم يرجع الفضل في نشاط التبادل التجاري بين العالم الإسلامي وشمال الصحراء الكبرى وجنوبها . وما زال السوسيون يتمتعون بهذه السمعة الطيبة إلى الآن في كل نواحي المغرب .

غير أننا ينبغي أن نذكر أن أحجام المعاملات المالية في بلاد الدولة الإسلامية ارتبطت بدرجة الأمان التي استطاعت النظم السياسية السائدة أن توفرها لرعاياها ، ولم تكن تلك الدرجة عالية في معظم الأحيان ، لأن تلك النظم لم تكن عاجزة عن تأمين الأموال والمتاجر فحسب ، بل كان رجالها خطراً على التجارة والأموال ، لا يتورعون عن مد أيديهم إلى أموال الناس — وبخاصة التجار — ظلماً وعدواناً . وما حققه التجار بالنسبة إلى أحوال الدول التي عاشوا في ظلها كان كثيراً جداً ، فقد قاموا — برغم كل شيء — بأكثر نصيب من النشاط الاقتصادي العالمي من منتصف القرن السابع إلى نهاية العصور الوسطى .

وقد نجح على العالم الإسلامي في أواخر العصور الوسطى ركود اقتصادي عام ، يرجع إلى أن مستوى النظم السياسية التي تولت الحكم كان دائماً في هبوط . وإذا

أخذنا الجناح الشرقى للعالم العربى مثلاً ، وهو الجزء الذى حكمته دولة واحدة ابتداء من العصر الماعطى ، أى منذ النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، وجدنا أن الأحوال المالية لمصر والشام والحجاز واليمن كانت أحسن فى العصر الماعطى مما كانت عليه فى العصر الأيوئى الذى تلاه . وهذا بدوره أحسن من العصر المملوكى الأول ، والحال فى هذا الأخير أحسن من أحوال العصر المملوكى الثانى ، فإذا تقدمنا فى العصر التركى وصلنا إلى حضيض الانهيار الاقتصادى والسياسى .

وقد انتهى عصرُ الممالك البحرية نهايةً هزيلة بموت آخرهم زين الدين أمرو حاج سنة ١٣٨٢ م ، وحل محلهم عبيدهم الممالك البرجية الذين لم ينته حكمهم إلا بالغزو العثماني سنة ١٥١٧ م . وكان عصرهم عصر اضمحلال سياسى وخلقى أيضاً . وقد قُدر خراج مصر — أى إيراداتها — سنة ١٢٩٨ م ( بعد بدء حكمهم بست عشرة سنة ) بمبلغ ١٠,٨١٦,٥٨٤ ديناراً ، وحوالى سنة ١٥٢٠ م ، أى بعد انتهاء حكمهم بثلاث سوات فقط ، كان الإيراد ١,٨٠٠,٠٠٠ دينار فقط ، أى أن المستوى الاقتصادى للبلاد التى ابتليت بهم هبط إلى العشر ، وهم المسئولون عن ضياع تجارة الهند من أيدي المسلمين واتجاه الغربين إلى البحث عن طرق أخرى يصلون عن طريقها إلى آسيا ويحصلون على تجارتها ، وهذا البحث أدى سهم إلى الكشوف الكبرى التى قفزت بالغرب الأوروبى إلى الأمام قفزات لا تصدق ، فى حين سارت بلادنا فى طريق تأخر لم يكن منه بد .

### الدول الإسلامية والاقتصاد :

فى الشرق والعرب على السواء كانت الدول فى أوائل العصور الوسطى حرباً على الاقتصاد ، وفيما يتعلق بنا نحن المسلمين — نقول إن كل الدول — دون استثناء — ابتداء من العصر الأموى كانت وظيفتها نهب شعوبها وإفقارها وحرمان الناس من وسائل العمل والإنتاج ، وقد كانت سياسة الأمويين رفيقة بالناس بعض الشيء فى بلاد الشام التى اعتبروها — بصورة عامة — ملكاً للبيت الأموى وتقاسموا خير أراضيها ضياعاً وإقطاعات ، واعتبروا أهلها موالى ومقطعين ، ولكن فى مصر مثلاً كان مجموع الخراج الذى تأخذه الدولة أربعة ملايين أو أربعة ملايين ونصف المليون من الدينار فى السنة ، وهذا هو الحد الذى وقف عنده الفلاح المصرى الذى عرف

بتجارب السنين أن يقرر ماذا يدفع للدولة وكيف يمنع الدولة من أن تأخذ أكثر ومن زمن بعيد جداً قال مؤرخ روماني لرجال دولته : « لا نحاولوا أن تأخذوا من الفلاح المصري أكثر مما يريد هو أن يدفع ، فهو ماهر جداً هنا ، فلتأخذوا منه ما يدفع » .

والحقيقة أن الفلاح المصري كان يعرف دائماً كيف يتفق مع جاني الضرائب على أن يتخلص من أي زيادة في الضرائب ، فإذا كان يدفع خمسة قروش عن النخلة في السنة ، ثم زاد الحاكم ضريبة النخل إلى عشرة عرف الفلاح كيف يتفق مع جاني الضرائب على إنقاص عدد النخل إلى النصف لكيلا يدفع في النهاية إلا ما كان يدفعه قبلاً . ولكن هذا لا يمنع من القول بأنه كان يدفع في العادة ضعف المقرر ، فإذا كنا نقرأ أن مصر كانت تؤدي أربعة ملايين دينار في السنة لدولة الخلافة ممضى ذلك أنها كانت تدفع ثمانية ملايين أربعة تذهب لخزانة الدولة وأربعة كانت تضيع في الطريق ما بين رشا وهدايا وسرقات شتى . وكانت مصر هنا أحسن من غيرها . فقد كانت العادة أن يدفع الناس ما بين خمسة وستة أضعاف المقرر ، ومعنى ذلك أن الدولة ورجلها كانوا يهبون الناس نهباً .

وفي أوروبا تغير الحال مع الزمن ، فقد أدرك الملوك هناك أنه من مصلحتهم أن يدعوا أموالاً في أيدي الناس ليعملوا ويربحوا وتزداد أموالهم فيدفعوا أكثر ، ومعنى ذلك أنهم أدركوا الحقيقة التي أدركها آدم سميث وأثبتها في كتابه « ثروة الأمم » The Wealth Of Nations من أن ثروات الأمم لا تقاس بما يملكه الملوك أو الحكام ، وإنما بما يملكه الحكام والناس ، بل إن ما يملكه الناس أهم ، لأن الملوك لا يستطيعون الاشتغال بالتجارة أو الصناعة ، ومن ثم فهم عاجزون عن تنمية الثروة أما الشعوب فهي قادرة على ذلك ، ومن ثم فإنه كلما زادت الثروة في أيدي الناس زادت إمكانيات النمو الاقتصادي للبلد ، فإذا نما اقتصاد البلد نجت تبعاً لذلك ثروات الملوك ، لأن تلك الثروات تأتي من الضرائب التي يدفعها الناس . وكلما كان الناس أغنى كانت ضرائبهم أكثر .

هذه الحقيقة لم يتبينها حكماء المسلمين قط ، وكل حكومات المسلمين في العصور الماضية قامت على أساس استنزاف أموال الرعية ونهب أقصى ما تستطيع من أموال الناس تحت أسماء ضرائب معظمها غير شرعية وغير إنسانية في أحيان كثيرة ، وأحياناً

كان يتم الاستيلاء على أموال الناس عن طريق المصادرة والنهب السافر دون حياء . ومن المعروف أن الذين يستطيعون إقامة الأعمال وإنشاء المتاجر والأموال يكونون دائماً من أصحاب الذكاء والقدرة على تنظيم العمل وسياسة الناس والحساب والتقدير ، فكان هؤلاء إلى جانب أصحاب الفكر والعلم والاطلاع هدف الحكام يصادرونهم ويستحلون أموالهم ويسجنونهم ويقتلونهم خوفاً على عروشهم أو طمعاً في أموالهم ، ومن ثم فقد حرمت أمم الإسلام في الغالب من خيرة مواهبها ولم يعش إلى جانب الملوك إلا الصغار والمسالمون والسليبيون .

ولا ننسى كذلك أن الزراع والعمال كانوا يحملون عبء ضرائب باهظة جعلتهم يكفون بالعمل الضروري لسد الرق دون نظر إلى ما سوى ذلك لأن أى ربح زائد على الحاجة يعرضهم للمتعاب والمطالبات . وأصدق مقال لذلك الفلاح المصرى الذى كان يستطيع أن يستخرج من أرضه حيراً كثيراً ويعيش في مستوى طيب ويؤدى للدولة إلى جانب ذلك حقها ، ولكن طمع الحكام والحياة اضطره إلى القنوع ببيت نعيس من الطين ليس فيه إلا الضرورى جداً من مطالب الحياة حتى يسجو من أذى الحكام ، لأنه ليس في بيته شيء يمكن أن يكون محلاً لطمع أحد . وفي هذا الشكل الخزين من الفقر وجد الفلاح أمانه .

ولم تكن أحوال العمال والفلاحين في غير مصر أحسن حالاً ، وكل ذلك نشأ عن ظلم الحكام من خلفاء وسلاطين وملوك وورراء ورجال خراج أو جباة ضرائب بينما كان عالم الغرب قد تخلص من نكبة الفقر منذ انتهى أهله إلى حقيقة أن العروة الحقيقية للأمم هي ما يملكه الناس لا ما يملكه الحكام فحسب ، وتحالف الملوك مع التجار والعمال والزراع على أمراء الإقطاع فنشأت المدن ، وهي مراكز العمل والتجارة وحصل أهلها من التجار والصناع على امتيازات وحقوق من الملوك ، بل أنشأت المدن لها قوات عسكرية لحماية أهلها وأموالهم من العدوان . وفي هذه المدن التي بدأت تظهر من القرن السادس عشر الميلادى نشأت الحضارة الأوروبية الحديثة التي قامت على عقلية عملية وتجارية وصناعية ، ووضعت تشريعات خاصة بها كانت هي أساس القوانين المدنية الحديثة . وفي هذه الظروف أترى أهلها وكثرت أموالهم وأزهرت أحوالهم .

وفي هذه الظروف زادت رؤوس الأموال في العرب ونشأت الصناعات وتطورت

العلوم وأخذت وجهة عملية ، بمعنى أن العلوم فيها اتخذت وجهة عملية وخرجت من نطاق الفكر النظري المحدود فاتجهت الجامعات إلى دراسة العلوم والطب والكيمياء والطبيعة والزراعة والتجارة وخلال القرن الثامن عشر الميلادي دخلوا في عصر الانقلاب الصناعي الذي نشأت معه الصناعات الضخمة في الحديد والنحاس والمعادن وظهرت الآلات وتضاعف الإنتاج وكثرت رؤوس الأموال ونشأت جماعات العمال ، وفي القرن التاسع عشر الميلادي دخل العصر الصناعي في دور النضج وتطورت الحكومات إلى النظام الجديد . ومن بين الصناعات التي أزهت كانت صناعة الآلات الحربية والأسلحة النارية بشتى مقاييسها من المسدسات والبنادق إلى المدافع ، ونشأت الجيوش الحديثة التي تستطيع الغزو والفنك والاستعمار ، ونشأت كذلك البواخر والسفن والبوارج المسلحة بالمدافع الضخمة ، وأنشئت لذلك كله المدارس والمعاهد والأكاديميات .

هذا كله ثم يبيننا كان العالم الإسلامي نائماً في ظلمات العصور الوسطى ، لأن الحكومات أفقرت الشعوب ثم افقرت هي بدورها وأصبح الملوك لا يجدون الأموال الكافية لجندهم المرتزقة . وخير مثال لذلك الدولة العثمانية التي كبرت وتصحمت على غير أساس شعبي أو قاعدة علمية . فأصبحت في النهاية طلياً أجوف ضعيفاً يتهاوى أمام ضربات الروس والمجر والآنجليز والفرنسيين .

لقد فوجيء العالم الإسلامي هذه القوة الهائلة تواجهه وتترل به الضربات وهو عاجز حتى عن الدفاع عن نفسه . وكان ما سنحكيه في فصل عصور الركود من تدهور محزن وبشع في أحواله وانهار حكوماته وضياع دوله ثم تعرضه للاستعمار .

وذلك كله نشأ عن السياسة المالية المخربة التي سارت عليها دول الإسلام منذ البداية ، وهذه السياسة انتهت بإفقار الشعوب من ناحية وأدت إلى وقوعها في مهاوى الجهل والعلم النظري الذي لا ينفع من ناحية أخرى . وذلك كله أتى من أن المشرعين عاب عنهم — عندما قامت دولة الخلافة — أن يحددوا مدة حكم الحاكم ومجال نفوذه . فانتهى الأمر إلى الاستبدادات التي رأيناها ، وهذه هي سبب البلاء الأكبر كما رأينا ، وهي التي لوقعت عالم الإسلام في عصور الركود .

**خلاصة :**

من البدهي أننا لا نستطيع — في فصل واحد — أن نتناول كل المسائل المتعلقة بالأحوال الاقتصادية لعالم الإسلام خلال تاريخه الطويل ، وبخاصة أن الأبحاث



والدراسات المتعلقة بالواحي الاقتصادية قاصرة جدًا ، بل هي ما زالت في مهدها فيما يتعلق بماضى الشعوب الإسلامية ، ولهذا فقد اكتفينا بالحديث عما رأينا أنه يمثل الموضوعات الرئيسية لحل ذلك البحث ، وكان الجهد متجهًا نحو إعطاء صورة عامة عن الأحوال الاقتصادية في بلاد المسلمين ، والنشاط الذى قامت به في ذلك المجال جماعات السكان المختصة بشئون المال والاقتصاد والتجارة .

فبدأنا بالكلام عن التجارة والتجار ، فأعطينا فكرة عامة عن النشاط التجارى العام في عالم الإسلام مع الإشارة إلى تلك الشعوب الإسلامية التى امتازت بششاط تجارى ، سواء كان بريًا أو بحريًا ، وتكلمنا عن التجار في العالم الإسلامى وكيف كانوا يكوّنون مجموعات متخصصة من الناس في المدن والموانئ ، يتعاونون فيما بينهم على تزويد الناس بما يحتاجونه من الحاصلات والمصنوعات ، ولهم في ذلك أساليب متفق عليها وتقاليد مرعية بينهم ، مهما اختلفت بلادهم . وتحدثنا عن الأقمشة على اعتبار أنها كانت أكبر مادة من مواد التعامل التجارى ، فتكلمنا عن مراكز صناعة السيج في العالم الإسلامى ، سواء في مصر أو إيران أو العراق أو اليمن ، وما اقتصت بأنواعه كلّ ناحية منها ، وركزنا الكلام على صناعة نسيج الكتان في مصر ، والقطن في إيران ، والحرير في العراق واليمن . وليس معنى ذلك أن كل بلد من هذه البلاد اقتص بوع معين من النسيج لا يصنع غيره ، فالحقيقة هي أن السيج كان يصنع في كل بلاد الإسلام ، أما ما ذكرناه فيعين ناحية الامتياز فقط لهذه الناحية أو تلك .

وتكلمنا عن النشاط التجارى فدرسنا أحوال التجار وتنظيماتهم والأساليب التى كانوا يعمرون عليها في تسير أمورهم ، سواء من ناحية الحصول على البضائع وتصريفها أو من ناحية إدارة الأعمال نفسها .

وأعقبا ذلك بالكلام على المعاملات المالية ، فحدثنا عن القود التى كانت جارية في التداول في العالم الإسلامى ، وحاولنا تقدير قيمتها ، وأعطينا فكرة عن مستوى الأسعار في تلك المصور .





## مراجع مختارة



أصول :

- ابن الأثير : على بن أحمد بن أبي الكرم ( ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م ) : « الكامل في التاريخ » ، المطبعة المنيرية بالقاهرة ١٩٣٣ .

ابن بكرة ، منصور بن بكرة الذهبي الكامل : « كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية » بتحقيق محمد فهمي ، القاهرة ١٩٦٦ .

- ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد الكتاني ( ت ٦١٦ أو ٦١٧ هـ / ١٢١٩ - ١٢٢٠ م ) : « رحلة ابن جبير » بتحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ .

- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد المصبي : « كتاب صورة الأرض » ، جزعان ، بتحقيق كرامرز ، ليدن ١٩٣٨ .

- ابن خردادبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله : « كتاب المسالك والممالك » بتحقيق دي جويه ، ليدن ١٨٨٩ .

- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ( ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ) : « المقدمة » ، بيروت ١٩٦٧ .

- ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد المصري ( ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م ) : « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ، ج ٤ ، القاهرة ١٨٩١ .

- ابن ماجد ، شهاب الدين أحمد ( ت ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م ) :

« كتاب القوائد في أصول البحر والقواعد » ، بتحقيق فيران .

- « حواية الاختصار في أصول علم البحار » ( مخطوطة باريس ) .

وانظر عن مخطوطات مؤلفات ابن ماجد ، كتاب د . أنور عبد العليم فيما يلي .

— أبو الفدا ، إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة : « المختصر في أخبار البشر » ، القاهرة ١٨٩٤ .

— أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ( ت ١٩٢ هـ / ٨٠٧ — ٨٠٨ م ) : « كتاب الخراج » .

— الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس ( ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م ) : « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » مأخوذة من كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، بتحقيق رينهارت دوزي REINHARDT DOZY ودي جويه DE OJJE ، ليدن سنة ١٨٦٦ .

— أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ، مشراها وحققها أدولف جروهمان ، وترجمها إلى العربية حسن إبراهيم حسن ، ج ١ ( القاهرة ١٩٣٥ ) ، ج ٢ ( ١٩٥٦ ) ، ج ٣ ( ١٩٦٢ ) .

— بزرگ بن شهریار : « عجائب الهند ، بره وعمره وجراثره » ، بتحقيق فان دير ليث VAN DER LYTH ، ليدن ١٨٨٨ ( أعادت طبعه مكتبة اللثنى في بعداد ١٩٦٦ ) .

— البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر : « كتاب النقود » ، نشر هذه القطعة من كتاب « فتوح البلدان » الأب أنستاس ملرى الكرمل في كتابه « النقود العربية وعلم النُميات » ( أى قطع النقود ) القاهرة ١٩٣٩ .

— المحافظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : « كتاب التبصر بالتجارة » بتحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ١٩٣٥ .

— المجهشباري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس : « كتاب الوزراء والكتّاب » ، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ١٩٣٥ .

— الحكيم ، أبو الحسن علي بن يوسف ( النصف الثاني من القرن ٨ هـ / القرن ١٤ م ) : « الدوحة المشتبكة في ضوابط دالر السكة » ، بتحقيق حسين مؤنس ، مدريد ١٩٦٠ .

— الحميري ، محمد بن عبد المصمم ( ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ — ١٤٩٥ م ) :

« الروص المعطار في حبر الأقطار » ، نشر المواد الخاصة بالأندلس مه ليفي  
بروفيسال ، ليدن — القاهرة ١٩٣٦ .

— الخوارزمي ، محمد بن أحمد بن يوسف : « كتاب مفاتيح العلوم » القاهرة ،  
١٩٢٥ .

— الدمشقي ، أبو الفضل جعفر بن علي ( ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م ) : « محاسن  
التجارة » ، القاهرة .

« نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » ، بتحقيق ميرون MEHREN لينزج  
١٩٢٣ .

— سلسلة التواريخ بتحقيق رينو RENAUD .

— سليمان التاجر ( كتب حوالي ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م ) : « رحلة التاجر سليمان »  
بتحقيق جابريل فيران GABRIEL FERRAND ، ١٩١٢ .

— سهراب المعروف بابن سراييون : « عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة »  
بتحقيق هانز مون مييث H. VON MZIK ( فيينا ١٢٢٩ ) أعادت طبعه مكتبة المتني  
في بغداد .

— السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن : « تاريخ الخلفاء » ، القاهرة ١٩٣٢ .

— الشاشتي ، أبو الحسن علي بن محمد ( ت ٣٨٨ هـ / ٦٩٦ م ) : « كتاب  
الديارات » ، بيروت ١٩٦١ .

— قدامة بن جعفر ، أبو الفرج الكاتب البعادي ( ت ٣٢٧ هـ / ٩٤٨ م ) :  
بداة من « كتاب الخراج وصناعة الكتابة » بتحقيق دي جويه ، ليدن ١٨٨٩ .

— القلقشندي ، أبو العباس أحمد ( ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ) : « صحيح الأعشى  
في صناعة الإيشا » ، ١٤ جزءاً ، طبعة دار الكتب ابتداء من سنة ١٩١٣ .

— الماوردي ، أبو الحسن علي بن حبيب البغدادي البصري ( ت  
٤٥٠ هـ / ١٠٥٧ م ) : « الأحكام السلطانية » ، القاهرة ١٨٨١ .

— المسعودي ، أبو الحسن علي ( ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م ) : « كتاب مروج  
الذهب » ، طبعة باريس ( ١٨٦١ / ١٨٧٧ ) . و « كتاب التنبية والإشراف » ،  
( القاهرة ١٨٣٨ ) .

— المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد ( ت حوالي ٣٨٨ هـ / ٩٧٧ م ) :

« أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ، ليدن ١٩٠٦ ( أعادت نشره مكتبة المثنى ببيداد ) .

— المقرئى ، تقى الدين أحمد بن على ( ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م ) : « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطوط والآثار » ، القاهرة ، ١٨٥٤ ، وأعيد طبعه بعد ذلك .  
« إغاثة الأمة بكشف الغمة » بتحقيق زيادة والشبال ، القاهرة ١٩٤٠ .  
« كتاب شعور العقود في ذكر القود » ، نشره أنستاس الكرملى في كتابه الآنف الذكر ، ١٩٢٦ .

— ياقوت الحموى : « معجم البلدان » ، طبعة الخانجي ، القاهرة ١٩٠٦ .  
— البقوى ، أحمد بن أنى يعقوب بن جعفر بن واضح ( ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م ) : « كتاب البلدان » .

### مؤلفات حديثة ومترجمات إلى العربية :

— آدم ميتز A. MEZ : « الحصار الإسلامية في القرن الرابع الهجرى » ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، في جزئين ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٧ .  
— أنور عبد العليم : « ابن ماجد الملاح » ( سلسلة أعلام العرب رقم ٦٣ ) ، القاهرة ١٩٦١ .

— بلاشير ، ريجيس R. Blachère : « منتخبات من آثار الجغرافيين العرب » ، باريس ١٩٣٦ .

— جورج فصلو حوراني : « العرب والملاحة في المحيط الهدى » ، ترجمة يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٦٧ .

— حافظ وهبة : « جزيرة العرب في القرن العشرين » ، القاهرة ١٩٣٠ .  
— حسين فوزى : « حديث السدياد القديم » ، القاهرة ١٩٤٣ .  
— حسين مؤنس : « تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس » ، مدريد ١٩٦٧ .  
— كراتشكوفسكى ( إغناطيوس يوليا نوفتش ) KRACHKOVSKI : « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، في جزئين ، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٥ و ١٩٦٩ .

— نفيس أحمد : « جهود المسلمين في الجغرافيا » ، تعريب فتحى عثمان ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- نقولا ريادة : « الجغرافيا والرحلات عند العرب » ، بيروت ، ١٩٥٠ .  
- يسرى عبد الرازق الجوهري : « دراسة لتاريخ الكشف الجغرافية » ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

### مراجع غير عربية :

AHMAD ZAKI PASHA : Une Seconde Tentative Des Musulmans Pour Découvrir , L'Amérique ,  
Dans 'Bulletin De L'Institut D'Egypte' , 1921 .

AHMAD ZAKI WALIDI : Der Islam Und Die Geographische Wis - Senschaft , Geographische  
Zeitschrift , 1934

DE LA RONCIERE , CHARLES : La Découverte De L'Afrique Au Moyen - Age Cartographes  
Et Explorateurs , Le Caire 1924 - 1925 -

DUBLER , CESARE : Abu Hamid El Oranadino ysu Relacion De Viaje Por Tierras EURO -  
Asiaticas . Madrid 1953 .

REINAUD , M . : La Géographie D'Abul - Fida , 2 Vol Paris , 1922 .

FERRAND , GABRIEL : Le Tuhfat Al - Albeb De Abu Hamid Al And - Ahuzi , Paris , 1925 .

HEYD , W . Histoire Du Commerce Au Moyen - âge , Paris , 1885 - 86 ; Reprint 1967

JWAIDEH , WADIE : The Introductory Chapters Of Rahn's Mu'jam Al - Blden , Leiden , Brill ,  
1959 .

KRAMERS , J , H : Geography And Commerce , a Chapter In ' The Legacy Of Islam , Oxford  
Un , Press , 1931 .

LEVI - Provençal , E . : Las Ciudades y Las Instituciones Urbanas Del Occidente Musulman En La  
Edad Media , Tetuan , 1945 .

MAQBUL AHMAD : India And The Neighboring Territories In Nuzhat Al - Mushtaq , Leiden ,  
Brill , 1961 .

MIELJ , ALDO : La Science Arabe Et Son Role Dans L'évolution Scien - Tifique Mondiale , Leiden ,  
1939 .





## الفصل السادس

### الفنون عند المسلمين





## الفنون تعبير عن الأحاسيس والمشاعر والمخاليق :

للفنون في تاريخ الأمم دور كبير جدير بأن يقف عنده مؤرخ المجتمع الإسلامي ويعطيه ما هو جدير به من عناية ، لأن الفنون — دون سائر وجوه النشاط البشرى — إنتاج إنسانى خالص يصور روح الشعب الذى صدر عنه وإحساسه وفوقه ومستواه الثقافى والاقتصادى فى أحيان كثيرة ، وسواء أكان الفنان مبدعاً موهوباً يبتكر أسلوباً جديداً فى التعبير الفنى ، أو كان صانعاً فانناً يحتدى فى عمله قواعد وتقاليد موروثه لا يتعداها ، فإن هذه الحقيقة لا تتغير . لأن الفنان المبتكر يعطى التعبير الفنى عن الإحساس الشعبى طابعاً عميقاً شحصبياً أو قد يوجهه وجهة جديدة ، والفنان الصانع يحافظ بعمله على تقليد فنى متوارث نابع أيضاً من طبيعة الشعب الذى ينتسب إليه ، ولا بد من الإخلاص والإتقان فى كل حالة ، لأن الفن — فى صميمه — يقوم على الصدق والإخلاص كما يقوم على الإتقان .

وقد ظن أهل المحافظة على الموروثات أن الإنتاج الفنى شر ينبغى تجنبه ، أو تعبير عن غرائز فاسدة ينبغى محاربتها أو سترها على الأقل ؛ ومن عباراتهم المأثورة فى ذلك الحال : « إن الإنسان لا ينبغى أن يشتغل بما لا ينفع أو بما يشعله عن العبادة والتفكير فى الله » . وقد فاتهم أن التعبير الفنى جزء من طبيعة الإنسان بل الكائن الحى نفسه ، فإن الإنسان إذا عشى فليس من الضرورى أنه يفعل ذلك لأنه خليع أو قليل الرزانة أو خارج على الحشمة ، بل هو يعشى لأنه إنسان .

وكذلك الحال فى التصوير والبحت وغير ذلك من ضروب التعبير الفنى ، فكلها تصدر عن الطبع البشرى الذى يميل إلى الجمال وتصوير الجمال ومشاهدة الجمال ومحاكاته . والإنسان البدائى الذى خلف لنا رسومه على جدران الكهوف وعلى الصخور فى البرية لم يكن خليعاً ولا قليل الحشمة ، وإنما كان محض إنسان أحس

بالجمال فـشعر بإسـانيته ، ودفعه هذا الشعور إلى التعبير عما يحس فأمسك بما تيسر له من مادة يخط بها ، ورسم ما جادت به قريحته ، وكان ذلك من أوائل خطواته نحو الرقي .

ومن المعروف أن العناء والرقص عصران أساسيان من حياة الشعوب البدائية التي لا تزال تعيش في عالمنا الراهن ، وهي كذلك جزء هام من حصاراة أرق الأمم ؛ لأنه حينما وجد إنسان فهناك تعبير فني ، أيما كان مستوى ذلك الإنسان من الرقي والحضارة وأيما كان مستوى ذلك التعبير .

ولهذا كان من الطبيعي أن تكون للمجتمعات الإسلامية فنونها من كل نوع . وقد اتسعت ميادين هذه الفنون بقدر اتساع عالم الإسلام ، واحتللت أشكالها بقدر اختلاف طبائع شعوبه ، فحسها أمام ميدان واسع متشعب الأطراف متعدد الصور والأشكال ، فهو يشمل المنشآت العمرانية والرسم والتصوير والرخرفة والموسيقى والعناء وأشكالا كثيرة تصنع بها أدوات منزلية أساسية كالسجاجيد والمشكاوات والصناديق ، وأدوات أخرى مما يستعمل للزينة الصرفة كالعلب أو الأطباق التي تصنع من الخشب المخرم أو للزينة بالصدف والعاج أو من الفخار والخزف والزجاج . ويتجلى الإنتاج العسـى الإسلامي كذلك في طرر معينة يزين بها السيج العالي ، وعلاقات الكتب وكتابة خطوطها ورخرفة صفحاتها أو تحليتها برسوم كبيرة أو صغيرة مما يعرف بالمسميات . ويشمل ذلك الميـداد صناعة الآلات الموسيقية وأشكالها ، وكذلك جانباً كبيراً من الإنتاج الأدبي ، وبخاصة ما يستعمل منه في العناء الجماعي أو الفردي وغير ذلك كثير .

وهذا المجال الواسع للإنتاج العسـى يشمل جميع نواحي حياة الشعوب الإسلامية على وجه التقريب . وهو مع اختلاف أشكاله وصوره له وحدة فنية وشخصية واضحة تميزه عن غيره ، فيكفي أن نرى قطعة صغيرة من عمل جرت فيه يد الفنان المسلم حتى نعرف أننا نتأمل شيئاً صاغته يد فنان مسلم ، وسواء أكان ذلك الشيء نافذة مسجد في سلطنة بروناي في شمال جزيرة برونو ، أو قطعة جلد مشغول من عمل صانع مان مغربي من أهل مدينة مراكش ، أو نغمة من بثرف أبدعه موسيقي تركي ، أو صورة بستان رسمه مصور إيراني ، أو مبرأ خشبيا صنعه نجار فنان مصري ، فإن هذه الأشياء كلها يجمعها طابع واحد ، ولا يمكن أبداً أن تخفى علينا

صفاتها الفنية الإسلامية . وهذه هي الحقيقة الرئيسية التي يجب أن نبه إليها في مستهل كلامنا الموجز عن فنون الشعوب الإسلامية ، وهي أنها فنون ذات شخصية فنية متميزة تنطق بحقيقتها ولا يمكن أن تلتبس بغيرها .

### ميلاد الفنون الإسلامية :

وقد نشأ الفن الإسلامي كله عن فيض العاطفة الدينية عند المسلمين ، فقد كان في بدايته تعبيراً عن الإحساس الذهني . وقارئ القرآن الكريم لا يزال يصادف في آياته ما ينهيه إلى الإحساس بجمال الكون ، ويدعوه إلى تأمل بديع صنع الله . وفي كثير من الآيات القرآنية تشعر بأن الخلق كله إبداع فني عظيم يفيض بالجمال<sup>(١)</sup> ، ولا عراة — لهذا — أن يكون القرآن نفسه منبعاً من منابع الإلهام الفني عند المسلمين .

ومن ثم فلا يمكن أن يكون هناك تعارض بين الفن والدين ، فإن عمارة المساجد هي أصل من العمارة الإسلامية كله ، وقد نشأت الزخارف الإسلامية لرينة الواصف وملاء فراع الجدران وتجميل السقوف ، وقد روعي فيها أن تكون أشكالاً هندسية

---

(١) جاء في كتاب مبادئ الفلسفة والأخلاق ( د محمد عبد الحادي أبو ريدة ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ) : « تكلم القرآن على جمال السماء ، عن زينتها بما فيها من كواكب ، وعن عجب أحياناً بأنها مصابيح . وتكلم عن الشمس والقمر ، وبالجملة تكلم عن السماء على نحو يهتد في نفس المتأمل شعوراً بعظمتها وببهاؤها الخائل وامتدادها الكبير ، وهذا ما يسمى بالجليل الرياضي عند بعض علماء تقدير الجمال ( إلهانويل كاثت ) . »

وتكلم القرآن عن ربه الأرض بعد أن عجز بالهياة فثبت فيها كل روح حيي ، وتظهر فيها الآثار المختلفة الأكون ، وأشار إلى ما يكون هناك من حقائق ذات بهجة ، وتكلم عن ربه الأرض بالجمال على اختلاف ألوانها ، وتكاد بعض آيات القرآن توحي للفنان بأن يرسم لوحة المناظر التي يتكلم عنها .

وتكلم القرآن عن ربه الخياة الدنيا وأن الدنيا عبثية لجساف وزيبتها ، بل هو يشير إلى الشر وماله من ربه عداغة ولم يخل القرآن من إشارة إلى الدرجة الجمالية المدعمة التي يعني بها المتأمل للجمال من قسه ( ص ٣١/١٢ ) وقد تلمه بعض العلماء ( العراقي ) هذه التجربة واعتبرها حالة نشاء في إدراك الجمال .

ويؤيد من القرآن أن كل شيء في العالم له جمال ، لأنه صنع الله ، أحسن الخالقين ، الذي لا يفسد كل شيء . و : أحسن كل شيء خلقه . وقد رسم القرآن مناظر جملى وحسى في الحياة الأخرى .

هذا إلى أن طريقة التعبير القرآني تشعروا بالجمال المعنوى . فالأعمال الخيرة توصف بالمحسن وهي « حسنات » ، وافق تعالى له « الأعمال الحسنى » .

أو نباتية حتى تعتمد ابتعاداً حاسماً عن تصوير الشخصوس ، واستعمل المسلمون الكتابة كوسيلة زخرفية حتى يستطيعوا النفس في كتابة آى القرآن والأحاديث النبوية وأسماء الخلفاء الراشدين والصحابة . حتى الألوان التي استعملها المسلمون تحمروا أن تكون قد وردت في القرآن الكريم كالأخضر والأحمر والأصفر والذهب والفضة ولون السماء وهو الأزرق . وقد بلغ من براعة المسلمين في صناعة الأصبغة التي عملوا بها رسومهم أو لَوْنُهَا بها أننا نجد اليوم ألواناً معروفة بنسبتها العربية ، فيقال مثلاً : اللون الأزرق العربى *bleu d'arabie* والأخضر العربى *Emerald Arab green* والأصفر الصحراوى *Sahare yellow* .

وفى بعض الأحيان نجد أن الفنان المسلم يستعمل الزخارف والأشكال ليصور ما يخطر بباله وهو يقرأ آى القرآن الكريم ، كما ترى في زخارف قاعة السفراء في قصور الحمراء في غرناطة بالاندلس ( جنوب إسبانيا ) ، فهى تصوير زخرفى للآيات ٣ — ٦ من سورة تبارك التى تسمى أيضاً سورة الملك وهى السابعة والستون من سور الكتاب الأكرم .

ومثل هذا يقال عن موسيقى الشعوب الإسلامية التى تسمى أحياناً بالموسيقى العربية ، فقد نشأت في الأصل ترتيلاً وإنشاداً دينياً ومحاولة لتجويد القرآن الكريم ، ثم اتسع مجالها بعد ذلك . وليس معنى هذا أن الأصول الفنية للموسيقى العربية كلها دينية إسلامية ، فإن تلك الأصول سعت من مآهل شتى ترجع إلى أصول حضارات الشعوب التى تكون منها عالم الإسلام ، ففيها عناصر مصرية وإيرانية وهندية وبيزنطية وأفريقية وعربية جاهلية سابقة على مجئ الإسلام ، ولكن العاطفة الإسلامية احتوتها وسيطرت عليها وأعطاها طابعاً دينياً لارمها بعد ذلك برغم تشعب مآدنها ، وإلى يومنا هذا ما زال الغناء العربى لوناً من الترتيل والترجيع والتجويد ، فيما عدا بعض الحديث من الأغاني التى غلب عليها الطابع الأوروبى .

وهذه الصلة الوثيقة بين الروح الإسلامية والإنتاج العنى في الشعوب التى آمنت بالإسلام صلة طبيعية منطقية نجد ما يشبهها في العالم المسيحى ، فهناك أيضاً ولد الفن الغربى في مهد الدين ، فكانت الكنائس والأديرة ميدان الابتكار في العمارة ، وفيها — قبل غيرها — ظهرت طرز العمارة الرومانية والقوطية والنورمانية

والموريسكية المُدَجَّجِيَّة وما إليها ، وعلى جدران الكنائس أو في لوحات علفت عليها  
وُلد التصويرُ الغري ، وكان في أول أمره تصويراً لمشاهد من الكتاب المقدس ، وفي  
الصلوات والإنشاد الكنائسيين ولد جانبٌ كثير من الموسيقى الغريبة .

وذلك كله طبعى ، لأن الفن تعبير عن الإحساس وتصوير له ، وليس في أحاسيس  
البشر ما هو أعمق وأفمل من الإحساس الدينى ، ولقد قال الموسيقى الأشهر  
سباستيان باخ : « إن شعورى بجلال الخالق يصل إلى أقصى عمقه عندما أجلس  
إلى الأرغن في الكنيسة وأعزف مقطعاتى أو متابعاتى » .

### الفنون الشعبية والفنون المصقولة :

وعند دراستنا لتاريخ أى من الفنون عند أى أمة من الأمم ، ينبغي أن نلاحظ  
أنه وجد دائماً نوعان من التعبير العنى : نوع شعبى ساذج ، ونوع مصقول مهذب .

فالشعبى ما يصدر عن جمهور الناس بالفطرة ، من إنشاد جماعى أو فردى ،  
وعزف يهم قبل كل شيء بالإيقاع ، لأنه يصاحب الرقص ، وعاء بسيط يتماشى  
مع بعض وجوه العمل ، كالخدأ أثناء السفر ، وإنشاد العمال أثناء العمل ، وغناء  
الفلاحين في الحقول ، وعرف الراعى لاستدعاء العنم أو الجمال ، وقرع الطبول  
لحشد الناس إلى الحرب ، أو الرجز أو الزجل اللذين يصدران عمو الخاطر عن أهواء  
الشعب دون تكلف أو تصنع ، وتصاوير الحوائط التى لا تخلو منها تقاليد أى شعب  
من الشعوب ، والتمثيلات التى يصنعها الناس ما بين بدائيين ومتقدمين ، وهذه — فى  
مجموعها — تسمى بالفنون الشعبية *folk arts* وقد تسمى بالفولكلور *folklore*  
( المأثور الشعبى ) .

أما النوع المصقول فهو فى الأصل صرب من الفن الشعبى ، يصوغه أفراد بلغوا  
مستويات متفاوتة من الثقافة والعلم ، ويتجه اهتمامهم إلى أن ينتشوا إنتاجاً فنياً رفيعاً  
مصقولاً ، وتفتح أمام أهله أبواب الإنتاج الفنى المنهجم المنظم ، كما نرى فى الشعر  
الموزون المقفى على البحور ، والنثر العنى ، والموسيقى المنهجية التى تقوم على علم  
بالنغم ودراسة للأصوات وأشكالها ودرجاتها .

وقد عرفت شعوب المسلمين هذين الضريين من الفن ، فنجدهما دائماً جيباً إلى جنب . فعاش الرجز ثم الزجل والموشح إلى جانب القصيدة ، وعاشت أغاني الشعوب الحماسية إلى جانب مقطعات المغنين المحترفين ، وعاشت رسوم مناظر الحياة الشعبية على جدران البيوت ، إلى جانب روائع الأعمال الفنية في زينة المساجد والقصور ولوحات سيزاد وسلطان محمد وثمانيل محمود مختار .

وسنضمن هنا كلامنا النوعين معاً ، لضيق المجال أولاً ، ثم إن الاتجاه الثقافي العالمي اليوم يتجه إلى صياغة طراز واحد من الفن ، شعبي ومصقول في آن واحد .

وجدير بالذكر أن أهل الفكر في العصور الوسطى كانوا يضعون حدّاً فاصلاً بين ما يعتقدون أنه الشعر والثر الحقيقيان الجديران بالدراسة والتقدير ، والإنتاج الأدبي الشعبي من قصص شعبي وزجل وموشح ، ولهذا فقد كانوا يرفضون أن يدخلوا في مؤلفاتهم كلاماً عن « ألف ليلة وليلة » أو عن قصة « الظاهر يبرس » أو « الأميرة ذات الهمّة » أو « تعرية بى هلال » . وكانوا يحرمون كذلك على ألا يوردوا شيئاً من أرجال ابن قرمان أو عبادة بن ماء السماء ، ظناً منهم أن ذلك إنتاج فنى وضع غير جدير بأن يحفظ به . ولكن الأمر تغير تغيراً حاسماً في أيامنا هذه ، وتبين أن حكايات « ألف ليلة وليلة » مثلاً هي أديع الآثار الأدبية العربية في العالم وأكثرها أثراً في الفكر العالمي ، وكذلك الموشحات الأندلسية كانت ذات أثر بعيد في نشوء الشعر العرنسى في جنوب فرنسا . والحقيقة أن الإنتاج الفنى الشعبي قد يملأ ساذجاً وغير مصقول ، وربما بدا لنا جافياً أحياناً ، ولكنه في الحقيقة صادق ونابع من طبيعة الحياة نفسها دون تكلف أو تصنع ، ومن ثم فإن أثره في العوس أوسع مدى من أثر الإنتاج الأدبي المصقول الذى لا يخلو — في الغالب — من تكلف وتصنع ولا يتلوقه إلا عدد قليل من الخاصة .

### ميلاد فن العمارة عند المسلمين — المساجد الأولى :

وقد ولد فن العمارة الإسلامى في المدينة المنورة بمولد مسجد النبى — ﷺ — في العام الأول للهجرة ، فهو وإن كان إنشاء بالغ البساطة يتضمن الحد الأدنى الضرورى لإقامة شعائر الدين ، إلا أن تصميمه جمع معظم العاصر التى ستكون منها المساجد فيما بعد ، والتى ستكون ميدان الابتكار والتجويد للعمارين



المسلمين ؛ ففيه بيت الصلاة ، والصحن ، والقبلة ، والمحراب ، والمئبر ، وهذه هي الأجزاء التي لا يستغنى عنها جامع إسلامي . أما الأجزاء الأخرى — مثل المذئبة والقبّة والميصة والمقصورة — فمحسّنات ابتكرت فيما بعد ، وهي لا تكون عناصر أساسية في الجامع ، ومن هنا فإنه يبدو غريباً أن ذلك المسجد النبوي البسيط قد حدد هيئات المساجد العامة فيما بعد .

بنى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة أول مرة في السنة الأولى للهجرة ( ٦٢٢ م ) ، وقد أعيد بناؤه بعد ذلك مراراً ، لأن ذلك المسجد تطور مع تطور الدولة الإسلامية . ومن هنا فإن المراحل التي تم بناؤه عليها تعد أجراء أو مظاهر من التطور العام للحضارة الإسلامية .

وهذه ظاهرة جديرة بالملاحظة ، لأن كبار مساجدنا تعد أجزاء من تاريخنا الحضاري والسياسي ، ونلاحظ أنها مرت في سلسلة من التطور موازية لسلسلة التطور السياسي والحضاري . ولتأخذ مثلاً مسجد الرسول ﷺ في المدينة ، فقد بنى أول الأمر على هيئة مستطيل طوله ٧٠ ذراعاً وعرضه ٦٣ ذراعاً ، وجعل جداره الشمالي ( طوله ٦٣ ذراعاً ) ناحية القبلة ، وكانت يداك بيت المقدس أي إلى الشمال ، وبحاذية ذلك الجدار أنشئت ظلة أو عريش مغطى بسعف النخل ومرفوع على جذوع نخل ، وكانت هذه الظلة لا تزيد في الاتساع على ست أذرع ، أي أنه كان يحملها حوالي ستين جديع نخلة . وفي العادة يسمى الجزء المغطى من المساجد ببيت الصلاة ، وعلى ذلك جزء واسع غير مغطى يسمى بالصحن . وفي أيام الرسول ﷺ كان الناس يتجمعون ويتلاقون في الصحن ، أما الصلاة فكانت تقام في بيت الصلاة ، إلا في أيام الجمع فقد كان بيت الصلاة والصحن يستعملان للصلاة . وقد أنشئت في الحدار المقابل لحدار القبلة ظلة أخرى أقل عمقاً من الأولى ، وتلك هي الصفة التي كان يأوي إليها أهل الصفة . وإلى شرق تلك الظلة ابنتي الرسول — ﷺ — حجراته التي عاش فيها بقية عمره ، وقد بنيت في صف واحد وأبوابها كلها تفتح على صحن الجامع ، ولم يكن لها كلها أبواب بل كان بعضها مغطى بستارة نخل محل الباب . وفي جوف بيت الصلاة وضعت حربة تعين اتجاه القبلة ، وسمى موضع هذه الحربة بالمحراب . وإلى يمين المحراب بنى شيء أشبه بسلم من بضع درجات ، ينتهي بموضع صغير كان الرسول ﷺ يلقي خطبه من عليه ، وهذا هو المئبر . وقد بنيت جدران الجامع

باللبن . أما الأذان فكان ينشد من أعلى غرفة حفصة أم المؤمنين ، وهذه هي الصورة الأولى للمثلثة . وعلى هذه الصورة كان المسجد يمثل الحالة الحصارية في المدينة أول ما أنشئ المسجد ، وقد وسع المسجد أيام الرسول ﷺ نظراً لعموم الجماعة الإسلامية .

وفي عهد أبي بكر جدد بناء المسجد على نفس الخطوط التي كان عليها أيام الرسول ﷺ ، ولكنه استبدل بمجْلُوع النخل والجريد غيرها .

وفي أيام عمر أعيد بناء المسجد ، فاستبدلت بمجْلُوع الحبل أساطين من لبن ، وجعل سقف بيت الصلاة من الخشب بدلا من الجريد . وحافظ عمر على بساطة المسجد ، فأمر البناء « ألا يُحْمَرُ ويَصْفَرُ حتى لا يفتن الناس » . وزاد عمر في طول المسجد وعرضه ، فأصبح الطول ١٣٠ ذراعاً والعرض ١٢٠ ذراعاً ( الذراع = نصف متر تقريباً ) .

وقام عثمان بن عفان بتجديد المسجد سنة ٢٧ هـ/٦٤٩ م ، فزاد فيه ريادة كبيرة ، وبني جداره بالحجارة المنقوشة والجص ، وجعل عمله من الحجارة المحوطة وسقفه بخشب الساج . وأشرف زيد بن ثابت على البناء ، وفتح نوافذ مرتفعة في الجدارين الشرق والغرب قريبا من السقف .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك ، قام واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد وإعادة بنائه فيما بين سنتي ٨٨ و ٩١ هـ/٧٠٦ — ٧٠٩ م ، فبنى المسجد كله بالحجارة المحوطة ، وزيد في عرضه ، وجعلت له أبواب خشبية جميلة . ومعنى ذلك أن المسجد تماشى مع نمو الجماعة الإسلامية وتطورها إلى إمبراطورية ، وقد استدعى ذلك زيادة مجنبتين على الجانبين الشرق والغرب للمسجد ، تتكون المئذنة الشرقية من أربعة أروقة تحملها أربعة صفوف من الأعمدة ، أما المئذنة الغربية فكانت من ثلاثة أروقة تحملها ثلاثة صفوف من الأعمدة . وفي الناحية الجنوبية أضيفت مئذنة ثالثة يزيد عمقها على جوف بيت الصلاة ، ومعنى ذلك أن المسجد أخذ بالفعل صورة قرينة من صور المساجد الإسلامية الكبرى مع المحافظة على شكله العام وشخصيته .

وفي أيام الخليفة العباسي المهدي أعيد بناء المسجد على هيئة جديدة ، فأصبح

مستطيلاً مساحته ١٦٥×٢٢٥ ذراعاً ، يتوسطه صحن ، يحيط به من الشمال بيت صلاة عميق ، ومجتان : شرقية وغربية ، ومجبة ثالثة جنوبية .

وقد احترق هذا المسجد سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م ، وأعيد بناؤه على نفس الميكل ولكن بمجارة مصقولة ، وأدخلت فيه أعمدة من الرخام بلغ عددها ٢٩٠ عموداً ، ووضعت له أبواب خشبية جميلة ، وأضيفت له مئذنة عالية . ومعنى ذلك أن هذا الجامع تطور خطوة خطوة مع تطور الجماعة الإسلامية ودولها ، ولا يزال يتطور إلى يومنا هذا .

والمسجد النبوي الشريف الحالي أنشئ في أيامنا هذه ، وهو بمصور أعلى مستوى بلغته الهندسة العربية ، وهو أيضاً مثال من مساجد أخرى كثيرة تطورت بتطور الجماعة الإسلامية بحيث يعد تاريخها رمزاً على تطور الجماعة الإسلامية من حوها . وهذا يصدق على مسجد البصرة الذي اختطه عتبة بن غروان سنة ١٤ هـ/٦٣٥ م ، ولم يجعل له جداراً بل أحاطه بخندق ، وجعل سقف بيت الصلاة فيه القصب والجريد مرفوعاً على جنوع الخيل : وينطبق أيضاً على ثالث المساجد الجامعة في تاريخ الإسلام ، وهو مسجد الكوفة الذي احتطه سعد بن أبي وقاص سنة ١٥ هـ/٦٣٦ م وأعاد بناءه رباب بن أبيه سنة ٥١ هـ/٦٧٠ م ، وعلى مسجد عمرو بن العاص في القسطنطينية ، وهو رابع المساجد الجامعة في تاريخ الإسلام ، وقد بنى أول مرة سنة ٢١ هـ/٦٤٢ م ، وعلى المسجد الجامع في القيروان الذي بنى أول مرة على يد عقبة ابن نافع فيما بين سنتي ٥٠ و ٥٥ هـ/٦٧٠ — ٦٧٥ م .

فهذه المساجد الجامعة وغيرها مما أنشئ في عواصم الإسلام بعد ذلك تطور بناؤها مرة بعد مرة وسار موازياً لتطور الجماعة الإسلامية نفسها .

وقد اكتملت العناصر الفنية للمساجد قبل نهاية القرن السابع الميلادي ، فقد أشبشت المماريب المجوفة وظهرت المآذن وأمكنة الوضوء والمقصورات ، بل ولدت القباب الإسلامية بإنشاء قبة الصخرة ، وكذلك أدخلت المماريب المزخرفة في نفس الوقت . ومن ذلك الحين لم يدخل على المساجد الإسلامية عنصر أسامي جديد ، وإن كان كل واحد من العناصر التي ذكرناها قد تطور على حدة في كل ناحية من بلاد الإسلام تقريباً .

## المساجد تجمع بين عنصرين متناقضين ( البساطة والجلال ) :

ولم يعرف تاريخ فن العمارة الإسلامى طُرُزاً عامة يسود كل منها عالم الإسلام كله في فترة معينة ثم يحل محله طراز آخر ، كما برى في طرز العمارة الأوروبية الرومانية والقوطية وطرز النهضة والركوكو وما إلى ذلك ، ولكن لدينا طرزاً إقليمية يحمل كل منها طابعاً محلياً متاشبهاً مع التقاليد العمارة لإقليمه ، فهناك الطراز الأموى والعباسى والمساجد المصرية والمعرية والأندلسية والإيرانية والهندية والتركية والملوكية ، وقد يتطور كل واحد من هذه الطرز في ناحيته التى نشأ فيها ، ولكنه يظل محتفظاً بطابعه الخاص . وقد تشيع عناصر عمارة من هذا الطراز أو ذاك في عالم الإسلام كله ، ولكن ذلك لا يعبر شحوصية الأثر العمارى نفسه ، فيظل المسجد الملوكى ملوكياً — مثلاً — برغم اقتباسه المقتدة التركية .

وبرغم هذا الاختلاف في أشكال المساجد فإن الروح العامة لها تظل واحدة . والمسجد الإسلامى في كاتو في شمال نيجيريا هو المسجد نفسه في طشقند ، والسبب في ذلك أن نقطة البداية واحدة ، والمقاصد الرئيسية من بناء المساجد واحدة كذلك . وقد رأينا ميلاد المساجد في المدينة المنورة وكيف أنها كانت محض أمكة محصنة للصلاة ، ورأينا كذلك كيف تطورت المساجد بما يلائم الطفرة الواسعة التى حققتها الدولة الإسلامية ، فانتقلت من البساطة إلى الفخامة والجلال ، مما استدعى هدمها وبناءها مرة بعد مرة ، مع المحافظة على طابع البساطة الأول .

وتلك هى المشكلة الرئيسية التى واجهت — وما زالت تواجه — العمارين في إنشاء المساجد ، لأن المسجد — كمكبرة — لا يقبل التغير ، فلا بد أن يظل مكاناً للصلاة فحسب ، دون أن تضاف إليه أجزاء أساسية كالتي نلجدها في الكائس المسيحية مثلاً ، كالذبح وغرف القساوسة والشمامسة ومكتب القس المشرف على الكنيسة وأمكنة لحفظ سجلات الكنيسة وأخرى لحفظ ذخائرها ، ومكان لكى يغير فيه رجال الدين ملابسهم ليتخذوا ثياب الصلوات والقداس المختلفة الألوان والأشكال مما اقتضى أن تكون الكائس أمكنة للصلاة ومكاتب إدارية ودور محفوظات ، وربما أصبحت إليها مساكن للقس ومساعديه ، ولهذا نجد الكنائس كثيرة الأبوية متعددة الغرف والأجنحة .

ومع أن المساجد استعملت على طول العصور الإسلامية لأغراض أخرى إلى جانب الصلاة ، فكانت دوراً للقضاء ومجالس لأهل العلم ، إلا أن ذلك لم يقتض إدخال أى تعديل جوهرى على المبنى ، فكان القاضى يجلس فى ركن من أركان الجامع يخصص للقضاء ، وكان الشيوخ يجلسون للإقراء وحوهم تلاميذهم مفرقين فى نواحي بيت الصلاة أو الصحن ، وهكذا ، ومن هنا ظل المسجد محافظاً على طبيعته وشخصيته الرئيسية .

وقد أراد العماريون أن يضيفوا على ذلك المبى البسيط الذى لا يحتمل الزيادة جلالاً وفخامة يناسبان مع نمو الجماعة الإسلامية ودولتها ، وقد توصلوا إلى التوفيق بين هذين المتناقضين بطرق شتى ، مثل تغطية السقوف وتضخيم الجدران والتأنيق فى أوضاع الأعمدة وأشكال أقواسها والابتكار فى أشكال المحاريب وللمآبر والتفنن فى هياكل القباب والمآذن ، ولحقوا كذلك إلى استخدام مواد نبيلة بدلاً من المواد العادية ، فاستبدلوا بالطوب اللبن الطوب المحروق أو الحجارة المنحوتة ، واستبدلوا هذه الحجارة المنقوشة ، واستعملوا أعمدة الرخام وتفننوا فى قواعدها وأبدانها وتيجانها وطبائنها ، واستعملوا الأخشاب العالية كالساج ( وهو الماهوجانى ) والصوبر والسديان بدلاً من خشب الأشجار العادية ، وخرقوا الخشب ، واستعملوا الأكوام ، وجعلوا حائلا المحاريب من الرخام الملون ، وزينا الجدران بالوفاذ ذات الزجاج الملون . وابتكروا أشكالاً من الأقواس الصماء تزين الجدران ، وفى بعض الأحيان نجدهم تعمدوا استخدام قطع صخمة من الحجر الجبرى المصقول فى بناء جدران عالية بحيث يرتفع السقف عشرات الأمتار ، مما يجعل المصلى يشعر وكأنه يصلى فى فراغ واسع يملأ القلب خشوعاً ورهبة .

هذا إلى التفنن فى إنشاء القباب وتزيينها من الداخل بالرخازف ومن الخارج بزخارف القاشاى ، وتفننوا كذلك فى أشكال المآذن . وهكذا عرف العمارى والفنان المسلمان كيف يفسحان لفنهما المجال للابتكار والتخليق مع المحافظة على طابع البساطة الذى لا بد منه للمساجد ، وفى هذه الناحية يستطيع القول بأن العماريين المسلمين عرفوا كيف يبتكرون أشكالاً هى الغاية فى الفخامة والروعة دون أن يمسوا جوهر المساجد .

ولا يتسع المجال هنا لتتبع تطور فن العمارة الدينية فى الإسلام ، فإن المسلمين

أنشأوا عشرات الأكواف من المساجد ، ومن هذا الحشد الخافل من بيوت الله تبرز بصع مئات تعد بالفعل أعمالاً فنية جديرة بالتسجيل والتأريخ . وما زلنا ننتظر أن يشر أطلس عام يسجل لنا هذه المساجد ويصورها ويبين نواحي امتيازها الفني ، فهذا عمل لا بد أن يتم . وقد ألف الناس كتباً كثيرة عن المساجد الإقليمية ، ولكن الذى يتفصلا هو كتاب عام عن المساجد الإسلامية .

وسنكتفى هنا بالكلام عن الخصائص الفنية المميزة لمدارس العمارة والفن الرئيسية ، ولا بد قبل ذلك من أن نقول كلمة يسيرة عن أثر عمارة يحتل مكانة ممتازة فى تاريخ العمارة الإسلامية ويعين خطوة انتقال حاسمة فى تاريخها برغم أنه بنى فى عصر مبكر ، وهو قبة الصخرة فى مدينة القدس .

تم بناء قبة الصخرة — التى تسمى أحياناً بمسجد الصخرة — فى عهد عبد الملك بن مروان ، الذى يعد من أكبر المنشئين فى تاريخ الإسلام ، ويقال إنه أنفق فى بنائه خراج مصر لمدة سبع سنوات ، أى حوالى ٣١ مليوناً ونصف المليون من الدينار ، وهو مبلغ مُبالغ فيه حتى عندما نعرف أن الدينار العربى فى عصر عبد الملك يساوى نصف الدينار الكويتى أو العراقى ونصف الجنيه الإنجليزى .

وقد أنشئت هذه القبة لكى تحمى الصخرة ، وهذه الصخرة هى عبارة عن قمة جبل موريا ، ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب ١٢٧,٧٠ متر وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٣,٥٠ متر ، وهى صخرة كانت مقدسة قبل الإسلام ، وتذهب الروايات الإسلامية إلى أن رسول الله — ﷺ — عندما أسرى به ليلاً من مكة نزل عند قبة الصخرة ، وهناك صلى لله سبحانه وتعالى قبل أن يخرج به إلى السماء من جوارها ، ولهذا فعندما فتح المسلمون مدينة القدس حرص عمر على أن ينشئ بناء فوق الصخرة ليحميها من الشمس والمطر .

والغالب أن هذا البناء كان ظلة من الخشب ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك قرر أن يبنى حول الصخرة وفوقها بناء عظيم ، وبطبيعة الحال استخدم فى إنشائه عمالاً وصناعاً من أهل الشام ممن تعلموا فى مدرسة الفن البيزنطى . ولما كان القصد من البناء إقامة قبة فوق الصخرة ، فقد كان لا بد أن يستخدم العماريون أعظم ما لديهم من الخبرة الفنية لكى يقيموا ذلك البناء ، فأقاموا بناءً معقداً ذا ثمانية أضلاع يحيط بالصخرة على مسافة منها من كل ناحية ، وفى داخل هذا البناء أقاموا جداراً

آخر موازياً له ، ولكنه يرتفع على أعمدة وأساطين لا على جدران ، وما بين الجدار الخارجى وهذا البناء الداخلى مساحة واسعة تستعمل مطافاً يمر فيه الناس حول الصخرة ويقفون فيه صلواتهم ، ولذلك تسمى قبة الصخرة بمسجد الصخرة أيضاً ، وفوق أعمدة ذلك البناء الداخلى أقيمت قبة عظيمة مرتفعة هى التى أعطت البناء اسمه .

وقد زخرت جدران مبنى القبة الداخلية والخارجية بالقوش الملونة على أحسن صورة ، ويزيد فى قيمة هذه القوش أنها صنعت فى الغطاء الرخامى الذى بطن به الجدران فى كل ناحية . فأما الزخارف الموجودة خارج المبنى فكلها عربية ، وهذه أول مرة نرى فيها الزخارف العربية الجميلة وما تتضمنه من أشكال هندسية ونهائية متداخلة هى العاية فى الجمال ، وفى أعلى الجدران — قبل القبة — أضاف العماريون نوافذ تقوم على بوائك زخرفية صغيرة زينت بالزجاج الملون .

وبعد اقتدار العمارين المسلمين على إنشاء هذا الأثر الجميل من دلائل العبقرية الفنية العربية ، وهذا المبنى — بما فيه من الزخارف والألوان وما استعمل فيه من المواد — كان عملاً فنياً فتح أمام العمارة الإسلامية أبواباً واسعة من التطور فيما بعد ؛ وقد تم بناء هذا المسجد فيما بين سنتى ٦٦ — ٧٢ هـ/٦٨٥ — ٦٩١ م .

### الفن الأموى فى المشرق :

نقطة البداية فى هذا الفن العمارى هو مبنى قبة الصخرة الذى ذكرناه والمسجد الأقصى فى صورته الأولى . وجدير بالذكر أن المسجد الأقصى يقوم على المساحة نفسها التى يقوم فيها مسجد الصخرة ، وكان أول من أنشأه عمر بن الخطاب ، ولكن بناءه الحالى يعود إلى عصر الوليد بن عبد الملك ، فقد أعاد بناءه سنة ٨٧ هـ/٧٠٦ م وإن كان هناك من يقولون بأن الذى بناه كان عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ/٦٨٥ م . وقد أعيد بناؤه بعد ذلك مراراً عديدة ، ولكن هيئته — التى تعد نموذجاً للعمارة الأموية المشرقية — هى التى كانت له الأهم الوليد بن عبد الملك . وكان يتكون من بيت صلاة واسع يقوم سقفه على تسعين عموداً من الرخام ، ويتألف من عشرة أروقة متوازية كلها تسير فى اتجاه القبلة ، ويقوم السقف فوق الأعمدة مرفوعاً على أقواس نصف دائرية ، وتربط الأقواس بعضها إلى بعض أربطة

خشبية ، وقبل السقف صف من النوافذ الصغيرة ينفذ منها الضوء إلى داخل الصحن .

أما المسجد الذى يعد — إلى الآن — نموذجاً حياً للعمارة الأموية الشرقية ، فهو المسجد الأموى بدمشق ، وما زال باقياً إلى اليوم محفظاً بهيئته العامة ، وهو دون شك من أعظم ما أنشأ المسلمون من مساجد وأكثرها فخامة ، وقد بديء فى إنشائه أيام الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ/٧٠٦ م ولم يتم إلا سنة ٩٦ هـ/٧١٤ م . وكانت مقاييسه على عهد الوليد ١٦٠ × ١٠٠ متر ، وبيت الصلاة فيه عمقه ٣٦ متراً ، ويتكون من ثلاثة أسكيب ، والأسكوب هو صف الأعمدة الذى يوازى جدار المحراب ، أما صفوف الأعمدة الرأسية على جدار المحراب فتسمى بالبلاطات ، والمحراب فيها تسمى بالأروقة . وبيت الصلاة يبدو فى هذا المسجد قليل العمق بالنسبة إلى عرض المسجد ، فهو لا يكون إلا الثلث تقريبا ، ونتيجة لذلك فإن الإنسان إذا دخل المسجد وواجه جدار القبلة يشعر بأنه فى إيوان مستطيل لا يتناسب طوله مع عرضه .

ويحتل هذا المسجد مكانة بارزة فى تاريخ العمارة الإسلامية ، نظراً لما يمتاز به بيت الصلاة من فحامة ورواء وارتفاع فى السقف وتناسق فى الأعمدة والأقواس ، وكذلك بسبب القبة الصغيرة التى يزدان بها سقفه . وربما كان صحنه من أجمل صحنون المساجد الإسلامية ، فإن طوله ١٢٥ متراً وعرضه ٦٠ متراً ، ويحيط به من جوانبه الشرقية والغربية والشمالية مجنبات من رواق واحد ، وتقوم على أعمدة رخامية تحمل أقواساً دائرية تزيناها من أعلى نوافذ صغيرة ، يفصل بين كل اثنتين منها عمود رخام أو سارية ، وأرضية الصحن كلها مفروشة بالحجر المصقول ، ويمتاز هذا المسجد بزخارف وكتابات هى العاية فى الجمال والرواء ، ويعد نموذجاً للفن الإسلامى فى دوره الأول ، عندما كان متأثراً تأثراً واضحاً بالعمارة البيزنطية .

وتمتاز المساجد الأموية كلها بالرصانة والجلال والأصالة والمتانة ، فإن السنين تعبر بهذه العمائر فلا تتأثر ، وتحفظ بروائها الأول مهما مر بها الزمان أو تعاقبت عليها الأحداث ، حتى الفسيفساء التى تزين جدرانها تظل باقية على حالها ومحفوظة بألوانها . ولا تعرف هذه المساجد الإسراف فى الزينة والزخارف والألوان ، وإنما يعتمد جمالها



كله على التناسق بين خطوطها وعلى ما تمتاز به من مهابة ، وكذلك على المواد النبيلة التى تبني بها .

ويدخل فى نطاق العمارة الأموية القصور التى كان الخلفاء والأمراء يخفونها فى الصحراء ، ليعموا فيها بمظاهر من الحياة البدوية البسيطة من ناحية ، وليطلقوا للذائع العنان بعيداً عن أعين الناس من ناحية أخرى .

ولدينا من هذه القصور نوعان : البوادي وهى قصور ريفية بسيطة فى تكوينها ، تتألف الواحد منها من بهو كبير للجلوس ، وغرفتين جانبيتين الغالب أنهما للنوم ، ومجموعة من الغرف الصغيرة الأخرى ، وأكبر ما يميزها هى الحمامات . ومثال هذه القصور قصير عترة الذى اكتشفه الباحث ألويس موسيل سنة ١٧٩٨ م ، وهو من بناء الوليد بن عبد الملك ، وهيته العامة كما وصفنا ، وكان فيه حلمان على الأقل ، وقاعات الحمامات واسعة عالية السقف مبطنة بالرخام إلى ارتفاع مترين ، وتلى ذلك أحزمة من التصاوير الزخرفية من الفسيفساء ، وغالبها يمثل مناظر اللهو والمتاع . وكان الماء يجلب لذلك القصر من بئر عميقة ، ويمساق فى أنابيب ترفعه إلى أعلى البناء ، وهناك يصب فى الأحواض ، وكانت هناك أنابيب للماء الساخن وأخرى للماء البارد .

أما النوع الثانى من القصور الأموية فهو نوع الحيرة ، ونموذجه الذى عثرنا عليه هو قصر المشتى ، وهو قصر كبير على الجدران والأسوار ، واسع الأجزاء ، وقد أقيم داخل أسوار حصن من الحصون الرومانية ولم يكن قصر الحيرة يستعمل دار لهو وراحة فى أثناء نزعات الصيف كما كان الحال مع البادية ، وإنما هو قصر ملكى كبير يقضى فيه الخليفة وقتاً يدير الأمور بعيداً عن زحمة الناس فى دمشق .

وقد ورث الأمويون فى الأندلس الاتجاه نحو بناء هذه القصور ، فأنشأ عبد الرحمن الداخل قصر الرصافة شمال قرطبة واتخذ الأمراء ورجال الدولة الحيرت فى ضواحي العاصمة .

وكلا نوعى البوادي والحيرت يصور لنا العمارة المدينية خلال العصر الأموى ، وهى عمارة تمتاز بجلال المظهر وفحامة الهيئة ، والزخرفة المحددة واستعمال

الفيسفساء ، والاختلاس دون حرج من الفن البيزنطى ، وإطلاق الحرية للفنان ليؤلف من هذه المقننسات ومن مبتكراته طرازاً خاصاً .

### العمارة فى العصر العباسى :

لم يبق من آثار العمارة العباسية فى بغداد والرقّة وواسط وغيرها من مدن العراق إلا نزر يسير ، لأن المباني كانت تقام باللبن فى معظم الأحيان وبالطوب المحروق فى أقلها . وكانوا يستعملون بضخامة الجدران عن صلابة الحجر ، فقد يبلغ سمك الجدار بضعة أمتار أحياناً ، فأسوار مدينة بغداد كانت تبلغ ستة أمتار فى العرض فى أسفلها وأربعة فى أعلاها ، بحيث كان فارسان يستطيعان السير على السور جنباً إلى جنب ، وكانوا يطلون البناء من الداخل بالجص ويقيمون سقوف المساجد والأبهاء الواسعة على أعمدة من الخشب ، وكذلك كانت السقوف خشبية ، وهذه كلها مواد لا تحتمل البقاء طويلاً . ومعظم حيائى بغداد كانت مبنية على هذا الشكل ، ولهذا وعلى الرغم مما كان للبلد من ضخامة وفخامة إلا أن منشأته قد زال معظمها من الوجود ، فلم نعلم من آثار العباسيين فيها إلا على أطلال لا تمتنا على تكوين صورة عن تخطيطها الواقعى ، ولهذا فإن ما نجده فى الكتب من وصف عماراتها قائم على التخيل .

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن أبا جعفر المنصور وعماربيه وضعوا خطة المدينة على أن تكون مدوّرة ، يقوم فى وسطها ميدان فسيح فى مركزه المسجد الجامع وقصر الإمارة ، ويشق البلد شارعان رئيسيان هما عبارة عن محورين ( أفقى ورأسى ) يتلاقيان فى الوسط ، ويمتد كل من الشارعين ببوابتين عند السور ، وبين كل نصفى قطريين تمتد شوارع أخرى من الميدان الداخلى إلى السور دون أن تكون لها أبواب فيه . وكان السور نفسه دائرياً عريضاً كما قلنا ، وقد حصن بأبراج مدوّرة يقوم فيها الحراس ، وكانت الأسوار مزدوجة يفصل بينها فصيل أو خندق . وقد خصص الجزء الجنوبي الشرقى من البلد للأسواق وسمى بالكرخ ، ولكنه لم يلبث أن تغطى السور وامتد حتى بلغ نهر دجلة وعبره إلى ضفته الشرقية ، وقبل نهاية حكم المنصور ( ١٣٦ — ١٥٨ هـ / ٧٥٤ — ٧٧٥ م ) نجده يأمر بإخراج الأسواق كلها من البلد حتى لا تغطى على هيئته الملوكية ، ولم يلبث الكرخ أن زاد فى الحجم على المدينة نفسها .

وكان للعباسيين غرام بهذه المدن ذات الأشكال الهندسية ، فقد ابنتى المنصور نفسه مدينة على هيئة حلوة الحصان جنوب الرقة ، ولم تعمر هذه المدينة طويلاً برغم أن هارون الرشيد نقلها مقاماً فيما بين سنتي ١٧٠ — ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ — ٨٠٩ م .

وبلغ من ضيق بغداد بسكانها أن البلد في عصر للمعتصم ( ٢١٨ — ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ — ٨٤٢ م ) ثامن خلفاء بني العباس لم يعد يحتمل جند الخليفة الأتراك الذين كان عددهم يتزايد ، وقد نفر منهم أهل بغداد نفوراً شديداً وكثر الاحتكاك بينهم وبين الناس ، فرأى للمعتصم أن يبتنى لنفسه وجنده مدينة ملكية على ضفة الدجلة غير بعيد من بغداد ، وتلك هي سامراء — أو سر من رأى — التي ظلت عاصمة الخلافة نصف قرن تقريباً من سنة ٢٢٤ إلى ٢٧٠ هـ/ ٨٣٨ إلى ٨٨٣ م ، ولم يقادرها الخلفاء عائلتين إلى بغداد إلا عندما شعروا بأنهم أصبحوا فيها أسرى جندهم الأتراك . وقد بنيت سامراء بالطوب الأحمر ، ولهذا بقيت معالمها ، وقد كشف الأثريون عن جزء كبير من آثارها ما بين مساجد وقصور وحمامات ومصكرات وشوارع فخمة واسعة ، مما يدل على أن فن عمارة المدن تقدم تقدماً بعيداً فيما بين إنشاء بغداد وإنشاء سامراء ، وهي مدة أقل من القرن .

ولدينا فكرة واضحة عن مسجد بغداد الجامع ، وبخاصة بعد أن جدد الرشيد بناه بالطوب الأحمر ، فنلاحظ أنه — مع المحافظة على للهيئة العامة للمساجد الإسلامية حتى ذلك الحين — جذت فكرة إحاطة الصحن بأقواس مستديرة أو مربعة تقوم على دعائم من الطوب ويطل ذلك كله بالجص ، أما المئذنة فكانت في هيئة برج مستقل عن المسجد . وتحدثنا المراجع أنه كانت تقوم فوق قصر المنصور قبة هائلة مطلية باللون الأخضر من الخارج ، ولكننا لا نعرف كيف كانت هذه القبة على الحقيقة .

وقد بقيت لنا آثار مسجد المتوكل في سامراء ، وقد بنى فيما بين سنتي ٢٣٢ و ٢٣٨ هـ/ ٨٤٦ — ٨٥٢ م . وهو دون شك أكبر مسجد بنى في الإسلام ، فإن مقاييسه ١٥٦×٢٤٠ متراً مما يجعل مساحته ٤٠ فداناً ، وعمق جوف بيت الصلاة ٦٢ متراً يتكون من تسعة أساليب تقوم على تسعة صفوف من الدعائم موازية لجدار القبلة ، وبكل صف منها ٢٤ دعامة . أما بلاطات بيت الصلاة فعددتها ٢٥ بلاطة ، وكانت الدعائم مربعة القاعدة طول كل ضلع منها متر . وارتفاعها ١٠

أمتار ونصف للتر . وعدد دعامات بيت الصلاة ٢١٦ دعامة . وكان يحيط بصحن المسجد الفسيح مجنبت في جهاته الثلاث تفتح كلها بيوالك مديبة على صحن الجامع الواسع ، وكان للجامع ستة عشر باباً . ومما يمتاز به هذا الجامع منارته — أى معذنته — الحلزونية وتسمى بالملوية ، وهى تقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها ٣٣ متراً وترتفع إلى الجو ٥٠ متراً فوق سطح القاعدة ، وكان الصعود إليها عن طريق مصعد حلزوى يسير بالحدار خفيف حتى يصل إلى موقف الأذان .

وعلى غرار مسجد سامراء بُنى مسجد ابن طولون في شمال القسطنطينية فيما بين سنتي ٢٦٤ — ٢٦٦ هـ/ ٨٧٧ — ٨٧٩ م ، وهو أصغر من جامع سامراء بكثير ولكنه يتبع في عمارته نفس الأسلوب ، فهو يتكون من بيت للصلاة عمقه ٤٠ متراً تقريباً ، وصحن واسع تحيط به مجنبت في جهات الشرق والغرب والشمال ، يتكون كل منها من رواقين . واتساع الصحن ١٠٠×١٠٠ متر ، يتوسطه بناء صغير ذو قبة ، وهذا البناء هو للوضوء . ويطل بيت الصلاة وكذلك المجنبت على الصحن بيوالك تقوم على دعامات حجرية مزينة بنوافذ زخرفية ، أما المئذنة الملوية فتقوم خارج المسجد عند جداره الشمالى ، وما زال جامع ابن طولون باقياً إلى اليوم محفظاً ببيته العامة برغم ترميمه مراراً .

وقد اتبعت القصور في العصر العباسى الأسلوب العمارى نفسه الذى يقوم على أبهاء مكشوفة ، تحيط بها عمد تحمل أقواسا نصف دائرية أو مديبة ، وخلف الأقواس تقوم الغرف ما بين كبيرة وصغيرة ، ويربط البهو بالجو رواق ، وبعض هذه القصور مبني بالحجر ، مثل قصر الأخيضر قرب كربلاء وقصر الخليفة للنوكل المعروف بالجوسق في سامراء ، وكلها ببيت على هذا الطراز وغرشت أرضها بالحجر ، وقد تزين الجدران بالقسيساء أو الجص للنقوش ، وربما زينت بكوات صماء زخرفية . وكانت حدائق تلك القصور تزين ببرك الماء ، ولدينا قصيدة للبحرئى يصف فيها قصر الجوسق بعد أن غمره الجند ، ولم يستوقف انتباه الشاعر الكبير شيء مثل بركة القصر فأطال الكلام فيها .

وقد أحييت العمارة العباسية الفن الساسانى في كل صوره ، فانتعشت الفنون الفرعية الداخلة في فن العمارة كالفسيساء ومرمحات القاشانى والرخام المصقول والحشب المشغول . وقد اختلطت هذه العناصر الساسانية بعناصر الفن البيزنطى التى تأصلت

من أيام بنى أمية ، وشيئا فشيئا نلاحظ تكون الفن الإسلامى الخالص على أساس من تلك المصائر المتنوعة التى تمازجت وتآلفت مع الذوق العربى الإسلامى ، ونشأ عن ذلك الطراز العربى المصرى العام الذى يمتاز بمخالفاته المعروفة من الأعمدة الكثيرة التى تحمل أقواساً نصف دائرية أو مدببة يتوالى بعضها فى إثر بعض داخل البناء ، فيشبه أن يكون غابة من الأعمدة الرفيعة المرتفعة والأقواس الرشيقة ، ويمتاز كذلك بالجدران العالية المزينة بالأفاريز الزخرفية التى تقوم زخارفها على أشكال هندسية ونباتية ، وقد يضاف إليها أفاريز من الكتابة الزخرفية ، وتمتاز كذلك بالسقوف الخشبية المزخرفة الملونة .

### أهم مدارس العمارة الإسلامية بعد ذلك :

وقد تعددت مدارس العمارة الإسلامية خلال العصر العباسى وما بعده ، فنشأت طرز عمارة متباينة فى الهيئات والتكوين ، ولكنها كلها متشابهة فى الروح والجو العام الذى يسودها ، بحيث تستطيع أن تحكم بمجرد رؤيتك لبنى عربى بأنه عربى مهما اختلف طرازه ومكانه وزمانه . ونحن نميز فى تاريخ العمارة الإسلامية عدداً من المدارس ، أهمها المدرسة المصرية التى ولدت فى جامع الفسطاط الذى بناه عمرو ابن العاص أول مرة سنة ٢١ هـ/٦٤٢ م ، وقد جُدد بناؤه مرات عديدة بحيث اختفت تماماً هيئته وعمارته الأصلتان الأوليان . ولكن تاريخ ذلك الجامع وتطور بنائه يعد تاريخاً للعمارة الإسلامية فى مصر ، وآخر من جدد بناءه على الخطوط الأصلية عبد الله بن طاهر قائد الخليفة المأمون سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م . أما مسجد الفسطاط الحالى فبناء حديث بُنى فى أوائل القرن العشرين ، ولا يمثل الجامع القديم فى شيء . ولكن أثر عمارة جامع الفسطاط الأول نجده فى الكثير من المساجد الصغيرة التى بقيت محظلة بهيئتها منذ العصر العباسى ، وهى قليلة . ومع أن جامع أحمد ابن طولون الذى تكلمنا عنه أشيئ على غرار جامع سامراء ، إلا أنه أخذ من الطراز المصرى محل الأقواس الدائرية ، وأعمدة الطوب ، واستقامة الخطوط ، والهيئة المربعة للمبنى العام بما فى ذلك صحن الجامع .

وقد بدأ فن العمارة المصرى يستقل بنفسه خلال العصر الفاطمى فى مصر . ( ٣٥٨ — ٥٦٧ هـ/٩٦٩ — ١١٧١ م ) فإن الدولة الفاطمية — التى ولدت

مصرية سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م — لم تلبث أن تحولت إلى دولة مصرية بعد استقرارها في مصر واستيلائها على الشام ، وقد طال العصر الفاطمي وأتيح خلاله للطراز المصرى أن ينضج ويأخذ صورته المعروفة التى نجدها في المساجد الفاطمية الصرفة الباقية إلى اليوم — مثل الجامع الأقمر وجامع الحاكم في القاهرة — وهى مساجد أفادت من كل التقاليد المعمارية التى وجدت في مصر ، ما بين مصرية وبيزنطية وعباسية . وأهم ملامح ذلك الطراز : أناقة البناء وتناسق أجزائه ووحدته الفنية . فإننا لو تأملنا مسجداً كالجامع الأقمر للاحظنا أنه قطعة فنية واحدة ، من باب إلى محرابه ، حتى وحدت الزخارف المستعملة نجدها شائعة فيه متكررة ، من الأحزمة الزخرفية المنقوشة بالحجر خارج المسجد ، إلى زخارف جدار القبة والمحراب . ونلاحظ أن أبواب الجامع مزينة في أعلاها بأقواس صغيرة على هيئة المحارة ، وهذا الشكل نفسه نجده متكررا في كل أبواب الجامع الداخلية وفي محرابه ، بل نجده متكررا في النوافذ المفتوحة في أعلى جدران الجامع قرب السقف ، وهذه الوحدة الزخرفية ذاتها نجدها في الجزء الباقى إلى الآن من معبده هذا الجامع . ويمتاز ذلك الطراز كذلك بأن مساجده كلها مبنية بالحجارة المصقولة في الجدران ، وقد تبطن بالرخام إلى ارتفاعات مختلفة . وأعمدة هذه المساجد من الرخام ، وأقواسها دائرية ، ولا نجد فيها زخارف من القيسية ، أما المآذن فرفيعة ومرتفعة ذات هيئة رشيقة ، في كل منها موقعان للأذان وقد تزين بموقف أذان ثالث زخرفى .

وقد بلغ ذلك الطراز المصرى صورته الكاملة في المساجد المملوكية المعروفة ، التى وصلت بهذه العناصر الصارية إلى أوجها . وأضافت إلى ذلك القباب العالية التى نرى نماذجها في مسجد السلطان قلاوون الذى بنى سنة ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م . وهو مسجد ومدرسة وبمبارستان يمتاز بضخامة البناء وارتفاع جدرانه المبنية بالحجر المصقول ، وتزين جدرانه الخارجية أعمدة حجرية عالية تحمل أقواساً حجرية مدببة ، يرتفع فوقها جدار الواجهات ، وخلف هذه البوائك الحجرية العالية تقوم واجهة البناء الداخلية التى تتألف من ثلاثة أدوار من النوافذ الزخرفية التى تغطيها ستر من الرخام الزخرفى . وقد سبق أن أشرنا إلى ما تحتاز به المساجد المملوكية الكبرى ، مثل مسجد البردبنى في القاهرة ومسجد السلطان حسن ، وكلاهما يمتاز ببيت صلاة واسع مرتفع السقف ، جدرانه مغطاة بالرخام المختلف الألوان وتزين أعاليها شبابيك زخرفية مغطاة بستر من الرخام النحوت . وخلال العصر المملوكى يصل ذلك

مصرية سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م — لم تلبث أن تحولت إلى دولة مصرية بعد استقرارها في مصر واستيلائها على الشام ، وقد طال العصر الفاطمي وأتيح خلاله للطراز المصرى أن ينضج ويأخذ صورته المعروفة التى يجدها في المساجد الفاطمية الصرفة الباقية إلى اليوم — مثل الجامع الأقمر وجامع الحاكم في القاهرة — وهى مساجد أفادت من كل التقاليد الممارية التى وجدت في مصر ، ما بين مصرية وبيزنطية وعباسية . وأهم ملامح ذلك الطراز : أناقة البناء وتناسق أجزائه ووحدته الفنية . فإننا لو تأملنا مسجداً كالجامع الأقمر للاحظنا أنه قطعة فنية واحدة ، من باب إلى محرابه ، حتى وحدت الزخارف المستعملة نحتها شائعة فيه متكررة ، من الأحزمة الزخرفية المنقوشة بالحجر خارج المسجد ، إلى زخارف جدار القبة والمحراب . ونلاحظ أن أبواب الجامع مزينة في أعلاها بأقواس صغيرة على هيئة المحارة ، وهذا الشكل نفسه نجده متكررا في كل أبواب الجامع الداخلية وفي محرابه ، بل نجده متكررا في الوافد المفتوحة في أعلى جدران الجامع قرب السقف ، وهذه الوحدة الزخرفية ذاتها نجدها في الجزء الباقى إلى الآن من معبده هذا الجامع . ويمتاز ذلك الطراز كذلك بأن مساجده كلها مبنية بالحجارة المصقولة في الجدران ، وقد تبطن بالرخام إلى ارتفاعات مختلفة . وأعمدة هذه المساجد من الرخام ، وأقواسها دائرية ، ولا نجد فيها زخارف من السيفساء ، أما المآذن فرفيعة ومرتفعة ذات هيئة رشيقة ، في كل منها موقفان للأذان وقد تزين بموقف أذان ثالث زخرفى .

وقد بلغ ذلك الطراز المصرى صورته الكاملة في المساجد المملوكية المعروفة ، التى وصلت بهذه العناصر المصارية إلى أوجها . وأضافت إلى ذلك القباب العالية التى نرى نماذجها في مسجد السلطان قلاوون الذى بنى سنة ٦٨٣ هـ/١٢٨٤ م . وهو مسجد ومدرسة وبمارستان يمتاز بضخامة البناء وارتفاع جدرانه المبنية بالحجر المصقول ، وتزين جدرانه الخارجية أعمدة حجرية عالية تحمل أقواساً حجرية مدببة ، يرتفع فوقها جدار الواجهات ، وخلف هذه البوالتك الحجرية العالية تقوم واجهة البناء الداخلية التى تتألف من ثلاثة أدوار من التوافد الزخرفية التى تغطيها ستر من الرخام الزخرفى . وقد سبق أن أشرنا إلى ما تمتاز به المساجد المملوكية الكبرى ، مثل مسجد البردنبى في القاهرة ومسجد السلطان حسن ، وكلاهما يمتاز ببيت صلاة واسع مرتفع السقف ، جدرانه مغطاة بالرخام المختلف الألوان وتزين أعاليها شبابيك زخرفية مغطاة بستر من الرخام المنحوت . وخلال العصر المملوكى يصل ذلك

الطراز إلى ذروته التي تمتاز من الخارج بالمآذن العالية والقباب السامقة التي ما زالت إلى الآن تعطي لمظر مدينة القاهرة طابعها الإسلامي المعروف .

وهناك المدرسة المغربية التي ولدت فيها بين سنتي ٥٠ و ٥٥ هـ/٦٧٠ — ٦٧٥ م عندما بنى عقبة بن نافع جامع القيروان ، وقد جدد بناء هذا الجامع مرات كثيرة آخرها سنة ٢٦١ هـ/٨٧٥ م على يد إبراهيم بن أحمد ثامن أمراء بني الأغلب . ويعرف هذا الجامع في العادة باسم جامع عقبة ، ومع أنه قد أعيد ترميمه بعد ذلك مرات عديدة ، إلا أنه ما زال يحتفظ بطابعه العام الذي كان له أيام الزيادة السادسة التي أدخلت على مناه في أيام إبراهيم بن أحمد ثامن أمراء بني الأغلب سنة ٢٦١ هـ/٨٧٥ م . ويتكون هذا المسجد — كغيره من المساجد — من بيت صلاة وصحن ، ولكن بينما نجد في للمساجد المشرقية أن صحن الجامع المكشوف يقع في وسط المبنى ، يحيط به بيت الصلاة من ناحية القلة ومجنيات من بقية الواحي ، نلاحظ في مسجد عقبة — ومعظم مساجد المغرب والأندلس — أن الصحن هو محض امتداد مكشوف لبيت الصلاة ، أي أن المبنى ينقسم قسمين : قسما مغطى هو بيت الصلاة ، وقسما مكشوفاً هو الصحن ، وسور المسجد يدرر عليهما معاً . أما المآذن في مساجد المغرب والأندلس فنجدتها في الجدار المقابل لجدار القبلة ، وهي في الغالب تكون جزءاً من السور .

المسجد الجامع في القيروان يعد من أجمل المساجد الإسلامية وأظهرها شخصية ، فإن بيت صلاته عميق يبلغ جوفه ٣٤ متراً ، وطول جدار القبلة ٧٢ متراً ، أي أن مساحة بيت الصلاة المنطى شاسعة تبلغ ٢٤٤٨ متراً مربعاً . ويتكون بيت الصلاة من ١٧ رواقاً ، الرواق الأوسط عظيم الاتساع وأعلى من بقية الأروقة ، وهو يؤدي رأساً إلى المهراب ، أما بقية الأروقة فهي ثمانية على اليمين وثمانية على اليسار ، وتقوم عليها أقواس عالية نصف دائرية تعتمد في الداعل على أزواج من الأعمدة الرخامية ، أما في نهاية بيت الصلاة المطللة على الصحن فإن الأقواس تركز على أعمدة رخامية مؤيدة بدعام من الحجر . وفوق الرواق الأوسط المؤدى إلى المهراب تقوم قبتان جميلتان صغيرتان الحجم نسبياً ، ولكنهما غاية في الجمال .

وبعد مسجد عقبة أبا المساجد المغربية كلها ، فكلها تسم على نفس النظام ، وإن كانت تختلف في أشكالها وأحجامها ودرجاتها من الفخامة والغنى . ومن ميزات



**الطرز المغربي الأخرى أن المآذن** — وتسمى هناك بالصوامع أو المنارات — تبنى على هيئة الأبراج . وفي العادة تكون الصومعة بناء قائماً بذاته إلى جوار للمسجد ، وأبدان الصوامع تتكون من ميان من ثلاث طبقات في الغالب ، كل طبقة منها أضيق من التي تحتها ، وتزين الصومعة في أعلاها قبة صغيرة . ومن ميزاته أيضاً تزيين جدران المساجد من الخارج بزخارف تنقش في الحجر ، أو بنوافذ زخرفية تصنع من الرخام أحياناً ، وتزين جدران القبلة بالفسيفساء ، وكثيراً ما يكون الخراب من الرخام .

وقد بلغ ذلك الطراز المغربي أوجهه في العناصر الموحدة السامقة ، ما بين دينية وغير دينية . والكثير منها باق إلى اليوم في مدن المغرب الكبرى ، وبخاصة في فاس وسلا ومراكش . ويعد جامع الكتبية في مراكش من مساجد الإسلام الكبرى وأعماله الفنية الخالدة ، وكذلك مسجد القرويين في فاس . وفي مراكش أيضاً تقوم مقابر السعديين ، وهي أضرحة ومساجد بلغت الغاية من الجمال وتمتاز بالفخامة والروعة . وإلى السعديين أيضاً — وهم الدولة التي حكمت المغرب من ٩٦١ هـ إلى ١٠٦٩ هـ/١٥٥٤ — يرجع الفضل في بناء أسوار مدينة مكناس وبواباتها العالية المحملة بالزينة والزخارف الملونة ، وقد أنشأ سلاطين السعديين هذه الأسوار والبوابات تقليداً لذكرى طردهم للبرتغاليين من المغرب وتحرير أرضهم منهم .

أما الطراز الأندلسي فيعتبر من أجل الطرز العمارة الإسلامية وأظهرها شخصية . وقد مر هذا الطراز بأدوار مختلفة أثناء تطوره الطويل على طول تاريخ الأندلس ، منذ فتحه سنة ٩١ هـ/٧١١ م على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد ، حتى سقوط غرناطة في ربيع الأول ٨٩٧ هـ/يناير ١٤٩٢ م . ويعرف الدور الأول بطراز عصر الخلافة الذي ولد سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦ م ، عند تمام جامع قرطبة الأول على يد عبد الرحمن الداخل . والخصائص المميزة لطراز عصر الخلافة هي الفخامة والجمال مع المحافظة على رصانة البناء ووقاره ، فالجدران حجرية عالية وحجارتها مصقولة ، وداخل المسجد — أي بيت صلاته — يتكون من ساحة واسعة تنقسم إلى أروقة تسير كلها في اتجاه القبلة ، والرواق الأوسط أوسع من الأروقة الجانبية .

وفي الجزء الأول من مسجد قرطبة الجامع الذي بناه عبد الرحمن الأوسط ، لدينا خمسة أروقة إلى اليمين وخمسة إلى اليسار تقوم على أعمدة تحمل أقواساً مزدوجة نصف دائرية مبنية من الطوب الأحمر والحجارة معاً على هيئة زخرفية جميلة . وقد لجأ

العماريون إلى عمل هذه الأقواس المزدوجة لكي يرفعوا سقف الجامع ، ليتناسب الارتفاع مع مقاييس الجامع الأخرى . وقد زاد عبد الرحمن الأوسط في ذلك المسجد زيادة كبيرة تمت سنة ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨ م ، ولم تكن الزيادة في العروض وإنما مده الجامع طولاً ناحية الجنوب ، واقتضى ذلك نقل جدار المهراب مسافة عمقها ثمانية أقواس . وقد تحرى العماريون أن تكون الريادة مطابقة تمام المطابقة في هيئتها العامة وتفصيلها لبناء المسجد الأول . وفي أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط بنيت قنطرة تعرف بالسباط ، تؤدي من قصر الإمارة الذي يقع مقابل واجهة المسجد الغربية إلى المسجد الجامع في موازاة المهراب ، وكان السباط فوق شارع قرطبة الرئيسي المسمى بالهجة العظمى ، الذي يبدأ عند ضفة الوادي الكبير ويمر بين القصر والجامع ثم يتجه شمالاً إلى أسوار البلد . وكان الأمراء يستعملون هذا السباط للانتقال من القصر إلى الجامع دون أن يمشوا في الطريق .

وقد زيد مسجد قرطبة الجامع مرة ثالثة أيام عبد الرحمن الناصر ، وقد تمت الريادة سنة ٣٤٠ هـ/ ٩٥١ م ، واقتضت هذه الزيادة هدم جدار المهراب ومد الجامع إلى الجنوب ١٢ قوساً . وبنى جدار جديد يعد محرابه آية من آيات الفن الإسلامي ، لأنه ليس مجرد حنية عادية وإنما هو مقصورة من الرخام في الغلبة من الرواء ، ومدخلها أشبه بباب مسجد ، وقد زينت بالفسيفساء بزخارف وكتابات بالغة الروعة .

وقد حافظ العماريون — الذين أنشأوا زيادة عبد الرحمن الناصر — على الوحدة الفنية للمبنى كله ، مع التفضيل البعيد في أشكال الأقواس المزدوجة . وفي سنة ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ م أضاف المنصور محمد بن أبي عامر زيادة جديدة تبلغ نصف ما بناه هو أمة قبل ذلك ، وكانت الريادة على نفس الأسلوب الذي اتبع في بناء المسجد كله ، وبهذا أصبح بيت الصلاة في ذلك المسجد أكبر بيت صلاة لمسجد في عالم الإسلام ، إذ تبلغ مساحته ثلاثة أفدنة . وللمسجد صحن مكشوف في ناحيته الشمالية تبلغ مساحته فدانين ، وتزين هذا الصحن المكشوف أشجار البرتقال ، ولهذا يسمى ببو النارج ، وهو الصحن الوحيد في عالم الإسلام الذي زرعت فيه أشجار بموافقة الفقهاء . وسقف هذا المسجد من الخشب المزين بالنقوش من كل صنف ، وفوق البلاطة المؤدية إلى المهراب والبلاطتين المحيطتين بها من اليمن والشمال تقوم ثلاث قباب

صغيرة تعد برغم صغر حجمها من أجمل القباب الإسلامية ، وقد استعملت فيها الأقواس الحجرية المتقاطعة التي تعد أساساً من أسس الطراز العمارى القوطى ، ومن الثابت الآن أن مسلمى الأندلس هم الذين ابتكروا ذلك الطراز .

وقد استمر العمل في زيادات ذلك الجامع ٢٥٠ سنة ، ولهذا فهو يعد سجل البيت الأموى الأندلسى ، فيندر أن نجد أمراً أموياً في الأندلس لم يضاف إلى ذلك المسجد شيئاً ، وتبلغ مساحته كله ( بيت الصلاة والصحن ) ٢٢٥٠٠ متر مربع ، فهو — على هذا — أوسع المساجد الإسلامية الباقية إلى اليوم .

وخلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ولد في الأندلس طراز العمارة المدجنى ، وهو منسوب إلى اللتجنين ، أى للمسلمين الذين أقاموا في بلادهم بعد أن سقطت في أيدي النصارى . وهذا الطراز يمتاز بأن مبانيه تعتمد أساساً على الطوب المحروق ، حتى زخارفها كانت تصنع من ذلك الطوب بوضع صفوفه في أوضاع مختلفة ، وكذلك كانت الأعمدة في داخل المباني من الطوب المحروق ، وقد تغطي بالجص من الداخل ثم تزين بنقوش معقدة وجميلة في أن واحد تغطي الجدران على مساحات واسعة . ويمتاز ذلك الطراز أيضاً بالأقواس المدبية ، أو أقواس حدوة الحصان التى تعتمد إما على دعائم من الطوب الأحمر أو أعمدة رقيقة مزدوجة . وقد ساد هذا الطراز الأندلس كلها بعد سقوط خلافة بنى أمية ، فبنيت به الكنائس والقليل من المساجد ، وعن هذا الطراز تطور الطراز المورسكى وهو منسوب إلى المورسكيين Los Moriscos ، وهو لفظ إسباني معناه العرب أو المسلمون الصغار . وهو طراز يعتمد على صغر المباني ورشاقها دون فخامتها أو جلالها ، ونموذجه المشهور قصور الحمراء في غرناطة التى بناها بنو الأحمر ملوك غرناطة ٦٢٩ — ٨٩٧ هـ / ١٢٣٢ — ١٤٩٢ م ، وهى تتكون من مجموعات متوالية من الأبنية والممرات والغرف الصغيرة والأبنية المكشوفة تزينها البرك ، وكل جزء فيها مثقل بالزخارف والنقوش من كل صف ، وتمتاز بالجوامق الجميلة الأنيقة التى تقوم على عمد رقيقة من الرخام ، كما نرى في بهو السباع وهو من أشهر الآثار العمارية في الدنيا .

وفي الجانب الشرق من عالم الإسلام نجد الطراز الإيراني . المشهور بهواباته العالية المكسوة بالرخام ذات الأقواس الزخرفية المدبية ، والقباب العالية الكبيرة القطر المزينة

من الخارج بالزخارف على القاشاني ملونة وغير ملونة . وصحون للمساجد الإيرانية  
 ليده مرتفعة السقف تحمى على دعائم من الحجر وأعمدة الرخام معاً . والمآبر  
 الإيرانية آيات من الفن الزخرفى الجميل تضلوع فى جمالها للمآبر المغربية التى يعد  
 بعضها أعمالاً ضخمة عائدة كاملة ، حتى لقد كتب هنرى تراس HENRI TERASSE  
 كتاباً عن منبر واحد منها وهو المنبر القديم لجامع الكُتَيْبَة . ومآذن هذه المساجد  
 الإيرانية منارات عظيمة الارتفاع ، يصل بعضها إلى ثلاثين متراً فى الجو ، وتتعدد  
 فيها مواقف الأذان .

لما العمارة الإسلامية التركستانية والمهندية فتمتاز بقبابها العالية الكثيرة وبواباتها  
 الواسعة العالية ذات الأقواس المدببة المزينة بالقاشاني للزخرف الملون ، وهى تعد من  
 تسمية استمراراً وتطوراً للفن الإيرانى وللتقاليد الفنية الهندية القديمة فى قالب إسلامى .  
 ومما كانت المساجد المهندية لا تمتاز بالارتفاع ، فهى تمتاز بالقباب الرائعة الكثيرة  
 وللمآذن التى تبنى على زوايا الجدران الخارجية للمسجد كأنها الأبراج ، وتزين  
 الجدران فى الداخل والخارج بالرخام وصفائح المعدن التى تغطى بها أحياناً رؤوس  
 الأعمدة ، وفى بعض الأحيان تلون المساجد من الخارج بألوان زاهية تجذب الأنظار .

ويدخل فى جملة المساجد المهندية والإيرانية الأضرحة أو الروضات ، وقد شاع  
 إنشاءها والتفتن فيها فى إيران والهند . والروضة عبارة عن مسجد صغير يمتاز بقبابه  
 ومآذنه ، تحيط به فى العادة روضة واسعة تزينها برك الماء . ونماذج الروضات المشهورة  
 فى شرق العالم الإسلامى روضة السلطان همايون فى دلهى وقد بنيت سنة ١٥٢٥ ،  
 وروضة التاج محل فى أجرا ، وقد سبق أن ذكرناها . ومن أشهر المساجد الإيرانية  
 مسجد الشاه عباس فى أصفهان ، وقد بنى فى القرن السابع عشر وهو من إنشاء  
 العمارة أستاذ على أكبرى أصفهانى ، ويمتاز هذا المسجد ببوابته العالية ذات القوس  
 المدبب المغطاة بالرخام والمزينة بالقاشاني الملون ، ويمتاز كذلك بقبته العالية تزينها  
 معدنان جهنمان ، والقبة مغطاة من الخارج بالقاشاني الأخضر المزين بالزخارف .

ومن طرز العمارة الإسلامية المشهورة الطراز التركى العثمانى ، الذى نشهد له ذمجه  
 الجميلة فى بروسة والآستانة وأدرنة وغيرها من المدن التركية . ويمتاز هذا الطراز  
 بكثرة القباب ما بين كبيرة وصغيرة فى الجامع الواحد ، ويمتاز كذلك بمآذنه الرفيعة  
 الطويلة التى تروق النفس برشقتها وانطلاقها فى الهواء . ودخل المساجد التركية يمتاز

بفخامة ترويع النفس ، تقوم على الأقواس الضخمة العالية ، والقباب المرتفعة ، والدعامات الحجرية السمكية ، ومجموعات النوافذ تزين أعلى البناء وتفيض النور بداخله . ومن أشهر المساجد العثمانية مسجد السلطان سليمان ، وهو من بناء العمارة التركى الأشهر منان الذى وضع أساس فن العمارة التركى ، وقد بناه فيما بين سنتى ١٥٥٠ و ١٥٥٦ . وقد تولى منان سنة ١٥٧٨ ، وهو يعد من كبار المماريين فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، ومبانيه — التى تمت كلها خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر — تضارع أعظم المنشآت التى بناها المماريون الإمبراطوريون فى عصر النهضة ، ومن مساجده للشهيرة شاه زادة والمحمدية والسليمانية وجامع بايزيد ، وكلها تضارع مسجد آياصوفيا فى الفخامة والجلال . ومن تلاميذه محمد آغا بن عبد المؤمن ، وهو أيضاً من كبار المماريين فى تاريخ الإسلام ، ومن أعظم مساجده مسجد السلطان أحمد فى الآستانة وقد بنى فيما بين سنتى ١٦٠٩ و ١٦١٩ .

#### الفنون الصغيرة عند المسلمين :

يراد بالفنون الصغيرة الأقمشة والأنسجة المزركشة بأنواعها ، سواء أكانت ملابس أم سترأ أم معارِش أم سجاجيد أم بسطاً ، والأدوات المعدنية ما بين نحاسية وبرونزية وحديدية أحياناً — بشرط أن تكتسى حلة فنية وتصبح قطعاً فنية لا مجرد أدوات منزلية — ومصنوعات العاج المشغول والخشب المزخرف والمخلى بالعاج والصدف والآبنوس والزخارف المختلفة ومربعات القاشانى وأوالى الفخار والحرف بأنواعها ، أى أن الفنون الصغيرة تشمل كل تلك المصنوعات التى تستخدم فى الحياة اليومية أو فى الحرب أو فى زينة البيوت ، وتصلح فى الوقت نفسه لتكون من أدوات الترف وأعمال الفن ، مما يسمح للفنان بأن يضى عليها من ابتكاره أو يعطيها صورة فنية خالصة .

وقد أبدع أهل الصناعة والفن من العرب والمسلمين قطعاً فنية فريدة من هذه الأدوات كلها ، والإبداع هنا لا يتجلى فى إتقان الزخارف وبراعة خطوطها وانسجام ألوانها فحسب ، بل فى دقة الصناعة نفسها ، فقد نبغ المسلمون فى صناعة الأنسجة حتى أخرجت مناسج مصر ثياباً كاملة لا يزن ثوب الرجل منها أكثر من خمس

لوقيات ، واقتدروا على نسج ثياب فيها خيوط من الذهب وأخرى من الفضة ، وهذه الثياب الغالية هي التي كانت تزخرف وتحلى بالرسوم .

وفي متاحف الآثار في العالم اليوم قطع بديعة من نسيج مصر الفاطمية من الكتان ، ونسيج إيران القطنى مزخرف بالحرير تعد من المعالم البارزة في تاريخ النسيج في العالم . ويكفى أن نذكر هنا أن إيران كانت تصنع أحسن صنوف الخمير ، ومصر كانت تنتج أحسن نسيج كتاني في العالم في حين أخرجت مناسج اليمن والعراق أجمل حرير في الدنيا في العصور الوسطى ، وقد كانت قواعد الصناعة الإيرانية في الخمير هي التي اقتبسها الأوروبيون عندما أنشأوا صناعة نسيج الخمير في بلادهم .

ومن أمثلة البراعة في صياغة المعدن تكفيتُّ أولى النحاس والفضة بخيوط من الذهب تلحم في المعدن وتعطى أشكالاً وصوراً زخرفية غاية في الإبداع ، وكذلك تطعيم الخشب بالعاج والصدف ، وتزيين الآبنوس بالذهب والفضة . وفي متاحف الفن الشيء الكثير من روائع الصناديق والعلب الإسلامية التي أبدع فيها الفنانون المسلمون .

وقد بلغ المسلمون في صناعة الزجاج شأواً عظيماً ، فصنعوا الزجاج المبسوط الذي يستعمل في النوافذ والأبواب ، وصنعوه أبيض وملوناً ومنقوشاً ، وأبدعوا في صناعة آنية الزجاج من كؤوس وأكواب غاية في الرقة وزينوها بالميناء ، وعرفوا كذلك كيف يصنعون البللور — أى الكريستال — الصافي الأبيض واللون ، وصنعوا منه الأكواب والأباريق ، وأنقنوا كذلك صناعة الخزف الساذج والخزف ذي البريق المعدنى وكذلك مربعات القاشاني وأدواته ، وزينوا ذلك كله بالنقوش والرسوم والكتابات الزخرفية . وفي متاحف الفن العالمية مجموعات من جلود الكتب تفنن المسلمون في صنعها وزخرفها بالذهب والألوان الزاهية وبخاصة اللونين الأزرق والأحمر . ولدينا كذلك نماذج رائعة من سجادات الصلاة من إنتاج بلاد الإسلام كلها ، أما أفراد المسلمين بائحتاج أحسن السجاجيد في العالم فأمر مشهور لا يحتاج إلى بيان ، وأشهر البلاد التي امتازت بصناعة السجاجيد والبسط إيران وتركستان والهند . وفي المغرب يصنعون قُرْشاً بسيطة من الصوف في غاية الجمال تسمى بالزراي ( المفرد زُرِّيَّة ) .

## التصوير والنحت عند المسلمين :

يلحظ كثيرون إلى أن الإسلام يحرم التصوير ، ومع أننا لا نجد في القرآن الكريم شيئاً يؤكد هذا الرأي ، بل لا نجد حديثاً شريفاً موثقاً بصحته يمنع المسلمين من التصوير والنحت ، إلا أن الكثيرين من الفقهاء نصوا على ذلك التحريم ، قنلاً لباب عبادة الأصنام بصورة نهائية في مجتمعات المسلمين .

ولكن التصوير عند المسلمين — مع ذلك — حقيقة واقعة ، فتاريخ الشعوب الإسلامية حافظ بالرسوم والتصاوير من كل نوع ، ولم تكف جماهير المسلمين في كثير من مواطنهم بعمل تماثيل صغيرة ، للتسلية والزينة أو للعب الأطفال وما إلى ذلك ، بل نبغ من بين المسلمين رسامون ومصورون ونحاتون يعدون اليوم من أعلام تاريخ فن التصوير العلي ، من أمثال بهزاد وسليمان محمد وأستاذ محمدى ورضا العباسى وغيرهم . ولدينا في حمراء غرناطة لوحات ملونة تسمى بلوحات الملوك العرب ، رسمت في القرن الرابع عشر للميلادى على نحو من الدقة والإتقان في تصوير الأشخاص والمناظر لم تصل إليه أوروبا إلا في القرن السادس عشر للميلادى ، سواء في إيطاليا أو هولندا ، مما يؤكد لنا أن فن التصوير الأوروبي ولد في الحقيقة على يد مسلمى الأندلس ، وهذا موضوع لا بد من دراسته وإظهار فضل العرب فيه .

ويستوقف النظر أن فن التصوير نشأ عند المسلمين نتيجة لحبهم للقرآن الكريم ، ورغبة الأكرام منهم في الحصول على مصاحف محلاة بالزخارف والألوان ، مما جعل الخطاطين والمزخرفين يكفون على عمل هذه المصاحف وإنفاق الوقت الطويل في إعدادها وكتابة خطوطها بالذهب وزخرفة الصفحات بالوحدة الزخرفية الملونة . ويتجلى ذلك كله في الصفحات الأولى من المصاحف وفي فواتح السور .

وسواء في مصر أو الأندلس أو إيران ، نجد أن كتابة المصاحف وتزيينها بالزخارف هي نقطة البداية في فن تصوير الكتب بالرسوم الصغيرة التي تسمى بالمنمنات ، فقد تطرق الفنانون من إعداد المصاحف المزخرفة إلى إعداد نسخ من الكتب التي يزداد إقبال الناس عليها إذا كانت مصورة مزخرفة برسوم صغيرة لمشاهد من النص أو برسوم توضحه ، وأكثر الكتب قابلية لذلك كانت كتب الأدب القصصى مثل كتاب كليلة ودمنة ومقامات أبى القاسم الحريرى والشاهنامة وقصص ألف ليلة . ومن أطرف

الكتب المصورة لدينا سيرة نبوية كريمة صور صانعها كل المشاهد التي لا يظهر فيها رسول الله ﷺ ، وفي هذا المخطوط نرى تصاوير أنى جهل وأنى طب والوليد ابن المغيرة وغيرهم من أعداء الإسلام وعلى رأسهم إبليس ، الذى يبدو فى تلك الصور مجتمعا مع الكفار يحزه عهم قرنان يبرزان من جبينه .

وقد اشتهرت فى عالم الإسلام مدرستان فى عمل الكتب الفاخرة المصورة : المدرسة المملوكية وهى تعنى قبل كل شيء بالمخط نفسه ، فتأتى فى كتابة النصوص وتزيين العناوين بالزخارف الملونة ، وتقف عند ذلك الحد ، ثم المدرسة الإيرانية التى ولدت خلال العصر الساسانى الثانى وظهرت أعمالها فى تصوير مناظر الكتب ومشاهد ما تقتص من أحداث ، وعن هذه المدرسة ولدت المدرسة الإيرانية الصفوية التى ظهرت أيام الصفويين فى إيران فى بلدة هراة فى عهد الشاه إسماعيل الصفوى ، وهى فى أصلها مدرسة مخطوط أى مدرسة خطاطين تطورت مع الزمن شيئا فشيئا . ومن المعروف أنه ظهرت فى إيران وهما الهند مدرسة خطاطين ممتازين أيام دولة المغول تسمى مدرسة الخطاطين التيمورية .

من هراة انتقلت مدرسة التصوير الإيرانية إلى تبريز عاصمة إيران الصفوية ، وهناك اجتمع عدد عظيم من أساتذة الخط — وبخاصة النسخ والثلث — وقصم إليهم عدد كبير من المزخرفين واللونين ، وقد أبدعوا فى عمل مخطوطات مزخرفة تعد من آيات فن الكتب فى تاريخ المسلمين . وقد كان لهذه المدرسة أثر كبير فى صناعة السجاد ، إذ اشتغل الكثيرون من أساتذتها فى وضع تصميمات زخارف السجاجيد الإيرانية المشهورة .

ومدرسة تبريز كانت أساساً لمدارس الخطاطين والمزخرفين التركية والهندية ، فقد كان قيام مدرسة الأساتذة للخطاطين والمزخرفين عملا من أعمال أساتذة انتقلوا إليها من تبريز وعلموا نفرأ من شباب الأتراك هذا الفن . ونشأت فى دهل مدرسة مشابهة قامت على أصول هندية قديمة ، وكان ذلك فى القرن السادس عشر الميلادى .

ونتيجة لجهود مدرستى هراة وتبريز ابتكر فن تصوير الكتب بالزخارف والشمعات ، وأقبل عليها جمهور المسلمين إقبالا عظيما فراجت سوقها وزادت حماسة العاملين فيها ، فقدم منهم تقدما عظيما . وفى متاحف الفن ومكتبات العالم اليوم



عشرات من المخطوطات المصورة من كتاب كليلة ودمنة ومن كتب الرحلات ومن الشاعنة للفردوسى ومن دواوين الشاعر نظامى ورباعيات الخيام .

وفى مراسم فنانى مدرسة المنمنات ولدت مدرسة من أكبر مدارس التصوير فى تاريخ الفنون عند المسلمين . ورأس هذه المدرسة بهزاد ، وأصول تصويره كلها مغولية ، ولهذا نجد صور الأشخاص فيها ذات ملامح مغولية صينية ، وكذلك تصويره للأشجار والزهور والبساتين يسر وفى التقاليد الصينية . وقد عاش بهزاد أيام الشاه إسماعيل الصفوى وأقام فى تبريز حتى سنة ١٥٢٠ م ، وهو أول من استبعد المخطوط والكتابات من التصوير ورسم لوحات قائمة بذاتها . والباقي لدينا من تصاوير بهزاد قليل جداً ، ولكن تصاوير تلاميذه من أمثال محمود مذهبى وسلطان محمد ورضا عباسى كثيرة جداً ، وهى من كبار الأعمال الفنية التى لا يخلو من نماذجها تاريخ لفن التصوير فى العالم . وقد عاش سلطان محمد أيام الشاه طهماسب خليفة إسماعيل الصفوى ، وهو أول من عمل من رسومه مجموعاً سماه المرقع — وهو لفظ عربى يورائى يقابل ما نسميه اليوم بالأكبوم — جمع فيه رسوماً ولوحات مستقلة بذاتها ، أى ليست متصلة بنص كتاب ، وهى مستقاة من الأساطير والحكايات الشعبية .

وأكبر من نبغ بعد سلطان محمد هو رضا عباسى ، وقد عاش وعمل فى أصفهان وأنشأ فيها مدرسة فنية خلال القرن السابع عشر الميلادى . وقد استوفقت لوحاته الأوروبيين عندما وصلت إلى هولندا ، وكان فن التصوير فيها فى أوجبه فى ذلك الحين ، وقد بلغ من إعجاب الأوروبيين بلوحات رضا عباسى أن أصبحت طرازاً جديداً أقبل عليه الناس وقلدوه فى أوروبا كلها حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، وهو يركز على صور الشخصوس ومناظر الطبيعة والأكوان .

وإلى جانب هذه المدرسة الإيرانية ظهرت مدرسة التصوير الأندلسية ، وقد قامت فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ونشأت نماذجها أولاً فى تصاوير النسيج والرسوم على الأطباق والأباريق وأكواب الزجاج ، ثم تطورت إلى عمل اللوحات ، ونماذجها كثيرة جداً فى متاحف إسبانيا وبقية العالم اليوم ، ومن أسف أن كل فنانها مجهولون لا نذكر منهم واحداً باسمه وإن كنا نعجب بما لدينا من نماذج أعمالهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى لوحات ملوك العرب الموجودة فى بعض سقفوف قصور الحمراء ، وقد كان هناك من يزعمون أن الذين قاموا برسمها كانوا رسامين إيطاليين

وغدوا على بلاط بنى الأحمر في غرناطة ، ولكن يتضح لنا خطأ هذه النظرية عندما نعلم أننا لا نجد في إيطاليا خلال القرن الرابع عشر الميلادي كله رسامين يصلون إلى مستوى تصاوير السقوف التي نشير إليها . وهذا يثبت بشكل قاطع أن هذه اللوحات ليست من عمل إيطاليين ، وإنما هي من عمل أندلسيين ، فنحن لا نجد لها ولا نجد هذا المستوى الفني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي إلا هناك . وقد انطمس الكثير من معالم ذلك الفن التصويري الأندلسي لأسباب غير معروفة ، فبينما كانت لدينا تصاوير واضحة على جدران الحمراء وسقوفها حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، اختفى الكثير منها الآن ، ومن حسن الحظ أن عدداً من الرحالة المصورين احتفظوا لنا بالكثير من نماذجها .

وهذه النماذج الأندلسية تقرر بوضوح أن فناً إسلامياً تصويرياً أزهى في الأندلس خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين أمام بنى نصر بن الأحمر ملوك غرناطة ، وربما كان لهذا الفن أثر في ميلاد فن التصوير في الغرب .

وفي كل بلاد الإسلام تقريباً تطور فن النحت في صورة الزخارف البارزة على الخشب والعاج والرخام ، ثم استعمل في صنع تماثيل صغيرة لحبوات من العاج والمعدن ، وقد اشتهرت بذلك مصر الفاطمية والملوكية والأندلس لابتداء من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ولدينا من نماذج النحت الفاطمي تماثيل كاملة غاية في الإتقان ، وكذلك لدينا نماذج من النحت الأندلسي لا تقل عن أرق ما وصل إليه فن النحت الأوروبي حتى القرن السابع عشر الميلادي .

ويجدر بأهل الفن في بلاد الإسلام اليوم أن يدرسوا هذه التقاليد الفنية التي خلفها الموهوبون من أهل أجيالهم الماضية لأجكار مدارس قومية في التصوير والنحت تحمل الطابع القومي ، كما فعل محمود مختار عندما استلهم منه من التقاليد المصرية القديمة وصاغ تماثيله على قواعدها ، فكان هذا سبب خلود فنه . وجدير بالذكر أن محمود مختار هو الفنان العربي الوحيد الذي أنشأ طرازاً فنياً قائماً بذاته ، يمتاز بشخصية وملامح ظاهرة تنطق بأصوغها القديمة وتتناهى مع تيارات الفن المعاصر .

### الموسيقى عند شعوب الإسلام :

أثارت مسألة الموسيقى والغناء والسماع جدلاً شديداً بين الفقهاء ، فأجاز ذلك

نفر من أئمتهم مثل أبى حامد الغزالي الذى اختص السماع وآدابه بفصل قائم بداعيه فى كتابه الأشهر « إحياء علوم الدين » ، وعلاصة رأيه قوله : « وما يدل على تحريم السماع نص ولا قياس » وقوله : « لا وجه لتحريم سماع صوت طيب » . وحرمة منهم نفر آخر على رأسهم مالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعى . وقد تشدد فى التحريم قوم جعلوا يحض ترنم الرجل — إذا خلا بنفسه — عطفوة . وبطبيعة الحال يستند كل فريق إلى تفسيرات شتى لآيات من القرآن الكريم ، وإلى أحاديث نبوية كثيرة يختلف العلماء فى الحكم عليها من حيث الصحة وعلمها .

ولكى نفهم مواقف كبار الفقهاء من هذه المشكلة — التى تبدوا لنا اليوم أبسط من أن تكون موضع نقاش وأخذ ورد طويلين — علينا أن نضع موضوع الغناء والموسيقى فى عالم المسلمين فى إطارها التاريخى فى أثناء العصور الماضية ، فإن ذلك يفسر لنا لماذا حمل نفر من أئمة الفقهاء على الموسيقى والموسيقين والغناء والمغنين حملة كبرى .

ذلك أننا ننحكم فى هذه المسألة على ضوء صورتها ووضعها الحالىين فى مجتمعنا الراهن ، فتحزن اليوم نسمع الغناء والموسيقى الجديريين بهذا الاسم من مغنين ومغنيات وموسيقين محترمين لهم سميت ووقار ، وهم يدرسون فنههم دراسة علمية وفنية شاقة حتى يصلوا إلى مستوى فنى رفيع ، وهم يعزفون أو ينشدون كلاماً أديباً جميلاً ينطوى على معان إنسانية وقومية رفيعة يقولها شعراء مجيدون . وبعضنا كذلك يستمتع إلى ما يعرف بالموسيقى الكلاسيكية الغربية ، وهى قطع فنية رفيعة وضعها موسيقيون موهوبون عبروا بالنغم عن أجل وأرفع ما فى الكون والنفس البشرية . ومننا من يستمعون إلى الأوبرا فى مسارحها ، فيرون ويسمعون أعمالاً فنية جليلة ، تقوم على قصص رفيعة وتلحين مبدع لا يقوم به إلا رجال موهوبون على حظ كبير من العلم والخبرة بالموسيقى ، وهم لم يصلوا إلى ذلك إلا بعد دراسات وصبر ومعاينة . ونحن نستمتع إلى هذا كله ونحن جلوس فى أمكنة مخصصة للسماع على هيئة مسودها الوقار والحشمة واحترام ما يلقى إلينا من فن وتقدير لمواهب الموسيقين والمثشدن دون أن تبدر من جمهور السامعين بوادر خفة أو طيش أو دون أن يصاحب ذلك كله مظهر من مظاهر الخلاعة أو سوء الخلق .

وهذه الصورة الحديثة عن السماع في يومنا هذا تجعلنا نتعجب كيف يجرم ذلك إنسان أو يرى فيه شيئاً مخالفاً للدين .

ولكن الأمر في العصور الماضية كان يخالف ذلك كل المخالفة ، فإن الغناء والموسيقى كانا مقصورين في الغالب على وسطين من أوساط الناس : الأول وسط القصور التي يمش فيها أصحاب الجاه والمال ، الذين كانوا يستطيعون شراء الجوارى والقيان ويجلسون لسماعهن جلوساً بعيداً عن الحشمة في قصورهم ، ويدعون أصحابهم إلى ذلك السماع ، ويدور الشراب ويتبدل الناس تبديلاً شديداً ، ويطرحون الحشمة ويقع ما يتنافى مع الخلق والكرامة وكل معنى من معاني الدين .

أما الوسط الثاني فهو دور اللهو والشراب في الأسواق ، وكان الذين يقومون بالمزف والغناء فيها أهل خلاعة وفساد وفجور واحتيال على المال وإقبال على الشراب ، فكان لا يلم بهذه الأمكنة إلا المتجردون من الحشمة أو طلاب اللهو المبذل أو البسطاء والحمقى ممن يعرضون كرفاتهم للهوان وأموالهم للتلف ، ولا يخلو الأمر من عراك وشجر بين أشرار يتخذون هذه الأمكنة أوكاراً ومراكز لاستغلال النساء والحمقى والمهروب من طائلة القانون .

وأما عامة الناس وأوساطهم وجماعات أهل الريف من أهل الحشمة ؛ فقلما كانت تتاح لهم فرص السماع أو الاستمتاع بالموسيقى ، فيما عدا ما يكون من المناسبات الاجتماعية كالأعراس وما إليها ، وهنا لا تغنى قيان أو مغنيات أو مغنون من أهل الاحتراف ، لأن الغناء في تلك المناسبات الاجتماعية يكون جماعياً ونادراً ما يخرج على الحشمة ، ومن ثم فهو لا يدخل في نطاق بعده للتشددون محرماً ، بل كان يجري أهام الرسول — ﷺ — دون أن يلقى استهجاناً .

إذن فالسماع الذي كرهه أهل الفقه هو ما كان يجري في قصور المترفين وفي دور اللهو والحانات ، وهذا كله خليع يطلب عليه الجون والسقوط مما ينفر منه أهل الديانة والوقار والعقل والحرصون على سمعتهم ، وهذه الأكلان من اللهو مستهجنة مردوفة في كل زمان ومكان ، وفي كل مجتمع ، بل هي في أهلكنا هذه مقصورة على أهلها يتعاشاها مساكين الناس دون تحذير من فقهه أو تحريم من رجل دين .

وهناك نوعان آخران من الغناء والرقص عرفا في العصور الوسطى ، فأما أولهما فغناء جماعات المنين والراقصات ممن كانوا يسمون بالجور أو الفوازى ومن يجرى مجراهم ، وهو لم يرفل بطبعه يمارسه ناس متنقلون يسلمون به العوام في الأسواق ويجمعون منهم ما تبسر لهم من المال ، وهم لا يتعففون عن السرقة والموبقات ، وهذا أيضاً يدخل تحت المستهجن الذى يتحاشاه أهل الحشمة وينفر منه أهل الفقه والدين . ومن هنا فموقف العداء الذى وقفه رجال الدين في العصور الوسطى من الموسيقى والغناء موقف معقول ، إذا تصورنا الموضوع على الصورة التى وصفناه بها . وهم لم ينفروا من الموسيقى والغناء لذاتها ، بل للجور غير المحتشم الذى كان يحيط بهما ، وللكلام الذى كان يقال في الأغاني عندما تنفى على الصور التى وصفناها . أما الموسيقى والغناء في ذاتهما فلم يستكرهما أحد ، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه من الممكن أن تعرف الموسيقى وينشد الغناء بعيدين عن كل تبذل أو انحطاط أو دعوة إلى الرذائل تبيّن أنه لا حرج على الناس — أيّاً كان مكانهم من الديانة والصلاح — في السماع للنغم الجميل النبيل الذى يعزف ليسمو بالنفس إلى المعاني العالية ، والغناء الذى يتضمن معاني الحقة والكرامة والوطنية وما إلى ذلك وينشد في سمع كريم ووقار شامل .

ونعود إلى الغناء الجماعى الذى ينشده الجوالون في الأسواق ، فنقول إن هذا الطراز من الإنشاد وجد إقبالا عند جماهير الناس في كثير من بلاد المسلمين ، مثل الأندلس حيث ارتقى الناس به فلم يقتصر على المعجر والفوازى ، بل أقبل عليه عامة الناس في الأسواق وشاركوا فيه فغنوا بما أهمهم من الأمور وما شغل بالهم من الأفكار ، بل استمال هذا الفن أصحاب الملكات الشعرية المزهرة فابتكروا الزجل ، وهو شعر عامى بدأ الناس يصوغونه على لوزان الشعر الفصيح في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادى ، واشتهر به أول الأمر رجل من أهل مدينة قرطبة قرب قرطبة يسمى «مقدم بن معافى الضرير» ، وتبعه كثيرون في نظمه ، ثم ابتكر الناس له مجوراً وأوزاناً خاصة وجعلوا منه فناً شعرياً أصيلاً نبغ فيه رجال ممتازون من أمثال «أبى بكر عبادة بن ماء السماء» ثم «أبى بكر بن قرمان» ، وهذا الأخير عبقريّة شعرية حقيقية صوّر في أوزانه مجتمعه وحياة الناس من حوله على صورة لا نجدها في أى عمل أدبى آخر .

وبينا كانت العادة أن ينظم الناس الشعر ثم يضعوا له الألحان ، نجد أن الأمر كان على العكس مع الزجل : كان الرجالون يأخذون أنغاماً شعبية سائرة وينظمون لها الكلام على نحو يتفق مع طريقة إنشاد هذه الألحان . فهناك مدخل تضبه الجماعة معاً ، ثم يبنى منشد منفرد أشطاراً قد تكون أربعة أو ستة على روى واحد ، وهذه الأشطار تسمى الغصن ، وعلى ذلك شطران على روى المدخل يسميان الخرجة ، ثم يبنى الجميع المدخل ، ومنفرد المنشد المفرد بعد ذلك بإنشاد غصن آخر مثل الأول ، تليه خرجة ، ثم الإنشاد الجماعي . وبعد إنشاد بضعة أغصان يبنى المنشد خرجة نهائية تسمى القفل ، يعقبها الإنشاد الجماعي .

وقد شاع الزجل بعد ذلك شيوعاً عظيماً في الأندلس ثم في المغرب ، ومن هناك انتقل إلى المشرق . وكانت له سوق نافقة ، فأقبل عليه الناس وكثر الرجالون وصانعو الألحان لها ، بحيث أصبح الزجل والأغاني التي تقوم عليه أساس فن الغناء الشعبي في كل مكان في العالم العربي والإسلامي .

ومع الرجل نشأ الموشح ، وهو — إذا أردنا إعطاءه تعريفاً مبسطاً — زجل يكون بالعربية القصصى ، غير أن خرجته قد تكون بالدارجة أو بالعجمية ، أى بلغة غير عربية كما كان الحال بالأندلس . وقد لقيت الموشحات ، إقبالاً عظيماً وانصرف إلى صياغتها شعراء كبار امتازوا بها وفتتوا فيها ، وكما انتقل الزجل من الأندلس إلى المشرق ف كذلك كان الأمر مع الموشح : انتقل هو أيضاً إلى المشرق وشاع استعماله فيه ، واستمر الناس يوشحون ويلحون الموشحات حتى زمن قريب .

وقد انتقل الزجل والموشح إلى الغرب الأوروبي وظهر في جنوى فرنسا حيث ظهرت أرجال وموشحات بروفانسية — والبروفانسية هي اللغة الفرنسية التي كانوا يتكلمونها في جنوى فرنسا — وظهر شعراء زجالون ووشاحون بين أهل هذه البلاد ، وتكونت فرق من المنشدين الشعبيين تعنى هذه الموشحات البروفانسية عرفوا باسم التروبادور *les troubadours* . وانتقل هذا الفن إلى إيطاليا ، وظهرت هناك جماعات المغنين الشعبيين التي عرفت باسم التروفاتوري *gli trovatori* ، وانتقلت كذلك إلى ألمانيا حيث عرفت باسم المينيسنجر *die minnesänger* أى منشدى للقطعات ، وفي إنجلترا عرفوا باسم للنستزل *the minstrels* .

وهذه الأغاني الشعبية لم يخل منها شعب عربى لو إسلامى ، بل أى شعب على الأرض ، وهى لا تخضع لإباحة أو تحريم لأنها ليست لها خلاصا ، وإنما هى جزء من حياة الشعوب ، فإن الشعوب تعمل وتحارب وتغنى ، وأغانيها هذه صورة لنفوس أهلها وتصوير لمشاعرهم وتفرغ عن نفوسهم ، وهى جانب مهم من الفولكلور الذى أشرنا إليه ، وهى من هنا أصيلة فى الغالب وموسيقاها طبيعية غير مثكلفة ، لأنها جزء من حياة الشعوب ، فالفلاحون ينشدون أغاني الحقل ، والملاحون ينشدون تقاشيد البحر ، والرعاة ينشدون أناشيد الرعاة ، والعمال ينشدون ألحانا على وقع حركاتهم فى العمل ، وهذه الأغاني والأنغام الشعبية هى المنبع الذى تنترف منه وتستوحيه الموسيقى الأصيلة لأى شعب من الشعوب .

وبالنسبة للعرب ، كان غناؤهم الشعبى الأصل هو الحداء أو الحدو ، وهو إنشاد تقاد الجمل أو راكبه على وقع خطواته فى الرمال ، وهو غناء ساذج لطيف تستريح له الأذن وتأس به الحمال أثناء السير ، وقد ابتكر له العرب أناشيد رقيقة جميلة تتماشى معانيها مع طبيعة الحياة الصحراوية .

وقد انتقل الحداء مع العرب إلى كل بلد ذهبوا إليه ، وصبوه فى تيار الموسيقى الشعبية فى كل مكان ، وما زال حيا إلى اليوم فى كل نواحي صحراء جزيرة العرب وفى كل النواحي الصحراوية فى العالم الإسلامى ، بل نجد صورة منه اليوم فى بلد لم يعد عربيا وهو البرتغال ، فإن الغناء القومى الأصل هناك يسمى الفادو Fado وهو فى الحقيقة لفظ الحدو العربى .

وهناك نوع آخر من الموسيقى والغناء فى البلاد الإسلامية قام حوله جدل طويل هو إنشاد الصوفية ، وقد أنكر غالبية العقهاء هذا الغناء وما يصاحبه من حركات يأق بها الصوفية لضبط الإيقاع تتناقض مع الخشوع الضرورى للعبادة ، وحملوا على الصوفية حملة شديدة لهذا السبب ، ولم يقل بجواز ذلك إلا قليل من الأئمة مثل آق حامد الغزالى فى فصل خاص من « إحياء علوم الدين » عنوانه « آداب

السماع . وجدير بالذكر أن الغزالي خالف الفقهاء التقليديين في موقفهم من الصوفية ، لأنه هو نفسه كان ذا نزعة صوفية ظاهرة .

والحقيقة أن بعض طوائف الصوفية أسرفت في الإنشاد الجماعي أو الفردي وفي الرقص الذي يصاحبه ، فصارت أفكارهم أقرب إلى التسلية والفحل المؤدين إلى الفساد ، وبخاصة عندما أصبح ذلك الإنشاد جزءا من الاحتفالات الشعبية المصاحبة لموالد الأولياء ، فصار الإنشاد والرقص سبيلا للفساد . ولكن هناك طوائف من الطرق الصوفية التركية — مثل المولوية والبكتاشية — جودوا الغناء والرقص حتى أصبحا فنين مستقلين عن العبادة ، وقد وصلوا بهذا التجويد إلى نوع يعد من أرق رقصات الباليه الجماعي ، وحتى الحرب العالمية الأولى كان السائحون في مصر وتركيا يحرصون على شهود رقص الدراويش الدوارين في خاتقاواتهم ، لأن ذلك الرقص كان تسلية ومعة . وقد احتفظ الرقص الفولكلوري التركي المعاصر بمشاهد من ذلك الرقص الطريف .

#### العلم الموسيقى عند المسلمين :

ولابد للباحث في الموسيقى عند المسلمين أن يدرس الناحيتين النظرية والعملية للموسيقى كلا على حدة ، لأن فلاسفة المسلمين وعلماء الموسيقى عددهم درسوا الموسيقى وألفوا فيها على أساس نظري بحث ، لا علاقة له بالموسيقى المطبقة المسموعة . فهم يدرسون النعم وماهيته وأنواعه ومطابقة هذه الأنواع للطبائع الأربع ، فقد قسموا المواد التي خلقت منها الأشياء إلى أربع مواد ، هي : الماء ، والهوا ، والتراب ، والنار . وقالوا إن الإنسان أيضا مركب من أربعة عناصر مقابلة للمواد الأربع وهي : الدم ، والفس ، والجسد ، والروح . وقالوا إن طبائع الأجساد البشرية أربع مقابلة لهذه ، هي : الحرارة ، واليبوسة ، والرطوبة ، والصفراء .

وهذه الطبائع الأربع تسمى أيضا بالأمزجة ، فلكل إنسان مزاجه وهو الغالب



على تركيبه من هذه الأربعة . وعلى هذا الأساس قالوا إن العود هو الآلة الموسيقية الكاملة ، لأنها تتركب من أربعة أوتار تقابل الطبائع أو الأمزجة الأربعة ثم استرسلوا في الكلام عن الأنغام والأصوات وربطوها بالكون والحجوم ، وساروا في ذلك مدى بعيدا .

وقد أخذ العرب هذا العلم الموسيقى النظري عن اليونان ، ثم استقلوا بأنفسهم فأنشأوا فيه المقالات والكتب ، وكلامهم يدور حول الإيقاع والصوت والغم وقياس كل من الأصوات والأنغام . وأول من ألفت في ذلك من العرب ابن بسنج الذي عاش في الحجاز وتوفي فيما بين سنتي ٨٦ و ٩٦ هـ / ٧٠٥ و ٧١٤ م ، وقد اعتمد في كلامه على نظريات فارسية وبيزنطية واتخذ أساسا لقياس الأنغام ، هو السلم الموسيقى الفيثاغوري ، وهو يختلف عن السلم الموسيقى المعروف اليوم في أن أنغامه الكاملة أربع أنغام تتخللها أنصاف وأرباع أنغام . وقد تناول هذا السلم بالتعديل إسحاق الموصلي المتوفى سنة ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م وأبو الفرج الأصفهاني المتوفى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، وقد اتخذ المسلمون سلاسل موسيقية أخرى .

وقد ألفت في النظريات الموسيقية عدد كبير من المسلمين ، وكان أول المجيدين منهم يونس الكاتب المتوفى سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م كما ذكر ابن النديم في كتابه المعروف باسم « الفهرست » . ولكن إمام المؤلفين في النظريات الموسيقية من العرب هو أبو يعقوب يوسف الكندي ، وهو فيلسوف العرب الأول والأكبر في آن واحد وقد تولى في سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م ومؤلفاته في الفلسفة والطبيعات والرياضيات تعد بالمشرات ، منها سبع رسائل في العلم الموسيقى استقصى فيها خير ما عند اليونان والفرس وأضاف من عنده مادة عربية وافرة ، وواصل عمله تلميذه السرخسي ( ت ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م ) ومتصور بن طلحة بن طاهر .

ثم ألف في الموسيقى ثابت بن قرة الحرائي المتوفى سنة ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م ومحمد ابن زكريا الرازي ( ت ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ) ، ولكن العلم بالموسيقى العربي بلغ ذروته عند أبي نصر الفارابي ، وكان فيلسوفا جليلا وموسيقيا ممارسا في نفس الوقت ، ومؤلفاته في الموسيقى تعد من الأصول الكبرى في العالم الموسيقى في تاريخ البشرية ، وقد أتم عمله تلميذه البوزجاني ( ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م ) ، وهو أعظم من ألف في الرياضيات والموسيقى من المسلمين .

وقد أفرد « إخوان الصفاء » في رسائلهم التي ألغت في القرن العاشر الميلادي ، فصولا لدراسة كل ما وصل إليه المسلمون في النظريات الموسيقية ، ولم تظهر بعد ذلك إضافة جديدة بالذكر إلا رسالة « المدخل إلى صنعة الموسيقى » التي أوردها الفيلسوف الأشهر أبو علي بن سينا في موسوعته الفلسفية المسماة بـ « كتاب الشفاء » .

وعلى الرغم من ضخامة الجهد العلمي الذي قام به المؤلفون النظريون في الموسيقى ، فإننا ينبغي أن نقرر أن عملهم كله ظل نظريا بحثا فلم يطبق على الواقع المستعمل ، وفيما عدا مناقشتهم الطويلة حول انتقال الأصوات عن طريق أمواج دائرية تتسع وتضعف كلما ابتعدت عن مصدر الصوت ، واعتدائهم إلى دائرة العم التي تجعل الأنغام يتسلسل بعضها عن بعض ، فيما عدا هذين الجانبين نجد أن الكلام النظري في الموسيقى يدخل في باب الرياضيات والفلك .

وقد ظهرت طبقة من علماء الموسيقى متوسطة بين النظريين والممارسين ، أي رجال مارسوا الموسيقى وصناعة آلاتها بأيديهم ودرسوا النظريات في آن واحد ، وأشهر هؤلاء صفي الدين بن عبد المصنم المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م وهو مشهور بكتابه « الرسالة الشرفية » وكتاب « طرائق الألحان » اللذين يدلان على معرفة حقيقية للموسيقى وتذوق لها ، وقد ضاعت غالبية مؤلفاته ولكن تلاميذه كثيرون ، وقد

عرفنا على قطع من كتاباته في الكتاب المعروف بـ « شرح مولانا مبارك شاه على طرائق الألحان » الذي ينسب إلى شاه شجاع ( ت ٦٨٥ هـ / ١٣٨٤ م ) .

وبدخل في زمرة أولئك العلماء الممارسين على بن نافع الملقب بزرياب ( ١٧٣ — ٢٤٣ هـ / ٧٨٩ — ٨٥٧ م ) الذي يعد بحق من أعلام أهل الفن والتجديد في تاريخنا الثقافي .

كان زرياب عبقرية مبتكرا في أكثر من ميدان ، وهو لم يؤلف كتابا ولكنه مارس الموسيقى عمليا منذ تعلمه على إسحاق الموصلي مغني هارون الرشيد ، وقد غادر بغداد — خوفا من غضب أستاذه — إلى القيروان حيث أقام ردها من الزمن في بلاط الأغالة ، ثم انتقل إلى الأندلس حيث رحب به عبد الرحمن الأوسط وأعقد عليه الصلات . وقد أنشأ زرياب في قرطبة مدرسة موسيقية يعلم فيها الشبان والشابات الموسيقى والغناء ، وكان يجع منهما سليما في تكوين الصوت وضبط الأنغام ومخارج الألحان وتنمية النطق الصحيح ، وهو الذي ابتكر الغناء الجماعي على نظام علمي فني ، وإليه ينسب تكوين أولى الفرق الموسيقية التي يشترك فيها منشلون ومنشادات يغنون جماعات أو فرادى ، وكانت الفرقة من هذه تسمى بالستارة ، وقد تتكون من ثلاثة فما فوق . وكان زرياب يضع للفرقة لحنا موسيقيا كاملا يشتركون فيه جميعا ، وتتفرد الغنيات بصوت . والمغنون بصوت آخر ، ويتضمن اللحن غناء منفردا ، وكان زرياب مخلصا لفنه فلم يهبط إلى مستوى الندامي والحواشي ، ولم يكن يزور القصر إلا لإقامة حفل أو للاتفاق على شيء يتعلق بالموسيقى ، وكان يشترط في تلاميذه والعاملين معه استقامة الخلق وحسن السمات واتساع الثقافة والاعتدال عن التبدل ، فارتفع شأن الموسيقى والموسيقين على يديه وأصبحوا فنانين محترمين لا مسلين ولا مهرجين .

لقد أصلح زرياب العود وأضاف إليه وترأ حامساً زاد من سعته الموسيقية ، وعود زرياب هو القيثارة الإسبانية أو الجيتارا La Guitarra المعروفة ، وهى من أكمل الآلات الوترية . وقد ابتكر زرياب بألحانه موسيقى رفيعة جديدة تقابل — فيما يتعلق بالموسيقى العربية — الموسيقى الكلاسيكية فى العرب ، وهذه الموسيقى تختلف عن الموسيقى الشعبية التى ذكرناها ، وهى التى يغنى بها للتسلية وإزجاء الفراغ أو لمصاحبة العمل ، فى حين أن الموسيقى الزريابية كان الناس يستمعون إليها كلون من الثقافة العالمية كما هو الحال أيضاً مع الموسيقى الكلاسيكية .

ووصلت هذه الموسيقى الرفيعة أوجها على يد الفيلسوف الموسيقى أبى بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة السرقسطى ( تولى سنة ١١٣٨ م ) وكان يسمى فى الأندلس بالإمام الأعظم فى الموسيقى ، وقد قال عنه أحمد بن يوسف التيفاشى التوسى فى موسوعته : « واعتكف مدة سنين مع حوار محسبات ، فهذب الاستهلاك والعمل ومزج عاء النصارى بعاء المشرق ، وابتكر طريقة لا توجد إلا فى الأندلس مال إليها طبع أهلها فرفضوا ما سواها » . وقد ألف أبى الحسين بن الحاسب المرسى كتاباً كبيراً فى الموسيقى جمع فيه معظم ألحان ابن باجة . وابن الحاسب هذا هو الذى قال إن موسيقى أهل الأندلس أول الأمر كانت إما على طريقة النصارى أو على طريقة حداة العرب ، حتى جاء زرياب فابتكر موسيقاه الرفيعة ، ثم جاء ابن باجة فمزج العاصر الثلاثة واستخرج طرازاً فريداً من التلحين ما زالت بقاياه معروفة متداولة إلى اليوم فى العرب تعبها فرق مدربة متقنة ، إذا سمعها الإنسان اليوم عاد قرواً كثيرة إلى الزواء ، إلى أبياء ابن باجة ، أى إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، بل إلى أيام زرياب فى القرن التاسع الميلادى .

### ممارسة الموسيقى :

مما يؤسف له أن الموسيقيين المسلمين لم يبتكروا طريقة لكتابة موسيقاهم ، ويقال إن زرياب ابتكر طريقة كان يكتب بها أخاه ، ولكنها لا نجد بين أيدينا ما يثبت ذلك ، وإنما كان المسلمون يعتمدون على السماع ، وهم يسمعون تعلم الألحان بالسماع تلقيناً : يتلقن التلميذ من أستاذه القطعة الموسيقية سمعاً ، فيعرف الأستاذ حملة موسيقية على العود ويردها التلميذ إما على العود أو بصوته أو على آلة موسيقية

أخرى ، ثم جملة أخرى وهكذا . وما زالت هذه الطريقة متبعة إلى يومنا هذا حتى في معاهد الموسيقى العالية ، وهي طريقة غير سليمة لأن الموسيقى لا تصنع علماً إلا إذا دونت ، مثلها في ذلك مثل سائر العلوم ، ثم إن التلقين لا يقبل الألمان في إقناع تام ، إذ لابد أن يقع تحريف ولو بسيطاً ، ومع الزمن تتوالى التحريفات حتى تتغير شخصية اللحن . وإذا أردت أن تأخذ فكرة عما يحدث في عملية التلقين فاستمع إلى أغنية يلقها مغن كبير ، ثم استمع إليها من موسيقى صغير فترى البون الشاسع .

وهذا لم تصل إليها الألحان أنعاماً مكتوبة بل محفوظة في أشعار ، مع بدايات اللحن الموسيقى لكل بيت ، أو بيان الطبقة والإصبع التي تصعط على الوتر ، فيقولون مثلاً إن هذا صوت أو لحن يعنى بالبصر ، أو هو من طبقة اليمّ وحر العراق . وهذه كلها تحديدات غير دقيقة ، والنتيجة أن الألحان تندرج وتنسى أو تتحرف تحريفاً شديداً ، ولهذا لا نستعرب إذا رأينا أن أحمد التيفاشي يقول في موسوعته التي أشرنا إليها إن محور التلحين والأصوات في الغناء العربي القديم قد انقرضت في القرن السابع علماً وعملاً . واستعاض الناس عنها في المشرق بطرق أحلوها عن العرس ، ونقرأ أيضاً في الكتاب اللطيف المسمى « كاش الحائلك » — وهو دفتر جمع الأغانى والألحان التي كانت تسمى في المغرب في القرون الرابع عشر الميلادي — أن الألحان كلها تميزت وتحرفت بصورة أفستت طبعها وغيّرت شخصها نتيجة للتلقين المتوالي . ونتيجة للتلقين أيضاً يصيح الكثير من الألحان ، ومثال ذلك أن بوبات ( جمع بوبة ، وهي الدور الموسيقى أو القطعة الموسيقية ) الموسيقى الأندلسية كانت في الأصل أربعاً وعشرين ، ولكن عندما شرع مؤلف « كاش الحائلك » في جمعها لم يجد إلا إحدى عشرة بوبة فقط .

وقد عرف العرب والمسلمون من آلات الموسيقى عدداً عظيماً ، فقد أجدوا بعضها عن غيرهم من الأمم واحترعوا بعضها الآخر بأنفسهم ، وقد بلغ من كثرة هذه الآلات أن قرر هري جورج فارس ( الاختصاصي المعروف في الموسيقى العربية ) أنها لا يستطيع أن يحصى عَشْرُها ، ففي مجموعات التوريات فقط نجد البزهر — وهو العود الخاهل — وبطه من الجند لا الخشب ، والعود القديم وهو آلة صغيرة تشبه ما يعرف اليوم بالماندولين ، أما العود الذي نعرفه اليوم فيسمى العود الكامل ، وكان هناك عود صخيم يسمى شاهرود .

وفي عائلة القيثارات — أى الآلات الوترية التى تعرف بالقوس لا يرمى الطر —  
لدينا الربابة وهى أم ذلك الطراز من الآلات عند العرب ، ومنها تفرعت الكمنجة  
والمربع والشك .

وفي الوترية المكشوفة هناك الجَنَك — وهو الهارب — والقانون الذى يسمى  
أيضاً بالنزهة ، ثم السنطير وهو القانون الصغير .

وفي مجموعة النايات ، لدينا ناي البيم وهو يراع من الخشب طوله متر تقريباً ،  
ثم الشبابة وهى أقصر من ناي البيم ، والجواق وطوله نحو ثلاثين سنتيمتراً ، والصفارة  
وهى يراع ذو مقام ينمخ فيه ، أما ما كان يصنع من القصص من النايات فكثير ،  
مثل الرمر والسرناى والزلايى والقيطة والبوق وهو يصنع من المعدن .

وكانت أنواع الدفوف كثيرة تختلف بحسب الحجم والشكل ، وأهمها الطار  
والدف والدائرة والمثمنة ، ومن الطبول : الطبل والقارة والقصعة .

وقد عرف المسلمون الأرعى وسموه الأرعانود نقلًا عن اليونانية ، والأرعى المائى  
الذى يعمل بصمط الماء ، والدولاب وهو الأرغن الكبير ، والأرغن الصغير الذى  
عرف باسم الشتيرة .

أما ما يعرف الآن بموسيقى القرب فقد عرف في بلاد إسلامية كثيرة كالملايو  
والهند والأندلس وقد قال عنه التيفاشى : « أشرف آلة عندهم — أى عند أهل  
الأندلس — وأكملها لذة في الرقص والعناء والبوق ، وهو مما يختص به أهل  
الأندلس ، وهو شكل للرمر عظيم كالبيوق ، يدخل في رأسه قرن ، ثم يدخل في  
القرن قصبة ، ثم يدخل في القصبة جعبة صفيرة ، ولا تزال تتدرج كذلك إلى أن  
تنتهى إلى قصبة المحطة تكون آخر الجميع ، ويكون الزمر بها والصناعة كلها فيها ،  
ويخرج عند العمل أصوات غريبة عظيمة في غاية الإطراب والإعجاب ، وهذا عندهم  
من أعظم احتفال آلة الغناء والرقص في مجلس الشراب » .

ولكننا نعود فنقول إن الموسيقى التى كتب لها أن تبقى سليمة حية في المجتمعات  
الإسلامية هى الموسيقى الشعبية التى كانت جماعات المسلمين تسميها في احتفالاتها  
وحفلاتها ، فهذه بسيطة في نغمها طبيعية في صياغتها ولا يالها كبير تحريف عند  
الانتقال من جماعة لجماعة ، فإذا فلما كان ذلك غامضاً مع تغير النوت نفسه أو

تطوره ، لأن موسيقى الشعوب مرآة للذوق الفني المحلى فهي تعرضه دائماً كما هو .  
وهذه الموسيقى لم تعرف النظريات ولا دخل بها أصحابها في ميدان التأمل الفلسفى  
أو الحساب الرياضى ، لأنها ليست بحاجة إلى ذلك ، ثم إن الفقهاء لم يستطيعوا حياها  
شيئاً ، لأنها جزء من حياة الشعوب نفسها ، فهي ليست مظهرأ لقصد ولا تمهيدأ  
لارتكاب معاص وإما هي تعبير شعبي ساذج عن مشاعر الشعوب في شتى حالات  
انفعالاتها العاطفية .

لهذا عاشت هذه الموسيقى الشعبية وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياة الشعوب ،  
ووصلت إليها ثروة عظيمة بها . والطريف في شأنها أن موسيقى المسلمين الشعبية  
وعبر الشعبية كلها تتشابه في دوقها ونغمها ، فالموسيقى التي يعرفونها في العراق تُصنع  
ويقبل الناس عليها في المغرب ، والوباب في الموسيقى الأندلسية التي يقفون بها في  
المغرب تحمداً إقبالاً في مصر وتركيا وإيران . وموسيقى المسلمين الإندونيسيين ذات  
طابع صيبي ، ولكنها أقرب إلى المسلمين جميعاً من الموسيقى الصينية الخالصة ، فكأن  
شعوب الإسلام تقاربت في عالم الإنشاد والنغم كما تقاربت في عالم العقيدة ومبادئ  
الأخلاق ومادة المكر والثقافة .

وناحية الضعف الكبرى في موسيقى الشعوب الإسلامية أنها عاشت عمرها كله  
غير مكتوبة تعتمد على التلقين دون الكتابة والتسجيل . حتى كبار قارئ القرآن  
الكريم ، وبعضهم يبتكر أساليب مبدعة في القراءة ، لم يفكر واحد منهم في تسجيل  
قراءته بالكتابة بالنوتات حتى يحتفظ بها . والأغاني المشهورة التي نسمعها لكبار  
المغنين والمغنيات في البلاد العربية لا نجد مكتوباً منها إلا النغمات الرئيسية ، أما البقية  
فتترك دائماً للارتجال وابتكار اللحظة . حتى كبار الموسيقيين الأتراك ، الذين وضعوا  
الأساس الجارى لما يعرف اليوم بالموسيقى العربية — من أمثال عاشق أفندى — لم  
ينوتوا شيئاً من مشارفهم الجميلة . ومن المعروف أن البشارف هي قطع موسيقية  
جمع الملحن التركي فيها مجموعات من الأنغام الشائعة في عالم الإسلام ، ما بين فارسية  
وعربية وتركية وغيرها ، وصاغها في هيئة قطع موسيقية كل منها مصوغ على نغم  
معين من الأنغام ، فيقال إن هذه القطع من العجم أو عجم عشرين أو التهاوند وما إلى ذلك .

وما زالت الموسيقى العربية والإسلامية كذلك نغمية ، أى تعتمد على النغم المنعرد  
( الميلودى ) الذى يشده المصوى وحده ، أو يعزفه المريق كله دون أى اتجاه إلى

التلون الغنى المعروف بالهارمونية التي توسع آفاق الأداء الموسيقى وتقترب بالأنغام من طبيعة الحياة التي يتأق جملها من اختلاف عناصرها وانسجام بعضها مع بعض في آن واحد .

### فنون أخرى :

ولا بد من الإشارة هنا إلى ألوان مختلفة من الفنون نشأت ولقيت قبولاً عند جماهير المسلمين ، كالتمثيل البدائي الذي كان يصاحب إنشاد القصص الشعبي في المقاهي والأسواق . فقد جرت العادة على أن تمثل بعض مشاهد من القصة ، كفقرات الحوار الفياض بالحماسة والشهامة ، أو مشاهد تعدي الظلم والثورة على الجبابرة ، كما نرى في طريقة إنشاد الناس لقصة الظاهر بيبرس ، أو قصة أبي زيد الهلالي ، وهي ملحمة أبطال جمع المؤلف الشعبي فيها مشاهد شتى من الأدب الجاهل وبطولات الإسلام وموقف من الحروب الصليبية وصراع بني هلال مع أعدائهم ، وساقها في نسق جميل يدل على ملكة درامية وإن كان يتقصه الصقل والتجويد . وكان الناس عندما يستمعون إلى الراوي يتلو عليهم فقرات هذا القصص الشعبي ، يظفرون بين الحين والحين بفقرات ممثلة وأخرى ملحمة منشئة ، وقد يشترك جمهور السامعين مع المنشدين في إعطاء القصص صورة تمثيلية ، كما نرى في الفقرات الخاصة بزواج عتر وعلة عندما يقيم الجمهور بالاشتراك مع فرقة الرواة حفل زواج تمثيلياً لا يخلو من طرفة ، لأن بعض المتفرجين يقوم بدور والد علة ويقوم بعضهم الآخر بدور الشهود ، في حين تغنى النساء من شرفات للنازل المحيطة بالمقهى أو بمكان الإنشاد .

ويدخل في ذلك ما يسمى بخيال الظل ، وهو فرع مما يسمى في يومنا هذا بمسرح العرائس . وقد نشأ هذا النوع من المسرح الشعبي في الصين ، وامتد إلى الهند وإيران ، وعرفه العرب في القرن التاسع أو العاشر الميلادي ، وقد لقي من جماهير المسلمين — خصوصاً في الشام وفلسطين ومصر — قبولاً كبيراً ، وزاد الإقبال عليه أثناء العصر التركي وعرف باسم القراجوز ، وكانت العادة أن تقام حفلاته خلال شهر رمضان كنوع من أنواع التسلية التي يقبل عليها الناس في ليالي الشهر الفضيل .



وكانت الطلال تلقى على ستارة من القماش الأبيض تتدلى من السقف وتوقد حلفها المصاييح ، أما الشحوص فيتراوح طول الواحد منها ما بين ٢٥ و ٤٠ سنتيمترا ، وكانت تصنع من الجلد أو القماش وتحشى بالقطن وتحرك من أسفل بعض مئبنة في أعضاء الشحوص . أما النصوص التي كانت تلقى فكانت نظماً مقفى وقطعاً موسيقية نغماً فيها جماعات تخصصت في هذا الفن . وكلت الشحوص تحرك فيها بين الستارة والضوء فتظهر عليها في صورة ظلال سوداء . أما الحكايات التي كانت تمثل بخيال الظل فتقتبس موضوعاتها من القصص الشعبي أو المشاهد الفكاهية في الحياة العامة ، وفي بعض الأحيان كانوا يكتبون النصوص بهاية تامة ويدخلون عليها فيما بعد تعديلات ومحلورات تقتبس من الأحوال الجارية ، فيكون لها وقع لطيف ويضحك منها الناس . وليس لديها من أسماء مؤلفي هذه الروايات إلا واحد هو محمد بن دانيال ، وكان طبيباً مصرياً عاش في القرن الثالث عشر ، ولم يبق لنا من أعماله إلا قطعة واحدة ، شخوصها مأخوذة من الحياة العامة ، ففيها سكر وطيب ومحتال وشريد حيث ونصاب وما إلى ذلك . والعالب أن تكون لمة خيال الظل عنيفة ، ورعاً خارجة على الحشمة ، لأن القصد منها هو إصحاك الجمهور . وقطعة محمد بن دانيال ليس فيها ما يجرح الإحساس ، ومع ذلك حمل عليها الفقهاء حملة شديدة ، ولكن ابن عربى الصوفى الأكبر يمتدحها ويقول إن شخوصها ترمز إلى هباء الحياة ، وإن الأيدي الخفية التي تحركها ترمز إلى يد القدر . وإلى آخر القرن التاسع عشر كانت قطع خيال الظل هي العنصر المسرحى الوحيد الذى عرفناه قبل المصور الحديثة ، وقد احتفى خيال الظل عندما نشأ في البلاد الإسلامية الفن المسرحى .

### خلاصة :

تاولنا في هذا الفصل — على وجه الاختصار الشديد — ميادين الفنون التي أبدع المسلمون فيها ، سواء أكانت فنوناً تشكيلية كالعمارة والتصوير والنحت . أم فوناً تصويرية صرفة كالموسيقى والقصص الشعبي وخيال الظل وما إلى ذلك . وبطبيعة الحال لم يكن من الممكن تناول هذه الميادين الواسعة في عالم شاسع كالعالم الإسلامى إلا على سبيل الاختصار الشديد ، الذى يكتفى بالإشارة الوجيزة إلى المظاهر العامة دون تعمق أو استقصاء .

بدأنا بفقرة عامة عن مفهوم الفن ، وكيف أنه تعبير عن الإحساس والمشاعر والمعالى ، فيها كيف أن الفنون ظاهرة إنسانية عامة ، فليس هناك مجتمع إنسانى بدون فنون ، فكما تأكل جماعات البشر وتشرب وتنام ، فهى تغنى وتعزف وترقص وتتطلب أشكالا فنية جميلة سواء كانت مرسومة أو مشكّلة . وقلنا إنه لا علاقة بين الترف والفنون ، بخلاف ما يظن الكثيرون ممن يعتقدون أن ممارسة الفنون ترف لا تتطلبه الجماعات البشرية إلا فى المراحل العليا لحضاراتها ؛ ومن هؤلاء ابن خلدون المؤرخ الفيلسوف الأشهر ، وقد فاته أن أكثر الشعوب غناء ورقصاً ورسماً ونحناً هى الشعوب البدائية ، لأن الفن جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان ، وهو ينبع من طبيعة نفسه . ونعرضنا فى هذه المقدمة لمن هاجموا الإنتاج الفنى ورأوا فيه مطهراً للخلاعة أو انحطاط الخلق ، وقلنا إن الفن كله عند المسلمين مابع من القرآن الكريم ، الذى يضم آيات كثيرة جداً تستلقت نظر المؤمنين إلى ما فى الكون من جمال وتناسق ، بالإضافة إلى أن القرآن الكريم فى ذاته — من حيث صياغته — يعد منظومة بيانية فنية بديعة .

وفى الفقرة الثانية عن ميلاد الفنون الإسلامية ، وسعنا مجال هذا الرأى الخاص بنشوء التعبير الفنى الإسلامى من القرآن الكريم ، وصرنا مثلاً لذلك بالألوان التى استعملها المخروغون والمصورون المسلمون فى أعمالهم ، وهى ألوان تمحروا فيها أن تكون قرآنية أى وردت فى القرآن ، وأضافنا إلى ذلك أن موسيقى الشعوب الإسلامية نبتت من ترتيل القرآن الكريم ، وبيّنا بوضوح الصلة الوثيقة بين الروح الإسلامية والإنتاج الفنى عند الشعوب التى آمنت بالإسلام .

وفى الفقرة الثالثة تكلمنا عن الفنون الشعبية والفنون المصقولة وبيننا الفرق بينهما ، وقلنا إن كل شعوب الدنيا عرفت نوعى الفن الشعبى والمصقول ، ودكرنا أن مجتمعا الإسلامى شهد تطوراً واسعاً فى ميدان الفنون الشعبية ، لأن ذلك الميدان ظل بعيداً عن نقد المتشددىن ، فى حين أن الفنون المصقولة كانت دائماً هدفاً لتعقيهم ، فيها لم يعترض فقيه على إنشاء الجماهير فى الأعراس والمناسبات السعيدة ، نجد أن الكثيرين من الفقهاء أنكروا السماع ، وبراد به ممارسة الموسيقى والاستماع إليها .

وفى الفقرة التالية تكلمنا عن ميلاد من العمارة عند المسلمين ، ووقفنا عند المساجد الأولى وبخاصة مسجد النبى — ﷺ — فى المدينة المنورة ، وتكلمنا عن هيئته

الأولى ، وتبيننا تطوره العمارى عندما قام الخلفاء جوسيه أو بهدمه وإعادة بنائه . وقد وقفنا تلك الوقفة الطويلة بذلك الجامع لأنه أبو المساجد الإسلامية جميعاً ، لا من حيث تاريخ اختطاطه فحسب ، بل كذلك من حيث هيئته العامة ، فإن أجزاءه الرئيسية ظلت هى الأجزاء الرئيسية لكل مساجد الإسلام فيما بعد ، وهى : بيت الصلاة والصحن والقبلة والمحراب والميزب . أما الأجزاء التى أضيفت إلى عمارة المساجد فيما بعد ، وأهمها المئذنة والميضأة والقبّة والمقصورة فعناصر ثانوية دخلت فيما بعد . أما الأعمدة والأقواس والسقوف المزركشة والنوافذ والأبواب فكلها عناصر فنية عمارية عامة توجد فى المساجد وغير المساجد ، وإن كان العرف قد جرى بالآل يخلو منها مسجد إسلامى .

وتبناه — فى فقرة خاصة بفلسفة المساجد عند المسلمين — الفكرة الرئيسية التى حاول العماريون تحقيقها فى مشاتهم ، وهى فكرة الجمع بين عنصرين متناقضين هما البساطة والحلال ، وبينما كيف تمكن العماريون من التوفيق بين هذين العنصرين المتناقضين . وذلك عن طريق تتبع المساحد الجامعة الإسلامية وتطور بنائها .

وتكلمنا بعد ذلك عن الفن الأموى فى المشرق ، وقلنا إن العماريين فى العصر الأموى ابتكروا طرازاً عمارياً خاصاً أخذ من عناصر شتى عبر إسلامية ثم صاعها كلها فى قالب واحد . وقلنا إن بداية هذا الفن توجد فى قبة الصحرة ، ووصفا بناء القبة وصفا موجزاً ، ثم تكلمنا عن المسجد الأموى فى دمشق وبيننا خصائصه ، وانتقلنا للكلام عن المميزات العامة للمساجد الأموية . وأشرنا بعد ذلك إلى العمارة المدنية أيام الأمويين ، وتحدثنا عن البوادر وهى القصور الريفية التى كان يشتملها خلفاء بنى أمية ، والحريات وهى أيضاً قصور صحراوية لم تكن تستعمل للمتعة فقط بل كان الخشاء يمارسون فيها أعمال الدولة بعيداً عن صخب قصورهم ، ولذلك فقد كانت أشبه بالحصون .

وتكلمنا عن العمارة فى العصر العباسى ، فذكرنا كيف أنه لم يبق لنا من معالمها إلا القليل لأن معظمها بلى بالزمن ، حتى أسوار مدينة بغداد العظيمة وقصر الخلافة فيها وجامع المنصور . وأشرنا هنا إلى هندسة مدينة بغداد — التى تسمى بالمدنية المنورة — وتكلمنا عن جامع سامراء الذى بهاء الخليفة الشوكل ، ولم يبق لنا منه إلا جدرانه الخارجية التى تشبه الأسوار ، ومعدته المعروفة بالملوية لأنها ذات سلم

حزوني حارجي . وأشرنا بعد ذلك إلى عمارة القصور في العصر العباسي ، وكيف أنها كانت تقوم على أنباء مكشوفة تحيط بها عمد تحمل أقواساً نصف دائرية أو مديية ، وحلف الأقواس تقوم العرف ما بين كبيرة وصغيرة ، وفي العادة يتكون القصر من أنباء كثيرة تربطها — بعضها ببعض — أروقة ، وصرنا أمثلة لذلك بقصر الأخيضر قرب كربلاء وقصر الخليفة المتوكل المعروف بالجوسق في سامراء .

وقد أحييت العمارة العباسية من الساساني في كل صورة ، فانتعشت الفنون المربعة المداخل في فن العمارة ، كالفسيفساء ومربعات القاشاني والرخام المقبول والخشب المشغول . وقد احتلقت هذه العناصر الساسانية بعناصر الفن البيزنطي التي تأصلت من أيام بني أمية ، ومن هذه العناصر تكون — شيئاً فشيئاً — الفن الإسلامي الخالص . ندى يجمع بين مداخل فية محتلة الأصول ، ولكنه يضيف عليها قائلاً واحداً ويعطيها شخصية متميزة بنفسها .

وتكلمنا عن أهم مدارس العمارة الإسلامية بعد ذلك ، وذكرنا باختصار خصائص كل منها . وقد شمل كلامنا الطرز المعمارية المصرية والمصرية والأندلسية والإيرانية والتركية والهندية ، وذكرنا خصائص كل منها وذكرنا أهم العمائر التي تعد مداخل لكل منها ، وحنما هذه الحولة في ميدان المساجد الإسلامية بوقفة عند الطراز التركي العثماني المعروف ، وذكرنا أهم نماذجه مثل مسجد السلطان سليمان في الآستانة ، وأشرنا بهذه المناسبة إلى مهندس العمارة التركي سنان وتلميذه محمد أعا بن عبد المؤمن .

ثم وقفنا وقفة قصيرة عند الفنون الصغيرة عند المسلمين ، وقلنا إن المراد بهذه الفنون الصناعات الدقيقة ذات الطابع الفني ، التي تتجلى في القطع المئارة من السبع النحرف أو المركش ، سواء كانت حامة أو مصنوعة ، ملابس أو سراً أو سجاجيد بسيطة أو طنافس ، وكذلك الأدوات المعدنية ذات الهيئة الفنية ما بين نحاسية وبرونزية وحديدية ، وتشمل كذلك مصنوعات العاج المشغول والخشب المزخرف والهل بالعاج والصفد والآبوس ، والزخارف ومربعات القاشاني وأواني الفخار والخزف بأنواعها والزجاج والبلور ، ووقفنا عند كل واحدة من هذه وقفة قصيرة .

وتكلمنا في إنجاز عن التصوير والنحت عند المسلمين ، قلنا إن المسلمين مارسوا التصوير بشئ أنواعه من تصوير المناظر والأشخاص ، وأظهروا في ذلك بوعاً .

وما زالت لدينا أعمال فنية قام بعملها مصورون مسلمون ، سواء من إيران أو من مسلمي الأندلس ، تدل بحق على أن التصوير كان فناً محترماً معنياً به من المسلمين في نواحي العالم الإسلامي كلها . وأشرنا في أثناء ذلك إلى المصور الإيراني بهراد ومدرسته ، وإلى المصورين الأندلسيين المجهولين الذين رسموا لوحات رائعة في الحمراء ، خلال القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلادين قبل أن يصل فن التصوير في الغرب الأوروبي إلى أى مستوى . وبعد ذلك تكلمنا عن فن كتابة المصاحف والمخطوط بصورة عامة ، وأشرنا إلى أن التصوير بدأ عند المسلمين كفن من فنون زخرفة الكتب برسوم صغيرة تعرف بالمنمات ، ثم استقل بعد ذلك فأنش رسامون لوحات مستقلة بذاتها ، وضربنا مثاليين على ذلك بما صنعه سلطان محمد ورضا عباسي ، وهذا الأخير عاش في أصفهان فأنشأ فيها مدرسته الفنية المذكورة في القرن السابع عشر الميلادي ، أما مدرسة التصوير الأندلسية ، فقد أنشأت أيضاً فناً متفرعاً من فن زخرفة الكتب بالمنمات ، ثم استقلت سريعا ، ومعظم أعمال فنانها ظهرت ورسمت على جدران القصور والمباني . وأشرنا إشارة موجزة إلى فن الحت الذي عرفه المسلمون في صورة زخارف بارزة على العاج والخشب والرخام ، ثم استعملوه في صناعة تماثيل صغيرة لحيوانات من العاج والمعدن ، وقد اشتهرت بذلك مصر الفاطمية والملوكية والأندلس ابتداء من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

وتكلمنا بعد ذلك عن الموسيقى عند شعوب الإسلام ، فأشرنا إلى الجدل الصيف الذي دار حول موضوع السماع ، وذكرنا كيف أن كثيرين من الفقهاء حرّموه ، أى حرموا الموسيقى والغناء ، وحاولنا أن نجد تعليلا مقبولا لموقف الفقهاء هذا ، وذلك بشرح الظروف التي كان الغناء يمارس فيها في العصور الوسطى ، وقلنا إن هذه الظروف لم تكن كريمة ولا مناسبة للمحشمة ، ومن ثم فإن موقف الفقهاء من التحريم موقف معقول . وأضافنا أنه مادامت الأحوال قد تغيرت وأصبح الغناء يمارس الآن في صورة سليمة وفي جو محشم مناسب لفن جميل ، فإنه لا ضرر في السماع لأنه لا يمهّد الطريق إلى فساد ولا يصاحبها من المظاهر التي ينفّر منها أهل الكمال والأدب .

وأشرنا إلى الغناء الجماعي ، وقلنا إن منه ما هو ساذج طبيعي يهنيه الجمهور في مناسبات الأفراح كالأعراس ، وما يهنيه العمال والفلاحون في أثناء العمل . وهذا وذاك جزء من الحياة نفسها ، وهو ليس ترفاً ولا مظهراً من مظاهر الفساد ، ومن ثم فإن أحداً من رجال الدين لم يعترض عليه . ومن الغناء الجماعي ما يهنيه محترفون يطوفون بالأسواق ويعرفون بالفجر أو الغولوى ، وجماعات هؤلاء المغنين دائما غريبة عن البلاد ، فهي جوارح تحترف

الغناء إلى جانب حرف أخرى تقوم بها لكسب عيشها . ومن الغريب أن غناء هؤلاء الجوالين هو الذي أصبح أصلاً لقن الغناء الشعبي الجماعي في المدن ، فإن أولئك المقيمين يمتنون في الأسواق فيجتمع عليهم الناس ويشاركونهم الإنشاد ، وشيئا فشيئا نشأت عادة الغناء الجماعي في الأسواق والطرقات .

واحتاج الناس إلى ما يمتنون به ، فظهر فن الزجل وهو شعر يصاغ في اللغة الدارجة ، وقد صيغ أولاً على محور الشعر العربي ثم استقل بمحور خاصة به . وعن الرجل تطور الموشح ، وهو شعر عربي يصاغ على صيغة معينة تناسب الإنشاد الجماعي ، وقد نبع فيه الأندلسيون وغنوا به في الأسواق وفي اجتماعاتهم الشعبية وفي ليالي السر ، وعندهم انتقل إلى المشرق وإلى أوروبا . وظهرت في البلاد الأوروبية أشعار شعبية من طراز الموشح والزجل عرفت بأسماء شتى أشهرها غناء التروبادور في فرنسا .

وانتقلنا إلى الكلام عن الغناء الشعبي عند الشعوب الإسلامية ، وقلنا إن الغناء الشعبي العربي هو الحدة ، وذكرنا أنه ظل قنًا حيًا ينشده العرب في كل مكان عاشوا فيه ، حتى عندما استقروا في المدن ولم يعودوا يحتاجون إلى حذاء الإبل في السر ، وأضفتنا بعد ذلك إشارة بسيرة عن غناء الصوفية وإنشادهم ورقصهم .

وتكلمنا عن ممارسة الموسيقى عند الشعوب الإسلامية ، سواء كانت الموسيقى الشعبية الجماعية أو الموسيقى الخاصة التي تعزف في الحفلات مصاحبة للغناء ، أو بدون ذلك . وقلنا إن نقطة الضعف الكبرى في ممارسة المسلمين للموسيقى هي أنهم لم يهتموا بتدوينها التدوين الكافي ، فظلت معتمدة على السماع والتلقين . وأشرنا إلى أن الأنغام تتحرف ثم تتلاشى مع الزمن إذا اعتمدت على التلقين وحده ، لأن التحريف يتوالى مع انتقال الأنغام من إنسان لإنسان حتى يبعد النغم عن أصله تمامًا .

وقلنا إن هذا هو السبب في تلاشي أنغام وقطع موسيقية كاملة ، بل ذكر بعض مؤرخي ذلك الفن أن الموسيقى العربية الأولى التي ظهرت أيام العباسيين العظام — أي في القرن الثاني وأوائل الثالث الهجريين — تلاشت تمامًا في القرن السابع الهجري . وكان لابد أن يستمر المسلمون أنفاسًا جديدة أعينوها عن إيران لولا وعن تركيا بعد ذلك ، وما يعرف اليوم بالموسيقى العربية ليس فيه من العناصر العربية إلا شيء ضئيل ، والباقي اقتبس من أصول شتى معظمها إيراني وتركى .



## مراجع مختارة

كتب عربية ومترجمات إلى العربية :

المراجع الأصلية في موضوعات الفنون عند المسلمين قليلة ، وخاصة في ميدان المنشآت المعمارية والفنون التشكيلية ، فإننا لم نعثر — إلى الآن — على كتب ألفها عماريون مسلمون في شرح القواعد والأصول الفنية التي ساروا عليها ، فيما عدا بعض كتب يسيرة بالتركية ألفها نفر من تلاميذ المهندس العماري ستان ، وما لدينا من مؤلفات عن المساجد تناول في الغالب أحكامها الفقهية ، وفي المكتبة الوطنية في مدريد كتاب عنوانه « البيان في أحكام البيك » ، ولكن مادته كلها فقهية ، أما المؤلفات عن التصوير فلا توجد ، مع أننا كنا نأمل أن نعثر على شيء ليبراد أو بعض تلاميذه ، ولعلنا فإن عمادنا في هذا الميدان مقصور على المؤلفات الحديثة التي قام بها علماء الآثار ومؤرخو الفن في البلاد الإسلامية .

ونتيجة لذلك فإننا لم نخصص قسماً من هذه البibliوجرافيا للأصول — كما هي الخطة في هذا الكتاب — بل أوردنا المراجع العربية والمترجمة إلى العربية من لغات أخرى في قسم واحد .

— إبراهيم جمعة : « قصة الكتابة العربية » ، مجموعة اقرأ رقم ٥٢ ، القاهرة ١٩٤٧ .

— أحمد رشدي صالح : « الفنون الشعبية » جزء ١ ، القاهرة ١٩٦٣ .

— أحمد فكرى : « مساجد القاهرة ومدارسها » ، المدخل ، القاهرة ١٩٦١ .

— حسن الباشا : « التصوير الإسلامى في العصور الوسطى » ، القاهرة ١٩٥٥ .

— حسن الباشا : « الفنون الإسلامية » ، ثلاثة أجزاء : القاهرة ١٩٦٥ .

- أبو الحسن منصور بن رمية : « الكافي في الموسيقى » ، تحقيق زكريا يوسف .
- ديماند : « الفنون الإسلامية » ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٧ .
- الرازى ، أبو بكر محمد بن زكريا : « سر الأمرار في الصنعة الشريفة » ( الموسيقى ) ، ليننجراد ١٩٥٩ .
- زكى محمد حسن : « فنون الإسلام » ، القاهرة ١٩٤٧ .
- زكى محمد حسن : « الفنون الإيرانية » ، القاهرة ١٩٥٠ .
- سعاد ماهر : « الخصر في الفن الإسلامى » ، القاهرة ١٩٦٤ .
- سعاد ماهر : « الخزف التركى » ، القاهرة ١٩٦٥ .
- سعد الخادم : « الحياة الشعبية في رسوم ناجى » ، القاهرة سنة ١٩٦١ .
- سعد الخادم : « الصاعات الشعبية في مصر » ، القاهرة ١٩٦٢ .
- السيد عيد العريز سالم : « المآد الإسلامىة ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها حتى الفتح العثمانى » ، القاهرة ١٩٥٩ .
- عيد الرحمن زكى : « السيف في العالم الإسلامى » ، القاهرة سنة ١٩٦٢ .
- فارمر ، جورج هرى : « مصادر الموسيقى العربية » ، القاهرة ١٩٥٥ .
- 'فارمر : « الموسيقى العربية » ، القاهرة ١٩٥٥ .
- فؤاد صعر : « مطبوعات مديرية الآثار القديمة » ، بعدد سنة ١٩٥٢ .
- الكندى : « رسالة في الدحون والعه » ، تحقيق زكريا يوسف ، دمشق ١٩٤٧ .
- محلى العقيدى : « السماع عند العرب » ، حلب بدون تاريخ ، جزءان .
- محم الدين ، أبو اليوسف عبد الرحمن بن محمد ( ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م ) : « كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ، القاهرة ١٨٦٩ ( يقول أحمد فكري إن هذا الكتاب مقول معظمه عن كتاب « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » لشهاب الدين المقدسى المتوفى ٧٦٥ هـ / ١٣٦٤ م ) .
- محمود أحمد : « جامع عمرو بن العاص » ، القاهرة ١٩٣٨ .
- مصطفى كامل الصوف : « تاريخ الحياة الموسيقية » ، دمشق ١٩٣٠ .
- يحيى المنجم : « رسالة في الموسيقى » ، بتحقيق زكريا يوسف .



## مراجع غير عربية :

### العمارة الإسلامية بصورة عامة :

BLOCHET, E. : Les Peintures des Manuscrits Orientaux de la Bibliothèque Nationale - Paris

1920 -

CRESWELL, A. : Early Muslim Architecture, 2 vols - Oxford, 1932 - 1940

CRESWELL, A. : short account of Early Muslim Architecture. ( A Pelican Book ) London, 1958

HAMILTON, R. W. The Structural History of the Aqsa Mosque . Oxford, 1949

LEZINE, A. : Le Ribat de Sousse - Tunis , 1956

MARCAIS , GEORGE - Coupole et plafond de la Grande Mosquée de Kairouan - Tunis - Paris ,

1925

RICHMOND , E. T. Moslem Architecture - London , 1926

### العمارة في العصر العباسي :

BELL , G. L. - Palace and mosque at Ukhaidir . Oxford , 1914

CRESWELL , A. - Early Muslim Architecture , II - Abbasids , 1940

GODDARD , A. - Les anciennes mosquées de l'Iran - Téhéran - 1936

KUHNEL , ERNST - Islamic art and architecture ( translated by Catherine Watson ) - London ,

1966

### العمارة في العصر الفاطمي :

ARATTA , G. : L'architettura araba - Normanni in Sicilia - Milano , 1913

BRIGGS , M. S. : Muhammedan architecture in Egypt and Palestine - Oxford , 1924 .

GRESWELL , A. : Muslim architecture of Egypt , I - Ikshids and Fatimids , Oxford , 1952

TERRASSE , HENRI : L'Art Hispano - Maurisque des origines au XIII Siècle . Paris , 1933 .

### العمارة الإسلامية بصورة عامة :

GOMEZ - MORENO , MANUEL . El arte arabe espanol hasta los Almohades , Arte Mozarabe ( Ars Hispaniae , III ) . Madrid , 1951

MARCAIS : G . : Manual d'art Musulman , L'architecture : Tunisie , Algérie , Maroc , Espagne , Sicile , Paris , 1626 - 1927 .

TORRES - BALBAS , LEOPOLDO . Arte almohade , Nazri , naudejle ( Ars Hispaniae , IV ) . Madrid , 1949 .

### التصوير الإبراني :

ANTONIO GARCIA , JAEN : Arte y Artistas Musulmanes . Madrid , 1951

SARRE ,F., UND MITTWOCH , E . Zeichnungen Von Riza Abbasl . Munich , 1944

STECHEUKINE , I .: Les peintures des manuscrits safawis de 1502 à 1577 . Paris , 1959

### الفن الهندي الإسلامي :

HAVELL , E B . Indian architecture . London , 1914 .

BROWN , PERCY . Indian Painting Under the Moghals . London , 1923

BROWN , PERCY : Indian Architecture ( Islamic Period ) . Bombay , 1964

COMMARASWAMY , A.: Mughal painting . Cambridge , Mass ., 1910 .

STECHEUKINE , I.,. La peinture indienne à l'époque des Grands Moghols . Paris , 1929 .

### الفنون التركية العثمانية :

GABRIEL A. : Les Mosquées de Constantinople , Syria , 1912 .

OTTO DARN , K. : Turkische Keramik . Ankara , 1960 .

WILDE , H.: Brussa . Berlin , 1909 .

### الموسيقى عند المسلمين :

FARMER , H.G. : Arabian Music . London , 1950 .

• Music ( a chapter in the Legacy of Islam ) .

Oxford , 1931 .

## الفصل السابع

### مخطوط الركود





## تمهيد :

إن من يقرأ حوليات مصر والشام والجزيرة العربية من منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ليدعش من الهبوط العام الذي أصاب إطارات النظام السياسي والإداري المملوكي بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م . ومحمد بن قلاوون هو آخر الكبار من مماليك الفترة الأولى الذين سادوا مصر والشام وغربي جزيرة العرب ، وهي فترة للممالك البحرية ( ١٢٥٠ — ١٣٨٢ ) التي تعد آخر الإمبراطوريات الكبيرة التي ظهرت في شرق العالم العربي وسيرت أموره أكثر من قرن من الزمان . وقد تلاهم المماليك البرجية ، ودولتهم لم تكن استمراراً للممالك البحرية — كما يظن — بل انحداراً لها واتجهاً بها نحو التلاشي والروال .

وسيادة المماليك نفسها على ذلك الجزء الكبير من العالم العربي أمر له دلالة ، فهي الصورة الأخيرة التي كان لا بد أن يصل إليها تطور نظم الحكم في بلاد العالم الإسلامي ، وهي نظم قامت على حكم البلاد بواسطة قوة عسكرية أجنبية عن البلاد ، سواء كانت مكونة من جند مرتزقة يدخلون في خدمة السلاطين لقاء أجر ، أو من مماليك يشترون ويهربون على أعمال الحرب ليخدموا أصحاب الدولة . ويدهى أن القوة الحقيقية في هذه الدول إنما كانت تكمن في القوة العسكرية التي يعتمد رجالها عليها .

والذي حدث في نهاية الدولة الأيوبية أن مماليك الأيوبيين — وهم خلفاء صلاح الدين — تنهوا إلى أنهم هم أداة السلطان وعصب القوة ، وعندما بلغ الضعف بسلاطين الأيوبيين منتهاه حلت أداة السلطان محل صاحبها في الحكم ، كما يضع الخادم ، المطلق الأمر ، يده على أموال سيده إذا لم يكن لهذا السيد وريث حازم

قادر على حماية تركته . والمفروض أن الأمة هي الوريثة الشرعية للسلطان في بلادها ، ولا بد أن يعود إليها الأمر كلما انتهت ولاية حاكم لكي تختار الحاكم الجديد أو تبدى رأيها على الأقل فيمن يرشحون للولاية ، ولكما رأينا أن الأمور لم تسر في عالم الإسلام على هذا الطام الطبيعي الشرعي الكفيل باختيار الإمام الأصلاح من بين أبناء الأمة . وبدلاً من ذلك لجأ أصحاب السلطان منذ قيام الأمويين إلى حرمان الوريث الشرعي — وهو الأمة — من ممارسة حقه ، واحتاروا بأنفسهم الحاكم معتمدين على الإدارة العسكرية التي ذكرناها .

وسواء في حالة الأمويين أو العباسيين ، فإن مبدأ لوراثة طُبّق على أساس خاطيء يعتمد في كل حالة على قوة عسكرية ، وقد عدت أمة الإسلام انتقال الخلافة إلى الأمويين اعتصاباً للسلطان ، وكذلك كان الأمر في الواقع عندما انتقل السلطان من الأمويين إلى العباسيين ، وما دامت الأمور قد بدأت بداية خاطئة فكان لا بد أن يستمر الخطأ مادام أحد لم يحاول تصحيحه ، وهكذا طلت أمة الإسلام بعيدة عن الحكم والسياسة .

ونعود إلى دولة المماليك فنقول إن مستوى الحكم ارتفع شيئاً أيام كبار سلاطينها ، ولكن الأمة العربية في مصر والشام والحجاز ظلت دائماً خارج الميدان وقد حيل بينها وبين ممارسة سلطتها . والأمة — كما ذكرنا — هي شجرة السلطان وأصل القوة ، وجذورها هي التي تعنوه ، وأي سلطان يعتمد على جذور أخرى لا بد أن يمج وموت . وهذا هو الذي حدث خلال الحقبة الأخيرة من سيادة المماليك على قلب العالم الإسلامي في مصر والشام والحجاز : جفت شجرة الحكم وتساقت أوراقها وآذنت بالسقوط ، وتهدم إطار الدولة ، فقد تولى الحكم خلال الأربعين سنة التالية لوفاة الناصر محمد بن قلاوون ( ٧٤٠ — ٧٨٤ هـ / ١٣٤٠ — ١٣٨٢ م ) اثنا عشر سلطاناً من أولاده وأحفاده لا نجد من بينهم واحداً يستحق الذكر ، وغط مستوى الحياة هبوطاً عاماً حتى إنك لتقلب صفحات مطولات من تاريخ مصر في هذه الفترة — كالجم الزاهرة لأبي الحسن يوسف بن تغرى بردى ، وبدائع الزهور في وقائع الدهور لابن لباس الحنفى — فتشعر كأن تيار الحياة قد ركذ ركوداً شديداً في مصر والشام والحريرة العربية وجزء من العراق ، فلا شيء يحدث غير منافسات ممالك لا يستحقون حتى ذكر أسمائهم على حطام من الدنيا لم تعد تسوى العناء ، ولم

**بعد يشغل بال الحكام إلا التماس على وظائف تدبر المال وبعض الامتيازات ، وها  
تطرس للظفر الحقيقي للركود الذى سيسود هذه البلاد ابتداء من القرن الثامن  
المجربى / الرابع عشر الميلادى .**

**وقبل أن نستربل فى دراسة أحوال جماهير المسلمين وما أصابها من ركود ، لنقف  
وقفة قصيرة فى بداية المصدر وتأمل ما حولها حتى نستجمع صورة العالم الإسلامى  
فى مطلع العصر الحديث .**

### **عس دول تقاسم بلاد الإسلام فى مطلع العصر الحديث :**

يتفق المؤرخون الغربيون على القول بأن العصور الحديثة فى أوروبا تبدأ من  
متصف القرن الخامس عشر الميلادى ، ففى ذلك الحين — سنة ١٤٥٣ م —  
سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين ، وفى نفس وقت سقوطها بدأت  
الهوة العسكرية والفية فى إيطاليا ، واشتد ساعد الدول الأوروبية وانتظمت أحوالها  
السياسية — وبخاصة فى إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وألمانيا — وعظمت ثروات المدن  
التجارية الإيطالية وبخاصة جنوة والبندقية .

وقد سيطرت هاتان الجمهوريتان التجاريتان على الملاحة فى البحر الأبيض  
المتوسط ، واحتكرتا التجارة فيه مشتركين مع سلاطين المماليك ، مما دفع بالإسبان  
والبرتغاليين إلى البحث عن طرق أخرى للوصول بها إلى بلاد آسيا دون المرور فى  
الأراضى الملوكية . وقبل أن يمتهى هذا القرن كانت البرتغال قد وصلت إلى بحار  
جنوبى آسيا ، وبدأت الصراع مع العرب الذين كانوا يسودون هذه البحار ، لانتراع  
التجارة من أيديهم . وكذلك وصلت سفن كريستوفر كولومبس إلى سواحل العالم  
الجديد محقة بذلك أعظم كشف فى تاريخ البشر ، فقد تصاعفت فجأة مساحة  
الغرب المسيحى مرات كثيرة ، وانفسحت أمام أهله بلاد واسعة عريضة حافلة  
بالحيرات ، وفتحت أمامهم إمكانات التوسع والتطور والقوة والغنى ، وتحول المحيط  
الأطلسى من الحد الغربى للعالم إلى بحر داخلى تكنفنه بلاد غريبة مسيحية من  
المجانيين ، وأخذت السفن تقطعه عادة رائحة حتى لقد سماه الإسبان — سادة ذلك  
المحيط حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادى — بالمستقع ( الشاركو el charco )  
استصعاراً لشأنه .

وعقب ذلك الكشف العظيم تزايدت سرعة التطور في العرب المسيحي ، فأخذت بلاده تخرج — واحدة بعد أخرى — من عالم العصور الوسطى والجهل والعوصى إلى عالم العلم والنور والطعام .

في ذلك الحين كانت تسيطر على عالم الإسلام خمس دول : ثلاث منها شابة عنية كانت تنبئ بكل خير ، هي دول آل عثمان والصفويين والسعديين ، ودولة في أوج امتدادها وحضارتها هي دولة المماليك في المهد ، ودولة في دور الانحدار والانهيار هي دولة المماليك في مصر والشام والجزيرة العربية ، هذا بالإضافة إلى دولة الخفصيين في تونس وكانت تنفط آخر أنفاسها .

وقد أعطينا فكرة عن دولة المماليك ، فلنمر مسرعين بالدول الأربع المتبقية :

### الدولة العثمانية

ظهر الأتراك العثمانيون على مسرح الحوادث خلال القرن الثالث عشر الميلادي ، وكانوا في أول أمرهم يعيشون قبائل طائعة في شرق إيران ثم اتجهوا غرباً وانتهى بهم التحوال إلى شمالي بلاد الحرية ، ولم تسهم بارلة للمعول التي اجتاحت شرق بلاد الإسلام . وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي استجد بهم علاء الدين سلطان الأتراك السلاجقة الذين كانوا قد أنشأوا لأنفسهم سلطة في الأناضول مقتطعين بذلك جزءاً من أرض الدولة البيزنطية . وكان عزاء المعول لا يكفون عن الإغارة على أراضي سيطرتهم ، فاستعانوا بأبناء عمومتهم البارلين شرفهم ، فاستجابوا بشرم أن يسمح لهم بالإقامة في شرق آسيا الصغرى موافقوا على ذلك ، واستطاعوا أن يمدوا سلطانهم حتى بلدة قونية ، ثم رحلوا غرباً واستقروا في منطقة الأناضول الخالية ، وأقاموا إمارة صغيرة إلى جانب سلطة أبناء عمومتهم سلاجقة الروم الذين كانوا يسيطرون إذ ذلك على معظم آسيا الصغرى .

وفي سنة ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٩ م تولى أرطغرل أمير هذه الجماعة التركية ، وحينه عثمان وكان أميراً شاباً فياض الحيوية والششاط ، قاد قومه إلى الحرب والتوسع في كل ناحية ، حتى قضى خلال سنوات قلائل على ما كان قد بقي لسلاجقة الروم من قوة ، ومد نفوذه على آسيا الصغرى كلها ونقل عاصمته إلى بروسة قرب ساحل



بحر حرمة . وعثمان هو الذى أقام دولة قومه على أساس متين من التنظيم العسكرى ، وشق لهم الطريق إلى المجد ، فأصبحوا من ذلك الحين يعرفون بأل عثمان أو الأتراك العثمانيين .

واستمر الاندفاع فى عهد من جاء بعد عثمان من الأمراء . الذين اغتلبوا لقب السلاطين وابتكروا نظام الإنكشارية ، وهى فرق محاربة يكونونها من غلمان صفار يربون تربية عسكرية إسلامية فيشبون جنوداً للدولة متحمسين للإسلام . وكان الإنكشارية أول الأمر هم صفوة جند الدولة والمندوبين لكل مهمة عسكرية عظيمة ، وقد أبدوا من التفانى والإخلاص فى الجهاد ما جعل هذه الدولة تقفز إلى صدارة الأمم فى عصرها فى وقت قصير . ففى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى عبرت قوات الأتراك إلى شبه جزيرة المورة وهى اليونان الحالية ، ووصلت أعمالهم العسكرية إلى ساحل البحر الأدرياتي . وفيما هم ماضون فى أعمالهم ، طرق أتراك آخرون — يصاحبهم مغول — أبواب آسيا الصغرى يقودهم تيمور لك أو « الأعرج » .

وكان تيمور الأعرج لعنة ساقها الله على البشر ، إذ كان لا يقل قسوة عن جنكيزخان وهولاكو . وكانت وجهته أول الأمر القضاء على دولة ليلخانات فارس وهم مغول من أحفاد جنكيزخان ، وتم له ذلك . ثم دخل العراق وخرب بغداد سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٣ م ، وفى تكرت مسقط رأس صلاح الدين أنزل بالناس مذبة أسرف فيها بالقتل حتى أقام هراً من جثث القتلى ، وكانت إقامة هذه الأهرامات البشعة هوائته الطهية إلى نفسه ! وبعد خمس سنوات من التخريب فى بلاد الإسلام اتجه شرقاً وهزم مغول الهند واحتل دهل حيث قتل ثمانين ألفاً من أهلها . وسار بعد ذلك إلى روسيا حيث احتل موسكو لمدة سنة ثم عاد إلى بلاد الإسلام فاستولى على حلب وقتل من أهلها ألفاً ، ثم دمشق حيث أحرق البيوت والمساجد ، وهناك وقع فى يده عبد الرحمن بن خلدون ضمن من وقع من علماء البلد . فضحى ابن خلدون حتى أفلت من يده فى خبر غير طريف قصة فى رحلته . وكان تيمور يزعم أنه اعتنق الإسلام على المذهب الشيعى ، وامتلاً بلاطه بنفر من غلاة الشيعة الذين لم يقصروا فى تحريضه على السة وأهلها ، فاشتد على أهل العراق والشام وخرب البلاد تخريباً ذريعاً .

ثم اتجه تيمور ورجاله نحو آسيا الصغرى ، فقد كان الأتراك العثمانيون أهل سنة ، وقد بذل سلطانهم بايزيد جهده في مدافعة جيوشه ، ولكن تيارهم كان جارفا . وفي موقعة أنقرة سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م حصلت خيرة شباب الإنكشارية ، ووقع السلطان بايزيد أسيراً ، فجعله تيمور في قفص وسار به يعرضه على الناس ، فمات كمدا .

ومن حسن الحظ أن تيمور لنك تولى بعد سنتين في سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م وانحلت عروة ملكه . وأما الترك فقد استجمعوا قواهم ونظموا أمرهم من جديد ، لأن هذه كانت أول صدمة يلقونها في تاريخهم ، وكانت دولتهم ، بعد ، فتية فياضة بالحياة . أما أهل إيران فقد تضعفت قواهم إلا في الشمال في نواحي تبريز ، وكان تأييد تيمور لنك للشيعنة قد بعث في أهلها حماساً ونشاطاً فتطلعوا لسيادة إيران كلها .

وأما العرب الذين أصابهم بلاء تيمور فقد وهن أمرهم بعد ذلك التحريب المتوالى على يد جكسرخان وهولاكو قبل مائة وستين سنة ، ثم جاءت صربة تيمور قاصمة للطهر فتخربت البلاد ، وهلك من أهلها ألوف بعد ألوف .

واستعاد الأتراك العثمانيون قوتهم خلال سلطة محمد الثاني المعروف بالقاتح ( ١٤٥١ م — ١٤٨١ م ) ، إذ إنه هو الذي انتزع القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ونقل إليها عاصمة الدولة ، وبذلك زالت من الوجود الدولة البيزنطية بعد أن عمرت أكثر من ألف سنة ، وتحول مُلك آل عثمان إلى إمبراطورية ، إذ عرف محمد الفاتح كيف يثبت سلطان دولته على بلاد البلقان حتى ألبانيا ، وأقام مراكز الحدود على نهر الطونة ، وأدخل تار شبه جزيرة القرم تحت سلطانه .

وأنتم بايزيد الثاني ( ١٤٨١ م — ١٥١٢ م ) عمل أيه في شرق آسيا الصغرى ، وبخاصة على حدودها الشرقية الجنوبية ، وهما بدأ الاحتكاك بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية صاحبة السيادة على مناطق الحدود بين شمال الشام والجزيرة الفراتية وآسيا الصغرى ، وقد ظهر ذلك بشكل واضح أيام سلطنة سليم . في هذه المناطق الجبلية الوعرة التي تفصل بين مواطن العرب والترك والإيرانيين وقع الصراع الحاسم بين الإمبراطوريات الثلاث الكبرى التي تقاسمت شرق العالم الإسلامي في أوائل العصر الحديث ، وكان المماليك — دون أن يدروا — أضعف القوى المتنازعة ، وقد عرضنا لبعض أسباب ضعفهم فيما مضى ، ولهذا كانت دولة المماليك أول من سقط في

الصراع ، فقد قضى الأتراك العثمانيون على قواتهم في موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ م ، وعقب ذلك دخلت كل البلاد التي كانت خاضعة لهم تحت سلطان الدولة العثمانية التي تحولت بذلك إلى إمبراطورية كبرى .

### دولة الصفويين :

وفي ذلك العصر أيضاً ظهرت إلى الوجود دولة الصفويين في إيران ، وكان منشئها الشاه إسماعيل سايلا للشيخ صفى الدين الأربيل (١٢٥٢ م — ١٣٣٤ م) ، وكان — فيما يقول مؤرخوه — من أحفاد موسى الكاظم سابع الأئمة في نظام الشيعة ، وكان صفى الدين وابنه صدر الدين — من بعده — سنين ، وكذلك كانت الجماعة الدينية التي أنشأها في الأربيل سنة .

ولكن حفيده الخوaja علي — الذى تولى رئاسة الجماعة من سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م — كان شيعياً معتدلاً ، وجاء بعده ابنه الشيخ إبراهيم شيعياً متعصباً للإثنى عشرية ، فقاد جماعته في صراع مع السنين في الداغستان . وخلفه في نفس الطريق ابنه الشيخ حيدر الذى تولى رئاسة الجماعة سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م ، ولم يكن أتباعه إيرانيين بل من التركان ، وقد ابتكر لهم أشياء زيد من عصبيتهم الشيعية مها قلوسة حراء ذات اثنتى عشرة ذؤابة ، رماً إلى الأئمة الاثنى عشر ، ولهذا سموها قلابشية ، أى أصحاب الرؤوس الحمراء . وقد تزوج شيخ حيدر مارتا ابنة أوزون حسن رئيس طائفة الشياه البيضاء التى كانت تحكم الـ غربى إيران ، وكانت أمها مسيحية اسمها دسبينا كاترينا Despina Katrina ابنة كارلو يوحنا Kaloo Johannis ملك مملكة طرايزون المسيحية على ساحل البحر الأسود الشرقى . وكان حيدر أميراً متعصباً لشيعة مقاتلاً في سبيلها ، وقد لقي الموت في صراعه مع أهل السنة ، وخلفه ثلاثة من أولاده أصغرهم إسماعيل ، وكانت سبه عاماً واحداً عندما توفى أبوه .

في ذلك الوقت كان الأتراك العثمانيون يمدون سلطانهم على آسيا الصغرى وشمال شرقى إيران ، فتصدى لهم إسماعيل عندما كبرت سبه وتزعم التركان الشيعيين في الحرب ، وقد تمكن بفضل شجاعتهم من الاستيلاء على تبريز ، وهناك أعلن نفسه شاهاً لإيران في المحرم ٨٩٨ هـ / يوليو ١٥٠١ م . والشاه إسماعيل هو الذى صبغ

الحركة الصفوية كلها بصيغة شيعية ، وكان الكثيرون جدًّا من أتباعه سننويّ أول الأمر ، ولكنه اجتهد في تحويلهم إلى الشيعة الاثني عشرية ، وتصدى معهم لحرب السلطان سليم العثماني الذي كان سنياً شديداً الحماس لمذهبه . وقد وقع اللقاء الدموي الأول بين الفريقين في تشالديران في شمال غرب إيران في رجب ٩٢٠ هـ/أغسطس ١٥١٤ م ، وانتهى بنصر حاسم للأتراك العثمانيين الذين احتلوا تبريز عقب ذلك . ولكنّ سليماً اضطر إلى إخلائها والعودة إلى تركيا بسبب فتنة وقعت بين صفوف جنده ، وهذه الفتنة هي التي أفلقت الصفويين من الأزمة الخطيرة التي أحاطت بدولتهم وهي بعد في طور النشوء .

هنا بدأت أوروبا تفكر في الاستعانة بالصفويين الشيعيين على الأتراك العثمانيين السننويين الذين كانوا إذ ذاك يتقدمون بخطى ثابتة في قلب أوروبا ، وأُرسلت إليزابيث ملكة انجلترا سفيراً لمقابلة الشاه طهماسب خليفة إسماعيل في بلدة قزوین عاصمته ، ولكنه طرد السفير عندما علم أنه مصراfi يريد أن يزيد الفتنة بين المسلمين . ولكن دولة الصفويين ضعفت ضعفاً شديداً في أيام طهماسب ، لأن رؤساء الجدد من التركمان تقاسموا السلطان في إملاتهم وتركوا الشاه وعرشه لمصيرهما في أثناء الصراع الحاسم مع الأتراك .

وعادت دولة الصفويين فانتعشت من جديد في عصر الشاه عباس ( ٩٩٦ - ١٠٣٨ هـ/١٥٨٧ - ١٦٢٩ ) وكان ملكاً عظيماً دون شك ، فهو الذي جدد قوة الدولة العسكرية وسمح لمديرين من الإنجليز بإنشاء فرق محاربة على النظام الحديث تتكون من الطوفانجية أي الفرسان الذين يستعملون السلاح الحديث ، والطبجية أي المدفعية ، والثقل أي الفرق الخاصة التي تضاهي الإنكشارية قوة ونظاماً . وبفضل هذه القوات الجديدة استطاع الشاه عباس الثبات أمام الأتراك العثمانيين وتثبيت دعائم دولته وتحويلها إلى قوة يحسب لها حساب ، وقد استعان في ذلك بالسير أنطوني شيرلي Sir Anthony Sherely وأخيه السير روبرت وبعثة بريطانية من الاختصاصيين في شؤون الحروب . وبطبيعة الحال لم يكن للإنجليز من غرض من وراء ذلك إلا تمكين الفرنسي من الثبات في وجه الأتراك العثمانيين ، حتى تشتت الحرب بين المسلمين ويخلص الأوروبيون من الخطر الذي كان يهددهم ..

المهم أن الشاه عباس أقام دولة قوية عاصمتها أصفهان ، واجتهد دعاء الغرب في تأجيج نار العداوة والكراهية بين المسلمين ، وكانت أذن الشاه عباس مصفية إليهم ، ويقال إنهم هم الذين ألوحوا إليه فكرة تحويل قبر علي الرضا في مشهد وقبر أخته فاطمة في قم إلى موضعين لحج الشيعة ، بدلا من الكعبة المكرمة الواقعة في بلاد سنية . ومن الثابت — على أي حال — أن هذه الفكرة دارت في ذهن الشاه عباس ، وفي الوقت نفسه سمح للمبشرين المسيحيين بالعمل في بلاده ، وفتح ذراعيه للأوروبيين كأنهم طوق الحجة لإيران من جيوانها المسلمين .

وفي سنة ١٠١١ هـ / ١٦٠٢ م وبمعاونة الإنجليز استطاع الشاه عباس أن يطرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، التي كانوا قد احتلوها واستعملوها مركزاً للسيطرة على بحار آسيا . وهنا أيضاً كانت للمعاونة الإنجليزية تهدف إلى القضاء على قوة البرتغاليين في تلك البحار حتى تنفرد بريطانيا وشركة الهند الشرقية بتجارة آسيا . وهذا هو الذي حدث . وعندما توفي الشاه عباس في جمادى الثانية ١٠٣٨ هـ / يناير ١٦٢٩ م بعد حكم ٤٢ سنة كانت إيران قد أصبحت قوة ضخمة في الشرق الأوسط .

وقد وصل الشاه عباس إلى تحقيق أهدافه بدكائه ووطنيته وشجاعته وغير ذلك من ملكات ، ولكنه لجأ أيضاً إلى أساليب دموية بالغة العنف مع منافسيه وكل من غشي منهم خطراً من أبنائه . وعندما اختفت شخصيته الغلابة لم يثر خلفاؤه منه إلا القسوة والعنف ، وذلك التقليد البغيض الذي جرى عليه الكثيرون من خلفاء آل عثمان أيضاً ، وهو وضع كل الرجال — أو كل الذكور — من الأسرة الحاكمة الذين يمكن أن يطمعوا في العرش في سجون حياة لا يخرجون منها أبداً ، فكأنوا يحبسون مع نسائهم وجواريتهم في بيوتهم من يوم يتولى العرش سلطان جديد إلى أن يموت . والنتيجة أنه عندما كان الشاه يموت لا يبقى حول العرش غير الخدم والحشم ، وهؤلاء هم الذين كانوا يختارون الشاه الجديد على هواهم وبما يناسب مصالحهم .

وأسرع التدهور إلى البيت الصفوي فاسترد مراد الرابع — آخر الفاتحين من آل عثمان — العراق وبغداد واحتل تبريز وأوقع مذبحاً بأهل همدان . ووصل تدهور أحوال إيران إلى أقصاه سنة ١١٣٦ هـ / ١٧٢٤ م ، عندما اتفق الأتراك العثمانيون

أن تركوا هذا الجزء للإيرانيين ، إذ إن آبار البترول وثرواته الطائلة اكتشفت فيه فيما بعد ، وحدير بالذكر أن جانباً كبيراً من ذلك الجزء يتكون من المناطق العربية من إيران . وهكذا يرى كيف أن دولتين عظيمتين من دول الإسلام في العصر الحديث أنفقتا من الجهد في الحرب فيما بينهما أضعاف ما أنفقتا في حرب العدو غير المسلم ، وقد نسي رجالهما أن المنافسة بين المسلمين — مهما بلغت — فإنها لن تخرج بلادا إسلامية إلى أهد غير إسلامية . ولقد تحارب المسلمون بعضهم مع بعض على طول العصور الوسطى ، ثم انتهت حروبهم وبقيت البلاد كلها بلاد إسلام لم يُنتقص منها إلا قدر قليل ، فلما أخذ المسلمون يصادقون غير المسلمين على حساب أسياد دينهم ويأمنون لهم ، بدأت بلادهم تضعيع ونقد الخطر إلى قلب الكيان الإسلامي نفسه ، ولم ينج من ذلك الشر بلد من بلاد المسلمين .

### العرب والأتراك :

تكلما فيما سبق عن سوء أحوال دولة المماليك التي كانت تحكم مصر والشاه وجزيرة العرب وجزءاً من شمالي العراق ، أي معظم الجناح الشرق للعالم الإسلامي ، وذكرنا كيف كانت أحوالها قد اضطربت اضطراباً شديداً بعد أيام السلطان قايتباي الذي يعد آخر الكبار من سلاطين المماليك . والحقيقة أنه كان من أسوأ من حكم العرب ، وإن من يقرأ حوليات النصف الأخير من القرن التاسع الهجري / النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي عند مؤرخ ذلك العصر ابن إياس الحمصي ليدهش من أهوة السحيفة من الاضطراب والفوضى التي تردت فيها البلاد في عصر المماليك ، والحق أن الدولة كانت قد انتهت منذ أيام السلطان هارثباي ، وما تده ذلك إنما كان احتضاراً طويلاً .

ولقد كانت دولة المماليك دولة واسعة ، وكان من الممكن أن يكون لها دور كبير في الصراع العيف الذي كان داهياً إذ ذاك على مصير تجارة الشرق بين البرتغال والجمهوريات الإيطالية ، وعلى مصر الشرق الأوسط بين الصفويين ومن حارب معهم من التتراك في ناحية والأتراك العثمانيين في ناحية أخرى ، ولكن دولة المماليك الضعيفة لم تكن تعرف مما يجري وراء حدودها شيئاً ، وكان جهل سلاطين المماليك

ورجالهم في تلك الحقبة فادحاً ، والكثيرون منهم كانوا لا يحسنون العربية : لا كلاماً ولا كتابة ولا قراءة ، وما كانوا — طبعاً — يعرفون أى لغة أخرى غير تلك الرطانة التركية المغولية العربية التى كانوا يتكلمونها في قلعة الخيل بعيداً عن عالم الناس ومن ثم لم يكن لديهم فكرة واضحة عن الأتراك العثمانيين أو الصفويين أو عن الأوروبيين ، ولّى جهلهم باتجاهات السياسة في عصرهم اتجهوا نحو الشاه إسماعيل ملتصقين به الحلف على ابن عثمان — كما كانوا يسمون سلطان الأتراك — وكان رسلهم أو سفراءهم محالين من المرتزقة يخفون سادتهم فيبيعون أسرارهم للتركي مرة وللإيراني مرة ، ومن ثم فقد كانت مهاجمة الأتراك العثمانيين لدولتهم مفاجأة لهم ، لأنهم — على الحقيقة — لم يكونوا يعرفون شيئاً .

وكان ذلك هو الطبيعي ، فإن أولئك المماليك الذين عاشوا مع العرب في بلادهم قروناً متطاولة ، لم يختلطوا خلالها بأحد ولا تعلموا العربية ولا قبسوا ثقافتها ولا أعادوا من الفرصة التى أتيت لهم ، وهى وجودهم على رأس أهم بلاد الشرق العربى وأكثرها موارد وثروات وإمكانيات . فعاشوا غرباء عن البلاد وأهلها ، لا ضربت جنودهم في الأرض ولا ربطتهم بأهلها واشجة غير واشجة الدين ، وكان إيمان المماليك إيماناً جاهلاً متعصباً قليل الفهم للإسلام ومراياه ، ومن ثم فقد كان الكثير من تصرفاتهم بعيداً عن روح الدين . ولم يمس لديهم ذلك الحس الذى يمس عبد من يفهم الإسلام ويتعمقه ، ومن هنا فقد نعت جماهير العرب من المماليك نفوراً شديداً ، وأنكروا حكمهم ، وإن لم يستطيعوا القضاء عليهم ، لأن الدول الباغية التى توالى على هذه البلاد — منذ أيام الطولونيين — حرصت منذ زمن بعيد على تجريد الناس من السلاح وإبعادهم عن الحرب حتى تنفرد الدولة ورجالها بالقوة والسلاح ومعرفة فنون القتال .

فخلال تلك القرون كلها لم يكن أمام أى مصرى أو شامى أو عربى من الجزيرة أية وسيلة ليتدرب على فن من فنون القتال ، وكان القتال في العصر المملوكى — أى فيما تلا الحروب الصليبية — قد أصبح كله قتال فرسان ، فلا يستطيع الخراب بسيفه على قدميه أن يفعل شيئاً أمام فيالق الفرسان ، مهما بلغ ضعف هذه الفياق . وأمام عجز الناس عجزاً تاماً عن الحصول على أية فرصة للتدريب العسكرى ، أو حتى ركوب الخيل ، خرجت الحرب من اهتمامات أمم العرب التى حرصت للمماليك ولم يعد أحد من أبائهم يفكر فيها أو يوجه أولاده نحو الخدمة العسكرية . وكان

من المستحيل أن يقبل المالك في صفوفهم رجلاً من العرب إلا أن يكون بدويًا  
يخبرهم ناحية من النواحي أو ساكن جبال يستصحبهم إخضاعه فيفتقون شره  
بتركه في جباله فيظل محصوراً فيها .

ولنضرب إلى ذلك أن هذه الدول حرصت على إفقار الناس وأخذ كل ما في أيديهم  
من الأموال جرياً على تقليد سياسي قديم جرت عليه الدول الآسيوية العتيقة وورثته  
الدول الإسلامية السائرة على الطريق الآسيوي ، وهي أن الرعاية الفقيرة رعاية  
مأمونة ، إذ إن الفقير المدقع مهما بلغ فقره وتعاثه لا يهكر في الثورة على الظلم  
ولا يستطيعها ، إنما يهكر فيها مياسر الناس الذين يتمتعون برخاء مادي يتمتع به  
رخاء معوي وتطلع إلى الحرية ونفور من الظلم وقدرة على الوقوف في وجهه .

ولذا كان من الطبيعي أن تزول دولة المالك أمام أول صدمة عيفة نواحيها ،  
وهي عندما رالت خلقت ورائها علماً عربياً فقيراً يائساً لا يملك من إطارات التكوين  
والتنظيم الاجتماعي إلا القليل . وما حفظ على المجتمع العربي وحدته وكيانه أيام  
المالك إلا الإسلام ومبادئه الكريمة التي حفظت على الأسرة والمجتمعات الإسلامية  
وحدتها وسلطانها وأخلاقياتها . وكانت الأسرة الإسلامية هي التي أنقذت المجتمع  
العربي من الصياغ خلال عصر المالك ، ومعظم ما يسبب من المساءات ودواعي  
التأخر والمظالم إلى العصر التركي يرجع في الحقيقة إلى العصر المملوكي ، فقد كانت  
كلها موجودة قبل أن يستولى الأتراك على بلاد العرب . حقاً إن الأتراك لم يستطيعوا  
علاجها ولم يتركوا العرب أحراراً ليعالجوا أدواءهم ، ولكن هذه مسؤولية أخرى .

والحق أن العرب أصيبوا بخيبة أمل كبرى عندما انتقلت بلادهم من المالك إلى  
الأتراك ، لأنهم توقعوا أول الأمر أن تكون الدولة الجديدة مخرجاً من التعاسة التي  
سادت في أثناء عصور المالك . ولقد أدخل الأتراك إصلاحات كثيرة على النظم  
السياسية والمالية التي كانت قائمة في البلاد العربية ، ولكن ذلك لم يهكر كافياً .  
فإن العرب ، يكونوا في حاجة إلى إصلاح النظم الإدارية والمالية التي كانت  
تخضعهم ، فهذه النظم لا تعود بالخير إلا على الحكام ، أما بالنسبة للمحكومين فهي  
تزيد من عبء الظلم وتجعله ظلماً منظماً أو استغلالاً مالياً مهيجاً يجرى على أساس  
الضبط والدقة في استخراج الأموال من الناس .



لم يكن العرب في حاجة إلى ذلك ، بل كانوا في حاجة إلى أن يرفع عنهم العبء ويعهد إليهم في حكم بلادهم ، ولهذا فهم لم يستميلوا شيئاً عندما تركت الدولة العثمانية أمور الحكم في أيدي المماليك ، فكان العبء قد تضاعف أيام الأتراك ، لأن المملوك كان يخشى من الناس صرائب مضاعفة بعضها له وبعضها للسultan . والحقيقة التي لا شك فيها هي أن الأتراك الذين شادوا دولة آل عثمان امتاروا بالقدره على ماجروا على تسميته بالضبط والربط ، أى ضبط الأمن وربط الأموال . والضبط عندهم قد يتحقق بالعدل والعهم ، وقد يتحقق كذلك بالبطش والقتل والإرهاب ، وهذا أسهل ، ولهذا فقد سلكوا سبيله واستراحوا إليه ، وعهدوا إلى الأمراء الإقطاعيين في كل ناحية إخماد بعض كل معارض واستخراج أكبر قدر من المال من الناس بأي طريق . وبذلك ساءت أحوال الناس وساءت ظنونهم في آل عثمان ، وهبطت الدولة كلها — من حاكمين ومحكومين — إلى درك سحيق .

والحق أنه على الرغم من أن العرب والعثمانيين عاشوا جميعاً في إمبراطورية واحدة من النصف الأول للقرن السادس عشر لليلادى إلى النصف الأول من القرن العشرين ، فإن أحداً منهما لم يعرف الآخر معرفة صحيحة ، والسبب في ذلك أن العربي لا يتألف مع غيره إلا على أساس العروية ، ومن خصائصه أنه لا يقبل على الامتزاج بحس آخر ، إذا كان ذلك سيؤدى إلى ضياع لفته وشخصيته العربيتين . ومهما بدع من صعب أمم العرب في بعض العصور فلها لا تفرط أبداً في عروبتها أو لفتها ، وهى عندما تشعر بأن عروبتها ولفتها مهددتان تكتمش على نفسها دفاعاً عن كيانه وترفض الامتزاج أو التعاون .

حدث هذا عندما خضع العرب للأتراك ، وعندما دخل العرب تحت دول الاستعمار . وفيما يتصل بالأتراك يقول إن كلا من الشعب العربى والتركى أراد أن يحتفظ بكيانه ويديب الآخر في نفس الكيان فلم يتم لأحد منهما توفيق فيما قصد إليه ، ولهذا شقى العرب بالأتراك بقدر ما شقى الأتراك بالعرب . ولكن الذى لا يعرف هو أن جماهير الأمة التركية قاست من حكامها ومظالمهم أكثر مما قاست منهم جماهير العرب ، وعليهما معاً يطبق قول شوق : « ولكن كلنا في المم شرق » .

ولقد أحجم العرب عن دراسة لغة الترك وأحجم الترك عن دراسة لغة العرب . فاما العرب فقد تعودوا أن يروا المسلمين من غير ثعرب يقلون على دراسة اللغة

العربية ، لغة القرآن والدين ، ولذلك قل أن أقبلوا على دراسة لغة من لغات إخوانهم في المجموعة الإسلامية ، وكأنهم قدروا أن الإسلام بدون عربية أو بدون عروبة لا يكتمل . وأما الترك فقد دخلوا أرض العرب عابرين ، وتوقفوا — لهذا — أن يسارع الآخرون لدراسة اللغة التركية ، وكان فيهم — لأول فتحهم للبلاد العربية — غرور عظيم ساعد عليه أن العرب كانوا في حالة ضعف وتعكك خطيرين ، فلم يجتذبوا غيرهم إلى دراسة لغتهم . ولقد درس الأتراك العثمانيون الإسلام بلغتهم التركية ، وحفظوا من القرآن ما يقيمون به صلواتهم ، وقام بعض علمائهم بترجمة آيات من القرآن إلى التركية ، وفي أول الأمر تمسك كثيرون من أهل العلم فيهم للغة العربية فدرسوها وتوقفوا فيها ، وظهر فيهم علماء يؤلفون باللغة العربية تأليفاً ممتازاً ، من أمثال أبي الخير أحمد بن مصلح الدين مصطفى طاش كبرى رادة المتوفى سنة ٩٦٨ هـ/١٥٦١ م ، وعلى دده بن مصطفى علاء الدين البوسنوي المتوفى سنة ١٠٠٧ هـ ، ومصطفى بن عبد الله كاتب جلي المعروف بحاجي خليفة ( ت ١٠٦٨ هـ/١٦٥٨ م ) وغير هؤلاء كثيرون ، ولكن هذه الحركة لم تستمر ، وانصرف الأتراك عن دراسة اللغة العربية والتحرر فيها .

وهناك سبب آخر لجهل الأتراك حقيقة العرب وجهل العرب حقيقة الأتراك ، وهو أنه كانت هناك دائماً جماعات وسيطة بينهما حالت دون أن يتعرف أحدهما إلى الآخر بصورة مباشرة . ففي مصر والشام مثلاً حالت بين الأتراك والعرب بقايا المماليك ومن ترقى معهم وخدمهم من العاملين في جمع الأموال ، وهؤلاء كانوا أعداء لأهل مصر والشام وأعداء للأتراك في نفس الوقت ، وكانوا هم الذين يتوسطون بين الحانين ويعطون لكل منهما صورة غير صادقة عن الآخر . وفي العراق تولى الحكم باشوات الأتراك ثم ممالك العثمانيين ، ولم يكن هؤلاء ولا أولئك بعثانيين حالصين ، وقد أساءوا إلى الترك بقدر ما أساءوا إلى أهل العراق وفي الحرمين والعجم تولت الحكم باسم الأتراك أسر محلية من العفاة والطعاة وطلاب الكسب بأي طريق .

ثم إن أسوأ فرق الإنكشارية كانت ترسل إلى الولايات العربية لأنها ليست مناطق حرب عنيفة ، إذ إن الأتراك كانوا يرسلون أحسن طبقات جنودهم إلى ولاياتهم الأوروبية وبخاصة على جهة نهر الطوبة وبلاد القرم وجنوبي روسيا والقوقاز وجبهة الحرب مع إيران ، ومن هنا فإن العرب لم يروا إلا أسوأ الأتراك ، ونتيجة لهذا لم

يعرفوهم على حقيقتهم قط ولا عرف الأتراك العرب على سجيتهم ، فلا عجب أن جهل كل منهما الآخر ولم يصل أحد منهما إلى فهم الآخر .

ولنصف إلى ذلك أن الدولة العثمانية كانت — منذ فتحها القسطنطينية وتوغلها في أوروبا — في حالة حرب دائمة ، وبخاصة على الجبهات الرئيسية الثلاث : الجبهة العربية في وسط أوروبا والبلقان ، والجبهة الشمالية في روسيا وبلاد القرم ، والجبهة الشرقية في مواجهة الإيرانيين . وهذه الحروب المستمرة عرضت على الأتراك تصحيات مستمرة وكلفتهم ثمناً عالياً من الدماء والأرواح ، وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين كان عليهم أن يخوضوا حرباً بحرية ضروساً في البحر الأبيض المتوسط أمام الأسبان والجمهوريات الإيطالية ، وقد استطاعوا بهذه الحروب إنقاذ المغرب العربي من الوقوع في أيدي الإسبان ، ولكن الثمن كان باهظاً ، فقد شطمت أساطيل الأتراك مرة بعد مرة ، ومات الألوف من حيرة رجالهم في مياه البحر ، وكانت آخر المعارك الكبرى التي خاضوها هناك هي معركة ليبانتو في أكتوبر ١٥٧١ م .

وكل هذه الحروب جعلت الأتراك تحت ضغط متزايد وفي حاجة ملحة للمال دائماً ، ولهذا اتجهوا إلى عسف رعاياهم سواء في الأناضول أو في الولايات العربية أو الأوروبية ، مما بعضهم إلى الناس وجعل حكمهم مرادفاً للظلم والاستبداد . وغير خاف أن المشاكل التي فرضتها الإمبراطورية على الأتراك كانت أكبر من أن يحلوها وحدهم ، فقد كانوا قوماً عسكريين في المكان الأول ، ولم يكن ضم باع طويل في مطاولة المشاكل والبحث عن حلول لها ، وإذا كان العرب يشكون من أن حكام الأتراك لم يوفقوا إلى حل أية مشكلة من المشاكل العريضة التي كانوا يعانونها ، فإن الأتراك كانت شكواهم من حكامهم أشد ، وتبعاً لذلك كان العبء الذي حملوه أثقل بكثير .

وبطيل الأتراك الحديث عن النظم الإدارية التي وضعها سليم الأول وسليمان القانوني ( ١٥٢٠ م — ١٥٦٦ م ) ، وربما كان حقاً أن تنظيمات سليمان أفادت الإطار العام للإدارة والمجتمع في الولايات العربية أثناء حكمه من التفكك الكامل ، ولكن معظم هذه النظم جمد جهوداً تاماً ، وأصبحت قواعده في الواقع قيوداً شديدة الوطأة على الناس ، وقد قام بتطبيقها موظمون أتراك أو محليون لا يتمتعون بقدرة

أو ذكاء كبير أو أمانة ، أو إحساس بالمسئولية العامة أو القومية ، ومن هنا كان عبء هذه الأنظمة التركية ثقيلاً على الناس .

وإذا ذكرنا أن الدولة العثمانية — بمجموعها — كانت دولة إقطاعية تعهد في الإدارة إلى ناس محليين في كل مكان وتتقاضى منهم مبالغ ضخمة سنوياً وتترك لهم نسباً عالية من الأموال لينفقوا منها على جندهم ، وفي الوقت نفسه كانوا أحراراً في أن يجمعوا من الناس ما يريدون من الضرائب ، إذا ذكرنا ذلك تبين مقدار ما عاناه الناس من المتاعب على أيدي أولئك الحكام الإقطاعيين الذين كانوا في الحقيقة ملتزمين بالضرائب فحسب ، أما الباشا الذي كانت تعينه الدولة إلى جانب الحاكم الإقطاعي فلم يمكن يحكم إلا بالاسم ، وكان الدفتردار — وهو الموظف التركي الموكل بتحصيل مال الإقليم — يشترك في الغالب مع الحكام الإقطاعيين في ابتزاز أموال الناس .

ومن الملاحظ — بصورة عامة — أن الحكام المحليين في البلاد العربية لم يتقدموا قط لحماية مصالح رعاياهم إذا وقع عليهم ظلم من رجال الدولة العثمانية ، في حين أن أمثالهم من حكام الولايات المسيحية — مثل الروملي وملكيا وولاشيا وترانسلفانيا — وكانوا مسيحيين ، لم يكونوا يتأخرون عن الدفاع عن بني جلدتهم والثورة على الدولة باسمهم . وكان فساد أولئك الحكام الإقطاعيين المحليين وتعاونهم مع رجال الدولة في العدوان على رعاياهم هو الذي أسرع بالنظم العثمانية إلى الفساد ، وهبط بالمستوى العام للإمبراطورية العثمانية وأهلها هبوطاً شديداً .

### اضمحلال الدولة العثمانية :

وقد بدأ انحدار الدولة العثمانية من سنة ١١٦٧ م ، وهي السنة التي اعتلى العرش فيها مصطفى الأول ، وقد سار الاضمحلال بعد ذلك قدماً برغم الجهود الضخمة التي بذلها آل كبرلي من الصلح العظام — أي رؤساء الوزراء — لإنقاذ الدولة ، وبخاصة أولهم محمد كوبرلي ( ١٥٧٥ — ١٦٦١ م ) وثانيهم أحمد فاضل كبرلي ( ١٦٦١ — ١٦٧٦ م ) وكان من عظماء الرجال ، فقد استطاع أن يوقف سير الاضمحلال ، ولكن مأساة الدولة العثمانية الرئيسية كانت تنبع من سببين رئيسيين : الأول أن سلاطينها لم يتجهوا قط إلى تطور الدنيا من حولهم وجمدوا عند مفهوم الدنيا

كما تصوره سليم الأول ، ومفهوم الإدارة كما رسمه سليمان القانوني . والثاني أنهم لم يتنازلوا قط عن الشعور بأنهم جنس ممتاز لا بد أن يحكم ويطاع ، وعلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا ، ونتيجة لذلك عزلوا أنفسهم عن الناس في كل ناحية عزلًا تامًا جعلهم غرباء في كل نواحي إمبراطوريتهم ، فلم يؤثروا في الناس ولم يتأثروا بهم ، وقد ظهرت دولة آل عثمان على مسرح الأحداث في مطلع العصر الحديث ، عندما بدأت الدنيا تنفيق من سبات العصور الوسطى وتسير سيرًا حثيثًا نحو التقدم ، في حين وقف الأتراك مكانهم ، فلم تلبث تركيا أن أصبحت في مؤخرة بلاد أوروبا من حيث التقدم العلمي والتنظيم السياسي .

ومع مرور السنوات ، لاحظ أن الدولة العثمانية تحارب حرباً حاسرة في ولاياتها الأوروبية ، وقد أهكت هذه الحرب قواها وامتنعت حيويتها وجعلتها آخر الأمر دولة فقيرة برغم عظمة مظهرها . ثم إن الدولة العثمانية لم تكن قط دولة أهلها من الأتراك أو العرب ، بل كانت دائماً دولة الخلفاء والسلاطين والقادة والإكشارية والحكام الإقطاعيين . وكان الكثيرون منهم غير أتراك ، ولهذا فلم يتمتع بحريات الإمبراطورية من الأتراك الأصلاء إلا القليلون ، ولقد دفع الفلاح والصانع والتاجر — من الأتراك — خيرة أموالهم وأرسلوا إلى الميدان زهرة أبنائهم ولم ينجوا من حيرات الدولة بعد ذلك إلا القليل .

ولم يفكر رجال الدولة — بعد آل كوبرلي — في بحث أحوال الرعايا وما آلت إليه إمبراطوريتهم ، فعلاً بل ساروا في طريق الخطأ فتضاغفت المتاعب . ولم تكن أمام السلاطين أى وسيلة لمعرفة الأحوال الحقيقية في إمبراطوريتهم ، لأن رجال دولتهم لم يصدّقهم الخبر عن شيء ، وكان الكثير من السلاطين غير صالحين للولاية أصلاً .

وشياً فشيئاً تنحدر دولة آل عثمان خلال القرن الثامن عشر انحدرًا محزنًا ، حتى تصل إلى درك سحق في سلطنة عبد الحميد الأول ( ١٧٧٤ — ١٧٨٩ م ) ، وكان مسكيناً ضحيق العقل قضى ٤٣ سنة سجيناً في قصره ضحيةً لتقليد خطر جرى عليه سلاطين آل عثمان وشاهدت إيران يقضى بحبس كل ذكور الأسرة الذين يمكن أن يتولوا العرش في بيوتهم منذ اليوم الذي يتولى فيه سلطان جديد .. وعلى أية حال ، كان هذا الإجراء أهون مما كان متبعاً قبلاً ، من افتتاح السلطان حكمته بقتل كل إخوته وأبنائهم الكبار ومن يمكن أن يتولى العرش !

أقبل عبد الحميد الأول على الحكم وكأنه مقبل من العالم الآخر : لا يكاد يعرف عن هذه الدنيا شيئاً ، وفي ٢١ يوليو ١٧٧٤م — وهي السنة الأولى لحكمه — وقعت تركيا معاهدة « كَنْشُكْ كَيْتَارْجِي » ، وهي وثيقة استسلام مهين أمام روسيا تحلّ فيها سلاطين آل عثمان عن سلطانهم على شعب التتر المسلمين ، الذين كانوا يسكنون مساحات شاسعة من بولندا إلى بحر قزوين ، ودخل هذا الشعب القوي تحت سلطان قياصرة روسيا . وتنازلت تركيا لروسيا عن ولايات ضخمة في شمال البلقان ، واعترفت باستقلال ولايات أخرى ، وأخذ الروس حق الملاحة في مضائق البحر الأسود ، وضاعت شبه جزيرة القرم ، وسلم الأتراك للروس بحق حماية المسيحيين الأرثوذكس في بلاد الدولة نفسها . باختصار : بدأت تصفية إمبراطورية آل عثمان ، وانحدرت الدولة العلية إلى دولة من الدرجة الثانية ، وبدأت روسيا وغيرها من بلاد أوروبا تتحدث في تصفية الدولة نهائياً . هنا بدأت « المشكلة الشرقية » ، وأصبحت الدولة العثمانية في نظر الغربيين دولة مريضة ميتوساً من شفاثها .

ما الذي حدث داخل الدولة ؟ هو بالذات ما حدث داخل الدول الإسلامية السابقة : عدّ السلاطين الدولة ملكاً لهم لا ملك الشعب ، وصرخوا أمورها لمصلحة يبيهم لا لمصلحة الرعية . ولقد صدقوا في الدفاع عن الإسلام وصرخوا نصراً عزيزاً ، ولكن دوافعهم إلى ذلك لم تكن ترجع إلى إيمان بأنهم يدافعون عن كيان أمة إسلامية عامة كما كان الأمر مع العرب الأول ، وإنما كانوا يحاربون بحماس شخصي مشكور لذاته ولكنه ليس طويل الأمد ، ولهذا فلم تلبث حماسهم أن تراجعت عندما توالى عليهم الانهزامات . وقد اعتمد السلاطين على قوة عسكرية وظيفتها الرئيسية حماية عروشهم ومد سلطانهم وامتنان الرعية بل احتقارها . هنا وقع الانفصال بين الشعوب المسلمة التي كانت تتكون الدولة منها — ما بين عرب وأتراك وأكراد ومن إليهم — وبين السلاطين وجندهم .

وقد سبق أن ذكرنا أن الشعوب هي شجرة السلطان ومصدر حياته ، وأن انفصال الهيئة الحاكمة عنها انفصال عن الحياة ، ولم يكن هناك مفر — والحالة هذه — من أن تموت شجرة الدولة شيئاً فشيئاً : يتدهور نوع الحكام من الزمن حتى تصل إلى الجهلاء والمعتوهين ، وتسيطر القوة العسكرية على أصحابها وتضع على العرش القاصرين والعاجزين ومن يجري مجرى مجرلهم ، وتفسد الروح العسكرية ويصبح الجنود طلاب أرزاق ويفقدون كرامة الجندي وشهامة المجاهد ، فلا تجعلهم المزام

ولا يستحون من الهروب والتسليم إلى أراضي الوطن . وعلى هذا تستمر الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى .

والآن نلتنف إلى الدولة الرابعة من الدول التي قامت في عالم الإسلام في مستقبل العصور الحديثة ، وهي دولة المغول في الهند .

**[إمبراطورية مغول الهند بعد السلطان أكبر ( ١٥٥٦ م — ١٦٠٥ م ) :**

أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى ما وصلت إليه إمبراطورية مغول الهند من العظمة والانتساع في عهد أكبر وابنه جاهنجير ( ١٦٠٥ — ١٦٢٧ م ) ، فقد شمل سلطانه شمال الهند كله وكشمير وبلوخستان وقندهار وجزءاً كبيراً من هضبة الدكن . وقد تألفت دولة جاهنجير برواء ساطع واردات عواصمها بروائع المساجد والقصور ، ولكن السلطة اعتمدت على الخد المأجورين ، وقد رادت أعدادهم في أيام أكبر وبنه زيادة هظت حرانة الدولة ، ثم إن جاهنجير ترك إدارة الدولة في أيدي جماعة من الورياء والدماء بأنعمرو بأمر زوجته نورجيهان فتبوا حرائي الدولة سباً . وقد شهدت أيامه الخد سريعا لدولة المغول وسلطانهم ، واستطاع الفرس أن يستولوا على قندهار ، وكانت ولاية جليلة في شمال الهند ومداخل جبال الأفغان .

وجاء بعده شاه جيهان ، ولم يكن بالحاكم القادر ولكنه كان بئاء تفخر بمباهيه صفحات الفن الإسلامي ، ويقف هذا الرجل في صف واحد مع عظماء المنشئين في تاريخ دول المسلمين ، من أمثال عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وعبد الرحمن الناصر الأندلسي وابنه الحكم المستنصر وأبي يوسف يعقوب المنصورى الموحدي ويوسف الأول العننى بالله سلطان غرناطة وسليمان القانونى العثمانى ، فقد ابتنى هذا الرجل مدينة ملوكية سميت باسم شاه جيهاناباد ، ورثن دهل وأجرأ بمنشآت هي آيات في الجمال . من مثل مسجد مطيع وروضة الشاح محل وكلاهما في مدينة أجزا . وإلى جانب العمارة انتعش التصوير وكتابة الخطوط الجميلة ، وعلى الجملة وصل البلاط المغولى في الهند إلى أوج فحامته في عصره الذى امتد من ١٦٢٧ — ١٦٥٨ م . ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن عوامل الاضمحلال كانت نشيطة أيضا ، وخلف زواء القصور وجمال اماني كانت أركان الدولة تنهدم وأموالها تنفد وأطرافها تنفصل

واحداً بعد آخر ، وقد تكلفت ميزانيتها مبالغ طائلة في حملات غير موفقة على قندهار ، وعندما توفي سنة ١٦٥٧ م كانت دولة مغول الهند قد آدت بالمعيب .

وقد حاول خلفه أورانجزيب (١٦٥٨ - ١٧٠٧ م) أن يتدارك الانهيار . وأوقفه فعلاً بعد أن قام بجهود مضنية ، ولكنه كان رجلاً عيماً قاسياً كلف رعاياه شططاً ، وكان يأمل أن يستطيع تحويل كل رعاياه إلى الإسلام ، وطارد السيخ والراجبوتيين والجاتيين والمراثيين والوشيين في الدكن ، وهب هؤلاء الأخيرون في وجهه بقيادة رعيم يسمى سيواجي وبثأيد من الإنجليز الذين عجلوا بإرسال الأسلحة النارية والمدربين إلى الثائرين . وقد أراد أورانجزيب أن يُخضع الهند كلها لسلطانه . وبذل جهداً صحماً في هذا السبيل حتى أوصل الدولة إلى أقصى ما وصلت إليه من امتداد الرقعة ، فشملت الأراضي الواسعة الممتدة من جبال الهندكوش إلى ساحل كروماندل ، ولكن عبء الضرائب كان ثقيلاً على الملاحين وأهل المدن . وكان نقطة الصعف الكبرى في نظام دولته هي فساد الطبقة العليا من الممول ، فقد تأثروا تأثراً عميقاً بالبيئة الهندية ومالوا إلى الراحة والملذات وأصبحوا عبئاً على الدولة وعنصر مصاد فيها .

ولكن العلة التي قررت مصير الإمبراطورية هي التنافس على العرش ، ومن أسف أن دول المسلمين لم تصل قط إلى قاعدة سليمة لتلاقي الأخطار من هذه الناحية ، وذلك راجع إلى أن أصحاب الدول جميعاً أمهلوا رعاياهم وأخرجوهم من ميدان المسؤولية السياسية واطمأنوا إلى المرتزقة والمأجورين الأجانب ، وأمنوا إلى الخدم والحواشي ، وأنفوا من أن يستشيروا في أمور دولهم كبار الناس من أبناء الشعب ، مما كانوا حذرين بتوجيه هذه الدول الوجهة السلمية كما كان الحال في الدول الأوروبية التي أشرنا إليها .

وهذا يصدق على دول العباسيين والفاطميين والأيوبيين وغيرهم ، وهو من الأسباب الرئيسية في ضياع أمرها جميعاً وقلة ما أدته لأمة العرب من خدمات حقيقية . ولكي نوضح هذه النقطة نقول : إن دول الغرب قامت على اكتاف أسر محلية أو أسر توطلت في البلاد ، وأصبحت ترى نفسها من أهلها وتعتمد على رجالها في تثبيت أقدامها . ذلك يطبق على بيت هوكابه في فرنسا ، والنورمان ومن أتى بعدهم في إنجلترا ، وعلى أسرة الهوهشتاوف في ألمانيا والهابسبورج في إسبانيا وبعض



بلاد أوروبا ، فهذه الأسر كلها تأصلت في البلاد ومدت جذورها في تربتها واعتمدت على أهلها في بناء جيوشها ، ومن أهلها اختار ملوكها معاونيهم ورجال دوعهم متعاونين في ذلك مع من وجدوا في البلاد من الأسر الأصلية ذات الجاه والمكانة في البلاد .

فبينما قامت دولة العباسيين والفاطميين ومن إليهم بالقضاء على كل من وجدتهم في البلاد عند قيامها من أهل الخلل والعقد والرأى واستصماء أمواتهم وتشريد أهلهم ، نجد كل أسرة من الأسر العربية التي ذكرناها تعترف لأهل الأسر المحلية بحقوقهم بل ترفضهم إلى مصاف الأشراف وتعتمد عليهم في أعمالهم ، فتلتحم الأسرة بالشعب ويزداد طابعها القومي طهوراً وبذلك يظول عمرها لأنها تصل نفسها بمصدر السلطة والقوة وهو الشعب ، ويصبح نجاحها نجاحه وفترها فتره . ولهذا يقال إن الأسرة السورامية ساهمت في بناء الشعب الإنجليزي ، ولا يقال إن الفاطميين أسهموا بنصيب في بناء الأمة المصرية ، وكل ما يقال في الكتب الجارية — عندنا — خلاف ذلك إن هو إلا أوهام وتصورات لا تقوم على أساس ولا يؤيدها من الواقع التاريخي دليل

وهذا الخطأ وقعت فيه دول أصيلة كالدولة العباسية ودولة آل عثمان ، فإن دولة بني العباس عربية قامت في الحقيقة على أكتاف عربية وغير عربية ، وكان سبيلها إلى القوة والحيلة هو الاعتماد أكثر فأكثر على العرب وربط مصالحها بمصالح الجماعة العربية ، والجماعة العربية هنا لا يقصد بها الجنس العرقي وحده بل كل من دخل في كيان العروبة واستعرب وأحسن بالفخر بمناصب العرب ومشاركة العرب آلام الحاضر وآمال المستقبل . ولو مد أبو جعفر المصور يده إلى هؤلاء العرب وجعلهم عماد جيشه وأهل مشورته ورأيه لأسرع الخراسانيون وغيرهم إلى الاستعراب وأصبحوا عرباً مع الزمن ، كما أصبح الإسبان عرباً في الأندلس بفضل السياسية العربية الواضحة التي سار عليها بنو أمية الأندلسيون . ولكن أبا جعفر المصور كان رجلاً أنانياً قصير النظر كغيره من منشئى الدول التي ذكرناها ، فجرى وراء مظهر السلطان الخادع ولم ينظر إلا إلى تأييد سلطانه وتثبيت أقدامه بآئى طريق ، وأحاط نفسه بنجد غير عربى وبمظاهر مُلك كسروى غير إسلامى ، وأصبح حليفة مسلماً ينصرف تنصرف ملك جاهلى ، ودفع الدولة كلها هذا المسلك إلى طريق غير مأمون .

## دولة المغول والتدخل الغربى :

طوال العصور الوسطى تمتعت الهند بصيت بعيد كبلد ذى حضارة موعلة فى القدم متعددة الخواصب ، بلد غنى حاصل بالخيرات التى تفتح أمام التجار إمكانيات واسعة للعمل والكسب الوفير . والهند كانت بلداً فسيحاً تميز فيه شعوب شتى تختلف فى المراح والأصول واللغات والديانات . ولم يكن يجمعها رابط حقيقى أو وحدة وطنية ، ومن بين سكانها شعوب ذات ملكات تجارية تسكن السواحل الغربية والشرقية لشبه الجزيرة الهندية وتتولى الأعمال التجارية ، وقد أنشأت هذه الشعوب مراكز التجارة والأسواق وهاجرت منها جماعات إلى الشواطئ الأفريقية وبلاد الملايو وجزائر الهند الشرقية وأنشأت فيها المتاجر والمحاليات ، ومن أهم مراكز النشاط التجارى على الساحل الغربى قاليقوت وجؤا وذيئل ، أما على الساحل الشرقى فكانت هناك سورات ومدراس وجزيرة بومباى .

وفى المراكز التى تقوم على الساحل الغربى برل تجار البرتغاليين أول ما دخلوا بخار آسيا فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد دخلوا بعنف شديد لأهمهم كانوا مسلحين بالبارود ولم يكن أهل البلد يعرفونه ، ولأن سفهم كانت كبيرة متينة البناء تحتمل الأسفار البعيدة وتحمل الناس الكثيرين والبضائع الوفرة وتحرك فى البحر بسهولة ، فم يصعب عليهم اجتياح أهل الملاحة والتجارة فى جنوب آسيا ما بين عرب وقرس وهود ، ثم أقدموا على الاستيلاء على أجزاء من الساحل وإنشاء الحصون والمخازن التجارية فيها ، وفى سوات قليلة أصبح البرتغاليون يمثلون رعباً لهذه البحار وتهديداً لسواحلها وسفها واتبعوا أسوأ أساليب القرصنة والعدوان ، فشمل أداهم كل السفن فى بحر العرب معتمدين على جريرة سقطرى التى احتلوها وسيطروا على الخليج الغربى من هُرمز واحتلوا كوتشين على ساحل الهند الغربى ، وأصبحت لهم بذلك إمبراطورية تجارية ، وما لبث ملك البرتغال أن أقام لنفسه نائباً له فى الهند ومركزه كوتشين . وكان الذى أنشأ تلك الإمبراطورية التجارية البرتغالية هو بديرو ألفاريز دا كابرال Pedro Alvarez da Cbral ، ولكن أول نائب للملك كان فرانسيسكو دا أليدا Francisco de Almeida ( ١٥٠٥ م — ١٥٠٩ م ) وهو أيضاً أول أوروبى نسمع أنه حكم بلداً شرقية ، وهذا الرجل هو الذى استطاع القضاء نهائياً على سيادة العرب على مياه جنوبى آسيا بانتصاره على الأسطول المصرى فى معركة ديو سنة ١٥٠٩ م .

وبينا كان البرتغاليون يمدون سلطاهم ، كان أمراء ممالك الهند في الذكس بخاريون  
أمراء دولة فيجايا ناجار الهندوكية ، وقد أماد البرتغاليون من ذلك ونزلوا شبه جزيرة  
الملايو وهزموا قواد سلطنة ملقا سنة ١٥١١ .

وقد بلغت سيطرة البرتغاليين على بحار آسيا أوجها في منتصف القرن السادس  
عشر الميلادي ، وكان من الممكن أن تدوم مدى طويلا لو لم يسرف البرتغاليون  
في استعمال القوة وأساليب النهب والسلب في بحار آسيا ، وقد دفعتهم أنانيتهم إلى  
أن يحاولوا إقفال تلك البحار أمام الشعوب الأوروبية الأخرى لكي ينفردوا وحدهم  
بالتجارة الآسيوية ، فحرموا على الهولنديين دخول ميناء الأشبونة وغيره من موانئهم ،  
فكانت النتيجة أن اتجه الهولنديون إلى الوصول إلى بحار آسيا مباشرة ، ووصلت أول  
أساطيل هناك بقيادة كورنيليس دي هوتمان Cornelis de Houtemann سنة ١٩٩٥ م ،  
وقد قطع الرحلة في سنة وثلاثة أشهر . في حين أن سفن البرتغال كانت تصل بحار  
آسيا في نحو عشرة أشهر . وفي سنة ١٦٠٢ أسست الشركة الهولندية المتحدة للتجارة  
ورأس مالها ٤٥٠ . ٠٠٠ جنيه إنجليزي ، وألهدتها حكومة هولندا وأذنت لها في أن  
تتخذ الأساطيل والقوات العسكرية .

وقد وجه الهولنديون اهتمامهم إلى جزائر الهند الشرقية ، فزلوا على شاطئ جاوه  
عبد باتنام وعيوا بيتر بوث Pieter Both حاكما للموقع ( ١٦٠٩ - ١٦١٤ م ) .  
وأنشأ هولنديون في أثناء ذلك مراكز تجارية في باتنام وجاكارتا التي كانت تسمى  
إد داك حاكثرا أو بَنافيا ، ولكن أعظم حكام الهولنديين في تلك الجزر كان جان  
بيترزون كوين Jean Pieterzon Coen ( ١٦١٧ - ١٦٢٢ م ) وكان سياسيا محاربا  
من طراز ألفونسودا ألبوكرك Afonso da Albuquerque وهو أعظم أمراء البحار  
البرتغاليين الذين عملوا في بحار آسيا . ومن الطريف أن بطلي البرتغال في صراعهم  
مع العرب في بحار آسيا كانا يحملان ألقابا عربية ، فالأول هو ألييدا أصل اسمه البهاء  
وهي قرية من أحواز شنتري في البرتغال ، والثاني « ألبوكرك » اسمه محرف تحريفا  
شديدا من الكنية العربية المعروفة « أبو بكر » .

وفي ذلك الوقت دخل الإنجليز بحار آسيا ، شركاء للهولنديين أولا ثم مستقلين  
بأنفسهم بعد ذلك . وقد اهم الإنجليز بالهند وركزوا نشاطهم في ولاياتها الشرقية  
وأنشأوا لأنفسهم مراكز على سواحل كروماندل والكوجرات والبغالطة ، وكما قضى  
الهولنديون على سطوة البرتغال في بحار آسيا وورثوا أسواقها الآسيوية فقد انتهى الأمر

بقضاء الإنجليز على سطوة الهولنديين في الهند ، وكان ذلك على يد روبرت كلايف ، ذلك الداهية الاستعماري الذي فاق كل من سبقوه ، فقام بتحويل شركة الهند التجارية إلى إدارة إمبراطورية ، وحول القارة الهندية إلى مستعمرة ، فبدأ بذلك عصر الاستعماريين العتاة .

ولكن الوجود البريطاني في الهند يرجع إلى ما قبل رمس روبرت كلايف ، فهذا الرجل كان من أهل الصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي ، في حين أن وثيقة تأسيس شركة الهند التجارية البريطانية ترجع إلى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ م ، وهذه الوثيقة صدرت عن الملكة إليزابيث إلى حاكم لندن ونقابة تجارها وكان رأس مالها ٣٠٣٣٣ جنيه ، وقد قدمت لها حكومة إنجلترا كل معاونة . ونحن نقف هنا عند هذه الحقائق للفت النظر إلى أنه بينما كان تجار الغرب يجلبون المساعدة والحماية والتأييد من حكوماتهم كان تجار بلادنا ضحية حكامهم ، فما وجدوا عند أحد منهم مالا إلا صادروه ، ولا عرفوا لأحدهم متجراً إلا نهوه ، فكيف والله كان من الممكن أن تقوم للشعوب قائمة ومن موقعهم أمثال أولئك الحكام ؟ !

وقد مشطت شركة الهند وأنشأت لها المراكز في سوريات وأجرا وبروتش ، وتملك الإنجليز جزيرة بومباي ، وقد كانت أولاً ملكاً للبرتغال فلما تروجت كاتالينا دي براجانثا Catalina de Braganca شارل الثاني ملك إنجلترا سنة ١٦٦١ م قدمت الحرية لزوجها ضمن بائنتها ، فسلمها شارل الثاني للشركة مقابل إيجار رمزي قدره عشرة جنيهات في السنة ، وفي سنة ١٦٨٧ م أصبحت بومباي مركز أعمال الإنجليز في الهند وقامت فرقة من الجند الأوروبيين المرتزقة بحمايته .

ولن نستطرد هنا مع تاريخ احتلال الإنجليز للهند ، وإنما يكفي أن نقول إنه في الوقت الذي كان الإنجليز فيه يتوغلون في الهند يوماً بعد يوم ، دخل الفرنسيون باب المنافسة ، وأنشأوا لأنفسهم مراكز تجارية ومعامل حصصية على السواحل ، وكان رجلهم في ذلك القائد المشهور فرانسوا دوبليه Francois Dupleix . واشتد الصراع بين الجانبين ، وبدلاً من أن يفتح رجال الدولة الممولة أعينهم على الخطر الذي يقيق بهم انصرف بعضهم إلى حرب بعض مستعنيين بالإنجليز أو بالفرنسيين ، مما أدى إلى القضاء على إمبراطوريتهم وتحولت الهند كلها إلى مستعمرة بريطانية سنة ١٨٥٨ م .

ولما كان المسلمون هم الذين قاموا بأكبر نصيب في مقاومة التدخل البريطاني في الهند ، فإن حكام الهند من الإنجليز جعلوا محاربة الإسلام من قواعد سياستهم في تلك البلاد .

وفي الوقت نفسه كان الهولنديون قد حولوا جزائر الهند الشرقية كلها إلى مستعمرة هولندية ، وتمكن الإنجليز من القضاء على قوة البرتغاليين في شبه جزيرة الملايو وجعلوها مستعمرة بريطانية مركزها سباحورة ، أما الفرنسيون فقد تمكنوا من الاستيلاء على كل شبه جزيرة الهند الصينية .

وهكذا تهدمت الإمبراطوريات الإسلامية الكبيرة التي كانت قائمة في الجناح الشرقي لمملكة الإسلام بعد إزهار قصر أو طويل ، تهدمت وحلفت وراءها أصداء من فتوحات وحروب وأنجاد حصارية . فأما الحروب فقد ذهبت مع أمس الدابر ، وأما الأجياد الحضارية فقد بقيت لأنها من بناء الشعوب . وقد خلقت هذه الدول وراءها كذلك شعوباً ضعيفة فقيرة حفظها من الشقاء عظيم ، تركتها ضحية لأعداء أقوىاء أقبلوا يقولون جديدة وأساليب جديدة وتمكين منظم يرمي إلى القضاء على عالم الشرق الإسلامي وعبر الإسلامي وتحويله إلى ميادين استغلال اقتصادي لخدمة العرب وبلادهم .

وكان على هذه الشعوب أن تعمل وحدها لتحرير بلادها والخروج بها من ظلم الاستعمار والخضوع للأجنبي الذي قادتها إليه الدول .

والآن نلتفت إلى الجناح العربي لدولة الإسلام ، لرى ماذا جرى فيه في تلك العصور . سندرس الدولة الإسلامية الخامسة التي قامت في عالم الإسلام في مطالع العصر الحديث ، وما اتصل بذلك من أحداث .

### بلاد المغرب وما قام فيها من الدول :

خلال الصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي تدهورت دولة الموحدين ، وهي كبرى الدول الإسلامية التي قامت في المغرب خلال العصور الوسطى ، وغرقت في بحر الخلافات الأهلية والتنازع على العرش ، ذلك البحر الذي غرقت فيه معظم دول المسلمين . وكانت دولة الموحدين آخر مظهر للدول الإسلامية الكبرى التي

تقامتها شعوب المغرب التي تنتسب إلى أصول صهاجية حضرية مستقرة ، وبانتهاؤ  
أيامها سنحت الفرصة للجماعات الرماطين للحلول محل خصومهم الصنهاجيين في  
السيطرة والسلطان ، وكانت أولى هذه الجماعات الزناتية التي سعت إلى السلطان  
القبائل التي سميت ببني مرين ، ومنازلهم الأولى في أرض السهوب الممتدة بين واحة  
تافغلت في جنوب المغرب الأقصى وفجيج في جنوبي غربي الجزائر الحالية .

وبعد محاولات طويلة استطاعوا بقيادة أول زعمائهم وسلاطينهم أبي يحيى عبد  
الحق ( ٦٤٢ - ٦٥٦ هـ / ١٢٤٤ - ١٢٥٨ م ) أن يربطوا آخر خلفاء الموحدين  
ويسودوا المغرب الأقصى كله حتى طنجة وتطوان في الشمال ، وسيطروا على ممر  
تازة مفتاح المغرب الأوسط ، وثبتوا أقدامهم في طنجة مفتاح الأندلس . ومن ممر  
تازة - أو تازة - استطاع المرينيون في عهد سلطانهم الكبيرين أبي الحسن علي  
( ٧٣١ - ٧٥٢ هـ / ١٣٣١ - ١٣٥١ م ) وأبي عنان فارس ( ٧٥٢ -  
٧٥٩ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٨ م ) أن يمدوا سلطانهم على الجزء الغربي من الجزائر  
الحالية ويصلوا بسلطانهم أحيانا إلى تونس . ومن طنجة عبروا إلى الأندلس حيث  
أنشؤوا بنصيب كبير في الجهاد في سبيل الإسلام في شبه الجزيرة إلى جانب بني نصر  
من الأحرار أصحاب غرناطة .

وكان لبني مرين اهتمام كبير بالمشآت والمباني ، فلا تخلو مدينة في المغرب الأقصى  
من آثارهم الجميلة ، وما زالت روضة بني مرين قرب شالة أثرا جليلا من آثار الفن  
الإسلامي البديع برغم ما أصابها من تدهور . والروضة هي المدارس ، وروضة بني مرين  
مجموعة من الأضرحة والمصليات بلغت الغاية من الجمال والرواء . وفي مدينة تارة -  
التي تتوسط الممر المعروف باسمها - أنشأ أبو يعقوب يوسف المرمي ( ٦٨٥ -  
٧٠٦ هـ / ١٢٨٦ - ١٣٠٧ م ) مسجده الشهير بقبته الرائعة وثرياه التي تعد من  
أجمل الثغريات التي صنعتها أيدي فناني المسلمين .

وقد اختفى بو مرين من الميدان بعنف كما دخلوه بعنف . أزاحهم عنه وحل  
علاهم فيه قبيل زناتي آخر عرف ببني وطلّاس ، منازلهم الأولى كانت أراضي السهوب  
وهولحات جنوبي طرابلس وأفريقية والجزائر ، ومن هناك انتقلوا خلال القرن الثالث  
عشر إلى جبال الريف ، ثم دخلوا في خدمة بني مرين وأصبحوا عماد قوتهم  
المسكينة ، وانتهى أمرهم بأن صاروا أصحاب السلطان في المغرب الأقصى عندما

أعلن شيخهم محمد بن الشيخ نفسه سلطاناً في سنة ١٤٧٢ م وظل يحكم إلى سنة ١٥٠٥ م عندما تولى بعد أن حاض حروباً طويلة وأقام ملكاً قبايلياً مزعراً ، ولقد كسب هذا الرجل وابنه أبو عبد الله المنقب البرتغالي ( ١٥٠٥ — ١٥٢٤ م ) انتصارات متعددة على منافسي بيتهم في المغرب ، ولكل منهما فشلا في إيقاف الخطر الأكبر الذي هدد البلاد في ذلك الحين وهو خطر التوغل البرتغالي الإسباني .

### البرتغاليون والإسبان في المغرب :

في ذلك الحين كان أمر إسبانيا والبرتغال قد استوى بعد أن قامت في كل منهما دولة قوية موحدة تجمع كل عناصر القوة في يدها ، وكان من أكبر ما حفز همهم إلى الحروب والتوسع وجود مملكة غرناطة الضعيفة في جنوب شبه الجزيرة ، ولقد دأبت غرناطة عن نفسها دفاعاً مجيداً ولكنها خسرت المعركة آخر الأمر وانتهى عصرها في الأيام الأولى من ١٤٩٢ م ؛ واستولت على بلادها مملكة قشتالة التي ترعمت ما يسمى في التاريخ الإسباني بحركة الاسترداد ( لاريكونكستا ها Reconquista ) .

وتحمس الإسبان بعد ذلك النصر وتطلّعوا نحو المغرب الأقصى الذي شادته الفوضى كما رأينا ، وقام سباق بين الإسبان والبرتغاليين على الاستيلاء على المواقع والمراكز على سواحل المغرب . وحذير بالذكر أن البرتغال كانت أول من استيقظ من بلاد أوروبا وتنبه إلى أهمية الأسواق التجارية الخارجية ، وشجعها على ذلك ثبات نظامها السياسي ومهارة رجالها في بناء السفن وقيادة الأساطيل ، وإيمانهم بالمسيحية ، وقد كان البرتغاليون يقومون بأعمالهم ضد بلاد المغرب الإسلامية مدفوعين في ذلك بعاطفة صليبية .

كانت أول ضحية للعدوان الإسباني البرتغالي بلدة تطوان ، وكانت قد نهضت إذ ذاك نهضة كبيرة نتيجة لاهتمام سلاطين بني مرين بأمرها ، فقد ابنتوا فيها قصبة مبيعة ليستعينوا بها في أعمالهم العسكرية في الأندلس . وقد تجمعت في ذلك البلد حشود من المجاهدين قامت بتأمين السواحل المغربية ومهاجمة أي سفينة معادية تحاول الاقتراب منها ، ويصف مؤرخو إسبانيا هذا الشاطئ بأنه كان نشاط قرصاصة ، مع أن المجاهدين المغاربة — أو غزاة البحر كما كانوا يسمون — لم يهاجموا أي ميناء

إسباني . وفي سنة ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م دبر الإنسان هجوماً عيباً على تطوان اشترك فيه أسطول ضخيم وألوف من الجنود ، وقد هوجم البلد على حين عرة فقتل رجاله وأسر نساؤه وأطفاله وهدمت أسواره . ولم تعمّر تطوان إلا بعد ذلك بقرن تقريباً ، عندما نزلتها جماعة من المهاجرين الأندلسيين الذي عادروا بلادهم عقب سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م .

وبعد تخريب تطوان جاء دور سبتة ، ذلك الميناء المعروف الزاهر الذي كان يقوم بنشاط تجارى واسع مع مرسيليا وجنوا وبرا ، وفي هذه المرة كان المهاجمون من البرتغاليين : سبروا نحو البلد أسطولا من ٢٠٠ سفينة فيها نحو ٥٠٠٠٠ جندي حاصروا البلد حصاراً شديداً ثم اقتحموه بالمدافع سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م وأنزلوا بأهلها مذبحاً بشعة .

وفي سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م هاجم البرتغاليون طنجة ، ولكن أهلها والقبائل المحيطة بها استطاعوا رد عاديتهم فتركوها وساروا نحو بلدة القصر الصغيرة ، في الداحل بين طنجة وسبتة ، ثم واصلوا سيرهم حتى شاطئ المحيط الأطلسي شمال أصيلا واستولوا عليها واستخدموها قاعدة لأعمالهم العسكرية ضد الشاطئ الأطلسي للمغرب .

وقد عجز محمد الشيخ سلطان بني وطاس عن إخراجهم من سبتة أو أصيلا ، فواصلوا نشاطهم وأنشأوا مركزاً عسكرياً قرب آسفي - التي تسمى أيضاً بصفاق - سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م ، ومن هناك مدوا سلطانهم حتى آزمور سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٦ م وأنشأوا حصناً لهم عند البريجة الجديدة سنة ٩٠٧ هـ / ١٥٠٢ م . وبذلك أصبح شاطئ المغرب على المحيط الأطلسي شمالي الرباط تحت سلطان أولئك العراة ، وفي موضع حصنهم هذا أنشأوا بلدة مارغان ، وكذلك أنشأوا مركزاً ثانياً عند رأس غير وسموه سانتا كروز دو كابو دا غير Santa Cruz do Cabo da Guir ( ١٥٠٥ ) ، وهذا المركز هو الذي تطور إلى أن أصبح ميناء أعادير اليوم .

وبقدر ما كانت قوات سلطان بني مرين وسلطان بني وطاس عاجزة عن حماية شواطئ بلادهم ، كان مهاجرة الأندلسيين الذين نزلت جموع منهم في شاون -



أو شُفُتَانُون — إلى جنوب تطوان قادرة على الصمود لكل هجمات الإسيان ، وتمكنت فئة أخرى من مهاجرة الأندلس من تعمير تطوان وإعادة بناؤها سنة ٩٠٤ هـ/١٤٩٩ م ، ولصمود للإسيان . وقبل ذلك الوقت ( ٩٠٢ هـ/١٤٩٧ م ) سقطت مليلة في أيدي الإسيان وما زالت تحت أيديهم إلى يومنا هذا ، وفي سنة ٩١١ هـ/١٩٠٥ م استولى الإسيان على المرسى الكبير في الجزائر ، ولكن الأتراك العثمانيين استطاعوا إخراجهم منها بعد أن دخلت الجزائر إمبراطوريتهم وتحولت إلى إيالة — أى ولاية — عثمانية .

وفي أيام أبي عبد الله البرتغالي خليفة محمد الشيخ تمكن البرتغاليون من التوغل في المغرب من ناحية أعادير ، واتصلوا بالكثير من قبائل السوس المعادية لبيى وطّاس وحالفوها . وفي إحدى غاراتهم وصلوا إلى أحواز مراكش وهددوها سنة ٩٢١ هـ/١٥١٥ م واسترسلوا في توغلهم حتى وصلوا إلى وادي درعة ، وهناك اصطدموا عند بلدة زَغُورَة الحالية بجماعات الصوفية المجاهدين من الطريقة الجزولية يتزعمهم رئيس من الأشراف — أى من سلالة الرسول ﷺ — يسمى عبد الله ابن أحمد بن سعد ( أو السعدى ) ، وقد استطاع الصوفية إيقاف التقدم البرتغالي . وكان نجاحهم في ذلك إيذاناً بميلاد دولة جديدة هي الدولة السعدية ، التي أخذت المغرب الأقصى من العدوان البرتغالي والإسباني .

**السعديون الفلاويون ( ٩٦١ — ١٠٦٩ هـ/١٥٥٤ — ١٦٥٩ م ) :**

وأصل السعديين من الحجاز ، هاجروا إلى المغرب في القرن الخامس عشر واستقروا في الجنوب في منطقة وادي درعة — آخر أنهار المغرب من ناحية الجنوب — وأصبح مشيئاً أسرهم عبد الله بن سعد الملقب « بالقائم » من كبار شيوخ الصوفية الجزولية ، وكان أنصاره يسيطرون على ناحية تارودانت ومركزهم تافالنت ، ولذلك يسمون الفلالين ، وقد أخلوا بناوشون البرتغاليين حتى ردوهم إلى الساحل ، وعندما تولى عبد الله بن أحمد سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م قام بالأمر ابه أحمد الأعرج متعاوناً مع أخيه الشيخ المهدي وتمكن من احتلال مراكش سنة ٩٢٩ هـ/١٥٢٣ م مع بقاءه في طاعة سلطان بني وُحَّاس ، وبعد خلاف وقع بين الأخير وانتقل السلطان إلى الشيخ المهدي ، وظل أحمد الأعرج حاكماً لمراكش ، وقد استطاع الشيخ المهدي

أن يستعيد أعادير سنة ٩٤٨ هـ/ ١٥٤١ م وأعقب ذلك بطرد البرتغاليين من آسمى وآرمور .

وقد حاص محمد الشبيح صراعاً طويلاً مع بقايا الوطاسيين وولاة الترك العثمانيين في الجزائر ، وكانوا قد حولوها إلى ولاية عثمانية ، وقد تحالف محمد الشبيح مع الإسبان حتى يأمن شر البرتغاليين ويرد مطامعهم ، واستطاع قبل وفاته سنة ٩٦٤ هـ/ ١٥٥٧ م أن يصع أسس سياسة السعديين حتى نهاية أيامهم ، وهذه الأسس تقوم على محاربة الإسبان ضد البرتغاليين والأتراك معاً ، ثم التخلص من سلطان جماعات الصوفية والمرابطين ، والاعتماد على قوة عسكرية خاصة من عبيد السلطان السود ، يشترتهم من بلاد أفريقية المدارية ويربهم تربية عسكرية تريد من كفايتهم الحرية ، ثم وضع نظام سليم عادل للصرائب والجنديات حتى لا يتقل أمرها على القبائل وأهل المدن . وكانت قبائل المغرب تنمر بمرور شديداً من الصرائب مهما قلت مبالغها ، لأنها كانت في بطنهم رمزاً على الخسوع والمدنة ، وكانوا يسمونها المغارم ويقسمون البشر إلى أعرة يأخذون المغارم وأذلة يؤدونها ، وهذا واضح من كلام ابن خلدون .

واستقر الأمر للسعديين في المغرب الأقصى حيناً — بمصل قوتهم العسكرية التي أنشأوها ، وكانت هذه القوة تسمى بالعساكر المغربية ، ( وانظر اصطلاح معرفي يراد به الحكومة ) — حتى وفاة عبد الله العالبي سنة ٩٨٢ هـ/ ١٥٧٤ م ، وقد خلفه ابنه مولاي محمد المتوكل ( ٩٨٢ — ٩٨٤ هـ/ ١٥٧٤ — ١٥٧٦ م ) فقام في وجهه الصوفية والمرابضون آمين استعادة سفيانهم الذي وى ومطالبين بإنعاء الحنف مع إسبانيا ، وفي أثناء الصراع معهم عاد من الآستانة عم له هو أبو مروان عبد الملك ومعه قوة من الجيش العثماني وعدد كبير من الفيين في صفوف القتال ، ولم يكد أبو مروان عبد الملك يدخل المغرب مطالباً بالسلطان حتى انصمت إليه جماعات من أهل الطرق الصوفية ، فتمكن من الانتصار على محمد المتوكل بظاهر فاس سنة ٩٨٤ هـ/ ١٥٧٦ م وأعلن نفسه سلطاناً وأقام أحياه أبا العباس أحمد حاكماً لفاس ، وانتهى هو نحو مراكش لثتم له البيعة فيها .

أما محمد المتوكل فقد هرب من البلاد وقام بمعامرة تعد من أغرب ما وقع لسلطان مسلم : لجأ أولاً إلى بعض قبائل الأطلس على أمل الحصول على تأييدهم ، ولم ينجح

في ذلك هرب إلى إسبانيا وطلب تأييد ملوكها له وعرض عليهم في مقابل ذلك أن يكون تابعاً لهم خاضعاً لسلطانهم ، فلم يلق قبولا ، فاتجه إلى البرتغال . وهكذا نرى كيف أن التمسك بالسلطان يُخرج طلاب الملك على أخلاقهم ودينهم ، وماذا بعد هذا الترامى المشين على عتبات ملوك النصارى واحداً بعد واحد مجرد الوصول إلى العرش والسلطان !

وتحمس للأمر ملك البرتغال الدون سيبستيان ، وكان شاباً طموحاً جريماً فظن أنه يستطيع الاستيلاء على المغرب كله عن طريق تأييد هذا المطالب بالعرش ، واستشار في ذلك خاله الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا فتصححه بالإقلاع عن تلك المغامرة ، ولكنه لم يستمع ، وصَدَّق ما قاله له محمد المهدي من أن المغاربة إذا رأوه انفضوا عن عمه عبد الملك .

نزل الملك سيبستيان وحليفه محمد المهدي ميناء أصيلا في ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م ، وتقدم أبو مروان عبد الملك نحوهم بمجموع مجاهدي المغرب وجند المملكة ومن انضم إليه من الأتراك ، وكان الجيش المسيحي يتألف من ٧٠٠٠ من بحيرة الفرسان والمدفعية بينهم ٢٠٠٠ من الإسبان وعدد من الألمان والإيطاليين . وفي الرابع من أغسطس ١٥٧٨ م دارت المعركة في سهل إلى جوار مدينة القصر الكبير يسمى وادي الخازن ، وانتهت بهزيمة ساحقة للبرتغاليين ومن معهم . وقد قتل في المعركة سيبستيان وغرق محمد المهدي في ماء نهر أراد أن يعبره سباحاً . أما أبو مروان عبد الملك فلم يحش ليرى النصر ، إذ كان مريضاً يُحمل في محفة في ذلك اليوم الكبير ، وعندما أقيلت بشريات النصر كان في غمرات الموت ، ولم يلبث أن توفى في نفس الليلة . ولهذا تسمى المعركة بمعركة الملوك الثلاثة ، وتسمى أيضاً معركة الخازن ، ومعركة القصر الكبير . وهي حاسمة في تاريخ المغرب ، لأنها قطعت رجُل البرتغاليين من المغرب فلم يعودوا إلى الطمع في أراضيه ، وبعد ذلك بستين قام فيليب الثاني بغزو البرتغال وضمها إلى تاج إسبانيا ونودي به ملكاً عليها في أبريل ١٥٨١ م .

وجنى ثمرات هذا النصر أبو العباس أحمد خليفة أبي مروان عبد الملك ، وقد تلقب بالمنصور ، ولقبه الناس كذلك بالمنصور الذهبي ( ٩٨٦ — ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ — ١٦٠٣ م ) . وهو من أعظم ملوك المغرب وأجلاء أعمه الغرب والمسلمين ، وقد اجتهد في تقوية السلطة عسكرياً ، فاتجه نظره إلى الامتداد

جنوباً ووصلت جيوشه المنصورة إلى إقليم غانة — أو بلد السودان كما كان يسمى — وهناك ضم إلى قواته ألوفاً من مقاتلي السودانيين ، وعكف رجاله على تدريبهم على فنون الحرب .

وكانت بلاد غانا إذ ذاك من أكبر موارد الذهب ، فمعظم ثراء دولته واتسعت أمامه فرص الإنشاء والتعمير والتنظيم ، فجمع المغرب في عصره برحاء كبير ، واتعشت كبريات مدن المغرب من أمثال فاس ومكناس ومراكش وطنجة ، وقد ابنتى المنصور أسواراً غاية في الجمال لمدينة مكناس ما زالت باقية إلى اليوم محتفظة بكل جمالها .

وقد تخلص أحمد المنصور الذهبي من كل صور التبعية للإمبراطورية العثمانية ، ولكنه استمر محافظاً على الحلف والصداقة مع إسبانيا والابتعاد عن أى عمل لمعاونة بقايا المسلمين المضطهدين هناك ، وكان بلاؤهم قد وصل إلى ذروته في أواخر أيام فيليب الثاني ثم خلفته فيليب الثالث ، وفي أيام هذا الأخير اشتد بلاء ديوان التحقيق وقاست جماعات المسلمين في إسبانيا أشد أنواع الاضطهاد ، وفي سنة ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م صدر الأمر بإخراج بقاياهم من إسبانيا فأقيلت على المغرب منهم ألوف بعد ألوف .

ومات أحمد المنصور الذهبي سنة ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م ، فإذا بالبناء الضخم الذي شاده يتحطم ، لأن أبنائه الثلاثة — أبا عبد الله المأمون المعروف بالشيخ ، وأبا قارس الملقب بالوائق ، وزيدان — تنازعوا على العرش نزاعاً محزناً محزباً . وهكذا نجد دول المسلمين تتحطم على صخرة النزاع على العرش ، ودولة قائمة جليلة كهذه ينهار نظامها لأن أبناء السلطان الثلاثة لا يرضى أحد منهم إلا بأن يكون هو وحده السلطان دون أخويه . وبعد نزاع طويل دام عشر سنوات خلا الميدان لمولاي زيدان فأصبح سلطان المغرب ، وثارت الحروب بينه وبين الإسبان في البر والبحر حتى وفاته سنة ١٠٣٧ هـ / ١٦٢٧ م .

وخلال هذا الصراع وقعت في أيدي الإسبان سفينة فرنسية كان مولاي زيدان قد اكترأها ليحمل عليها كتبه وذخائره من سلا إلى أغادير ، وغنموا ما فيها ، ومن بين ذلك مجموعة من المخطوطات العربية هي جزء من مكتبة مولاي زيدان ، وكانت تضم نحو ٣٠٠٠ مجلد تقريباً من أحسن المخطوطات العربية ، فأمر فيليب الثالث

ملك إسبانيا بإيداعها مكتبة دير سان لورنزو في مدينة الإسكوريال San Lorenzo del Escorial الذى بناه أبوه . وهذه المخطوطات هي أساس ذخيرة المخطوطات العربية الموجودة إلى اليوم في هذا الدير ، وكان ذلك سنة ١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م .

أما عشرات الألوف من المخطوطات التى كانت تملأ إسبانيا أيام العرب فلم يبق منها إلا نزر لا يذكر ، والباقي أتت عليه نيران محاكم التحقيق . وهكذا يرى كيف ضاعت مئات الألوف من مخطوطات علوم العرب على يد طائفة المولود هولاكو عندما دخل بغداد ، ومئات ألوف أخرى على يد رجال ديوان التحقيق في الأندلس .

والحق أن تراثنا الثقافي قد تعرض لأعمال إبادة بربرية كثيرة من هذا الطراز ، ومع ذلك فقد بقي منه ذلك الذخر العظيم الذى نلجده الآن مفرقاً في نواحي الأرض بملأ مكباتها الكبرى ، وإنه لتراث ضخم لم تشهد الإنسانية قبل العصور الحديثة مثالا له ولا قريناً منه . ولو وعى العرب قتل تراثهم وما قام به أحدادهم من الجهاد في سبيل الإسلام والعلم لما رضى عربى إلا بأن تكون لأمتة الصدارة بين الأمم .

انتهى حكم مولاي زيدان ( ١٠١٢ - ١٠٣٨ هـ / ١٦٠٣ - ١٦٢٨ م ) في ظروف حزينة ، فقد تقلص سلطان البيت السعدى حتى لم يعد يتخطى مدينة مراكش وما حولها ، وأما فاس وإقليمها فقد سيطر عليهما فرع من البيت السعدى وتولى عليهما سلاطين استقلوا هما ، وفي كل ناحية تقريباً قامت أسر محلية بعضها عرب من هروغ بني هلال — وبخاصة المَغْقِل — وبعضها من أهل البلاد ، واستمر هذا التفرق إلى آخر أيام السعديين في مدينة مراكش ( سنة ١٠٣٦ هـ / ١٦٢٦ م ) وفي ناحية فاس ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م . وقد عادت وحدة البلاد على أيدي العلويين ، وهم أيضاً أشراف علويون يرجع نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، دخلوا جنوب المغرب الأقصى مهاجرين في أعقاب غارة وهجرة ضخمة قام بها عرب المَغْقِل في القرن السابع عشر الميلادى ، وجدهم منشئ دولتهم هو مولاي على الشريف ، الذى استقر مع بنيه وأتباعه في ناحية سجلماسة ، وكان رئيساً دينياً وشيخاً من شيوخ الصوفية المرابطين ، وعندما توفى في حدود ١٦٦٠ م خلفه ابنه محمد .

ولم يكن طريق العلويين إلى السلطان سهلاً ، ولا كانت المشاكل التى واجهتهم باليسيرة ، فقد نهضوا بالحكم في ظروف عسيرة ، ووسط فوضى شاملة فقد توالى

الثورات والانقسامات حتى خيف على مصر الوطن المعزى منه ، لأن الأمر لم يقتصر على أخطار التفرق الداخلى بل كان هناك الأعداء الخارجيون : إسبانيا والبرتغال ، وبعد قليل دخلت فرنسا ذلك الميدان . ولقد كان على مولاي محمد الشريف ( ١٠٤٦ - ١٠٧٣ هـ / ١٦٣٦ - ١٦٦٣ م ) ورشيد ( ١٠٧٤ - ١٠٨٣ هـ / ١٦٦٤ - ١٦٧٢ م ) وإسماعيل ( ١٠٨٣ - ١١٣٩ هـ / ١٦٧٢ - ١٧٢٧ م ) أن يخوضوا صراعاً عنيفاً مع سلسلة طويلة من المنافسين فى الداخل ، وأن يردوا عن المغرب خطر العدوان الأوروبى ويعيدوا وحدة البلاد ونظامها .

ولكن الأزمان تنفجر ، ومع الأزمان الجديدة تأتي مسئوليات جديدة وأخطار جديدة . وقد مهن العلويون مسئولياتهم وواجهوا الأخطار بشجاعة ، ولكن احتلال الفرنسيين للجزائر وتوغل إسبانيا فى شمال المغرب الأقصى وضعاً مشكلة المغرب كله وضعاً جديداً .

وبقية هذا التاريخ تتحظى حدود هذا الكتاب ، فقد وصلنا بتاريخ المغرب الأقصى إلى صميم القرن الثامن عشر الميلادى ، أى إلى قلب تلك العصور التى تسمى بعصور الركود . فلنقف هنا لنلقى نظرة سريعة على بقية أجراء المغرب العربى ، استكمالاً لصورة العالم الإسلامى فى مطالع العصر الحديث .

## الأحوال فى أفريقية ( تونس ) والمغرب الأوسط ( الجزائر ) حتى القرن الثامن عشر الميلادى :

ونبدأ بأفريقية ، وهى اليوم تقابل جمهورية تونس ومحافظتى قسنطينة وجاية و الجزائر الحالية ، وفى معظم الأحيان كانت تضاف إليها ولاية طرابلس . كانت هذه المساحة دائماً وحدة سياسية ، إلى أن تدخل الأتراك العثمانيون فى المغرب وأعادوا تقسيمه السياسى خلال القرن السادس عشر الميلادى .

كانت أفريقية هذه مركز خلافة بنى حفص — أو الحمصيين — ابتداء من سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٦ م ، وأبو حفص جدهم الذى ينتسبون إليه هو عمر أنتى — أو المختاتى — وكان أعظم أنصار محمد بن تومرت مهدى الموحدين ( ت حوالى ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م ) . وقد استقل أحد أحفاد عمر المختاتى هذا — وهو أبو زكريا — بأفريقية سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م وأشأ دولة قوية منظمة خلفه عليها ابنه

أبو عبد الله محمد المستنصر الذي اتخذ لقب الخليفة ( ٦٤٧ — ٦٧٦ هـ / ١٢٤٩ — ١٢٧٧ م ) ، وكان ملكاً هماماً تمكن من القضاء على الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع على تونس سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م .

بعد المستنصر تعاقب على عرش الحفصيين ٢٦ خليفة كانت معظم أيامهم نكداً وشقاء وحروباً وموصى ، حتى انتهى أمرهم سنة ٩٨٢ هـ / ١٢٧٤ م . وقد عرفت البلاد في ظلهم سنوات قليلة من الرخاء والازدهار ، خصوصاً بعد استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، فقد أصبحت تونس وبونة ( غابة ) وبجاية مراكز تجارية كبرى تمد عنها سفن أوروبا حاملة بضائع العرب لتستبدل بها خيرات الشرق . وهذا الرخاء اجتذب أنظار الطامعين ، وعلى الرغم من أن ملوك الحفصيين كانوا أهل علم وثقافة إلا أنهم أهملوا اتخاذ العدة العسكرية الكافية لحماية بلادهم من الأخطار .

وفي أيام أبي عبد الله محمد الخامس ( ٨٩٩ — ٩٣٢ هـ / ١٤٩٤ — ١٥٢٦ م ) وابنه الحسن ( ٩٣٣ — ٩٤٩ هـ / ١٥٢٦ — ١٥٤٢ م ) ضعفت السلطة المركزية عن السيطرة على البلاد ، فتقسمت إلى ولايات متفرقة تولت الحكم فيها أسر محلية ، واستقل شيوخ عرب المعقل — وهم فرع من الملالين — بمساحات واسعة من الأراضي في الداخل . وفي هذه الأثناء أقبل الإسبان يستولون على موانئ المغرب وأفريقية واحداً بعد آخر ، فأخذوا المرسى الكبير ( ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ) ووهران ( ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م ) والجزائر ( ١٥١٠ م ) وأنشأوا في الجزيرة المقابلة للجزائر حصناً ضخماً سموه البون El Penon نى الصحرة ، ثم استولوا على بجاية وطرابلس وحاصروا جزيرة جربة .

في ذلك الحين كان أمر الأخوين الملاحين المسلمين عروج وأخيه خير الدين — الملقب ببارباروسا أى صاحب اللحية الحمراء — في صعود ، وكان هذان الأخوان ربانين من ربابة البحار أصلهما من ألبانيا ، وهما ما رأيا من سيطرة الإسبان على البحار وجشعهم في بلاد المسلمين ، فأنشأ عروج أسطولاً شحبه بالمجاهدين ، ومضى مع أخيه يهاجم السفن الإسبانية ، واتخذ من موانئ المغرب الصغيرة مراكز لأعماله ، ورحب المسلمون بنفسه في كل مكان ، وتطوع للعمل مع الأخوين ، عروج وخير الدين ، الكثيرون من الشبان ذوى الحمية ، فلم يلبث أسطول الأخوين أن أصبح

قوة يحسب لها كل حساب في مياه البحر الأبيض المتوسط . وفي سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م استطاع عروج أن يطرد الإسبان من مياه الجزائر ، وإن بقوا في الصخرة . ثم توغل في داخل البلاد وهاجم بقواته تلمسان في البر والبحر ، وقد لقي هذا المقاتل الباسل الشهادة قرب تلمسان فهبط بالأمر أخوه خير الدين .

وتبنت الدولة العثمانية لهذا البطل ، فأخذته تحت جناحها وحلج عليه السلطان لقب باشا ، وأرسلت له القوات والمؤن ووضعت تحت تصرفه السفن ، وهكذا تطورت الحروب بين الأخوين والإسبان إلى حرب تركية إسبانية لسيادة البحر الأبيض المتوسط .

وقد طال مدى هذه الحرب ، ولكن الأتراك لم يدحروا وسعاً في موالاتها مما ينغى لها من رجال ومال ، واستطاعوا آخر الأمر إيقاد المغرب الأوسط وأفريقية من برائن الإسبان ، وهذه من أجل الخدمات التي قدمها الأتراك للجماعة الإسلامية ، إذ حفظوا لها المغرب الأوسط وأفريقية . وقد طالبت الحرب بينهم وبين الإسبان في الجزائر الحالية أولاً ثم في تونس ثانياً ، وفي أثناء هذه الحروب سقط أمراء الحفصيين إلى الحفصيين ، وظهر فهم من يرضى بأن يصبه الإسبان سلطاناً فيحكم باسمهم وبتأييد رجالهم ، وقد انتهت أيامهم بانتاء هي عبد الواد — الذين كانوا قد طمحووا إلى السلطان وأنشأوا لأنفسهم دولة في غرب الجزائر — وسقوط الحفصيين في تونس .

ففي سنة ٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م استطاع خير الدين أن يستولي على عابدة وقسطنطينة وصخرة الجزائر ، ثم استولى على تونس وبنزرت وتوغل في الداخل وتمكن من القضاء على حامية إسبانية كانت تؤيد السلطان الحفصي الحسن في القيروان ، وعهد خير الدين في حكومة القيروان إلى رجال الطريقة الصوفية الشاذلية . وفي سنة ١٥٣٥ م أقبل الإمبراطور شارل الخامس — المعروف بشرلكان — بنفسه فقتل صقلية وعزا تونس وحلق الوادي La Goulette ( والمراد به مصب وادي بـجـرّة وهو نهر تونس ) واستدعى أبا الحسن من الصحراء ونصبه سلطاناً ، وفي مقابل هذه المعاونة تنازل هذا السلطان الحفصي لشرككان عن حلق الوادي وصفافس والمنستير ، وعن سوسة للملاح الحموي أندريا دوربا Andrea Doria أمير البحر ، وعندما سار هذا الرجل في حماية الإسبان لاستعادة القيروان وقع في أسر ابنه أحمد فسلم عيه .



وبعد موت حير الدين قام رميله وحليته طرغود ( أو ضرعوت ) لمواصلة عمله فاستولى على طرابلس ( ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م ) ثم قصص ( ٩٦٤ هـ / ١٥٥٦ م ) ثم القيروان ( ٩٨٥ هـ / ١٥٥٧ م ) وأنزل بالإسبان هزيمة كبرى قرب جربة جربة ( ٩٧٦ هـ / ١٥٦٠ م ) .

وكان أمر الأتراك قد استقر في الجزائر ، فعملوا بها إمالة — أى ولاية — عثمانية يحكمها قائد تركى يلقب بأمر الأمراء بآلبريخ ، فتقدم أمير الأمراء يولوج — أو على باشا — واحتل تونس ، ولكن هزيمة الأسطول التركى في ليبانتو سنة ١٥٧١ م قلبت الميزان فعاد الإسبان إلى تونس ، واستولى خوان د أوسترى — Juan de Austria — قائد الأسطول الإسبانى المنتصر في ليبانتو — على تونس ( ٩٨١ هـ / ١٥٧٣ م ) ، وأقاموا السلطان محمداً السادس الحفصى . ولكن الأمر لم يطل ، إذ عاد الأتراك فاستردوا هذه البلاد كلها سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م وأزالوا ملك الحفصيين وجعلوا تونس كلها ولاية عثمانية .

وكانت طرابلس وأفريقية والمغرب الأوسط كلها ولاية عثمانية واحدة ، كان يحكمها أول الأمر أمير أمراء واحد يقب في الجزائر حتى سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م ، ثم قسمت سنة ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م إلى ثلاث إيالات يحكم كلاها وال يلقب باشا ، وفي سنة ١٦٧١ م تحولت هذه الإيالات إلى ولايات عسكرية يحكم كلاها فيها قائد برتبة أعا ومعه وجاق — أى فرقة — من الإنكشارية ، ثم انتقل الأمر في كل منها إلى رئيس عسكرى يلقب داي يتحبه الأعوات — أى القواد العسكرىون — وطل ذلك ساريا إلى العزو العرسى لجزائر سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م .

### التدهور السياسى وأسبابه :

كانت تلك هي الملامح البارزة لصورة العالم الإسلامى ابتداء من القرن الثامن الهجرى ( الرابع عشر الميلادى ) إلى أواخر الحادى عشر الهجرى ( السابع عشر الميلادى ) وهي القرون التى ظهر فيها بأجل صورة ما يعرف بركود العالم الإسلامى . وأهم مظاهر تدهور النظم السياسية القائمة . وفقدان القدرة على ضبط الأمور في البلاد ، وعجزها التام عن إقامة الحكم العادل أو أى صورة منه ، وفشلها في تمكين المواطنين من العيش الحادى والعمل المنتج ، ويضاف إليها — في أحيان كثيرة — المعجز عن حماية البلاد ، وفقدان

الحكام — في كثير من الحالات — الحياء والشعور بالكرامة أو القومية أو الحمية للدين ، فهم — إلى جانب ما أنزلوه بالناس من ظلم — كان بعضهم يتآمرون على أوطانهم مع الأعداء . ومن مظاهره البارزة أيضاً ذلك الفقر الشامل الذى حط على الجماعات الإسلامية كلها ، فزححت تحت عبء باهظ من الضرائب والمعارم استفدت أموال الناس ، فسيطر عليهم فقر مدقع نرى صورته البشعة فيما كتب الرحالة الذين زاروا عالم الإسلام في تلك العصور .

وصاحب ذلك الفقر يأس تام من تحسن الأحوال ، واستسلام تعمس للمقادير وما تأتى به ، وهبط المستوى العلمى والفكرى فلم يعد ينظر هذه الشخصيات الممتازة التى عرماها في التاريخ الفكرى للإسلام منذ ظهوره حتى أواخر القرن الخامس الهجرى على الأقل . وكان من نتيجة ذلك أن ساد اجتماع كنه جهل شديد نسي الناس في أثناءه ما كان عند أجدادهم من المعارف والعلوم ، وانتشر الخوف من الشياطين والأبالسة والمخلوقات الشوهاء التى يخلقها خيال الجهلاء والخائفين ، واستسلم المجتمع كله لسعات عميق امتد حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى .

ويسمى أن ملاحظ هذا أن التدهور والاعطاط شمل الطم السياسية وأهلها ، ولكنه لم يمس جماهير المسلمين . فعلى الرغم من سوء الأحوال التى وصفاها فقد ظل المجتمع الإسلامى في كل بلد من البلاد التى مررنا بها سليماً متأسكاً ، لم يفسد نظامه الاجتماعى ولم يتطرق الفساد إلى حلية المجتمع وهى الأسرة .

ففيما نلاحظ أنه عندما تدهورت الإغريقية والرومانية والإيرانية ، صاحب تدهورها تحلل أخلاق شامل تقطعت معه أواصر العائلات وانعدمت الروابط الأسرية الأساسية ، حتى لم يعد للزواج حرمة ولا للآباء على أبنائهم حقوق ، ودخل الفساد في كل ناحية من بواحي حياة الناس ، ملاحظ أن المجتمعات الإسلامية — كما تقدم القول — ظلت سليمة متأسكة لم يتطرق إليها الفساد والخلل ، وظل الناس . برغم فقرهم — يتمسكون بالمروءة والدين ومكارم الأخلاق فيما بينهم ، بل إنه كلما ازداد ظلم الحكام وازداد على الناس عبء الفقر ومرارة الحاجة ، ازداد تماسكهم وازداد إيمانهم بمبادئ الأخلاق ، وهذا هو الذى حفظ المجتمع الإسلامى من التمكنك برغم الويلات التى مرت به ، وكانت جذيرة بأن تزلزله بصورة حطرة .

وقد اهتمما في ذلك العرض بأن يعطى صورة موجزة — ولكن واضحة — عن التدهور السياسي ، وبما كيف وصل الحكم إلى مستويات وضيعة تجعل الكثير من الحكام لا يستحون من التآمر على أوطانهم مع أعدائهم وأعداء دينهم . هذا فضلاً عما كان بعض أولئك الحكام يرتكبونه من المظالم والاعتداء على الأموال والأشخاص ، دون أن يردعهم ضمير أو يردهم وازع من خلق أو دين . والحق أن العروش حلال فترات التدهور هذه قد أدلت أصحابها والطامعين فيها ذلاً بشعاً وهبطت بهم إلى درك سحيق ، وقاتل الله الحكم فإنه — في أحيان كثيرة — يجرّد الطامعين فيه حتى من الشعور الإنساني !

وإلى جانب ذلك نرى أمة الإسلام في كل مكان محاطة على سمعتها وأخلاقياتها ومبادئها ، وهذه المحافظة كانت الدرع التي وقّت هذه الأمة من شرور عصور الركود وما جرى فيها وما أعقبها من احتلال أجنبي . وتلك هي الحقيقة الأولى التي يريد أن ينسب إليها الأدهان ، وهي أن التدهور والاضلال شحلا السياسة وأهلها دون أن ينالا من كيان الأمة الإسلامية ، من حرائر الهدى الشرقية إلى المحيط الأطلسي ومن شبه جزيرة القرم ، إلى أفريقية المدارية ، فقد بقيت هذه الأمة سليمة وإد بقيت مغلقة على نفسها تعانى من العقر والجهل آلاماً متطاولة .

وما دام هذا التدهور سياسياً في حقيقته فمحاول أن نستبين أسبابه الرئيسية . من اليدى أن التدهور لم يطرأ على دول الإسلام في القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، بل هو بدأ قبل ذلك بزمان طويل . ومن المؤرخين من يردون بداية عصور الركود الإسلامى السياسى إلى بداية العصر العباسى الثانى عده نهاية حكم الخليفة الواثق ( ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ — ٨٤٧ م ) تاسع خلفاء بى العباس ، على اعتبار أن الواثق كان آخر الخلفاء العباسيين العظام . ولكن من الحق أن نقرر أن الضعف بدأ قبل ذلك بكثير ، ربما منذ قيام الدولة العباسية ، لأن هذه الدولة — رغم صحامة مظهرها — لم تكن دولة فتوح أو توسع أو سير إلى الأمام بالرسالة الإسلامية الكبرى ، فهى لم تصف إلى رقعة مملكة الإسلام شيئاً ، وكان همها المحافظة على الموحدة ، ومن المعروف في التاريخ أن الدولة التى لا تسو لا بد أن تتقهقر .

وكان العباسيون مشغولين بمصالح يبتهم إلى درجة صرفتهم عن مواصلة رسالة الإسلام في التوسع ، ومن المعروف أن الله بعث محمداً — ﷺ — بالإسلام ، لكى

يشمل الإنسانية كلها شيئاً فشيئاً ، وفي هذا الاتجاه سار الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أمية . فبينما نجد الأمويين في أيام الوليد بن عبد الملك وأبيه سليمان ينفقون أكبر جاسب من أموال الدولة على الفتوح في المغرب والأندلس وبلاد الأتراك وما وراء النهر ، نجد أن بني العباس يسقطون الفتوح من حسابهم تماماً ، فلا فتوح ولا توسع .

حتى آسيا الصغرى — وكانت على أبواب خلافتهم يربض فيها عدو خطر هو الدولة البيزنطية — لم يفكر العباسيون في أن يزيلوا هذه الدولة البيزنطية ويفتحوا أمام الإسلام أبواب الانتشار في شرق أوروبا . وكذلك لا نجد العباسيين ينفقون أموالاً على إنشاء مبان أو منشآت كتلك التي أنشأها الأمويون وزيموا بها عواصم دولة الإسلام ، وفيما عدا العاية بقتوات العراق والطريق من بغداد إلى الحجاز وتجديد مسجد الرسول — ﷺ — في المدينة لا نجد للعباسيين إنفاقاً يذكر في مرفق عام . نقول هذا ونحس نعلم أنهم أنشأوا بغداد ، ورعوا حركة علمية كبرى ، ولكمهم أنشأوا بغداد — في الحقيقة — لتكون حصناً لهم ، فهي تدخل بين الأعمال التي قاموا بها لحماية بيتهم ودولتهم ، وعجد بغداد لا يرجع إلى جهد قام به العباسيون وإنما الفضل فيه يرجع إلى حيوية أمة الإسلام وجهدها الحصارى الفكرى ، والمأمون لم يصنع الازدهار الفكرى في عصره ، بل أمة الإسلام هي التي جعلت المأمون ما هو في التاريخ ، وهي حالقة كل ازدهار فكرى عرخته في تاريخها .

وكان معظم إيماق العباسيين على قصورهم وشئون معاشهم هم ومن حولهم ، وكذلك على جدهم المرتزقة سواء كانوا عرباً أو إيرانيين أو أتراك . وهذا الجيش العباسى الضخم لم يمكن له عمل إلا حماية الدولة وأصحابها ، ولهذا كان العباسيون يتركون جدهم يحتلون على الناس دون أن يصربوا على أيدي أفرادهم في حزم ، لأن جدهم كانوا في حسابهم أهم من رعيته .

ولم تكن لهذا الجيش الكبير من وظيفة إلا تأمين الملك لبني العباس والقضاء على منافسيهم ومن يهددون عرشهم ، فإن جهود هذا الجيش لم تعد هذه الوظيفة المحددة إلى حماية الحدود كما ينبغي . ففي مواسم أقصى الشرق مثلاً كانت حدود الدولة غريبة لعدوان الأتراك في كل حين تقريباً ، وفي أقصى الغرب انتهى العباسيون بأن تركوا الحكم لأسرة إقطاعية محلية هي أسرة الأغالبة ، ولم تكن للعباسيين حاميات

على الحدود في جنوبي مصر ، أما الحدود التي اهتم العباسيون بحمايتها فهي حدودهم مع الدولة البيزنطية ، وكان هذا أقل ما ينتظر .

والخلاصة أن أموال الدولة ضاعت كلها على أهل الحكم وجندهم ، ومن أوائل أيام المعتصم نجد أن الجند هم حكام الدولة في واقع الأمر ، وهذا هو الذي حال بين العباسيين وبين أن يعيدوا النظر في نظام دولتهم ، لأن قيام ذلك الجيش الكبير وسيطرة قواده على شئون الدولة جعلاً من المستحيل إصلاح النظم العامة للدولة ، لأن هذا الإصلاح كان لا بد أن يمس مصالح الجند المرتزقة ، وهو الذي شل نشاط دولة بني العباس ثم هبط بالخلفاء حتى أصبحوا صائغ في أيدي الجند وأدوات للسيطرة على الناس .

ومن الواضح أن نظم الدولة العباسية كانت في حاجة إلى إعادة نظر وإصلاح كبير ، خصوصاً في النواحي المالية ، فإن نظام الدولة المالي كان نظاماً سيئاً لا يوصف بالمعالة ، لأن مهمته كانت استخراج أكبر قدر من المال من الرعية حتى يمسّه به الحكام مطامع الجود ، ومن منتصف العصر العباسي نجد أن وظيفة النظام المالي للدولة العباسية هي دفع رواتب الجنود وتعطية نفقات الخلفاء ومن إليهم ، وفي زمن مبكر — ربما من أيام الرشيد — نلاحظ أن الدولة في حالة إفلاس .

ولقد أثبتنا المؤرخون بعض الأرقام عن جباية الدولة في عصور للأُمون والمعتصم ومن بعدهما من الخلفاء ، ولكنهم لم يعطونا فكرة عن المنصرف . ولكننا عندما نقرأ كتاباً مثل كتاب « الوزراء والكتّاب » لابن عبدوس الجهشماري ، أو كتاب « الوزراء » لغال الصائغ ، نبتين أن الدولة العباسية — خلال القرن الرابع الهجري — كانت تعاني إفلاساً كاملاً ، وكانت مهمة الوزراء هي الاجتهاد في موافاة الدولة بالمال اللازم لتسيير أمورها ، ومعنى ذلك أن الأزمة الكبرى التي كانت تعانيها الدولة العباسية — وهي الأزمة التي انتهت بالقضاء عليها بعد زمن طويل — كانت أزمة اقتصادية في أساسها ، وعلى صحرة المشكلة الاقتصادية تخطمت سفينة العباسيين .

إلى جانب ذلك كانت الدولة العباسية دولة استبدادية يتولى الحكم فيها الخليفة وحده ، فإذا استشار لم يأمن إلا أهل بيته وكبار موظفيه وخدمه وحشمه ، دون أن يجعل للأمة أى نصيب في الحكم معه . حقاً كان الأمويون أبهأً مستبدتين بأمور

على الحدود في جنوبي مصر ، أما الحدود التي اهتم العباسيون بحمايتها فهي حدودهم مع الدولة البيرية ، وكان هذا أقل ما ينتظر .

والخلاصة أن أموال الدولة ضاعت كلها على أهل الحكم وجندهم ، ومن أوائل أيام المعتصم نجد أن الجند هم حكام الدولة في واقع الأمر ، وهذا هو الذي حال بين العباسيين وبين أن يعيدوا النظر في نظام دولتهم ، لأن قيام ذلك الجيش الكبير وسيطرة قياده على شؤون الدولة جعلاً من المستحيل إصلاح النظم العامة للدولة ، لأن هذا الإصلاح كان لا بد أن يمس مصالح الجند المرتزة ، وهو الذي شل نشاط دولة بني العباس ثم هبط بالخلفاء حتى أصبحوا صائغ في أيدي الجند وأدوات للسيطرة على الناس .

ومن الواضح أن نظم الدولة العباسية كانت في حاجة إلى إعادة نظر وإصلاح كبير ، خصوصاً في النواحي المالية ، فإن نظام الدولة المالي كان نظاماً سيئاً لا يوصف بالمعالة ، لأن مهمته كانت استخراج أكبر قدر من المال من الرعية حتى يمسد به الحكام مطامع الجود ، ومن منتصف العصر العباسي نجد أن وظيفة النظام المالي للدولة العباسية هي دفع رواتب الجنود وتعطية نفقات الخلفاء ومن إليهم ، وفي زمن مبكر — ربما من أيام الرشيد — نلاحظ أن الدولة في حالة إفلاس .

ولقد أتانا المؤرخون ببعض الأرقام عن جباية الدولة في عصور للأمان والمعتصم ومن بعدهما من الخلفاء ، ولكنهم لم يعطونا فكرة عن المصروف . ولكننا عندما نقرأ كتاباً مثل كتاب « الوزراء والكتاب » لابن عبدوس الجهمي ، أو كتاب « الوزراء » لغال الصائغ ، نبين أن الدولة العباسية — خلال القرن الرابع الهجري — كانت تعاني إفلاساً كاملاً ، وكانت مهمة الوزراء هي الاجتهاد في موازنة الدولة بالمال اللازم لتسيير أمورها ، ومعنى ذلك أن الأزمة الكبرى التي كانت تعانيها الدولة العباسية — وهي الأزمة التي انتهت بالقضاء عليها بعد زمن طويل — كانت أزمة اقتصادية في أساسها ، وعلى صحرة المشكلة الاقتصادية تخطمت سفينة العباسيين .

إلى جانب ذلك كانت الدولة العباسية دولة استبدادية يتولى الحكم فيها الخليفة وحده ، فإذا استشار لم يأمن إلا أهل بيته وكبار موظفيه وخدمه وحشمه ، دون أن يجعل للأمة أي نصيب في الحكم معه . حقاً كان الأمويون أيضاً مستبدين بأمور

الحكم ، ولكن أبواهم كانت مفتحة لمن يريد أن يتحدث إليهم أو ينتقدهم أو يوجه إليهم النصح من رجال الأمة ، ونذر أن غضب الأمويون على رجل أو آذوه لأنه انتقدهم أو وجه إليهم نصيحة ، إلا إذا كان الناقد منافساً سياسياً ، فهذا كان الأمويون لا يعرفون رحمة ، مثلهم في ذلك مثل أهل الحكم جميعاً في العصور الوسطى .

وعلى الرغم من الطابع الإسلامي العام للدولة العباسية ، فإن الأمة لم يكن لها نصيب في الحكم على أيامهم ، وبخاصة بعد أيام المأمون ، عندما أصبح قصر الخلافة قصراً ساسانياً ، يسيطر عليه أجانب من غير العرب ما بين فرس وأتراك وغيرهم ، هنا يتجلى لنا الانفصال التام بين الحاكم والمحكوم ، وهو الانفصال الذي أشرنا إليه في الباب الأول من هذا البحث ، وقلنا إنه كان من أؤكد أسباب تدهور الدول الإسلامية .

وقد وقفنا هذه الوقفة عند الدولة العباسية لسيبين : أولهما أنها استمرت تحكم عالم الإسلام — ولو بالاسم — حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، وخلال القرون الخمسة التي عمرتها لم تدخل أي إصلاح أو تعديل جوهرى على نظام الحكم الذى سارت عليه ، أما ما حدث من تغير شكل الحكم نتيجة لضعف الخلفاء وما تبع ذلك من انتقال السلطان من أيديهم إلى أيدي قادتهم العسكريين ، ثم تنازله عن الحكم الفعلى لرجل له قوة عسكرية تمكنه من الثبات في مركزه وفرص سلطانه على الجيود . فقد كان مظهراً من مظاهر تدهور نظام الحكم ؛ ولا يمكن القول بأنه كان تطوراً أو تعديلاً للنظام التقليدى القائم .

لقد حدث ذلك في عهد الراضى ( ٣٢٢ — ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ — ٩٤٠ م ) وهو الخليفة المشهور من خلفاء بنى العباس ، وقد سمي ذلك الحاكم بأمره دون الخليفة بأمر الأمراء ، ومن ذلك الحين تحولت الخلافة العباسية إلى نظام رمزى لا يملك ولا يحكم وإنما هو رمز لوحدة أراضى الخلافة ووحدة أمة الإسلام . والواقع أن الدولة العباسية كانت قد تلاشت قبل ذلك بزمان طويل كقوة سياسية فعالة ، واستبد بنواحي الدولة مستبدون عسكريون محليون ، ولكنهم كانوا يسرون على نفس القواعد الاستبدادية التى سار عليها العباسيون في الحكم .

أما السبب الثانى لوقوفنا هذه الوقفة الطويلة بعض الشيء عند الدولة العباسية ، فهو أنها كانت المدرسة التى تخرج فيها أولئك المستبدون المحليون في كل ناحية من

نواحي الدولة ، وهذه المدرسة كانت بدورها امتداداً لنظام الحكم الساساني القديم الذي كان يقوم على تركيز السلطان كله في يد كسرى وإطلاق يده في دماء الناس وأموالهم دون أن يحاسبه أحد على ما يعمل ، فيعتدى على أرواح الناس وأموالهم وحرمانهم وكراماتهم باسم الدولة والنظام ، ويعتمد في الحكم على قوة عسكرية خاصة به من المرتزقين . وهذه القوة العسكرية لا تبالى بما تعمل بالناس — مواطنين وغير مواطنين — في سبيل إرادة الحاكم . ويتولى الحكم في نواحي الدولة ولاية مستبدون يحكمون على طريقة مولاهم من عسف الناس والتعدي على أموالهم وأرواحهم .

وقد ارتد العباسيون إلى هذا النظام من يوم ظهرت دولتهم ، وساروا على ذلك المنهج بخلافه على الرغم من علمهم بما آل إليه أكاسرة الساسانيين نتيجة لاتباعهم إياه ، ومن هنا فإن النظام العباسي كان خطوة إلى الوراء في تاريخ النظم السياسية ، وهو من بعض الوجوه محاولة لبعث العصور القديمة في ثوب إسلامي ، ومن ثم فهو قد ولد ميتاً من أول أمره ، وهذا هو السبب في المشاكل والأزمات التي واجهتها الدولة العباسية ، حتى في أيام الخليفة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين . وقد حاولت أمة العرب — بكل ما تيسر لها من وسائل — أن تبعث في هذا النظام العباسي روحاً ، فاجتهد العرب من رجال الدولة العباسية في الحفاظ على خصائص الفحولة العربية في الدولة ، وتقدم أولو الرأي والمشورة من علماء المسلمين بحجر ما عندهم ، ونشط أهل العلم والفكر في العمل والبحث والإنتاج ، وبشطت الأمة كلها في ميادين العمل ، فساد بلاذ العالم الإسلامي وزانها رواء وصل بها إلى إزهار القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

ولكن قواعد الحكم التي سار عليها خلفاء بني العباس وطبقها ورثاؤهم — وعاليتهم من العرس — لم تلبث أن أوقفت عجلة التقدم ، ومن أكبر أحطار نظم الحكم السيئة أن عيوبها تزداد مع الزمن ، وأعباءها على الناس تنقل يوماً بعد يوم . وإذا كانت الشعوب في النظم الاستبدادية تخضع أول الأمر لمستبد واحد ، يحتمل لأنه واحد ، فإن رجال الحاكم ومعاويه يتحولون مع الزمن إلى مستبدين على طراز سيدهم ، كل مستبد في ناحية سلطانه وعمله . وهم يتكاثرون في سرعة تطرد مع اطراد ضعف الدولة ، فيثقل العبء على الناس ، وشيئا فشيئا يصعبون عن حمل



العبء فيقلط حركة المجتمع رويداً رويداً ، ويتراحم الإنتاج حتى يقتصر على الضروري ، ويقيم الفقر على المجتمع كله ، ومن الفقر تأتي كل المصائب .

وهذه بالضبط هي حقبة الدول الإسلامية التي تكون أصحابها في مدرسة الحكم المباسي الذي ذكرناه ، وسواء كانت الدولة في شرق مملكة الإسلام أو في غربها ، وسواء ظهرت في القرن الثامن الميلادي أو الثامن عشر الميلادي ، فإن هذه صورتها وذلك نظامها وهذا هو مصيرها . وقد وقفنا عند الدول الإسلامية التي ظهرت في مطالع العصر الحديث وأعطينا بعض التفاصيل عنها ، لكي يستبين القارئ أنها — كلها — كانت من هذا الطراز : دولا استبدادية لا تحسب للشعوب أي حساب في نظامها أو أعمالها ، ونظماً سياسية ليس لها أي أساس دستوري أو سند قانوني أو تنظيم اقتصادي ، ومن هنا فإن عوامل موتها كانت تولد معها . وقد رأينا أن الكثير من هذه الدول كانت دولا مجيدة قامت بأعمال جديدة . فلا شك في أن دول الأتراك العثمانيين والصفويين والمماليك ومعول الهند والسعديين كانت دولا عظيمة قامت بأعمال باهرة ، ولكنها تحطمت على صخرة النظم الاستبدادية الفاشية التي لا تعرف شعوبها ولا تقيم لخيرات الناس ودمائهم وكراماتهم وأموالهم حساباً .

هذا هو العارق الرئيسي بين الدول التي كانت تحكم في الشرق ، والدول التي كانت تحكم في الغرب الأوروبي في القرن الخامس عشر الميلادي وما يليه مثلاً ، فقد كانت دول الغرب كلها في ذلك الوقت دولا استبدادية فعلاً ، ولكن الاستبداد فيها لم يكن مطلقاً ولا غاشماً كما كان في الشرق . سواء في إنجلترا أو فرنسا أو إسبانيا أو ألمانيا فإنه كان إلى جانب الملوك رجال أقوياء ، سواء في العاصمة أو الأقاليم ، يحدون من سلطانهم ويرعونهم بالرأي أو القوة على أن يضعوا حدوداً لسلطانهم ، وقد قامت بين أولئك الرجال والملوك حروب طويلة انتهت بالفعل بتقييد سلطان الملوك ، وإفساح مجال واسع إلى جانبهم لناس لهم حق في إبداء الرأي والاعتراض على الظلم .

وفي كثير من الأحيان انتهى الصراع بين الدول الغربية ومافسبها إلى ظهور بيوت حكم في النواحي تمثل مقاومة إقليمية تنصر على أن يكون لها نصيب في تسيير شئون مواعبها ، وهذه الحدود والقيود التي وصفت على السلطان هي أسس الدساتير ، وهؤلاء المنافسون لسلطان الملوك في الغرب كانوا هم أيضاً أصحاب طموح إلى السلطان

أيضاً نشأ القانون المدني وقامت الطبقة الوسطى ، وهى أساس التقدم وحميرة الشعوب ، وكل ذلك بحماية الملوك وتأبيدهم لأهل المدن ضد منافسهم من أمراء الإقطاع ، ولهذا فإننا نجد الملوك وراء كل نهضة فى عالم الغرب ، فى حين لا نجد أن هذه القاعدة تصدق فى الشرق إلا فى حالات قليلة ، وكلامنا هنا ينصب على الماضى دون الحاضر .

وكل ما يمتاز به الغرب على الشرق اليوم — فى مجالات العلوم والنظم العامة والوعى العام — إنما نشأ فى المدن ، ومنها امتد حتى شمل الأوطان بأسرها . وقد ظهر تفوق العرب على الشرق أول ما ظهر فى ميادين الحرف والصناعات والثروات القومية ، وبينما كانت دول الشرق تقوم ثم تهوى وتزداد القطيعة بينها وبين شعوبها اتساعاً ، كانت دول الغرب تزداد قوة يوماً بعد يوم ، وتزداد الروابط بين ملوكها وشعوبها . أى أنه فى الوقت الذى بلغت الفوضى السياسية أقصاها فى دول الشرق ، كانت دول العرب تخرج من تلك الفوضى شيئاً فشيئاً ، وقد تعلمت دروساً نافعة ومرت بتجارب لها قيمتها ، فى حين لم تنتفع أمة الشرق بتجاربها ، لأن هذه التجارب بعسها كانت تجارب عقيمة ، إذ هى فى مجموعها سلسلة عملة حزينة من تجارب الاستبداد والظلم وإدلال البشر .

ومن هنا يرى كيف كان لقاء نظم الغرب ونظم الشرق لقاء بين شباب وشيوخوخة ، بين نظم قوية حية ونظم هالكة فاسدة مهوكة القوى . وقد بينا ذلك فيما عرصنا من الصراع الذى احتدم بين المسلمين وغير المسلمين فى البحر الأبيض المتوسط وساحل المحيط الأطلسى ، فى المغرب وفى بحار الهند .

وقد أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى ظاهرة انقطاع الاتصال بين الحاكمين والمحكومين ، وقلنا — وهذا رأى مفتوح للمناقشة — إن فتنة عثمان وما أعقبها من انتقال الخلافة إلى بنى أمية ، كان صدمة عنيفة هزت وجدان المسلمين جميعاً وألقت فى روعهم أن الفتنة واختلاف الناس والتنازع والحروب بين المسلمين لا يمكن أن تؤدى إلى خير ، وأن خير ما يفعل المسلم إذا ثلثت الفتن بين المتنازعين هو أن يتنعم على الميدان و « يكسر سيفه » كما يقولون ، فلا يمد فى الفتنة يداً ولا يشارك فيها بشيء ، كما فعل سعد بن أبى وقاص وعمر بن مسلمة وغيرهما .

ولا شك كذلك في أن كثيراً من أتقياء المسلمين لم يصدقوا ما رأوا من استعمار الحرب بين الصحابة ، واعتقدوا أن ذلك هو السبب في انتقال الأمر إلى معاوية وآل بيته . ولهذا فقد أحججت غالبية المسلمين عن الانضمام إلى الخوارج ، على الرغم من أن المعتدلين من هؤلاء كانوا ينادون بالحق ويدعون المسلمين في إحلاص إلى العودة إلى القواعد التي كانت جارية أيام الرسول ﷺ وصاحبه أبي بكر وعمر ، ولم يقعد جمهور الناس عن الانضمام إلى فرق الخوارج هذه إلا خوفاً من أن يؤدي الشر القائم إلى ما هو أسوأ منه إذا مضى المسلمون يخاربون بعضهم بعضاً . وإلى هذا يرجع تسليمهم لمعاوية بالرياسة ، فهم لم يرسوا عن معاوية ، ولا سلموا بأن له الحق في الخلافة ، ولكنهم رأوا أن التراضى على رجل وسكون الفتنة هو في ذاته خير ، فاجتمعت الكلمة على معاوية وسكنت الفتنة وقام أمر بني أمية

ولكن أمر بني أمية قام على يأس من المسلمين شديد ، فما سعد الناس بمعاوية ولا أحبوه ، ولا أحبوا أحداً ممن جاء بعده . ولا شك في أنه هو كان يعرف ذلك ، فقتنع بالخلافة ولم يحاول أن يستجلب رضا الناس لأنه كان يائساً من ذلك ، وكان يحس أن الناس لا يرضون به عن تسليم أو إيمان ، وإنما عن يأس وسوء ظن بالدنيا وبالسياسة .

ولعلنا نحدث الناس عن « حلم » معاوية ، والحق أن الكلام عن « حلم » أمة العرب لئولى ، فإن معاوية ما كان يستطيع الحكم إلا إذا كان حليماً محتجلاً وصبوراً ، ولو لم يكن كذلك لما بقي في الخلافة شهراً ، لأن العرب كانوا في عموهم ، وكانوا قديريين على أن يطيعوا به وبآله ، ولكنهم خافوا مغبة الفتن والحروب ، فأرسلوا جبال الصبر طويلاً ، واعتصموا بالإيمان والتقوى وتركوا الأمور تجري ، والعتة أشد من القتل قطعاً .

أما الأثر العميق الذي نتج عن ذلك فهو الشعور العام بأن الحكم غصب واستبداد ، وأن الحكام إنما هم طوائف من الطامعين في السلطان الطامعين إلى معائنه ، ويطلب منهم ويحوز السلطان أشدهم مكرراً أو دهاء وأبدهم عن التقوى وبمقظة الضمير . وما زاد الأمر سوءاً أن بني أمية المشاركة<sup>(١)</sup> لم يحاولوا قط أن يكسبوا

(١) تمرداً لهم عن بني أمية الذين حكموا في الأندلس .

الشرعية لحكمهم ، ولا فتحوا مع الناس حواراً ، إنما كانت طريقتهم في علاج مشاكل السياسة هي قطعها . فإذا نافسهم في الأمر عبد الله بن الزبير فلا مجال للكلام والمناقشة أو التحكيم وإنما العلاج في رأيهم كان استئصال ابن الزبير وأتباعه حملة . وإذا ثار عليهم المختار بن عبيد الله الثقفي فلا حل للمشكلة إلا بقتله . وإذا شكوا عرب العراق إلى الحجاج متابعهم التي تقعد بهم عن الخروج لقتال الخوارج ، كان رده عليهم العنف والقسوة والإهانة والسباب .

ولم يحدث في التاريخ أن أحل حاكم لنفسه سب رعيته عنفاً على المباير وانتهابهم إلا في أيام بني أمية هذه ، وإنما لقرأ اليوم حطب الحجاج — وبعضاً يتخذها نماذج في البلاغة ، وهي في الواقع كذلك — ومهما افترضنا فيها من المبالغة ، فهي تصور لنا أحقر موقف وقعه حاكم من محكومين . وما كان أهل العراق إلا عرباً من أصول عربية ، وما كانوا يقولون عن أهل الشام — وهم عرب أيضاً — لا في شجاعة ولا حمية ولا عراقية سب ، وكانوا قديريين على أن يقوموا مثل الجهد الذي قام به جند الشام ، ولكن رجال بني أمية لم يحاولوا فهم مشاكل عرب العراق ، ولا هم كلفوا أنفسهم عناء البحث في موضوعهم والخلوس إليهم والاستماع إلى كلامهم والأحد والرد معهم ، وإنما هم خأوا إلى العنف حاسين أن السيف يحل كل مشكلة ، وأن هيئة الحكم تقوم بيث الرعب في العوس ، فصاروا لا يهص فهم معارص إلا حاولوا القضاء عليه بالقوة ، وفي هذا الطريق أوقعوا بين العرب خلافات وحزارات ، وملأوا قلوبهم أحقاداً ، حتى تقاتل العرب في نواحي الدولة تقاتل العرماء دوى الحقد العميق ، وانتهى الأمر بإهالك قوى الجميع وعندما تولى أمر الدولة مروان بن محمد الجعدي ( ١٢٧ — ١٣٢ هـ / ٧٤٤ — ٧٤٩ م ) — وكان من الموهوبين من بني أمية — لم يستطع شيئاً واكتسحته قوات أبي مسلم كما يحرف السيل كل ما يجده في طريقة ، وحقيقة الأمر أن دعة بني العباس لحأوا إلى نفس طريقة بني أمية — وهي طريقة السيف والقوة — في صراعهم مع الأمويين ، وفاقوهم في ذلك السبيل فاستأصلوهم استئصالاً .

وقامت دولة بني العباس وسط آمال عراض وانتظار لكثير من الخير ، واشترأت النفوس إلى عودة الأمور إلى الشورى ، حتى تعود الأمة إلى ممارسة حقوقها الطبيعية في المشاركة في الحكم ، ولكن العباسيين صارحوا الناس في أول يوم لخلافتهم بأن السلطان هم وحدهم لا يشركونهم فيه أحد ، يسوسونه بسلطان الله الذي أعطاهم

٤٠٣

كما قال أبو العباس السفاح ، فحابت الآمال وأيقن جمهور المسلمين ألا سبيل لهم إلى ممارسة السلطان في دولتهم أبداً ، وتحول طموح الراعيين في السلطان من أفراد الأمة إلى ميدان العلم يحاولون عن سبيله الوصول إلى نصب من القوة والجاه ، وخرجت الأمة من ميدان السياسة جملة ، وأصبحت رعية تناس كما ينسوس الراعي عنه ويتصرف فيها كيف يريد . واستمر الانقطاع الواسع بين الجماعة والدولة ، وأصبحت السلطة أمراً خاصاً بجماعات من المتنافسين ممن تؤيدهم قوة عسكرية ، وقد تكون هذه القوة من أهل البلاد ، وربما لا تكون ، إذ المهم هو أن تكون محبسة لصاحب السلطان الذي يأجرها ، أما أفراد الأمة فهم أعداء هؤلاء الجند المرتزقة ، فهم لا يعرفون الجند ولا الجند يعرفونهم ، والعلاقة بين هؤلاء وهؤلاء هي علاقة الصيد بالصائد الذي يترصده ليرديه .

ومن المعروف أن الأحوال السيئة إذا لم تصحح فلا بد أن تزيد سوءاً مع الزمن . فهذا الطام السياسي الأموي — ثم العباسي — سارت عليه كل الدول التي جاءت بعدهم ، وهو في كل حالة يسوء وتتصحم عيوبه وتشتد وطأته على الشعوب ، ولا يرال الأمر يرداد سوءاً حتى يصل إلى الركود السياسي والاقتصادي . وإنما أطلنا الوقوف عند هذه النقطة حتى لا يظن طان أن الاعداد بدأ من أوائل العصر العباسي الثاني — أي من منتصف القرن العاشر الميلادي — عندما سيطر العسكر المرتزقة على أمور الخلافة ، بل إن له أصولاً أعمق وأبعد .

والركود الذي ساد مجتمعات المسلمين منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، إنما بدأ منذ انتقال الملك إلى بني أمية ، وانتقال السلطان من جماعة المسلمين ( كما هو المعروف أن يكون في المجتمع الإسلامي ) إلى فئة من الأقوياء المستبدين ، وتصرّفهم في أمور الناس دون نظر إلى رأى أولئك الناس أو احتمال بما يريدون أولاً يريدون ، فإن الحكم على هذه الصورة أصبح اعتصاماً ، ومهما حاول أصحابه أن يتحروا العدل فهم غاصبون . ولم يكفّ المسلمون قط عن الشعور بأن حكامهم غاصبون ، ومظهر هذا الشعور هو هذا الحزن إلى أيام أبي بكر وعمر ، أيام كان الأمر بيد الجماعة الإسلامية ، أيام كان الحكم سائراً في الطريق التي رسمها رسول الله ﷺ — وصار فيها الشيعان من بعده ، أيام كانت الجماعة الإسلامية سيدة نفسها ، وليس فوق هذه الجماعة سيد إلا الله . لهذا نجد أن عبد الملك بن مروان — مثلاً — كان يكره

أن يتحدث الناس عن عمر ، وكان لا يستريح لسماع ما يحكى عن عدله ، لأن عبد الملك بن مروان كان يعرف ويحس في نفسه أنه غاصب ، وأن ذكرى عمر تظهر للناس أنه غاصب ، وهذا أمر لا يريد أنه يهدم سلطانه المعصوب .

والركود الذى نتحدث عنه إنما هو نتيجة للعصب المستمر لحقوق الجماعة ، واستبداد طوائف من العتاة بأمور الناس واستعانتهم عليهم بالحد المترتبة الأجانب ، وليس بحريص في هذه الحالة أن نجد الخلفاء والملوك جميعاً — بعد عصر الراشدين — يستمعون علنيا بالحد الأجانب المترتبة ، لأن الحكم كان لا يدور لمصلحة الرعية بل لمصلحة أصحاب العرش ، فهم يؤمنونه بالحد الأجانب ، ومعنى ذلك أن مصالح الجماعة الإسلامية كانت تهمل في كل مكان ، وأن الحكم كان يعتسف طريقه باحتنا عما يؤمنه ويقوى قبضته ، بالاستزادة من المال تارة ومن الجند تارة أخرى ، وفي النهاية يجد نفسه بعيداً جداً عن الناس الذين يحكمهم . وهذا لا يكون له ممر من السقوط ، لأن الحكم — كأى شيء في الوجود — لا بد أن تستقر قدماء على شيء حتى يشعر بالتوازن ، فإذا انعدم هذا الشيء انعدم التوازن ولم يكن من السقوط محالة .

وإذا كانت هذه هي حالة دول المسلمين عامة — وقد رأينا تفاصيل بعضها — فمضى ذلك أن الجماعة الإسلامية كانت في غالب الأمر تمشي دون حكومة ، وإذا كان الأب لا يعرى ولده فهذا الولد واليتيم سواء . والحق أن أمور الناس كانت فوضى بصورة دائمة ، وقد اجتهدت الجماعات الإسلامية في تنظيم أمورهم على النحو الذى رأيت ، ولكن هذا الاجتهاد كان لا يغطى إلا مشاكل اليوم الحاضرة ، أما مصير الجماعة كلها فلم يكن هناك في غالب الأحوال من يفكر فيه ، ولهذا كان أمرها في تدهور مستمر ، وما نُسِميه نحن بالركود معناه أن مجتمعاتنا وصلت إلى قرارة الهاوية واستقرت هناك دون حركة . وبالمعل فإنك عندما تقرأ وصف بلد إسلامي مثل مصر في نهاية عصر الركود تجد نفسك أمام صورة مفزعة حقاً ، وأمامك وصف وليام لين William Lane للمصريين في أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، عندما بدأت محاولة النهوض الأولى . ستشعر وأنت تقرأ بأنك أمام ناس يهيمون على وجوههم في الطرقات دون أن يروا شيئاً ، أمام ناس في حالة دهول عن الدنيا وما فيها ، نتيجة للمقر العال والخور الكافر والجهل المطبق والظلم المزمن الذى قضى حتى على الإحساس بالعدالة ، وأطفأ ذبالة الأمل في تحسن الأحوال .

الركود إند كان نتيجة خروج السلطان عن يد الجماعة الإسلامية ، وإبكار الشورى ، وقيام الحكمة على أساس العصب والعضف . لأن الحكمة الاستبدادى فى ذاته أول مظاهر التدهور ، والدولة الرومانية بدأ سقوطها عندما زالت الجمهورية وانتقل الحكم إلى القواد . وكذلك كان الحال مع الأمة الإسلامية . ولقد قضى الاستبداد على كل وجوه الرخاء والرفاهية ، وحنق كل مظاهر الفكر ، وسرى بعد قليل أن هذا الفكر ظل — برعم كل شيء — حياً ينتظر فرصة البعث ، وإن تحدثت آفافة وضائق مجالاته .

ولما كانت المدد هى مظهر رخاء الجماعات وغناها ، فقد انصبت عليها مطالب الحكام ، فطمعوا دائماً فى أموال التجار وأهل اليسار ، وملوا أيديهم إليها ، فى حين أن البيوت الحاكمة فى الغرب عيت بالمند وأهدها ، وانخلت من تجارها وصناعها وأهل اليسار فيها أسلحة تسمى بها عروشها فأعادت العروش وأعادت المدد ، ورادت رخاء وزاد تجارها ثراء . ولقد تعودنا أن نقول إن المدد التى يشتهها العرب ينتهى أمرها إلى الاصمحلل ، لأنها لم تنشأ على الأسس الكميلة بتبعة وسائل الحياة لها ، وأهمها الموقع الجغرافى المناسب ، وضرينا مثالا لذلك البصرة والكوفة وما إليهما . وصاحب هذه النظرية هو ابن حنلون ، وهى نظرية خاطئة ، لأن الخراب لم يشمل الكوفة والبصرة محسب ، بل أصاب مدد البلاد الإسلامية جميعاً ، على العصر العباسى الثانى كانت مدننا كلها قرى كبيرة ، حتى القاهرة التى اردهرت اردهاراً ظاهرياً فى العصور العاطمية والأيوبية والمملوكية ، لم تلبث أن اصمحللت ونحول الكثير من أحيائها إلى حرائب . والإسكدرية — عروس البحر الأبيض المتوسط — لم يرد سكانها فى هاية القرن الثامن عشر الميلادى على خمسة آلاف ، أى أنها أصبحت قرية صغيرة ، والسبب فى ذلك راجع إلى ظلم الحكام وفساد الظلم السياسية .

أما الظلم فقد أتى على أموال الناس وقضى على الرخاء ، وأما فساد الظلم فقد قضى على الأمان ، وهدون أمان لا مال ولا رخاء ، وهكذا بيما كان ملوك إنجلترا يهدون بلدية لندن جزيرة بومباى لتقوم بتمويل شركة الهند الشرقية ، كان سلاطين الممالك وبكوائهم يبتزون من أهل القاهرة آخر ما يمكن . وهذه فى ذاتها حقيقة تنطق بنفسها ولا تحتاج إلى مزيد بيان ، وهذا هو التعليل الحقيقى لاصمحلل المدد فى العصور الإسلامية المتأخرة .

الركود إدد كان تنيحة خروج السلطان عن يد الجماعة الإسلامية ، وإنكار الشورى ، وقيام الحكمة على أساس العصب والنف . لأن الحكمة الاستبدادى فى ذاته أول مظاهر التدهور ، والدولة الرومانية بدأ سقوطها عندما زالت الجمهورية وانتقل الحكم إلى القواد . وكذلك كان الحال مع الأمة الإسلامية . ولقد قضى الاستبداد على كل وجوه الرخاء والرفاهية ، وخلق كل مظاهر الفكر ، وسرى بعد قليل أن هذا المكر ظل — برغم كل شيء — حياً ينتظر فرصة البعث ، وإن تحدثت آفاقه وضافت مجالاته .

ولما كانت المدن هى مظهر رخاء الجماعات وعاشا ، فقد أصبحت عليها مظالم الحكام ، فطمعوا دائماً فى أموال التجار وأهل اليسار ، ومنوا أيديهم إليها ، فى حين أن البيوت الحاكمة فى الغرب عبت بالمدين وأهلها ، واتخذت من تجارها وصناعها وأهل اليسار فيها أسلحة تحمى بها عروشها فأفادت العروش وأفادت المدن ، ورادت رخاء وزاد تجارها ثراء . ولقد تعودنا أن نقول إن المدن التى يشتهها العرب ينتهى أمرها إلى الاضمحلال ، لأنها لم تنشأ على الأسس الكفيلة بتشيئة وسائل الحياة لها ، وأهمها الموقع الجغرافى المناسب ، وضرينا مثالا لذلك البصرة والكوفة وما إليهما . وصاحب هذه النظرية هو ابن خلدون ، وهى نظرية حافظة ، لأن الخراب لم يشمل الكوفة والبصرة فحسب ، بل أصاب مدد البلاد الإسلامية جميعاً ، فعلى العصر العباسى الثانى كانت مدسا كلها قرى كبيرة ، حتى القاهرة التى اردهرت اردهاراً ظاهرياً فى العصور العاطمية والأيوبية والمملوكية ، لم تثبت أن اصمحت وتحوّل الكثير من أحيائها إلى حرائب . والإسكندرية — عروس البحر الأبيض المتوسط — لم يرد سكانها فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى على خمسة آلاف ، أى أنها أصبحت قرية صغيرة ، والسبب فى ذلك راجع إلى ظلم الحكام وفساد النظم السياسية .

أما الظلم فقد أتى على أموال الناس وقضى على الرخاء ، وأما فساد النظم فقد قضى على الأمان ، وبدون أمان لا مال ولا رخاء ، وهكذا بينما كان ملوك إنجلترا يهدون بلدية لندن جريرة بومباى لتقوم بتمويل شركة الهند الشرقية ، كان سلاطين الممالك وبكواتهم يبتزون من أهل القاهرة آخر ما يملكون . وهذه فى ذاتها حقيقة تنطق بنفسها ولا تحتاج إلى مزيد بيان ، وهذا هو التعليل الحقيقى لاضمحلال المدن فى العصور الإسلامية المتأخرة .



## بجمع فقير تسوده أخلاق الفقر :

إن الآراء التي عرضناها كافية لتصوير الركود الذي استحكم في عالم الإسلام ، وتغل بصورة خطيرة في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، واستشرى فيما تلاه . وقد مررنا — في إجمال — بأسبابه ، ونتبعه إلى أصوله البعيدة على قدر ما سمح به المجال .

وقد رأينا أن التدهور كان — في الحقيقة — تدهوراً سياسياً ، أي أنه شمل أهل الحكم والنظم التي ساروا عليها ، وصار مع التدهور السياسي تدهوراً اقتصادياً . وقد رأينا أن نظم الحكم العباسي — وما نشأ على غرارها من الأنظمة — كانت ذات أثر سيئ على الأوضاع الاقتصادية ، فمع تلبث هذه الدولة أن أفلست واستدارت على شعوبها تعتدى على أموالها . وقد وصل الأمر إلى سرقة أموال الناس سرقة صريحة باسم المصادرات والمقاسمات ، ولقد بلغت الأموال التي صودرت من الناس أيام الخليفة الراضي ٥,٤٢٢,٣٠٠ دينار و ٦,٠٤٠,٠٠٠ درهم ، وهذه أرقام لا تصدق .

وفي ظل حكومات تعتدى على الأموال على هذه الصورة لا مفر من تردى الشعب كله بين براثن الفقر ، وقبل الغزو العثماني لمصر والشام بلغ استصماء المماليك لأموال الناس درجات لا توصف بشاعة ، ولم يكن هناك أضر على أموال الناس من جيوش الخلفاء والسلاطين وأدعياء العروش والنائزين على السلطان المركزي . فقد كانت هذه الجيوش تهب البلاد سباً ذريعاً بصورة دورية تقريباً ، ومدد البلاد الإسلامية الكبرى من دهلي إلى رباط الفتح على شاطئ المحيط الأطلسي خربتها جيوش الحكام مرة بعد مرة ، وكذلك تهدمت القرى وأحرقت الروع في الأرض وقطعت الأشجار ، وأهلك الحروب البلاد والعباد .

والفقر — كما هو معروف — لا يلد إلا الفقر ، ومن مجتمع فقير لا يتأتى أي خير ، لأن الفقر يجلب معه رذائل شتى ، من سقوط أهمم وفساد الأخلاق والجهل والمرض وصياع المستويات وابعاد المعايير وعدنا مثل يقول : « الجوع كافر » ، وهذا حق ، لأن الجوع ليس محض انشعور بالحاجة إلى الطعام بل هو حالة نفسية تجعل الإنسان يتصرف تصرف الجائع المنهوم ، حتى ولو كان لديه ما يأكله ، وفي المجتمعات التي تسودها نفسية الفقر تجد الناس جميعاً يحلقون بأحلاق الجياع ، حتى

الحاكم وصاحب الأمر تراه يهب ويعتدى دون حياء ، لأنه وإن لم يكن رجلاً فقيراً إلا أنه تسيطر عليه روح الفقر وأخلاقه .

### الركود الفكرى :

والآن وقد عرضنا لنواحي الانهيار السياسى والتدهور الاقتصادى ، وما نتج عنهما من نشوء أجيال فقيرة ترزح تحت كاهل نفسية الفقر وأخلاقياته ، وما يحتم عن الفقر من جهل وخوف وبعد عن الشعور الإنسانى ، يريد أن تلقى نظرة على ما نتج عن ذلك كله مما يوصف بأنه تخلف فكرى .

وتهما هذه الناحية لأن العادة جرت عندنا على الاقتصاد فى تصوير الركود على ناحية الإنتاج الفكرى ، فالباس يقولون إما كنا فى عصور ركود لأن مجتمعنا لم يعد يجرح رجلاً مثل الخابط أو ابن المقفع أو أبى الحسن المسعودى أو أبى تمام أو البحتري ، وليست هناك فكرة شائعة هى أوغل فى الخطأ من هذه الفكرة .

ذلك أن الاضطراب السياسى والاضمحلال الاقتصادى لم يصل أدهما إلى عالم الفكر إلا فى العصور المتأخرة جداً ، وعدد عظيم جداً من نقحرهم من أعلام الفكر فى بلاد الإسلام ظهروا فى عصور العوضى والاضطراب والإفلاس التى مهدت الطريق للركود ، بل ظهر الكثيرون منهم فى عموان عصور الركود نفسه .

فالقرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى مثلاً كان عصر اضمحلال سياسى بالغ ، فقد بدأ هذا القرن فى أيام الخليفة المقتدر وهو الثامن عشر من خلفاء بنى العباس ( ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ — ٩٣٢ م ) الذى يقول فى حقه ابن طباطبا فى كتاب « الفخرى » ( ص ٢٣٥ ) : « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير ، لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول ببلداته ، فخربت المدينة فى أيامه وخلت بيوت الأموال ، واحتلفت الكلمة ، فحلح ثم أعيد ثم قتل » وانتهى ذلك القرن فى حلالة القادر ( ٣٨١ — ٤٢٢ هـ / ٩٩١ — ١٠٣١ م ) وهو الخليفة الخامس والعشرون من خلفاء بنى العباس ، وهو رجل طال عمره فى الخلافة ولكنه لم يحكم قط ، إذ كان السلطان كنه قد انتقل إلى بنى بويه ، وكانوا أسرة من الطغاة المستبدلين الذين تلاشى

عندهم كل مفهوم سليم للحق والعدل والأخلاق ، فسقط الحكم وأهله في عصرهم إلى درك سحيق .

خلال ذلك القرن الحافل بأسباب الانهيار والفوضى ظهر أبو الطيب المتنبى ( ٣٠٣ - ٣٥٤ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م ) شاعر العربية الأكبر الذي قال في تصوير حال قومه مع حكامهم :

وإنما الناس بالملسوك ، وما تفلح عُزْبُ ملوكها عَجَمُ  
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهد لهم ولا ذمم  
بكل أرض وطستها أم تُرعى بعد كأنها غنم

وفي ذلك العصر أيضاً ظهر أبو فراس الحمداني ( ٣٢٠ - ٣٥٧ هـ / ٩٣٢ - ٩٦٨ م ) ، ذلك الفارس الضائع الذي أنفق عمره كله بين أحلام خادعة بعودة مجد داهب لن يعود ، وواقع أليم حزين يصوره هو بقوله :

يا حصرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج ، وأولها  
ومحمد بن الحسين المعروف بالشريف الرصي ( ٣٥٩ - ٤٠٦ هـ / ٩٧٠ - ١٠١٦ م ) ذلك العاطفي الحزين الدين أوجز وصف سوء حال قومه في بيتيه :

ولم أدر أن الدهر يخفص نعله إذا سكنت فيهم نفوس الضراغم  
فهل نافعي أن يصر المخد عزمتي على هذه العلياء والحال ظالم

وأبو العلاء المعري ، أحمد بن عبد الله بن سيمان ( ٣٦٣ - ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٨ م ) ذلك العقل الإنساني الهائل الذي حرّمته المقادير نعمة البصر ، ولكنه رأى بنور قلبه فوق ما رأى كل المبصرين .

هؤلاء ومن في طبقتهم ظهوروا وعاشوا في عصور الانهيار والاضطراب التي مهدت لمحمود والركود . ولم تقتصر العبقرية الفكرية العربية الإسلامية خلال القرنين التاليين ( الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثاني عشر الميلاديين ) عندما ازداد مسحدر الانهيار العباسى حدة وخطورة ، فظهر ابن الفارض ( أبو حمص عمر بن علي السعدي ) شاعر الحب الإلهي الخالد ، وظل شعراء العربية يشدون شعراً جيلاً حتى اشتدت حلقة الظلام من حولهم ولم يعودوا يرون شيئاً يستحق أن يقال فيه شعر ،

في هذه الظروف المضطربة التي وصفهاها ظهر البوصيري ( شرف الدين محمد ابن سعيد ) وابن الوردى ( زين الدين عمر ) وصفى الدين الحلى وأمثالهم .

وتظهر لنا حيوية الفكر العربى بصورة أوضح في ميدان العلوم ، مثل التاريخ والجغرافيا والرحلات والفلسفة والتصوف وعلوم اللغة ، فضلاً عن علوم الدين التى ظل المسلمون يتجولون فيها بفراسة حتى خلال القرن الثامن عشر الميلادى الذى وصل فيه الركود إلى أدنى درجاته . وجانب كبير من الأسماء التى يزدان بها تاريخ الفكر العربى صهرت في هذه العصور ، فالتطبرى ( أبو جعفر محمد بن جرير ) والمسعودى ( أبو الحسن على ) وابن مسكويه ( أبو الحسن على ) وأبو نصر الغزالي ، وأبو على ابن سينا ، وأبو حامد الغزالي ، وأبو بكر الرازى ، وغيرهم كثيرون عاصروا انهيار الدولة العباسية وتداعى الإطارات السياسية والاقتصادية في البلاد التى عاشوا فيها . وفى العصر المملوكى المتأخر ، والعصر التركى ظهر كبار الموسوعيين : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البويرى ( ت ٧٣٣ هـ ) وابن فضل الله العمري ( ت ٧٤٩ هـ ) وشهاب الدين أحمد بن على القلقشنندى ( ت ٨٢١ هـ ) . وفى علوم اللغة ظهر محمد بن عبد الله بن مالك النحوى ( ت ٧٣٢ هـ / ١٢٧٣ م ) . وفى علوم الدين ظهر تقى الدين أحمد بن تيمية ( ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م ) . وفى التاريخ ظهر عبد الرحمن بن خلدون ( ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ) فيلسوف التاريخ الأكبر ، ثم تلميذه تقى الدين أحمد بن على المقرئى ( ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م ) ومعاصروه أبو المحاسن بن تغرى بردى وأحمد بن حجر العسقلانى وخمس الدين السخاوى .

بل إذا نحد أن الإنتاج الفزير في ميدان العلوم التقليدية العربية استمر حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى نفسه ، فمن أبناء هذا القرن الحالك الظلام ابن مرتضى الريدى مؤلف « تاج العروس » وهو قاموس رائع للغة العربية لا يتصور الإنسان أن مؤلفه رجل واحد توفى سنة ١٢٠٥ هـ أى قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بثلاث سنوات فقط ، لأن هذه الحملة وصلت مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م . وكان ابن مرتضى الريدى عالماً لغوياً حقاً ، إذ كان يتقن الفارسية والتركية .

وإذا أردت أن تأخذ فكرة عن الفرق الشاسع بين مستوى الحكاميين ومستوى شعب العروبة في ذلك العصر ، فادكر أن حاكم مصر والشام والحجاز في ذلك الوقت ، هو محمد أبو الذهب ، وكان مملوكاً جهولاً عاشماً لا يعرف لا العربية ولا

التركية ولا العارسية ، وبقيّة أشخاص الحكم — بعده — كانوا على شاكلته ، فلا حد من بينهم واحداً يعكس ولو ظلاً باهتاً من حضارة الأمم التي كانوا يحكمونها ، ومغاذجهم معروفة لنا . إبراهيم ومراد — اللذان حلّفا في الحكم — ومحمد الألبى وعثمان البرديسى وأمثاخم ، وهؤلاء جميعاً سيتلاشون هباء عندما تصدمهم قوات الحملة الفرنسية ، ولن يبقى في الميدان لمواجهة الغزاة إلا الشعب ورجاله من علماء الأهر ، من أمثال عمر مكرم ومحمد الخروقي ومن ورائهم جمهور الناس ، ثم تبين أن جمهور الناس كانوا أصلب عوداً وأحسن فهمًا لطبيعة الغزو الفرنسى من كل قادته ، علماء كانوا أو تجاراً .

وأصدق مثال على ذلك الجمهور المصرى الذى قام بثورة القاهرة في ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨ م ، وهى أول صدام فعلى بين أوروبا وشعب عربى ، لأن شرادم الماليك تطايرت عقب معركة الأهرام في يوليو ١٧٩٨ م . ولقد حمل عبد الرحمن الخبرى على ثورة القاهرة تلك ولمح من قاموا بها ، لأنه هو نفسه كان يمثل عقلية عصر الماليك برعم علمه واطلاعه الواسع . وعقلية عصر الماليك هى الصورة الأخيرة والاحتمة التي كان لا بد أن تصل إليها نظرية الحكم على طريقة العباسيين : خليعة أو ملك أو سلطان يعتمد على قوة عسكرية أجبية خاصة به ، ليحكم بالقوة شعباً ويحرمه من كل حقوقه السياسية ، ويخرجه من ميدان السياسة والمسئولة القومية تماماً ليعتبر أمواله .

وقد بلغ من تأصل هذه النظرية أنها أصبحت القاعدة الوحيدة المعترف بها للحكم ، والذي حدث في ثورة القاهرة على الحكم الفرنسى أن جمهور الناس حطم هذه النظرية وترك أولى الأمر جانباً وتقدم لمواجهة المحتلين ، وقد تمكن الفرنسيون من القضاء على هذه الثورة ، ولكن الاحتلال الفرنسى ارتجح حتى أساسه ، فقد قتل في الثورة حاكم القاهرة الفرنسى وعدد كبير من ضباط الفرنسيين وجدهم ودخل الخوف قلوبهم . وهذا هو المهم ، فما دام العدو قد بدأ يخاف فقد انفتح الطريق لحزيمته .

لا نريد — مع ذلك — أن نبالغ في تقدير ثورة القاهرة تلك ، فقد كانت أولاً وآخراً مجرد انتفاضة ، ولكنها كسرت حلقة مفرغة شريرة ظلت تدور على أُم الإسلام نحو عشرة قرون ، وعندما انكسرت الحلقة وتوقف السير الدائرى الرتيب ، شعر

أولو الأمر الذين كانوا يتولون الحكم بدوار . هذا الدوار هو الذى يعبر عنه الجبرى فى حملته العيمة على « الرعاع » الذين قاموا بتلك « الهوجة » .

من ذلك الحين كثرت « الهوجات » فى نواحي العالم الإسلامى ، إنها الثورات والانتفاضات الشعبية التى صنعت عالم الإسلام الهاض اليوم ، كل ثورة منها — مهما كان حجمها ومداها — أحدثت فجوة فى السد الهائل الذى كانت شعوب الإسلام تعيش وراءه خارج عالم السياسة بعيداً عن المسؤولية القومية .

ولقد تبين بعد ذلك أن جماهير أُم العروبة والإسلام كانت لا تزال تحتفظ بقواها وسلامة إطاراتها الاجتماعية ، برغم قرون النفى الطويلة خارج ميدان المسؤولية القومية . فعلى الرغم من الفقر المدقع وما جره الفقر من جهل وحوف وركود للصفات القتالية ، ظلت المجتمعات الإسلامية سليمة فى تكوينها محتفظة بإطاراتها الاجتماعية القائمة على الإسلام وأخلاقه فلم تنحل روابط المجتمع ولم يتهاون الناس فى قواعد الشهامة والمروءة والأخلاق . ومن دلائل تمسك الناس بمبادئ الدين وإحساسهم بأنها وسيلتهم الوحيدة للنجاة من الأخطار التى حاقت بهم ، تسليمهم قيادتهم لرجال الدين فى كل مكان إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ودخول الجماعات الكثيرة فى سلك الطرق الصوفية وتمسكهم بشيوخها ونظمها . وقد يتعجب بعضا اليوم من تمسك الناس بهذه الطرق فى العصور الحالية والتفافهم حول الأولياء والصالحين — على الرغم مما هو واضح من أن الكثيرين منهم كانوا أدعياء مشعوذين وطلاب مافع وخيرات باسم الدين — ولكنهم بالنسبة لأهل هذه العصور كانوا أوتاداً تثبت إيمانهم وتشعرهم بقدر من الأمان لا تيسر الحياة بدونهم .

الركود إذن كان ركود النظم السياسية ، والإعلاس كان إفلاسها . ولقد أدى استمرار هذه النظم وفساد أجهرتها إلى إيقاف حركة التقدم ، فبطئت حركة المجتمع وربما توقفت . وقد أخذت هذه النظم — حتى فى أحسن حالاتها — بالنظرية الآسيوية القديمة فى الحكم التى تقول إن الرعية الفقيرة رعية مأمونة ، فاجتهدت فى إفقار الشعوب حتى وصلت بمجماهير الناس إلى درك الشظف وما هو دون الكفاف . وبدهى أن الشعب الفقير لا يفكر فى الثورة على ظالمه ، لأن وسائلها غير ميسرة له . ولقد أمنت نظم الحكم فى العصور الوسطى من سطوات شعوبها ، ولكن الحكام لم يأمنوا على أنفسهم برغم ذلك ، وقد رأيت فى العرض السريع الذى مررنا به

حالة الفرع والدفاع عن النفس والحروب المتوالية التي عاشوا فيها ، لأنه فاتهم أن الدرع الحقيقية لأى نظام من نظم الحكم ليس الحمد المرتزقة ولا عتاة الجحود ، وإنما رضا الناس عن الحاكم وانفتاح أبواب النعام والحوار بينهم وبه على الأقل . فإذا لم يتحقق ذلك جفت شجرة الحكم من تلقاء نفسها لانقطاع عصارة الحياة عنها ، والأشجار — كما يقولون — تموت واقعة ، ومعظم نظم الحكم فى عصور الركود كانت شجرات ميتة وإن ظلت واقعة .

\* \* \*

إلى هنا أقف بالكلام .  
وكان لا بد أن يكون ختام الكتاب فصلا عن الهبة العربية الراهنة ، لأن تاريخ الجماعة الإسلامية لا يقف — بداهة — عند عصر الركود .

ولكى تناولت موضوع يقظة العالم الإسلامى وتجديد نشاطه وشبابه فى كتاب آخر نشرته من سنوات كثيرة ، هو « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » ، ولهذا رأيت أن أقف بالحديث هنا ، وأحيل القارئ بعد ذلك إلى هذا الكتاب .

وقد تقدم العهد بـ « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » ، ولكن صلبه ما زال سليما واهياً بحاجة من يريد أن يعرف كيف صبحا عالم المسلمين من سباته .

ولنصف إلى ذلك أن هذه الهبة الإسلامية مترامية الأطراف متعددة الجوانب ، فهى فى حقيقتها بحث جديد تناول حياة الجماعات الإسلامية تناولا شاملا عميقاً ، فإذا نحن أردنا أن نحيط بأطرافها كان لا بد لنا من كتاب كامل كهذا ، وأعتقد أن إخوانى العاملين على التاريخ الحديث ألقوا فى نواحي ذلك الموضوع وأجادوا ، فأغنانا ذلك عن الولوج فى ميدان له شيوخه ورجاله .

وهذا لا يجمع من القول بأننا نعيد النظر الآن فى كتاب « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » ونجهد فى تعديله وإكماله على النحو الذى يعمظ له مكانه فى مكتبة التاريخ الإسلامى الحديث .

## خلاصة :

يطلق مصطلح « عصور الركود الإسلامية » على الفترة الطويلة الممتدة من منتصف القرن الرابع عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، وهذه الحقبة الطويلة تعنى — بالنسبة لمصر والشام والحجاز وجزء من العراق ، أى معظم الجناح الشرق لعالم العرب — الجزء الأخير من عصر دولة « المماليك البحرية » وكل عصر دولة « المماليك البرجية » الذى امتد إلى سنة ١٥١٧ م ، ثم عصر سيادة الأتراك العثمانيين الذى لم ينته إلا فى الحرب العالمية الأولى . وهى حقبة طويلة تزيد على ستة قرون ونصف ، شهدت فى عالم الإسلام كله أحداثاً كبرى وتضورات واسعة المدى . فقد قامت فى أثنائها دول كبرى كتب رجالها صفحات مجيدة من التاريخ ، مثل دولة الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى وشرق أوروبا والعالم العربى ، ودولة الصفويين فى إيران ، ودولة السعديين فى المغرب الأقصى

ولقد أدى سلاطين الأتراك العثمانيين والسعديين خدمات جليلة لعالم الإسلام ، فقاموا برد العدوان الأوروبى عن أجزاء واسعة من بلاده ، بعد أن كان خطر ذلك العدوان قد ازداد فى حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى شواطئ المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر الميلادي . وكذلك قام سلاطين مملوك المماليك بمجهود كبرى لتثبيت أقدام الإسلام فى شبه القارة الهندية ، وبهض ملوك الصفويين بإيران بهمة قومية بعيدة المدى .

ولكن هذه الدول لم تختلف ورائها — برغم ذلك — أثراً باقياً فى إصلاح أمور شعوبها أو النهوض بمستواها الفكرى والحضارى ، على غرار ما فعلت الدول الأوروبية المعاصرة لها فى بلادها ، ولم تتحسن فى ظلها أحوال جماهير الناس ، بل لم تخف عنها وطأة الظلم والفقر ، ولم يتقدم المستوى الحضارى فى بلاد الإسلام عما كان عليه قبل قيامها . وباستثناء بعض مظاهر التقدم فى فنون العمارة وما يتصل بها من الفنون الصغرى ، فإن الصناعة والتجارة والزراعة تدهورت تدهوراً مخزناً خلال هذه الفترة الطويلة ، وانكمش الفكر العربى والإسلامى على نفسه ، فلم يعد قادراً على الإبداع والتجديد ، واقتصر جهده على الإعادة والتكرار لما فات ، وشرحه والتعليق عليه .



بل يلاحظ أن الجماعات الإسلامية حياً تدهور حالها وسادها الفقر ، وفقرت فيها لهمم ، واقتصرت هم الناس على كسب العيش ومواصلة حياة لا بعد فيها ولا لذة ولا جمال . وألف الناس الظلم حتى لم يعودوا يشعرون بيشاعته ودله وعاره ، وحجم على الناس جهل شديد أسود ، فأصبحوا يعيشون وكأنهم نباتات تظلمو على الأرض ، وتظل تحت الشمس فترة من الزمان ثم تموت ؛ أما الحكومات فقد أصبحت طراراً واحداً سيئاً من الاستبداد والظلم والإفلاس ائدال والعجز العسكرى .

وهذه هى الطواهر التى جعلت المؤرخين يطلقون على هذه القرون تسمية « عصور الركود » أو الاضمحلال .

وقد حاولوا فى هذا الفصل أن يستقصى حقيقة هذا الركود ومظاهره وأسبابه ، فدرسوا أحوال عالم الإسلام خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى . وهى المرحلة الأخيرة من مراحل العصر المملوكى الطويل الذى بدأ سنة ١٢٥٠ م . بعد انتهاء دولة الأيوبيين — وهم خلفاء الباصر صلاح الدين بن محمد الدين أيوب ابن شادى — ثم عرصا فى إيجاز قيام الدولة العثمانية وفزوحها فى آسيا الصغرى وشرق أوروبا . حتى استيلائها على القسطنطينية وإزالة الدولة البيزنطية على يد محمد الثانى الملقب بالفاتح سنة ١٤٥٣ م ، ثم حروبها مع الصفويين الإيرانيين ، واستيلائها على بلاد الشرق العربى ، وتحويلها إلى خلافة إسلامية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى .

وتحدثنا بعد ذلك عن تدهور دولة الخلافة العثمانية ابتداء من حكم السلطان مصطفى الأول الذى بدأ سنة ١٦١٧ م ، وبيناً كيف استمر هذا التدهور من ذلك الحين برغم الجهود الكبيرة التى قام بها آل كبريلى من الصلور العظام ( رؤساء الوزراء ) لإيقاظ الاضمحلال . وأوجزنا الكلام عن الأسباب التى أدت إلى ذلك الاضمحلال وحالت دون إيقافه ، وأهمها أن الإطار العام للتنظيم السياسى لدولة آل عثمان كان هو الإطار نفسه الذى قامت عليه الدول الآسيوية القديمة واتبعت الدولة العباسية عندما أعدت بالنظم الساسانية فى الحكم ، وهى نظم تقوم على السلطان المطلق لصاحب العرش بدون أن تحسب حساباً لجماهر الناس وبدون أن تتفجع بمبدأ الشورى فى كل ما يتصل بمصالح الأمة ، وهو مبدأ قرره الإسلام .

ويحتمد السلطان في هذه النظم على قوة عسكرية من المرتزقين وعبيد البيت الحاكم ، ممن لا تربطهم بالشعوب المحكومة أى صلات إنسانية ولا تقوم بهم وبين الأرض التي يعيشون عليها أى عواطف قومية . وفي العادة يستعين السلطان أو الخليفة بموظف كبير يسمى الوزير ، مهمته الرئيسية هي الإشراف على جباية أكبر قدر من الأموال من الرعية لكي يسد حاجة الدولة المتريدة إلى المال .

والسبب في تزايد هذه الحاجة إلى المال هو أن أعداد الجنود المرتزقة تزداد مع الزمن وترداد في الوقت نفسه رواتبهم ، وشيئاً فشيئاً يصبح توفير المال هؤلاء الجند شغل الدولة الشاغل ، وينتهي الأمر بسيطرتهم على الدولة إما بصورة مباشرة أو عن طريق قيام قوادهم باختيار الخلفاء أو السلاطين على هواهم .

وهذا التنظيم هو الذي أدى إلى تدهور دول العباسيين والعاثيين ومن ترقى في مدرستهم من حكام الأقاليم الذين استبدوا بنواحيهم وأنشأوا دولا محلية ، وهو أيضاً الذي أدى إلى تدهور دولة آل عثمان واعداها ذلك الانحدار المتصل الذي انتهى بزوال سلطانهم من الوجود بعد الحرب العالمية الأولى .

وفي أثناء التدهور في أسلوب الحكم خرجت الشعوب من مجالات السلطة والحكم تماماً ، لأن تلك الحكومات نسيت أن قوة الدولة الحقيقية هي في الشعوب وما تقوم به من عمل متصل هو أساس الحياة الاقتصادية وما تقدمه من رجال ذوي ملكات وإخلاص لبلادهم وجود ذوي حمية يدافعون عن أوطانهم ، وقد تسببت الدول الأوروبية لذلك فاعتمدت على شعوبها ، وربطت نفسها بجهود رعاياها ، فانتعشت وأخذت طريقها إلى النهوض ، في حين انحدرت دول الشرق انحداراً سريعاً محيقاً .

وتكلمنا كذلك عن أسباب أخرى لتدهور الدولة العثمانية وغيرها من الدول التي قامت في عالم الإسلام في العصور الحديثة ، مثل النزاع على ولاية العرش مما أدى إلى حروب داخلية مخربة دفعت أحياناً ببعض الطامعين في العروش إلى الاستعانة بالقوى الأجنبية . وأشرنا كذلك إلى ظاهرة بعيدة الأثر تشترك فيها هذه الدول جميعاً ، وهي حاجتها إلى المال مما دفع بها إلى الشدة في جمع الضرائب ، وكانت هذه الضرائب تجبى من الطبقات العامة في الأمة ، وهي طبقات الرراع والصناع والتجار ، فكان العبء يزداد ثقلاً عليها يوماً بعد يوم ، وترك الكثيرون من أهل هذه الطبقة العمل هرباً من مظالم الحكام ومطالباتهم المستمرة بالأموال ، مما أدى

إلى تدهور الصناعات التي كانوا يقومون بها ، لأن الصعقة تحتاج إلى مادة خام وأدوات عمل ثم جمهور يشتري الشيء المصنوع ويدفع فيه ما يستحقه حتى يحتفظ الصانع بمستواه .

وفي العصر الذي نتحدث عنه غلت أسعار المواد الخام إلى درجة جعلت الشيء المصنوع عالي الثمن ، وقلت أدوات العمل وكاد يتعذر المشتري ، فهبطت الصاعات هبوطاً بالماً وأحدث التقاليد الرفيعة القديمة تلاشي . وبحدنا السائح إدوارد لين عن انحطاط مستوى الصناعة في مصر في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي مع وجود الصانع المهرة . وقد عادت الصاعات إلى الانتعاش أيام النهضة السياسية والعمرانية في مصر خلال القرن التاسع عشر الميلادي .

وفيما يتصل ببلد العثمانيين والصفويين والمغول ( في الهند ) والسعديين ( في المغرب الأقصى ) كان التصدي للتوغل الأوروبي ( الإسباني — البرتغالي — المغربي الأقصى والسواحل المغربية في البحر الأبيض المتوسط ، والبرتغالي — الهولندي — الإنجليزي في بلاد الإسلام الآسيوية ) يتطلب من هذه الدول قوات عسكرية ممتازة ودات روح معوية عالية ، ثم أموالاً طائلة مستمرة للإساق على الحروب ؛ فأما القوى العسكرية فقد وهر أمرها لأنها في مجموعها كانت قوى مرتزقة تحارب للمال ، وكان المال كما رأينا شحيحاً ؛ وأما الأموال الطائلة فلم يعد لها وجود ، لأن ثروة الأمم — كما قال آدم سميث — تعتمد على جهد الشعوب ومقدار ما تستمتع به من عدل وأمن ، ولم يكن للعدل والأمن وجود في تلك الدول ، ولهذا كله كانت هزيمة هذه الدول أمام قوات الدول الأوروبية الناهضة العنية نتيجة طبيعية للتطور التاريخي الذي ذكرناه في الشرق والغرب على السواء .

وقد رأينا أن نقف في هذا الفصل لتتبع الظلم السياسية في دول الإسلام ، لكي نعرف لماذا انحدرت هذه الظلم وساء حالها ، وسارت في الطريق الخطر الذي سارت فيه ، وكان دافعنا إلى ذلك أننا رأينا أن ما يسمى بعصور الركود في تاريخ الجماعات الإسلامية إنما كانت في الحقيقة عصور ركود وتأخر وتدهور سياسي ، وهذا التدهور جرّ إلى الانحطاط في غير ذلك من الميادين .

وقد استعرضنا في هذا الفصل تطور الدول الإسلامية الخمس الكبرى التي كانت في العالم الإسلامي في مطلع العصر الحديث ، وهي دول الأتراك العثمانيين ،

والصعويين ، والمماليك ، ومعول الهند ، والسعديين ، وعرضنا سير الحوادث في بلادها حتى وصولها إلى المريمة والإفلاس السياسي والعسكري والمالي للأسباب التي ذكرناها .

وأشرنا بعد ذلك إلى نهضة العرب وطبيعتها ومقوماتها ، ووقفنا عند ظهور قيام الطبقات الوسطى من الزراعة والصناع والتجار والملاحين ومن إليهم ، وما كان لقيام هذه الطبقات من أثر بعيد في رفع المستوى الاقتصادي ، ونتيجة لذلك ارتفعت القوى المعنوية وتفتحت النفوس لطلب العلم والعمل ، وقلنا إن أكبر مظهر لذلك كان انتعاش المدن في العرب وقيام نظمها ، وقلنا إن العالم الغربي الحديث بكل مقوماته ومظاهر قوته الفكرية والاقتصادية والعسكرية إنما ولد في المدن .

وحتمنا الفصل بالقول بأن الركود الذي ساد العالم الإسلامي كان في الحقيقة ركوداً سياسياً وعسكرياً ، أما من الناحية الفكرية فقد ظلت أُمم الإسلام مغمضة بقواها وحيويتها وإن تعبر شكل إنتاجها الفكرى . وتبعنا هذه الطاهرة في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل ، وهى في غاية الاختصار ، ومن ثم فإننا نرجو القارئ أن يعود إليها في المتى .

وقد وقفنا بالكلام في هذا الكتاب عند ذلك الحد ، وكان يسمى — مطلقاً — أن نستطرد إلى نهوض العالم الإسلامي ، لأن تاريخنا لا ينتهى عند الركود . بل أعقبه نهوض واسع المدى ما زلنا نعيشه ، ولكننى استوفيت هذه الناحية في كتاب خاص متداول في أيدي الناس هو « الشرق الإسلامى في العصر الحديث » كتبت فيه تاريخ النهوض وبيئت عوامله ومظاهره ، ولهذا رأيت أن أحيل القارئ إليه ، لأن النهضة العربية المعاصرة واسعة المدى متشعبة الواسع يحصر التاريخ لها في إنجاز .





## مراجع مختارة

### مراجع عربية أو مترجمة إلى العربية :

— أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الهندية . جرعان ، القاهرة ١٩٥٨ .

— أحمد مصطفى أبو حاكمه : تاريخ الكويت ( صدر منه إلى الآن جزآن ١٩٦٧ ، ١٩٧٠ ) .

— أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط . ترجمة أحمد عيسى ، مراجعة شفيق عربال ، القاهرة ١٩٥٧ .

— أربولد ويلسون : الخليج العربى ، مجمل تاريخى من أقدم الأزمنة حتى أوائل القرن العشرين ، ترجمة عبد القادر يوسف ، الكويت ١٩٦٩ .

— ابن عباس الحنفى : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة قديمة بدون تحقيق ، في ٨ أجزاء ، القاهرة ١٩٢٨ . طبعة محققة بإشراف د . محمد مصطفى وكالة Kahle ، إستامبول والقاهرة ١٩٣٠ — ١٩٦٢ .

ابن حسّول ، الوزير أبو العلا ( ت ٤٥٠ هـ / ١٠٨٥ م ) : كتاب تفضيل الأثرأك على سائر الأجنأد . تحقيق عباس العزاوى . المألة التركبية بأنفرة ، مألة ٤ ، عدد ١٤ ، ١٥ سنة ١٩٤٠ .

- ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين خليل ( ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م ) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . تحقيق بول رافيس Paul Ravaisse ، وباريس ١٨٩٥ .
- ابن العرب ، جرجس أبو الفرج : مختصر تاريخ الدول . بيروت ١٨٩٠ .
- ابن المؤطلى ، كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الشجاعي البغدادي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، ج ١ ، بغداد ١٣٥١ هـ .
- أبوسو الفدا ، عماد الدين إسماعيل بن علي ( ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م ) : المختصر في أخبار البشر . استانبول ١٢٨٦ .
- جورجى زيدان تاريخ تمدن الإسلامى ، طبعة جديدة مراجعة بتحقيق حسين مؤنس ، ٥ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٥ — ١٩٥٧ .
- جلال يحيى : العالم العربى الحديث ، الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين . الإسكندرية ١٩٦١ .
- جمال حمدان : العالم الإسلامى المعاصر ، القاهرة ١٩٧٢ . هذا هو أحسن ما كتب في تحليل العالم الإسلامى اليوم ودراسة طبيعة انتشار الإسلام واتجاهات هذا الانتشار ومحاوره ، وقد أفدت منه كثيراً في هذا الكتاب .
- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية بأفريقية . القاهرة ١٩٦٣ .
- الحسين بن عبدالله : ( ت ٧٠٨ هـ — ١٣٠٨ م ) : آثار الأول في ترتيب الدول . القاهرة ١٣٠٥ هـ .
- حسن خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السامى ، الكويت ١٩٦٥ .
- حسين مؤنس : الشرق الإسلامى في العصر الحديث ، القاهرة ١٩٣٩ .

- فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ ( الطبعة الثانية  
المزينة في المطبعة ) .
- مصر ورسالتها ، القاهرة ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ( الطبعة  
الثالثة المزينة في المطبعة ) .
- تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ، مدريد  
١٩٦٧ .
- « فزان ودورها في نشر الإسلام في أفريقيا » ، مجلة  
كلية الآداب بالجامعة الليبية . المجلد الأول ١٩٧٠ .
- الخزرجي ، علي بن حسن : العقود اللؤلؤة في تاريخ الدولة الرسولية : مجلد ٣  
من مجموعة جيب التذكارية ، كيمبريدج ١٩١٢ .
- دونالد والبر : إيران بين للاضي والحاضر ، تعريب عيد المنعم  
حسين ، ١٩٦٢ .
- روم لاندوا : تاريخ المغرب في القرن العشرين ، ترجمة نقولا زيادة ،  
بيروت ١٩٦٦ .
- راهر رياض : شمال أفريقيا في العصر الحديث : ليبيا — تونس —  
الجزائر — المغرب ، ١٩٦٦ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جزان . القاهرة ١٩٦٣ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة  
١٩٦٩ .
- السلاوي ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن خالد ( ت ١٣١٥ هـ /  
١٨٩٧ م ) : الاستقصا لأخبار دول المغرب  
الأقصى ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٠٦ هـ .
- صلاح العقاد : المغرب في بداية المصور الحديثة ، ١٩٦٠ .
- صلاح العقاد : المشرق العربي ( ١٩٤٥ — ١٩٥٨ ) : العراق —  
سوريا — لبنان ١٩٦٥ .
- عبد الرحمن الجبرتي : صحائب الآثار في التراجم والأخبار ( تاريخ  
الجبرتي ) ، ٤ أجزاء .
- عبد الله بن تليك ، أبو بكر ( من أهل القرن الثامن الهجري ) : كنز الدرر  
وجامع الغرر ، تُوِّد الدرر الزكية في أخبار الدولة

التركية ، ٩ أجزاء ، مخطوط رقم ٢٥٧٨ تاريخ بدار  
الكتب المصرية .

— على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءاً  
بولاغ ١٣٠٥ — ١٣٠٦ هـ .

— فؤاد عبد المعطى الصياد : مؤرخ المعول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني ،  
القاهرة ١٩٦٧ .

— محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ — ١٩١٤)،  
القاهرة ، بدون تاريخ .

— محمد جمال الدين سرور : الطاهر يبرس وحضارة مصر في عهده ، القاهرة  
١٩٣٨

— محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .

— محمد فؤاد شكرى : السوسية ، دين ودولة . القاهرة ١٩٥٠ .

— محمد فؤاد شكرى : بقاء دولة ، القاهرة ١٩٤٨ .

— محمد فؤاد شكرى ومحمد أنيس ومحمد رجب حراز : نصوص ووثائق في التاريخ  
العربي الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٥٢ .

— محمود الشرقولوى : مصر في القرن الثامن عشر ، دراسات في تاريخ  
الجبرئى ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٥ — ١٩٦٠ .

— مكى شبيكة : العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى ،  
بيروت ١٩٧٠ .

— وليام لين : المصريين المحدثون ، ترجمة على طاهر ، ١٩٦٣ .



## مراجع غير عربية :

- ARNOLD, SIR THOMAS WALKER The Califate , Oxford , 1924
- ATIYA , AZIZ SURIAL The Crusade In Later Middle Ages London , 1988 .
- BROWNE , EDWARD G A Literary History of Persia, 4 Vols Cambridge , 1909 - 1930
- CZAPLICA , M . The Turks Of Central Asia in History and the Present Days . Oxford , 1918
- GAUDEFRY DEMOMBYNES , MAURICE . La Syrie à L'Epoque des Mamelouks Paris , 1922
- GROUSSET , RENÉ : L'Empire des Steppes , Paris , 1939 .
- HANOTAUX , GABRIEL Histoire de la Nation Egyptienne , 5 Vols Paris , 1926
- HEYD , W . Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age , 2 Vols Leipzig 1889
- HOLDSWORTH , MARY . Turkestan in the nineteenth century , a brief history of the Khanates of Bukhara , Kholand and Khiva , Oxford , 1959 .
- HOWARTH , SIR HENRY History of the Mongols, 3 vols London , 1878 - 1880
- JULIEN , CHARLES ANDRE : Histoire de l'Afrique du Nord ( Tunisie , Algerie & Maroc ) de la Conquête arabe à 1830 , 2 e éd revue et mise à jour par Roger le Tourneau ( Payot , Paris , 1969 )

هذا الكتاب مذبّل بيلوجرافيا وافية عن تاريخ المغرب الإسلامي منذ المتع الإسلامي إلى يومنا هذا ، وهى مرجعا الأولى اليوم فيما يتصل بمصادر تاريخ العرب الإسلامي كله سواء العربى منها وغير العربى . يجد القارئ ابتداء من ص ٣٣٥ من هذا الكتاب أهم مراجع تاريخ المغرب من قيام دولة المرابطين ، فليرجع القارئ إليها فيما يتصل بهذه الحقبة التى تعيننا هـا .

LANE POOLE , STANLEY : History of Egypt in the emiddle Ages . London , 1925 .

--- : Medieval India under Muhammedan Rule .

--- Muhammedan Dynasies . London , 1925 .

LYBYER The Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent Cambridge , 1913

MUIR , SIR WILLIAM The Caliphate , its Rise , Decline and Fall Edinburgh . 1924

SPULER , BERTOLD Central Asia , the Last Centuries of Independence Part 3 of The Muslim  
World . Historical Survey London , 1969 .



## الفصل الثامن

### عطر الفهموض





ترتبط النهضة الإسلامية — عادة — بالحملة الفرنسية على مصر سنة (١٧٩٨) وهى حملة أحيية قصد الفرنسيون من ورائها احتلال أرض مصر واستغلالها لمصلحتهم ، وأسأهوا إلى المصريين كثيرا ، وإن كانوا قدموا لها خدمات عن غير قصد ، وأنشأوا لمصر الفرصة للخروج من التدهور الذى كانت تعانيه نتيجة للتدهور الشامل والاقتصاد والجهل والركود الذى كانت تعانيه . فهذه الحملة كانت ( من ناحية ) نهاية لعصور الركود التى وصفاها ، وكانت ( من ناحية أخرى ) بداية للبهوض لا لمصر وحدها بل للعالمين العربى والإسلامى جميعا .

ولكن أهل العصر روعوا لتلك الحملة ورأوا فيها بداية الشر كله ، لأنهم كانوا قد ألفوا الحال السيئ واستولوا عليهم اليأس والحمود حتى صاروا يتصورون أن هذا الحال السيئ هو المصير الذى لاخروج لهم منه ولا نجاة لهم من شروره . وقبل الحملة الفرنسية على مصر لم يكن المصريون يشعرون بالحال السيئ الذى كانوا فيه لأنهم اعتادوه . ومن أسوأ ما يمكن أن يصيب الجماعات هو اعتيادهم التدهور والفساد والظلم . لأنهم فى هذه الحالة لا يعكرون فى تغييره أو إصلاحه

والعبارة التى افتتح بها « عبد الرحمن الجبرتي » الكلام عن الحملة الفرنسية على مصر فى مستهل الجزء الثالث من تاريخه عظيمة الدلالة على الحالتين النفسية والعقلية اللتين كانتا تشتملان الخفقان المصريين فى تلك المناسبة وهى بليغة للنبي من الناحية التاريخية . قال : ( سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وهى أول سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة . والوقائع المارلة والحوادث الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحر ، واحتلال الرمس ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتنازع الأحوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ،

وتواتر الأسباب ، ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾<sup>(١)</sup> .

وكلام الخيرى يدل على أنه لم يكن يحس بسوء الحال الذى كانت تعانيه البلاد فى تلك الحقبة الأخيرة ، ويحيل إليك وأنت تقرأ هذه السطور أن مصر كانت فى حال راضية مستقرة آمنة قبل دخول الفرنسيين ، وأن الفساد دخل مع الفرنسيين ، حقا ان الآية القرآنية التى يحتم بها كلمته تلك ، وهى ( الآية ١١٧ من سورة هود ) تدل على أنه كان يدرك أن مسئولية هذا الغزو تقع على عاتق أولى الأمر من الأتراك والمماليك ، فما كان الله بمهلكهم لو أنهم كانوا مصلحين .

وسرد فى كلام الخيرى فيما بعد ما يدل على أنه كان يحس سوء الحال الذى كانت مصر تعانيه خلال هذا العصر .

ولكنه فى تلك المناسبة لم يكن يحس بسوء الحال إحساسا كاملا لأنه كان واحدا من الظاهرين من الفقهاء ، والمقهاء كانوا جزءا من الطبقة الحاكمة فقد كانوا يعاينون الأتراك والمماليك — وكانت أحوالهم قد ساءت فى سنتهم الأخيرة — ويشاركهم فى ظلم الناس من طرق شتى أولاها : أنهم كانوا يحصلون على نصيب طيب من مغانم الظلم والفساد ، فكانت لهم حرايات متحمدة من الخير كل يوم ، وكان معظمهم يبيعون جنابا كبيرا منها ويحصلون على أموال .

وثانيها . أنهم كانوا يصنعون أيديهم على أوقاف واسعة ويتولون نظارتها ويحصلون — بموافقة الأتراك والمماليك — على دخل كبير ، وثالثها : أنهم كانوا يسكتون عن الظلم والفساد بل يؤيدوه ، فلم يحدث خلال العصر العثمانى ان تصدى فقيه لظلم او وقف لنصرة المظلومين ، وكانوا يتعافلون عن الجرائم التى يرتكبها الحكام وأحيانا كان بعضهم يؤيدها ، لأنه كانت لهم صداقات مع كبار المماليك ، والخيرى نفسه كان صديقا لمحمد الألفى وهو من كبار المماليك وأكثرهم ظلما وأطرفهم شخصية كذلك .

ولكن جماهير الناس فى مصر — فى القاهرة والمدن والريف — كانوا فى حال سيئة جدا ، وكان توالى عصور الظلم وعجز الناس عن النفاذ عن أنفسهم وغياب

( ١ ) تاريخ الجبرئى : ج ٣ ص ٢ طبعة بولاق سنة ١٢١٣ هـ هى سنة ١٧٩٨ م .

المصحين وانعدام الرجال دوى الهمة والحراة الذين يهضون في وجه الظلم ويصرون المظلوم ، كل هذا هبط بالمصري العادى إلى مادن مستوى البشر ، وهذه حالة نجد أمثالها كثيراً داخل العالم العربى وحارجه ، فعلى جزيرة العرب مثلاً وقبل الحركة السلفية الوهاية السعودية كان البدو أو أهل الإبل قد هبطوا إلى دركة سحيقة ، لأن توالى عصور الجوع والمجهل جعل حياتهم صراعاً رهيباً لبقاء ، فكل ما يأتهم بشيء يأكلونه أو يلبسونه مقبول عندهم ، ولهم رؤساء على مثالهم يفودونهم في الهجوم على القوافل أو القرى فينهبون ما فيها ويأسرون نساءها ويستحلونها أو يبيعونها دون أن يشعروا بأى تأنيب ضمير ، بل كانوا يهاجمون قوافل الحجاج ويهبطونها ويقتلون الحجاج أو يسلبونها ، لأنهم كانوا في حالة جوع دائم و ( الجوع كافر ) . أما شعورهم الدينى فكان دون الإسلام بمراحل . ولأمين الريحانى في كتابه نجد وملحقاتها وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن فيصل آل سعود : ثم جاء ابن عبد الوهاب يعلمهم أن التمسح لا يجوز لعير الله الواحد القهار . جاء يعلمهم التوحيد واستعان على ذلك بسيف ابن سعود ، فقاموا يعاربونه مع ابن الدواس وابن العريعر ، وكانوا مدعورين ، جمعهم ابن سعود تحت علم التوحيد ، فوحدوا الله وأقسموا ألا شريك له ، ولكنهم في كل أطوارهم بدو ، والبدو مثل دوات الأحصنة طيارون ، أو أن لهم مزية الرثق ، فيجتمعون ويفترقون وأنت تتلو الفاتحة ، لا يحمدون شيئاً في حيوسهم ولا في قلوبهم ، بل لا جيوب لهم ولا قلوب . رفاقك في الطريق اليوم وأعدائك عدا ، ولا أظهم لولا الجنة والجور يحصون لرب الكائنات قد أكون عطفاً بهذا ، وهم يكثر من ذكر الله في كل حين . ولكن البنى نفسه انهم عدم ينفعهم التأنيب . وجاء في القرآن الكريم ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أما الذين عندهم فكالداء يلبسونه ردحا من الزم ، فيمسلونه مرة أو مرتين ثم يلبسونه مقلوباً ، ثم يلبسونه وقد غزق — نبد البواة — كيف تنوضاً ونحن بنفى الماء للشرب ؟ ولم نصوم والسنة كلها رمضان ؟ ولم الصلاة وليس لله وقت لسمعنا ؟ .. (١)

وقد أعانت الله أولئك البدو بالملك عبد العزيز آل سعود . وهو عربى مثبهم . فكان يعرف مساوئهم وأسبابها وعول على إنقاذهم من هذا الحال السيئ ، وبدأ عملية

شاقة لتحصيرهم ، وهذه العملية تمت على مرحلتين : الأولى رفعهم إلى مستوى البشر بإخراجهم من البداوة إلى الاستقرار ، والثانية تحضيرهم وتعليمهم بعد الاستقرار ، وقد اقتضى هذا أثر رسول الله ﷺ وكان الملك عبد العزيز عقرها شديداً التمسك بالسهو البهية حريصاً على تطبيقها التطبيق الصحيح . وكان الرسول يدعو إلى الهجرة ، وهى هجرة من ضياع البداوة فى رمال الصحراء إلى الاستقرار فى كنف أمة الإسلام فى المدينة . وهى كذلك هجرة معوية حضارية ، ونحن نسميها هنا هجرة إلى الله ورسوله ، والهجرة إلى الله والرسول هى هجرة حضارية فالتدخل ميدان الحضارة عندما تؤمن بالله ورسوله والكتاب واليوم الآخر ، وأمة الإسلام فى العصر النبوى كانت تتكون من المؤمنين المستقرين المتمسكين بحبل الله ورسوله ، وكان معظم الذين انفصلوا عن الأمة ودخلوا فى رمة من نسميهم بالمرتدين أعراباً وقد حاربهم أبو بكر بالعرب وهم الحضر المستقرون ، ثم دفعهم إلى المغازى فحاربوا فى سبيل الله وتبنوا فضل الإسلام فيما أعطاهم الله من النصر وخيراته واستقروا فى الأمصار المفتوحة وأصبحوا حصراً ، وأما الذين بقوا فى شبه الجزيرة أعراباً فظلوا على ما كانوا عليه ، ومنهم القرامطة ومنهم بو هلال بن عامر بن صعصعة وبنو سليم بن منصور أصحاب التفرقة المشهورة إلى مصر والمغرب .

وقد نجح عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود فيما أراد ، فصار يعطى البدو قطعاً من الأرض فيها ماء وأرسل إليهم المطوعين ( جمع مطوع ) وهو الداعية أو الشيخ الذى يعلم الناس الدين والقراءة والكتابة ، وأعطاهم مالا وماشية وآلات الرزق ليباشروا الرزق ويستقروا ، وأخذ منهم الإبل حتى لا يعودوا يطيرون إلى الصحراء ، وهذه المزارع أو المجتمعات الزراعية هى الهجر ( جمع هجرة ) وهى مكان الهجرة . وأولاد أولئك الأعراب المهاجرين هم أساس جانب عظيم من الشعب العربى السعودى المعاصر .

\* \* \*

ولكن الفلاح المصرى الذى هبط عن مستوى البشرية وسكن فى قرى كابية فقيرة ليس فيها شئ إسانى ، فاليوت كلة من لس ، وهو فى العادة لا يواظب له ، وإذا كانت هوى من حشيش قديم وسيطة الصنع ، ولا أثاث فى البيت لأن الخلوس يكون على الأرض واسوم على ظهر العرو وهو من لس ، والماشية القليلة التى يملكها الفلاح



تمام معه في نفس البيت ، وهو إذا أحس خطراً أحداً ماشيته وما لديه من آية قليلة وترك القرية ومضى بعيداً حتى يروى الخطر ، وهذه الصورة الحضارية المرملة هي أيضاً صورة تاريخية ، فهي وسيلة لحماية هذا الفلاح من حكامه اللصوص . فما داموا يعرفون ألا شيء يسرق من هذا البيت فهم لا يدخلونه ، بل إن الفلاح حرص على ألا تبدو نساء بيته في هيئة جميلة حتى لا يطمع فيها أحد .

وهذه هي الصورة التي وجد الفرنسيون عليها مصر عندما دخلوها ، وقد خاب أملهم إذ لم يجدوا في مصر ما كانوا يقرأونه من أحاديث عن عنى مصر وثروتها وعظيم المكاسب التي سيمورون بها من غروها ، ولديها كتاب يسمى ( نابليون في مصر ) ألّفه واحد من صباط الفرنسيين يصف فيه شقاء بالحياة في القاهرة وما كان الفرنسيون يعانونه من انخفاض مستوى الحياة وكثرة الهوام وانتشار الأمراض . وكان العقر في مصر عاماً ، حتى المماليك الذين كانوا يستولون على خير البلاد كله كانت حياتهم فقيرة باستثناء الطعام . كانت بيوتهم كبيرة ، ولكنها كانت خالية من كل ثروة حقيقية . لأن الثروة تأتي من عمل الشعب وكسبه ، ومادام حكم المماليك والأتراك قد أدى بالبلاد إلى الإفلاس فمن أين للمماليك بأدوات الترف ؟! وعندما دخل نابليون بيت « محمد الأملى » - أقوى ممالك مصر وأعاهم في ذلك العصر - دهش لقلّة ما وجد فيه من الترف أو الأشياء العالية أو ذات القيمة الكبيرة .

ويعتينا هنا الفلاح المصري وساكن المدن من صغار التجار وأهل الحرف ، فهؤلاء كانوا قد اعتادوا التعماسة والعقر حتى لم يعودوا يحسّون بها ، وكانت الأمراض والأوبئة قد هبطت بصحتهم وأكلت معظم أولادهم ، وقد قدر مستوى طول العمر إذ ذاك نحو إلى خمس وعشرين سنة وانصاف إلى ذلك الجهل البالغ ، وكان جهلاً شاملاً بكل شؤون الحياة ، وحتى إيمانهم بالإسلام سيطرت عليه الأوهام ، وامتلات البلاد بمن يسموهم الأولياء ونسب الناس إلى أولئك الأولياء كرامات ومعجزات تجعل بعضهم فوق مستوى رسول الله منزلة ، فإن رسول الله قال : « لو كنت أعرف العيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » ولكن أولئك الأولياء كانوا يعرفون العيب ويتباؤن لباساً بمقتبلهم ، وبعضهم كانوا يرعمونهم يظفرون في الهواء أو يمشون على الماء ، وسئل واحد منهم : لماذا لا تسأل الله أن يرفع عنا الوباء ، فكان رده المتواضع : لم تؤمر بذلك ، كأنه كان يرى نفسه إنساناً ربيع المرة بعد الله : يسأل الله أشياء فيجيبه الله إليها .

وكانت سياسة المماليك التجارية سياسة فاسدة أضاعت تجارة الشرق التي تمر بمصر فقدت البلاد عائداتها ، وصادروا أموال التجار وأفقروا الناس ، ولهذا كان مستوى جمهور الناس في مصر خفيضاً جداً ، ويكفى أن تعلم أن سكان مدينة الإسكندرية كانوا عندما نزل الفرنسيون مصر حوالي خمسة آلاف نسمة ، وسكانها أيام البطالة كانوا حوالي نصف مليون .

وظل الفرنسيون في مصر أكثر من ثلاث سنوات بقليل ورحلوا سنة ١٨٠١ لأن الإنجليز ظلوا يهاورون حتى أخرجوهم . وعادت مصر إلى حكم الأتراك ، وحاول بكوات المماليك أن يستعيدوا سلطانهم وإذا كان الفقهاء والمماليك لم يفيديوا من الحملة الفرنسية فإن أهل الأسواق في القاهرة أعادوا ، لأن الفرنسيين بعد أن استتب لهم الأمر في مصر أسرفوا في فرض الضرائب وأغضبوا الناس بأعمال كثيرة تخالف الإسلام مثل شرب الخمر والرقص والفساد مع النساء ، فثار عليهم أهل الحسنية في ( ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ ) وكان ذلك عقب تحطم الإنجليز للأسطول الفرنسي فقام المصريون على الفرنسيين فجأة . ومن عجب أن الخبر في أنكر هذه المورة لمجرد أن بسطاء الناس هم الذين قاموا بها ، وكان - وهو من أهل الحل والعقد - يرى أن هذه المسائل يسعى أن تترك للكفار ، قال في كتابه « عجائب الآثار » : « وفي يوم السبت عاشر حمادى الأولى ( ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ ) عملوا الديوان<sup>(١)</sup> وأحصروا قائمة مقررات الأملاك والعقار جعلوا على الأعلى ثمانية فرائسة<sup>(٢)</sup> والأوسط ستة والأدنى ثلاثة ، وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معاق وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارح والخوانيت فمها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين نجسب الخمسة والرواح والاقصاع ، وكتبوا بذلك مباشر على عاداتهم وألصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخاً للأعيان ، وعيوا المهندسين ومعهم أشخاص تمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا في القسط والإحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وحسبوا أسماء أربابها . ولما أشيع ذلك في الناس لعظم واستعظموا ذلك ، والبعض استسلم للقصاء . فابتد جماعة من العامة وتباحوا في ذلك ، ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم يظر في عواقب الأمور ، ولم يتذكر في أنه في القبصة

( ١ ) أي أن الفرنسيين عقدوا اجتماعاً للديوان الذي أنشأوه من مصريين وفرنسيين لحكم البلاد

( ٢ ) خمسة صكها الفرنسيون في مصر .

مأمور . فتجمع الكثير من العواء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم . وأصبحوا يوم الأحد متحيزين ، وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أحلوه من السلع وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسبية ورعر الحارات البرابية ، وهم صياح عظيم وهول جسيم ، ويقولون بصياح في الكلام : « نصر الله الإسلام » ، فذهبوا إلى بيت قاضي العسكر ، وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر ، فخاف القاضي العاقبة وأعلق أبوابه وأوقف حجابيه ؛ فرحموه بالخيابة والطوب وطلب الحرب فلم يمكنه الهروب ، وكذلك اجتمع بالأرهر العالم الأكبر .

وفي ذلك الوقت حصر ديوى وهو حاكم القاهرة بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه ، فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصداقية ، وذهب إلى بيت القاضي ، فوجد ذلك الرحام محلف وخرج من بين القرب وباب الزهومة ، وتلك الاحطاط بالخلاتق مزحومة ، عبادوا إليه وصرروه وثبحوا جراحاته ، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه فبعد ذلك أحد المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون من كل حذب ينسلون ، ومسكوا الأطراف الدائرة معظم أحطاط القاهرة كـ « باب الفتوح » و « باب النصر » و « البرقية » إلى « باب زويلة » و « باب الشرية » وجهة البسقانيين وما حادها ، ولم يتعدوا جهة سواها ، وهدموا مصالط الخوانيت ، وجعلوا أحجارها متاريس للكربكة لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس . وأما الخهات البرانية والواحي الفوقانية فلم يفرغ منهم ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع ، وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق وعدهم الأكبر قريهم من مساكن العسكر . ولم ترل طائفة المحاربين في الأرة متترسين ، فظهر جماعة من الفرنساوية ، وظهروا من ناحية الماحلية ، وبدقوا على متراس الشوائين ، وبه جماعة من مغاربة القمحامين فقاتلوا حتى أجلوهم ، وعن الماحلية أراوهم . وعند ذلك راد الحال وكثر الرجف والزلزال ، وحرجت العامة في الحر وبالعوا في القصية بالعكس والطرء ، وامتدت أيديهم إلى الخطف والسلب فهجموا على حارة الخوانية ونهبوا دور الصايرى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على تمام ، وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبسات ، وكذلك سبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات وأكثرها من المعايب ولم يمكروا في العواطف ، وبناتوا تلك الليلة سهرايين وعلى هذا الحال مستمرين .

وأما الافرنج فانهم أصبحوا مستعدين ، وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين . وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقناير والعتيات ، ووقفوا مستحضرين وأمر كبيرهم منظرين . وكان كبير الفرنسيين أرسل إلى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ، ومل من المطاولة . هذا والرمى متتابع من الجهتين . وتضاعف الحال ضعفين حتى مضى وقت العصر وراود القهر والحصار ، فعند ذلك خرجوا بالمدافع واليفيات على البيوت والحارات ، وقصدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجرّدوا عليه المدافع والقنابر ، وكذلك ما جاوره من أماكن الخاريين كسوق الغورية والفحامين فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا في عمرهم عابوه نادوا : « يا سلام من هذه الآلام ، يا حفي اللطاف نجّا بما نخاف » ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا في الشقوق ، وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان ، وهنكت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ، ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الأذان بصوتها هائل ، فلما عظم وراود الحال والكرب ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ، ويمنع حده عن الرمي المتراسل ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال ، والحرب حذقة وسجال فلما ذهبوا إليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأخير ، واتهمهم في التقصير فاعتدروا إليه ، فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم <sup>(١)</sup> .

وأما أتيت بتفاصيل هذه الثورة لكي أدل على حيوية شعب مصر المتدفقة ، لأن الأمر لم يقتصر على القاهرة بل انتشر في الأرياف وقام الناس على الفرنسيين بالصالحية وسرياقوس . وأصاب المصريون في الفرنسيين إصابة بالغة ، فقد قتل ديبوى قائد حامية القاهرة وعدد كبير من الضباط والجد ، وقد تحير الفرنسيون في أمر من دعا إلى هذه الثورة ومن الذي أتى الناس بالسلاح ، ومن الذي علمهم استعماله ، وانتبوا إلى أن رجلا يسمى « إبراهيم أمدي » كاتب النهار هو الذي رأس عملية جمع السلاح .

ومهما يكن من أمر الدين قاموا هذه الثورة فلاشك في أنهم كانوا أشجع وأكثر شهامة من الشيوخ الذين استكروها ، وقد رأينا موقف « الحبري » منها ، لأن أولئك

( ١ ) تاريخ الحبري : ٢٦ / ٣ - ٢٧ .

الرؤساء والشيوخ اعتادوا الظلم والخصوع للظالمين والعيش معهم ومقاسمتهم معهم حتى لم يعودوا يحسون بالظلم . وهذه مشكلة كبرى من مشاكل تاريخ مصر ، وهى أن الكبار والعلماء وأولى الأمر لم يقفوا إلا نادرا إلى جانب الشعب ، لأن معظمهم فى الحقيقة لم يكونوا منه ، والكثيرون منهم تربوا على أن يعتبروا أنفسهم طبقة عليا خلقت للسيادة . ولا مانع عندها من التعاون مع الأجانب والمستعمرين ، وهذا هو الذى أطال قصة الاستقلال والهوض فى مصر ، فى حين أسأ رأيا أن عبد العزيز آل سعود وقف من أول الأمر إلى جانب شعبه لأنه منه وهو يحس به إحساساً صادقا واجتهد فى النهوض به لأن إيمانه الإسلامى السليم غرس فى نفسه المساواة بين الناس ، فقد كان يرى نفسه واحدا من عرب الجزيرة وإن لم يتساهل فى متطلبات الرياسة ومطالب السلوك الملكى وقيادة الأمور . وحلال هذه الثورة انقلب الشوام والأروام على المصريين وأخذوا حاسب الفرنسيين وكذلك فعل الكثيرون من المعارضة النازليين فى مصر ، وكان الكثيرون منهم رعا يعملون فى خدمة المماليك . وقد اشتهر بالحياة فى هذه المناسبة الآغا قائم مقام ولم يكن مصريا ، وكان من كبار معاونى الوالى التركى أما المشايخ فكانوا يعيدون عن المعركة ، اما كان همهم إسكات الفتنة ومصالحة الفرنسيين .

وكان نابليون عندما رأى الأحوال فى مصر وقلة ما يمكن أن يحصل منها من الأموال ، قد فكر فى فتح الشام لهذا الغرض ولأسباب أخرى . فترك فى مصر حاميات صغيرة فى « القاهرة » و « الإسكندرية » و « رشيد » و « دمياط » وخرج إلى الشام فى أربعة آلاف جدى مرودين باندافع واستسلمت له حاميتها التركية ، ولم يكن لديه جند كاف لحراسة هذا العدد الكبير . فأمر بقتلهم جميعا بالرصاص . وهذه جريمة كبرى لا تنسى لنابليون ، ولو أن هذه الحامية حاربت واستشهد رجالها لكان ذلك أكرم لها .

ولكن نابليون عثر عن الاستيلاء على « عكا » ، فقد كان يتولاها القائد « أحمد الجزار » ودخل فى خدمته ضابط هندسة عسكرية فرنسى يسمى فيليبو كان زميل دراسة لنابليون ولكنه كان يعارمه ، وفى البحر وقفت أمام عكا سفيتان انجليزيتان يقودهما الأميرال سيدنى سميث وكان يمد « أحمد باشا الخرار » بالمعونة والمؤن . وطال حصار نابليون دون جدوى لأنه كان قد أرسل مدافعه بالبحر فى سفيتين سقطت

حدهما في أيدي الإنجليز ، وعجرت حامية : يافا ، التركية عن مواجهة الفرنسيين .  
وهنا أيضاً نجد عاصر أصحاب الحكم والقوة في البلاد من الدور والطلائف  
المسيحية والقبائل العربية تميل إلى مصالحة الفرنسيين والتعاهم مع أعداء البلاد وأخيراً  
عاد نابليون إلى مصر في ١٤ مايو ١٧٩٩ دون نتيجة . وأراد الأتراك انتهاز فرصة  
فشل نابليون فأرسلوا قوة تركية من ثلاثة عشر ألف جندي احتلت أبو قير ولكن  
نابليون سار إليها وأنزل بها الهزيمة وأسر مصطفى باشا . وفي ٢٢ أغسطس ١٧٩٩  
غادر نابليون مصر عائداً إلى فرنسا وتاركاً القيادة في مصر للجبرل كليبر .

وعقب خروج نابليون من مصر أرسل الأتراك حملة بقيادة يوسف باشا فخرج  
للقائمه كليبر ولقيها في « عين شمس » واستولى على حرائثها وذخائرها وأسلمتها

ولكن المصريين كانوا أشد شهامة من الأتراك . فقد انتهبوا فرصة خروج كليبر  
إلى « عين شمس » ، وقامت ثورتهم بشرف عليها ويظلمها هذه المرة بطلان من أبطال  
تاريخ مصر هما « عمر مكرم » نقيب الأشراف و « أحمد الطخوقي » نقيب التجار ،  
وأنشأوا مصنعاً للبارود في « الخرمش » ، وكان مركز الثورة « بولاق » وانضمت  
إلى صفوف الثوار ( من مسلمين وأقباط ) من أمثال جرجس الجوهري وفتيوس  
وملطي ، وشد عن الإجماع مهووس يسمى يعقوب يدعو إلى اشتراك الفرنسيين مع  
المصريين في حكم مصر وأنشأ قوة عسكرية من الشوام والأقباط بمعاونة ضابط  
فرنسي يسمى لاستاريس ، وسخر منه المصريون وسموه الجبرل يعقوب . ولكن  
الثورة لم تستطع الصمود للدفعية الفرنسية التي دكت حتى بولاق دكا ، وانتهت  
ثورة القاهرة الثانية في ( ١٥ أبريل ١٨٠٠ ) ، وقبض الفرنسيون على زعمائها  
وصالحهم كليبر على أداء غرامة قدرها عشرة ملايين من الفريكات .

أما المماليك فقد صالحوا الفرنسيين ، وتولى « مراد بك » فضائق المصريون ذرعاً  
بالمماليك والأتراك ، وطردوهم من مصر إلى الشام بمعاونة الفرنسيين .

وطل الإنجليز يحاولون إخراج الفرنسيين من مصر ، وكان كليبر قد قتل وتولى  
بعده ميو ، وأخيراً تمكنوا من إخراجهم بمعاودة « أميان » وغادروا مصر على سفن  
البحرية في ( أول سبتمبر ١٨٠١ ) .

\* \* \*

وقد وقفنا هذه الوقفة الطويلة عند الحملة العرسية على مصر لنقول إنها حطمت الأسوار التي كانت مصر تعيش فيها وأخرجتها من ظلمات العصور الوسطى ، وعادت مصر إلى التبعية التركية إلا أن الحال قد تغير كثيراً ، وشعب مصر الذي واجه الفرنسيين وقام ضدهم — بثورتين لم يعد إلى الماضي قط ، فقد فقد المشايخ زعامتهم وتفتحت أمام المصريين آفاق جديدة ، ولكن كان ينبغي أن ينضم الأتراك وأنصارهم من الباشوات إلى الشعب وترسم خطة البهوض ، لأن الشعب نفسه كان فقيراً جداً وجاهلاً إلى حد بعيد ، والأتراك كانوا بهيدين عن هذا التفكير لأنهم — وكبار رجال دولتهم خاصة — كانوا في درك سحيق من الفساد .

وقد تعودنا أن نلوم الأتراك وننقدهم ، والحق أنهم يحملون مسؤولية كبرى عن المصير السيئ الذي سار إليه العرب بعد هذه البداية التي يمكن أن توصف بأنها طيبة ، ولهذا فسكف عن لوم الأتراك ، ونقول — حملة — إنهم قدموا للعالم العربي خدمتين جليلتين ، هما حسبهم ، الأولى : هي إخراج العراق من سلطان الإيرانيين بعد معركة تشالديران ( سنة ١٥١٨ ) ، والثانية : هي إنقاذ المغرب العربي — عدا المملكة المغربية — من سلطان الآسيان وحلفائهم من الأوروبيين خلال القرن السادس عشر أيام السلطان سليمان القانوني ، وقد تكلمنا عن ذلك بشيء من التفصيل في هذا الكتاب .

والدولة العثمانية مسؤولة عن كثير مما أصابنا وأصاب غيرنا من دخل تحت سلطانتها ، ولكن الأتراك أيضاً كانوا في نفس الحالة من سوء ، لأنهم كانوا يعانون نفس المشاكل التي انحدرت بهام الإسلام . كانوا يعانون من الحكم المستبد والحد المرتقة ، والدولة العثمانية كانت في أوجها في القرن السادس عشر أيام سليم الأول وسليمان القانوني ، كانت أعنى دولة إسلامية عرفها التاريخ ، وكان دخلها أضعاف دخل دولة مثل الدولة العباسية ولكن الحكم المستبد يذهب بمال الدول ويقطع أوصال العلاقات داخل الدولة ، وجيش الاكتشارية الذي قهرت به الدولة العثمانية الدنيا انتهى به الأمر إلى أن أصبح أكبر سبب من أسباب تدهورها ، لأن أفرادها كانوا في زيادة ورواتبهم في ارتفاع وعملهم أقل ونوعهم أسوأ ، والمعلومات عن الدنيا حول الدولة كانت قليلة جداً ، ويكفى أن الدولة لم تنبه إلى خطر الروس إلا عندما قامت الدولة الروسية الجديدة وأصبحت قوتها أضعاف قوة الأتراك لأن بطرس الأكبر عندما نهض بدولة الروس قاطع الماضي واتخذ دول الغرب نموذجاً لدولته ، فأنشأ مصانع

السلاح ووضع أساس الصناعة في روسيا في حين أن سليمان القانوني — رغم دكانه وكفائه — زاد الحواجز بين العثمانيين والغربيين وراى الحواجز مع العرب . وعندما تحطم أسطولوه في معركة « ليبانتو » أمام الاسطول الاسبانى الأوروبى كان معنى ذلك هبوط الدولة العثمانية عن مستوى كبار الدول ، وعندما انهزمت جيوش الدولة أمام الروس والنمسا والمجر في معركة « كشنك ليجارجى » سنة ( ١٧٧٤ ) هبط مستوى الدولة العثمانية وبدأت قصة الرجل المريض . وانحطت معها كل الدول الداخلة في طاعتها من المغرب إلى العراق .

\* \* \*

كانت مصر أولى بلاد العالم الإسلامى نهوضا بسبب الحملة الفرنسية ، ولكنها أخطأت خطأ جسيما عندما احتارت محمد على ليكون واليا . ومحمد على كان رجلا عبقريا بلا شك ، ولكنه كان رجلا مرتزقا بلا قلب أو عواطف ، وكان طموحه طمعا ، والمصريون كانوا أحوح إلى رجل إنسان منهم إلى رجل عبقرى بلا إنسانية .

لقد عمل المصريون بأقصى طاقتهم في أيامه ، وحاربوا في الشام وآسيا الصغرى وبلاد السودان ، وأثبتوا أنهم يستطيعون الهوض ببلادهم إلى أعلى المستويات ، ولكنه باع المصريين في « معاهدة لندن » في مقابل الاحتفاظ بمصر ولاية لنفسه ولأولاده في ( معاهدة لندن ١٨٤٠ ) ، وجاء ابنه عباس فأقلع المدارس وهبط بالجيش إلى أدنى مستوى وأصبحت مصر في أيام عباس هذا في نفس الحال السيئة التى كانت فيها قبل حكم محمد على .

والسبب الذى حدا بالمصريين على اختيار محمد على واليا عليهم هو سوء الحال الذى كانت عليه البلاد بعد خروج الفرنسيين ، فالأتراك كانوا ينسبون إلى أنفسهم الفصل في إخراج الفرنسيين من مصر ، ومن ثم فقد كانوا يرون أن من حقهم أن يعودوا إلى سيادة مصر والتصرف فيها كما كانوا قبل الحملة الفرنسية ، وكانوا يطالبون باتاوة مالية سنوية ضخمة . أما المماليك فعادوا إلى مصر وانقسموا ثلاثة أقسام : قسم يؤيد الإنجليز ويتزعمه « محمد الألفى » ، وقسم يؤيد الفرنسيين ويرأسه « مراد بك » وقد توفى « مراد بك » ( سنة ١٨٠١ ) وحلفه الطمبورجى بك ثم البرديسى بك . ولم يكن أحد منهم مع المصريين . وكان أول وال تركى على مصر بعد خروج



السلاح ووضع أساس الصناعة في روسيا في حين أن سليمان القانوني — رغم دكاته وكفايته — زاد الحواجز بين العثمانيين والغريين وراى الحواجر مع العرب . وعندما تحطم أسطولوه في معركة « ليبانتو » أمام الاسطول الاسبانى الأوروبى كان معنى ذلك هبوط الدولة العثمانية عن مستوى كبار الدول ، وعندما انهزمت جيوش الدولة أمام الروس والنمسا والمجر في معركة « كشنك ليبارجى » سنة ( ١٧٧٤ ) هبط مستوى الدولة العثمانية وبدأت قصة الرجل المريض . وانحطت معها كل الدول الداخلة في طاعتها من المغرب إلى العراق .



كانت مصر أولى بلاد العالم الإسلامى نهوضا بسبب الحملة الفرنسية ، ولكنها انحطأت حطاً جسيماً عندما احتارت محمد على ليكون واليها . ومحمد على كان رجلاً عبقرياً بلا شك ، ولكنه كان رجلاً مرتزقاً بلا قلب أو عواطف ، وكان طموحه طمعاً ، والمصريون كانوا أحوج إلى رجل إنسان منهم إلى رجل عبقرى بلا إنسانية .

لقد عمل المصريون بأقصى طاقاتهم في أيامه ، وحاربوا في الشام وآسيا الصغرى وبلاد السودان ، وأثبتوا أنهم يستطيعون النهوض ببلادهم إلى أعلى المستويات ، ولكنه باع المصريين في « معاهدة لندن » في مقابل الاحتفاظ بمصر ولاية لنفسه ولأولاده في ( معاهدة لندن ١٨٤٠ ) ، وجاء ابنه عباس فأقلع المدارس وهبط بالجيش إلى أدنى مستوى وأصبحت مصر في أيام عباس هذا في نفس الحال السيئة التى كانت فيها قبل حكم محمد على .

والسبب الذى حدا بالمصريين على اختيار محمد على واليا عليهم هو سوء الحال الذى كانت عليه البلاد بعد خروج الفرنسيين ، فالأتراك كانوا ينسبون إلى أنفسهم الفضل في إخراج الفرنسيين من مصر ، ومن ثم فقد كانوا يرون أن من حقهم أن يعودوا إلى سيادة مصر والتصرف فيها كما كانوا قبل الحملة الفرنسية ، وكانوا يطالبون باتاوة مالية سنوية ضخمة . أما المماليك فعادوا إلى مصر وانقسموا ثلاثة أقسام : قسم يؤيد الإنجليز ويتزعمه « محمد الألفى » ، وقسم يؤيد الفرنسيين ويرأسه « مراد بك » ، وقد توفى « مراد بك » ( سنة ١٨٠١ ) وحلفه الطمبورجى بك ثم البرديسى بك . ولم يكن أحد منهم مع المصريين . وكان أول وال تركى على مصر بعد خروج

الفرنسيين محمد باشا خسرو ، فأرسل جيشا إلى « بنى سويف » لمحاربة البرديسي فانهزم الجيش عند « بنى سويف » ، وانتشر المماليك في الوجه البحرى وتخصنوا عند دمنهور واتصلوا بالإنجليز الذين كانوا في الإسكندرية ، فانتصر البرديسي على الأتراك انتصارا كبيرا في ( نوفمبر ١٨٠٢ ) . ثم غادر الإنجليز مصر بعد أن تمت معاهدتهم مع الفرنسيين ( سنة ١٨٠٢ ) ووكّلوا حماية مصالحهم لـ محمد الألفى بك ودعوه إلى إنجلترا حيث أكرموه ووعدوه بأن يسعوا لدى الأتراك حتى يعينوه واليا على مصر .

في هذه الظروف وفد « محمد على » إلى مصر سنة ١٨٠١ ضابطا برتبة بمباشى في الحامية العثمانية ، وهو ليس تركيا بل ألبانيا من « قولة » ، ومنذ استقراره في مصر بدأ يفكر في وسيلة يحوز بها السلطان . وأراد الوالى التركى محمد خسرو باشا محاربة المماليك في الصعيد ، وأمر الجند بالمسير لحربهم فرفضوا حتى تدفع لهم رواتبهم ، ثم قام أحمد باشا طاهر رئيس المناوئين لخسرو باشا وتصدى لحرب خسرو باشا ، ووقع النزاع بين الانكشارية والجيش وترعبهم أحمد باشا ، ووقع الاتفاق بين أحمد باشا ومحمد على رئيس الارناؤد وكانوا أكثر قوة في الجيش وعددهم ٤٠٠٠ جدى .

واتجه محمد على إلى الاتفاق مع البرديسي بك زعيم المماليك وقبضا على خسرو باشا وسجناه في « القلعة » وأقبل « محمد الألفى » من إنجلترا يؤيده الإنجليز ، وطلب الجند بالرواتب فأحاطهم محمد على إلى البرديسي وقام الجند على المماليك وطردهم من القاهرة ثم أرسلت الدولة واليا جديدا هو خورشيد باشا وهما نجد المصريين يسرون إلى محمد على بزعامة « عمر مكرم » و « الشيخ الشرقاوى » في مايو ١٨٠٥ وعرضوا الولاية على محمد على لأنه وعدهم بالعدل وحماية البلاد من مساوى الأتراك فصدقوه واتخوه واليا وألبسه ( عمر مكرم والشيخ الشرقاوى ) الكرك والقفطان رمز الولاية ، ثم سار الارناؤد إلى القلعة وخلصوا خسرو باشا وكبوا إلى السلطان العثمانى ليؤيد اختيارهم ، وتلك كانت خطيئتهم الكبرى فاستجابت الدولة ، ولو أنهم احتاروا « عمر مكرم » لكانت الدولة قد أقرت اختيارهم ، ولكنا نخلصنا من مأساة محمد على وأولاده .

المهم أن المصريين ارتكبوا هذا الخطأ الكبير ، وحرموا أنفسهم من ولاية أمورهم بأنفسهم . ولم يكن « عمر مكرم » بأقل موهبة من محمد على ، ومن يدري فلعله كان يستطيع سياسة الأمور بطريقة أحسن . وليس في هذا إنكار لموهبة محمد على

فقد كان الغالب أنه سيستمر على العمل في مصر في خدمة الوالي الجديد ، ولكن من المؤكد أننا كنا سننجو من أنانيته وإنكاره لفضلنا ، ومن الممكن كذلك أن الدولة العثمانية كانت تقرر ولاية مصرى على مصر مادام يبقى في طاعة الدولة العثمانية .

ومنذ تولى محمد على أمر مصر في يوليو ١٨٠٥ أظهر عبقرية نادرة في تلبية ذاته وتقوية مركزه وإنشاء دولته ، ولكنه في كل حملة لم يفكر في المصريين ولا هو أحبهم وربما لم يحب غيرهم ، فقد كان رجلا بالغ الأنانية ، وكان له فهم نادر للظروف من حوله والقدرة على قيادتها ، وعلى الرغم من الكثير الذى عمله فقد انتهى كله قبل وفاته ( سنة ١٨٤٨ ) ومن سوء الحظ أن ابنه إبراهيم وهو خيرة أولاده — مات قبله ، وكان رجلا خيرا وكان قريبا من المصريين يعرف قلب ما يمكن أن يقوموا به ، أما إخوة إبراهيم فقد كانوا مرتزقين وأغبياء وجهلاء ، وقد سيطر عليهم الأجانب والأتراك واستملوهم واستغل هؤلاء جميعا المصريين استغلالا شائنا وعلى الرغم من وفرة إنتاج مصر وثراء أرضها فإن المصريين لم يغيروا شيئا من ذلك بل عمل أبناء محمد على ومعاونوهم وكلهم أحاب ما بين أوروبيين وترك وجراكسة وأرمن وأكراد ومعاربة ويونانيين وأشكال شتى على الاستئثار بكل شيء من دون المصريين ولكن المصريين أفادوا — رغم ذلك الظلم كله — من الناحية للمصوية ، فقد تعلم مهم نهر قليلون فعلا ، ولكنهم كانوا موهوبين وكلنا نعرف رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك وما كان لهم من دور في نهوض مصر والعالم العربى .

ولم يقتصر الامر على زعماء النهضة العسكرية من رفاعة رافع إلى محمد عبده بل سبى كذلك الكثيرون من المصريين من المشتغلين بالزراعة والتجارة ، ورغم الاحتلال البريطاني الذى كان إلى حد ما نتيجة لسياسات أسرة محمد على ورجالهم نهضت مصر وعرضت الكثير مما خسرته ، ونشهد الطريق لثورة ( سنة ١٩١٩ ) التى تعتبر من مفاخر الشعب المصرى بعد ما عانى طول القرن التاسع عشر .

\* \* \*

وكان أسوأ ما لقي محمد على من الجراء ممن كان يظن أنهم أصدقائه ما وقع له في بلاد الشام . أضافت الحكومة التركية إلى ملك محمد على بلاد الشام مكافأة له على ما قدم لها من الخدمات في جزيرة العرب وبلاد اليونان ، فولى ابنه إبراهيم

والها على بلاد الشام ( من ١٨٣١ إلى ١٨٤١ ) وإبراهيم كان خير أولاد محمد علي  
فحرمت مصر من خدماته هذه المدة وانصرفت جهوده إلى بلاد الشام . وكانت  
بلاد الشام في الحكم التركي قبل الحكم المصري في أسوأ حال من الفوضى وسوء  
الإدارة ، وهي ليست بلادا سهلة ولا بيضة الحكم ، ولكنها طوائف وجماعات شتى :  
دينية وعرقية وكلها متقاطعة متدايرة ، وكان حاكم الشام التركي قبل إبراهيم باشا  
لا يخلل بمصالح أهل الشام ، ويعكم على الطريقة العثمانية المعروفة : طريقة الفساد  
والرشوة وعدم الاكتراث ، فلما جاء إبراهيم بذل أقصى جهده في إنشاء حكومة  
صالحة ، ولكن أرضاء أهل الشام جميعا في ذلك العصر كان شبه مستحيل ، فقد  
كانت الطوائف كلها تعاني ، وكلها تريد أن تتخلص من متاعها ، والعداوات بين  
بعضها البعض كانت متزايدة ، وقد أطمعهم عدل إبراهيم وليه وحرصه على إرضائهم  
فمضوا يبالعون في اللطالاب .

وفي نفس الوقت فتح إبراهيم أبواب الشام للأجانب من الأوروبيين ، فتكاثر فيها  
القنصائل وبعضهم كان من الإنجليز والفرنسيين والابيطاليين والروس ، وبعضهم الآخر  
كان من أهل البلاد يتولون الأعمال القنصلية للدول الأوروبية في نواح شتى ويتمتعون  
بامتيازات واسعة ، يستغلونها كلها لمصلحتهم وكانت الدول الأجنبية تشعر بخوف  
بالع من ناحية محمد علي ، فقد كانت وراءه مصر بفرائها وكان محمد علي موهوبا  
في اختيار الرجال الأكفاء من أمثال الكولونيل سيف وكلوت بك ولينان دي بلغوند  
ممن حصوا له بمجوانب كبرى من عملية النهوض ، فقوى جيشه وازدادت ثروته ،  
وأقام المشروعات والمصانع الكثيرة وقوى شأنه وازدادت المخاوف منه ، واشتدت  
الدسائس ضد الحكم المصري في بلاد الشام ، ويكفي أن نشير هنا إلى موقف  
« بالمرستون » رئيس وزراء بريطانيا من محمد علي . فقد أبغضه واحتقره وحاربه  
ونعى زوال دوله ، ولا أذكر أنني قرأت شيئا يدل على أن « بالمرستون » عرف  
محمد علي معرفة حقيقية ، وإنما هو كان رجل سياسة بريطاني يرى أن بريطانيا لم  
تخرج الفرنسيين من مصر لتقوم في مصر دولة قومية قوية ، وإنما لكي تستولي عليها  
هي ، ومن هنا كان بغضه ل محمد علي ومعاداته إياه وعمله على إسقاطه واجتباذه في  
أن تعود مصر إلى الدولة العثمانية ، فهذه هي المقبرة ، وهذا أضيق سبيل لاستيلاء  
بريطانيا على مصر . وهكذا كان .

وعلى أى حال فإن عمل محمد على تنازل في ( معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ) ثم في ( فرمان يونيو ١٨٤١ ) الذى يقرر أن مصر ولاية عثمانية تؤدى جزية سنوية قدرها ( ٤٠٠,٠٠٠ جنيه مجيدى ) كل سنة وبحكمها محمد على وأولاده من بعده حكاما محليين ، أى أن مصر فقدت كل أبعادها العسكرية ومركزها الدولى وأصبحت محصى ولاية عثمانية ، حتى امتداد مصر فى السودان — وهو أساس دولة وادى النيل — ترك دون تمديد ، ولم يكثر محمد على لذلك أدنى أكتراث ، وذهب هو بنفسه ( ١٨٤٦ ) إلى تركيا وقدم فروض الولاء للسلطان . وعاد إلى مصر وقد دب فى جسده ديبب المرض الذى مات به ( سنة ١٨٤٨ ) فإذا كان قد قدم إلى مصر فى سن الخامسة والعشرين مثلاً ، وتولى أمرها ( سنة ١٨٠٦ ) وهو فى الثلاثين من عمره فتكون سنه عند وفاته ثلاثاً وسبعين سنة . وهى ليست بالسن العالية التى تبرز الآلام المرحية التى كان يعانيها خلال الستين الأخيرتين من عمره خصوصاً بعد موت ابنه إبراهيم ( سنة ١٨٤٦ ) وكان إبراهيم هو الأمل الوحيد لمصر ، لأن عباس ابن محمد على عندما قدم من الحجاز وتولى مصر ( سنة ١٨٤٨ ) أغلق المدارس والمصانع وأوقف كل عمل تقدمى فكان مصر قد عادت بعد العناء إلى ما كانت عليه قبل محمد على فلم ينشأ فيها جيش أو تم فتوح أو تقيم مصانع ، وكل الذى بقى هو الأشياء الثابتة التى لا يمكن إلغاؤها . كالقناطر الخيرية وترعة المحمودية وبعض الأعمال الزراعية المماثلة .

ونسأل الآن : ما السبب فى ذلك الفشل الدريع الذى لقيه محمد على فى أحرىات أيامه مع ما نعلم من ذكائه وقدرته ومواهبه الإدارية والعسكرية والسياسية التى لا تحصى ؟

السبب — فيما يبدو لى — أن محمد على لم يسب إلى مصر أو شعبها . فظل طول حياته رجلاً دون هوية ، فلا هو مصرى ولا هو تركى ، وإنما هو أجنبى مغامر وفد إلى مصر واستغل مصر لمصلحته دون أن يعرف المصريين أو يتصل بهم اتصالاً يذكر ، فقد كانوا عنده فلاحين ( يزرعون الأرض ليستولى منهم على أعلى ما يستطيع الحصول عليه ) أو مشايخ وفقهاء تقليديين يعيشون فى الماضى ولا بد من إبعادهم عن التشريع أو التعليم الذى يريده هو ، أو تجاراً صغاراً وأهل حرف قراء من المدن .

مع أننا نعرف أن شعب مصر شعب موهوب ، وهو يستجيب للإسلام والتعليم . ويفهم مطالب عصره إذا هو تيسرت له أساليب العمل والنشاط ، وهو سريع الفهم

وقد اعترف محمد على بذلك عندما رأى نجابة المصريين ومهارتهم في « مدرسة الهندسة » التي أنشأها ( سنة ١٨١١ ) ، ولكن دواعي الخير في قلبه كانت قليلة والجوانب الإنسانية في كيانها كانت أقرب إلى الخفاف ، فأُسرع إلى الاستعانة بمن تصور أنهم على خبرة أو قدرة بإدارة أمور الدول من أجناب على مستوى ضئيل من الإنسانية — فيما عدا نفرًا من الفرنسيين من السان سيمونيين الذين وفدوا عليه وعملوا معه ، أما رجال دولته من أبناء الممالك من جراكسة وأتراك وأكراد وعز ، وقد انتصح بهم بالفعل ولكنهم أصروا بمصر والمصريين ضررا بليغا ، فقد حرموهم فرصة العمل والنهوض وأساعوا إلى الناس حيث كانوا كما حدث في الشام والسودان ، ومعظم الآثام التي يذكرها السودانيون للحكم المصري أيام محمد على وما بعده يرجع إلى تصرفات رجال محمد على هؤلاء ، وهم ينسون أن المصريين عانوا منهم أضعاف ما عانى السودانيون ، بل إن الأتراك العثمانيين عانوا في بلادهم من حكمهم أهوالا بالغة ، ولولا أن العماد الحقيقي للحياة في الأناضول — وهو معظم تركيا — يقوم على الزراعة والرعي لتدهورت الدولة العثمانية ولتعرضت لأزمات قاتلة ، والميزة الكبرى للفلاح أو الراعي التركي على مثيله في مصر والسودان هو أن أرض الأناضول وعرة ومسالكها عسيرة ، والوصول إلى الفلاح أو الراعي عمل شاق أيسر ما كان الواحد منهم يعمل إذا سمع باقتراب الجاني هو الصعود إلى أعلى الجبل ، وإذا كان راعيا أحد معه ماشيته ، ورعاة الأناضول نصفها جبوب وبقيتها أشجار والحبوب تزرع وتحنى قبل أن يأتي الجاني وإذا جاء قبل الحصاد رده برشوة ، أما الشجريات فمأذا يفعل الجاني أألم أشجار تفاح وخوخ ومشمش إذا اتفق أهل القرية على ألا يشتري أحد منهم ثمرة من محصول جاره ؟

ونعود فنسأل : ولكن ما السبب في كراهة المجلتروا وروسيا وتركيا لمحمد على وحرص هذه الدول الدائم على استصغار شأنه واعتباره مغفرا مرتزقا لا يستحق أى تأييد ؟

السبب في ذلك هو أن محمد على منذ أن تولى أمر مصر بانتخاب من المصريين في ( يوليو ١٨٠٥ ) لم يعتبر نفسه قط مصريا — حتى ولو كان اقترب من المصريين — فظل دائما في نظر الغرب واليا تركيا مطيعة تارة وثائرا أخرى ولكنه وال عثماني ، وعندما وقع الخلاف بينه وبين الأتراك أصبح واليا ثائرا حارجا على النظام والسلطان العثماني ، ولو أن محمد على تنبه إلى أهمية هذه النقطة لتغير وضعه

والمعاهد وهبط بالجيش إلى مستوى قوة خفر ، فكأنك — كما يقول المثل العامى —  
« يا أبو زيد ما غزيت ! »

وليس هذا مجرد كلام حماسى أقوله لأننى مصرى ، بل أنا أنطرب إلى شهامة « رفاعة رافع الطهطاوى » واتساع نظره وأفقه فى كلامه عن أوروبا والخصارة الأوروبية فى كتاب مثل « مباحج الألباب العصرية فى مناهج الأفكار العصرية » ورفاعة كان من الجيل التالى لجيل عمر مكرم ، وعمر مكرم كان رجلاً شهماً بليغاً قوى القلب ، ومثله كان الشيخ عبد الله الشرفاوى « الذى رفض أن يضع على صدره شارة الثورة الفرنسية المثلثة الألوان وألقاها على الأرض وخرج ، ومنلهما كان « أحمد الخهوى » حاكم الإسكندرية الذى أعدمه الفرنسيون لشهامته ونخوته ، وهذا البلد — مصر — لم يخل قط من الرجال ، ولكن الخطوة كانت فيما يبدو — واسعة على العصر وفكره ، وقلوب الناس كانت أقدر على الحق والعدل والحسد منها على أعمال الشهامة والقيادة .

\* \* \*

ولكن محمد على وأسرته إذا كانوا قد هدموا بيدهم ما فعلوه وأعادوا مصر ولاية عثمانية يتصرف فى أمورها الإنجليز والفرنسيون — بل الروس أحياناً — هان المصريين أنفسهم لم ينسوا ما قاموا به خصوصاً عندما خاصوا المارك بقيادة إبراهيم باشا فى الشام والأناضول ، وبقيت هذه الذكريات حية فى القلوب لتنتعش فى أيام سعيد باشا ، وأحمد عرابى كان ثمرة عصر سعيد الذى تميز على غيره من أفراد إبراهيم بن محمد على بميله إلى المصريين ووجه لمصر ، ومهما يكن ما صدر عن « أحمد عرابى » بعد مظاهرة ( ١٥ سبتمبر ١٨٨١ ) فإن الرجل يظل نادرة فى عصره ، فقد وقف فى وجه الخديو وجماعته ونادى بأن مصر للمصريين ووقف من ورائه الشعب ، وكانت ظروف عرابى سيئة ، والقليلون ممن كانوا معه لم يكونوا على مستواه ، والخوف من حوله كانوا بلا عدد ، وصدمة مواجهة الخديو والاحتلال معه كانت أقوى من أن يتحملها الكثيرون ، ورغم ما انتهى إليه أمر عرابى فإنه يظل قائد أجيال التحرير التى سارت مع « مصطفى كامل » ومحمد فريد ثم « سعد زغلول » لأن نفوس المصريين خصبة طيبة مثل أرضها ، وطوال القرن التاسع عشر ، ومنذ حطم الفرنسيون الجدار العثماني كانت نار البوص تنلطي تحت الرماد . والمصريون الأصلاء ، المصريون أبناء الفلاحين الذين كرههم محمد على ورفض أول الأمر الاعتراف

عليهم حتى تدخل الكولوبيل « سيف » وهو سليمان باشا الفرنساوى — وأفهم محمد على أن الملاحين يمكن أن يكونوا أحسن الجود إذا هم تعلموا وتدريبوا ، وبدأ التجربة بنفسه وعمل معه فيها « إبراهيم » ابن محمد على وإبراهيم كان يقول انه ليس تركيا فقد أتى إلى مصر صبياً وفي مصر نشأ فهو عرقي ، والعرقي في ذلك العصر هو المصري والشامي والعراقي ، والحقيقة أن الأتراك كانوا يسمونهم جميعاً أولاد عرب ، وكان إبراهيم بعد أن قاد المصريين وانتصر بهم قد عرف قدرهم واعتز بهم وصار يقول : أنا لست تركيا فأنسى جئت مصر صبياً ، ومنذ ذلك الحين مصرتني فسمها وغيرت في دمي ، وجعلته دماً عربياً<sup>(١)</sup> وكان إبراهيم يدهش لموقف أبيه من المصريين والعرب عامة ، فرغم أن انتصارات المصريين على الأتراك كانت نصراً له فقد كان يؤلمه ويرى الناس ذلك في وجهه . و « إبراهيم » هو صاحب فكرة فصل البلاد العربية عن الدولة العثمانية وإنشاء دولة عربية ، وقد أعطى نفسه لقب « سر عسكر بلاد العرب » ولكن أباه رده عن هذه الفكرة ، ومن سوء الحظ أن ذلك اقتصر على « إبراهيم » ومات معه قبل موت محمد علي . وبقي محمد على الألباني المشترك المرتزق وكان ذلك من أضعف جوانبه ، لأن إنجلترا وروسيا ظلتا تعتبرانه واليا تركيا خارجا على الطاعة ، وفي معاهدة ( لندن ١٨٤١ ) اقتصر سلطانه على ولاية مصر داخل نظام الدولة العثمانية ، وقد أصابه من ذلك بلاء عظيم وورث حلقاؤه — عباس ومن بعده — ذلك فأصاب ذلك مصر بأسوأ الأضرار ، فقد ظل المصريون مبعدين عن إدارة بلادهم ، وظلت مصر ولاية عثمانية تنتظر تصفية الدولة العثمانية لتصبح في قسمة صاحب النصيب ، ولو كانت مصر مركز دولة عربية لما حدث لها ذلك أبداً ولا استمر الهوض على يد « إبراهيم » ولما مسها شيء من البلاء الذي أصابها كجزء من التركة التركية ، وربما كان وجه تاريخها قد تغير .

ولم يعرف محمد على قدر النعمة التي أنعم الله عليه بها عندما أراد له أن تقوم دولته في مصر إلا عندما ذهب إلى الشام .

فإن مصر والجزيرة العربية هما القطران الوحيدان في المنطقة المتوحدان عصرياً ، فإن المصريين ليست فيهم اختلافات عصرية كالتى تمزق بلاد الشام ، حتى أنباط

(١) د . د . لطيفة محمد سالم « الحكم المصري في الشام » ( ١٨٣١ - ١٨٤١ ) القاهرة ١٩٨٣ ص ١٨



مصر لا يكاد الإنسان يلاحظ أنهم يختلفون عن المسلمين في الطبيعة والتفكير ، فالكل مصريون ، وحاتم مصر لا يعانى من أقليات أو عصبريات ، وتلك نعمة من الله كبرى . ولكن سوء حفظه جكملة يسمى حينئذ ليضم الشام إلى مصر بحجة أن الشام درع لمصر أو أمان لها وهذا وهم باطل وغير صحيح جملة أو تفصيلا ، وبلاد الشام و دانتها ليست درعا لشيء ولا لبلاد الشام نفسها ، فهي حليط عجيب من مناطق مختلطة و الطبيعة والجغرافية والسكان ، فهناك و بلاد الشام كل نوع من أنواع التكوين الجغرافى من الصحراء الرملية أو الصحيرية القاحلة إلى الأرض السهلية البالحة الخصوبة و بين ذلك توجد البوادي الصالحة للمرعى والجبال من كل ارتفاع والوديان وانخفاض والسواحل وما إلى ذلك . وهذه الطبيعة أوجدت و بلاد الشام خليطا من السكان والأديان لا شبه له إلا في المهد التي هي شبه قارة ، قالت و ذلك د . لطيفة سالم : « وقد تباينت التقارير الرسمية في رصد السكان ولذا فقد كان توحى التوسط ( هو ) ما اتبع في هذه الدراسة ، فبلغ المسلمون ٩٩٧.٠٠٠ نسمة والبدو ( وهم مسلمون ) ٢٢.٠٠٠ والمقاولة ( وهم شيعة مسلمون ) واليزيديون ١٧.٠٠٠ ، والدروز ٤٨.٠٠٠ والكاثوليك والموارنة ٢٦.٠٠٠ والأرثوذكس ٣٥.٠٠٠ واليهود ١٧٥.٠٠٠<sup>(١)</sup> وبذلك يشكل الجميع ١,٨٦٤.٠٠٠ نسمة والمسلمون السنيون كادت مذهبهم تنحصر في الشافعى وأبى حنيفة وانضم تحت لواء الشيعة المقاولة والعلويون والاصماعيليون ، وأما الدرور فلهم من الأسرار ما يحفظونها في حدودهم وتجمعهم في إطار موحد ، ويحترهم البعض في عداد المسلمين بينما يرى الآخرون أنهم أنصاف مسلمين ، وهناك الصيريون وهم أصحاب عقيدة مختلطة تطعى عليها الوثنية ، وتمثلت الطوائف المسيحية في الكاثوليك والاثوذكس والموارنة ، فدخل تحت الأولى الروم والسرمان واليعاقبة والأرمن واللاتوى ، وجاهدت فرنسا في إسباغ حمايتها الدينية عليهم وصمت الثانية الروم والأرمن واليونانيين والأقباط والأحباش ، أما الثالثة ( العال ب أن المراد هنا الموارنة ) فاعتبرت أهم طائفة لدورها البارز في المنطقة ، وأيضاً ادخلتهم فرنسا في كنفها وكان لهم الموقف الواضح أثناء الحروب الصليبية . وأخيراً لم يكن لليهود القدر العدى المدعم

( ١ ) انظر أنه في تقدير اليهود هذه النسبة مبالغة واضحة .

وكان بين هذه الجماعات من العدوات ما يصل إلى الجذور ولا يمكن استتصاله ، وكانت الحروب وأعمال العداوة على قدم وساق بينها حتى كانت تقع بين الإخوة .

والحقيقة أنه ليس لمصر في بلاد الشام كلها ما يهيئها إلا بيت المقدس لوجود الحرم القدسي ومسجد الصخرة بها ، وهذه كان من الممكن أن يفرض عليها محمد على سلطانه ليجمع بين المساجد الإسلامية الكبرى ويؤيد مركزه في العالم العربي .

ولكن محمد على وقع في شرك الشام ، وكان فيه حثفه بالضبط كما وقع في نفس الشرك جمال عبد الناصر وكان فيه حثفه . وتركها زادت مخاوفها من محمد على وسعت في القضاء عليه واجتذبت إليها الدول بسبب الشام . ولواختص محمد على وادي النيل لما صعب عليه الاستقلال به ولما خافته الدولة وكان له — أقصد لمحمد على — تاريخ آخر .



والمهم عندما هما هو أن خيرة الحكم المصري في بلاد الشام كانت فترة الحرية التي جعلت لبلاد الشام مكانا في النهضة المصرية وهذه الحرية التي منحها إبراهيم لبلاد الشام كانت شيئا جديدا لم يجده أهل البلاد فأساءوا استخدامها . وكانوا قبل ذلك يعيشون في دوائر مغلقة : كل طائفة تدبر أمرها بالطريقة التي تريد ، والمهم ألا تسب متاعب للسلطان العثماني ، فكانت الحروب وصور التطلحن دائرة فيما بينها وكل منها تحاول أن تحافظ على كيائها وسط جيرانها ، سواء كانوا من أهل جيسها وملتها أم لم يكونوا ، والدولة العثمانية أعقلت مواثي الشام . فكان لا يدخلها من الأجانب إلا القليلون ، وهؤلاء القليلون كانوا إما تجارا يقتصر دخولهم على المواني ويقيمون في الفنادق فيها لا يمارحونها ، وإما حجاجا يعامرون بالحيء إلى بلاد الشام لزيارة الأراضي المسيحية المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرة وما إليها ثم يخرجون من البلاد ، وكان في الشام ناس متخصصون يحملون أدلة لأولئك الحجاج ونرى نماذج من هؤلاء الأدلة في الكتب التي كتبها بعض المغامرين من رحالة الأوروبيين من أمثال دابوت وكيمليك وبوركهارت السويسري الأصل .

وكان جبل لبنان — كما هو في طول تاريخه — منطقة اقضاع واسع يسيطر عليه الموارنة والكاثوليك منذ أيام الحروب الصليبية ، وكان ملجأ لم يرد التحلص من حكم الدولة الإسلامية قبل الدولة العثمانية وأثناء حكمها ، وقد حاول الأمير فخر الدين

المعنى أن يستقل به مستعمينا باليندية وقام بشيء يشبه ما قام به محمد بك أبو الذهب في مصر ، ولم يفلح في النهاية وفي أيام محمد علي كان هناك الأمير بشير ، وكان صنوا لفخر الدين الممالي في الخروج على الدولة ، ولكنه كان ذا ذهن متفتح يفكر في الإصلاح والانسلاخ عن الدولة وإنشاء دولة حديثة فأشبه محمد علي في ذلك ، ولكنه لم يفلح نظرا لطبيعة البلاد ، فظل « مقاطعجي » كما كان يقال ، وقد أراد محمد علي التعاون معه ، ولكنه لم يكن خالص النية فلم ينجح التعاون ثم إن إمكاناته المادية كانت قليلة ، وكانت قوته الحقيقية في أيدي أتباعه ، ولهذا لم يستطع في النهاية شيئا .

ثم جاء الحكم المصري واستقر « إبراهيم باشا » في دمشق ومعه قوة عسكرية منظمة تقوم على جود مصريين مدربين وأسلحة حديثة ونظام محكم رسمه مع « إبراهيم باشا » الكولونيل « سيف » ففضى في وقت قصير على البلد الذي كانوا آفة الأمن والنظام في البلاد وألغيت الإقطاعيات وقام في المدن والمواضع حكام نظاميون من رجال الدولة المصرية وأقر « إبراهيم » النظام في النواحي ووضع نظاما ماليا قائما على صرائب منتظمة كما كان الحال في مصر ، وكانت هذه الضرائب من أكبر أسباب المتاعب .

وكان محمد علي قد أقام سلطانه في الشام على رغم الدولة العثمانية التي كانت قد عوضته عن جهوده في جزيرة العرب واليونان بقطاعه ولاية « كريد » وعندما احتج محمد علي أعطته « غزة » وصيدا فحسب دون لبنان أو دواخل البلاد فخار محمد علي على الأمر وفرض سلطانه على الشام كله ودخلته جيوشه وأخرجت ولاية آل عثمان وحصنت الشام عند جبال « طوروس » واستعانت الدولة العثمانية بمحاربتها وبخاصة الإنجليز وترىث هؤلاء وفكروا في التوسط وإن كانوا قد كرهوا امتداد دولته كراهة شديدة ، فهي تريد أن تظل الدولة العثمانية على حالها السيء حتى تموت في مكانها ثم تأخذ من تركها أقصى ما تستطيع ، وهذه الدولة المصرية العربية الجديدة تفسد عليها كل سياستها .

ولكن محمد علي كان يأمل أن يكسب إنجلترا إلى جانبه ، وكانت فرنسا تؤيده ، لا حبا فيه ، وإنما كراهة في بريطانيا ولهذا فقد أعلن « إبراهيم » حرية واسعة في بلاد الشام وقصع أبوابها للأجانب فتدافع القاصد إلى دواخل البلاد ، وأرادت إنجلترا

أن تدل بسلطانها فجعلت قنصلها يدخل دمشق في مكتب حافل ، وكانت تلك أول مرة يدخل دمشق قنصل أجنبي مسيحي ، وأرسلت أمريكا قنصلها ، وكان دافعها الأساسي ديبا ، فقد دخلت لتعاون المسيحيين ، وبلغ من وقاحة وكيل القنصل الأمريكي في القدس أنه أراد أن يرفع العلم الأمريكي ، فانكر الناس عليه هذا فلم يكثرث فقام عليه الناس وطردوه من البلد وأيدتهم الحكومة في ذلك ترضية للأهالي وبمشت أمريكا بإرساليات ذهبية أنشأت مدرسة في جبل لبنان ، وفي هذه المدرسة عمل « البستاني » و « اليازجي » مع الأمريكيين والإنجليز في دراسة اللغة العربية ، وكان البستاني « واليارجي » رجلين ممتازين عملا في جد مع الأمريكيين والإنجليز . وترجما مؤلفات غربية كثيرة فكانت نتيجة ذلك ما عرف بالهضة الفكرية العربية الحديثة التي ينسبها الغربيون إلى هذا الذي ظهر في لبنان ، وهو كما ترى نتيجة للعمل المصري ، وثمرة من ثمرات الهضة المصرية ، ولم يعترف رؤساء الشام بمعمل مصر فثاروا ووقفوا إلى جانب أعداء « إبراهيم » لتعود الحال إلى ما كانت عليه .

وبالفعل اضطر محمد علي إلى سحب قواته من الشام والاكتماء بمصر وراثية في آل بيته بمعاهدة ( لندن ١٨٤٠ ) كما قلنا سلفا .

\* \* \*

وهذه المعاهدة الأمريكية اعقبتها معاهدة فرنسية في بلاد الشام ، وخرجت من حمة العصور الوسطى وضياح الدولة العثمانية . حقا أن بلاد الشام عادت إلى الدولة العثمانية بعد خروج المصريين ولكن الباب انفتح ورياح التغيير هبت قالت د . لطيفة سالم : « ومع سياسة الانفتاح توافد الأجانب على البلاد ، ويذكر « بورنج » أنه لم يعد هناك أقل خطر على الأوروبيين الذين راحوا يتجولون في دمشق بمفردهم وبملايسهم الخاصة بهم ويذهبون إلى أي مكان يريدونه متمتعين بالأمن التام دون أن تتجه إليهم الأنظار . وعلى هذا رادت الثقة وساد الاطمئنان وانفتح المجال أمام السياحة ، وخرجت التوصيات من محمد علي إلى المسلمين بشأن الرحالة الأجانب وقد تحسنت أحوال الناس في بلاد الشام وانتعشت التجارة وانفتحت الأسواق وتحسنت الأحوال نتيجة للسياسة المصرية المعتدلة ولم يكن مضايق الناس إلا الضرائب التي مرصها النظام المصري ، ولم يكن منها بد ، ومع أن الناس كانوا يدفعون قبل ذلك أصعاف الضرائب المصرية فإن كبار الناس وزعماء الطوائف والجماعات كانوا

لا يدفعون بل يأخذون ، أما في ظل النظام المصري فكان عليهم أن يدفعوا مثل غيرهم ، ومن هنا فقد كانوا يفضلون العودة إلى الدولة العثمانية ، لأن جماهير الناس في بلاد الشام كانت لا وزن لها في ذلك العصر ، إنما الأهمية كلها كانت لرعاة الطوائف والجماعات ، ومع أن الولاة السابقين من أمثال « أحمد باشا الجزار » تمتعوا بمزايا كثيرة أثناء الحكم المصري فإنهم فقدوا سلطانهم السياسي . وهذا لم يكن يرضيهم والأمر « بشمر » زعيم الدروز القوي انضم إلى المصريين وكسب منهم كثيرا ولكنه ظل في الباطل يفضل العودة إلى النظام العثماني .

وقد نجح محمد علي في الاتفاق مع الدولة العثمانية على حكم الشام لقاء حزمة قدرها ( ٣٢٠٠٠ كيس ) ولكن الدولة لم تكف عن التآمر عليه والعمل مع بريطانيا ضده . وكانت روسيا قد أعلنت — عندما توالى انتصارات المصريين على الأتراك — حمايتها على الدولة العثمانية ، وهذا كان يجحف بريطانيا ويدفعها إلى العمل بكل قواها لاجراح محمد علي من الشام ، وأبدتها الدولة العثمانية وكل أنصار النظام القديم ، وقد حصلت بريطانيا من الدول الأوروبية — عدا فرنسا — على موافقة على التدخل العسكري في بلاد الشام ، وحرضت تركيا أنصارها في الشام فقامت الثورة على المصريين في كل مكان ، وبرز الحوود البريطانيون أرض الشام وكان يقود قواتها صابط صغير يسمى نايبير وكان « إبراهيم » يستطيع الانتصار عليه بكل سهولة ولكن محمد علي ارتعب وحانته شجاعته ، فقرر الاسحاب بمقتضى ( معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ) وانتهت المعامرة المصرية في بلاد الشام ، وعادت إلى الدولة العثمانية .

والعودة إلى الدولة العثمانية كانت تعنى إذ ذاك أمرين أساسيين :

**الأول :** هو العودة إلى المطام القديمة والركود الحضارى ونظام العشائر والمقاطعية في بلاد مثل الشام والعراق ، بل في مصر أيضا التي لم تسلم رغم استقلالها الشكلي تحت نظام الخديوية فقد عادت ابتداء من أيام عباس الأول إلى كل مساوئ الحكم العثماني ، أما الأمر الثاني : فهو العودة إلى نظام الامتيازات الأجنبية . وهذه الامتيازات كانت في أصلها اتفاقا تم بين السلطان « سليمان القانوني » وملك فرنسا ( فرانسوا الأول ) ( سنة ١٥٣٥ ) على أن يكون لفرنسا حق رعاية المصالح الدينية لكاثوليك في أراضي الدولة ، والاتفاق في مشته لم يكن سيئا جدا إذا هو اقتصر على معاونات تقدمها فرنسا للمنشآت الدينية الكاثوليكية ، ولكنه

تطور مع الزمن ونتيجة لضعف الدولة العثمانية وقصر نظر رجالها وسوء نية فرنسا ، فأصبح امتيازاً قضائياً ، بمعنى أن الكاثوليك لا يخضعون للشرعية الإسلامية بل لقوانين بلادهم ، ونحولت القضايات إلى محاكم وصار الأجنيى بمقترف الجنابة وتعجز السلطات المحلية عن مقاومته لأن ذلك كان يهدد قنصل دولته ، وهنا نجد أن روسيا تطالب بنفس الامتياز للرعايا الأرثوذكس ، ثم طالبت انجلترا بنفس الحق وأصررت على أن تتولى شئون البروتستانت ، ولم تستطع الدولة العثمانية إلا الخضوع ، وامتد هذا الامتياز وتشعب حتى إذا وصلنا إلى النصف الثاني من القرن الثاني عشر وجدا الأوروبيين في البلاد الإسلامية ( الخاضعة للدولة العثمانية ) يتميزون على أهل البلاد بميزات دينية وقضائية واقتصادية وسياسية . وهذه الامتيازات أصبحت كارثة كبرى على تلك البلاد ، وهي نتيجة لخضوعها للسلطان العثماني وقد كانت لذلك آثار سياسية واجتماعية سيئة جدا ، وكانت — في مصر مثلا — كارثة حقيقية كان على المصريين أن يتخلصوا منها ، ومع أن أى خديو لمصر كان يستطيع أن يعلن أنه غير مقيد بهذه الامتيازات ويمليها في مصر دون أن تفترض الدول على ذلك اعتراضا جديا لأنه غير قانونى أو منطقي ، فإن الخديوية المصرية لم تفعل ذلك لأنها كانت في الحقيقة جرها من التركيبة العامة العثمانية ، وكان لا بد أن تتعير الدولة العثمانية كلها لكي تتعير هذه المساوىء كلها وما أدت إليه من احتلال سياسى وتأخر واستغلال .

\* \* \*

وما دامت السلطنة العثمانية قد تعرفت إلى هذه الصورة ، والخلافة العثمانية كانت قد ألغيت على يد الكماليين ( سنة ١٩٢٥ ) وأخرج السلطان « عبد المجيد » آخر الخلفاء من استامبول ليحش بقية حياته منفيا في باريس ، فقد آن الأوان لتصفية تركتها على النحو الذى كانت بريطانيا تمكر فيه طوال القرن التاسع عشر ثم دخلت فرنسا معها في تلك القسمة بعد أن تحالفتا معا في حرب ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى ( ١٩١٤ — ١٩١٨ ) ، وهذه التركة تلتخص في العراق وبلاد الشام والجزائر ، أما مصر فقد كانت بريطانيا قد احتلتها فعلا في ( سبتمبر ١٨٨٢ ) مع الاعتراف ببقائها ظاهريا ولاية عثمانية وقامت مصر بكفاحها الطويل للاستقلال الذى قاده رعماء أبطال نجحوا بالفعل في إيقاف حركة قومية متعيرة ظهرت في صورتها الرائعة في ثورة ( سنة ١٩١٩ ) التى سنحكيها في فقرة خاصة .

وأما الحجاج فقد كان الشريف « الحسين بن علي » قد فكر في القيام بحركة سياسية اثبتت الأهم أنها كانت من أصر الحركات بالقضية العربية بصورة عامة ، فكر في أن ينضم إلى بريطانيا والحلفاء وينقلب على الدولة العثمانية يعلن عليها الحرب ، وتلك هي الحركة التي عرفت في أهلها بالثورة العربية الكبرى ، ولم تكن ثورة ولا عربية ولا كبرى ، لأن ذلك الرجل لم تكن لديه أدنى فكرة عن حقيقة نفسه أو عن طبيعة الدول التي أراد محالفتها ، فقد كان في حقيقته واليا من أصغر ولاة الدولة العثمانية سياسيا وعسكريا ، ولكن وجود الحرمين الشريفين الإسلاميين في بلاده يحيل له أن ذلك يؤهله لكي يكون خليفة المسلمين ، وعندما بدأ يتفاهم مع بريطانيا على القيام بثورة على الأتراك كانت تلك هي الناحية التي أهتمت بريطانيا في الموضوع كله ، لأن قيام والي الحرمين بالثورة على العثمانيين وادعاء الخلافة من دونهم والانضمام إلى الحلفاء في حركهم كان كفيلا بإضعاف مركز الأتراك في بلاد الإسلام ، وكان الأتراك أيامها يحكمون الشام ولهم قوة عسكرية فيه تحاول مهاجمة بريطانيا في مصر .

ثم إن مركز الحلفاء العسكري كان سيئا جدا حوالي ( ١٩١٧ ) فألمانيا تنزل المهرام المتوالي بالروس على الجبهة الشرقية وتحارب حرب حنادق مريرة ومتصصة — إلى حد ما — على الجبهة الغربية ، فمثل هذه الحركة العربية كانت جذيرة بأن ترفع القوى المنعوبة للإنجليز لأنها تحتر صربية قاصصة لتركيا حليفة ألمانيا ونصرا كبيرا للإنجليز ، ومع علمها بأن الشريف حسين ليس له إلا وزن ضئيل جدا من الساحتين : العسكرية والسياسية ، فقد أقدمت على التفاوض معه وإعطائه وعدا بإنشاء دولة عربية كبرى تشمل : الشام وجزيرة العرب ، وكانت تعلم أن شيئا من هذا لن يتم إذا ما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، بل إن بريطانيا كانت تتفاوض في نفس الوقت — بصورة جديدة — مع الصهيونية العالمية على إنشاء وطن قومي لليهود في أرض فلسطين لقاء عون مالي كبير قدمه اليهود ، ونظرا لما كانت بريطانيا تعرف من سلطان اليهود في الولايات المتحدة ، فقد فكر اللورد « بالفور » الذي أعطى اليهود هذا الوعد في أن ذلك الوعد سيجعل يهود الولايات المتحدة يذلون أقصى ما في وسعهم في إقناع أمريكا بدخول الحرب إلى جانب الحلفاء ، فإذا حدث ذلك ضمن الحلفاء النصر على الألمان الذين كانوا قد أنهكتهم الحرب وباتوا في حالة يرثى لها من الضعف أواخر ( ١٩١٧ ) .

وقد تلخصت الثورة العربية « الكبرى » في قيام نحو ألف جندي من جود الشريف بمهاجمة حركة الوالي التركي في جدة وإعلان الشريف « حسين » الحرب على الدولة العثمانية ، وكانت الدولة إذ ذاك في موقف سيء جدا مع الوطنيين في بلاد الشام الذين انتصروا يقاتلون جمال باشا الوالي العثماني ، وقد تمسك لهذه الثورة العربية نفر من أهل سوريا وفلسطين واجتمع بعضهم في دمشق وأعلنوا الخلافة العربية وكان من بين هؤلاء « رشيد رضا » تلميذ الإمام « محمد عبده » وذهب في طور بالغ إلى دمشق لكي يشترك في مبايعة الأمير فيصل بن الحسين ملكا على بلاد الشام . أما الأتراك فقد تقدمت قوة منهم وحاولت عبور قناة السويس ودخلت مصر فانهزمت ، ومن الغريب أن الذين هزموها كانوا بعض فرق الجيش المصري الذي أبقى عليه الإنجليز في حدود ( ١٧٠٠٠ رجل ) ، هذا ولم تدخل مصر الحرب إلى جانب بريطانيا لأن هذا كان رأى السير اللورد جورجست الذى تولى أمر مصر بعد كرومر ، وقد رأى ذلك — وأيده فيه مصطفى فهمى باشا رئيس وزراء مصر أيام الحماية — حتى يحرم مصر من ثمرة أى نصر للحلفاء ومع هذا فما هم المصريون يكسبون نصرا على الأتراك لحساب بريطانيا وتظل بلادهم رغم ذلك محمية بريطانية .

وتقدمت قوة بريطانية أتت من مصر والعراق في بلاد الشام شمالا يقودها اللورد اللبى وانتصرت على الأتراك في موقعة « مجلو » ودخل اللورد اللبى دمشق وبدد أحلام فيصل بن الحسين والقدس وأعلن أنه انتقم لمصر « صلاح الدين » على الصليبيين وانترعه القدس مهم سنة ( ١١٨٧ — ١١٨٨ ) .

وبعد انتصار الحلفاء في الحرب تبين أن لجنرا وفرنسا كانا قد تقاسمتا العراق وبلاد الشام في ( معاهدة ) وضمتها بريطانيا يسمى سايكس وفرنسى يسمى بيكو ( معاهدة سايكس — بيكو ) ومقتضاها توضع العراق تحت الانتداب الإنجليزي وتقسم بلاد الشام إلى أربع وحدات سياسية : سوريا ولبنان وتكونان من نصيب فرنسا وفلسطين والأردن وتكونان لبريطانيا ، وبريطانيا بعد الحرب فتحت أبواب فلسطين لليهود وأقيم السير هربرت صمويل — وهو يهودى اختاره وايزمان — المندوب السامى لإنجلترا في فلسطين لتنفيذ السياسة الصهيونية .

وأما سوريا فقد حكمتها فرنسا حكما عسكريا متعسفا منذ بداية الانتداب ( سنة ١٩٢٠ ) فقامت الثورة السورية الكبرى التى قادها « سلطان باشا الأطرش » في



جبل الدروز فيما بين سنتي ( ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ) وقد أخذها الفرنسيون بأعنف الأساليب العسكرية ، ولكن التدمير ضد الفرنسيين استمر فلدجأت فرنسا إلى المهادنة وأعلنت سنة ( ١٩٣٠ ) أنها مستعدة لإقامة نظام نيابي تحت السيطرة الفرنسية في البلاد ، ووضع دستور شكلي ، وقام في البلاد برلمان ولكن الثورة عادت فقامت في صورة شاملة سنة ( ١٩٣٦ ) ولجأ الفرنسيون إلى أشد وسائل العنف وضربوا دمشق بالمدافع دون جدوى واضطرت فرنسا إلى تغيير سياستها وعقد معاهدة مع السوريين في أواخر ( ١٩٣٦ ) بعد مفاوضات قام بها « هاشم الاتاسي » وقد ظلت الأحوال في سوريا قلقة حتى قامت الحرب العالمية الثانية وانهرت فرنسا فتمكنت سوريا من الحصول على استقلالها في ( ٢١ سبتمبر ١٩٤١ ) وعادت فرنسا إلى استعمال أقصى أساليب العنف مع السوريين مما اضطر إنجلترا إلى التدخل ، وفي سنة ( ١٩٤٦ ) حصلت سوريا على استقلالها التام .

ومر لبنان أيضا بتجارب قاسية مع الفرنسيين أثناء الاحتلال الفرنسي حتى حصل على استقلاله التام سنة ( ١٩٤٦ ) ولكن فرنسا كانت وضعت في لبنان ذلك النظام الأعرج الذي يعتبر سبب البلاء كله في ذلك القطر الشيط وهو اشتراط أن يكون رئيس جمهورية لبنان مارونيا كاثوليكيا أي من أقل طوائف سكان البلاد وبإيه رئيس الوزارة ويكون مسلما سنيا وهكذا تقتسم السلطات بحسب مصالح فئات دينية وعرقية ، وفي أسهل السلم وضع الشيعة اللبنانيون وهم من أكثر سكان لبنان عدداً وأشدهم فقراً ، وثبتت صورة هذا النظام الطائفي العشائري ولكل طائفة قواتها العسكرية المسلحة ، ففي الستينيات من هذا القرن ، وهو العصر الذهبي للبنان الحديث كانت البلاد تتمتع برخاء عظيم جداً نظرا لنشاط اللبنانيين وقدرتهم على إدارة الأعمال والأموال وتدفقت أموال العرب وكثرت الأموال في أيدي طوائف معينة من أهل لبنان معظمها من الموارنة الكاثوليك والروم الأرثوذكس . والأخنها صاروا أغنيى والفقراء صاروا أفقر ، ولم يفكر أحد في إصلاح النظام الخطر الذي وضعه الفرنسيون للبلاد . وامتلك بعض طوائف الموارنة قرى كاملة وما حولها من الأرض وأنشأوا فيها صناعات تقوم على عمل قليل ولكنها حسنة المنظر متقنة النبتة لأن معظمها كانت فروع صناعات أوروبية واسعة التوزيع يشترون أذنون صنعها ويصدرونها بمقادير ومكاسب هائلة إلى البلاد العربية .

وهذا الرخاء زاد في توسيع الشقة بين طوائف لبنان و زاد عمق الأحقاد الطائفية ، وفي الستينيات أنشأ « بيمر الجميل » فرق الكتائب العسكرية اللبنانية ، وجانب كبير جداً من الأموال التي انشئت بها هذه الكتائب وجرائدها ومطابعها أتى من مصر ، لأن جمال عبد الناصر في تطلعه إلى سيادة سوريا ولبنان صار يفرغ من مال مصر و يلقى به هناك خصوصاً بعد أن كسر السوريون وحدة مصر وسوريا التي أنشأها عبد الناصر إنشاءً هو أو هي حتى من نسيج المنكبات .

وسوريا بعد الانفصال عن مصر سادتها طائفة عسكرية من النصوريين العلويين وهم ليسوا مسلمين ، بل إنهم اضطهدوا المسلمين في حلب وحماة وأوقعوا بهم المذابح وأقاموا نظاماً عسكرياً يعتمد على سند عسكري من روسيا وسد مالى من بعض البلاد العربية وصارت مع الزمن شوكة في جنب الوحدة العربية وانضمت إلى طائفة نستطيع ان نسميها بطائفة المشاغبين العرب تحالف إيران على العراق وتؤيده ليبيا التي تحولت إلى إقطاعية عسكرية يحكمها العقيد معمر القذافي الذي جعل يتصرف في ثروة البترول والغاز التي أنعم الله بها على ليبيا وأخرجها به من عالم الفقر إلى عالم العنى والسعادة ، ولكن القذافي رد الليبيين إلى الصيق والحاجة تحت ستار ما سماه بالاشتراكية الديمقراطية . وعندما تقسم عائدات البترول والغاز الليبيين على عدد السكان نجد أن الفرد الليبي يخرج بأعلى دخل في العالم فهو قرابة ( تسعة آلاف دولار ) في السنة ، ولكن الليبي لا يجد بين يديه من هذا الدخل إلا القليل ، ثم انه لا يجد ما يشتريه لأن الحكومة تسيطر على الأسواق والعقول والأموال وكل شيء . وربما كان السوريون في ظل الاستبداد النصوري أحسن حالا من الليبيين لأن السوري ذكى متعلم صاحب تجربة ، وقد ترك السياسة للمستبدين وانصرف إلى حياته وصنمته وزرعه وحسباً فعل : ولماذا التعرض للمذابح كل يوم وهذا النظام كله لا بد أن ينهار من أساسه لأنه غير طبيعي أو معقول ولا يخدم مصالح سوريا ؟ ، وكل نظام من هذا النوع لا بد أن ينهار ، والأوطان لا بد أن تعود إلى أهلها وأصحابها الشرعيين .

ومصر بعد ثورة ( ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ) واستقلالها نهائياً عن الإنجليز خاضت تجارب شتى في ظل العسكرية الباصرية ، ووصل بها الأمر إلى حضيض المفزعة الساحقة في ( يونيو ١٩٦٧ ) وضاعت معها سيادة وتعطلت قناة السويس ، ثم أفلقت إلى نفسها وأعدت جيشها وانتصرت على إسرائيل في ( أكتوبر ١٩٧٣ ) ثم عقدت

معاهدة صلح مع إسرائيل ( سنة ١٩٧٧ ) واستردت سيناء وأعادت افتتاح القناة . وكان الرئيس « السادات » قد فتح باب الديمقراطية والانفتاح الاقتصادى فأكمل ذلك كله خليفته الرئيس « محمد حسنى مبارك » ، ومصر كلها تعمل اليوم لبناء نفسها من جديد بلا هروب ولا انقلابات أو استجداعات لا تؤدى فى الغالب إلا إلى خراب البيوت والبلاد ، وقد تركت وراءها « دوشة » الجامعة العربية ، وهى طاووس بلا ذيل ولكنها لم تترك العرب وبعد أن نقرأ الفقرة التالية عن نهضة بلاد العرب فى ظل الدولة السعودية وبقيّة بلاد الخليج سنجد أن طريق مصر السياسى الصحيح هو طريق السعودية والتركيز على البحر الأحمر الذى هو بحر العرب حقا ، وعلى ضفة هذا البحر أيضاً يقوم السودان وهو شريك مصر فى وادى النيل ، وطريقهما واحد دون وحدة سياسية ، وثالث ( السعودية — مصر — السودان ) سيتحول إلى رابوع بعد استقلال آرتيريا وهو أمر حتمى وهذه الوحدة ( القلبية ) الرباعية والمقلية تستطيع أن تقدم أجل الخدمات لنفسها وليقية العرب إن شاء الله .

وفى ( سنة ١٩٧٧ ) اندلعت الحرب الأهلية فى لبنان ، وهى حرب أهلية طائفية أثارها فى لبنان نفس الدين أقاموا بنيان الوامى بعد الاستقلال ( الشكل ) عن فرنسا سواء كانوا من داخل البلد أو خارجه . وأسباب الحرب الأهلية هى التناقضات التى كانت فى بقاء البلد كله ، وبحسب الناس أن مسائل القناصة وحطف الناس والسوق السوداء والميليشيات أشياء جديدة والحقيقة أنها كلها قديمة ، وبعد اشياء « بيبير الجميل » لكتابه المارونية نشأت كتائب الطوائف الأخرى من دروز وشيعة ، ومدت إيران يدها بعد ثورتها فأقامت كتائب الشيعة فى جنوب لبنان ، وقد اشتد عودها ونشأت إلى جانبها جماعات محاربة أخرى أكثر تطرفا مثل ( حزب الله ) ، وجعلت الطوائف تتحارب فيما بينها حتى تخربت بيروت وطرابلس وصور وصيدا ، ودخلت سوريا ثم إسرائيل الميدان ومضت النار ترعى فى الحطب حتى سقطت الليرة اللبنانية وبدأت الصحف الطائفية تتصفى .

وستستمر هذه الحرب الأهلية حتى تتصفى كل عناصر البناء القديم ويمكن إقامة لبنان جديد على أسس قومية مقبولة من أهل البلاد فليس بدعا أن تكون فى البلد طوائف ، ولكن البدع أن تستبد أقلية من السكان بالأكثرية وأن يكون واحد على عشرة من السكان غنيا إلى درجة التخمة والأعشار التسعة الباقية تتقاسم بينها الفقر والمذلة .

ولكن أعظم الحوادث في تاريخ النهضة العربية بعد اليقظة في مصر وتصدع الحواجز بين مصر والشام والغرب من ناحية أخرى هو قيام الدولة السعودية في جزيرة العرب ذلك أن العرب الذين أنشأوا مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس أوطانهم العربية الإسلامية شغلهم تصارييف التاريخ عن أن ينشعوا لأنفسهم ووطنا في جزيرتهم . كان القرآن والإسلام ورسوله قد بهروا عقولهم وأبغظوا بهائرهم فاندفعوا خارج الجزيرة يفتحون وينشرون الإسلام والعروبة . وفي النهاية لم يبق لهم في جزيرتهم إلا نزر يسير من القوة . وكان انتقال قاعدة الخلافة إلى دمشق ثم بغداد قد ألحق بجزيرة العرب ضررا بليغا ، فإن خلفاء بني أمية أساءوا استعمار العرب ولم يحسنوا معاملتهم ، أما العباسيون وهم عرب هاشميون صليبة فقد أداروا ظهورهم للعرب ثم أسقطوهم من الحساب جملة وباستثناء الحجاز وهو موطن الحرمين الشريفين ومقصد الحجاج وسقط على بقية الجزيرة ستار وساد الظلام ولم يمد أحد يعرف على وجه التحقيق ماذا يجري هناك فيما عدا أخبارا كثيرة مبهمة ومتضاربة كانت تصل إلى الخارج عن اليمن ، لأن العجميين عرب نشيطون جدا ، وأكثر من نصف البناء الحضارى الذى أقامه العرب حارح الجزيرة قام به أهل اليمن ، ثم إن اليمنى يحب وطنه ويتلمس أخباره مهما كان موضعه ، والعللة الكبرى التى ضيعت الكثير من جهود اليمن هى أن كل يمنى يريد اليمن كله لنفسه وحده ، فكفر التنافس والتناحر وأصبح تاريخ اليمن طويلا جدا وقصيرا جدا في آن معا .

وهما عدا حركة القرامطة — وهى حركة قبلية سياسية أرادت أن تنشئ دولة شيعية مركزها البحرين والأحساء . ولكن شركاؤها في التدبير الأول وهم الفاطميون سبقوا القرامطة وأنشأوا لأنفسهم خلافة في أفريقيا أولا ثم انتقلت إلى مصر ( سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م ) تصلوا للقرامطة فمضى هؤلاء يخطون حيط عشواء ، فهم يغزون جنوب العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز ، وفي إحدى ضرباتهم للحجاز اعتصبوا « الحجر الأسود » وأخذوه إلى البحرين ، وظل عندهم حتى استرده منهم الخليفة الفاطمى العزيز ، ثم تلاشت الأحلام القرمطية وعصفت بها رياح التاريخ وعاد الظلام . وبعد ذلك هاجر بنو هلال ابن صعصعة بن عامر وبنو سليم بن منصور إلى مصر ثم إلى المغرب حيث عبروا وجه تاريخه ، أما من بقى منهم في الجزيرة فقد اندرجوا في طي السيان ، وكانت هجرة بنى هلال وبنى سليم في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

ظهر محمد بن عبد الوهاب ونشر دعوته ومضى يدعو إلى التوحيد ويحرم على الناس الإيمان بأدعياء الولاية ، وقام مع أنصاره بهدم القبور لأن الناس كانوا يحتفدون أن الموتي يتوسلون لهم عند الله وتطلع الأشجار التي كان الناس يقدسونها ويعلقون عليها أقمشة وأشياء يؤمنون بها ، وجعل يعلم الناس الوضوء والصلاة والقرآن والفقه على مذهب « ابن حنبل » فقلق عثمان بن معمر ، ثم جاءه أمر من أمير الاحساء بإخراج « محمد بن عبد الوهاب » من بلده لأنه كما زعم رجل خطر ودعوته حطرة على سلطات الأمراء ، وأظهر عثمان بن معمر الرغبة في أن يعادر محمد عبد الوهاب بلده إذا أصر على مواصلة نشاطه في الدعوة . فاضطر الرجل إلى ترك العيبة والمهجرة إلى « الدرعية » مقر إمارة آل سعود فقد كان له هناك أنصار ومؤيدون كثيرون ، ونزل هناك على أحد تلاميذه ومجيبه وكان ذلك سنة ١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨ م وكان ذلك فاتحة النصر لدعوته الإسلامية السلفية والله سبحانه وتعالى يصرف الأمور على ما فيه خير الناس .

ذلك أن الأمير « محمد بن سعود » أمير « الدرعية » التقى والشيخ « محمد بن عبد الوهاب » في بيت تلميذه وأحد يسأل عن الدعوة ومحتواها وأهدافها وعن آراء محمد بن عبد الوهاب وما يرمى إليه ، فلما سمع كلام الشيخ وما يدعو إليه من إصلاح أمر الناس وتطهير العقيدة الإسلامية من الخرافات والأوهام لتعود عقيدة التوحيد نقية صافية من كل البدع وأعمال الكفر التي ألصقتها بها أهل الجهل والعدوان وقال له إنه يدعو إلى ما أمر الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأدرك الأمير « محمد بن سعود » أهمية هذه الدعوة وسير أغوارها وأدرك ما تؤدي إليه من خير عظيم للإسلام وأهله ، فوعد « محمد بن عبد الوهاب » بالنصر والمؤازرة والعمل على نشر هذه الدعوة الكريمة بكل سبيل ، ووعد « محمد بن عبد الوهاب » بمصر من الله وعرة وتمكين ، وتم الاتفاق بين الرجلين على ذلك وكان هذا الاتفاق فاتحة خير للرجلين ، وكان بشري بخير عظيم لجزيرة العرب وأهلها ونصر من الله عظيم للإسلام وأهله .

ذلك أن بيعة الأمير « محمد بن سعود » للشيخ « محمد بن عبد الوهاب » كانت بيعة صادقة قامت على نية طيبة واستعداد للعمل عظيم ، ولهذا فقد طلب « محمد ابن سعود » إلى الشيخ أن يستقر في « الدرعية » ويتخذها مركزا لدعوته وأعلن

استعداده للجهاد في سبيل الدعوة لنصر دين الله ورسوله وإقامة شريعة الإسلام الخفيف كما هي في القرآن الكريم ومنه رسوله الصادق الأمين .

### بدء الجهاد وإظهار « الدرعية » في ظل الدعوة :

وأقبل « محمد بن عبد الوهاب » والأمير « محمد بن سعود » على العمل بششاط بالغ ، فأما « محمد بن عبد الوهاب » فقد جعل يته في « الدرعية » مركز تعليم ومحاضرة ، فقد كان الرجل عالما واسع العلم متفهما في الدين متمكنا من أصوله وشريعته ، وكان فصيح اللسان بليغ العبارة ، فأقبل عليه التلاميذ من كل صوب حتى أصبح البيت حقا وكأنه كلية ومركز دعوة إسلامية ، وأقبل رجال « ابن سعود » وأمراء بيته على الدراسة على يدى ذلك الرجل الذى كان يتحدث في كل شيء بما في ذلك السياسة وأحوال المجتمع ، وتحولت الأسرة كلها برئاسة الأمير « محمد بن سعود » إلى قوة سياسية وعسكرية وإدارية من وراء الدعوة السنية . وشيئا فشيئا تحولت « الدرعية » إلى قوة علمية وسياسية كبرى وبدت فيها مظاهر نهضة عظيمة للإسلام وأهله .

وتلك هي الحقيقة التى خفيت على أهل العصر بل لا تزال تخفى على كثير من المؤرخين فهم يتحدثون عن النهضة العربية في مصر والشام ويقصرون كلامهم على ذلك ويمصون يتبعون الحوادث في الدولة العثمانية ومصر ، وهذا جانب من النهضة العربية في العصر الحديث ، ولكن الدعوة السلفية التى قادها الأمير « محمد بن سعود » والإمام « محمد بن عبد الوهاب » كانت جانبا آخر لا يقل أهمية فقد كانت نهضة إسلامية حقيقية ، وفي تاريخ الإسلام والمسلمين نجد أن حركات النهوض والإصلاح والقوة العلمية والحضارية والسياسية ترتبط دائما بالإسلام وتنبع منه ، لأن الإسلام هو سر القوة الحقيقية في بلاد الإسلام وبفضله يكون النهوض ومنه تنتج حركات التجمع واستعادة القوة والنهوض من الصعف ( لقد بلغ من غفلة أهل العصر عن أهمية هذه الدعوة وما يمكن أن تؤدي إليه من الخير أن الدولة العثمانية عادت دون أن تعرف حقيقتها ، وسرى بعد قليل أن الصراع سيقوم بين الحانين ، لأن الدولة العثمانية كانت صاحبة الخلافة ومركز الإسلام التقليدى الحكومى وأقطابه هم : المفتى والقضاة والشيوخ الذين يقوم كل علمهم على الحفظ والاستظهار

والتسليم دون فهم كثير أحيانا ، ويدخل في نطاق هذا الإسلام الرسمي التقليدي مراكز العلم في استانبول وبلاد الشام والعراق ومصر ولم يكن كل أهل العلم في هذه البلاد على المستوى الذي ذكرناه من الركود والاستسلام ، بل كان هناك علماء أجلاء ، والأحرر ظل حامل لواء العلم الإسلامي في عالم الإسلام ولكن المتفحجين من علمائه كانوا قليلين ، وهؤلاء القليلون لم يكن لهم حول ولا طول ، لأن الحول والطول في عصور الركود يكون لأهل الثقافة وأصحاب الوظائف والمتقربين من السلطان وأهله . وهؤلاء — بطبيعة تكوينهم الاجتماعي — الأخلاقي — وفقوا من الدعوة السلفية التي نادى بها « محمد عبد الوهاب » وقادها « محمد بن سعود » موقف العداء دون أن يعرفوها ودون أن يقرأوا شيئا مما كان الشيخ يكتبه ويبحث بنسخه منه إلى أهل العلم في عالم الإسلام ، وكتب الشيخ ومؤلفاته تنقسم إلى كتب أصول ، أي أصول الإسلام كما هي في الكتاب والسنة ، وكتب فروع وهي كتب فقه على مذهب الإمام « أحمد بن حنبل » والإمام « ابن تيمية » بل إن الدولة العثمانية — في صراعها السياسي مع الدعوة السلفية وصفتها أنها حركة خارجة ورمتها بالإلحاد أو الكفر . ولكن الدعوة انتشرت بين جماهير أهل المدن في « نجد » ووصلت إلى مكة والمدينة في الحجاز ، وعرفها الكثير من أهل مصر والشام والعراق . وعندما بدأ نشاط الجهاد والفتح العسكري للدعوة ملأ الخوف قلوب أمراء « الرياض » وهم آل دهم بن دواس وعريمير بن دجيج أمير الاحساء وآل الرشيد أصحاب حائل ، والبيتان الأخيران كانا من أنصار الدولة العثمانية ، وقد استجاب رجاءهما إلى ما دعت إليه الدولة العثمانية من معاداة الدعوة .

وتوفي « محمد بن عبد الوهاب » في « الدرعية » سنة ( ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م ) بعد أن وضع أساس دعوته وثبت أركانها ، وكان آل سعود قد تبنوا الدعوة وتولوا نشرها في جزيرة العرب بالكلمة الطيبة والسيوف أي الجهاد في سبيل الله . وكان لابد أن تخوض الدعوة صراعا عنيفا لكي تنشر مبادئها ، وفي ذلك الحين كانت الجزيرة مقسمة إلى إمارات وشيحات كبيرة أو صغيرة ، ولكنها كلها كانت ضعيفة وفقيرة ، وكانت الحروب بين بعضها البعض على قدم وساق ، ولكل منها قوة عسكرية من المقاتلين والبلد تعتمد على الجمال والحيل والسيوف والحراب ، وفي بعض الإمارات الساحلية مثل الكويت والاحساء وعمان عرف الناس شيئا من الأسلحة النارية . وهذه المناسبة تقول إن العرب الذين عرفوا الأسلحة البارية واستعملوها منذ القرن

السابع عشر الميلادي كانوا عرب المغرب الأقصى ، ولكم لم يجتهدوا في تعلم صنعها وتطويع هذا الصنع حتى يصبحوا على مستوى البلاد الأوروبية . لقد شغلهم صراعات العروش ومؤامرات القصور عن ذلك الأمر الرئيسي — وعن غيره من الأمور الرئيسية — فكلهم ذلك استغلاهم ، وهم ملومون في ذلك لوما شديدا

\* \* \*

ونعود إلى الدولة السعودية فنقول إن السعوديين بعد أن تولى الإمام محمد ابن عبد الوهاب « كانوا قد تحولوا إلى قوة سياسية ومعنوية كبيرة ، واستقرت ففوسهم فكرة أنهم مكلفون بالقيام بنشر هذا المذهب وإصلاح العالم الإسلامي كل على أساسه وسرت في كيانتهم قوة معنوية كبرى فانطلقوا ينفذون هذه الرسالة بحماس بالغ ، وغرّكوا حركة سياسية وعسكرية واسعة لتحقيق هذه العاية ، ودخلوا — نتيجة لذلك — في صراع مرير مع كل القوى السياسية داخل الجزيرة ، واصطدموا بالدولة العثمانية ومصر والإنجليز اصطداما عنيفا ، وكانوا بذلك أول بلد عربي يقوم بثورة إصلاحية عربية إسلامية أصيلة في العالم الإسلامي ، وهذه حقيقة لم ينته إليها معظم مؤرّخي العصر ، ولابد لهذا أن يعاد وضع صورة التاريخ العربي الحديث وضعاً جديداً ، وأن يدخل التعديل الجديد في الكتب المدرسية .

ولا يتسع المجال هنا لذكر تفاصيل ولكننا نقول إنه قد حكم السعودية إلى يومنا هذا ثمانية عشر ملكاً وأميراً قام كل منهم بصيب كبير أو صغير في إقامة بناء الدولة السعودية الصحيح .

وينقسم تاريخ السعودية إلى ثلاثة أدوار هي :

**الدور الأول :** ويبدأ منذ سنة ( ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م ) — وهي السنة التي انتقل فيها الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » إلى بلدة « الدرعية » واتفق مع أميرها « محمد بن سعود » على تأييد دعوته ونشرها . ويعتبر هذا الاتفاق ميلاداً للدولة السعودية وينتهي ذلك الدور الأول في سنة ( ١٢٣٣ هـ / ١٨١٧ م ) وهي السنة التي استسلم فيها الإمام « عبد الله بن سعود » أمام « إبراهيم » باشا ابن محمد على قائد الحملة الثالثة على الجزيرة العربية .



## الدور الثاني ، ويسمى هذا الدور بالدولة السعودية الثانية :

يبدأ من ( سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م ) وهي السنة التي استولى فيها الأمير تركي بن عبد الله وهو السادس من أمراء البيت السعودي على مدينة الرياض ، وحرر سائر بلاد « نجد » من السيطرة المصرية . وبتى باستيلاء « محمد بن عبد الله بن رشيد » أمير حائل على « الرياض » وضمها إلى إمارته .

الدور الثالث : عصر الملك « عبد العزيز آل سعود » ومازال مستمرا إلى اليوم :

ويبدأ سنة ( ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م ) وهي السنة التي استولى فيها الملك « عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود » على الرياض وجعلها قاعدة ملكه وشرع في إقامة المملكة العربية السعودية . وستحدث الآن عن تلك المرحلة الثالثة .

\* \* \*

الملك « عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود » ( ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م ) — ( ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٣ م )

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في دى الحجة ( ١٢٩٧ هـ / ديه مير ١٨٨٠ م ) في ظروف عسيرة جدا للبيت السعودي ، فقد كان آل الرشيد أصحاب حائل قد استولوا على كل من نجد والرياح ، وخرج عبد العزيز مع أبيه عبد الرحمن لاجئين إلى الكويت . وكان عبد العزيز مقبلا من أول الأمر على الدراسة والقراءة والاطلاع ، وكان من حبه محبة بالملك فيصل ( الأول ) بن تركي الذي تولى عرش السعودية مرتين ، فهو السابع والعاشر من أمراء هذا البيت ، وكان أمرا دكيا دعويا واسع الخيلة عظيم الإيمان صانع حورشيد باشا الوالي المصري على الحجاز وتفاهم معه ، وكان خورشيد رجلا بأسلا شهما ، ثم عزل عن العرش وذهب إلى مصر مرتين وفر في المرتين وعاد إلى عرشه في السعودية واتفق مع الأتراك وأصبح سلطانا على السعودية اسمها واستطاع أن ينهض بشئون الإمارة السعودية ويلم شعنها ، وكانت من يوم ميلادها في صراع دائم مع جيرانهم وغيرهم في سبيل تنفيذ مبادئها . وقد حكم في المرتين ثلاثة وعشرين عاما كلها متاعب ، وفي النهاية ، وبعد تمكن من توحيد الصفوف ، اختلف أباه « عبد الله » و « سعود » على العرش وعادت الحرب الأهلية .

كان عبد العزيز بن عبد الرحمن معجبا بفصيل هذا الذي جمع بين الإيمان والدأب والذكاء وسعة الحيلة . ومنذ سنوات العمر الباكرة ( سنوات الخروج من العيص إلى الشيباب ) بدأت تظهر ملامح الرجل الفريد في طرازه ، فهو غير مستريح في ضيافة مبارك الأمير الكويتم ، لأن عبارات بدرت من هذا الرجل فيها ما يجرح الشعور ، والفتى « عبد العزيز » يعادر الكويتم ويعيش خارجها في العراء حياة شغل بالغ ، ولكنه كان يجد نفسه هناك حرا كريما على نفسه وعلى الفئة القليلة من الأصحاب الذين خرجوا معه . كان قد تعلم الفروسية والصيد وضرب السيف والرمي بالرمح ، ولا يخلو الأمر من صيد حلال يستمتع هو وأصحابه بلحمه ، هذا مع التفكير الدائم والقراءة المتصلة ، حتى إذا بلغ الفتى تسعة عشر عاما من عمره وتجمعت لديه أخبار صحيحة عن الرياض وحاكمها آل الرشيد واسمه « مجلان » وحصل « عبد العزيز » على بعض المدد من أمير الكويتم وفي يوم محدد كان هو وأربعون رجلا من أنصاره خارج أسوار الرياض ، وكان ذراعه الأيمن القائد الياصل « عبد الله بن جلوى » ورسم « عبد العزيز » الخطوة ثم باغت الرياض واقتحمها وقل الوالى عجلان واستقر في القصر وفرت حامية ابن الرشيد وسيطر « عبد العزيز » على الرياض ، ونادى المادى بعودة آل سعود إلى العرش ، وطرب الناس لذلك ورحبوا . وبعد أيام كان كل شيء في يديه ، ثم نادى أباه وآله من الكويت فأقبلوا ، وتم عقد اجتماع عام في مسجد الرياض الكبير وتنازل الأمير « عبد الرحمن » عن العرش لولده « عبد العزيز » وبايعه بالإمارة وتبعه الناس . واستقام الأمر « لعبد العزيز » في الرياض ستة ( ١٩٠٢ ) ومن ذلك التاريخ إلى وفاته سنة ( ١٩٥٣ ) وأتم « عبد العزيز » بناء المملكة العربية السعودية على النحو الذى نراه اليوم .



وكثيرون من الناس يقولون ( إلى اليوم ) إن جزيرة العرب قبل « عبد العزيز » كانت مقسمة إلى أربعة أقسام : نجد — الحجاز — الإحساء — اليمن . ونحن نقول : لا أيها السادة لم تكن كذلك ، بل كانت مسحوقا من الرياضات والإمارات والمشجحات . وكل قرية كانت مشيخة أو إمارة ، والحرب بين هؤلاء كانت على قدم وساق . و « نجد » الذين يقولون إنها كانت موجودة كانت علما جغرافيا غير محدد المعالم أما سياسيا وتاريخيا فكانت هناك إمارات الرياض والحرج وسدير والجحفة وعيسى وبريدة وشمير ( وهى حائل ) وكل هذه — وغيرها كثير —

كانت إمارات مستقلا بعضها عن بعض وكانت الحرب دائرة بينها ، ويفدى البدو هذه الحروب ، وهم عرب خلصاء ولكن المخن طحتهم وطول الفقر وتوالى عصور الظلم أخرجهم عن طبيعة البشر ، فهم مسلمون وغير مسلمين ، وهم عرب وغير عرب وبشر وغير بشر . رجال فيهم صلابة الحديد وشجاعة الأسود ولكن عقولهم خاوية وبطونهم خاوية وهم يطربون إلى الحرب طربانا لأول فرصة أو لقاء أو حال . وكان هذا هو الحال في كل نواحي الجزيرة .

وكان « عبد العزيز » يرى — وهنا يكمن جانب كبير جدا من عبقرية — أن كل شعوب الدنيا قد أنشأت لأففسها دولا إلا العرب . العرب الذين أنشأوا لغيرهم عشرات الدول الكبيرة الناجحة ليست لهم دولة . وجزيرة العرب ( وهي قلب الدنيا القديمة جغرافيا ومساحتها فوق الثمانية ملايين من الكيلومترات ) ليست دولة واحدة مع أن كل سكانها عرب مسلمون يتكلمون العربية . لا بد إذن (لا بد) من إنشاء دولة عربية وشعب عربي أي شعب يؤمن بهذه الدولة ويحمل رايها بين رايات الأمم . ها تهب الجزيرة وتأخذ مكابها ويعتدل ميزان العالم العربي كله .

تلك هي العاية التي رسمها « عبد العزيز » لنفسه منذ اللحظة التي استعاد فيها ملك آبائه في الرياض ومضى يعمل في تودة — وبناء على خطة — في تنفيذها وإذا كانت الغاية نبيلة ورفيعة فقد كان الرجل من وراثها أبيل وأجمل : كان شجاعا دكيا بعيد النظر حازما مستبتر البصرة ، وكان قبل ذلك كله مسلما صحيح الإسلام ، تربي في مدرسة الإمام « محمد بن عبد الوهاب » ولم يكن مقيدا بكل كلمة قالها هذا المصلح العظيم بل كان مقيدا بفضائل الإسلام .



وبدا عبد العزيز بتوسيع إمارة الرياض نحو الجنوب ففتح الخرج والأفلاج والحوطة والدواسر ليؤمن ظهره ، ثم اتفق مع مبارك الكبير علي الأمير بن رشيد صاحب حائل الذي كان لا يزال يمسى نفسه باستعادة الرياض فأبأسه « عبد العزيز » وأعادته إلى بلاده واضطره إلى أن يستقر فيما أعطاه الله من جبال شمر وقاعدتها حائل ، ثم فتح بلاد الوشم والحمل وسور . ثم وجد أن ابن رشيد لا يطمش له جنب ، فهو يجمع القبائل والحمد ويستعين بالأتراك فجمع « عبد العزيز » قوة ورسم خططه ووجه إلى ابن رشيد ثلاث ضربات قاصصات في البكيرية والشنانة وروضة مهنا ، وكانت أوامره

اليائسة للنهوض بالخلافة العثمانية — قد فكر في استقلال العرب ومصالحتهم ، وعندما قام رجال « الاتحاد والترقي » في تركيا وأرغموه على إعلان الدستور وشأ مجلس « المبعوثان » أى مجلس النواب قد اختار الأمير عبد الله أصغر أبناء الحسين بن علي وجعله يعيش في استانبول وأوسع كرامة ، ولكن المتحمسين من عرب الشام وفلسطين صالحوا العثمانيين على دخن ، ووقعت بينهم وبين جمال باشا الوالى التركى في دمشق مخاصمات مما اضطره — ولم يكن بالعاقل أو المخلص أو بعيد النظر — إلى إيقاع المذابح بالمعارضين من عرب الشام وفلسطين ، والأمير عبد الله غادر الآستانة مع أهله وعاد إلى الحجاز ليدير مع أبيه خطة إنشاء خلافة عربية يكونون هم خلعاءها . ومن هناك اتصل بالمنسوب السامى في مصر اللورد كيتشر في أمر ثورة العرب على الأتراك إذا قامت الحرب بين تركيا وانجلترا .

— وكان أهمها أكبر مسئول بريطانى في الشرق الأوسط — لم يقل شيئا ، ولكنه أمر بأن يعاد الأمر — عبد الله بن حسين إلى الآستانة في سفينة بريطانية خاصة ، وكان ذاهبا هناك لحضور مجلس المبعوثان .

وعندما قامت الحرب الكبرى وتخرج مركز الإنجليز أمام الألمان في الميادين احتاجوا لأى سند . وعندما بلغ مركزهم غاية الضعف سنة (١٩١٧) فاتحوا العرب فيما كانوا قد عرضوه عليهم ، والعرب — وهم هنا الحسين بن على بن عون وآله وأنصاره من المتحمسين الشوام والعسطينيين — استجابوا دون علم أو نظر للعواقب ، وبناء على اتفاق غير معقول بإنشاء دولة عربية تشمل الشام والحجاز — وبقيّة الجزيرة العربية بالتالى يجلس على عرشها الحسين تحرك العرب ، وكانت الحركة هزيلة ، وأعلن الحسين الانقلاب على خلافة آل عثمان ، وهاجم ألف جندى من رجاله القسطنطينية التركية في جده ، والمارشال هنرى هايمان الذى أقبل من جنوب العراق بجيش ليلقى العثمانيين ، وهؤلاء حاولوا عبور قناة السويس لمهاجمة مصر ، والغريب أن الذين ردوهم عن مصر لم يكونوا الانجليز ، بل قطعة من الجيش المصرى الصغير الذى سمح الإنجليز للمصريين بإنشائه رد الأتراك واستشهد من الجانبين ناس ، والنبى التقي والأتراك في موقعة مجدو ودخل القدس وحصل على لقب اللورد أوف مجدو ، ورغم لنفسه في عبارة رديلة أنه استعاد القدس من صلاح الدين وتكشفت

الأمر عن أن الإنجليز أصدروا وعداً بالفور ، لليهود يعدوهم فيه بالمعاونة في إنشاء وطن قومي لليهود ( ٢ سبتمبر ١٩١٧ ) .

ولكن الحسين بن علي في مكة كان قد اعتر نفسه خليفة المسلمين بعد أن ألغى مصطفى كمال الخلافة العثمانية سنة (١٩٢٢) وكان الإنجليز قد أعطوه مالا وسلاحا فاشتد عوده وقرر أن يسود شبه الجزيرة العربية . ولم يكن أمامه أقوى من « عبد العزيز آل سعود » ، وسلطنته تصل إلى تربة والحزمة غربا . وهاتان البلدتان — بين الطائف ومكة — كانتا تسيان الفاصل بين نجد والحجاز وعلى الرغم مما كان الحسين وابنه ( قائد جيوشه ) يبديان من الحسن نحو « ابن سعود » فإن الأمير عبد الله قائد قوات الحسين استولى على تربة واستخدموا المدافع والرشاشات و « تربة » كانت من بلاد « ابن سعود » ، وكان حاكمها خالد بن لؤي من رجال « ابن سعود » وفي سكون تام وصمت وحسم رسم « عبد العزيز آل سعود » خطته . وكانت قوة عبد الله بن الحسين سبعة آلاف جندي ، منهم ألفان من النظام . ولكن « عبد العزيز » استعد بما هو أقوى وأشد إخلاصا يقودهم خالد بن منصور بن لؤي وابن بجاد وكان هذا الأخير بقوة معظمها من العنظف وكان الهجوم ليلة ( ٢٥ شعبان ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ) وأباحوا السريتين الأوليين من حرس الأمير عبد الله ثم هجموا على السرايا المقيمة عند مخيم الأمير عبد الله ، وكان الرجل من العنظف يهجم على الجدي القائم على المدفع ويذبحه ، وأخيراً هجموا على مخيم الأمير نفسه ، فزلا بلوى على شيء ، ولم ينج من رجاله إلا بضعة ضباط . وفي الصباح قضى على بقية الجيش الحجازي وكانت قد لجأت إلى حصين . ونستطيع أن نقول إن قوة الأمير عبد الله كلها قد أيدت . وكانت هي العمود الفقري لقوة الحسين بن علي بن عون ، فأصبح كطير قطع جناحه فجن في الأرض يعاني آلام الزرع وبلغ قتل هذه المعركة من رجال الحسين خمسة آلاف رجل ، وغنمت قوات « ابن سعود » مقادير لا تحصى من السلاح والعتاد والمؤن . وسار « عبد العزيز » فدخل « الحزمة » و « تربة » وانتهى أمر شرفاء الحجاز في هذه الوقعة ، ولم يعد في الجزيرة كلها من يعارضه ، وطلبت إليه بريطانيا أن يرأف بالمهزوم ولا يدخل الطائف . وما كان الرجل بحاجة إلى دخول الطائف أو مكة وقتها ، فقد أصبحت كلها بلاده يدخلها حين يشاء .

في ( ١٥ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م ) اجتمع الناس من مختلف أنحاء الحجاز في المسجد الحرام وبايعوا السلطان « عبد العزيز » ملكا على الحجاز ، وأصبح

لقية ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها ، وأقام الملك ابنه الأمير فيصل حاكماً على الحجاز وعاد هو إلى الرياض .

هكذا قامت الدولة العربية التي كان يكرها « عبد العزيز » منذ اللحظة الأولى . قامت للعرب إذن دولتهم كغيرهم من شعوب الأرض . قامت على أساس إسلامي أخلاق متين ، فقد كان « عبد العزيز » مسلماً صادقاً وملكاً عظيماً ، وقد صمت معظم الجزيرة فلم يترك إلا أمارات الخليج ، فهذه كانت أمارات جلييلة لها أمراء ذوو شرف وبلاد عمان ، فهذه سلطنة قديمة عريقة لها شخصيتها ودورها الباهر في تاريخ الجزيرة ، وإين لأن الأمير يحيى حميد الدين تراسى عليه يستعطفه ، وعقدت بينهما معاهدة الطائف ، وقد دخلت فيها في المملكة العربية السعودية نجران وجيزان .

وكان « عبد العزيز » في أثناء ذلك كله يبنى الدولة العربية الجديدة بناءً محكمًا . فالامارات تنشأ والتعليم يسير على قدم وساق وكل شيء يجري على تشريعة الإسلام . وبدأت عملية تحضير البدو ونقلهم من حياة البداوة التي وضحتناها إلى الاستقرار . وكانت وسيلته في ذلك إنشاء « المهاجر » التي سميت « الفجر » ، هاك يستقر الناس في الأرض ويعطون البدور وآلات الزرع ويعلمون الزراعة وتؤخذ منهم الجمال حتى لا يظفروا على ظهورها إلى الفقر ويعودوا إلى حياة الإبل وهي البداوة ، وأولاد هؤلاء الزراع هم الذين يكونون جانباً عظيماً من سكان السعودية ، فهم حصر عندهم المدارس والمستشفيات ، وأبواب التجارة مفتحة أمامهم وشيخاً فتيماً يشأ الشعب العربي السعودي الجديد الذي أصبح الآن عماداً من أعمدة العروة وفي سنة ( ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م ) عقد أول عقد للتشقيع عن البترول مع شركة البترول العربية الأمريكية وهي « الأرامكو » وعندما توفي الملك عبد العزيز في ( ٢ ربيع الأول ١٣٧٣ هـ / ٩ نوفمبر ١٩٥٣ م ) كان عود السعودية قد استقام وبدأ البترول يتدفق وكان خيراً وبركة على العرب والمسلمين جميعاً ، فان أول ما انجذبت إليه هممة السعوديين للبذل والإنفاق كان الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ، وقد ابدعوا في ذلك ابتداءً يشكره لهم كل مسلم حج أو اعتمر أو زار مسجد الرسول ( صلوات الله عليه ) .

وقد أصبح الحرم المكي بفضلهم من تحف العمارة العالمية وأخذ الحرم كله صورة باهرة من الهندسة العظيمة على أيدي مهندسين من العرب ، واجتكرت أساليب

لتخفيف حرارة الشمس عن أقدام الطائفين على الرخام ، هذا غير المعناعات والمسمى العظيم ، ولا يزال الإنشاء مستمرا ، لأن الله سبحانه رزق عبد العزيز سلالة كريمة من الامراء التميزين بالفضل والإيمان والخير . نذكر منهم الملك « فيصل بن عبد العزيز » الذى كان آية في الخير والفضل والذكاء وكرم اليد .

وما نفع أحد العرب بعد نكسة ( يونيو ١٩٦٧ ) كما نفهم « فيصل » العاضل الكريم . وقد أشرت فيما سبق إلى ما يدور بخندى من أن محور القوة في عالم العرب ينبغي أن يقوم على محور من القوة واتحاد العاية تمتد من الرياض إلى القاهرة . فبين السعودية ومصر يجرى البحر الأحمر وهو بحر العرب الذى أُنم فيه الاستعمار الحبشة دون أى مبرر ، فهذا البلد الذى كان قبل الحرب العالمية الأولى لا يملك ميناء واحدا على هذا البحر أصبح يملك — بوضع اليد الظالم على آريتها — ( ١٨٠٠ كيلو متر ) من ساحل هذا البحر ، وإسرائيل من مينائها الصغير في ايلات ترسم حططا وترسم أحلاما . وهذا كله باطل . وهذا البحر لابد أن يعود بحرا عربيا كما كان فهو في الحقيقة خندق العروبة ، وهو رابط بين مصر والسعودية لا فاصل . ولا يد من رسم سياسة محكمة للوصول إلى هذه العاية ، وسواء دخل السودان في هذا المحور أم لم يدخل فان مصلحته تقرر عليه أن يكتب فيه ، ولا يجوز أن ترسم سياسة وادى النيل ، أو أى جزء منه — في لندن أو نيويورك ، فان القوة العسكرية أو المالية لا تصنع التاريخ بل تصنعه عزمات الرجال وإيمان القلوب والعلم الصحيح . والإسلام علم . والمسلمون مكانهم قيادة الأمور في بلادهم على الأقل . هنا تأخذ النهضة العربية شكلا جديدا يغنيها نهائيا عن الجامعة العربية التى هى فعلا شيء من مخلفات الماضى ، وقبل أن يعقد رجالها قمة يبادر بعض الأعضاء إلى هدمها .

والقصومات قائمة بين دولها ، وهى فعلا منقسمة إلى معسكرات ، ومن أعضائها من يسمون أنفسهم التقدميين وهى بلاد يحكمها عسكريون حكموا استيرادا سينا ويذوقون أهلها الويلات ، وهؤلاء يعادون البلاد العربية المعتدلة التى تريد أن تسوس شعوبها بالحرية والعدالة وحكم القانون إلى المستوى المأمول رغم كل المتاعب التى لا يكف الآخرون عن تدهورها ، وقبل أن تعقد الجامعة اجتماعا يقوم أولئك المسمون بالتقدميين بافساده ، ومن ثم فهى في حقيقة أمرها ليست شيئا ولا تستطيع شيئا ، وهذا لاجمع القول بأن المنظمات المتفرقة من الجامعة وبخاصة هيئة العلوم والآداب والتربية مارالت تؤدي للعرب خدمات جليلة .

## الجزائر وتونس وطرابلس من الفتح التركي إلى الغزو الفرنسي :

في عبارة بالغة الشمول والعمق يبنى المؤرخ الجزائري « ناصر الدين سعيدوني » حصائص العصر التركي في الجزائر (١٥١٦ هـ - ١٨٣٠ م) وميزاته يقول: (١)  
تعتبر الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر الحديث فترة مهمة وذلك لعدة اعتبارات :

١ - أنها فترة تعرضت في مطلعها البلاد الجزائرية للغزو الإسباني الذي تركز في المدن الساحلية ، وكاد أن يهدمها كآثرة الأندلس ومأساة انقيار الوجود الإسلامي في تلك الديار مرة أخرى . كما شهدت الجزائر في نهايتها الغزو الاستعماري الفرنسي وما انجز عنه من ظلم وتعسف وإجحاف رغم ذلك دام أكثر من قرن وربع قرن (١٧٣٠ - ١٨٦٢) .

٢ - لأنها فترة عاشت أثناءها الجزائر مرحلة حاسمة ، تمثلت بالخصوص في مواجهة اعتداءات الدول الأوروبية ، وعلى رأسها إسبانيا وفرنسا وإنجلترا ، التي تكالبت أساطيلها وجيوشها على استغلال خيرات الجزائر والتحكم في مقدراتها لمصلحة أوروبا وما تحمله من روح صليبية .

٣ - لكون هذه الفترة تعتبر بمثابة المعبر الرسمى الذي حافظ على قيم الجزائر الحضارية وتراثها ومقوماتها الإسلامية العربية التي تعمقت جذورها ورسخت دعائمها أثناء الوجود العثماني بعد أن تبلورت واتصحت معالمها في الفترة الإسلامية السابقة .

٤ - أنها فترة اكتمل فيها كيان الشعب الجزائري ، وعرفت فيها البلاد الجزائرية مقومات الدولة الخاصة ، بعد أن ظلت هوية الجزائر الإقليمية غير واضحة المعالم أثناء انقسام دولة الموحدين (١٢٦١) وظهور الحمصيين والزبانين والمدبريين ، وقد برز هذا الكيان بالخصوص في احتبار عاصمة قارة (ثابتة) ورسم حدود معينة ، ووضع أجهزة إدارية وسن أنظمة اقتصادية وقرار أوضاع اجتماعية ، وانهاج علاقات سياسية خارجية تتلاءم وأوضاع البلاد الجزائرية آنذاك . هذا مع التأكيد على الروابط الوثيقة مع البلاد العربية ، والوفاء ضمن الوحدة الحضارية والفكرية للامبراطورية العثمانية الشاسعة .

(١) ناصر الميردوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ( المعهد العالي ) المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ١٩٨٤



وعلى هذا لا يقتصر فضل الأتراك العثمانيين على محض إنقاذ الجزائر من الوقوع في أيدي الأسبان والفرنسيين بل انهم أتاحوا للجزائر فترة من الاستقرار النسبي في ظل الإسلام . فاستقرت أوضاع الإسلام والعروبة في البلاد ، وثبتت أركانها واكتمل تكوين الجزائر الإسلامى العربى ، ومن العريب انه رغم ما هو شائع من عجز الأتراك العثمانيين عن إقامة نظم إدارية سليمة فإنهم نجحوا في الجزائر على الأقل أكثر مما نجح من سبقهم من الدستمين والحماديين والزيبانيين فأنشأوا جهاز دولة مستكمل الشروط وأقاموا أمة عربية إسلامية مستوفاة المقومات .

وقد حاول الفرنسيون أن يطمسوا هذه الحقيقة فلم يروا في الحكم العثمانى أى خير ولكنه على العكس من الحكم الفرنسى الذى كان استغلاليا لإذلالها يرمى إلى استخراج آخر قطرة من حير الجزائر لمصلحة الفرنسيين بالإضافة إلى اذلال الناس والإساءة إلى الإسلام في كل مناسبة . وبين أيديها من الكتب التى ألفها فرنسيون عن تاريخ الجزائر قبل الاحتلال وكلها فياضة بالإهانات للإسلام وأهله وللعرب والأتراك بخاصة ، وأصحابها كتبوا ليقولوا : إن الجزائر لم تعرف الاستقرار والعمران إلا في العصر الرومانى وعصر الاحتلال الفرنسى ، أما ما بين هذين فليس هناك إلا الظلم والفسوضى والتأخر ، حتى « شارل أندريه جولياني » الذى نقول انه أكثر الفرنسيين اعتدالا لم يحتدل بعض الشيء إلا عندما استقل الجزائريون وأثبتوا أنهم رجال ذوو كرامة وعرة ودين وعقيدة ولعة عظيمة وحضارة .

بمعكس ذلك نجد الأتراك العثمانيين ، فقد كانوا قوما ذوى طمع في المال ولكنهم كانوا مسلمين ، ولم يكن بينهم وبين العرب مودة كبيرة ولكنهم لم يكرهوا العرب أو يحتقروهم ، فسارت أمور العرب المسلمين الجزائريين في حكمهم سيرا طيبا . ثم أن الأتراك العثمانيين قاموا منذ نزولهم الجزائر بوضع نظام إدرى لها لا بأس به ، فقسموها إلى أربع بيليكيات ، وقسموا كل بيلكية إلى فحوص والمحوصى إلى أوطان ، وكل وطن خاص بقبيلة ، وثبتوا هذه التقسيمات ووسعوها ولم يغيروا فيها كثيرا ، وثبتوا عاصمة الأقليم في مدينة الجزائر وجعلوها عاصمة كبيرة حصينة ، وجعلوا لها بيلكية قائمة بذاتها هي دار السلطان ، وجعلوا لمدينة الجزائر نفسها فحوصا ، ولما كان الأتراك — بطليهم — تقليديين عبر مبالين إلى التغيير فقد ثبتت هذه التقسيمات

على حالها ، وأخذ الوطن الجزائري يظهر ويستقر ويثبت ، وهذا جانب آخر من جوانب تراث الأتراك العثمانيين في الجزائر .

ثم إن الحكم العثماني في الجزائر سار سيرا طيبا إلى بداية القرن التاسع عشر ، ثم إنهم إذا كانوا يجمعون مالا بالغصب من جماعة من السكان فقد كانوا يتقاسمون الشيء المجموع مع بعض رؤساء الناس من أهل البلاد . والمال كله كان يعرف داخل البلاد فيما عدا القليل الذي كان يبعث به إلى الآستانة . وكان الحكام الأتراك يشجعون جهاد البحر ويتقاسمون أهل البحر فيه ، ولم يبدأ الخراب المالي للبلاد إلا عندما تدهور جهاد البحر وقل المال الوارد منه ، ثم إن الدول الأوروبية زادت من ضغطها على الجزائر وكثر القصاص ورجال الشركات في « عنابة » و « الجزائر » و « وهران » وظهر منهم شجع شديد إلى أموال البلاد ، وأعانتهم في ذلك الجماعات اليهودية الكثيرة التي كانت تعيش في مدينة الجزائر وفي الموانئ ، وهذه الجاليات اليهودية لم تشعر قط بأنها جماعات من المواطنين ، ولم تعبر قط عن شكرها للجزائريين أيواعم في البلاد وإطلاق حرية العمل والتجارة والكسب لهم ، بل نجدهم من أول ما أخذ الإسبان والفرنسيون في الأغارة على شواطئ الجزائر يضمنون إليهم ويعاونونهم على أهل البلاد وأولياء نعمتهم . وكان لهم دور غير محمود في استيلاء الفرنسيين على البلاد ، وهذا ظاهر من تجنسهم بالجنسية الفرنسية ومعاونتهم الكبيرة للفرنسيين على أهل البلاد .

وقد أشار إلى هذه الحقائق كلها « ناصر الدين سعيدوني » في دراسته القيمة عن « صالح باي » حاكم إقليم قسطنطينة وما قام به من خدمات لبلاد الجزائر ، فقد حكم هذا الرجل ذلك الإقليم إحدى وعشرين سنة ( ١٨٥ — ١٢٠٧ هـ — ١٧٧١ م — ١٧٩٢ م ) قدم فيه للبلاد خدمات جليلة . و « صالح باي » تركي من أهل الأناضول ، وقد وفد على الجزائر ودخل في خدمة الأتراك ، ولكنه لم يكن عسكريا من أول الأمر ثم استطاع أن يسمو بفضل مواهبه حتى عينه الداي « محمد عثمان » باشا بايا لمطقة قسطنطينة سنة ( ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م ) وها نجد هذا الرجل يرتفع بفضل مواهبه إلى درجة عالية من السلطان ، فتظهر منه صرامة وحزم عظيمان في جمع الأموال المقرضة على العشائر والواحات واستطاع بعد جهود كبيرة إقرار النظام والهدوء في ييلكية الشرق حتى تفردت مكانته وزاد قدره عند داي

الجزائر « محمد عثمان » باشا خصوصا عندما تمكن من تثبيت الحدود الشرقية للبلدية واراعاه « حمودة » باشا والى تونس على الاعتراف بهذه الحدود .

وكان هذا الرجل سخيا فى الانفاق على أعمال العمران ، وإليه يرجع الفضل فى تمدين قسطنطينية وجعلها ثانية مدن الولاية بعد مدينة الجزائر ، فقد عمر حتى « سيدى الكفانى » وزينه بمسجد ومدرسة سنة ( ١٧٧٥ م ) وأقام بالقرب منه مازله الواسعة وبساتينه واسطبلاته ، وكان له مهندسون وبستانيون وطبيب من الايطاليين . وعمر كذلك ناحية الشارة وأقطعها لليهود ليقيموا فيها وينشعوا ذكاكينهم فيها ، وكان غرضه من ذلك مراقبتهم والإشراف على أعمالهم وكلف كذلك مهندسا إسبانيا من أهل جزر البليار بإنشاء جسر القسطة لتيسر المواصلات بين هذا البلد الجبل وما يحيط به من الجهات وجلب المياه إليه ولم يعيش « صالح باى » حتى تمامه .

ولم نسمع نحن برجل تركى يشبه « صالح باى » فى مصر مثلا مما يجعلنا ندرك أن الفترة العثمانية فى الجزائر كانت أفضل من الفترة العثمانية فى مصر ، ففى الجزائر حفل العصر العثمانى بكبار الشخصيات الشيطة القديرة فى حين أن الأتراك فى مصر اكتفوا بترك الحكم فى أيدي المماليك ، وهؤلاء بدورهم تركوا الأمر للكشاف وجباة الضرائب ، وهؤلاء اتفقوا مع الفلاحين على مقادير الحباية وصارت الأمور بعد ذلك سيرا هادئا مما جعل الفترة العثمانية فى مصر فترة سكون وركود وتدهور مستمر .

وقد انتهت حياة « صالح باى » نهاية أسيفة إذ كرهه رجال الدين وعملوا على عزله على الرغم من إحسانه الكثير لهم . وكذلك انقلب عليه اليهود الذين كانوا يحكمون تصدير الحبوب إلى أوروبا وكان « صالح باى » قد فرض عليهم رقابة شديدة وعلى رأس أولئك اليهود ابن زقوط بكري ويعقوب بكري وبو شناق . وقد عمل هؤلاء جميعا على القضاء عليه ، فمرد على السلطان وانتهى أمره بما على قسطنطينية وخلفه حسن أبو حنك ثم الوزناجى سنة ( ١٧٩٥ ) ومن ذلك الحين تغيرت طبيعة الحكم التركى فى الجزائر وطمع فيها الفرنسيون واستعانوا فى أمورهم باليهود .

#### الاحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٣٠ م :

وأحس الفرنسيون أن إمالة الجزائر العثمانية ضعفت ضعفا بالغا وقرروا محاولة غزوها بدأ ذلك سنة ( ١٨٢٧ ) وفيما بين هذه السنة وسنة ( ١٨٣٠ ) قام الفرنسيون

بمحاولة فاشلة لغزو البلاد بحريا ، فحاصروا مدينة الجزائر بأسطولهم من ( ١٦ يونيو ١٨٢٧ ) وكانت العلاقات بين « حسين داي » آخر دايات الجزائر الأتراك والفرنسيين سيئة ، وكان القنصل الفرنسي في مدينة الجزائر رجلا سيئا وكادبا ، وهو الذى اخترع حكاية قيام « حسين داي » بضربه بمروحة كانت في يده ثلاث مرات أثناء مناقشة عيفة بينهما في شأن ديون كانت على القنصل من أثمان قموح كان قد استوردها من الجزائر ، وقد أبلع القنصل دوفال ذلك إلى فرنسا وقال إن الشرف الفرنسى قد أهين ولا بد من عقاب الداي « حسين » فعهدت إلى القبطان كوتيه فى أمر الحصول على ترضية مناسبة من الداي « حسين » ، وطلب هذا من الداي أن يعترف بأن فرنسا هى صاحبة احتكار التجارة بين الجزائر وفرنسا ، وكانت تلك خطوة فى نظر فرنسا لوضع يدها على البلاد منبهة فرصة العسف البالغ الذى وصلت إليه الدولة العثمانية وعجزها عن حماية ولاياتها ، ورفض الداي « حسين » وقدمت السفينة الفرنسية لوييتى توماس إلى الجزائر ، وطلب قائد السفينة لا يروفانس ترضية مثلة من الداي « حسين » وهذه الترضية التى طلبتها فرنسا كانت أن يرسل الداي وفدا من كبار شخصيات البلد وعلى رأسه وزير البحرية والشئون الخارجية الجزائرى المعروف بوكيل الخرج ليقدم للقنصل الفرنسى اعتذارا علنيا .

وكان من الطبيعى أن يرفض الداي « حسين » ذلك ، وأدى رفضه إلى نشوب الحرب بين الحائنين ، وقد حلل الدكتور « ناصر الدين صهيونى » الموقف تحليلا جيدا وأرانا كيف أن الداي وأهل القوة من الجزائريين كانوا يبعدون كل البعد عن الإدراك الحقيقى للموقف المتأزم الذى وصلت إليه الأمور ، فبينا كانت فرنسا تنظر إلى الأمر نظرة استعمارية خالصة وتدبر بقيادة الملك شارل العاشر لغزو الجزائر بحريا وعسكريا وتملك أراضيها واستغلال خيراتها رغم اعتراضات بعض النواب الفرنسيين كان الداي « حسين » رغم موقعه الخازم من التهديد الفرنسى يرجو أن يصل إلى صلح مع فرنسا ليواصل الحصول على المكاسب التى تعود الحصول عليها من التجارة مع أوروبا أو العدوان على السفن التجارية فى حين أن طائفة الحضر ومنها كان التجار وأصحاب رؤوس الأموال المستفيدون من علاقات الحرب والتجارة مع أوروبا يظنون أن الموقف الذى حدث مع فرنسا كان موقفا مؤقتا ناتجا عن سوء تصرف الداي مع الفرنسيين مما يدل على أنهم كانوا يبعدون كل البعد عن إدراك حقيقة التعمير الشامل الذى صارت إليه السياسة الأوروبية وبخاصة سياسة انجلترا وفرنسا اللتين كانتا تريان

أن أوان تصفية التركة العثمانية قد اقترب وتستعدان للاستيلاء على هذه التركة والسيطرة الكاملة على البحر المتوسط وظهر ذلك بشكل واضح في عرو فرنسا لمصر سنة ( ١٧٩٨ ) وتعاذل تركيا أمام ذلك الغزو واجتهاد انجلترا في إخراج الفرنسيين من مصر وقد تم ذلك سنة ( ١٨٠١ ) وكان من الممكن أن يقع استيلاء بريطانيا على مصر بعد ذلك بقليل لولا ظهور محمد علي وإقامته دولة مصرية قوية ذات جيش وأسطول . وقد وقفت انجلترا وفرنسا معا ضد محمد علي ، الأولى في الظاهر والداخل والثانية في الداخل وان تظاهرت بتأييده ، وكل ذلك كان كميلا بفتح عيون الجزائريين وإعلامهم بأنهم اليوم أمام موقف جديد لا يحض مظهر من مظاهر الاحتكاك مع الغرب لا يلبث أن يزول ثم تعود الأحوال سيرتها الأولى .

والغريب أن الفرنسيين الذين دخلوا مصر دون مقاومة قبل ذلك بحوالى تسعة وعشرين عاما وجدوا مقاومة لا بأس بها من البحرية الجزائرية فتحطمت بعض سفهم وأسر البعض الآخر وذلك في المعركة البحرية الأولى التي وقعت بين الجانبين في ( ٤ أكتوبر ١٨٢٧ ) .

وقد كانت خسائر الجزائريين كبيرة ولكن خسائر الفرنسيين لم تكن قليلة أيضاً رغم أن الأسطول الفرنسي كان كبيرا نسبيا والأميرال كويله الذي قاد الأسطول أولا كان قائدا ماهرا ولكن للمعركة أجهذته إلى درجة أنه مات من الإجهاد فيها في ( ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ ) وخلفه في قيادة الأسطول القبطان قلاقل وفي نفس الوقت قام القبطان روييرو أندريه دوناسيا بالهجوم على ميهاء وهران . وبعد ذلك اكتفى الفرنسيون بمحاصر موانئ الجزائر وإيقاف التجارة الجزائرية وقد استمر هذا الحصار حتى وقوع الغزو الفرنسي لميناء الجزائر في ( يوليو ١٨٣٠ ) وهي بداية الاحتلال ورغم أن الجزائريين كانوا يستطيعون إنزال خسائر أخرى بالفرنسيين ولكنهم لم يفعلوا وظلوا يأملون في الصلح حتى كانت الواقعة وبدأ الغزو .

### الغزو الفرنسي للجزائر :

أوجز مؤرخ فرنسي هو « شارل أندريه جوليان » ، في تاريخه العام للمغرب ، المعالم الرئيسية للغزو الفرنسي للجزائر بقوله في ص ٥٧٤ من تاريخه تحت عنوان « ديون الكبرى » : عملية تجارية قام بها بعض اليهود من تجار الجزائر مشتركين في

ذلك مع مرسىء من رجال السياسة الفرنسية في باريس ثم حادث دبلوماسى ( شىء ) حركة وتسبب فيه رجل سياسة خارجية فرنسية مشكوك في أمره ثم حملة فرنسية تولاهها قائد فاقده لاحترام قومه ، ثم انتصار فرنسى على الجزائريين لم يحفل به الفرنسيون كثيرا ، وأعقب ذلك سقوط الأسرة الملكية الفرنسية التى ربت لهذا الغزو ( لتؤيد به مركزها المتهاوى في بلادها ) تلك كانت البداية العريضة في بابها للغزو الفرنسى للجزائر .

وقد سبق أن ذكرنا أولئك اليهود الذين دبروا لايقاع العداوة بين الجزائر وفرنسا وهما الأخوان بكري وزميلهما بوشاق ، فان هؤلاء التجار اليهود الذين انتقلوا إلى ليفورنو في إيطاليا ومن هناك سيطروا على التجارة الجزائرية وفازوا بمعظم مكاسبها وحولوا الداي « حسين » إلى لعبة بين أيديهم . وفيما بين سنتي ( ١٧٩٣ و ١٨٠٠ ) باعوا مقادير ضخمة من القمح الجزائري لفرنسا لاستخدامها في تموين الجيوش الفرنسية في إيطاليا ومصر ، وتمكنا خداع الداي وإيهامه بأن فرنسا لا تريد أن تدفع ثمن ذلك القمح — وكانوا هم قد استولوا عليه — وتمكنوا بذلك من الاستيلاء من الحكومة الفرنسية — بموافقة بوناپرت — على أربعة ملايين من الفرنكات الذهبية المستحقة للداي دون أن يعطوه منها درهما .

والنتيجة أن الداي « حسين » صاحب هذا المال ظل أن الحكومة الفرنسية خدعته واستولت على أمواله في حين أن الحكومة كانت قد دفعت جزءا كبيرا من ذلك المال إلى من رعموا أنهم يمثلوه في أوروبا وهم أولئك اليهود الذين ذكرناهم .

وكان من الطبيعي أن يفضب الداي « حسين » لذلك وكان قد تولى حكومة الجزائر سنة ( ١٨١٨ ) وكان رجلا ذكيا بشيطا ولكنه لم ينتبه إلى المؤامرة التى كانت تدار حوله ، وانصب غضبه على ديفال القنصل الفرنسى الذى عين في الجزائر سنة ( ١٨١٥ ) ودخل في علاقات مالية غير شرعية مع اليهود ، وكان الداي « حسين » يشك فيه ويحقره لأن تاريخ هذا الرجل في شئون علاقات فرنسا مع الشرق والبلاد الإسلامية كان تاريخا سيئا وفي ٢٩ أبريل ١٨٢٧ وقعت بين الاثنين مشادة عنيفة في بلاد الداي ، وزعم ديفال فيما بعد أن الداي ضربه بمروحة أو بمذبة ذهاب على وجهه ثلاث مرات ، وزعم أن ذلك إهانة لفرنسا ، والمؤرخون الفرنسيون

يشكون في صحة هذه الدعوى لأن الداي « حسين » لم يكن من العباء بحيث يقع في ذلك الخطأ .

وعلى أى حال فعل أثر تجربة الحرب المبررة بين أساطيل فرنسا وقوات الجزائر البحرية قررت الحكومة الفرنسية اقامة الحصار حول سواحل الجزائر ، وهو حصار لم يرض عنه الجزائريون كما رأها ولا الفرنسيون أيضاً .

وقررت الحكومة الفرنسية أمامه الحصار حول سواحل الجزائر سنة ( ١٨٢٨ ) حتى تحصل عى الترضية التى طلبتها من الداي وظل الداي مصرا على موقفه واحتج نائب فرنسى فى البرلمان على هذا التصرف كله وقال إن فرنسا أنفقت فوق المليون فرنك ذهبى ولم تحصل إلا على مركب جزائرى لا يزيد ثمنه على عشرين ألفا ، وكان الناس فى فرنسا قد سمعوا حكومة الملك شارل العاشر وبدا بوصوح أنها تستسقط ولا ريب . وكان فيل أموال الأسطول الفرنسى يرى غزو سواحل الجزائر ، ولكن الوزارة سقطت وحل مارتيناك محل فيل . ولم يدر هذا الرجل ما يعمل حيال داي الجزائر ، وبلغ به الأمر أنه أرسل إلى محمد على باشا وإلى مصر يقترح عليه أن يقوم بغزو الجزائر لحساب فرنسا ، ورفض محمد على . وأخيراً قررت فرنسا فى ( يناير ١٨٣٠ ) أن تقوم بغزو الجزائر .

وكان غزو الجزائر مأساة عسكرية طويلة بالنسبة لفرنسا ، وقد تكلفت فى سبيل ذلك أكثر من مائة مليون فرنك ذهبى وخسرت فيه ألوف الأرواح ، ولكنها كانت أقوى من الجزائر مرارا عديدة ، ثم إن موقف الكثيرين من أهل الحل والعقد فى الجزائر من الداي « حسين » باشا جعله عاجزا عن فعل شيء خصوصا وهو نفسه لم يقدر خطورة الموقف قط . وعندما اختارت الحكومة الفرنسية الكونت يورمون قائدا للحملة أحس الفرنسيون بامتنزاز لأن هذا الرجل كان من بين القواد الفرنسيين الذين خانوا نابليون فى « ووترلو » ورحلت الحملة من ميناء طولون فى ( ٢٥ مايو ١٨٣٠ ) وكان عدد رجالها سبعا وثلاثين ألف رجل ، وكانت الحصومة بين قائد الأسطول والجنرال دوبريه شديدة وكانت الأمواج عالية ، وانتهب الأسطول أولا نحو مدينة يالما عاصمة البليار .

وفى يونيو اقترب الأسطول من ساحل الجزائر ورسا عند سيدى فروح ، وكان اللقاء بين القوات الفرنسية وقوات الداي . وبعد قصف ذريع بالمدفعية تحطمت

دفاعات مدينة الجزائر ودخلها الفرنسيون في ( ٥ يوليو ١٨٣٠ ) بعد أن حصل الداي على وعد بسلامة شخصه وآله وأمواله وحرية المكان الذي يذهب إليه . واحتل الفرنسيون مدينة الجزائر ولم يفعلوا بعد ذلك شيئا لمدة ستة شهور ، ولكن غزو فرنسا للجزائر بدأ ، لأن تركيا — والمفروض أنها كانت مسئولة عن سلامة الجزائر — لم تحرك ساكنا — والداي اختفى . وكان اختلاف الرأي في فرنسا حول الموضوع عتيفا فان المجتهدا اعترضت وميتريخ لم يفهم المراد من وراء ذلك الغزو والشعب الفرنسي لم يعطرب للغزو ولم ير فيه نصرا وكسبا . وبعد ستة شهور أرسلت فرنسا قائدا جديدا هو كلوزل تحرك بالجنود في اتجاه قسنطينة في ( فبراير ١٨٣١ ) وظهر من أهل الجزائر نفر لم يتظروا للأمر على أنه غزو أجنبي وانضموا إلى الفرنسيين جهلا وغباء . وكان كلوزل يرى الاستيلاء على نواحي الجزائر بالخداع واللين والحسن الظاهرة ولكن بقية الجيش كانت تريد العنف وبعد استيلاء الفرنسيين على المدينة والقليعة ظهرت أعظم شخصية جليلة في تلك المأساة كلها ، شخصية عبد القادر الجزائري .

### الأمير عبد القادر بن محي الدين الهاشمي :

عبد القادر كان أصغر أولاد الشيخ محي الدين من بني هاشم قرب مسكرة من بلاد الغرب . وكانت للرجل مكانة عظيمة في قلوب الناس ، وكان الفرنسيون قد استولوا على وهران في الغرب ثم توقفوا وفزع الناس إلى الشيخ محي الدين ليقودهم في الصراع ضد الفرنسيين ولكنه كان مسنا فنصحهم باختيار ابنه عبد القادر وكان شابا شهما ومسلما عظيمًا فقبل القيادة وانضم إليه أهل الغرب الجزائري جميعا فيما عدا قبيلتين هما : الرماللة والدولير ، ولكن كانت معه قبائل قوية مثل بني هاشم وبني عامر وغرابة ، وقد بدأت قيادته في ( ٢٥ نوفمبر ١٨٣٢ ) ، وقد ظهر بمظهر الزعيم القوي القادر على القيادة من أول الأمر ، وشهد له بالتميز فرنسيون كثيرون منهم الجنرال « ازان » الذي أعجب بهدوئه ورياسته وإيمانه التام بضرورة إخراج الفرنسيين من الجزائر ولينه وبعده عن العنف وأمانته في المعاملة . والجنرال « ازان » قال إنه لا نسبة إطلاقا بين أخلاقيات عبد القادر وتدهور أخلاق القواد الفرنسيين الذين واجهوه وانتصر عليهم أول الأمر . وانتشر سمته مع فرنسا ذاتها ومال الجنرال دي ميشيل إلى التفاهم مع الأمير عبد القادر وترك غرب الجزائر له فيما عدا الميناء وهران



ومستعالم وازرو وبالفعل وقعت فرنسا مع عبد القادر الصلح المسمى بمعاهدة ديمشبا في ( ٢٤ فبراير ١٨٣٤ ) الذي اعترفت فرنسا له بالسيادة على غرب الجزائر ووثق هو بشرف الفرنسيين فمضى يحكم البلاد التي اعترف له بالسيادة عليها حكما عادلا نظاميا بميد النظر . وكان هذا الصلح أشبه بهدنة للفريقين فكلاهما كان يريد أن يحصل على مهلة يدبر خلالها وسيلة للخلاص من الآخر . ولكن عبد القادر لم يكن يفكر في الخيانة ، إنما هو كان يرجو أن يجمع أهل البلاد حول راية الإسلام والعروبة .

وبينما كان عبد القادر يرتب أموره في بلاده ويمد سلطاته على جزء من يلقبه ططرى كان الفرنسيون يرتبون أمورهم للقضاء عليه فأقاموا الجنرال تريترل قائدا لجيش الجزائر وزودوه بجيش عدته أحد عشر ألفا مسلحين بالأسلحة والمدافع الثقيلة والخفيفة . ومضى الفرنسيون بقيادة الجنرال تريترل يخضعون شرق البلاد ويعملون على الاستيلاء على بونة وقسطنطينية ، أما عبد القادر فقد كان رجاله قد انتصروا على الفرنسيين في موقعة المقطع وقتلوا خمسمائة من جيش عدته ألفا رجل ، وهذا النص الجزائري زاد في جاه عبد القادر ودفع الاستعماريين الفرنسيين إلى مضاعفة الجهود للقضاء عليه مستخدمين أعنف الوسائل .

وللوصول إلى ما كانوا يدبرونه أقاموا قائدين من أعنف الفرنسيين هما دامرمون وبوجو ولكي يستطيع الفرنسيون تنفيذ سياستهم وقموا مع عبد القادر ( معاهدة الثافنا ) في ( ٣٠ مايو ١٨٣٧ ) التي اعترفت له فيها بضرب الجزائر عدا وهران ومستعالم وازرو ، ودخلت تلمسان في طاعة الأمير فيما عدا المشور الذي تمسك به جنود الأتراك القولوجية ، وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح معظم الجزائر فعلا في يد الأمير الجزائري .

وفي أثناء ذلك أرسل بوجو حملة قوية للاستيلاء على قسطنطينية ، وكانت المعركة عنيفة فقتل فيها مئات الفرنسيين وبعض القادة ولكن القائد الفرنسي استطاع بفضل جماعة من جنود الزواعة الجزائريين إحداث ثغرة في السور ودخول البلد وعلى أثر ذلك تم الاستيلاء على قسطنطينية في ( ٢٣ أكتوبر ١٨٣٧ ) وعقب ذلك تغير الموقف تماما فقد سقطت « مهلة » و « سطيف » و « جيجل » وتمت سيطرة فرنسا .

وكان الأمير عبد القادر يرجو أن يستمر السلام بينه وبين فرنسا حتى يستطيع تقوية دولته الجزائرية ، ولكن استيلاء الفرنسيين على قسطنطينية ثم الغرب الجزائري

كله قلب الأمور كلها رأساً على عقب ومضى الجنرال بوجو يبعث في البلاد فساداً مستخدماً أقصى الأساليب حتى كان يزيل القرى وسكانها بالار . وقد شمل البلاد كلها ظلمه وانتشر الخوف وترك الناس قراهم هاربين إلى الجبال وعلى أثر ذلك تدهور مركز الأمير عبد القادر ووجد أن الأسلم للبلاد أن ينتقل مع طائفة صغيرة من جمده إلى أرض المغرب في ( مايو ١٨٤٣ ) ولكنه عاد وكسر الفرنسيين في موقعة قرب نهر التافا واضطر الجنرال بوجو الذي رقى إلى رتبة الماريشال إلى العودة من فرنسا ومعه قوة تعددها ( ١٠٦ آلاف جدي ) وها صاعب عسفه وتخريبه وقاد أسوأ حرب استعمارية عرفها التاريخ إلى ذلك الحين ، وعاد عبد القادر إلى المغرب حفاظاً على الباقين من أهلها ، واستقبله سلطان المغرب بالترحاب وإن كان الخوف من ذلك الارهاب الفرنسي ملأ القلوب . وعزلت فرنسا الماريشال بوجو وأقامت مكانه ولي العهد الدوق دومال فسلك سياسة لين مع الجزائريين ، وعلى أثر ذلك استسلم الأمير عبد القادر للجنرال لامور سبير هترك له الاميراطور نابليون الثالث الحرية في الانتقال إلى أي بلد يختار من بلاد المشرق الإسلامي فاختار دمشق في ( ٢٧ أكتوبر ١٨٤٧ ) وهناك عاش بقية عمره بعد أن حلف في التاريخ أجمل ذكرى بخلفها قائد مسلم بطل . وإذا كنا نؤرخ الآن للجزائر التي استقلت من الاستعمار الفرنسي بعد ثورة أبطال استمرت من ( ١٩٥٦ ) إلى ( ١٩٦٢ ) فلا بد أن نذكر ها أن عبد القادر يعد بحق من بناء العالم الإسلامي الحديث .

حقاً إن الأمير عبد القادر لم يستطع أن يحول بين فرنسا والاستيلاء على الجزائر واضطر إلى التسليم في النهاية ولكنه ليس مسلولاً عن ذلك فإن انهزام العالم الإسلامي كله أمام الاستعمار وقع نتيجة لتدهور سياسي واقتصادي عام للبلاد الإسلامية بدأ باختماء حكومة الشورى من عالم الإسلام نتيجة لأن نظام الخلافة نفسه كان يحتاج إلى تجديد وتنظيم ، والعقهاء الذين بذلوا جهنم عظيمًا في ضبط كل التصرفات المادية التي يقوم بها الإنسان من بيع وشراء ورهن وإرث وزواج وطلاق ونفقة وما إلى ذلك لم يتنبهوا إلى أن قيام الخلافة كان يحتاج إلى تجديد مدة الخليفة بزمان وكان يحتاج أيضاً إلى تجديد سلطات الخليفة وإقامة سلطات شعبية من شأنها أن توقف الاستبداد عند حده ، وقد فعل الرومان ذلك فحدّوا المدة بستين لاهد أن يعزل الرئيس بعدها ويجيء غيره باختيار الناس ويجوز التجديد مرة واحدة ، أما نحن فقد أعجبنا بعدل أبي بكر وعمر وصلاحهما فغاب عما التجديد ، فلما جاء عثمان ووقعت

الأزمة الأولى بين الحاكم والمحكوم لم يتبها الفقهاء إلى أن القصية لن نحل إلا بتشريع وأنه كان لابد أن يقول العقهاء كلمتهم ويصعوا تشريعا يقرر أن السلطة كلها في يد الأمة ، ومن حق الأمة أن تنزع السلطان عمن ترى أنه عاجز عن القيام بالحكم على وجهه الصحيح ، وكان لابد كذلك من تحديد مدة الخلافة توكيدا لسلطة الأمة بعودة القرار إليها بعد فترة محددة ، وكان لابد أن تحدد سلطات الخليفة على الأنفس والأموال ولكن أحدا لم يفعل ذلك فظلنا نعلم بأن يكون خلفاؤنا من طراز أى بكر وعمر ، وهذا الطراز لا يتكرر فوقعت الأمة بعد استشهاد عثمان في أهدي معاوية بن أبى سفيان ، والخلافة تحولت إلى ملكية استبدادية وأى رئاسة بلا حدود ولا شورى ولا سلطان للأمة تتحول إلى ملكية استبدادية وراثية ، والاستبداد شل الأدهان وعطل فكرا وأخرجنا عن الحدود التى وضعها الله سبحانه ورسوله لأمة الإسلام التى كان ينهى أن تظل أمة حرة وشورى حتى تظل أمة إسلام .

لهذا كان لابد أن يحسر الأمير عبد القادر المعركة كما خسرتها كل دول الإسلام أمام الاستعمار فقد خضنا المعركة مع الغرب بنظام سياسى شليل وعاجز ونظام اقتصادى أعرج وخزائن مقلصة وتقدم علمى قليل ، لأن ملوك الاستبداد لا يحبون العلم أو العلماء .

### تونس من الحكم التركى إلى الغزو الفرنسى :

وكانت الدولة الحفصية قد تدهورت تدهورا بالغا ، وفي عهد سلطانهم الثانى والعشرين « أبى عبد الله محمد الحسن بن محمد الخامس » ( ٩٣٢ — ٩٤٢ هـ / ١٥٢٥ — ١٥٣٥ م ) بلغ التدهور أقصاه وخرج أعراب تونس عن السلطان ، وحاف خير الدين بارباروسا من أن تقع البلاد في يد الاسبان فغزا تونس سنة ( ٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م ) وصممها إلى دولة آل عثمان . وكان ذلك في عصر السلطان « سليمان القانونى » « وهرب » محمد الحسن بن محمد إلى الصحراء وحاول الاستنجاد بالأعراب فلم ينجده أحد ، وبلغت الحسة بهذا الرجل أن ذهب إلى شارك الخامس ( شركان ) سليل المايسورج وملك اسبانيا واستجد به فأجابته وأرسل جيشا استولى على تونس سنة ( ٩٤٢ هـ / ١٥٥٣ م ) وقام الاسبان بنهب البلد واحراق المساجد واستباحة الأعراض ، وهذا « الحسن » ساكن يحكم باسم الصبارى ، بل إن الاسبان نهبا جامع الزيتونة ، وكان آية فى الجمال والفنى

فصيره حرابا ، ووقع « الحسن » معاهدة حصوع لشركان أجحفت بكرامة الإسلام والمسلمين في ( صفر ٩٤٢ هـ / يونيو ١٥٣٥ م ) وثار الناس على الاسبان برعامة « أبي العباس أحمد بن الحسن » فقام الناس معه واستردوا تونس وقبضوا على الحسن وسملوا عييه ، ثم لم يلبث أن مات سنة ( ٩٤٢ هـ / ١٥٣٥ م ) .

وكان الإسبان قد استولوا على جزيرة « جربة » ومدينة « طرابلس » فأرسل السلطان العثماني سليم الثاني القائد العثماني الرئيس درغوث باشا فاستعاد « تونس » و « جربة » و « طرابلس » من أيدي الاسبان وبعد وفاة « خير الدين بارباروسا » تولى أمر الجزائر « علي باشا » فأقبل وفتح تونس سنة ( ٩٧٧ هـ / ١٥٨٩ م ) وهنا عهد أبا العباس أحمد هذا يتجه إلى الاسبان ويستعين بهم على الأتراك ، فقبلوا وفرضوا على تونس حماية مذلة ، ورفض أبو العباس بن الحسن ذلك ، ولكن أخاه محمد قبل الحماية الاسبانية وترل الاسبان حلق الوادي وألقوا بالناس ظلما فادحا فهرب الناس إلى الصحراء ، ورأى السلطان العثماني « سليم الثاني » أنه لابد من إخراج الاسبان من البلاد هائيا والقضاء على كل أثر للحميين ، وتم ذلك على يد الصدر الأعظم « سان باشا » في جمادى الأولى ( ٩٨١ هـ / سبتمبر ١٥٧٣ م ) وعلى يد « سان باشا » تحولت تونس إلى ايلة عثمانية يحكمها باشا تركي يؤيده وحاك من الانكشارية من أربعة الاف مقاتل يرأسهم الاعا ويؤيده الأسطول وعلى رأسه القبودان ريس ، ويعاود الياباشا ديوان من الأعا والقبودان وعر من كبار الأتراك وأهل البلاد ثم صارت رئاسة البلاد إلى الدايات وهم من رؤساء الحمد وكان ذلك سنة ( ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠ م ) .

وعندما تولى أمر البلاد الداي « حسين بن علي » في ربيع الأول ( ١١١٧ هـ / يوليو ١٧٠٥ م ) أسس أسرة ملكية وراثية أكبر أمراتها « حمودة باشا » وكان حاكما قديرا ، وأعظم أعماله غزو طرابلس وتأمينه حكامها القرامليين على العودة إلى السلطان سنة ( ١٢٠٩ هـ / ١٧٩٥ م ) في ظل الحسينيين القونسيين .

وفي عهد مصطفى باشا ( من خلفاء حمودة باشا ) بدأ الفرنسيون في غزو الجزائر فحاجهم مصطفى باشا وحاول انقاذ بلاده من أيديهم ، فشرع في إدخال إصلاحات واقتصر من فرنسا أموالا ، وانتهى الأمر بفرض الحماية الفرنسية على تونس في جمادى الثانية ( ١٢٩٨ هـ / مايو ١٨٨١ م ) .

## المغرب الأقصى : الأشراف السعديون والأشراف العلويون والاحتلال الفرنسي :

يمكن القول بأن المغرب الأقصى كان أحسن حالا من معظم البلاد الإسلامية في العصور الحديثة وهي عصور النهوض لأن اتجاه تاريخه وطبيعة أهله أرادت له أن تحكمه أسراتان من الشرفاء القادرين التحمسين للإسلام ، وقد سبق هاتين الأسرتين ، وبعد أيام المدهيين وفي أثناء عصر بني وطاس أن اشتد الحماس الصليبي في اسبانيا والبرتغال وأصبحت الخروب متصلة بين الاسبان والبرتغاليين من ناحية وأهل المغرب من ناحية أخرى ، لأن دول البرتغال بعد أن أقفلت في وجهها باب التوسع في شبه الجزيرة الأيبيرية اتجهت مطامعها الى شواطئ المغرب واحتلت مواضع مثل طنجة والقصر الكبير وانما وهي الدار البيضاء وآزمور ومازغان وآسفى والمعجوز وأغادير وماسة وانشأوا فيها مراكز تجارية ومستعمرات صغيرة عرفت بالفرونثيرات ولكنهم نادرا ما توعلوا داخل البلاد . وهذا التهديد الصراني دفع إلى قيام جماعة صوفية مركزها تارودانت وهي جماعة أبو حسون السملالي بمهاجمة المراكز البرتغالية وتمكنوا من استعادة أغادير وآزمور وآسفى فارتفعت همم المسلمين وبعض نفر من شرفاء الحبوب هم السعديون وانشأوا دولتهم السعدية وأعلنوا أنهم سيتجهون إلى حرب البرتغاليين وقيادة الجهاد ضدهم ، وأيدهم الناس في ذلك ، وكان شمال المغرب الأقصى قد وقع في أيدي بني وطاس ، وكانوا أول الأمر من رجال المدهنيين ، فلما نهض السعديون تمكنوا من التغلب عليهم وإنهاء حكمهم وبسط سلطانهم على المغرب كله في ( سبتمبر ١٥٥٤ ) .

وكان أول السلاطين السعديين أبا عبد الله محمد القايم بالله بن عبد الرحمن بن على ، وقد بدأ يحكم سنة ( ٩٥٥ هـ / ١٥١٨ م ) وكانت عاصمة حكمه فاس ، ولكن أسعدهم حظا كان أبو مروان عبد الملك بن محمد المهدي ( ٩٨٣ - ٩٨٦ هـ / ١٥٧٥ - ١٥٧٨ م ) الذى وصل إلى العرش بمعاونة الأتراك العثمانيين وتمكن في ( ٤ أغسطس ١٥٧٨ م ) من كسب نصر وادى بخارن العظيم قرب القصر الكبير في شمال المغرب الأقصى وهو نصر حاسم للمغرب على البرتغاليين وحلفائهم وقد قتل في هذه المعركة الملك سباستيان ملك البرتغال والسلطان المغربي السعدى المخلوع أبو عبد الله محمد المتوكل على الله ومات في نهاية المعركة أبو مروان نفسه إذ إنه كان مريضا قبل المعركة ، ولهذا تسمى هذه المعركة بمعركة « الملوك الثلاثة » فخلعه احوه

أبو العباس أحمد بن محمد المهدي الذي تلقب بالمنصور ولقب بالذهبي بسبب عاه ووفرة ماله (٩٨٦ - ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ - ١٦٠٣ م) وقد وضعت هذه المعركة حدا لمطامع البرتغاليين في المغرب من ذلك الحين أخذ هؤلاء يحلون مواقعهم فيه ويتجهون إلى بحار أفريقيا الشرقية وآسيا الجنوبية العربية .

وهذا هو الذي رفع السعديين إلى مراتب كبار السلاطين لاقى للمغرب فقط بل في كل بلاد العرب الأوروى ، وكان أحمد المنصور قد كسب أموالا طائلة من معام المعركة أولا ثم من فدييات أسراها . وبفصل الثروة والسعة العظيمة استطاع هذا السلطان السعدي أن ينشر في بلاد المغرب أمنا لم تعرفه من أيام الموحدين وقد استطاع أن يمد سلطانه جنوى وادى درعة واستولى على قوات وطمع في الاستيلاء على تعارى في الصحراء الكبرى وكانت سوقا عظيمة للملح الذي كان يعتبر من أكثر مصادر الثروة في أفريقيا العربية المدارية والاستوائية وكان الناس يأتون إلى هناك بثر الذهب فطمع فيه المنصور وأرسل حملة بحرية إلى « تمبكتو » لم يحسن اختيار رجالها إذ كانوا من العائدين إلى الإسلام من الموريسكيين الوافدين على العرب ، وأقام في قيادتها جوذر باشا ، وقد خربت هذه الحملة مملكة صعامة الإسلامية وعادت على المنصور الذهبي مآل وغير أول الأمر ولكنها أصبحت بعد ذلك كارتة على أفريقيا الإسلامية .

وبعد أن أسس المنصور الذهبي تدهورت السلطة وضاع أمرها بين الحروب الأهلية وسوء الحكم وتفاخمت السلطان على المغرب جماعات الروايا الصوفية خصوصا راوية أبو حسون السملالي في الحبوب وزاوية الذيلة في الشمال . وفي منطقة سجلماسة ظهر الشرفاء العلويون وأولهم الرشيد بن محمد بن علي بن يوسف بن علي بن حسن (١٠٧٥ - ١٠٨٢ هـ / ١٦٦٤ - ١٦٧١ م) وكانت عاصمته مكاس ، وكان أعظم سلاطينها في الإسلام وأطولهم حكما (دو الحجة ١٨٠٢ - رجب ١١٣٩ هـ / مارس ١٦٧٣ - فبراير ١٧٢٧ م) وكان رجلا بالغ الشايط واسع الذكاء بالغ الخزم ، وقد استطاع أن ينشئ جيشين كبيرين أحدهما من بقايا العرب والبربر والثاني من السود الأفريقيين الذين جمعهم من كل نواحي المغرب وأنزهم في مشروع الرمل قرب مكاس عاصمته ودرهم تدريبا عظيما سماهم بالبخارية ( لأن الواحد منهم إذا انتهى تدريبه وأصبح صالحا للحرب أقسم على البخارى ودخل في اعداد العبيد البخارية ) وبفضل هذين الجيشين استطاع المنصور أن يقيد وحدة البلاد ويقم فيها دولة بالغة

القوة . وكانت عاصمته مكاس قد أنشأها انشاء جميلا وأصاف إلى المغرب بذلك عاصمة ثالثة بالغة الحسن والبهاء وبمحصل هذا الرجل ارتفع صيت المغرب في العالم كله وصالحه الأتراك العثمانيون وبلعت البلاد مبلغا عظيما من الرخاء .

ولكن البلاد أخذت تتدهور من بعده ، وقد بذل بعض خلفائه جهودا عظيمة في إعادتها إلى ما كانت عليه ، ولكن الزمان كان يتغير ففي سنة ( ١٢٤٦ هـ ) المواجهة لسنة ( ١٨٣٠ م ) وفي عهد السلطان محمد الثاني بن عبد الرحمن بدأ الفرنسيون في غزو الجزائر ووجم سلطان المغرب لأن الخطر على بلاده صاردهما وبخاصة عندما ظهر الأمير عبدالقادر ولجأ إلى المملكة المغربية .

ولم يستطع العلويون حماية بلادهم تماما من الفرنسيين لأن عصر الاستعمار كان في الطريق إلى بنوغ دروته ، والصراع كان بين بلاد تملك السلاح والعلم والنظام السياسي المتقدم وبلاد أخرى وقف تقدمها في هذه الواحي الأساسية ، وفي شوال ( ١٣٢٩ هـ / ١٩١٢ م ) أعلنت الحماية الفرنسية على المغرب ، وبذلك أكملت فرنسا امبراطوريتها المغربية أو الأفريقية .

وقد عانت بلاد المغرب كلها من الاحتلال الفرنسي أسوأ صور الاستغلال والاذلال ، لأن الفرنسيين لم يسوا قط أنهم كاثوليك يحاربون مسلمين ، وقد استطاع سلاطين المغرب الأقصى المحافظة على بلادهم مكتملة رغم الاستغلال الفرنسي الشائن ، أما الجزائر فقد قرر الفرنسيون أن يجعلوها جزءا من وطنهم الفرنسي وأرسلوا إليها ألوف بعد ألوف من المستعمرين الفرنسيين وحسبوا أنهم يستطيعون القضاء على الإسلام والعروبة لينشوا فيما بعد أنهم يطلبون المستحيل .

والحقيقة أن عصر الاستعمار كان عصرا مريرا بالنسبة لكل بلاد الإسلام لأن أظافر أوروبا الممتنة كانت حامية وقاسية ومطامعها في الأرض والثروة كانت بلا حدود ولكنها لم تحب الناس أو تحترمهم قط . وكان ذلك شرا عظيما في أيامه ولكن يبدو أنه كان شرا لا بد منه ، فقد كان لابد من تحطيم الاطارات السياسية والاجتماعية والثقافية القديمة والدخول بالبلاد في عصور جديدة ومناخ حضارى جديد ، وبعد أن تحررت البلاد من الاستعمار بدا بالفعل أن بلاد الإسلام حين قبست ما يصلح لها من حضارة الغرب دخلت في عصور جديدة من القوة ويكفي أن نذكر أن فرنسا التي كانت تريد أن تجعل بلاد الجزائر قطعة من الوطن الفرنسي أحسست عندما ثارت

الجزائر سنة ( ١٩٥٦ ) أنها لا تستطيع مواجهة الإسلام والعروبة ، وأحس الجبال  
ديبول أنه ما لم تتحلل فرنسا عن الجزائر تعرضت فرنسا نفسها للسقوط فقرر التخلي  
عن الجزائر ، وبالفعل خرج المغرب العربي كله من الاستعمار الفرنسي سليما معاف ،  
وكذلك خرجت بقية بلاد الإسلام وقد دخلت بالفعل في عصر نهوض لا شك فيه .

ولكن ، ما الذي كسبناه - أو نحاول كسبه في عصر النهوض هذا ؟  
إنه العلم والعمل بالعلم والعمل بإخلاص وصدق وإتقان ، والامتنان بالله والوطن  
والعس ، والحرية والشورى واحترام الإنسان للإنسان والعدالة والمساواة والتقدم  
وتحسين مستوى الحياة ومشر السلام في الأرض وأليس هذا كله في القرآن والإسلام ؟  
أليست هذه كلها موجودة في الأمة التي أنشأها رسول الله ( ﷺ ) في المدينة وسار  
عليها وأخذ بها عامة المسلمين ؟ ! أليست هذه هي السمة كما ينبغي أن تكون ؟

أجل كل هذا عدنا ولكننا انحرفنا عنه بل سيناها ، وما كان ينبغي قط أن نحرف  
عنه أو نساه ، فهو في الحق طريق السعادة والسلامة والأمن في هذه الدنيا وسبيل  
الخلود في جنة الله في الآخرة .

بكلمة قصيرة نستطيع أن نقول إن عصر النهوض هو عصر العودة إلى الإسلام  
بعد طول انحراف وضلال .







كشف

عالم الإسلام



## كشاف

[١]

أجدای بن جنکیز خان : ١١٤	آدم : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣
أجرا (أو أكرا) : ١٠٢ ، ١٠٣	٢٤ ، ٢٥ ، ٣٢
١٠٤ ، ١١٩ ، ٢٤٤	آزمور : ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٨٤
٣٧٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧١	آزران : ٤٧٩
أجادیس : ٨٢ ، ٨٣	الآستانة : ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥
أحد ، غروة : ٣٧ ، ٤٤ ، ٢٣٩	٣٤٥ ، ٣٨٥ ، ٤٧٣
الأحزاب ، غروة : ٢٣٩	أسفى : ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٨٤
الأحساء : ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٤	آسيا : ١٥ ، ٤٣٨
أحمد خان : ١٠٣	آية الله الحمصی : ١٢٠
أحمد عراقی : ٤٤٤ ، ٤٤٥	أباقا : ١١٥
أحمد افروق : ٤٣٦	إبراهيم بك : ٤٤١ ، ٤٤٠ ، ٤٤١
أحمد المصور النعمی : ٣٨٧ ، ٤٨٥	٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩
الأحر ، بنو : ٣٢٠ ، ٣٢٧	٤٥٠ ، ٤٥١
الإخشيد ، محمد بن طمع : ٢٨١	إبراهيم بن أحمد الأعلى : ٣١٧
أحميم : ٥٦ ، ٢٢١	إبراهيم بن محمد علی : ٤٤٥ ، ٤٤٦
إحوان الصفا : ٣٣٥	٤٤٨ ، ٤٦٢
الأخضر ، قصر : ٣١٤ ، ٣٤٥	إبراهيم بن يعقوب الطليطل : ٢٥٣
الأدارسة ، دولة : ٩٠ ، ٩٤	الإبرو ، نهر : ٨٨
أدرنة : ٣٢١	إيليس : ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٢
الإدریسی ، الشريف : ٥٦ ، ٢١٤	أبناء الكنز ، قبائل : ٩٥
٢٢١ ، ٢٣١	الأبواب ، جبال : ٨٨
إدواردلین : ٤١٧	أبی بن كعب : ١٥٤ ، ١٦٧
أدریجان : ٨٦ ، ١١٨ ، ٢٤٥ ، ٣٦٤	الأبيض : ٩٥
أرامكو : ٤٦٩	أبيط : ٨٨
أرتيريا : ١٨ ، ٤٥٧ ، ٤٧٠	الاتحاد السوفيتی : ١١٩
الأرثوذكسية : ١٥	أتیلا : ١٠٢
أرجند بانو بيگم : ١٠٣ ، ٢٤٤	الأثوسية : ١٥
الأردن : ٤٥٤	ابن الأثير ، عز الدين : ٢٣٠
	أثينا : ٢١٠

إسماعيل الصمصوي ، الشاه : ١٠٢ ،  
 ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٦٦  
 إسا : ٩٥  
 أسوان : ٩٦  
 أسيد بن حضير : ١٤١  
 الأشبونة : ٩١ ، ٢٥٠ ، ٣٧٨  
 إشبيلية : ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٢١٢ ،  
 ٢٣١  
 الأشر النحفي : ٥٣  
 أشتوريس : ٨٨  
 الأشرف خليل بن قلاوون ، السلطان :  
 ١١٣  
 الإشكازية : ٢٥٢  
 إصطخر : ٨٥  
 أصمهان : ٢٨١ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ،  
 ٣٤٦ ، ٣٦٢  
 الأصفهان ، أبو المرح : ٧ ، ٣٣٤  
 ابن أبي أصيبعة : ٢٥٤  
 أصيلا : ٢٨٣ ، ٣٨٦  
 أعا : ٣٩٢  
 أغادير : ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٤٨٤  
 الأعالية : ٣٣٦ ، ٣٩٥  
 الأغب ، بنو : ٣١٧  
 أفريقيا : ١٨ ، ٩٦  
 أفريقيا الشرقية : ٤٨٥  
 أفريقيا الغربية المدارية : ٤٨٥  
 الأفغان : ٣٦٤ ، ٣٧٤  
 أفغانستان : ٨٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،  
 ١٠٢ ، ١٢٤ ، ٢٤٥ ، ٣٦٤  
 أفسوس الثاني : ١٥

أرسطو : ٢٣٠  
 أرفطول : ٣٥٨  
 الأرمن : ٨٦ ، ٢٥٠  
 أرمينيا : ٨٦  
 أروى بنت عبد المطلب : ٢٣٩  
 الأزد : ١٣٩ ، ١٩٥  
 الأوزق : ٢٣٠  
 أزرو : ٤٧٩  
 الأزهر : ٤١١  
 الأساقفة : ١٦  
 الأسالة : ١٤٨ ، ١٧٥ ، ١٧٩  
 أسامة بن زيد : ٦٠  
 الإسبان : ٤٧٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤  
 إسبانيا : ٧٦ ، ١٠٩ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ ،  
 ٣٠٠ ، ٣٢٦ ، ٣٥٧  
 ٣٧٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥  
 ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨  
 ٣٨٩ ، ٣٩٩ ، ٤٧١ ،  
 ٤٨٢ ، ٤٨٤  
 أستاذ علي أكبري أصمهان : ٣٢١  
 أستاذ محمد : ٣٢٤  
 إستانبول : ١٦٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦١  
 الاسترداد ( لاريكونكيستا ) : ٣٨٢  
 إسحاق بن راهوي : ٥٤  
 ابن إسحاق ، محمد بن يسار : ١٥٠ ،  
 ١٥١ ، ١٥٣  
 أسد بن الفرات : ٩١  
 إسرائيل : ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٧٠  
 الإسكندرية : ٨٧ ، ٢١٤ ، ٢٨٢  
 ٤٠٦ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٤٥  
 الإسكوريال : ٣٨٨  
 أسلم ، قبيلة : ١٧٤

الأناضول : ٢٤٥ ، ٣٥٨ ، ٣٧٠ ،

٤٧٣

إنجلترا : ٥٧ ، ١١٨ ، ٣٣١ ، ٣٥٧ ،

٣٧٩ ، ٣٦٤ ، ٣٧٥ ،

٣٩٩ ، ٤٠٦ ، ٤٤٣ ،

٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ ،

٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،

٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٥ ،

٤٧٦ ، ٤٧٩

الإنجليزية : ٣١ ، ٣٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،

١٠٧ ، ٢٨٦ ، ٣٦٢ ،

٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٥ ،

٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٤٣٢ ،

٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،

٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،

٤٥٠ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ،

٤٥٦ ، ٤٦٢ ، ٤٦٧

أعولا : ٩٨

أندريا دوريا : ٣٩١

أندرية جوليان : ٤٧٢ ، ٤٧٦

الأنجلس : ٣٠ ، ٤١ ، ٧٦ ، ٨٨ ،

٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١٢٤ ، ١٧٣ ، ١٩٥ ،

٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ ،

٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،

٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٩ ،

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٢ ،

٣٠٠ ، ٣١١ ، ٣١٧ ،

٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ،

الأنباط : ١٥ ، ١٨٧ ، ٢٥٠

أكتافوس أغسطس : ٤٢ ، ٥٣

الأكاسرة : ٨٦ ، ٢١٠

أكبر ، سلطان : ١٠٣ ، ٣٧٤

أكرا ( أجرا ) : ١٠٢

الأكراد : ٨٦ ، ٣٧٣

إكوانور : ١١٨

ألب تكين : ٩٩

ألبانيا : ٣٦٠ ، ٣٩٠ ، ٤٣٩

ألفوسودا ألوكر ك : ٣٧٨

الألمان : ٤٥٣ ، ٤٦٧

ألمانيا : ١١٨ ، ٣٣١ ، ٣٥٧ ، ٣٧٥ ،

٣٩٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣

إليرايث ، ملكة إنجلترا : ٣٦٢ ، ٣٧٩

أمبوانجا : ١٠٦

أمريكا : ٤٥٠ ، ٤٥٣

الأمويون : ٤٨ ، ٦١ ، ٨٠ ، ٩٩ ،

١٥١ ، ١٩٥ ، ٢٨٣ ،

٣١١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ ،

٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٣

أميانوس : ٤٢

أمية ، بو : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ،

٥١ ، ٥٣ ، ٨٠ ، ٩٠ ،

٩٩ ، ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٧١ ،

١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٤٧ ،

٣١٥ ، ٣٤٥ ، ٣٧٦ ،

٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،

٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٥٨

أمية الأكبر بن عبد قيس : ١٩٥

الأمين ، الخليفة : ٨١

أمين الرمحاني : ٤٢٩

٤٧٧ ، ٤٨٦

أوربان الثاني ، البابا : ١١٠

أوزبكستان : ١١٨ ، ٣٦٤

أوزون حسن : ٣٦١

الأوس : ٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٥

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩

١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧١

١٧٥ ، ١٧٦

أوغسطين : ١٦

أوعندا : ٩٨ ، ٢٥٠

أوليفر نورث ، ضابط : ٣٤

أوهانوفر : ٥٧

ابن لغاس الحنفي : ٣٥٦ ، ٣٦٥

الإيمو ، قبائل : ١٠٨

الإيبيرية ، شبه جزيرة : ٤٨٤

إيران : ٣٢ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٧٥ ، ٧٦

٨١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧

١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٤

١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠

١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٩٢

١٩٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠

٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥

٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٩

٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٧

٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤

٣٢٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤١

٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٨

٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢

٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥

٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٤١٤

٣٣٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٦

٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٢

٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥

٤٠٢ ، ٤٥٨ ، ٤٧١

إندونيسيا : ٧٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦

١٠٧ ، ١٢٤ ، ٢٢٢

٢٥٠ ، ٢٧٦

أنس ابن مالك : ١٤٨ ، ١٥٤

الأنصار : ١١ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٩٤

١٢٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠

١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٩

١٧٧ ، ١٧٩

أنطاكية : ٨٤ ، ١١٠

أنطوني شيرلي ، السير : ٣٦٢

آما : ٤٨٤

أنقرة : ٣٦٠

الإنكشارية : ٢٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢

٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٩٢

٤٣٧ ، ٤٣٩

الأهرام ، معركة : ٤١١

أهل البيت : ١٥١ ، ١٩٦ ، ٢٠٤

أهل الذمة : ٨٧ ، ٢٥١

أهل السنة : ١٢٠

أهل الصفة : ١٤٧ ، ٣٠٣

الأهواز : ٨٥

أوجوتاي : ١١٦

أودغشت : ٢٧٤

أورانجزيب : ٣٧٥

أوروبا : ١٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٤٤٥

٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥

البحاء ، غزوة : ٩٦

بجاد ، ابن : ٤٦٨

بجانة : ٢٨٢

بجاية : ٣٨٩

البحري : ٤٠٨ ، ٣١٤

البحر الأبيض المتوسط : ٢٣٦ ، ٢٦٩ ،

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦

٢٨٢ ، ٣٥٧ ، ٣٧٠

٣٩١ ، ٤٠١ ، ٤٠٦

٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٧٦

البحر الأحمر : ٩٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٦

٤٥٧ ، ٤٧٠

البحر الأحمرياتي : ٣٥٩

البحر الأسود : ١١٤ ، ٣٦١ ، ٣٧٣

بحر البلطيق : ١١٤

بحر العرب : ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٣٧٧

٤٥٧

بحر قزوين : ٨٦ ، ٣٧٣

بحر الهند : ٢٦٩

البحرين : ٤١ ، ٨٥ ، ٤٥٨

بخاري : ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ٢٤٥

٢٤٨

بدر ، سهل : ٤٣

بدر ، غزوة : ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ١٤٩

١٥٤ ، ١٦٤ ، ١٧٨

بدمرو الماريت داكابرال : ٣٧٧

بدمرو القاسي : ٢٣١

البراء بن هازب : ١٦٧

البرازيل : ١١٨

برازافيل : ٢٥١

برالك ، سلطنة : ١٠٥

٤٥٧ ، ٤٥٦

إيطاليا : ١٠٩ ، ٢٢٤ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧

٣٣١ ، ٣٥٧ ، ٤٧٧

إيلات : ٤٧٠

الأيوبيون : ١١٢ ، ٣٥٥ ، ٣٧٥ ، ٤١٥

## [ ب ]

البايا : ١٩٣

باهر ( ظهور الدين محمود ) : ١٠٢

١٠٣

باب الشعرية : ٤٣٣

باب الفتوح : ٤٣٣

باب النصر : ٤٣٣

البايوية : ١١٠ ، ١١٥ ، ٢٢٩

ابن باجة : ٢٣٧

باح ، سباستان : ٣٠١

بارباروسا ، غير الدين : ٣٩٠ ، ٣٩١

٣٩٢

بارساي ، السلطان : ٣٦٥

باريس : ٢٢٤ ، ٤٠٠ ، ٤٥٢

٤٧٧

باشا - باشاوات : ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٩١

٣٩٢

باكستان : ٨٦ ، ٩٨ ، ١٠٣

بالعور : ٤٦٨

بانام : ٣٧٨

باهيج ، سلطنة : ١٠٥

بايزيد ، السلطان : ٣٦٠

بنافيا : ٣٧٨

البشر : ٨٩



اليراني ، جبال : ٨٩ ، ٩٠ ،  
 البراهما يوترا ، نير : ٢٤٦  
 البراهمة : ١٩٢ ، ٢٥٦  
 البربر : ٧٥ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٤٨٥  
 البرت ، جبال : ٨٨  
 البرتغال : ٥٧ ، ٧٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٧ ،  
 ٣٦٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨  
 ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٤٨٤  
 برشلونة : ٢٤٥  
 برغواطة : ٩٠  
 برقة : ٨٧ ، ٨٩ ، ١١١  
 بركة غان بن جوجي بن جكيرخان :  
 ١١٥  
 برمانيا ( بورما ) : ١٠٤  
 البروتستنتية : ١٦  
 بروسة : ٣٢١ ، ٣٥٨  
 بروناي ، سلطنة : ٢٩٨  
 برودة : ٤٦٤ ، ٤٦٦  
 بريطانيا : ٤٤١ ، ٤٤٩ ،  
 ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣  
 ٤٥٤ ، ٤٦٨ ، ٤٧٦  
 بسكايه ، خليج : ٨٨  
 بسكرة : ٨٨ ، ٢٣١  
 بسمارك : ٣٣  
 ابن بصال الطاطل ، أبو عبد الله : ٢٢٣  
 البصرة : ٧٢ ، ٨٥ ، ٢٠٩ ، ٢٧٦ ،  
 ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢  
 ٣٠٥ ، ٤٠٦  
 البطالة : ٤٣٢  
 بطرس الأكبر : ٤٣٧  
 بطرس الحواري : ١٦ ، ٢١ ، ١٨٨

ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد : ٢٤٥ ،  
 ٢٤٦ ، ٢٤٧  
 بعث : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥  
 بعلبك : ٨٤  
 بغداد : ١١٣ ، ١١٥ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ،  
 ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٣٢ ،  
 ٢٤٤ ، ٢٨١ ، ٣١٣ ،  
 ٣٣٦ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩ ،  
 ٣٦٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥ ، ٤٥٨  
 بقيق الفرقد : ١٤٨  
 البكتاشية : ٣٣٤  
 أبو بكر الصديق : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ،  
 ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ،  
 ٤٥ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،  
 ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٦٩ ،  
 ٧٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٢ ،  
 ١٢٣ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ،  
 ١٧٨ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،  
 ٢١٦ ، ٢٦٨ ، ٣٠٤ ،  
 ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٨١ ، ٤٨٢  
 أبو بكر الطرطوش : ٢٩  
 أبو بكر بن عمر : ٩٣  
 البكرية : ٤٦٥  
 بكن : ١١٤ ، ٢٧٦  
 بلاناجينيت : ٥٧  
 بلخ : ٨٥  
 بلغاريا : ٧٦  
 البلقان : ٣٦٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٤٤٤  
 بلصية : ٢٨٢  
 بلوخيستان : ٣٧٤  
 البليار ، جزر : ٤٧٤ ، ٤٧٨

بيثريوت - ٣٧٨  
 بحر عروبة : ١٤٩  
 بيروت : ٤٥٧  
 البيروني ، أبو الريحان : ١٠٠ ، ٢٣٦  
 بيسان : ١١٥  
 بيعة الرضوان : ١٦٥  
 بيعة العقبة : ١٧٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،  
 ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٦ ، ٢٦٨  
 بيلقية ططري : ٤٨٠  
 البهقي : ١٠٠  
 بيمر الجميل : ٤٥٦ ، ٤٥٧  
 بيمر لوقي : ١٤٦

### [ ت ]

التاج محل : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٢١٩ ،  
 ٢٤٤ ، ٣٢١ ، ٣٧٤  
 تارودانت : ٣٨٤ ، ٤٨٤  
 تارة : ٣٨١  
 التاضا : ٤٨٠ ، ٤٨١  
 تاهلالت : ٣٨١ ، ٣٨٤  
 تانزانيا : ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٧٦  
 تيريز : ٢٧٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،  
 ٣٦٣  
 توك : ٣٦  
 التتر : ٣٧٣  
 تربة : ٤٦٨  
 الترك : ٤٦ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٦ ، ١٢٤ ،  
 ١٩٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٧  
 ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩  
 التركستان : ٧٥ ، ٩٩ ، ١١٤ ، ١٢٤ ،

تل بن الحفاف : ١٤٠  
 ابن البناء : ٢٣١  
 البسجاب : ١٠٠  
 البندقية : ٣٥٧ ، ٤٤٩  
 بربرت : ٣٩١  
 الشمال : ١٠١ ، ٢٤٦ ، ٣٧٨  
 بني سويف : ٤٣٩  
 جواد : ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤٦  
 بهو الصباح : ٣٢٠  
 البوادي : ٣١١ ، ٣٤٤  
 بوجو : ٤٨٠ ، ٤٨١  
 البودية : ١٥ ، ١٠٤ ، ١٠٧  
 اليوروبون : ٥٧  
 بوركهاث ، يوهك : ٢١٥  
 بورما ( برمانيا ) : ١٠١ ، ١٠٤  
 بورنيو : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٩٨  
 بوروبدي : ٩٨  
 بوشاق : ٤٧٤ ، ٤٧٧  
 البوصري : شرف الدين محمد : ٤١٠  
 بولاق : ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦  
 بولس : ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥  
 بولندا : ٣٧٣  
 بوليميا : ١١٨  
 بوصباي : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٠٦  
 بونايرت ، نابليون : ٤٧٧ ، ٤٧٨  
 بونة : ٣٩٠ ، ٤٨٠  
 بوهه ، بنو : ٤٠٨  
 البويهيون : ٥٤ ، ٥٥  
 البيت الحرام : ١٩٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨  
 بيت المقدس : ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٠ ،  
 ١١١ ، ١١٢ ، ٢٥٤  
 ٣٠٣ ، ٤٤٨

التوراة : ١٥

توفيق باشا : ٤٤٤

تونس : ٩٠ ، ١١٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ ،

٣٨٩ ، ٣٨١ ، ٣٥٨

٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢

٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣

تيتس : ١٥

التيجانية ، التجانيون : ٢١٦ ، ٢١٧

التيجاني ، أحمد بن محمد : ٩٤

التيفاشي ، أحمد بن يوسف : ٣٣٧ ،

٣٣٩ ، ٣٣٨

تيموجين بن بطور : ١١٣

تيمور لك : ١٠٢ ، ٢٣١ ، ٣٥٩ ،

٣٦٠

ابن تيمية ، تقي الدين أحمد : ٦٢ ،

٤١٠ ، ٤٦١

[ ث ]

ثابت بن قرّة الحرائي : ٣٣٥

ثابت بن قيس بن الشماس : ١٦٧

ثعلبة ، بنو : ١٥٧

[ ج ]

جابر بن عبد الله : ٦٢

الجانيون : ٢٥١

الجابية ، مؤتمر : ٨٣ ، ١٩٥

الجاحظ : ٧ ، ٢٢٨ ، ٤٠٨

جاكائرا : ٣٧٨

جاكارتا : ٣٧٨

٣٦٤ ، ٣٢٣

الشمركان : ١٠٢ ، ١١٢ ، ٣٦١ ،

٣٦٥ ، ٣٦٢

تركيا : ٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ ،

٣٦٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،

٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٨ ،

٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٦٧ ،

٤٧٦ ، ٤٧٩

تركى بن عبد الله : ٤٦٣

تريزل : ٤٨٠

تريفيليان ، جورج مأكولى : ٧

تستر : ٢٤٨ ، ٢٧٢

تشاد : ٩٥ ، ٢٥١

تشاليديران : ٣٦٢ ، ٤٣٧

تشرشل : ٣٤

تطوان : ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤

تعازى : ٤٨٥

ابن تمرى بردى ، أبو الحسن : ٣٥٦ ،

٤١٠

تفتاران : ٢٢٠

تكريت : ٣٥٩

تكو دار أحمد : ١١٥ ، ١١٦

تلمسان : ٢٨٢ ، ٣٩١ ، ٤٨٠

أبو تمام : ٤٠٨

تبهكتو : ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٤٨٥

تسيغت ، نهر : ٨٧

تيس : ٥٦ ، ٢٢١

تيمامة : ٨٢ ، ٢٧٢

ثبودة : ٨٨

توجو ، ٢٥١

التوحيدى ، أبو حيان : ٢٢٨

٢٧٦ ، ٢٣٢ ، ٣٥٥

٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥

٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥

٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩

٤٥٣ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩

٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤

٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧

٤٦٨ ، ٤٦٩

الجزيرة العراتية : ٣٦٠

الجسر : ٨٤

بو جشم : ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧

ابن جمليل سليمان : ٢٣٠

جمال عبد الناصر : ٤٤٨ ، ٤٥٦

جمال ، الوالي : ٤٦٧

الجمهوريات الإيطالية التجارية : ٣٦٥ ، ٣٧٠

جسكيزخان : ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٤

١١٦ ، ٢٣٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠

جوة : ٣٥٧ ، ٣٨٣

الخنيزة : ٢٥١

الخنيزاري ، ابن عبدوس : ٣٩٦

أبو جهل : ٤٣ ، ١٧٠ ، ٢٦٩ ، ٣٢٥

جهينة ، حرب : ٣٥ ، ٩٦

جوا : ٣٧٧

جودر باشا : ٤٨٥

جورج واشطن : ٥٠

ابن الجوزي ، أبو العرج عبد الرحمن : ٢٠١

جوزيفوس : ٤٢

الجوصق ( قصر الخليفة المتوكل في

سامراء ) : ٣١٤ ، ٣٤٥

جولدنزير : ١٨

الجامع الأقصر : ٣١٦

جامع القدس : ٨٣

جامعة باهيا : ١١٨

جامعة القرويين : ٢٤٤

جامعة الكويت : ١٠

جان بيتر زون كوين : ٣٧٨

جان دي بريون : ١١٢

جامعنجير ، السلطان : ٣٧٤

جلاوة : ١٠٥ ، ٢٧٦ ، ٣٧٨

الجبرولي ، عبد الرحمن : ٢٠٠ ، ٤١١

٤١٢ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨

٤٣٢ ، ٤٣٣

الجسفة : ٤٦٤

جدالة ، قبيلة : ٩٢

جدة : ٤٦٧

جربة : ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٨٣

جرجس الجوهري : ٤٣٦

الجواثر : ٨٨ ، ٩٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٥

٢٣٦ ، ٢٨٢ ، ٣٨١

٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩

٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢

٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣

٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦

٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩

٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧

الجزولي ، محمد بن عبد الرحمن : ٩٤

الجزولية ، الطريقة : ٣٨٤

الجزويت : ٢٢٩

جزيرة العرب ، الجزيرة العربية : ٥٧

٦٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ١١٩

١٣٩ ، ١٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠

٢٥٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢

جوهر الصقل : ٢١٤

جويوك بن أجداي : ١١٤

الجيتو : ٢٥٢

جيجل : ٤٨٠

جوان : ٤٦٩

الجليلة ، الجليليون : ٢٠٣ ، ٢١٦

## [ ح ]

حاجي غليمة : ٣٦٩

الحارث بن أسد الحاسبي : ٢٠٠

الحارث ، هو : ١٥٥ ، ١٥٧

ابن الحاسب المرسى : ٢٣٧

الحاف بن قضاة : ١٧٤

الحاكم بأمر الله : ٣١٦

حاتل : ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ،

٤٦٦

الحباب بن المنذر بن الجموح : ١٦٧

الحبشة : ١٥ ، ١٨ ، ٩٦

الحجاج بن يوسف : ١٩٦ ، ٢٠٣

الحجاز : ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٨٢ ، ٩٦ ،

١٤١ ، ٢٠٧ ، ٢٧٢ ،

٢٨٣ ، ٣٣٤ ، ٣٥٦ ،

٣٨٤ ، ٣٩٥ ، ٤١٠ ،

٤١٤ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ،

٤٥٣ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ،

٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩

ابن حجر المصقل ، أحمد : ٥٨ ، ٤١٠

الحديبية : ١٦٢ ، ١٧٨

حران : ٢٥٠

حرة واقم : ١٣٩

حرة الوبرة : ١٣٩

الحرقان : ١٣٩

الحريري ، أبو القاسم : ٢٢٧ ، ٣٢٤

ابن حزم : ١٧١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠

الحزمة : ٤٦٨

حسان بن النعمان الغساني : ٨٨

حصداي بن شبروط : ٢٥٢

الحسن بن علي بن أبي طالب : ٥٣ ، ٣٨٨

الحسن ، الحفصي : ٤٨٣

أبو حمون السملاني : ٤٨٤ ، ٤٨٥

حسين أبو حنك : ٤٧٤

حسين ، داي : ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،

٤٧٩ ، ٤٨٣

الحسين بن علي ، الشريف : ٤٥٣

الحسين بن علي بن أبي طالب : ٦١ ،

١٩٦

الحسين بن علي بن عون : ٤٦٦ ، ٤٦٧ ،

٤٦٨ ، ٤٨٣

حصين : ٤٦٨

حصرموت : ١٣٩ ، ٢٣١ ، ٢٧٦

حطير : ١١١

حفص ، بنو : ٣٨٩

حفصة ، أم المؤمنين : ٣٠٤

الحفصيون : ٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ،

٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٧١ ، ٤٨٣

الحكم المستنصر : ٢٥٢ ، ٣٧٤

الحكم بن هشام المعروف بأبي جهل :

٢٦٩

حكيم بن حزام : ٦٠

حلب : ١١١ ، ١١٥ ، ٢١٤ ، ٢٨١ ،

٣٥٩ ، ٤٥٦

حلقا : ٩٦

حلق الوادي : ٣٩١

حماة : ٨٤ ، ٤٥٦

الحمصراء : ٣٠٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ،

٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٦

حمزة بن عبد المطلب : ٤٤

حمص : ٨٤ ، ١١٥ ، ١١٦

حمودة باشا : ٤٧٤ ، ٤٨٣

الحميريون : ١٣٩

ابن حنبل : ٥٤ ، ٢٣٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦١

حنظلة بن أبي سفيان : ٤٤

حنظلة بن عتبة : ٤٣

أبو حنيفة العملي : ٢٣٢ ، ٤٤٧

حواء : ٢٢ ، ٢٣

الحوطة : ٤٦٥

ابن حوقل ، أبو القاسم النصبي : ٥٤ ،

٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٥ ، ٢٧٤

حيدر آباد : ١٠١

الحيرة : ٨٢ ، ٨٤ ، ٢٥٠

[ خ ]

خالد بن زيد الأنصاري ، أبو أيوب :

١٤٦ ، ١٦٧

خالد بن عبد الله القسري : ١٩٦

خالد بن لؤي : ٤٦٨

خالد بن الوليد : ٦٨ ، ٦٩ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٨٤

خان بالق : ٢٧٦

خانقو : ٢٧٦

خباب بن الارت : ١٤٧

خندبجة ، أم المؤمنين : ٦٠ ، ١٤٣ ، ٢٦٨

خراسان : ٤٦ ، ٨٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٩٨

الخروج : ٤٦٤ ، ٤٦٥

الخزرج : ٢٥٢

الخزرج : ٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦

خطمة ، بنو : ١٧١

ابن خلدون ، عبد الرحمن : ٥٨ ، ٨١ ،

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢

٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤

٣٤٣ ، ٣٥٩ ، ٣٨٥

٤٠٦ ، ٤١٠

الخلفاء الراشدون : ٧١ ، ٧٣ ، ١٠٤ ،

١٢٤ ، ١٥٢ ، ١٩٤

٣٩٥ ، ٤٠٥

الخليج العربي : ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٥ ،

٢٤٨ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٧٧

الخميميون : ١٢٠

الخدق ، موقعة : ٣٧ ، ١٦٣ ، ١٧١ ،

١٧٨

الخوارج : ٤٠٢ ، ٤٠٣

خوارزم : ١١٤ ، ٣٦٤

الخوارزمي ، أبو بكر : ٢٣١

خواند أوستريا : ٣٩٢

خورشيد باشا : ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، ٤٦٣

خوارستان : ٨٥

خولو ، جزر : ١٠٦

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠  
 ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٣١٠  
 ٣١١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩  
 ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤  
 ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٧ ، ٤٨١  
 دمياط : ١١٢ ، ٢٢١ ، ٤٣٥  
 دهام بن حواس ، آل : ٤٦١  
 دهل : ١٠١ ، ٢٤٦ ، ٣٢٥ ، ٣٥٩  
 ٣٧٤ ، ٤٠٧  
 الدواسر : ٤٦٥  
 دبريه : ٤٧٨  
 دوفال : ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨١  
 الدولة الأمشورية : ٣٦٤  
 الدولة الأموية : ٧٣ ، ٩٠ ، ١٢٣ ، ١٩٥  
 الدولة الأيوبية : ٣٥٥  
 الدولة البيزنطية : ٦٩ ، ٧٦ ، ١٠٩  
 ١١٠ ، ١٤٦ ، ١٧٢  
 ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧١  
 ٢٧٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠  
 ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤١٥  
 الدولة الرومانية : ٢٣٤ ، ٢٥٢ ، ٢٨٢ ، ٤٠٦  
 الدولة السعدية : ٣٨٤ ، ٤٨٤  
 الدولة السعودية : ٤٦٢ ، ٤٦٣  
 ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠  
 الدولة العباسية : ٨١ ، ٩٩ ، ١١٥  
 ٣٧٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦  
 ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤١٠ ، ٤١٥  
 الدولة العثمانية : ٣٦٠ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠  
 ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣

الخيام ، عمر : ٣٢٦  
 حبير ، عمر : ٢٤٥  
 خيخون : ٨٨  
 خير الدين بارباروسا : ٣٩٠ ، ٣٩١  
 ٣٩٢ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣  
 حيوة : ٣٦٤

## [ ٥ ]

الدار البيضاء : ٤٨٤  
 دار فور : ٩٦  
 داغستان : ٣٦١  
 داهلو : ١٠٦  
 دامرمون : ٤٨٠  
 داس سكوتوس : ٢٠٧  
 ابن دانيال ، محمد : ٣٤٢  
 داهومي : ٢٥١  
 داي ، لقب : ٣٩٢  
 ديقو : ٢٢١  
 ديبق : ٥٦  
 دجلة ، نهر : ٢١٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣  
 الدراويش الدوّارون : ٣٣٤  
 درعة ، وادي : ٤٨٥  
 الدرعية : ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢  
 الدروز : ٤٥١ ، ٤٥٥  
 دسبينا كاترينا : ٣٦١  
 الدكن : ١٠٠ ، ١٠١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥  
 ٣٧٨  
 دلنا الجبل : ١١٢ ، ٢٢١  
 دلى : ١٠١ ، ١٠٤ ، ٣٢١  
 دمشق : ٥٣ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٩٠

٣٧٤ ، ٣٩١ ، ٤١٥ ، ٤١٦

الدولة العلية : ٣٨٣

الدولة المرونية : ١٠١

الدولة الغورية : ١٠١

الدولة المارسية : ٢٧٢

الدولة الفاطمية : ٧٤ ، ٣١٥

الدولة المرابطة : ٩٣ ، ١٠٠

الدولة المملوكية : ١١٤ ، ١١٥ ، ٣٧٩

الدولة المملوكية : ٢٧٩ ، ٣٦٠

دومنجو باديا : ٢٤٥

الدومينيكان : ٢٢٩

الدوير : ٤٧٩

ديبل : ١٠٥ ، ٢٧٦ ، ٣٧٧

ديبال : ٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨١

ديجول : ٤٨٧

ديلاتو رورعلت : ٤٩

الدبلة ، راوية : ٤٨٥

دي ميشيل : ٤٧٩

ديمشيا : ٤٨٠

ديار أبو المهاجر : ٨٨

ديو : ٣٧٧

[ د ]

أبو ذر الغفاري : ١٤٧

الدمي ، أحمد المنصور : ٤٨٥

[ ر ]

الرازي ، محمد بن زكريا : ٣٣٥

رأس غير : ٣٨٣

الراصي ، الخليفة : ٣٩٧ ، ٤٠٧

رايمون : ١٠٤

رايمون لوثير : ٢٠٧

الرباط ( رباط الفتح ) : ٣٨٣ ، ٤٠٧

ريجة : ٩٦

الريسمون : ٤٧٢

رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : ١١ ،

١٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ،

٤٥ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،

٧١ ، ٨٢ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،

١٢٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،

١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،

١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ،

١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،

١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٣٥ ،



روما : ١٦ ، ١٩ ، ٤٢ ، ٢١٠ ،  
٢٢٤ ، ٢١١

الرومان : ٤٨ ، ٩٢ ، ٢١٩ ، ٤٨١

الرومل : ٣٧١

ابن الرومية ، أبو العباس : ٢٢٣

الرياض : ١٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ،

٤٦٥ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠

الري : ٢٧٧

الريف : ٣٨١

### [ ٣ ]

زاسيبا : ٩٨ ، ٢٥٠

الزبير بن العوام : ٥١ ، ١٤٨ ، ٢٦٨

زرباب ( علي بن نافع ) : ٣٣٦ ، ٣٣٧

زعوة : ٣٨٤

ابن زقوط بكري : ٤٧٤

الزلاقة : ٩٣ ، ١١٠

الرمالة : ٤٧٩

زمانة : ٩٠

رنجبار : ٢٤٦ ، ٢٧٦

الزهرلوي ، أبو لقاسم : ٢٣١

زهر بن قيس البلوي : ٨٨

الزواحة : ٤٨٠

زهاد بن أبيه : ١٩٦ ، ٣٠٥

الزبانين : ٤٧١ ، ٤٧٢

الزبونة ، جامع : ٤٨٢

زيد بن ثابت : ١٥٤ ، ٣٠٥

زيد بن حارثة : ٦٠

زيد بن أبي سفيان : ٤٤ ، ٤٥

زين الدين أمير حاج : ٢٨٣

٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠

٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٠٢

٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨

٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٨٤

٣٩٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤

٤٣٠ ، ٤٣١

الرشادية ، قبيلة : ٩٦

ابن رشد : ٢٣٠

ابن رشيد : ٤٦٥

رشيد ، بلدة : ٤٣٥

رشيد رضا : ٤٥٤

الرشيدة ، آل : ٤٤٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٤

الرشيد بن محمد بن علي بن يوسف : ٤٨٥

رضا عباس : ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤٦

رفاعة رافع الطيطاوي : ٤٤٠ ، ٤٤٥

الركة : ٣١٧ ، ٣١٣

ركن الدين بيرس : ٢٠٠

الرها : ١١١

روبرت كلايف : ٣٧٩

روبروت شيرلي ، السير : ٣٦٢

روبر أتلمره دوناسيا : ٤٧٦

الروبيكون ، نهر : ٤٢

الروس : ١١٩ ، ٢٨٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،

٤٤١ ، ٤٥٣

روسيا : ٧٦ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ٢٤٥ ،

٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩

٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٤٣٨

٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥١

٤٥٢ ، ٤٥٦

روضة منها : ٤٦٥

رولف وانغرت : ١١٨

[ س ]

سعد بن الربيع : ١٦٧  
 سعد زغلول : ٤٤٥  
 سعد بن عبادة : ٣٥ ، ٣٩  
 سعد بن معاذ : ٣٥ ، ٤٠ ، ١٦٧  
 سعد بن أبي وقاص : ٦٩ ، ٨٥ ، ١٦٧ ،  
 ٣٠٥ ، ٤٠١  
 السعدي : ٤٨٥  
 السعديون : ٤٨٤ ، ٤٨٥  
 ابن سعود : ٤٦٦ ، ٤٦٨  
 سعود ، آل : ٤٥٩ ، ٤٦١  
 سعود بن خورشيد : ٤٦٣  
 سعيد باشا : ٤٤٥  
 ابن سعيد المغربي ، علي : ٢٤٥  
 أبو سعيد بن أبي الخير . ٢٠٦  
 سمالة : ٢٧٦  
 السمرديّة : ٢٥٢  
 أبو سياف صخر بن حرب : ٤٣ ،  
 ٤٤ ، ٢٦٨  
 سقطرى ، جزيرة : ١٠٥ ، ٣٧٧  
 سقيفة بني ساعدة : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،  
 ٦٠ ، ١٧٥  
 سلا : ٣١٨ ، ٣٨٧  
 السلاجقة : ٧٦ ، ١٠٠ ، ٢٠٠  
 ابن سلام ، أبو عبيد القاسم : ٢٥٠  
 سلطان محمد : ٣٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ،  
 ٣٤٦  
 سلج ، جبل : ١٤٢ ، ١٤٨  
 سلمى بنت عمرو : ١٤٦  
 سلخور ، سلطنة : ١٠٥  
 سليبيز : ١٠٥  
 سليمان بن عبد الملك : ٣٩٥

السادات : ٤٥٧  
 ساعدة ، بنو : ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٤٢  
 سالوس : ٤٢  
 سالومي : ٢٠  
 سامراء : ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٤٤ ،  
 ٣٤٥  
 الساموراي : ٢٥٦  
 ساندينو : ٣٤  
 مائتا كروز دو كابودلجير : ٣٨٣  
 سان لوكر : ٩١  
 سيامتيان ، ملك البرتغال : ٣٨٦ ، ٤٨٤  
 سينة : ٢٨٣  
 ابن سيمين : ٢٣٠  
 سيكتكين : ١٠٠  
 السيكى ، عبد الوهاب : ٢٣٧  
 سيطة : ٨٧  
 ستيورات : ٥٧  
 سبلماسة : ٢٧٤ ، ٣٨٨  
 سبلمان : ٤٨٥  
 السخاوى ، فهمس الثمن : ٥٨ ، ٤١٠  
 سدير : ٤٦٤  
 سر من رأى : ٣١٣  
 سرقطة : ٨٨  
 سرمديب ( سيلان ) ، جزيرة : ١٠٥  
 سرياقوس : ٤٣٤  
 سطيف : ٤٨٠  
 ابن سعد ، صاحب الطبقات : ١٥٣ ،  
 ٢٤٠  
 سعد بن خيشة : ٦٧

السويس ، قاة : ٤٦٧

الشيخ : ٣٧٥

سيدي كفاي : ٤٧٤

سيواف : ١٠٥ ، ٢٧٦

سيشل ، جزيرة : ٢٤٨

سيف الإسلام ( عبالد بن الوليد ) : ٨٢

سيف الدين قطز : ١١٥ ، ٢٠٠

سيف الدين قلاوون الصالحى ، السلطان :

١١٣ ، ١١٥ ، ٢٠٠

سيلان ( سرديب ) جزيرة : ١٠٥ ،

٢٤٦

سياء : ٤٥٦ ، ٤٥٧

ابن سينا ، أبو علي : ٢٣٢ ، ٣٣٥ ،

٤١٠

سيواجي : ٣٧٥

السيوطى : ٥٨

## [ ش ]

الشارة : ٤٧٤

شارل أندريه جوليان : ٤٧٢ ، ٤٧٦

شارل الثانى ، ملك إنجلترا : ٣٧٩

شارل الحفاس المعروف بشرلكان : ٣٩١ ، ٤٨٢

شارل ديبول : ٤٩

شارل العاشر : ٤٧٥ ، ٤٧٨

الشافعى ، محمد بن إدريس : ٢٣٢ ،

٣٢٨

شالة : ٣٨١

الشام : ٤١ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٩ ،

٦٠ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٦ ،

سليمان العرسلى باشا : ٤٤٦

سليمان القانونى : ٣٢٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٢ ،

٣٧٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،

٤٨٢ ، ٤٥١

سليمان المهرى : ٢٧٦

سليم الأول = السلطان العثمانى : ١٠٢ ،

٣٧٢ ، ٣٧٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٠

سليم الثانى : ٤٨٣

سليم بن منصور ، بنو : ٤٥٨

سماك بن عتيك : ١٤١

سمرقند : ١١٤ ، ١١٩ ، ٢٤٨

السمهودى : ١٤٩ ، ١٦٩ ، ٢٣٠

سميث ، آدم : ٤١٧

سناد باشا العمارى التركى : ١٠٣ ،

٤٨٣ ، ٣٤٥ ، ٣٢٢

السح : ١٤٢ ، ١٤٨

السند : ٨٦ ، ٩٨ ، ١٠٠

سناعورة : ١٠٥ ، ٣٨٠

السعال : ٩٣ ، ٢٥١

ابن السوداء اليهودى : ٤٨

السودان : ٧٧ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

٩٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٤٣٨ ،

٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٥٧ ، ٤٧٠

سورات : ٣٧٧ ، ٣٧٩

سوريا : ٤٥٤ ، ٤٥٧

سوزيانا : ٨٥

السوس : ٢٨٢ ، ٣٨٤

سوسة : ٣٩١

سولو : ١٠٦

سومطرة : ١٠٥ ، ٢٧٦

سوير : ٤٦٥

شرلكان : ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٢٨٣

شرلكان : ٢٢٨

الشريف الرضى : ٤٠٩

الشرعاني : عبد الوهاب : ٢٠١

شفتاي : ١١٤

شغشاون : ٣٨٤

شهر : ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦

شمس الدين الذهبي : ٥٥

الشانة : ٤٦٥

شترين : ٣٧٨

شوق : الشاعر : ٣٦٨

شعبة بن ربيعة : ٤٣

الشياه البيضاء ( قبيلة ) : ٣٦١

شراز : ٢٧٢

الشيعة : ٥٣ ، ١٢٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠

شيل : ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٤٥٥

شيل : ١١٨

الشيوعية : ١٨ ، ١١٩

## [ ص ]

الصابئة : ٢٥٠

ابن صاعد الأندلسي : ٢٣٠

صالي : ٣٨٣

صالح باي : ٤٧٣ ، ٤٧٤

ابن الصالح ، أبو بكر ( المعروف بابن باجة

السرقسطي ) : ٣٣٧

الصحابية : ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١٢٠ ،

١٤٧ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٢

الصحراء الكبرى : ٩٥ ، ٢٤٦ ، ٢٨٢ ،

٤٨٥

٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤

٨٦ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،

١١٣ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ،

٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ،

٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،

٢٥٠ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،

٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ،

٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٤١ ،

٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،

٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥ ،

٣٦٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ،

٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤٣٠ ،

٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ،

٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ،

٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ،

٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ،

٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ،

٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٧

الشامانية : ١٥

شاه جهان : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٢٤٤ ،

٣٧٤

شاه جهاناباد : ٣٧٤

شاه شجاع : ٣٣٦

شاون : ٣٨٣

شبه الجزيرة الأيبورية : ٧٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ،

١٠٩

شبه الجزيرة العربية : ٦٨ ، ٨٢ ، ٩٧ ،

١٢٢ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،

شبه الجزيرة الهندية : ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،

شبه القارة الهندية : ٧٧

الشرق الأوسط : ٤٦٧

صور : ٤٥٧

الصومال : ١٨ ، ٩٧ ، ٢٥١ ، ٢٧٦

صيدا : ٤٤٩ ، ٤٥٧

الصين : ٧٥ ، ٩٢ ، ١١٤ ، ١١٦

١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٤

٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦

٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣٤١

[ ض ]

الضحاك بن قيس : ١٩٥

ضرغوث أبو (طرغوث) : ٣٩٢

ضياء الدين : ١١٨

[ ط ]

طارق بن زياد : ٨٨ ، ٨٩ ، ٢٥٣

٣١٨

طاش كبرى زادة : ٣٦٩

أبو طالب المكي : ٢٠٠

الطائف : ١٤٣ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩

ابن طباطبا : ٤٠٨

الطبري ، محمد بن جرير : ٧ ، ٢٠٠

٢٢٩ ، ٤١٠

طليحك : ١١٨

طخارستان : ٤٦

طرايزون : ٣٦١

طرابلسي : ٢٨٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٩

٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٥٧

٤٧١ ، ٤٨٣

طرطوشة : ٣٠

الصحيفة : ١١ ، ٦٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧١

الصخرة ، بالقدس = القبة ، المسجد :

٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٤٤

صدر الدين بن صفى الدين الأردبيل :

٣٦١

الصدوقية : ١٥

صمد مصر : ٩٥ ، ٩٦ ، ٢٢١

صماقس : ٣٩١

الصنفة : ١٤٧

الصفيون : ٣٢٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦١

٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥

٣٦٦ ، ٣٩٩ ، ٤١٤

٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٨

صفى الدين الأردبيل ، الشيخ : ٣٦١

صفى الدين الحلل : ٤١٠

صفى الدين بن عبد المنعم : ٣٣٦

صفية بنت عبد المطلب : ٢٣٩

صقر قرش : ٩٠

سقلية : ٧٦ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٨

١٢٤ ، ٢٦٩ ، ٣٩١

صلاح الدين الأيوبي : ١١١ ، ٢٠٠

٢٧٨ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩

٤١٥ ، ٤٥٤ ، ٤٦٧

الصليبيون : ٥٨ ، ٤٥٤

صناعا : ٢٨٠ ، ٤٨٥

صهاجة : ٩٠ ، ٩٢

صهيب الرومي : ١٤٧

الصهيونية ، الصهيونيون : ٢٥٢ ، ٢٥٣

العباس ، بنو : ٦١ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٦ ،

١٥١ ، ٣١٣ ، ٣٧٦ ،

٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،

٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ،

أبو العباس ، أحمد بن الحسن : ٤٨٣

أبو العباس ، أحمد بن محمد المهدي : ٤٨٥

عباس الأول : ٤٤٤ ، ٤٥١ ،

أبو العباس السفاح : ٤٠٤ ،

عباس ، الشاة : ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،

العباس بن عبد المطلب : ٢٣٩ ، ٢٦٨ ،

عباس بن محمد علي : ٤٤٢

العباسية ، دولة : ٩٦

العباسيون : ٧٤ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٩ ،

١٥١ ، ١٩٨ ، ٣١٢ ،

٣١٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ،

٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ ،

٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،

٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ٤١١ ،

٤١٦ ، ٤٥٨ ،

عبد الحق ، أبو يحيى المريني : ٣٨١

عبد الحكيم ، آل : ٥٤

عبد الحميد الأول ، السلطان العناني :

٣٧٢ ، ٣٧٣ ،

عبد الرحمن آل سعود : ٤٦٣

عبد الرحمن الأوسط : ٣١٨ ، ٣٣٦ ،

عبد الرحمن بن السمرة : ٦٢

عبد الرحمن بن عوف : ٣٩ ، ٤٢ ،

١٤٨ ، ٥١

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الداخل :

٩٠ ، ١٩٥ ، ٣١٨ ،

عبد الرحمن الناصر : ٢٥٢ ، ٣١٩ ،

٣٧٤

لرغود أو ( ضرغوت ) : ٣٩٢

لشقد : ١١٤ ، ١١٩ ، ٣٠٦ ،

للحة بن عبيد الله : ٥١ ، ٢٦٨ ،

لليلة : ٨٨ ، ٩١ ، ١١٠ ، ١٧٣ ،

٢٥٠

لجنة : ٨٩ ، ٢٤٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ،

٣٨٧ ، ٤٨٤ ،

لهماسب ، الشاه : ٣٢٦ ، ٣٦٢ ،

٣٦٤

الطوائف ، ممالك : ٧٦ ، ١١٠

طوس : ٨٥

ابن طولون ، أحمد : ٣١٤ ، ٣١٥ ،

طولون : مياء : ٤٨٤

الطونة نهر : ٣٦٠ ، ٣٦٩ ،

طلي : ٤٥ ، ١٣٩ ،

طبية : ٢١٠

طيشمون ( الملائك ) : ٨٥ ، ٢١٠

[ ظ ]

الظاهر بيبرس : ١١٣ ، ٣٠٢ ، ٣٤١

ظهري الدين محمد ( عرف باسم بابر ) :

١٠٢

[ ع ]

عائشة ( رضي الله عنها ) : ١٧

عائكة بنت عبد المطلب : ٢٣٩

عاشق أنندي ، موسيقى تركي : ٣٤٠

عبادان : ٢٧٦

عبادة بن الصامت : ١٥٣

عبد المطلب ، بنو : ٢٦٩  
عبد الملك بن مروان : ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،

٣٧٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥

عبد الواد ، بنو : ٣٩١  
أبو حبيدة بن عامر الجراح : ٣٥ ، ٥١ ،  
٦٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٦٧

عتاب بن أسيد : ٢٢٠

عتبة بن ربيعة : ٤٣ ، ٢٦٩

عتبة بن غزوان : ٣٠٥

آل عثان : ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،

٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ،

٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٤١٥ ،

٤١٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٢

ابن عثان : ٣٦٦

عثان البرهسي : ٤١١

عثان بن عمار : ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٥ ،

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ،

٥٢ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٨٠ ،

٨٧ ، ١٢٣ ، ١٦٧ ، ١٩٥ ،

٦٦٨ ، ٣٠٤ ، ٤٠١ ،

٤٨١ ، ٤٨٢

عثان بن معمر : ٤٥٩

العثانيون : ٢٧٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،

٣٦٠ ، ٣٦١ ،

٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ،

٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ،

٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ،

٣٩٩ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ،

٤٥٣ ، ٤٧٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦

العجوز : ٤٨٤

عدى : ١٠٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦

عبد حمس : ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥

عبد العزيز آل سعود : ٤٣٠ ، ٤٣٥ ،

٤٦٣

عبد العزيز بن عبد الرحمن : ٤٢٩ ،

٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،

٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠

عبد العزيز بن موسى بن نصير : ٨٨

عبد الفتاح إسماعيل ، الأستاذ الدكتور

مدير جامعة الكويت : ١٠

عبد الله بن أحمد بن سعد : ٣٨٤

عبد الله بن جعثن : ٦٢

عبد الله بن جلوي : ٤٦٤

عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب :

١٥١

عبد الله بن خورشيد : ٤٦٣

عبد الله بن الزبير : ١٩٥ ، ٤٠٣ ،

عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ٨٧ ، ٨٨ ،

عبد الله الشرفلوي : ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،

عبد الله بن طاهر : ٣١٥

عبد الله بن مسعود : ٤٦٢

عبد الله بن ياسين : ٩٢

عبد الله بن محبت بن رشيد : ٤٦٦

أبو عبد الله الملقب بالرتقال : ٣٨٢ ،

٣٨٤

أبو عبد الله ، محمد الحسن بن محمد

الخامس : ٤٨٢

أبو عبد الله ، محمد بن لقمان بالله : ٤٨٤

أبو عبد الله ، محمد المتوكل : ٤٨٤

عبد الحميد ، السلطان : ٤٥٢

عبد المطلب بن هاشم : ٤٤

بنو عثى بن النجار : ١٤٥ ، ١٧٦

عشرة : ٤٥

العراق : ٣١ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٣ ،

٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٦ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١٩٨ ،

٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ،

٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ،

٢٥١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ،

٢٨٧ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ،

٣٤٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ،

٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ،

٣٩٥ ، ٤٠٣ ، ٤١٤ ،

٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٥١ ،

٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ،

٤٥٨ ، ٤٦١

عربستان : ٨٥

عرب للعقل : ٣٨٨ ، ٣٩٠

ابن عربى ، عيسى اللعين : ٢٠٠ ، ٢٠٧ ،

٣٤٢

خروج : ٣٩٠ ، ٣٩١

الحريز بالله : ٥٦ ، ٤٥٨

عقبة بن نافع الفهري : ٨٧ ، ٨٨ ،

٣١٧ ، ٣٠٥

حكا : ١١٣ ، ٤٣٥

الطويون : ٣٨٨ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ،

على باشا : ٤٨٣

على الرضا : ٣٦٣

على بن أفي طالب : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ،

٥١ ، ٥٣ ، ١٥٤

على بك المباس : ٢٤٥

عل مبارك : ٤٤٠

عل بن نافع ، المقب زرياب : ٣٣٦ ،

٣٣٧

عماد الدين زكي : ١١١ ، ٢٠٠

عمار بن ياسر : ٤٧ ، ١٤٧

أم حمارة الأنصارية : ٢٣٩

عمان : ٤٠ ، ٥٧ ، ١٠٥ ، ٢٧٦ ،

٤٦١

عمر أنسى ، أو المختاق : ٣٨٩

عمر بن الخطاب : ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ،

٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٠ ،

٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٠ ،

١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٦٧ ،

١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٩٤ ،

١٩٦ ، ٢٥٤ ، ٣٠٤ ،

٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٤٠٢ ،

٤٠٤ ، ٤٠٥

عمر شيخ ميرزا : ١٠٢

عمر بن عبد العزيز : ١٩٥ ، ٣٠٤

عمر مكرم : ٤١١ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ،

٤٤٤ ، ٤٤٥

عمرو بن العاص : ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٢٦٨ ، ٣٠٥ ، ٣١٥

العمري ، ابن فضل الله : ٣٣٢ ، ٤١٠

عنابة : ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٧٣

ابن العوام الإشبيلي ، أبو زكريا يحيى بن

محمد : ٢٢٣ ، ٢٣١

بنو حوف : ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧



## [ ف ]

الغاراني ، أبو نصر : ٤١٠ ، ٣٣٥  
 فارس : ٤٦ ، ٦٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٩٥ ،  
 ٣٥٩  
 فارس ، أبو حنّان - السلطان المريني :  
 ٣٨١

ابن الفارض ، أبو حمص عمر بن هل  
 السعدي : ٤٠٩

فاس : ٢٢٤ ، ٢٤٦ ، ٣١٨ ، ٣٨٥ ،  
 ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٨٤

فاسكو داجاما : ٢٧٦

العاشر : ٩٥

فاطمة المعهرية : ٢٤٤

الفاطميون : ٥٦ ، ٦١ ، ٧٤ ، ٩٠ ،  
 ٢١٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٤١٦

فصيحج : ٣٨١

فحل : ٨٣

فخر الدين المعني : ٤٤٨ ، ٤٤٩

أبو فراس الحمداني : ٤٠٩

فرانسوا دو بيلي : ٣٧٩

فرانيسكو دا ألييا : ٣٧٧

فرانكلين : ٤٩

الفرديسي ، أبو لقاسم : ١٠٠ ، ٣٢٦

فرجينيا : ٥٠

الفرس : ٣١ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٨١ ، ٨٤ ،

٨٥ ، ١٠٢ ، ١٩٥ ، ٢٨١ ،

٣٨٨ ، ٣٦٢ ، ٣٧٤ ،

٣٩٧ ، ٣٩٨

فرغانة : ١٠٢

الفرنجية : ٢٣٤

عمر ، جبل : ١٤٩

عيسى بن مريم ( المسيح ) : ١٦ ، ١٧ ،

١٩ ، ٢٠ ، ٢١

عيلام ، بلاد : ٨٥

عين جالوت : ١١٥ ، ١١٦

عين حصص : ٤٣٦

## [ غ ]

غاران : ١١٦

عانة : ٢٥١ ، ٣٨٧

غرابية : ٤٧٩

عراطة : ٩١ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ،

٢٣١ ، ٣٠٠ ، ٣١٨ ،

٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ،

٣٧٤ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،

الغزالي ، أبو حامد : ٢٠٠ ، ٢٠٧ ،

٢٩٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٤١٠

عرة : ٤٤٩

غزنة : ١٠٠

عظمان : ٤٥

عمارة ، قبيلة : ٩٠

غمبيا ، نهر : ٩٣

بنو غنم بن السجل : ١٤٦

الغور : ١٠١

عياث الدين بن سام : ١٠١

غيانا البريطانية : ١١٨

غيانا الفرنسية : ١١٨

غيانا الهولندية : ١١٨

غمبيا : ٩٣

فرسا : ٤٩ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ميسا : ٤٠٠

## [ ق ]

القادر بالله ، الخليفة العباسي : ١٠٠ ،

٤٠٨

القادسية : ٨٥

قاف ، جبل : ٢٤١

قاليقوت : ١٠٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣٧٧

القاهرة : ٨ ، ١١٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٢ ،

٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٨٠ ،

٣١٦ ، ٣١٧ ، ٤٠٦ ،

٤١١ ، ٤٢٨ ، ٤٣١ ،

٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ،

٤٣٦ ، ٤٤٦ ، ٤٧٠

قائتي : ٣٦٥

قباء : ٦٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

١٤٥

قبرص : ٤٥

قبرة : ٣٣٠

القبيلة الذهبية : ١١٥

قدامة بن جعفر : ١٥ ، ٢٥٠

القدس : ٢١٤ ، ٣٠٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ،

٤٥٤ ، ٤٦٧

القرامطة : ٤٣٠ ، ٤٥٨

القرانية : ١٥

قرطبة : ٩٠ ، ٩١ ، ١٧٣ ، ٢١٢ ،

٢٢٤ ، ٣١١ ، ٣١٨ ،

٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦

القرغيز : ١١٨

قرقورم : ١٠٢ ، ١١٤ ، ١١٦

١١٢ ، ١١٨ ، ١٢٤ ،

٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٣٠٢ ،

٣٣١ ، ٣٥٧ ، ٣٧٥ ،

٣٨٩ ، ٣٩٩ ، ٤٣٦ ،

٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،

٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ،

٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ،

٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،

٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ،

٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧

فروثيرات : ٤٨٤

فزان : ٩٥

الفسطاط : ٧٢ ، ٨٧ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ،

٣٠٥ ، ٣١٤ ، ٣١٥

المليين : ٧٧ ، ٧٨ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ،

٢٧٦

فلسطين : ٨٢ ، ١١٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ،

٢٣٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،

٢٧٢ ، ٣٤١ ، ٤٥٣ ،

٤٥٤ ، ٤٦٧

فلورا : ١٧٣

فولمجانج جيته : ٢١

فهر ، قبيلة : ١٩٥

فيجا يانا جار ، دولة هندوكية : ٣٧٨

فيصل بن تركي ، الملك : ٤٦٣ ، ٤٦٤ ،

٤٦٩ ، ٤٧٠

فيصل بن الحسين : ٤٥٤

فيليب الثالث ، ملك إسبانيا : ٣٨٧

فيليب الثاني ، ملك إسبانيا : ٧٨ ،

٣٨٦ ، ٣٨٧

القلعشدي : ٢٣٢ ، ٤١٠

القلية ، مدينة : ٤٧٩

قم : ٣٦٣

قندهار : ٣٧٤ ، ٣٧٥

قوبلاي خان : ١١٤ ، ١١٧

قورية : ٨٨

القوط : ٨٨ ، ٢٣٤ ، ٢٥٣

القوقاز : ١١٥ ، ٢٤٥ ، ٣٦٩

القولوغلية : ٤٨٠

القوسيون : ٤٨٣

قوية : ٤٥٨

القيروان : ٨٧ ، ٢٠٩ ، ٢٢٤ ، ٣٠٥

٣١٧ ، ٣٣٦ ، ٣٩١ ، ٣٩٢

قيس بن سعد بن عبادة : ٣٩

قيس بن شماس : ٥٢

قيس حيلان بن مضر : ١٩٥

القيسية : ١٩٥ ، ١٩٦

قيصرية : ٨٢

قيشاق ، بو : ٣٧ ، ١٤٢ ، ١٦١

[ ك ]

كابل : ١٠٢

كاتاليداي براجانثا : ٣٧٩

الكاثوليكية : ١٥ ، ١٦

كارل بارت البروتستنتي : ١٦

الكاميل بن العادل ، السلطان : ٣٧٨

الكاميرون : ٢٥١

كانت ، إيمانويل : ٢٩٩

كانتون : ٢٧٦

كانو : ٣٠٦

القرم ، شبه جزيرة : ٢٤٥ ، ٣٦٠

٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤

قريش : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥

٥١ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦١

٦٢ ، ٩٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦

١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢

قريظة : ٣٧ ، ١٤٢ ، ١٦١

ابن قزمان ، أبو بكر : ٣٠٢ ، ٣٣٠

القساوسة : ١٦

قسطنطينية : ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٩

٤٨٠

القسطنطينية : ١٤٦ ، ٢٠٧ ، ٢٤٥

٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧٠

٣٩٠ ، ٤١٥

قسطية : ٣٨٩

قشتالة : ١١٠ ، ٢٣١ ، ٣٨٢

القشوري ، عبد الكريم بن هوزان : ٢٠٠

قصر الرصافة : ٣١١

القصر الصغير : ٣٨٣

القصر الكبير : ٣٨٦ ، ٤٨٤

قصر عمرة : ٣٨٣

القصيم : ٤٦٦

قضاة ، قبيلة : ٣٥ ، ٤٥ ، ١٣٩

١٤٠

القضاةيون : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٨

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦

قصة : ٣٩٢

قلاوون ، السلطان : ٣١٦

القلمة : ٣٣٤

قلعة الحليل : ٣٦٦

القلعة الحمراء : ١٠٤

كبريل ، آل : ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٤١٥  
 كبريل ، أحمد فاضل : ٣٧١  
 كبريل ، محمد : ٣٧١  
 كتامة ، قبيلة : ٩٠  
 كترغون : ٨٥  
 كتشك كينارجي ، معاهدة : ٣٧٣  
 الكرادلة : ١٦  
 كريد : ٤٤٩  
 كربلاء : ١٩٦ ، ٣١٤ ، ٣٤٥  
 الكرخ : ٣١٢  
 كردفان : ٩٦  
 كرمان شاه : ٢٧٢  
 كروماندل : ٣٧٨ ، ٣٧٥  
 كرومر : ٤٥٤  
 كنشمير : ٣٧٤  
 كعب بن الأشرف : ١٤٢  
 كعب بن مالك : ١٦٧  
 الكعبة : ١٩٦ ، ٣٦٣  
 كلب بن مرة ، فرع قبيلة : ٤٥  
 كلثوم بن الهدم : ٦٧  
 ابن كلث : ٥٦  
 كلكتا ، ( قاليقوط ) : ٢٧٦  
 كلورل : ٤٧٩  
 كلية الآداب بجامعة الكويت : ١٠  
 كلوباترا : ٤٢  
 كصابية : ١٠٥  
 كسانة : ٩٦  
 الكنح ، غير : ١٠٠ ، ٢٤٦  
 كتنة ، قبيلة : ٤٥  
 الكندي ، أبو يعقوب يوسف : ٣٣٤  
 الكوز ، قبائل : ٩٥ ، ٩٦

## [ ل ]

اللاتيان : ١٣٩  
 لاريكوميستا ( الامستردام ) : ٣٨٢  
 لاناو : ١٠٦  
 لاهور : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤  
 لبنان : ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧  
 لحم : ٤٥ ، ١٣٩  
 لك : ٨٨  
 لكديف ، جرر : ١٠٥  
 لنتونة ، قبيلة : ٩٢

لندرة : ٤٤٢

لندن : ٢٢٤ ، ٣٧٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ،

٤٢٨ ، ٤٤٦ ، ٤٥٠ ،

٤٧٠ ، ٤٥١

أبو هب : ٣٢٥

لويس القاسم : ١١٣ ، ٣٩٠

لويس شيجو : ٢٥٤

لويس ماسينيون : ٢٥٣

ليبانتو ، معركة : ٣٧٠ ، ٣٩٢

ليبيا : ٩٥ ، ٢٤٥ ، ٤٥٦

ليبرمو ، مدينة : ٤٧٧

ليون إدوارد ولیم : ٢١٥

ليون : ١١٠ ، ٤٠٠

ابن ماء السماء ، أبو بكر عبادة : ٣٠٢ ،

٣٣٠

ابن ماجد ، شهاب الدين أحمد : ٢٧٦ ،

٢٧٧

مارتا ابنة أوروون حسن : ٣٦١

ماردة : ٨٨

مارسيلوس : ٤٢

مارك أنطونيوس : ٤٢

ماركوبولو : ٢٤٦

مازغان : ٢٨٣

مائلة : ٢٨٢

مالك بن أنس : ١٥٠ ، ٢٣٢ ، ٣٢٨

ابن مالك ، محمد بن عبد الله : ٤١٠

مالدي : ٢٧٧

مالي : ١٠٥ ، ٢٥١

ماليزيا : ١٠٥

المأمون ، الخليفة : ٥٤ ، ٨١ ، ٣١٥ ،

٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧

الماوية : ٨٦

الماويون : ١٧٢

ما وراء النهر ، بلاد : ٨٦ ، ١١٤ ،

٣٩٥ ، ٢٤٥

الماوردي ، أبو الحسن : ٥٤ ، ٥٥ ،

٢٥٠

مبارك الأمير : ٤٦٤ ، ٤٦٥

المبرد ، أبو عباس أحمد : ٧

المتنبي ، أبو الطيب : ٤٠٩

المتوكل ، الخليفة : ٣١٣ ، ٣١٤ ،

٣٤٥ ، ٣٤٤

المتنبي بن حارثة الشيباني : ٨٥

مجاهد العامري : ٢٣٠

المجر : ١١٤ ، ٢٨٦ ، ٤٣٨

أبو المحاسن : ٥٨

محمد ، صلى الله عليه وسلم : ١٧ ، ٣٣ ،

٤٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ،

٧٠ ، ٧١ ، ٨٦ ، ١٢٠ ،

١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣٧ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،

١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،

محمد عبد الهادي أبو ريدة ، الدكتور :

٢٩٩ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩

٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٢

٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥

٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠

محمد بن عبد الوهاب : ٣٠ ، ٤٥٩

٤٦٠ ، ٤٦٦ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥

محمد علي : ٤٧٦ ، ٤٧٨

محمد علي جنة : ١٠٣

محمد المانع : ٣٦٠ ، ٣٩٠ ، ٤١٥

محمد فريد : ٤٤٥

محمد المتوكل ، مولاي : ٣٨٥

محمد المحروق : ٤١١

محمد بن مسلمة : ١٦٧ ، ٤٠١

عمود بن سبيكتكين المزنوي : ١٠٠

عمود مختار : ٣٠٢ ، ٣٦٧

عمود مذهبي : ٣٢٦

المخطط الأطلسي : ٨٧ ، ٩٣ ، ١٢٤

٢١٩ ، ٢٦٩ ، ٣٥٧

٣٨٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠١ ، ٤٠٧

المخطط الهادي : ١٠٦

المخطط الهدي : ٧٧ ، ٩٧

الحارث ، معركة : ٣٨٦

الفتار بن حبيب الله الصفدي : ٤٠٣

الغزن ( حكومة المغرب ) : ٣٨٥

غزوم ، بنو : ٨٣

المدائن ( طيشفون ) : ٨٥ ، ٢١٠

المدجنون : ٣٢٠

مدراس : ٢٤٦ ، ٣٧٧

مدغشقر : ٢٧٦

أبو مدين شبيب بن الحسين الأندلسي : ٩٤

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٨

١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٤

١٩٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩

٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥

محمد أبا بن عبد المؤمن ، الصباري

التركي : ٣٢٢ ، ٣٤٥

محمد إقبال : ١٠٣

محمد الألفي : ٤١١ ، ٤٢٨ ، ٤٣١

٤٣٨ ، ٤٣٩

محمد الباقر بن جعفر الصادق : ١٥٠

محمد بن تومرت : ٣٨٩

محمد الثاني بن عبد الرحمن : ٤٨٦

محمد بن الحسن : ٤٨٢ ، ٤٨٣

محمد حسني مبارك : ٤٥٧

محمد بن الحسين ، المعروف الشريف

الرصي : ٤٠٩

محمد خسرو باشا : ٤٣٩

محمد أبو الذهب : ٤١٠ ، ٤٤٩

محمد زعيم محمد عزب ، دكتور : ٥٥

محمد السادس المصفي : ٣٩٢

محمد بن سعود : ٣٠ ، ٤٢٩ ، ٤٥٩

٤٦٠ ، ٤٦٦ ، ٤٦٢

محمد الشيخ : ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤

٣٨٥

محمد بن عبد الرحمن الأوسط : ٣١٩

محمد بن عبد الله بن رشيد : ٤٦٣

محمد عبده : ٥٣ ، ٤٤٠ ، ٤٥٤

محمد بن طلال : ٤٦٦

محمد الطهراني : ١٥٤

٣٨٨ ، ٣٨٧ ، ٣٨٥ ، ٣٨٤

مرج دابق : ٣٦١

مرج راهط : ١٩٥

مرج الصفر : ٨٣

مرجولوث : ١٨

مرزق : ٩٥

مرسى الدجاج : ٢٨٧

المرسى الكبير : ٣٨٤ ، ٣٩٠

مرسية : ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢٨٢

مرسيليا : ٣٨٣

مرقص الحوازي : ٧١

مرمرة ، بحر : ٣٥٩

مرو : ٨٥ ، ٢٧٢

مروان بن الحكم : ١٩٥

أبو مروان عبد الملك : ٣٨٥ ، ٣٨٦

أبو مروان بن عبد الملك بن محمد المهدي :

٤٨٤

مروان بن محمد الجعدي : ٤٠٣

مريم ( العنقاء ) : ١٦

ألمرية : ٢٠٧ ، ٢٨٢

مريم ، بنت : ٩٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣

المرينيون ، دولة : ٩٠ ، ٣٨١

المستنصر بالله محمد الحفصي : ١١٣ ،

٣٩٠

ابن مسجع : ٣٣٤

مسجد أجرا الجامع : ١٠٤

المسجد الأموي بدمشق : ٣١٠ ، ٣٤٤

مسجد البرديني : ٣١٦

مسجد السلطان أحمد : ٣٢٢

مسجد السلطان حسن : ٣١٦

مدينة السلام ( بغداد ) : ٢١٤

المدية الفاضلة : ١٧٤ ، ١٧٩

المدية المنورة ( بغداد ) : ٢١٤ ، ٣٤٤

المدية المنورة : ١١ ، ٦٨ ، ٣٢ ، ٣٥ ،

٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٩ ،

٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٥ ،

١٢٢ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ،

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ،

١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،

١٧٩ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،

١٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ،

٢٦٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،

٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٤٣ ،

٣٩٥ ، ٤٣٠ ، ٤٦١ ،

٤٨٧ ، ٤٦٩

مدينة : لفظ سرياني : ١٤٢

المرايطون ، دولة : ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

٩٥ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٢٤ ،

٣٨٨ ، ٣٨٥

مراد بك : ٤١١ ، ٤٣٨

مراد الرابع ، السلطان العثماني : ٣٦٣

مراكش : ٨٧ ، ٩٣ ، ٢٩٨ ، ٣١٨ ،

٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢١

٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣١

٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥

٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١

٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٨

٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٣

٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٣٠٨

٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٢

٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧

٣٣٣ ، ٣٤٠ ، ٣٤١

٣٤٦ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦

٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩

٣٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠٧

٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤١٧

٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠

٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤

٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧

٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠

٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣

٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦

٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩

٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣

٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧

٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦١

٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧

٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨

مصطفى الأول ، السلطان العثماني :

٣٧١ ، ٤١٥

مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي ،

المعروف بجلبي خليفة : ٣٦٩

مصعب بن عمر : ١٤٣

مسجد السلطان سليمان : ٣٢٢ ، ٣٤٥

مسجد السلطانية : ٣٢٢

مسجد شاه زادة : ٣٢٢

مسجد الفيلين : ١٤٩

مسجد قرطبة الجامع : ١٨٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩

مسجد القرويين : ٢٤٤ ، ٣١٨

مسجد المولودة : ١٠٤

مسجد الحمدي : ٣٢٢

مسجد مطيع : ٣٧٤

المسجد النبوي : ٦٧ ، ١٢٢ ، ١٤٦

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨

٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤

٣٠٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤

المسعودي ، أبو الحسن علي : ٢٧٧

٤٠٨ ، ٤١٠

مسقط : ١٠٥

أبو مسلم الخراساني : ٤٠٣

مسوفة ، قبيلة : ٩٢

المسيحية : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨

١٩ ، ٢٠ ، ٧٧ ، ٩٦

٩٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤

١١٥ ، ١١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٥١

المسيحيون : ٨٣ ، ١٠٨ ، ١٧٢

٢٥٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥

مشهد : ٣٦٣

مصر : ١٥ ، ٢١ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٥٣

٥٦ ، ٥٩ ، ٧٦ ، ٧٩

٨٣ ، ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٥

٩٦ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١١٢

١١٥ ، ١١٨ ، ٢١٠



مجموعه خان بن تولوي بن جنكيز خان : ١١٤

مندناو ، جزيرة : ٧٧ ، ١٠٦

المنذر بن ساوي : ٤١

المنسترل : ٣٣١

المنستير : ٣٩١

المنصور ، أبو جعفر - الخليفة : ٩٠ ،

٢١٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،

٣٤٤ ، ٣٧٦

منصور بن طلحة بن طاهر : ٣٣٤

المنصورة : ١١٢

ابن منظور الإفرنجي المصري : ٢٣٢

منفوليا : ١١٦

المهاجرون : ١١ ، ٦٧ ، ١٢٢ ، ١٤٥ ،

١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،

١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،

١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٧٧

المهدي ، الخليفة العباسي : ٣٠٤ ، ٣٩٨

المهلب بن أبي صفرة : ١٩٦

موتة : ٦٠ ، ٨٣

المؤتمر الإسلامي العالمي : ١١٩

الموحدون ، دولة : ٩٠ ، ٩٢ ، ٢٧٨ ،

٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٩ ، ٤٧١

المورة ، شبه جزيرة : ٣٥٩

المورسكيون : ٣٢٠ ، ٤٨٥

الموروس : ١٠٦

موريا ، جبل : ٣٠٨

موريجانيا : ٢٥١

موريس ، جزيرة : ٢٤٨

مورميقي : ٩٨ ، ٢٧٦

موسكو : ٣٥٩

المكيون : ١٤١ ، ١٦٥ ، ١٧٠

ملاوي : ٩٨ ، ٢٥٠

الملايو : ٧٧ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ،

٢٢٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،

٢٧٦ ، ٣٣٩ ، ٣٧٧ ،

٣٧٨ ، ٣٨٠

ملتان : ٨٦ ، ٩٨

ملديبيا : ٣٧١

ملديف ، جزر : ٢٤٦

ملقا : ٩٥ ، ١٠٥ ، ٢٤٦ ، ٣٧٨

الملكانيون : ١٥

الملك الصالح الأيوبي : ١١٢

الملك العادل : ١١٢

الملك الكامل : ١١٢

الملك العرب ، لوحات : ٣٢٤ ،

٣٢٦

مليلة : ٣٨٤

المماليك : ٥٥ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٥٥ ،

٢٧٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ،

٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ،

٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،

٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٩٩ ،

٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤٣٥ ،

٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،

٤٤٣ ، ٤٤٤

المماليك البحرية : ٢٨٣ ، ٣٥٥ ، ٤١١

المماليك البرجية : ٢٨٣ ، ٣٥٥ ، ٤١١

ممتاز محل ( أرجمند بابويكيم ) : ١٠٣

محميس : ٢١٠

موسى الكاظم : ٣٦١

موسى بن نصر : ٤٦ ، ٨٨ ، ٣١٨

الموصل : ٨٥ ، ١١١

الموصل ، إسحاق : ٣٣٤ ، ٣٣٦

مولاي زيدان : ٣٨٧ ، ٣٨٨

مولاي محمد الشريف : ٣٨٩

المولوية : ٣٣٤

ميخائيل جورباتشوف : ١١٩

ميلان : ٤٠٠

الميهسجر : ٣٣١

## [ ن ]

نابليون : ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦

نابليون الثالث : ٤٨١

نادر شاه : ٣٦٤

ناصر خسرو : ٢٨١

ناصر الديروني : ٤٧١

ناصر الدين سميدوني : ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥

٤٧٥

ناصر محمد بن قلاوون : ٢٠٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦

٣٥٦

النبي ، صلى الله عليه وسلم : ٤٧

١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٦

١٥٥ ، ١٦٢ ، ٢٣٩

٢٤٠ ، ٢٧١

النبيت ، بنو : ١٥٥

النجار ، بنو : ١٥٥ ، ١٥٧

نجد : ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦

٤٦٨ ، ٤٦٩

نجران : ٢٥٤ ، ٢٧١ ، ٤٦٩

ابن النديم : ٣٣٤

النساطرة : ١٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١

النصارى : ١٥ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ١١٩ ، ١٧٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠

٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨١

٣٢٠ ، ٣٣٧ ، ٣٨٦

نصر بن الأحمر ، بنو : ٣٢٧ ، ٣٨١

النصرانية : ١٨ ، ٢٥ ، ٩٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٢٠٥

نصر الدين محمد بن همايون : ١٠٣

النصر ، بنو : ٣٧ ، ١٤٢ ، ١٦١

نظامي ، الشاعر : ٣٢٦

نهر بن قاسط ، قبيلة : ٤٥

النحسا : ٤٣٨

نهاوند : ٨٥

النوبة ، مملكة : ١٥ ، ٩٦

نورجهان ، زوجة جهانبير : ٣٧٤

نور الدين محمود : ١١١ ، ٢٠٠

النورمان : ٩١ ، ٣٧٥

النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد

الوهاب : ٣٣٢ ، ٤١٠

النيجر ، نهر : ٩٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١

نيجيريا : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٥١ ، ٣٠٦

نيسابور : ٨٥

نيكاراجوا : ٣٤

النهل : ٩٦ ، ٢١٤

نيويورك : ٤٧٠

## [ هـ ]

هافسبورج : ٣٧٥ ، ٤٨٢

الحمد العربية : ١٠٥  
 الحمد كوش ، جبل : ١٠٢ ، ٣٧٥  
 الحمد كوش : ١٠٣ ، ١٠٥  
 هنري ليراس : ٣٢١  
 هنري جورج غارس : ٣٣٨  
 هنري هانمان اللبني : ٤٦٧  
 هو : ٤٢٨  
 هولاكسو : ١١٣ ، ١١٥ ، ٢٢٢ ،  
 ٣٨٨ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٢٢٤  
 هولندا : ٥٧ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٧٨  
 الهولنديون : ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،  
 ٣٨٠ ، ٣٧٨ ، ١٠٧ ، ١٠٦  
 الهون : ١٠٢  
 الهونشتاوم : ٣٧٥  
 الهياطة : ٧٥  
 ابن الهيثم : ٢٣٠ ، ٢٣١  
 هيردوس : ٢٠  
 هيطل : ٧٥  
 الهيسالاي : ١٠٠  
 هيوكاييه ، آل : ٥٧ ، ٣٧٥

## [ ٩ ]

الواصل ، الخليفة : ٨١ ، ٣٩٤  
 وادي بجرده ، نهر : ٣٩١  
 وادي درعة ، نهر : ٣٨٤  
 وادي العقيق : ١٤٩  
 الوادي الكبير ، نهر : ٣١٩  
 وادي لكنة : ٨٨  
 وادي المغارن : ٣٨٦  
 واسط : ٣١٢

هارون الرشيد : ٢٢٨ ، ٢٥٠ ، ٣١٣ ،  
 ٣٣٦ ، ٣٩٦  
 هاشم ، بنو : ٤٢ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٢٦٩ ،  
 ٤٧٩  
 هاشم بن عبد مناف : ١٤٦  
 هراة : ٨٥ ، ٣٢٥  
 هرمز : ١٠٥ ، ٢٧٦ ، ٣٦٣ ، ٣٧٧  
 ابن هشام : ١٧١  
 هلال ، بنو : ٣٤١ ، ٣٨٨ ، ٤٣٠ ،  
 ٤٥٨  
 هلال الصافي : ٣٩٦  
 الحلاليون : ٣٩٠  
 همدان : ٢٧٢ ، ٣٦٣  
 الحمد : ٩٢ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،  
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥  
 ١٢٤ ، ١٩٢ ، ٢١٩ ،  
 ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ،  
 ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ،  
 ٢٥٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،  
 ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ،  
 ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ،  
 ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٥٨ ،  
 ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٧٤ ،  
 ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،  
 ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٩ ،  
 ٤٠١ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ،  
 ٤٤٧ ، ٤٤٨  
 الحمد الإسلامية : ٥٧  
 الحمد الشرقية ، جزر : ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،  
 ٣٨٠ ، ٣٩٤  
 الحمد الصبية : ٢٣٣ ، ٣٨٠

الرموك : ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤  
 بردجرد الثالث : ٨٦  
 يزيد بن أبي سفيان : ٨٣  
 يزيد بن عبد الملك : ١٩٥  
 يزيد بن معاوية : ٥٣ ، ٦١  
 يسوع : ٢٠  
 اليسوعيون ( الجزويت ) : ٢٢٩  
 اليمريون : ٥٧  
 يعقوب قاضي الرشيد ( أبو يوسف ) :  
 ٢٥٠  
 اليمين : ١٣٩ ، ٢١٩ ، ٢٤٨ ، ٢٧١  
 ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧  
 ٣٢٣ ، ٣٦٩ ، ٤٥٨  
 ٤٦٤ ، ٤٦٩  
 اليمنية ، اليمينيون : ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٩٥  
 ١٩٦ ، ٤٥٨  
 يسع : ٣٥  
 اليهود : ١١ ، ١٥ ، ٦٧ ، ١٢٢  
 ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢  
 ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥٠  
 ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨  
 ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣  
 ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١  
 ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٧  
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١  
 ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤  
 ٢٥٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢  
 ٤٤٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣  
 ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧  
 اليهودية : ١٥ ، ٢٠  
 يوان ، دولة : ١١٤ ، ١١٧

واقف ، بنو : ١٧١  
 وائل ، بنو : ١٧١  
 ابن وحشية : ٣٢٣  
 ابن الوردى ، زين الدين عمر : ٤١٠  
 الوشم : ٤٦٥  
 وطاس ، بنو : ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤  
 ٤٨٤  
 ولاشيا : ٣٧١  
 الولايات المتحدة : ٤٩ ، ٥٠ ، ١١٨  
 ٤٥٣ ، ٤٦٩  
 وليام لين : ٤٠٥  
 الوليد بن العاص : ٤٤  
 الوليد بن عبد الملك : ٨٨ ، ٣٠٤  
 ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠  
 ٣١١ ، ٣٧٤ ، ٣٩٥  
 الوليد بن المغيرة : ٣٦٩ ، ٣٢٥  
 الوندال : ٢٣٤  
 وهدان : ٤٧٣  
 وهران : ٢٨٢ ، ٣٩٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩  
 ٤٨٠

## [ ي ]

اليابان : ٢٥٦  
 اليابانيون : ١٠٦  
 البارجي : ٤٥٠  
 يافا : ٤٣٦  
 يارب : ١٤٢ ، ١٥٨ ، ١٥٥ ، ١٦١  
 يحيى أو يوحنا : ٢٠  
 يحيى حقي : ١٤٦  
 يحيى بن معين : ٥٤

يوسف المريمى ، أبو يعقوب : ٣٨١  
يوغوسلافيا : ٧٦ ، ١١٨  
يولوج القرطبي : ١٧٣  
يوليوس قيصر : ٤٢ ، ٥٣  
يون - نان ، مقاطعة صينية : ١١٧ ،  
١١٩  
اليونان : ٨٥ ، ٩٢ ، ٧٠٧ ، ٧١٩ ،  
٣٣٤ ، ٣٥٩ ، ٤٤٩  
ابن يونس الفلكي : ٢٣٠ .

يوحنا الدمشقي : ١٧٢  
يوحنا ذو الصليب : ٢٠٧  
يوحنا النقيوسى للمصرى : ١٧٢  
يوسف الأول القنى باقه ، سلطان  
غرناطة : ٣٧٤  
يوسف باشا : ٤٣٦  
يوسف البوهلى : ٥٤  
يوسف بن تاشعوز : ٩٣ ، ١١٠  
يوسف الكندى ( أبو يعقوب ) : ٣٣٤

## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة
١٣	الفصل الأول : الإسلام والمسلمون في التاريخ
٦٥	الفصل الثاني : عالم الإسلام
٦٧	ميلاد الجماعة الإسلامية
٦٨	قيام دولة الجماعة الإسلامية أيام أبي بكر وعمر
٧٢	الجماعة الإسلامية والدولة الإسلامية
٧٥	انتشار الإسلام
٧٧	الأمة أساس الوجود الإسلامي
٧٩	الجماعة الإسلامية الأولى : مجتمع من رجال أحرار
٨٢	امتداد العالم الإسلامي نحو الشرق
٨٦	أثر فتح إيران وبلاد الشرق في تكوين الجماعة الإسلامية
٨٧	امتداد العالم الإسلامي نحو الغرب
٩٢	امتداد الإسلام في أفريقيا المدارية والاستوائية
٩٨	امتداد الإسلام في آسيا الوسطى والجنوبية والشرقية
١٠٧	سير الإسلام لا يتوقف
١٠٩	الإسلام يخرج ظافرا من كل الأزمات الكبرى التي مرت به
١١٧	الجماعات الإسلامية في عالم اليوم
١٢١	خلاصة
١٢٧	مراجع مختارة

الفصل الثالث : الجماعة الإسلامية الأولى في المدينة	١٣٥
تمهيد	١٣٧
توثيق الصحيفة	١٣٨
المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها	١٤٠
الظروف المباشرة التي مهدت لهجرة النبي ﷺ	١٤٢
الخطوات الأولى لإقامة الجماعة الإسلامية في المدينة	١٤٥
إنشاء مسجد الرسول ﷺ وأهميته في بناء الجماعة	١٤٦
عمران المدينة	١٤٨
مبدأ المؤانعة	١٤٩
ميلاد دستور الجماعة الإسلامية	١٥٠
كيف نشأت الوثيقة	١٥٢
نص دستور المدينة	١٥٥
ملاحظات على النظام العام للجماعة	١٦٣
رسول الله ﷺ يتصرف دائما تصرفا قانونيا	١٦٤
إدارة الرسول ﷺ للمدينة	١٦٦
إخلاص الناس لجماعتهم إخلاص لأنفسهم أيضا	١٦٨
حرية الناس هي أساس الحياة في الجماعة	١٦٩
أثر الحرية والتسامح في انتشار الإسلام	١٧٢
الصورة العامة للجماعة الإسلامية الأولى في المدينة	١٧٣
خلاصة	١٧٥
مراجع مختارة	١٨١
الفصل الرابع : ملاحم المجمع الإسلامي	١٨٥

الطابع الغالب على المجتمع الإسلامى .....	١٨٧
بناء المجتمع .....	١٨٩
المجتمع الإسلامى مجتمع لا طبقى .....	١٩٢
الإسلام هو أساس اللاطبقيّة .....	١٩٣
جماهير الناس ونظم الحكم التى قامت فى العصور الوسطى .....	١٩٤
أثر ذلك فى نفسيات الجماهير الإسلامية .....	١٩٧
أفراد الشعب يصلون إلى مراكز القوة عن طريق العلم والدين .....	١٩٨
المتصوفة ووظيفتهم السياسية والاجتماعية .....	٢٠٠
ظهور طائفة أصحاب الكرامات ومدعى الولاية ودلائله الاجتماعية .....	٢٠٢
الصوفية والفقهاء .....	٢٠٧
حياة المدن .....	٢٠٩
أهل الحرف ونقاباتهم .....	٢٧٤
أحوال الزراعة والمجتمع الريفى .....	٢٢٢
العالم الإسلامى عالم متعلم مثقف ، العلم والعلماء والكتب والمكتبات ..	٢٢٦
سلامة الأسرة فى المجتمع الإسلامى .....	٢٣٣
مراتب الناس فى المجتمع .....	٢٣٦
المرأة فى المجتمع الإسلامى .....	٢٣٨
المسلمون جميعاً أمة واحدة .....	٢٤٤
أهل الذمة فى المجتمع الإسلامى .....	٢٤٩
خلاصة .....	٢٥٥
مراجع مختارة .....	٢٥٩
الفصل الخامس : التنظيم الاقتصادى .....	٢٦٥
تمهيد .....	٢٦٧
التجارة والتجار .....	٢٦٩



٢٧٣	النشاط التجارى فى العالم الإسلامى .....
٢٧٥	طرق التجارة ومراكزها .....
٢٧٧	المعاملات المالية .....
٢٨٣	الدول الإسلامية والاقتصاد .....
٢٨٦	خلاصة .....
٢٨٩	مراجع مختارة .....
٢٩٥	الفصل السادس : الفنون عند المسلمين .....
٢٩٧	الفنون تعبير عن الأحاسيس والمشاعر والمعاني .....
٢٩٩	ميلاد الفنون الإسلامية .....
٣٠١	الفنون الشعبية والفنون المصقولة .....
٣٠٢	ميلاد فن العمارة عند المسلمين — المساجد الأولى .....
٣٠٦	المساجد تجمع بين عنصرين متناقضين : البساطة والجلال .....
٣٠٩	الفن الأموى فى المشرق .....
٣١٢	العمارة فى العصر العباسى .....
٣١٥	أهم مدارس العمارة الإسلامية بعد ذلك .....
٣٢٢	الفنون الصغيرة عند المسلمين .....
٣٢٤	التصوير والنحت عند المسلمين .....
٣٢٧	الموسيقى عند شعوب الإسلام .....
٣٣٣	العلم الموسيقى عند المسلمين .....
٣٣٧	ممارسة الموسيقى .....
٣٤١	فنون أخرى .....
٣٤٢	خلاصة .....
٣٤٨	مراجع مختارة .....
٣٥٣	الفصل السابع : عصور الركود .....

٣٥٥	تمهيد .....
٣٥٧	خمسة دول تتقاسم بلاد الإسلام في مطالع العصر الحديث .....
٣٥٨	الدولة العثمانية .....
٣٦١	دولة الصفويين .....
٣٦٥	العرب والأتراك .....
٣٧١	اضمحلال الدولة العثمانية .....
٤٨٤	إمبراطورية مغول الهند بعد السلطان أكبر ( ١٥٥٦ - ١٦٠٥ ) .....
٣٧٧	دولة المغول والتدخل الغربي .....
٣٨٠	بلاد المغرب وما قام فيها من الدول .....
٣٨٢	البرتغاليون والإسبان في المغرب .....
٣٨٤	السعديون الفلاحيون ( ٩٦١ - ١٠٦٩ هـ / ١٥٥٤ - ١٦٥٩ م ) ...
	الأحوال في إفريقية ( تونس ) والمغرب الأوسط ( الجزائر ) حتى القرن الثامن عشر
٣٨٩	الميلادي .....
٣٩٢	التدهور السياسي وأسبابه .....
٤٠٠	قيام المدن في الغرب ودوره في خروج الشعوب من ظلمات العصور الوسطى .....
٤٠٧	مجتمع فقير تسوده أخلاق الفقر .....
٤٠٨	الركود الفكري .....
٤١٤	خلاصة .....
٤١٩	مراجع مختارة .....
٤٢٥	الفصل الثامن : لمصر النهوض .....
٤٢٧	تمهيد .....
٤٦٠	بدء الجهاد وازدهار الدرعية في ظل الدعوة .....
٤٦٢	أقسام تاريخ السعودية .....
٤٧٤	الاحتلال الفرنسي للجزائر .....
٤٧٦	الغزو الفرنسي للجزائر .....
٤٨٩	الكشاف .....

رقم الايداع : ٨٩ / ٨٠٩٤

الترقيم الدولي : ٥ - ٤٣ - ١٤٧١ / ٩٧٧



مطابع الزمراء للإعلام العربي

١٤ شارع الطيران - رئيسة الجمهورية

مطبعة نصر - ت ١٩٨٨ - ٢٦١١٠٦

الطبعة